كلمة رئيس جامعة سعد دحلب – البليدة .

أ.د/ عبد اللطيف بابا أحمد .

إنّه لمن دواعي الشرف والإعتزاز والفضل أن تسجل جامعة سعد دحلب البليدة هذه الثمرة العلمية الأكاديمية القيمة المتمثلة في مجلة– الصوتيات– المحكمة في عددها – الثالث – بإسم مخبر الصوتيات العربية الحديثة بكلية الآداب والعلوم الإجتماعية ، وإننا إذ ننوّه بهذا الإنتاج العلمي القيم، فإنّنا نشجع ونحث على توسيعه في جميع التخصصات العلمية والتقنية والإنسانية بجامعتنا الرحبة .

رئيس الجامعة

البنية الصوتية للألفاظ العربية على ألسنة طلاب معاهد اللغة العربية

الأستاذ/عزالدين مصطفى جلولي.
المركز الجامعي بالمدية.

المقدمـة

يكتسي موضوع المداخلة أهميته من أهمية النطق في الغايات التعليمية العامة الأربعة لتعليم اللغة أية لغة: النطق والسماع السليمين، والكتابة الصحيحة، والفهم والإفهام غير المشوبين. وهذه الأهداف الأربعة كما ترون تتمحور حول الوظيفة التواصلية لظاهرة اللغة، كنظام من الرموز الخطية والصوتية ذات الدلالة التي يعبر بها قوم من الأقوام عن حاجاتهم.

كان ولا يزال اللحن مشكلة تتسرب إلى ألسنة الناس باختلاف شعوبهم وقبائلهم ولغاتهم، حتى غدا اللحن ظاهرة اعتيادية عبّر عنها بعض الألسنيين بالتحول، كخاصية من خصائص الدال في هذا النظام الرموزي؛(1) فطبّعت لغات العالم نفسها مع هذه الانزياحات المتمادية واعتبرتها "شرا لا بد منه".

وكان من حسن حظ اللغة العربية، ولا تعصب هاهنا ولا نرجسية، أن ارتبط بنيان ألفاظها إعرابا وصوتا وكتابة بالوحي، الذي حمل من السماء إلى الأرض رسالة هداية بلسان عربي مبين، عزّز مكانة اللسان بما للإسلام من خصائص الدوام والبقاء.

إن هذه الظاهرة، ظاهرة ارتباط العربية لغة بالقرآن عقيدة، منح هذه اللغة ميزة لولاها لما بقي للبنية الصوتية للألفاظ العربية على ألسنة الناطقين بها باقية، ولكان أهل هذه اللغة قد اختلفوا على أنفسهم في توصيفها صوتيا اختلافا سيؤدي بهم، في أحسن الأحوال، إلى إقرار تعددية صوتية للحرف العربي الواحد، كما نلحظه اليوم فاشيا في اللهجات المتنوعة على امتداد العالم العربي من المحيط إلى الخليج.(مثال ذلك حرف القاف، فهو في السودان غينا، وفي اليمن ڤافا.وحرف الغين في وسط الجزائر – الجلفة وماحولها– ينطق قافا...).

ولأمر ما نشأت الصوتيات العربية في كنف الإعجاز، فغدا علماء اللغة قراء ومقرئين، وعلماء القراءات نحاة ولغويين، في تماه باه يوحي بالنسب الشريف بين هذا وذاك؛ فحفظ علم التجويد والقراءات الحرف العربي صوتا،

وحما الحرف العربي الصوت القرآني رسما، في تناغم وظيفي ما انفكت عراه إلا بتباعد الثقافة الدينية عن الثقافة الإنسانية منذ "عصر التنوير" وعلمنة التعليم.

ولا يزال حبل التحديات الداخلية والخارجية التي تواجه الصوت العربي على الجرار، ولا يزال الرصد والبحث والتقويم ديدن العاملين في مجال اللسانيات والصوتيات، يسدون ثغرة هنا أو هناك حينا، ويتسع الخرق على الراقعين أحيانا.

<u>أولا_ تحديد الإشكالية وبيان أهميتها</u>

تتموقع مقاربة البنية الصوتية للألفاظ العربية على ألسنة طلاب معاهد اللغة العربية بين ثلاثة حقول معرفية هي على التوالي: علم الأصوات، وعلم التجويد والقراءات، وعلم ديداكتيك اللغات، أقانيم ثلاثة قادمة من علوم أخرى أكثر شساعة هي: علوم العربية، والعلوم الإسلامية، والعلوم التربوية. وهي علوم تزاوجت عبر التاريخ خير زيجة، وأنجبت نعم الخلف، حمدت الحياة العقلية لسالفينا غب سراهم، فاستضاؤوا وأضاؤوا، ولا يزال نورهم يسعى بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا...

وها نحن أولاء نعالج من جديد مشكلات عربيتنا في ضوء الفلسفة الثقافية التي أسسوها، والتي ربطت بلا خوف أو ضجر بين تلك الأقانيم الثلاثة في تعليم العربية وفي تقويم النطق بها، فما رانت على ألسنتهم عجمة ولا عي، ولا استحبوا لأجيالهم عوجا ولا أمتا، في حين تشهد البنية الصوتية للألفاظ العربية على أفواه الناطقين بها ردة صارخة، تزداد إيلاما عندما تستفحل المشكلة لتصيب طلاب معاهد اللغة العربية وآدابها في مستوى التعليم العالي؛ لنلفي الصوت العربي صوتا مشوها تتشابك فيه المخارج وتتداخل مع أصوات أعجمية لها خصائص فارقة عن الأصوات في لغتنا.

عندما مارست تدريس مقياسي التيارات الفكرية والمدارس النقدية العام المنصرم، كنت أختبر– في نقاشات مقصودة– قدرة طلاب العربية، بمعهد اللغات وعلوم الإعلام والاتصال، على الاتصال والتواصل بلغتهم الأم، لاحظت مشكلة حقيقية تحول دون امتلاك هؤلاء للقدرة المطلوبة في الحديث بلغتهم، لغة التخصص الذي هم فيه، مشكلة باتوا يعون وجودها ولا يدركون فعليا كيف الخلاص منها؛ حتى باتوا يرتضون احتقارها في تكوينهم اللغوي، وهم الذين سيكونون بعد حين أساتذة لهذه اللغة في مراحل تربوية حساسة في حياة الأجيال القادمة.

كنت خلال عامي السالف شديد الإصرار على تقويم التشوهات الصوتية التي ألحظها أثناء حديثي إلى الطلاب داخل الصف وخارجه، وكنت في عملي ذاك أتلقى من طلابي أولائك القبول الحسن، وأتلمس منهم انعطافا صادقا خجلا إلى الصحيح من النطق للألفاظ العربية، عدا قلة قليلة من الطلاب عللت لحنها ذاك تعليلا لا يخلو من طرافة، كما تلحظون ذلك في جواب إحدى الطالبات– وكانت تلقي عرضها على زملائها وزميلاتها داخل القسم – عندما نبهتها إلى خطأ "الغنغنة" كلما نوّنت كما في الأداة "إذاً"، فتلفظهاهكذا "إذغّ"، فردت علي قائلة: هذا من اللهجات العربية الدارجة في بعض نواحي المدية"!!

ومن جملة هذا التغير في البنية الصوتية للألفاظ العربية ما سجلته من أمثلة حية كانت تطرق سمعي، نحو:

أ – لفظة "الدّرس": فمن خصائص الدال أنها حرف يخرج من طرف اللسان ومن أصول الثنايا العليا، (2) ومن خصائصه أيضا انه حرف مستفل غير مستعل،(3)، ولكنه على ألسنة كثير من الطلاب، وخاصة القادمين من الساحل الأوسط حرف مستعل يشبه الضاد المطبقة؛ فتكون البنية الصوتية لهذا اللفظ على ألسنتهم هكذا: "الضَّرس"، وربما اختلطت الضاد بالحرف اللاتيني (D)، فردمت الهوة بينهما، رغم الاختلاف والتباين.

وهذه المشكلة واقعة أيضا لدى سكان الخليج العربي عندما يلفظون اسم مدينة "دبي"، فهي تخرج من أفواههم هكذا: "ضُبي"!!

ب –صوت الضاد يكاد يكون غائبا كليا في النطق، رغم حضوره في الرسم، وربما أثر غيابه نطقا على أسماع الطلاب فاختل الحس الإملائي لديهم في كلمات مملاة عليهم حوت ضادا، لكنها نطقت ظاء فكتبوها ضادا حينا وظاء حينا آخر. وهو ما كنت ألحظه في أوراق الإجابات عن الامتحانات وفي الموضوعات التي يعدون فيها أوراقا.

من ذلك مثلا لفظة"ضبابية"، فهي عندهم نطقا "ظبابية"، وعندهم كتابة بين الضاد تارة والظاء تارة أخرى. ولن تستطيع بسهولة أبدا أن تنال نطقا سليما لهذا الحرف حتى من أولائك الذين يدركون أنها تكتب بالضاد لا بالظاء، وتلك مشكلة تطّرد لدى التلاميذ وطلاب الجامعات في القطر الجزائري برمته. في وقت تحولت لدى شعوب الخليج الظاء ضادا، فتحدثوا بـ"أبوظبي" هكذا "أبوضبي"!!

ج– ومن أمثلة ذلك أيضا كلمة "السلام" التي ترد كثيرا على ألسنة الطلاب عندما يلقون التحية، فتراهم لا يحسون مطلقا بالفارق فيها بين النطق العامي والنطق الفصيح، سواء أألقوا التحية داخل الصف أم خارجه؛ فالسين مستفلة منفتحة، تنطق عندهم كالصاد المستعلية المطبقة، واللام في "السلام" حرف مرقق في الأصل مغلظ إذا كان مفتوحا وسبق بصاد كـ(الصلاة) أوظاء كـ(اطّلع) أوظاء كـ(ظلم) كما هو المعتمد في قراءة ورش عن نافع، لكنها في لفظ (السلام) تأتي غالبا عند طلابنا مغلظة، ربما بفعل السين المتحولة إلى صاد. كما انجر عن تغير صوت السين صادا تغير صوتي آخر في الميم، فأخذت صفة الشدة رغم رخاوتها ومثيلاتيها في (عمرو نل).(4)

ذلك بعض من الأمثلة التي تطرق سمعك وأنت تجول في أروقة المعاهد العربية وأقسامها، إن كان سمعك مما تروّى بالصوت القرآني والموسيقى العربية، وإلا فلن تجد في أصواتهم عيبا ما داموا يتحدثون بألفاظ تراها موجودة في المعاجم العربية.

ثانيا_ منهجية مقاربة الإشكالية

لم يكن رصدي لظاهرة التشوه الصوتي في بنية الألفاظ العربية على ألسنة طلاب قسم اللغة العربية رصدا يتدرع بتقنيات البحث الميداني الضروري لمثل هذا العمل، على نحو الاختبارات الخاصة وأدوات التسجيل وأجهزة قياس الذبذبات... وما إلى ذلك من وسائل لازمة في تحديد المشكلة، ولكنني كنت في عملي ذاك دائم الرصد والملاحظة، مقتنعا بحاجة ماسة إلى دراسة ميدانية جادة لهذه الظاهرة؛ للخلوص بعدها إلى نتائج علمية ذات إحصاءات مضبوطة.

لذلكم كله تتطلب منهجية مقاربة هذه الإشكالية منهجا وصفيا يعتمد آليات الرصد المسلحة بتقنيات المخابر الصوتية وبما يلقيه علم فيزيولوجيا الصوت وعلم فيزياء الأصوات من تجهيزات تصلح لبلورة تصور محدد، يراعي توزع الوحدات الصوتية الصغرى "الفونيم" (Phonème)،(5)على محور الأبجدية العربية في كل توضعاتها الإعرابية والموقعية إن صدرا أو حشوا أو كسعا.

ومن اللازم هنا أن تعتمد الدراسة على ما لدى علم الأصوات الحديث من آلات، من ذلك ما يكمل ملاحظة الأذن والعين، أو ما يعرف بـ"البلاتوجرافيا"، أي طريقة "الأحناك الصناعية" (Palatography) (6)، وهناك "الكيموجراف" (kymograph)، الذي هو عبارة عن «اسطوانة تتحرك بدرجة منتظمة وهناك سن تدور حول هذه الاسطوانة، فإذا نطق المتكلم من مكان معين تحركت السن حركات معينة تبعا لطبيعة ما ينطق به، وهذه السن تسجل أثر النطق في خطوط بعضها متموج، وبعضها كثير الذبذبات وهكذا».(7) وهناك "الاوسويلوجراف" (Oscillograph)، الذي يشبه جهز التلفاز، لكنه يلقى الإشارات من ميكروفون أمام فم المتكلم، ويحول الجهاز الموجات الصوتية إلى موجات كهربائية تظهر على الشاشة.

ولعل من الأجدى تدعيم هذه المنهجية في العمل بتقنية لم تر النور بعد، تقنية حدثت عنها شيخ قراء الشام المقرئ محمد كريّم راجح، فأقرها شريطة أن يكون معها مشرف مجاز في علم القراءات. والآلية المقترحة عليه كانت تهدف إلى إيجاد عيار ثابت لتقويم القارئين للقرآن، ولا بأس بها في تقويم الأصوات العربية على ألسنة طلابها. ومضمون الفكرة المقترحة أن يسجل المصحف مرتلا بصوت قارئ مجيد، يتلقى قراءته علماء القراءات بالقبول ويجيزونها، ويرفد التسجيل بجهاز حساس آخر يحوّل الصوت المقروء إلى خطوط بيانية وأشكال خاصة ترسم طبقات الصوت وتضبط المخرج؛ كيما يصار بعدها إلى وضع هذا الجهاز لاختبار سلامة النطق لدى طلاب العربية وتقويم أدائهم الصوتي.

ولقد شهدت في لبنان بعض الوُرش التي تهدف إلى تدريب الصحفيين –الذين توكل إليهم قراءة النشرات الإخبارية في الإذاعة والتلفزيون– على القراءة الصحيحة، فيستخدم اختبار لطيف لقياس مهاراتهم القرائية من خلال قراءتهم لسورة الفاتحة؛ لعلمهم بأن قراءة هذه السورة يتطلب قدرة ليست متيسرة لكثير من الناطقين بالعربية. ولهذا الأمر أيضا يطلب بعض المقرئين من طلابهم تلاوة سورة الفاتحة صدر كل جلسة تعلّم، كتدريب إضافي على رياضة الفك، الذي تتموضع عليه جملة من المخارج الصوتية. وبين الفك ورياضته تنبثق الأصوات صافية من مخارجها، ولهذا قال ابن الجزري في منظومته في علم التجويد:

وليس بينه وبين تركه إلا رياضة امرئ بفكه

ثالثا_ الأجوبة المقترحة لحل الإشكالية

إن الحديث عن حلول لمشكلة كهذه يمر عبر عدة أقنية، لا لشيء سوى لأن الطبيعة البنيوية للمشكلة تستدعي ذلك. فليس الحل مرهونا بالمعلم وحده، وليس الحل مطلوبا فعله من المتعلم دون غيره، وليس الحل في إقرار مقياس دراسي لهذا الموضوع فقط، بل الأمر موكول حله إلى هؤلاء جميعا، كل بحسبه.

فعلى المعلم، وهو القناة الأولى المتحملة لهذا الواجب أن يكون نموذجا واقعيا في مراعاة سلامة البنية الصوتية للألفاظ العربية عندما يقرأ أو يتكلم، وأن يكون موجها تربويا عندما يرى اللحن فاشيا على ألسنة طلابه قارئين أو متحدثين. ولا تمنعنّه أستاذيته من إخضاع نفسه إلى تدريب مستمر وتقويم دائم، وحبذا لو كان هذا الأمر بإشراف إدارة المعاهد التي فيها يعلمون.

كما أن هناك دور آخر على الطالب، وهو القناة الثانية في هذا المشروع، يبادر فيه من تلقاء نفسه وبإرشاد من أستاذه، فيحاول تلمس الخلل في نطقه حاملا نفسه حملا على ذلك ولو كان فيه بعض المشقة، فإحساس الطالب بالمشكلة وإيمانه بهذا الحل يدفعانه إلى اتخاذ ما يلزم من إجراءات لتدريب نفسه على النطق الصحيح باللغة العربية، كما يفعل عندما يحاول التحدث باللغة الفرنسية أو الإنجليزية.

وثالث هذه الأقنية هو البرنامج الدراسي داخل معاهد اللغة والأدب العربيين، المنوطة بها إدراج مقياس جاد وواع للتجويد وأصول القراءة، لا الاكتفاء بمقياس التجويد وحده، إذ لا يرقى هذا المقياس بأهدافه عادة خارج نطاق أحكام النون الساكنة والتنوين، وأنواع الإدغامات والمدود وغيرها مما يبعد بعض الشيء عن التطبيق الفعلي للأصوات العربية مما نلفيه عند متعلمي القراءة القرآنية،(8) التي لا يزال يرويها قارئ عن مثله إلى منتهاه وهو الله عز وجل.(9)

ولقد بادرت وزارة الشؤون الدينية والأوقاف مشكورة بتأسيس معهد القراءات بالعاصمة، وهو تجربة فريدة في تاريخ الجزائر المعاصر، بدأت نتائجه تظهر للناس، وإن كانت لا تزال حبيسة السلك الديني والمساجد. وما نريده لمعاهد العربية أن تنفتح أساتذة وطلابا على مثل هذه التجارب بغية اكتساب مهارة النطق الصحيح للأصوات العربية.

الخاتمــة

أود تسجيل النقاط التالية في ختام هذه المداخلة:

أ_ من الأهمية بمكان لتطوير تعليم اللغة العربية وآدابها للناطقين بها والمتخصصين فيها إيلاء أصالة الصوت العربي العناية التي يستحقها، وذلك من خلال ربط الدراسات العربية بعلم التجويد والقراءات ربطا منتجا، كيما يتمكن خريجو هذه المعاهد من امتلاك مهارة الصوت المقرأن، ولا يكون ذلك إلا بأن يفرض على طلاب العربية تحصيل إجازة في تلاوة القرآن الكريم على يد قارئ مجاز، والطالب وأستاذه في ذلك سيان.

ب_ أدعو مؤتمرنا هذا إلى تبني توصية في بيانه الختامي بضرورة الأخذ بما جاء في النتيجة المذكورة أعلاه، ومن المطلوب أيضا أن ترفع توصيات المؤتمرين إلى القائمين على التعليم العالي ومخططي مناهجه في الجزائر أولا وفي بلدان الاتحاد المغاربي ثانيا، كي يأخذ تطوير العربية مجراه أسوة بتعليم اللغات الأجنبية عند أهلها.

ج_ من المؤسف حقا أن يكون حل مشكلة تشوه البنية الصوتية للألفاظ العربية على ألسنة طلاب معاهد اللغة والأدب منوطا فعله بمن يمتلكون هذا الحل وهم عنه مبعدون، وأقصد تحديدا أساتذة الشريعة الإسلامية الجامعيين، الذين يعدون في الجزائر بالعشرات، ولكنهم ممنوعون من التدريس الدائم في الجامعات، رغم مؤهلاتهم العلمية، لأمر لا نعلم مغزاه؛ فليس اعتباطيا ألا تتعدى مناصب العلوم الإسلامية في الجامعات الجزائرية كلها أصابع اليدين في أحسن التقديرات، وعلماء الشريعة عندنا يحصون بالعشرات، وحاجات المعاهد إليهم تعد بالمئات.

فرفعا للغبن عن العربية وعن هذه الشريحة من الناس نطالب– من هذا المنبر المحترم– المسؤولين الذين اتخذوا هذا القرار، الذي سيؤدي إلى تفريغ الجامعات الجزائرية من الثقافة الإسلامية كما هو الشأن في تونس الشقيقة، أن يتقوا الله في هذه اللغة وفي هذا الدين، وان يفوا ثوابت الأمة الجزائرية حقا كما وفاها الشهداء الأبرار كامل حقها. وفي ذلك فليعمل العاملون.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش

(1) فرديناند دوسوسير: دروس في الألسنية العامة، ترجمة الدكتور صالح القرمادي وآخرون، ص 120، الدار العربية للكتاب، 1985م.

(2) عبد الفتاح القاضي: الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، ص 390، ط3، مكتبة السوادي، جدة 1411هـ/ 1990م.

(3) المرجع السابق، ص392.

(4) المرجع نفسه.

(5) الفونيم: "هو أصغر صورة صوتية تصلح في التحليل الألسني، وتبعث صورة الفونيم اختلافات صرفية ونحوية ومفهومية ودلالية...(في ضربتُ، ضربتَ، ضربتِ: تحمل التاء المتحركة معنى الشخص أي

المتكلم والمخاطب والغائب ومعنى الجنس أي المذكر والمؤنث)". يراجع: د. ريمون طحان: الألسنية العربية، ج1 ص62، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1981م.

(6) د. محمود السعران: علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، ص 107،دار النهضة العربية، بيروت (؟).

(7) المرجع السابق، ص 109.

(8) القراءات القرآنية: "علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة". يراجع: د. كامل موسى ود. علي دحروج: التبيان في علوم القرآن، ص342، ط2، دار بيروت المحروسة، بيروت 1415هـ/ 1995م.

(9) د. محمد الزحيلي: مرجع العلوم الإسلامية، ص 149، ط2، دار المعرفة، دمشق 1413هـ/ 1992م

مراتب الصوت اللغوي عند القدامى(الفخر الرازي نموذجا) .

الأستاذ : زغوان أمحمد.

إن هناك جملة من الدراسات اللغوية الحديثة المعاصرة ترفع ألوية ولافتات عريضة تعمل على التنظير لواقع الدرس اللغوي العربي بنية إعادة إنتاج التراث وقراءته قراءة معاصرة ناخلة، وبمستوى حداثي تفرضه طبيعة العصر والحياة بعيدا عن القراءات التبجيلية التي بقيت طوال الوقت تعيش في جلباب الآباء، وتنظر بعيون الأسلاف.

إلا أن هذا لا يمنعنا من القول أن هذا المضمون المشار إليه في هذا الاستهلال لا يعني إدارة الظهر للدرس التراثي بل على العكس يجب أن يكون حافزا لنا يجعلنا نعيد قراءة موروثنا الثقافي، ويطبّع علاقتنا معه حتى نضع أقدامنا على أرض صلبة ونضمن حدا راتبا من الثبات يعصمنا من الزلل في عالم المتغيرات والفرضيات العلمية المستحدثة التي كثيرا ما أصبحنا نلوكها دون أن نتمثلها، أو نصنع منها شيئا ذا صلة بواقعنا الفكري وخصوصيتنا الثقافية، خاصة وأن هذه المدارس الحديثة هي بنت ظروف وبيئة وثقافة مختلفة شئنا أم أبينا، وإن كنا لا ننكر توافرها على جانب مهم من المنجزات الإنسانية الحيادية القيم.

لهذا الغرض بدا لي أن أسهم بهذا العرض المتواضع، وأن أدل به على باب من أبواب الدرس العربي التراثي الذي أتصور أنه يشكو غربته بين أهله وناسه، لأن الكثير من القضايا التي أثارها القدامى في مباحث الدرس اللغوي لا زالت طي الإغفال تنتظر من ينفض عنها غبار رفوف المكتبات ، ويبعث فيها الحياة من جديد، إلا أني أخاف أن يكون سبب هذه الغفلة ضعف زادنا المعرفي في التعاطي الواعي والفاهم لما تركه أجدادنا من بحوث وعلوم ومعارف تخص هذا الشأن، ورحنا نغطي على هذا القصور بالجري واللهث وراء مناهج نعيش نتائجها في غيبة من مقدماتها، ونرضى أن نلعب دور المستهلك لا المنتج، والتلميذ لا الأستاذ، والمتلقي لا المعطي. واليد العليا خير من اليد السفلى .

وهو الهاجس الذي عبر عنه الأستاذ إدوار سعيد عندما يحيل على ما يساوره من شك في الحالة العربية على ما هي عليه من نسخ مباشر (ما أن يقرأ الواحد كتابا من تأليف فوكو أو غرامشي حتى يرغب في التحول إلى " غرامشوي " أو " فوكوي " .. نحن لا نزال تحت تأثير الغرب من موقع الدونية والتلمذية، . إلى أن يقول .: تأمل العدد الكبير من الأفراد في شمال إفريقيا في المستعمرات الفرنسية السابقة ممن يكتبون، وكأنهم تلامذة فوكو أو دريدا أو تودروف إنها نوع من فنتازيا التكرار التي أجدها مضحكة في معظم الحالات.
والقسط الأعظم منها راجع . في نظري، وهذا مجرد انطباع . إلى فهم ناقص لحقيقة الغرب " (1).

وعليه فإننا نحاول هنا أن نضع بين أيدي الأساتذة الأفاضل بعضا مما أتيحت لنا فرصة انتهازه مع كثرة المشاغل، واتساع أطراف البحث مما يثيره الفخر الرازي في مقدمة تفسيره الكبيرمن خلال تركيزه على الجوانب اللغوية قبل أن يخوض أبواب التفسير ومعالجة الدرس القرآني وتحليل الخطاب وقضاياه فهو يعمد ابتداء إلى تحقيق الكثير من المسائل اللغوية التي نتصور أنها ذات علاقة وطيدة بالمنهج اللغوي.

فنراه يستهل مقدمته باستهلال لغوي يحاول من خلاله أن يؤصل لطريقة البحث في الدرس القرآني انطلاقا من اللغة باعتبارها الوعاء الحاوي لأحكامه وتعاليمه ومبادئه ، ولأن النص القرآني يعلن عن ذاته بالنسبة للسان العربي، ويبين عن إعجازيته من خلاله، ولا طريق قصدا لبلوغ غاياته ومقاصده إلا بإحكام الوسيلة إليه

فالرازي باعتماد المنهج اللغوي في مقدمته يعمل على تجزئة البحث وتفكيك بنيته وتفريعها ليصل منها إلى تشكيل رؤية متكاملة جامعة لما يجد نفسه بصدده من بسط النقول ، ومعالجة الأقوال ومطارحة الآراء المختلفة.

فاللغة : عند تعريفه لها، وتحرير مدلولها اللفظي يقوم بحملها على قياسات مماثلة لها من باب حمل النظير على نظيره للدلالة على أصالته العربية.

فاللغة برأيه ككرة ، ومنه كروت بالكرة، ولغوت بمعنى تكلمت ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ (2). ويتأثر دلالة اللغة باعتماد اشتقاقات القلب فيأخذ من لفظ " اللغة " أصولها المشكلة لها ، وهي على التوالي " ل. غ . و " ، وهذا هو الأصل، ويأتي منها الكلام اللغو، والعمل اللغو، ومنه غلو : ويقال لفلان غلو في كذا، ومنه الغلوة، ومنها " غول " لقوله تعالى: ﴿ لا فيها غول ﴾ (3)، ومن ذلك أيضا " و. غ . ل " يقال لفلان أوغل في كذا ، وأيضا ولغ الكلب في الإناء.

ويظهر في طريقته هاته كمن يبحث عن شيء يجد أثره في نفسه ولكنه لا يتبينه، ثم يخلص أخيرا إلى أن القدر المشترك بين جملة هذه التقليبات هو الإمعان في الشيء والخوض التام فيه (4).

وكأن الاستعمال اللغوي بمعناه والمتحصل من جملة التقليبات يحتفظ مضمونيا بما يتغيى من الوظيفة اللغوية التي نستعملها عندما نتحدث عن أي شأن من شؤون الحياة وجملة متعلقاتها، فيغدو حديثنا فيما بيننا، ومع ذواتنا كأنه ضرب من الإمعان في الأشياء بمجرد الخوض فيها قصدا إلى غاية الإتمام والإحاطة بالشيء حال جعله محور الكلام، وموضوع التعبير، وهذا ما تسفر عنه الوظائف المتحققة من استعمالاتنا اللغوية حتى دون أن ندري، فبمجرد الشروع في ممارسة إرادتنا التواصل طردا أو ردا تتحقق تلك الوظائف وتعلن عن نفسها من خلال حاجتنا للتعبير عما يختلج في الضمائر والخواطر وغير ذلك.

ويمكن أن نشير هنا إلى أن العربي خص لغته بإطلاق دلالة اللسان على الكلام اللغوي القاصد إلى تحصيل المعنى، وإرادته بعقد النية عليه، أي الوعي بالكلام الذي يضعك موضع المسؤولية، (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) (5) .

وهو المفهوم الذي يجسده النص القرآني ويقره حال الحديث عن اللغة الإنسانية الواعية بوعي الإنسان لها، ومنه قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) (6).

ويعلم كل ذي حس أن اللسان ليس المراد به هنا الألسن الجثمانية لأنها لا تختلف في الحيوان عنها في الإنسان المتكلم والأخرس على السواء، وإذا تقرر هذا فاللسان هو الكلام البشري الذي يتوافر على عنصر المعنى وعنصر القصدية.

ويقال أن الإنسان العربي كان يخص كلامه العربي بوصف اللسان، ويطلق توصيف اللغة على غير العربي من الكلام السامي.

والظاهر أن مدلولية اللغة فرضت نفسها في الاستعمال، وعادت لفظة تنصرف إلى العموم لتشمل ما يفيد وما لا يفيد مما هو ساقط من نصاب الاعتبار ولعل الأقرب لمثالنا هذا قوله تعالى ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ (7) " ولغى يلغى لغا إذا أتى بما لا يحتاج إليه في الكلام، أو بما لا خير فيه، أو بما يلغى إثمه، وقال الشاعر:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمَّد عاقدات العزائم (8) " (9).

والمعنى يدور على جملة الكلام الذي لا تنعقد عليه القلوب وتعزم فيدخل في باب اللغو الذي لا مؤاخذة معه ولاشيء فيه أو يترتب عنه.

أما اللسان فهو يترجم عن نفسه من خلال شبكة من المفردات المنتظمة في أحزمة سياقية تتأسس على ما يعرف بالكلمات، والواضح أن تسمية الكلام باللسان متأتية له من طرق الجواز على قاعدة صرف معنى الوسيلة ليشمل الغاية. فالكلام غاية وإعراب عن الذات ومتعلقاتها البشرية : أفكار مشاعر عواطف.. ووسيلة ذلك كله في الجانب الحسي هو اللسان فأخذ الكلام الصادر بهذه الأداة اسمه وأصبح يعرف بعنوان اللسان من باب التغليب والأظهر وإلا فإن وسائط أخرى تدخل في الحدث الكلامي غير اللسان مثل الشفاه

والحلق والهواء المتسرب من الصدر والخيشوم ..

أما الأثر الظاهر والبادي من اعتماد اللسان لإنتاج ما يعرف باللهج باللغة، فهو يسفر عن نفسه من خلال أحزمة من المسموعات المحسوسة نتفق على تسميتها بالكلام .

ولمعرفة الأثر الكامن وراء احتياز لفظة (كلمة) فضل الإعراب عن مكونات التواصل التلاسني يراعي الرازي طريقة الاشتقاق ويعتمدها قبل تحرير دوال اللغة.

فالكلمة . من منظوره . ومن طريق الاشتقاق من " كلم " وهي بحسب تقاليبها الممكنة تفيد القوة والشدة، وعنده منها:خمسة معتبرة وواحدة منها مهملة وهو ما قد يدرج ضمن خانة ما يعرف بظاهرة الاحتفاظ اللغوي.

ثم يستعرض عناصر القلب بادئا بـ: كلم ⟵ كلاما وهو ما يقرع السمع ويؤثر فيه ، ويؤثر في الذهن لإفادة المعنى.

والكلام ⟵ ما غلظ من الأرض وفي الغلظة قوة وتأثير.

والكلم ⟵ الجرح وفيه من التأثير أيضا ما فيه ، ولعل منها ما يشاع من : أن جرح اللسان كجرح اليد لشدة أثره .

وكمل ⟵ الكامل أقوى من الناقص، والكمال عنصر قوة وشدة .

ولكم ⟵ الشدة في اللكم ظاهرا .

ومكل ⟵ ومنه بئر مكول إذا قل ماؤها وورودها مكروها فيحصل نوع شدة عند ورودها.

وملك ⟵ يقال ملكت العجين : أمعنت عجنه فاشتد وقوي ومنه ملك الإنسان لأنه نوع قدرة، وأملكت الجارية لأن بعلها يقدر عليها.

ومن دلالات الكلمة: القصيدة بأسرها "كلمة " وكلمة الشهادة، والكلمة الطيبة صدقة من باب المجاز وبيان ذلك أن :

أ).المركب: يتركب من المفردات فإطلاق لفظة كلمة على الكلام المركب يكون إطلاقا لاسم الجزء على الكل.

ب). الكلام الكثير المرتبط الأبعاض حصلت له وحدة فصار شبيها بالمفرد في تلك الوجوه، والمشابهة من أسباب حسن المجاز فيطلق لفظ الكلمة على الكلام الطويل لهذا السبب .

ولما كان الكلام مؤلفا من أجزاء من الكلمات صارت المفردة منه عنوانا لمجموعه.

وللزيادة في تقصي المعنى وتحقيق دلالته يذكر الرازي أن الكلمة في القرآن . أيضا . جاءت للتعبير عن مفهومين آخرين أحدهما ما يقال لعيسى أنه كلمة الله : إما لأنه حدث بقوله " كن " في زمن قليل كما تحدث الكلمة .

والثانية: أنه سمى أفعاله كلمات كما قال تعالى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) (10) " (11).

والكلمة . كما يقول النحويون . غير الكلام الكلمة اللفظ المفرد، والكلام الجملة المفيدة.

ويتفق الأصوليون على أن الكلام يضاد الخرس والسكوت، وهذا من باب معرفة الشيء بنقيضه، فلا يدرسان إلا معا وحضور أحدهما داع لحضور الآخر، والتكلم بالكلمة الواحدة يضاد الخرس والسكوت فكان كلاما.

واشتقاق الكلمة من الكلم وهو الجرح والتأثير، وسماع الكلمة يشي بمعناها ، وهنا يحصل معنى التأثير فوجب أن يكون كلاما، ونلاحظ أن الخرس لا يتحصل منه معنى الكمال، ولا التأثير ولا القوة والشدة بل هو يتجه اتجاه عكسيا ينماز به عن ضديده.

ويتساءل الرازي عما إذا كان المتحدث بالكلمة يسمى متكلما ؟

ولما كان يصح أن يقال: فلان تكلم بهذه الكلمة الواحدة : فهذا دليل قائم على أن الكلمة الواحدة كلام . كما يصح أيضا من طريق الاستدلال العقلي أن يقال فلان تكلم بكلام غير تام : وفي هذا دليل آخر على أن حصول الإفادة التامة غير معتبر في اسم الكلام، وكأنه يعتبر أن وجه التلاقي بين اللغا واللسان في الكلام الذي ينصرف مدلوله إلى المعنيين بما أن الكلام يشمل المهمل والمستعمل، ويستوي في الدليل أن قلنا فلان تكلم بكلام مفهوم، أو قولنا تكلم بكلام غير مفهوم.

ولعل المهمل حصلت له هذه النسبة من تأثيره في السمع فيجتمع له معنى التأثير وحصول الكلام، وعدم الإفهام فهم على أن هذا الضرب من الكلام غير مفهوم.

ويعرض للرأي المخالف في الموضوع ويذكر أن من اللغويين من قال: الكلمة والكلام مختصان بالمفيد، وإن لم يلتزم هذا القيد لزم تجويز تسمية الطيور بالكلمة والكلام.

والظاهر أن هذا بحث آخر لأننا بصدد الحديث عن الكلام الإنساني تحديدا فهو وإن افتقد عنصر الإفادة على مستوى المضمون بمجموعه، لا يفتقدها بمفرداته وآحاده.

وأن الحديث عن لغة الطيور وغيرها كلام تجوزي لا يثبت أمام النقد العلمي .

ويثير الرازي في هذا المفصل من حديثه مسألة خلافية مؤداها: أنه إذا حصلت أصوات مركبة تركيبا دالا على المعنى باعتبار الطبعية لا الوضعية فهل يسمى مثل تلك الأصوات كلمة وكلاما كحال الإنسان المتوجع (

أخ)، وعند السعال (أح. أح) أليست أصواتا مركبة وحروفا مؤلفة دالة على معان مخصوصة لكن دلالتها على مدلولاتها بالطبع لا بالوضع فهل تسمى أمثالها كلمات " .

وإذا حررناها في سياق ما تقدم فإنها لا تعتبر كلاما فهي وإن حدثت بطريق تموجات في الفم، وخرجت من مخارج الحروف المعهودة في الكلمات، وأفادت معنى طبعيا غير وضعي: كوننا نقدر أن الناس يشتركون في التعبير بهذه الأحرف عن حالة مخصوصة ومحددة، إلا أنها تفتقد عنصر القصدية والوعي الكلامي .

ويحيل الرازي على ارتباط مسائل اللغة بالنص القداسي، وبأحكام الشريعة، وجهلها جهل بالطريق المؤدي إلى رحابها، وفقه تعاليمها، ويمثل لنا بإثارة مسألة فقهية خلاصتها أنه : إذا قال رجل لامرأته : إن كلمتك فأنت طالق ثلاث مرات، فهل يترتب على كلامه هذا حكم شرعي يقضي بوقوع الطلاق ؟ .

فيقول : إن ذكر هذا الكلام في المرة الثانية طلقت طلقة واحدة، وهل يتحقق هذا المعنى بحكمه بمجرد أن يتفوه بكلمة واحدة هي جزء من الجملة ؟ .

قال أبو حنيفة وصاحباه أن ذلك ينعقد بالجملة : لأن اسم الكلام اسم لكل ما أفاد شيئا دون إشراط تمام الفائدة، وإذا حصل الشرط حصل الجزاء أي (وقع الطلاق).

وتمام قوله : أنت طالق . وحجة أبي حنيفة إن كلمتك غير تام، والكلام اسم للجملة التامة. وخالف في ذلك زفر فحاصل كلامه أن الكلام يتناول الكلمة الواحدة " (12) . والخلاف حاصل في أصل الإفادة هل تنسحب على الكلام التام أو غير التام أو هما معا ؟ لقد اشترط المعتزلة في الكلمة الدلالة والإفادة، وأقل ذلك أن تكون مركبة من حرفين فصاعدا فنقض بعضهم قول بعض بأن أجاب أن: [قِ] و [عِ]. مركبان، وأصل ذلك أن يقال " قي " ، و " عي " بدليل أنه عند التثنية يقال " قيا " و " عيا " وأجيب عن هذا الجواب بأن هذا المعنى لا يصار إليه إلا تقديرا، أما الواقع فحرف واحد (13) .

وبعد أن يرصد الرازي دلالات الكلام في الحالة الفقهية ينقله إلى الدائرة الفلسفية ويتساءل مع أصحاب هذه النظرة هل الكلام قديم ؟.

لقد انقسم الباحثون من الكلامية على مذهبين

أ) .القائلون بحدثانه:

ذكروا أن الكلام المتركب من الحروف والأصوات يمتنع في بديهة العقل كونه قديما لوجهين:

1. الكلمة لا تكون كلمة إلا إذا كانت حروفها متوالية، فالسابق المنقضي محدث لأن ما ثبت عدمه امتنع قدمه، والآتي الحادث بعد انقضاء الأول لا شك أنه حادث .

2. الحروف التي منها تألفت الكلمة فإن حصلت دفعة واحدة لم تحصل الكلمة، ولو حصلت على التعاقب كانت حادثة .. فلو حصلت الحروف معا لم يكن وقوعها ممكنا فكان الفصل.

<u>القائلون بالقدم:</u>

يبنون رؤيتهم على ما يرونه حجة عقلية وأخرى نقلية:

العقل: فلكل واحد من هذه الحروف ماهية مخصوصة تميزها عما سواها، والماهيات لا تقبل الزوال ولا العدم. فكانت قديمة.

النقل: كلام الله قديم وكلام الله ليس إلا هذه الحروف فوجب القول بقدم هذه الحروف، فالكلام صفة كمال وعدمه صفة نقص، ولو لم يكن الكلام قديما لزم أن يقال إنه تعالى جده كان في الأزل ناقصا ثم صار فيما بعد كاملا، وذلك باطل بإجماع المسلمين ومن الأدلة النقلية قوله تعالى : ((وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)) (14).

والمسموع ليس إلا هذه الحروف، ودل أن هذه الحروف كلام الله، وكذلك فإن من حلف على سماع كلام الله تعالى : فإنه يتعلق البر والحنث بسماع هذه الحروف ، ويزيد على هذا التدليل ما يروى عن النبي . صلوات الله عليه وسلم . من قوله : ((أن هذا القرآن المسموع المتلو هو كلام الله تعالى)) (15) .

وزعمت الحشوية أن هذه الأصوات هي عين كلام الله تعالى وهذا باطل بداهة ونعلم أن الأصوات والحروف المسموعة قائمة بلسان الإنسان وصوته، ويلزم هذا القول أهله أن الصفة الواحدة قائمة بذاته تعالى وحالة في بدن الإنسان ، وهذا عين ما يقوله النصارى: أن أقنوم الكلمة حلت في ناسوت صريح (عيسى)، ومع ذلك هي صفة لله تعالى وهذا عين ما يقوله الحشوية : أن كلام الله تعالى حال في لسان هذا الإنسان مع أنه غير زائل عن ذات الله تعالى .

الكرامية : يرون أن الكلام اسم للقدرة على القول بدليل أن القادر على النطق يقال إنه متكلم وضد الكلام الخرس (العجز). وعليه فكلام الله قديم أي قدرته على القول قديمة أما الكلام فحادث، وينبه على أن مباحث الحرف مرتبطة فقط بالصوت والعضلات الفاعلات للحروف ويذكر الإشكالات المذكورة في قدم القرآن من عدمه مسائل في غاية الدقة، وينبه إلى تعمده الإغضاء عنها، والأولى الاكتفاء بما ذكرناه (16) .

إن الكلام: عبارة عن فعل مخصوص يفعله الحي القادر لأجل أن يعرف غيره ما في ضميره من الإرادات والاعتقادات " وهو يؤشر هنا تحت الحاجة التعبيرية التي تنطبق عليها أحكام الطبع أكثر من أحكام الوضع، وعندما يظهر أن المراد من كون الإنسان متكلما بهذه الحروف فهو مجرد كونه فاعلا لهذا الغرض المخصوص، وأما الكلام الذي هو صفة قائمة بالنفس فهي صفة حقيقية كالعلوم والقدر والإرادات " (17).

ويفرع عن هذه اللفتة الحديث عن كلام النفس: فالمنكرون لهذا المذهب يرون أن الكلام اسم لهذه الألفاظ والكلمات.

أما المثبتون فيرون أن المعنى النفساني يسمى كلاما واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ (18) .

والظاهر أنهم ما كانوا كاذبين في اللفظ لأنهم أخبروا أن محمدا رسول الله وكانوا صادقين فيه، وعليه فهم كاذبون في كلام آخر سوى اللفظ ، وما هو إلا كلام النفس ، وعرض لما ينقض هذا القول، ويفترض أن يقول قائل : لا نسلم أنهم ما كانوا كاذبين في القول اللساني، بل أخبروا عن كونهم شاهدين له، قالوا ﴿ نشهد أنك لرسول الله﴾ ، والشهادة لا تحصل إلا مع العلم وهم ما كانوا عالمين به فثبت أنهم كانوا كاذبين، وهناك دليل أثري هو قول عمر بن الخطاب يوم السقيفة: كنت قد زورت في نفسي كلاما فسبقني إليه أبو بكر. وقال الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا. (19).

ويحيل هنا على الجانب الاعتباطي في المواضعات والاصطلاحات فبرأيه أن لا معنى هناك للكلام اللساني على الحقيقة إلا الاصطلاح من الناس على جعل هذه الأصوات المقطعة والحروف المركبة معرفات لما في الضمائر، ولو قدرنا أنهم كانوا قد تواضعوا على جعل أشياء غيرها معرفات لما في الضمائر لكانت تلك الأشياء كلاما أيضا، وإذا كان كذلك لم يكن الكلام صفة حقيقية مثل العلم والقدرة والإرادة بل أمرا وضعيا اصطلاحيا " (20) .

والترجمة ليست عين كلام الناس، وليست في حالة القرآن قرآنا وبالتالي فلا تجوز الصلاة بها.

والمسألة الأخرى والتي هي على درجة من الاهتمام في الحدث الكلامي فيما يذكره الرازي هو مبحث **الألفاظ** :

فهو يذكر أن إطلاق اللفظ على هذه الأصوات والحروف على سبيل المجاز، وذلك لأنها إنما تحدث عند إخراج النفس من داخل الصدر إلى الخارج، فالإنسان عند إخراج النفس من داخل الصدر إلى الخارج يحبسه في المحابس المعينة ثم يزيل ذلك الحبس فتتولد تلك الحروف في آخر زمان حبس النفس وأول إطلاقه .

ويعمد إلى التخريج الدلالي باعتماد اشتقاقات القلب فاللفظ الرمي، وهذا المعنى حاصل في هذه الأصوات والحروف من وجهين :

1) . الإنسان يرمي ذلك النفس من داخل الصدر إلى خارجه ويلفظه، وذلك هو الإخراج، واللفظ سبب لحدوث هذه الكلمات فأطلق اسم اللفظ على هذه الكلمات لهذا السبب.

2). تولد الحروف بسبب لفظ الهواء من الداخل إلى الخارج صار ذلك شبيها بالحالة التي يلفظ فيها الإنسان تلك الحروف ويرميها من الداخل إلى الخارج والمشابهة إحدى أسباب المجاز " (21) .

وينقسم اللفظ بحسب أوضاعه إلى قسمين :

أ). اللفظ المفرد: لا يدل شيء من أجزائه على شيء من المعاني البتة: كقولنا فرس . جمل .

ب) اللفظ المركب: أن لا يدل شيء من أجزائه على شيء أصلا حين هو جزؤه، أما باعتبار آخر فإنه يحصل لأجزائه دلالة على المعاني كقولنا : عبد الله فإذا اعتبرنا هذا المجموع اسم علم لم يحصل لشيء من أجزائه دلالة على شيء أصلا .

أما إذا جعلناه مضافا ومضاف إليه، فإنه يحصل لكل واحد من جزئيه دلالة على شيء آخر غير الدلالة العلمية .

ج) اللفظ المؤلف: أن يحصل لكل واحد من جزئيه دلالة على مدلول آخر على جميع الاعتبارات كقولنا: العالم حادث . السماء كرة.

فالمعنى الذي يتحدث الرازي عنه هو المعنى الذي في مستوى البنية أو التركيب، والعبرة بمآلات الألفاظ حال تآلفها وتأديتها لمضمون واضح صريح يكون المتكلم فيه هو اللاعب الفاعل لا ما يمكن أن يفهمه المتلقي عنه بحسب تأويله هو بعيدا عن الطرف الشريك في العملية التواصلية .

والإحالة الإفادية في اللفظ ذات مستويات :

1. اللفظ مؤلف + المعنى مؤلف = الإنسان حيوان. غلام زيد.
2. اللفظ مفرد + المعنى مفرد = الوحدة. النقطة .
3. اللفظ مفرد + المعنى مؤلف = إنسان [اللفظ مفرد والمعنى ماهية مركبة من أمور كثيرة] .
4. اللفظ مركب + المعنى مفرد = محال (الاستحالة) . " (22).

الفرق بين الإفتراد والتركيب: الإشكال المذكور في المفرد غير حاصل في المركب لأن إفادة الألفاظ المفردة لمعانيها وضعية.

أما التركيبات فعقلية: والعقل يتوصل بتلك التركيبات العقلية إلى تلك المركبات فالفرق ظاهر، فعملية التركيب الدلالي مشحونة بكم وافر من الفكر الذي ينضح بشبكة من المفاهيمية هي وليدة البيئة والثقافة والمحيط المجتمعي.

دلالة الألفاظ على مدلولاتها :

1) الدلالة الطبيعية:

دلالة الألفاظ على مدلولاتها ليست ذاتية خلافا لمن يرى أنها تتغير باختلاف الأمكنة والأزمنة. والذاتيات لا تكون كذلك، وحجتهم أن هذا التوافق حصل وفق مناسبات مخصوصة بين الألفاظ المعينة والمعاني المعينة، ولعل من أظهر هذا التناسب ما يقول به أصحاب النظرية الطبيعية من أن الألفاظ اكتسبت صفاتها المعنوية من الطبيعة، وكون الإنسان نحتها من أصواتها مثل الزقزقة للعصافير، والرقرقة لصوت الماء، والزئير لصوت الأسد وغيرذلك .. وقد يتفق في بعض الألفاظ كونه مناسبا لمعناه مثل تسميتهم القطا بهذا الاسم لأن هذا اللفظ يشبه صوته، وكذا القول في اللقلق، ووضع لفظ الخضم لأكل الرطب، نحو البطيخ والقثاء، ولفظ القضم لأكل اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها.

2. الدلالة التوقيفية :

يرجح الرازي القول بها ويذهب مذهبها سواء على مقالة من قال أن الله تعالى هو الذي ابتدأها وعلمها آدم، أو سواء قلنا أن هناك أقواما سبقوه فعلمه لغتهم أو قلنا أقدره على التواضع عليها بأن يخلق علما ضروريا في القلب بأن واضعا وضع هذا اللفظ لهذا المعنى من غير أن يخلق بأن ذلك الواضع هو الله تعالى ، ففي كل الأحوال يتفق هذا القول مع النظرة التوقيفية للغة ونسبتها لله تعالى، وهذا حل توفيقي: يستجيز مع ضعف الدلائل أن تكون كل اللغات توقيفية وأن تكون كلها اصطلاحية،وأن يكون بعضها توقيفيا،وبعضها اصطلاحيا "

وهنا يقف الرازي ليحقق في علاقة الدال بالمدلول وما وجه القول فيها ؟ .

علاقتة الدال بالمدلول: اللفظ المفرد لا يفيد البتة مسماه لأنه ما لم يعلم كون تلك اللفظة موضوعة لذلك المعنى لم يفد شيئا ، لكن العلم بكونها موضوعة لذلك المعنى علم بنسبة مخصوصة بين ذلك اللفظ وذلك

المعنى (علاقة مناسبة). والعلم بالنسبة المخصوصة بين أمرين مسبوق بكل واحد منهما، فلو كان العلم بذلك المعنى مستفادا من ذلك اللفظ لزم الدور وهو محال. ويجيب الرازي : يحتمل أنه إذا استقر في الخيال مقارنة بين اللفظ المعين والمعنى المعين فعند حصول الشعور باللفظ ينتقل الخيال إلى المعنى وحينئذ يندفع الدور.

وهو هنا يتصور أن المعاني أسبق من الألفاظ لأننا لا نستعمل من اللفظ إلا ما استقر في أذهاننا أنه موضوع لهذا المعنى، ولذلك يجد المرء نفسه في حال الكتابة مثلا يفاضل بين لفظ وآخر، ويقدم هذا على ذاك، ونحن مثلا نطلق على الجنين هذا الاسم الذي يدل على المضمر والمخفي، وهذا قبل استهلاله بل يبدأ الوالدان بالبحث عن الاسم المختار أي اللفظ له من بين مئات الأسماء ليصبح فيما بعد دالا عليه، والفكر هو الذي يربط بين اللفظ ومعناه برابط من التناسب، وذلك مثل ما يقال من أن العرب في الجاهلية سمت أبناءها بالمستبشع من الأسماء إرهابا لأعدائها مثل : مقاتل، ظالم، سيف، وسمت غلمانها لأنفسها مثل ميسرة، سهل، نور.

وسمت الصحراء بالمفازة تفاؤلا باجتيازها، والقافلة تفاؤلا بعودتها، والعطشان بالريان تفاؤلا له بأنه سيروى من عطشه وغير ذلك ..

ولكن ما وجه التناسب بين الدلالة والصورة الذهنية .

<u>الدلالـتة والصورة الذهنيــة:</u>

للألفاظ دلالات على ما في الأذهان لا على ما في الأعيان، ولذا يقال الألفاظ تدل على المعاني. لأن المعاني هي التي عناها العاني، وهي أمور ذهنية والدليل على ما ذكرناه:

1. إذا رأينا جسما من البعد وظنناه صخرة قلنا إنه صخرة، فإذا قربنا منه وشاهدنا حركته وظنناه طيرا قلنا: إنه طير، فإذا ازداد القرب علمنا أنه إنسان فقلنا إنه إنسان، فاختلاف الأسماء عند اختلاف التصورات الذهنية يدل على أن مدلول الألفاظ هو الصور الذهنية لا الأعيان الخارجة.
2. اللفظ لو دل على الموجود الخارجي لكان إذا قال إنسان العالم قديم ، وقال آخر العالم حادث لزم كون العالم قديما حادثا وهو محال.

أما إذا قلنا إنها . الألفاظ . دالة على المعاني الذهنية كان هذان القولان دالين على حصول هذين الحكمين من هذين الإنسانين وذلك لا يتناقض، لأن حضور الحكمين ليس له حضور في العالم الخارجي، ولا تأثير له على الحقيقة بل هو مجرد وجهة نظر تحتمل الصواب، وتحتمل الخطأ .

وهذا المعنى يحيل على نسبية الألفاظ من الحقيقة وقصورها عن استغراقها.

<u>قصـور الألفـاظ</u>: لا يمكن أن تكون جميع الماهيات مسميات بالألفاظ لأن الماهيات غير متناهية وما لا نهاية له لا يكون مشعورا به على التفصيل، وما لا يكون مشعورا به امتنع وضع الاسم بإزائه ويمثل لذلك بأننا لا ندرك الفرق بين حلاوة الطعوم بواسطة اللفظ أو لفظة مخصوصة، وقد يخفى المعنى مع شهرة اللفظ فالحركة لفظة مشهورة، وكون الجسم منتقلا من جانب إلى جانب أمر معلوم لكل أحد، والخفاء يلف المعنى الموجب لذلك الانتقال، والحركة اسم لنفس هذا الانتقال لا المعنى الموجب له..

وبعد الحديث عن اللفظ يتناول قضية على قدر كبير من الأهمية وهي قضية الصوت على اعتبار أن اللفظ يتحصل معنى بواسطة جسم مادي هو الصوت، فهو يتلبس به ويتحقق من خلاله .

الصوت:

يكون النَّفَسُ عند الإخراج سببا لحدوث الصوت، والأصوات عند تقطيعاتها أسباب لحدوث الحروف المختلفة، وتحصل هذه المعاني من غير كلفة ومعونة بخلاف الكتابة والإشارة وغيرهما.

توجد الأصوات عند الاحتياج إليها، وتفنى في الحال عقيب زوال الحاجة، وتحدث الأصوات تبعا للتقطيعات في مخارج الحروف وتكثر توالدا، وتتآلف الحروف لتولد كلمات لا حصر لها، وتلبس المعاني الألفاظ في غير اشتباه والتباس، وهذا مفقود في الإشارة والتصفيق، وقضت العقول السليمة أن أحسن تعريفات لما في القلوب هي الألفاظ " .

منـازل الصـوت ؟ .

يصرف الهواء الخارج من الصدر خالقا محابس، ومقاطع للصوت في الحلق واللسان والأسنان والشفتين، ويحدث بسبب ذلك هذه الحروف المختلفة، وأودع في هذا النطق والكلام حكما عالية وأسرارا باهرة (23) "

ولا يصح عند الرازي أن يقال: الكلمة صوت لأن الصوت ينقسم إلى أصوات الحيوان وإلى غيره، وصوت الإنسان ينقسم إلى ما يحدث من حلقه وإلى غيره، والصوت الحادث من الحلق ينقسم إلى ما يكون حدوثه مخصوصا بأحوال مخصوصة مثل هذه الحروف وإلى ما لا يكون كذلك مثل الأصوات الحادثة عند الأوجاع والراحات والسعال وغيرها، فالصوت جنس بعيد واللفظ جنس قريب، وإيراد الجنس القريب أولى من الجنس البعيد " (24) .

الصوت. الحرف. الحركة

إذا قلنا في الحرف أنه متحرك أو ساكن فهو مجاز لأن الحركة والسكون من صفات الأجسام، والحرف ليس بجسم بل المراد من حركة الحرف صوت مخصوص يوجد عقيب التلفظ بالحرف، والسكون عبارة عن أن يوجد الحرف من غير أن يعقبه ذلك الصوت المخصوص المسمى بالحركة .

والحركات ليست بحركة في نفسها، إنما أصوات يتلفظ بها فالمتكلم لما انتقل من الحرف الصامت إلى هذا الحرف، فهذا الحرف المصوت إنما حدث لجريان نفسه وامتداده فلهذا السبب صحت تسميته بالمجرى "(25) .

فنحن بالواقع لا نسمع الحركة ولا الحرف ولكن نسمع الصوت أو عملية التصويت بهما على وجه مخصوص يمايز بينهما.

كيفيـة حدوث الصوت:

الصوت: سببه القريب تموج الهواء ، وسبب تموج الهواء إمساس عنيف (القرع)

وحدّ الشيخ الرئيس الحرف: بأنه هيئة عارضة للصوت يتميز بها عن صوت آخر مثله في الخفة والثقل تميزا في المسموع،. والحروف :

1. مصوتة : تسمى في النحو حروف المد واللين ولا يمكن الابتداء بها، وهي من الهيئات العارضة للصوت.

2. صامتة : وهي ما عداها ومنها ما لا يمكن تمديده كالباء والتاء والذال والطاء وهي لا توجد إلا في الآن الذي هو آخر زمان حبس النفس وأول زمان إرساله وهي بالنسبة إلى الصوت كالنقطة بالنسبة إلى الخط ، والآن بالنسبة إلى الزمان، وهذه الحروف ليست بأصوات ولا عوارض أصوات، وإنما هي أمور تحدث في مبدأ حدوث الأصوات وتسميتها بالحروف حسنة لأن الحرف هو الطرف، وهذه الحروف أطراف الأصوات ومباديها، ومن الصوامت ما يمكن تمديدها بحسب الظاهر ثم هذه على قسمين: منها ما يغلب الظن فيها أنها آنية الوجود في نفس الأمر وإن كانت زمانية بحسب الحس (الحاء الخاء ..) تأتي آنية متوالية كل واحد منها آني الوجود في نفس الأمر، لكن الحس لا يشعر بامتياز بعضها عن بعض فيظنها حرفا واحدا زمانيا.

ومنها ما الظن الغالب كونها زمانية في الحقيقة (كالسين والشين) فإنها هيئات عارضة للصوت مستمرة باستمراره .

- الحرف لا بد أن يكون إما ساكنا أو متحركا ، ولا نريد به حلول الحركة والسكون فيه لأنهما من صفات الأجسام بل المراد أن يوجد عقيب الصامت بصوت مخصوص.
- الحركات أبعض المصوتات والتي هي أسبق منها بدليل أن التكلم بالحركات موقوف على التكلم بالصوامت.

تخريج :

الأصل في قولنا الله وهي ستة حروف فلما أبدلوه بقولهم " الله " بقيت أربعة أحرف في الخط (همزة . لامان . هاء). الهمزة في أقصى الحلق، اللام طرف اللسان. الهاء أقصى الحلق وهي إشارة إلى حالة عجيبة فإن أقصى الحلق مبدأ التلفظ بالحروف ثم لا يزال يترقى قليلا قليلا إلى أن يصل إلى طرف اللسان ثم يعود إلى الهاء الذي هو في داخل الحلق فكذلك العبد يبتدي من أول حالته التي هي حالة النكرة والجهالة ويترقى قليلا قليلا في مقامات العبودية ، وكما قيل النهاية رجوع إلى البداية " (26).

مراتب الموجودات ثلاثة:

1. مؤثر لا يتأثر وهو الأقوى (درجة الفاعل وجعلوا له الرفع على اعتبار أنه أقوى الحركات ولأنه أقوى الأجسام.
2. متأثر لا يؤثر وهو الأضعف (درجة المفعول وضعوا له الفتح أضعف الحركات، وأضعف الأقسام).
3. وثالث يؤثر باعتبار ويتأثر باعتبار ويتأثر وهو المتوسط وهو درجة المضاف إليه والحركات أيضا ثلاثة أقواها الضمة وأضعفها الفتحة، وأوسطها الكسرة فألحقوا كل نوع بشبيهه " (27).

مدلـول العبـارة

يعمد إلى تحقيقها وفق آلية الاشتقاق الأكبر فيرى أن فعل [ع. ب . ر] تحتمل ستة تقاليب كلها تفيد معنى العبور والانتقال.

1. عبر من العبارة ويتكلم الإنسان بها، وينتقل من حرف إلى آخر، وكأنه بسبب تلك العبارة ينتقل المعنى من ذهن نفسه إلى ذهن السامع.
2. العَبْرة : الدمعة الدمعة تنتقل من داخل العين إلى الخارج.
3. العبر: الإنسان ينتقل فيها من الشاهد إلى الغائب.
4. المعبر: ينتقل الإنسان بواسطته من أحد طرفي النهر إلى الثاني.
5. التعبير : ينتقل مما يراه في النوم إلى المعاني الغائبة.
6. عرب: والعرب لكثرة انتقالهم بسبب رحلة الشتاء والصيف ومنه فلان أعرب في كلامه لأن اللفظ قبل الإعراب يكون مجهولا ، فإذا دخله الإعراب انتقل إلى المعرفة والبيان.
7. برع في كذا. تكامل وتزايد .
8. بعر : البعر لكونه منتقلا من الداخل إلى الخارج.
9. الخامس : رعب للخوف رعب لأن الإنسان ينتقل عند حدوثه من حال إلى أخرى.
10. والسادس: ربع الربع ينتقل الناس منه وإليه. (28).

فدلالة العبارة لا تختلف عن النسيج العام الذي تحيل عليه جملة مفردات الاصطلاحات اللغوية من كلمة، وحرف، وصوت، ولفظ وغيرها مما هو ضمن قاموس الاستعمال الدلالي في اللغة.

وفي الختام أريد الإشارة إلى أني سعيت إلى التنبيه على الضرورة تولية الجهود اللغوية عند القدامى العناية التي تستحق، وأن نضعها الموضع اللائق بها، وأن نستفيد منها في مقارباتنا المتجهة رأسا إلى تركيز الاستفادة من المناهج الغربية، والنظر إلى ما عندنا من تراث وكأنه غير موجود، ونكون بمثل هكذا خطوات نتنكر لذاتنا، ولا يمكن أن نخدم مشروعنا النهضوي الذي نتشوف إليه.

فالغرب في نهضته التجديدية عمل على إحياء تراث أثينا وإسبارطة وروما فلماذا لا نتسي به ونعيد إحياء تراث مكة والمدينة وبيت المقدس وبالها من رموز لو أحسنا التقاط خيوطها وتعاطينا معها بوعي وفاعلية، دون أن يمنعنا هذا من الإفادة من المنجزات الإنسانية الحيادية القيم عند جميع الأمم وفي مختلف الثقافات، فالحكمة ضالة المؤمن. دون أن نبقى طوال الوقت مسكري الأبصار، مشدودين إلى ما حققه الآخرون إلى حد الإبهار وسلب الذات دون أن نصنع شيئا لأنفسنا ولا لأجيالنا القادمة التي ستقف علينا ذات زمان من خلال تركتنا الثقافية والفكرية في بطون كتبنا ومجلداتنا . بعد أن نغادر . فتقف على حجم الإفلاس الذي أصابنا فلا تترحم علينا هذا إذا لم .....

الهـوامش

(1) . حوار: الهويات تعددية والمنفى حقل كريم www .ALKARMEL.ORG

(2) . الفرقان. [72]

(3) . الواقعة [47].

(4) التفسير الكبير. الفخر الرازي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان . الطبعة (2). 1983م. ج36/1.

(5) . ق. [18].

(6) . إبراهيم [04].

(7) . البقرة [225].

(8) . البيت للفرزدق من قصيدة قالها في قتل قتيبة بن مسلم، وقتل وكيع بن حسان، ومدح سليمان بن عبد الملك [ينظر الديوان. دار الكتب العلمية. بيروت. ص 611. . والأغاني. ج21/ 307.

(9) .الجامع لأحكام القرآن.القرطبي. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة. مصر.1933م..ج99/3.

(10) . الكهف [109].

(11) . التفسير الكبير . ج1/ ص 22 وص23 .

(12) . المصدر السابق. ص 25. ص 26.

(13) . المصدر السابق. ص 29.

(14) . التوبة. [06].

(15) . المصدر السابق. ص 38.

(16) . " " . ص 39. ص. 40.

(17) . " " .ص 34.

(18) . المنافقون [01].

(19) . " " .ص 27. وما بعدها.

(20) . " " .ص 34.

(21) . " " .ص 24.

(22) . " " .ص 28 وما بعدها .

(23) . " " .ص 30 و 31. 32. 33 .

(24) ." " .ص 52.

(25) . " " .ص 55.

(26) . " " .ص 37 و 38. و39.

(27) . " " .ص 60.

(28) . " " .ج 1/ ص 24.

الخصائص الصوتية والصرفية للغة العربية وأثرها في بناء المعجم

الأستاذ مسعود بودوخة
جامعة سطيف

مقدمة:

إذا تأملنا البنية الصوتية للغة العربية وجدنا أنها تكتفي بما يمكن أن يعد الحركات الأساسية الأشهر في اللسان البشري وهي الفتحة والضمة والكسرة، حيث حدد الدارسون المحدثون ثلاثة صوائت رئيسية تستخدم في اللغات كافة، هي (i) أي الكسرة و(u) أي الضمة و(a) أي الفتحة[1]. وهنا ينبغي أن نسجل ملاحظتين:

* **الملاحظة الأولى:** أن السكون الذي يذكر أحيانا مع الحركات ليس حركة، بل هو عدم الحركة، وربما كان السبب الذي جعله يدرج أحيانا ضمن الحركات أنه يشكل في النحو

– إلى جانب الحركات– علامة إعرابية يمكن اعتبارها العلامة العدمية أو الصفرية، وعلى ذلك فإذا ذكر السكون إلى جانب الحركات بما يشعر أنه أحدها فذلك من باب التغليب، أو التباس مفهوم الحركة (الصائت)

بمفهوم العلامة الإعرابية، و الدليل على ذلك أن الوقف يسقط الحركات فيحل السكون محلها، ونستأنس هنا بالمعنى اللغوي الذي يجعل الحركة في مقابل السكون.

* **<u>الملاحظة الثانية</u>:** أن اللغة العربية، لجأت لإثراء صوائتها بتنويع هذه الصوائت طولا وقصرا، مما يضاعف عددها من ثلاثة إلى ستة، وهذا التنوع في الحركات يساهم في توليد الصبغ الصرفية، إذ إنّ المد في اللغة العربية هو وظيفي، بحيث يتغير المعنى إذا تغير نوع الحركة طولا وقصرا، كما بين (فرق) و (فارق) حيث أن ما يفرق بينهما من الناحية الصوتية هو اختلاف طول الحركة بما ينجم عنه اختلاف في الدلالة.

غير أن الحركات العربية الثلاث، وإن كانت تمثل الصوائت الأساسية في اللغة العربية، فإن هناك تغيرات تعتري هذه الحركات أهمها الإمالة والتفخيم والإشمام.

1 –فالإمالة تخص الفتحة الممدودة التي تنطق في اتجاه الكسرة الممدودة، أو الميل بالألف نحو الياء، ويعني هذا "أن اللسان يتقدم نحو الأمام حيث مخرج الكسرة وينقل جرس الفتحة نحو جرس الكسرة" بما يقابل الصوت (e) في الفرنسية في مثل (nez)[2].

2 –و الإشمام هو نطق الكسرة الطويلة في اتجاه الضمة الطويلة في مثل(قيل، غيض، سيء)، وفي هذه الحالة يقترب جرس الكسرة من جرس الحركة (u) في الفرنسية، في مثل(sur)[3].

وأما التفخيم، فهو يقابل الإمالة، من حيث أنه يكون باتجاه اللسان إلى مؤخرة الفم، فينتقل الجرس من الفتحة إلى الحركة (o)[4]، كما في نطق كلمة صلا ة في قراءة ورش عند تغليظ (تفخيم) اللام وربما لأجل هذا السبب كتبت كلمة الصلاة في المصحف بالواو(صلواة)، ويمكننا بناء على ما سبق أن نمثل صوائت اللغة العربية الأساسية و الفرعية في هذا المخطط:

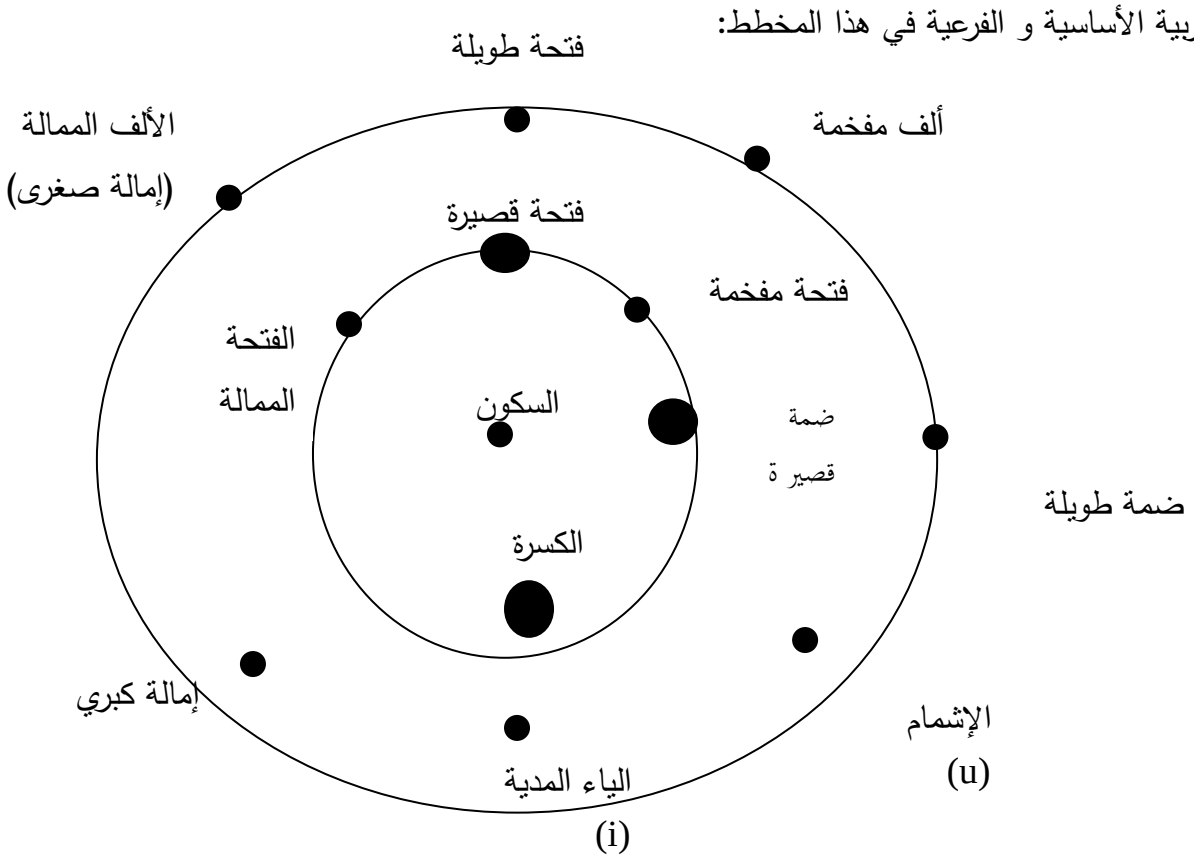

ويمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1 –مركز الدائرة يمثل السكون الذي يقبل نظريا أن يأخذ أية حركة.

2 –الدائر ة الصغرى تمثل الحركات القصير ة.

3 –الدائرة الكبرى تمثل الحركات الطويلة.

4 –العلامات البارزة تمثل الصوائت الأساسية فيما تمثل العلامات الأخرى الصوائت الفرعية (الإمالة والإشمام والتفخيم).

5 –الفتحة(أو الألف) المفخمة هي وسط بين الفتحة والضمة المفخمة.

6 –الفتحة (الألف) الممالة هي بين الفتحة والكسرة.

7 –الإشمام هو حركة تتنازعها الكسرة والضمة.

8 –المسافة بين محيطي الدائرتين تمثل الفرق الزمني بين الحركات القصير ة والحركات الطويلة.

إن الصوائت في العربية ذات دور هام في عملية التوليد الصرفي وفق الأوزان المختلفة، في حدود المادة الواحدة فالفرق بين كتب وكُتب وكاتب، فرق يأتي عبر تنوع الصوائت لا الصوامت، ومن هنا تتحمل – مع حروف الزيادة– أخطر الوظائف في تركيب الصيغ الاشتقاقية للعربية[5].

الخصائص الصرفية:

لعل من أشهر تصنيفات اللغة لدي اللسانيين، تصنيف شليجل(Schlegel)، الذي يقوم على أساس الخصائص الصرفية للغات، حيث ميز بين ثلاثة أنواع من اللغات:

1 –اللغات المتصرفة (Flescionnelles): وهي تتميز من الناحية الصرفية بأن كلماتها تتغير معانيها بتغير أبنيتها، وتتغير أشكال الكلمات فيها بطريقة غير خطية فتدمج صور المورفيمات بعضها في بعض.

2 –اللغات الإلصاقية (Agglomérants): وهي تتميز من ناحيتي الصرف والتنظيم بأن تغير معنى الأصل وعلاقته بغيره من أجزاء الجملة يشار إليها بحروف تلصق بهذا الأصل سابقة له prefixes أو لاحقة suffixes وأشهر هذه اللغات التركية واليابانية.

3 –اللغات العازلة (Isolantes): أو غير المتصرفة (Mono- syllabique): وهي تتميز من الناحية الصرفية بأن كلماتها تلازم صورة واحدة، وتدل على معنى ثابت لا يتغير، فهي غير قابلة للتصرف لا بواسطة تغيير البنية، ولا بواسطة إلصاق حروف بها، ومن هذه اللغات اللغة الصينية.

غير أن أكبر ما وجه إلى هذا التصنيف من نقد هو أن التصريف والإلصاق والعزل، لا نكاد نجد لغة من اللغات تخلو منها[6].

وبناء عليه، فإن إحدى اللغات إذا صنفت ضمن نوع من الأنواع السابقة، فإن تصنيفها هو من باب التغليب أي اعتمادا على السمة الغالبة على وحداتها الصرفية.

وبالرغم من أن اللغة العربية لا تخلو من ظواهر العزل والإلصاق فإنها كغيرها من اللغات السامية تتميز بخاصيتي التصريف والاشتقاق بصفة خاصة، وأبرز ما يتصل بهذه السمة هو تلك القوة الإنتاجية للكلمات من الناحية الصرفية بالاعتماد على الوزن، فالاشتقاق بطريق الوزن، يمثل خاصية اللغة العربية التي تتميز بها عن

والتي ينبغي أن تراعى في التحليل اللساني لوحداتها، وفي بناء المعجم العربي: فما هو الوزن؟

التفسير الصرفي للوزن:

إذا أخذنا بمجموعة من الأفعال العربية ذات أوزان متشابهة، وصنفناها فسنحصل على الجدول التالي:

أحسن	تحسن	حسّن	استحسن
أمسك	تمسك	مسّك	استمسك
أسلم	تسلم	سلّم	استسلم
أمتع	تمتع	متّع	استمتع

وإذا تأملنا هذا الجدول وجدنا نوعين من التناظر أو التماثل:

– على المحور العمودي: تناظر و تماثل للصوائت.

–على المحور الأفقي: تناظر وتماثل الصوامت (مادة الكلمة).

أما الصوامت المتماثلة على المحور العمودي فتمثل عناصر مساعدة للصوامت التي تشكل الوزن وليست من مادة الكلمة ولذلك يمكن تعريف الوزن صوتيا بأنه تماثل للصوائت والصوامت (التي لا تنتمي إلى مادة الكلمة)، من حيث نوعها وترتيبها، يرافقه– في الغالب– تماثل في الدلالة الصرفية العامة.(المبالغة والمطاوعة والطلب والتعدية...).

وفي عمليات الاشتقاق ضمن المادة الواحدة، تمثل الصوامت المكونة لهذه المادة ثوابت الوزن، بينما تمثل الصوائت متغيراته.

وهكذا تنتج الكلمات من تركيب المادة الأصلية، أي المواد المكونة من حروف المعجم، مثل(ض، ر، ب) أو (ك، ت،ب)، ثم الوزن أو الصيغة المتمثلة في تلك القوالب التي تفرغ فيها المواد الأصلية[7].

ذلك أن الكلمة العربية تتولد من تركيب المادة في الصيغة وليس للمادة الأصلية والوزن وجود محسوس بل هما كيانان اعتباريان يجردهما المحلل بالمقابلة بين أجزاء من الكلام[8] ويمكن تشبيه مادة الكلمة و وزنها بالجسد والروح، لا يحقق أحدهما وظيفته ويظهر أثره إلا مع الطرف الثاني.

فمادة الكلمة من دون الوزن شيء مجرد، والوزن من دون مادة الكلمة كيان غير محسوس، وهو يشبه الوزن الشعري من هذه الحيثية.

في لغات أخرى كالفرنسية قد يعتمد في توليد المعاني الصرفية على الإلصاق كما في كلمة Joueur، التي دلت فيها اللاحقة (eur) على اسم الفاعل، بينما نقول في العربية (لاعب) فيكون الوزن (فاعل) هو الدال على معنى اسم الفاعل[9].

والأمر نفسه بالنسبة إلى التقابل بين البناء للمعلوم و البناء للمجهول، الذي يعبر عنه في الفرنسية بأداة مساعدة (est) ولكن العربية تستعمل الوزن (مجموعة الصوائت) للتفريق بين البناء للمعلوم والبناء للمجهول[10].

ويرى تمام حسان أن المعاني الوظيفية، لا تفيدها الزوائد ولكن تفيدها الصيغ ككل، إذ إننا لو أسندنا هذه المعاني الوظيفية إلى الزوائد لخرجنا بها عن طابع الزيادة إلى طابع الإلصاق ...أما الزوائد فلا يمكن أن تنسب إليها بمفرها معاني صرفية، لاسيما وأن استخلاص الزائد وعزله عن الكلمة ليس ممكنا في حالات كالتضعيف والتكرار وغيرها، لذلك كان المنهج السليم أن ننسب المعنى الوظيفي الصرفي إلى الصيغة المزيدة كلها لا إلى زوائدها[11].

وانطلاقا من المادة المعجمية، وعن طريق الوزن يمكن توليد عدد كبير من الكلمات (أسماء وأفعال)، بحسب المتغيرات الصرفية، واهم هذه المتغيرات أو المقولات الصرفية (الزمن والبناء للمجهول والزيادة والاشتقاق والشخص والجنس والعدد).

إن بعض هذه المقولات يخص الأفعال (الزمن والبناء للمجهول والشخص)، وبعضها يخص الأسماء (الاشتقاق)، وبعضها تشترك فيه الأفعال والأسماء (الزيادة، والجنس والعدد).

مخطط التوليد الصرفي:

إذا أخذنا مادة (ف، ت،ح) على سبيل المثال، فإننا يمكن أن نولد منها العدد الكثير من الكلمات وفق المخطط الآتي:

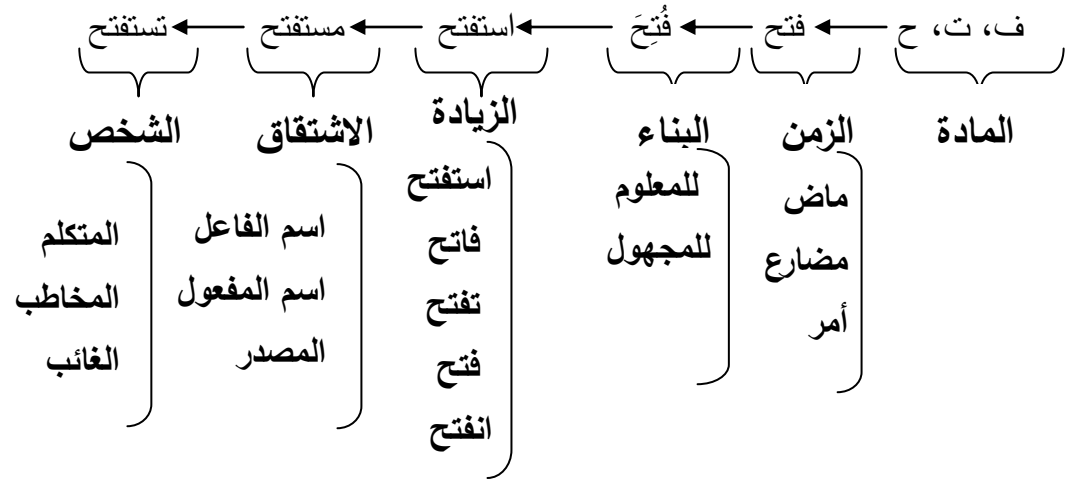

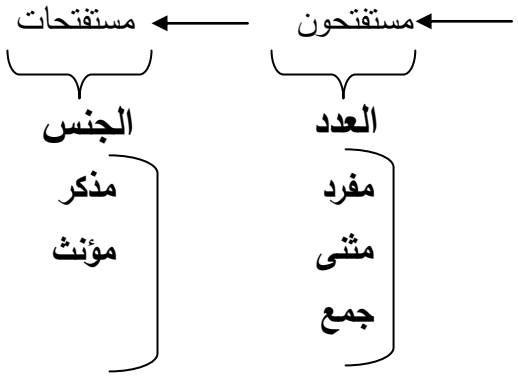

وهكذا يمكننا نظريا بإتباع هذا المخطط أن نولد من مادة واحدة كـ (ف، ت، ح) حوالي 178 كلمة مختلفة اعتمادا على مختلف الصيغ المزيدة للأفعال وما يشتق منها من أسماء، وبمراعاة المتغيرات الصرفية المذكورة (الزمن والبناء والشخص والجنس والعدد) بالنسبة إلى الأفعال و(الجنس والعدد) بالنسبة إلى الأسماء.

وبذلك يمكن تشبيه التوليد الصرفي في اللغة العربية بالمتتالية الهندسية في الرياضيات.

الخصائص الصوتية و الصرفية وبناء المعجم العربي:

إن دراسة الخصائص الصوتية والصرفية لأي لغة، يعد مقدمة لا بد منها للمعجم، لاسيما وأن المعجم ليست غايته الوحيدة شرح الكلمات، وإنما يتوقع منه أن يقدم أربع معلومات أساسية هي طريقة كتابة الكلمات وطريقة النطق بها ونوعها الصرفي ثم شرح معناها[12] .

ولا شك أن بيان طريقة النطق وطريقة الكتابة والتصنيف الصرفي للوحدات اللغوية، كل ذلك يتطلب إلماما بأهم الخصائص الصوتية والصرفية للغة التي يشرحها المعجم.

ولقد أدرك المعجميون العرب هذه الحقيقة منذ وقت مبكر؛ فالخليل بن أحمد (ت 175 هـ) بدأ معجمه "العين" بالحديث عن الأصوات ومخارجها وصفاتها وقواعد ائتلافها، ثم تناول مسائل صرفية تتعلق بطرق الوصول إلى الكلمات من خلال الحروف وأصوات الطبيعة، وبنى معجمه صوتيا وصرفيا بالاعتماد على نظرية التقاليب[13] .

وهذا ينم – برأينا– عن إدراك صائب ومبكر لطبيعة اللغة العربية صوتيا وصرفيا، وتصور ناضج للعمل المعجمي أيضا.

إن هذا التقليد استمر منذ الخليل، لاسيما ما يتعلق بالمداخل المعجمية حيث تتخذ مادة الكلمات أساسا لهذه المداخل، على اختلاف بين المعجميين في ترتيب مواد المعاجم ورتبة الحرف المبدوء به، ولكنهم في كل الحالات يبقون عن صلة الرحم بين الكلمات ليس على أساس المبنى الصرفي، وإنما يلجؤون إلى روابط الكلمات، كما أنهم لا ينسبون إلى حروف المادة معنى معينا، خاصة مع إدراكهم إمكان تعدد المعاني بين الكلمات التي تشترك في هذه الأصول.... ولذلك كان الإجراء المفضل عندهم أن يفصلوا في الكتابة بين أصول المادة حتى لا نفهم منها كلمة ما[14] .

وهذا الأمر يعد نقطة فارقة بين منهجين في التأليف المعجمي، المنهج العربي الذي يرى أن أصول الكلام هي من الأصوات الصامتة وحدها، لذلك ينظر إلى أي إضافة على أنها زيادة صرفية، إن كانت تمس الصور الحرفية للأصول، أما الأصوات الصائتة القصيرة فلا تعد زيادات كما لا تعد أصولا، ومن هنا اعتبر مثلا أن أصل (قتل) هو القاف والتاء واللام (ق،ت،ل) دون ضبط، على حين أنها عندما تغدو"قاتل" تكون الألف حرفا زائدا على الأصل[15] .

أما المنهج الأخر (الغربي) فيجعل الأصل مشتركا بين الصوامت والصوائت، لذلك عدت الفتحة في نحو"قَتل" شيئا لازما تحول إلى صوت طويل هو قاتل[16] .

أما اللغة العربية فتعتمد في توليد الكلمات – كما ذكرنا–على الصيغة التي تصب فيها الأصول، وبهذا يمكن اعتبار الصيغة مورفيما كليا مؤلفا من أجزاء أو عناصر تضم مجموعة من الصوائت (علامات الضبط)، وحروف الزيادة[17].

وإذا جاز من وجهة النظر الغربية أن يكون عدد الكلمات مساويا لعدد المداخل المعجمية فإن هذه الرؤية لا يمكن أن تصدق على المعجم العربي، لأن عدد الكلمات فيه أكبر بكثير من عدد المداخل المعجمية، لذلك ربما كانت المعجم الأجنبية أكثر مداخل من المعاجم العربية، ولكن هذا ليس دليلا على أنها أكثر منها من حيث عدد الكلمات، ما دامت المعاجم العربية لا تعدد الكلمات بمداخل مستقلة وإنما تجعل من مادة الكلمة مدخلا معجميا[18] .

وإن اعتماد منهج العجميين في هذا من شأنه أن يجيب عن بعض الأسئلة التي أثارها النحاة واختلفوا بشأنها، ومن هذه المسائل، ما يتعلق بأصل الاشتقاق هل هو الفعل أم المصدر؟.

فالأصح أن الأصل ليس المصدر ولا الفعل وإنما هو المادة المعجمية أي سلسلة الحروف الصامتة التي ينطبق عليها الوزن وهي وحدة مجردة لا تملك صورة خطية ولا وظيفة نحوية، ولا تنتمي إلى أجزاء الكلام، فلا هي اسم ولا فعل، ولا حرف، بل هي عنصر صوري وكيان مجرد ينتمي على البنية العميقة.

يقول تمام حسان: "إذا صح لنا أن نوجد رابطة بين الكلمات فينبغي لنا ألا نجعل واحدة منها أصلا للأخرى وإنما نعود إلى صيغ المعجمين بالربط بين الكلمات بأصول المادة فنجعل هذا الربط بالأصول الثلاثة أساس منهجنا في دراسة الاشتقاق، ولذلك نعتبر الأصول الثلاثة أصل الاشتقاق، فالمصدر مشتق منها والفعل الماضي مشتق منها كذلك، وبهذا لا تستطيع أن ننسب إلى هذه الأصول الثلاثة أي معنى معجمي"[19].

وقد ظهرت في العصر الحديث بعض المعاجم التي سارت على طريقة الغربيين في تبويب مواد المعجم، اعتمادا على الصيغ الفعلية للكلمات دون مراعاة جذورها، ولكن هذه المعاجم بعزلها للكلمة تحرم الدارس من فرصة الاطلاع على ما يدور في فلك الكلمات من مشتقات[20] .

كما أن منهجها لا يتوافق مع طبيعة اللسان العربي وروحه، وهذه المعاجم وإن كانت لا تخلو من فائدة للدارس والباحث، فإنها تبقى استثناء من قاعدة التأليف المعجمي في اللغة العربية.

الهوامش:

1 -أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات.دار الفكر دمشق ص89

2 -مصطفى حركات: الصوتيات والفونولوجيا المكتبة العصرية بيروت ص128.

3 -المرجع نفسه ص128.

4 -المرجع نفسه ص129

5 -تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص72 .

6 -محمد أسعد النادري: فقه اللغة، المكتبة العصرية، صيد بيروت، ط1425،1هـ /2005،ص 107.

7- خولة طالبي الإبراهيمي: مبادئ اللسانيات العامة، ص 96.
8-المرجع نفسه ص96.
9-مصطفى حركات اللسانيات العامة وقضايا اللغة العربية المكتبة العصرية بيروت ص.72
10-االمرجع نفسه ص.73
11-تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص.161
12-المرجع نفسه ص 325-328
13-أحمد محمد قدور مبادىء اللسانيات ص .139
14- تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص.151
15- أحمد محمد قدور مبادىء اللسانيات ص .151
16- نفسه.151
17-نفسه ص.151
18-اللغة العربية معناها ومبناها ص.329
19-مصطفى حركات اللسانيات العامة وقضايا اللغة العربية ص73-.75
20-اللغة العربية معناها ومبناها ص.169
21-مصطفى حركات اللسانيات العامة وقضايا اللغة العربية ص66،65.

المواءمة الصوتية والانتقاء القياسي للغة
قراءة في الأنموذج الخليلي من خلال"العين"

الأستاذ: الجمعي بو لعراس
المركز الجامعي الشيخ العربي التبسي – تبسة.

تمهيد:

إن أهم ما يميز معجم "العين" للخليل أن مؤلفه لم يجمع مفرداته من طريق استقراء ألفاظ اللغة، وتتبعها في مؤلفات السابقين، وجمعها من شفاه الرواة ، وإنما جمعها بطريقة منطقية رياضية، حيث لاحظ أن الكلمة لا تخرج عن كونها ثلاثية أو رباعية أو خماسية. وفي كل حالة إذا أمكن تبديل حروف الكلمة إلى جميع احتمالاتها (بالانتقال من حرف هجائي إلى الذي يليه)، وأمكن تقليب أماكن هذه الحروف إلى جميع أوجهها الممكنة يكون الحاصل معجما يضم جميع كلمات اللغة من الناحية النظرية. ولكن لا توجد لغة تستخدم جميع إمكاناتها النظرية، ولهذا كان لابد للخليل بعد الإحصاء النظري أن يميز بين المستعمل من هذه الصور والمهمل[1] وقد فعل ذلك، واستفاد في تمييز المستعمل من المهمل بثقافته اللغوية الخصبة، وبخبرته الصوتية

[1] يكاد يتطابق مفهوم "المستعمل" عند الخليل مع مفهوم "المورفيم" عند المحدثين ، أما مفهوم المهمل فيشمل ما يسمى بمصطلح الحديث "مورف" ويشمل غيره.

الباهرة ومعرفته بالتجمعات الصوتية المسموح بها وغير المسموح بها في اللغة العربية كطريقة للانتقاء بين أشكال المنطوق اللساني العربي، وبذا حكّم القوانين الصوتية إلى جانب تحكيمه للمادة اللغوية المسجلة .

ولا غرو أن نقول إن كثيرا من اللغات الطبيعية تتمايز في مستوياتها الفصاحية ، ولهذا هناك من يرى أن لا فرق بين الماضي اللغوي والحديث المعاصر إذ " إن العربية في مستوياتها، الفصيح المكتوب والعامي المنطوق قد عرفت في مختلف مراحل استعمالها وفي الأمصار المعرّبة التي استعملت فيها لغة طبيعية، مظاهر من التطور عديدة في أصواتها وصرفها ودلالتها وتراكيبها، لكن ذلك التطور كان يحدث فيها من الداخل حدوثا طبيعيا غير خارج في جوهره عن النماذج الفصاحية (الأصلية) التي وصفها علماء اللغة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ... والعربية الحديثة إذا بمستوييها العامي المنطوق والفصيح المكتوب ليست بخارجة عن النموذج اللغوي العربي القديم " [2]

لقد راعى الخليل في معجمه " العين" كل الكلام العربي قديمه وحديثه ، دخيله ومعربه، مستعمله ومهجوره، ذلك لأنه بصدد جمع المادة اللغوية بطريقة رياضية ولكنه أشار إلى هذه الأصناف وميّز بينها بطريقة صوتية، أي بطريقة تجمع فونيماتها وطريقة ترتيبها في الكلمة، وببراعته وفطنته الصوتية استطاع أن يميز بطريقة فونولوجية بعض الأنماط التي تستكرهها العربية الفصيحة مثل تلك التي تتناف في التقائها الصوتي وقد فرق ليس فقط بين المستعمل والمهمل من اللغة بل أيضا من الكلمات المنقرضة وحلت محلها كلمات أخرى.

إن الخليل راعى مستويات من خلالها ينظر إلى الكلمة من حيث كونها قديمة وحديثة، هجرت أم لا، لغة أم لهجة، خاصة بقبيلة معينة أو دخيلة أو أدخلت عليها بعض الفونيمات ، وذلك بطريق ميزات ومستويات صوتية (المواءمة) والصرفية (الكم) ومعجمية (دلالة)،إضافة إلى كونها صنف نحوي (اسم، فعل، صفة، ظرف، أداة) .

فالخليل تجاوز بعمله هذا مجرد الكشف عن مجموع مفردات اللغة، أو سجلها المشتمل على المفردات التي تستعملها جماعة لغوية ما، وذلك بطرحه لكثير من قضايا اللغة سوى في المنهج أو المادة التي ما يزال أصحاب اللسانيات يطرحونها [3]

وقبل أن نتطرق إلى الموضوع وجب أن نذكر بمنهج الخليل في تأليف العين.

أولا: منهج الخليل في تأليف العين:

1- ترتيب المفردات على أساس صوتي وهو نظام لم يسبق إليه، فقد ألف الناس ترتيبا على أساس تشابه المجموعات (ب،ت،ث) ، ولكنه وه_و ذو العقل الرياضي لم يلجأ لهذا الترتيب التقليدي بل رتب الحروف الساكنة بحسب مخارجها، بادئا بالحروف الحلقية ثم اللسانية ثم الشفوية ثم الهوائية، وجعل لكل حرف كتابا،

[2] ألف تشومسكي مصنفه "اللسانيات الديكارتية" على أساس رياضي وهو طرح من مثل ما ألفه ونظر إليه الخليل في دراسته للغة

[3] نفسه 141/1 .

وكان ترتيبه للأصوات على الصورة المخرجية لها وسمى كل حرف كتابا،وافتتح معجمه بحرف العين وسماه كتاب العين، فكتاب الحاء، فكتاب الهاء... وغيرها، وأطلق اسم كتابه الأول، وهو كتاب العين على المعجم كله لأنه ابتدأ به.

2- خضع تبويب الكلمات لنظام الكمية ، وسجل الكلمات حسب التقسيم الأتي:

أ- **الثنائي** : (وقصد به الخليل ما اجتمع فيه حرفان من الحروف الصحيحة ولو مع تكرار أحدهما في أي موضع، فالكلمات : قَدْ، قدّ، قدْقد، كلها تعالج في موضع واحد، علما بأن الأولى ثنائية، وقد الثانية مضعف ثلاثي، وقدقد مضعف رباعي كما هو مشاهد).

ب- ب1- الثلاثي الصحيح (وأراد بالثلاثي الصحيح ما اجتمع فيه ثلاثة أحرف صحيحة على أن تكون من أصول الكلمة مثل ضرب) .

ب2 – الثلاثي المعتل (ويعني بالثلاثي المعتل ما اجتمع فيه حرفان صحيحان وحرف علة واحد،سواء كان هذا الحرف في موقع الفاء أو العين أو اللام يعني مثالا أو أجوفا أو ناقصا).

ب3- اللفيف: (ويعني باللفيف ما كان به حرف علة سواء كان مقرونا أو مفروقا)

ج- الرباعي

د- الخماسي: وجعل هذه الأبنية الأربعة وهي الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي أساس تقسيم الكتب إلى أبواب.

3- عالج الكلمة بتقلباتها في موضع واحد، فمثلا ضرب وتقلباتها: ضبر، رضب، بضر، برض،تعالج في مكان واحد تحت أبعد الحروف مخرجا، وهو هنا صوت الضاد، ولا يكرر هذه الكلمات عند الكلام على الراء أو الباء، بل يكتفي بذكرها عند الكلام على الضاد.

ومن ما يجدر الإشارة إليه أن الثنائي له صورتان والثلاثي له ستة صور والرباعي له أربعة وعشرون والخماسي مئة وعشرون، من طريق التوافيق والتباديل الرياضيين، وهذه التقليبات تشتمل على كلمات وصور غير مستعملة، مما جعل الخليل غير بعضها من بعض بقوله: مستعمل أو مهمل في الأبنية الثنائية والثلاثية. أما فيما عدى ذلك فيكتفي بإيراد المستعمل فقط، ولا ينص على المهمل لأنه كثير جدا.

ولمنهج الخليل هذا أهمية بالغة عند من يرى أن الكلمات المشتركة في الحروف وإن اختلفت في الترتيب تشترك في المعنى أو المصدر الذي تتفرع منه، وهذا أعظم دليل على أن الخليل اهتم بالتفسير الاشتقاقي للمواد التي يتناولها، ولم يقف عند شرح المادة وتقاليبها وفروعها من طريق الاشتقاق العام،بل كان يذكر في كل أصل ما تفرع عنه من طريق الاشتقاق الكبير.

والخليل بهذا أسبق من ابن فارس وابن جني إلى فهم الاشتقاق الكبير، وهو دلالة الحروف في كلمة من الكلمات على اختلاف ترتيب هذه الحروف على أصل معنوى واحد.

4- ألزم الخليل نفسه في منهجه بالترتيب الدقيق، ويمثل هذا أنه إذا كان بصدد الأفعال ذكر الماضي فالمضارع، فالمصدر، كأن يقول: " جدعته أجدعه جدعا " ، وإذا كانت المصادر تختلف معانيها باختلاف صيغها فإن هناك فرق بينها.

5- أقام الخليل شرح المواد اللغوية على دعائم قوية من الشواهد القرآنية والحديث النبوي الشريف والشعر والأمثال .

هذا باختصار جدا منهجه في تأليف العين.

ثانيا: الخليل ومشكلة الإفصاحية:

لقد كان لدخول غير العرب الحضارة العربية الإسلامية أن كان لنتيجة معايشتهم لعامة الشعب أن ظهرت لغة العوام وهي ما يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين، وقد أخذت هذه اللغة تؤكد وجودها يوما بعد يوم، بعد أن انفصلت عن الفصحى، إلى أن أقر بعض العلماء بأن التعبير الأدبي في لغة العوام له سماته التي لا ينبغي للفصحى أن تغيره[4].

ولم يقتصر الأمر على ظهور لغة العوام جنبا إلى جنب مع اللغة الفصحى بل إن اللغة الفصحى لم تسلم من تأثير العامية فيها سواء في الإعراب أو الألفاظ أو التراكيب[5].

ولم يعتمد الخليل على رواية اللغة وإنما كما ألمحنا سابقا، فطن إلى ذلك صوتيا نتيجة مخالطة الأعراب الفصحى،(سأل الكسائي الخليل بن أحمد: من أين علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج الكسائي وأنفذ خمس عشرة قنينة من الحبر في الكتابة على العرب سوى ما حفظه) [6].

هذه العشرة إذا هي التي جعلته يميز بين أصناف الكلم العربي من حيث مستوياته الفصاحية،دون أن يعتمد على رواية اللغة ، والأخذ عن أعراب فصحاء، ضف إلى ذلك أنه لم يكن بمعزل في نشاطه الأدبي واللغوي عن الحياة العامة، بل إن بيئته الثقافية العامة كانت من النشاط مثل مجالس الغناء والطرب الذي يشترط فيه أن يكون المغني أو المغنية على قدر واف من الثقافة العربية،ومثل مجالس الخلفاء التي كانت تجمع المتخصصين في فروع العلم والمعرفة .

- وقد كانت نتيجة هذا النشاط الهائل في الجمع والدراسة والتحصيل أن برزت المشكلات اللغوية مثل مشكلة الفصاحة، إذ بعد أن استقصى الخليل جمع اللغة، وجد أن بعض القبائل قد تشذ في استخدام ألفاظ في غرض معين لا تستخدمها القبائل الأخرى في الغرض نفسه ومن ثم تساءل أي الألفاظ أصلح في التعبير عن هذا الغرض؟ ومن ثم حرر لذلك ضابطا يعرف به ما اكترث العرب من غيره على غرار ما قال به العلماء (فقالوا : الفصاحة في المفرد، خلوصة من تنافر الحروف، ومن الغرابة ومن مخالفة القياس

---

[4] ينظر مثلا في هذه القضية: الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الأندلس ببغداد، تحقيق إبراهيم السمرائي، ط2 / 1970، 146/1 .

[5] نفسه 141/1 .

[6] أبو البركات ابن الأنباري: نزهة الألباب في طبقات الأدباء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2 ،1968، ص50.

اللغوي)[7] ، وزاد بعضهم في شروط الفصاحة خلوصة من الكراهة في السمع بأن يمج الكلمة وينبو عن سماعها ... [8].

- ولقد ميز بين ما هو من كلام العرب من ناحية، وما روي عنهم وليس من كلامهم من ناحية أخرى، فقد كان نتيجة تقادم العهد بالعرب، واختلاف بعض الآراء الذين أخذت عنهم الأخبار ثم نتيجة المنافسة الشديدة بين علماء اللغة وبخاصة إذا احتكم إليهم في مجالس الخلفاء في موضوع ما ، ثم نتيجة الصراع الشديد بين البصريين والكوفيين أن ظهرت في اللغة ألفاظ غريبة لم يعرف لها مصدر، ومن ثم فقد عكف الخليل على تخليص اللغة من هذه الألفاظ إذ نقل السيوطي عنه في المزهر باب تحت عنوان " ما روي من اللغة ولم يصح ولم يثبت" ، وما كتبه المبرد في كتابه "الكامل" تحت عنوان "أكاذيب العرب "
- أشار الخليل في كتابه العين إلى الألفاظ العربية القديمة والإسلامية والمولدة التي أتت نتيجة توسع الدولة الإسلامية وبذلك ازدادت ثروة اللغة العربية.

ثالثا: المعرب والدخيل في معجم العين:

لما انتهى زمن البحث الميداني وغلب على العلماء النزعة إلى التصنيف والتنظيم، أخذ كل عالم يجمع مادته في الموضوع الذي يود التصنيف فيه، كأن يكون موضوع الأنواء أو الخيل أو النوادر إلى غير ذلك ، هذه المادة الهائلة التي يجمعها علماء اللغة في كتبهم،صبت فيما بعد في التأليف المعجمي حقا إن الخليل ابن أحمد كان قد ألف كتابه العين في زمن مبكر قبل أن يظهر معظم هذه الأعمال اللغوية لكن تأليف الخليل بن أحمد لكتابه يعد طفرة سابقة لأوانها، ولم يأخذ المعجم في الحقيقة شكلا مكتملا إلا بعد أن تمت تلك المحاولات المفردة لاستقصاء المفردات اللغوية ومعانيها في كثير من الموضوعات، ونحاول الآن أن نتحدث عن موضوع المعرب والدخيل في معجم العين.

لقد أقر علماء اللغة لبعض القبائل بالفصاحة وأنكروها على بعضها الآخر ومن ثم فقد كانوا إذا سئلوا عن شيء من كلام هذه القبائل الأخيرة قالوا هذه لغة، أو هذه لهجة. أما الألفاظ الدخيلة التي دخلت في اللغة العربية فقد سموها المعرب والدخيل، ولهذا يشير نص ابن حيان في الارتشاف بقوله: " الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام، قسم غيرته العرب وألحقته بكلامها، فحكم أبنيته في اعتبار الأصلي والزائد والوزن حكم أبنية غيره. وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الأول الذي قبله نحو آجر ، وسفسير ، وقسم تركوه غير مغير، فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يعد منها ، وما ألحقوه بها عد منها، مثال الأول: خراسان ، ما يثبت به فعالان ، ومثال الثاني خرّامي ، الحق يسلّم، وكركم الحق بقمقم " [9].

---

[7] المزهر، السيوطي، دار الضبي ، القاهرة، 182/1.

[8] نفسه، 186/1 -187

[9] المزهر 1 /269 .

حتى إذا كان القرن السادس الهجري ألف الجواليقي في هذا الموضوع كتابا كاملا هو كتاب "المعرب من الكلام الأعجمي" ، وقد تأثر الجواليقي في كتابه هذا بفكرة الخليل بن أحمد في التمييز بين الألفاظ الفصيحة والألفاظ الدخيلة على أساس جرس الألفاظ، أو المواءمة الصوتية للمفردة المعجمية فالألفاظ التي تجتمع فيها الجيم والقاف أو الصاد والجيم، أو النون والراء تالية لها، أو الدال والراء تالية لها، أو الباء والسين والتاء، والألفاظ الرباعية والخماسية الخالية من حروف الذلاقة تكون من الألفاظ الدخيلة [10] .

ومن هنا يتبين لنا كيف مضى الخليل من طريق المواءمة الصوتية أن يفرق بين الفصيح ومستوياته في اللغة العربية، وسنبين كيف أن التأليف الصوتي اتخذ منه الخليل قاعدة لسانية للتطبيق على كافة اللغة للتمييز بين أصناف المنطوق اللساني:

رابعا: الشكل الفونولوجي والمواءمة الصوتية والانتقاء القياسي للغة:

قد حدد الخليل من طريق الشكل الفونولوجي نمطية التأليف الصوتي في الوحدة المعجمية العربية، رغبة منه في التمييز بين ما هو عربي خالص من كلام العرب وما هو محدث مبتدع فيه. وقد أعطى أصواتا بعينها قيمة تمييزية ورأى أنها من خصائص التأليف الصوتي في العربية، وهي "حروف الذلاقة" وعددها ثلاثة وهي: الراء والام والنون ، "والحروف الشفوية"وهي ثلاثة أيضا وهي الفاء والباء والميم، فإن هذه الحروف الستة (لما ذلقت ومذل بها اللسان وسهلت عليه في المنطق كثرت في أبنية الكلام)[11].

على أن الخليل قد خص بالنظر من أصناف الأبنية صنفين هما الرباعي والخماسي لأن هذين البنائين فيما يبدو أكثر عرضة للوضع والاختلاف لأنهما أقل جريانا على الألسنة وأقل ورودا في الشواهد اللغوية من الثنائي- ويشتمل عنده على الثلاثي المضاعف والثلاثي. فليس في كلام العرب إذا حسب النظرية الخليلية رباعي أو خماسي إلا وفيه من الحروف الستة التي ذكر فيها حرفا واحدا أو أكثر: " فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة صوتما محدثا مبتدعا ليس من كلام العرب، لأنك لست واحدا من يسمع من كلام العربي كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية حرف واحد أو اثنان أو أكثر "[12].

على أن من الصيغ الرباعية – ولم يذكر الخماسية- ما قد يرد معرى من حروف الذلاقة والحروف الشفوية ومن أمثلتها (العسجد و القداحس و الدعشوقة) [13] ، وقد وجد الخليل في هذه الصيغ حروفا أخرى ذات قيمة صوتية تمييزية هي العين والقاف، وقد سماها "حرفي طلاقة"، والسين والدال فإن:" العين والقاف لا تدخلان في بناء الإ حسنتاه لأنها أطلق الحرف و أضخمها جرسا [14]، والسين والدال تردان بعدهما في الاستحسان للينهما

---

[10] حسين نصار: المعجم العربي نشأته وتطوره، دار مصر للطباعة، 71/1 .

[11] الخليل ، العين: تحقيق مهدي المخزومي وابراهيم السمرائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،1988، 52/1.

[12] السابق: 52/1 .

[13] نفسه 53/1 .

[14] نفسه 53/1 .

وخفتهما ، وقد استخلص من ذلك أنه " مهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من الحروف الذلق والشفوية، فإنه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة أو كلاهما ومن السين والدال أو أحدهما [15].

إلا أن قلة المفردات التي تكون للعين والقاف والسين والدال فيها قيمة تمييزية– فقد قال غنها " عشر كن شواذ[16]– تجعل منها من حيث التواتر أقل أهمية من الحروف الذلق و الشفوية، فإن هذه الحروف الستة هي الميزة الأساسية لأبنية العربية والخماسية من غير العربية فإنها ممثلة لسيمات مميزة في الأبنية العربية الصرف الرباعية والخماسية خاصة، ويستخلص من هذه الميزة بالقاعدة التالية:" لا تخلو مفردة عربية صرف رباعية أو خماسية من حرف واحد أو أكثر من الحروف الذلق أم الشفوية" .

زيادة على ما ورد في المواءمة الصوتية للتأليف الصوتي للوحدة المعجمية، وطريقة انتقاء الخليل للفصيح، فإنه قد عنى عناية بالغة بلغات العرب، وقد سمى منها ثلاث لغات هي: عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وقطعة طي، كما أشار إلى لغت هذيل وتميم واليمن، بل أورد كثيرا من لغات المعاصرين له في العراق.[17]

الخاتـمـة :

لقد حاولنا في الفتات السابقة إلقاء النظر على تلك النظرة البارعة لكيفية التأليف الصوتي للمفردة العربية وكيفية موائمة صواتمها لبعضها البعض والتي ألفت إليها الخليل في معجمه العين بحيث عرف أن للمفردة العربية الفصيحة شكل صوتيمات فيه من السماة ما يجعل المفردة تختلف عن غيرها من المفردات صوتيا .

وقد رأينا تفطن الخليل إلى أهمية التأليف الصوتي في المفردة اللغوية لكنه لم يهتم بهذه الميزة باعتبارها خصائص تمييزية للمفردات داخل النظام اللغوي العربي، بقدر ما اهتم بها باعتبارها خصائص تميز بين ما هو من كلام العرب وما هو مبتدع مختلف فيه، ليس من كلامهم، ومن ثم تفطن إلى صلة الأصوات بالمعجم من خلال المكونات الأساسية للمفردات، ومنه تستمد خصائصها الذاتية.

---

[15] نفيه 54/1.

[16] نفسه 53/1 .

[17] حسين نصار: المعجم العربي، 256/1.

التحديـدات المصطلحاتيـة في تراثنا

الأستاذ بوشاقور علي.
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

المقدمـة:

لقد أولى علماؤنا أهمية كبيرة لموضوع المصطلحات في إطار اهتمامهم باللغة حتى يستوعب الدارس والقارئ الدلالة أو المفهوم الذي يوحي به المصطلح وقدموا في هذا الاتجاه دراسات وبحوثا كان لها الأثر الكبير في بيان الترابط بين المصطلح والمفهوم.

وإذا كان بعض العرب يرى أن اللسانيات العامة لها فوائد كثيرة على البحث اللغوي من جانب المنهجية ومن جانب إثرائه بمفاهيم المصطلحات الجديدة، فهذا لا يعني أبدا أن المصطلحات كانت مغيبة في تراثنا بل إن الاهتمام بالمصطلحات كان الشغل الشاغل لأغلب المصنفين والمشتغلين في حقل اللغة.

إن المصطلح عبارة عن كلمة أو مجموعة من الكلمات تتجاوز دلالتها اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصورات فكرية وتسميتها في إطار معين تقوى على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات معينة، والمصطلح بهذا المعنى هو الذي يستطيع الإمساك بالعناصر الموحدة للمفهوم والتمكن من انتظامها في قالب لفظي... ([18])

وانطلاقا من هذا التحديد للمصطلح فقد حرص علماؤنا على رسم حدود المصطلحات كلما قابلهم معتقدين أنه كلما أدرك القارئ الترابط الموجود بين المصطلح والمفهوم كان الولوج سهلا إلى ذلك العلم المنضوي تحت المصطلح فقد أدركوا أن فهم المصطلحات هم فهم البحوث والموضوعات فهي بمثابة المفاتيح للعلوم.

---

[18] – مدخل إلى علم المصطلح، أحمد أبو حسن، ص60.

ولقد فضلت في هذا البحث أن أبدأ من القرن الخامس الهجري وبالتحديد مع الأمير محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي المتوفى سنة 466هـ .

فقد قال حينما عقد فصلا في الحروف:

الحرف في كلام العرب يراد به حد الشيء وحدته ومن ذلك حرف السين إنما هو حده وناحيته...، وسميت الحروف حروفا لأن الحروف حد منقطع الصوت، وقد قيل: إنما سميت بذلك لأنها جهات للكلام ونواح، كحروف الشيء وجهاته... منه سمي مكسب الرجل حرفة،

لأنه الجهة التي انحرف إليها، والتحريف في الكلام الميل والانحراف، قال الله تعالى:

(يحرفون الكلم عن مواضعه) ([19])

ثم تعرض ابن سنان الخفاجي إلى مصطلح الحرف عند أهل العربية إذ قال: أما تسمية أهل العربية أدوات المعاني نحو: من، وقد، حروفا فإنهم زعموا أنهم سموها بذلك لأنها تأتي في أول الكلام وآخره فصارت كالحروف والحدود له، وقد قال بعضهم: إنما سميت حروفا لانحرافها عن الأسماء والأفعال، وهي عندنا كلام، لأنها منتظمة من حرفين فصاعدا ([20])

وهذا خلاف لما يراه الجمهور لأن الكلام عندهم ينتظم من كلمتين فصاعدا.

ويواصل ابن سنان الخفاجي قوله: وأما قولهم للحروف التي في لغة العرب حروف المعجم فليس بصفة للحروف لأن ذلك يفسد من وجهين: أحدهما: امتناع وصف النكرة بالمعرفة، والثاني: إضافة الموصوف إلى صفته والصفة عند النحويين هي الموصوف في المعنى ومحال أن يضاف الشيء إلى نفسه. ([21])

وغرضنا من هذا أن نبين مدى حرص علماء اللغة العربية على تحديد المصطلحات منذ العصور الأولى الهجرية لما لها من أهمية في لفت انتباه القارئ إلى الموضوع من خلال فهم المصطلح.

ولقد اخترت هذا الموضوع انطلاقا من انشغالي بالتراث منذ دراستي في الماجستير، إذ وجدت لدى القدماء اهتماما كبيرا بالتحديدات فلا يمرون على كلمة تحتاج إلى التوضيح إلا وقفوا عندها ووضحوها بحيث لا يبقى مجال للشك في أن الكلمات أصبحت محددة والأمثلة على ذلك كثيرة إلا أنني اخترت بعض المخطوطات لتكون نماذج للتحديدات المصطلحاتية.

المخطوط الأول:

« لقمة المبتدى » وهو مخطوط في العروض لعلي بن عبد الرحمان الجزائري.

بدأه مؤلفه بعنوان: « ديوان الشعر» ، ولم يتناول الميزان المقصود به البحور إلا بعد أن وقف عند مصطلح " الشعر" فعرفه لغة واصطلاحا، فقال:

---

[19] – سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي ص14.

[20] – سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص14.

[21] – المصدر نفسه والصفحة نفسها.

الشعر لغة: هو العلم والفهم يقال: " شعرت بكذا " أي تفطنت له وعلمته، وخص الشعر بجنس الموزون من الكلام.

وفي الاصطلاح: هو النظم من كلام العرب أو ما وافقه وزنا ([22])

ثم يعود ليحدد لفظا يعتقد أنه يحتاج إلى تحديد وهو: " النظم " فقال:

النظم لغة: العقد بكسر العين ومنه نظمت العقد ([23]) ، وفي الاصطلاح هو كلام موزون قصد وزنه فارتبط لمعنى وقافية .

النظم اصطلاحا: وهذا منهجه في كل المصنف وكان حرص المؤلف شديدا على تحديد المصطلحات حتى عندما يتعرض للأسباب والأوتاد يصنع لها صورة أي شكلا معينا ليكون محددا أكثر لدى الدارس.

يقول: السبب أوله حرف محرك دائما فإذا ضممت إليه حرفا ساكنا سمي سببا خفيفا نحو: "قد وزنه فل" وهذه صورته. ([24]) ويرسم صورته.

ومما يلفت الانتباه في هذا المخطوط أنه نموذج لموقف علمائنا من المصطلحات فكانوا يحرصون أشد الحرص على أن تكون واضحة محددة.

والمصطلحات لا تزال تشكل إلى يومنا هذا مشكلا كبيرا بالنسبة للطلبة الدارسين والباحثين المبتدئين.

المخطوط الثاني: حقائق على الآجرومية: وهو مخطوط في النحو لأحمد ابن محمد المكنى بابن شعيب شرح فيه الآجرومية فال في باب الكلام (الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع)، يقول: اعلم أن الكلام لغوي واصطلاحي.

أما اللغوي فيطلق ويراد به حديث النفس ....، أما في الاصطلاح الكلام هو اللفظ، وحقيقة اللفظ عبارة عن الصوت المنقطع. ([25])

ويقول في الجزم: الجزم لغة القطع، واصطلاحا ذهاب حركة أو حرف من آخر الفعل المعرب...([26])

وما نستنتجه من خلال تعاملنا مع المخطوطات أن اهتمام علمائنا بالتحديدات كان شغلهم الشاغل والأمثلة في هذا الباب كثيرة في تراثنا، وأخص بهذا هنا المصنفين الجزائريين والشراح الذين اهتموا بشرح" الألفية " و " الآجرومية " و " النظم " .

ولم يكتف ابن شعيب حينما تعرض لمصطلح المنادى، لم يكتف بالتعريف اللغوي بل تعدى ذلك إلى التعريف الاصطلاحي حتى لا يترك مجالا للشك في أن القارئ قد فهم المصطلح يقول: قال الصباغ ([27]) .

---

[22] – **لقمة المبتدي، ص01.**

[23] – **المصدر نفسه، والصفحة نفسها.**

[24] – **لقمة المبتدي، ص03.**

[25] – **حقائق على الآجرومية، ص06.**

[26] – **المصدر نفسه، ص58.**

النداء في اللغة: رفع الصوت يقال: فلان أندا من فلان، أي أرفع صوتا منه. ([28])

وفي الإصطلاح: دعاء المخاطب بياء أو غيرها من حروف النداء لفظا أو تقديرا، فمثال اللفظي: يا زيد، والتقديري: ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ ([29]) .... ([30])

فنلاحظ من خلال هذا أن ابن شعيب لم يكتف بالتعريف اللغوي والاصطلاحي فحسب بل أكد على المعنى في ذهن القارئ بإثبات أمثلة كشواهد.

ويقول صاحب لقمة المبتدئ في مصطلح المعاقبة والمراقبة والمكانفة ما يأتي:

اختلف العروضيون في المعاقبة والمراقبة هل هما من الزحاف ؟.

والمعاقبة هو أن يتولى سببان في جزء أو جزئين فهما يتعاقبان فإذا زوحف السبب الأول منهما فسقط ساكنه سم الثاني وثبت ساكنه وعكسه ولا يسقطان، ويجوز أن يسلما معا في جزء كمفاعيلن أو جزئيين كفاعلتن فاعلن ([31])

كما تعرض لمصطلح المراقبة إذ قال:

حقيقتها أن يتقابل سببان في جزء واحد فيسقط ساكن أحدهما ويثبت للآخر ولا يسقطان معا ولا يثبتان معا، أعني أنه يمتنع الإثبات فيهما معا والحذف فيهما معا ومحلها يجر المضارع باتفاق في سببي مفاعيلن أعني الياء والنون ([32])

أما عن المكافئة فقال: هو جواز سلامة السببين المجتمعين ومزاحفتهما أو أحدهما ومحلها:السريع و المنسح و البسيط و الرجز.

ففي البسيط والرجز مستفعلن المجموع الوتد وفي السريع والمنسرح مفعولات، ففي هذه الأشطار يجوز إسقاط ساكني السببين معا وإثباتهما معا وإسقاط أحدهما وإثبات الآخر ([33])

المخطوط الثالث: إعراب الجمل" لنور الدين عبد القادر مخطوط في النحو.

فقد اهتم نور الدين عبد القادر كثيرا بالتحديدات المصطلحاتية وهذا ما نجده في مصنفه المذكور قال في الجملة:والجملة كل مركب إسنادي أفاد أم لم يفد نحو: " قام زيد " ، فهذا مثال للمفيد، ولغير المفيد نحو: إن قام زيد. ([34])

---

[27] – الصباغ: هو محمد بن أحمد بن علي الصباغ الجزائري من معسكر، كان قاضيا بقلعة هوارة التي تدعى اليوم قلعة بني راشد، وقد عاصر سيدي أحمد بن يوسف وعرفه شخصيا، وألف له بعد وفاته كتاب: بستان الأزهار في مناصب زمزم الأحرار ومعدن الأنوار سيدي احمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، يراجع مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ص73.

[28] – حقائق على الآجرومية لمحمد بن أحمد، ص168، رسالة ماجستير.بوشاقور علي، جامعة وهران، مخطوط حقائق على الآجرومية، لوحة 81.

[29] – سورة يوسف، الآية29.

[30] – حقائق على الآجرومية، رسالة ماجستير.

[31] – لقمة المبتدي، ص30.

[32] – المصدر نفسه، ص31.

[33] – المصدر نفسه، ص32.

[34] – إعراب الجمل، نور الدين عبد القادر، ص06.

المخطوط الرابع: " شرح اللامية المجرادية في الكلام على الجمل النحوية " لعبد القادر المجاوي نجد فيه اهتماما كبيرا بالمصطلحات فقد ورد فيه الآتي:

الفصل في اللغة الحاجز بين الشيئين، وفي الإصطلاح اسم لطائفة من المسائل مشتركة مع ما قبلها في الحكم فإن كانت غير مشتركة فيعبرون عنها بالباب ([35])

وهذا الاهتمام بالمصطلحات نجده كثيرا في تراثنا كلما ولينا نحو مخطوط في النحو ولم يتوقف هذا الاهتمام بل استمر حتى عند علمائنا في العصر الحديث.

ونجد هذا الاهتمام بتحديد المصطلحات عند الشيخ: الطيب المهاجي (ت 1969 م) في كتابه: " التراكيب النحوية " .

فقد ورد ما يأتي:

فالإعراب روح التراكيب النحوية ولذا أفردوه بباب تضمن تعريف الإعراب ([36])

ثم أفرد لهذا المصطلح عنصرا بكامله تحت عنوان:

تعريف الإعراب لغة واصطلاحا ([37])

وقد أورد تحت هذا العنصر ما يأتي:

الإعراب لغة: له معان منها هنا البيان، ومعناه اصطلاحا: تغيير ظاهر أو مقدر محله آخر كلمة، ويتنوع بسبب تعاقب العوامل إلى أنواع أربعة تسمى أقسام الإعراب ([38])

وما استنتجناه من خلال تعاملنا مع المخطوطات أن اهتمام علمائنا بالتحديدات للمصطلحات كان شغلهم الشاغل والأمثلة في هذا الباب كثيرة في تراثنا وأعني بهذا هنا المصنفين الجزائريين والشراح الذين شرحوا الألفية والآجرومية.

إحصائيات تحديد المصطلحات في بعض المخطوطات:

حقائق على الآجرومية لمحمد ابن أحمد المكنى بابن شعيب.

لقد حدد المصنف عشرين مصطلحا من بين خمس وأربعين مسألة. أي: 20 / 45

الآجرومية عن طريق السؤال والجواب لنور الدين عبد القادر.

لقد حدد المصنف خمسة عشر مصطلحا من بين سبع وعشرين مسألة. أي: 25/15.

إعراب الجمل لنور الدين عبد القادر.

لقد حدد المصنف نور الدين عبد القار خمسة عشر مصطلحا من بين ثلاث وعرين مسألة أي: 23/15.

لقمة المبتدي لعلي ابن عبد الرحمن الجزائري.

لقد حدد المصنف ثمانية عشر مصطلحا من بين خمس وأربعين مسألة. أي: 45/18.

---

[35] – شرح اللامية المجرادية، ص07.

[36] – التراكيب النحوية ص01.

[37] – المصدر نفسه والصفحة نفسها

[38] – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

هذه الإحصائيات تعطينا فكرة واضحة عن مدى اهتمام علمائنا بالتحديدات للمصطلحات وأن هذه المسألة كانت الشغل الشاغل لمشايخنا اللغويين والنحويين لأنهم أدركوا أن فهم المصطلحات يسهل عليهم فهم الموضوعات والمدلولات.

معايير وضع المادة المعجمية في المعاجم اللفظيّة القديمة

الأستاذ : رشيد سهلي

المركز الجامعي العربي التبسي

الملخص :

يتناول هذا المقال بالوصف والتحليل معايير وضع المادة المعجميّة في المعاجم اللفظيّة القديمة ، بمراحلها المختلفة ، واقتضت طبيعة هذه البحث أن تكون على النحو التالي :

التمهيد : وتحدثت فيه عن الكلمة بوصفها المادة الأساسيّة في المعجم فأشرت إلى مفهومها لدى القدماء والمحدثين وموقف المعجميين من ذلك المفهوم .

المبحث الأول :

وتحدثت فيه بإيجاز عن جمع المادة المعجميّة فبيّنت الدوافع إلى جمع المادة اللغويّة ثمّ أهم الطرق التي سلكها المعجميون في جمع مادتهم ، ومصادر تلك المادة التي جمعوها.

المبحث الثانيّ :

وتحدثت فيه عن ترتيب المادة المعجميّة لدى المعجميين القدماء ، سواء كان ذلك ترتيباً خارجياً للمداخل أم ترتيباً داخلياً ، وكان لابد أن أعرض لأهم المدارس المعجميّة التي ظهرت كثمرة من ثمار تلك الجهود التي بلغ فيها التنافس أشدّه عند المعجميين القدماء .

المبحث الثالث :

وتحدثت فيه عن تحليل المادة المعجميّة فأشرت إلى جهود المعجميين القدماء في هذا الجانب سواء كان ذلك من ناحية اللفظ أم من ناحية المعنى ، وتطرقت فيه إلى أهم الوسائل التي سلكها المعجميون القدماء في تحليل المعنى موضحاً بعض المآخذ التي تتعلق بهذا الجانب.

الخاتمة : ولخصت فيها أهم الملاحظات التي توصلت إليها .

التمهيد:

اللغة خاصية إنسانية ينفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات وهي في أبسط وأوجز تعريفاتها :((أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم))[1] .

وتعدّ الكلمة هي المادة الأساسية في المعجم اللغويّ ومن هنا عُرِّف المعجم اللغويّ بأنّه ((كتاب يضم بين دفتيه أكبرعدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها ، وتفسير معانيها ،على أن تكون المواد مرتبة ترتيباً خاصاً ، إما على حروف الهجاء أو الموضوع ، والمعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تبيّن مواضع استعمالها))[2] .

لذا كان تدوين المعجم ضرورة لغويّة لكل مجتمع متقدم ، ليتمكن أفراده من معرفة الكثير من المعلومات التي توضح ما يحيط بالمادة الأساسية فيه ألا وهي الكلمة .[3]

أما المادة في عُرْف اللغويين فكل ما يكون مدداً لغيره ومادة الشيء أصوله وعناصره التي منها يتكون حسيّة كانت أو معنوية ومواد اللغة ألفاظها .[4]

وعلى الرّغم من وضوح الكلمة ومفهومها في الذهن إلا أن الخلاف بين علماء اللغة – قدماء ومحدثين – كبير جدّا في تحديد ماهيتها حيث إن للكلمة جوانب متعددة يمكن النظر إليها ، كالجوانب الصوتيّة أو الصرفيّة أو النحويّة أو الدلاليّة ومن ثمّ تعددت التعريفات ، وواجه كلّ تعريف منها نقداً من علماء اللغة على اختلاف مدارسهم .[5] .

فالكلمة عند النحاة من علماء العربية هي : ((اللفظة الدّالة على معنى مفرد بالوضع))[6] ، وهي ((لفظ وضع لمعنى مفرد)) [7] وهي ((قول مفرد مستقل أو منوي معه))[8] . وقد حدد ابن يعيش الشروط الواجب توافرها في مفهوم الكلمة العربيّة وهي :الصوت والمعنى أو الوضع ثمّ الاستقلال بدلالة محددة .[9]

ولكن هذه الحدود و التعريفات غير دقيقة – في نظر بعض المحدثين – لأسباب أهمها :

1–أنها لاتفرق بين الصوت والحرف .

2–أنها تخلط بين الوظيفة اللغويّة والمعاني المنطقيّة .

3–أنها لاتفرق بين وجود الكلمة وعدمها في التعريف .[10]

أما الكلمة عند المحدثين فهي : (أصغر صيغة حرّة)[11] ، وهي :((ربط معنى ما بمجموعة من الأصوات صالحة لاستعمال جراماطيقي ما))[12]، وهي : ((جزء من الحدث الكلاميّ له صلة بالواقع الخارج عن اللغة ، ويمكن اعتبارها وحدة غير قابلة للتقسيم ، ويتغيّر موضعها بالنسبة لبقية الحدث الكلاميّ))[13] .

وخلاصة القول أنّ ثمّة معايير ينطلق منها المحدثون في تصورهم لماهيّة الكلمة من أهمها :

1– معيار الدلالة وهوالذي قامت على أساسه المعاجم اللغويّة والكلمة بهذا المعيار هي التي تدل على معنى ما.

2– معيار الشكل والكلمة بهذا المعيارامتداد صوتي محدد يحافظ على شكله واستقراره حيثما وقع في الجملة ويشغل فيها وظيفة نحويّة .

3– معيار ثلاثي وفحواه أنّ الكلمة تشتمل على جوانب ثلاثة هي : الصوت ، الدلالة ، الوظيفة النحويّة .[14]

غير أن كلّ معيار من هذه المعايير– قديمها وحديثها – لا يخلو من النقص والاضطراب عند التطبيق ، ومن هنا آثر تمام حسّان تعريف الكلمة العربية بأنّها: ((صيغة ذات وظيفة لغويّة معينة في تركيب الجملة ، تقوم بدور وحدة من وحدات المعجم ، وتصلح لأن تُفْرَدَ ، أو تُحْذَفَ ، أو تُحْشَى ، أو يُغَيَّرَ موضعها ، أويُسْتَبْدَل بها غيرها في السياق وترجع مادتها غالبا إلىأصول ثلاثة وقد تلحق بها زوائد))[15]

ويرى أحد الباحثين أنّ علماء المعاجم ينطلقون من وجهة نظر تخالف غيرهم من العلماء ، ولذلك لم يحاولوا البحث عن تعريف نظريّ للكلمة ، وإنّما انصرفوا إلى تحديد ماهيتها من الناحية العملية ؛ لأنّ مهمة المعجم اللغويّ هي بيان وشرح معاني الكلمات سواء من ناحية المبنى أم المعنى.[16]

وهذا ما نلحظه في ضوء ترتيب المعاجم العربية القديمة ؛ إذ يدل ذلك على إدراك المعجميين العرب لجانبين مهمين في طبيعة الكلمة ، وهما جانب اللفظ ، وجانب المعنى ، وقد نتج عن ذلك ظهور نوعين من المعاجم اللغويّة هما:

أ– معاجم الألفاظ : وهي المعاجم التي تضم أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها وتفسير معانيها ومرتبة ترتيبا خاصا ، والمعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة .

وأول هذه المعاجم معجم (العين) المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت170هـ) رحمه الله، ثمّ توالت بعد ذلك معاجم الألفاظ كالجيم لأبى عمرو الشيباني (ت 206هـ) ، والجمهرة لابن در يد (ت321 هـ) ، والبارع للقالي (ت 356هـ) ،وتهذيب اللغة للأزهريّ(ت370هـ) ، والمحيط للصاحب ابن عباد (ت 385هـ) ، ومقاييس اللغة والمجمل لابن فارس (ت395 هـ) ، والصحاح للجوهريّ (ت 400 هـ) ، والمحكم لابن سيّده (ت458 هـ) ، وأساس البلاغة للزمخشريّ (ت 538 هـ) ، والعباب للصاغانيّ (ت 650هـ)، ولسان العرب لابن منظور (ت 711 هـ) ، والقاموس المحيط للفيروزآ باديّ (ت817هـ) ، وتاج العروس للزَّبيديّ (ت1205هـ) .

ب– معاجم الموضوعات: وهي التي ترتب الألفاظ اللغويّة حسب الموضوع أو المجال اللغويّ ، أي أنّ المعجميّ يجمع الألفاظ المتصلة بمجال معين كخلق الإنسان مثلا للأصمعيّ ، والمطر لأبي زيد الأنصاريّ ، والبئر لابن الأعرابيّ ، والنخل لأبي حاتم السجستانيّ ، ونحوها مما نظم تحت مجال واحد ، وقد لقي هذا النوع من التأليف عناية كبيرة عند القدماء بدأ بما يسمى بالرسائل اللغويّة،وانتهى بالموسوعات الموضوعيّة كالغريب المصنف لأبى عبيد (ت223هـ) ، والمنجد لكراع النمل (ت310هـ) والمخصص لابن سيده (ت458هـ) .[17] ويلاحظ مجال التنافس بين القدماء كان واضحا بالنسبة للنوع الأول (معاجم الألفاظ) حيث ظهرت عندهم عدّة طرق للترتيب المعجميّ – كما سنبينه في موضعه – بخلاف النوع الثاني (معاجم الموضوعات) حيث لم توجد عندهم إلا طريقة واحدة وهي الترتيب حسب الموضوع أو المجال .

المبحث الأول:جمع المادة المعجمية

لا يمكن الحديث عن جمع المادة المعجميّة بمعزل عن جمع المادة اللغويّة حيث كانت العناية الأولى بجمع المادة اللغويّة استجابة إلى ما توجبه المحافظة على القرآن الكريم وتفهم معانيه من حفظ مادته اللغويّة وما ترمي إليه من دقيق الدلالة والمغزى وصحيح المبنى والمعنى[18]

وعلى ضوء ذلك شمّرالأوائل من أئمة اللغة فأخذوا يجمعون اللغة وكان هدفهم الأول جمع الكلمات الغريبة وتحديد معانيها ، ويعدّ (المربد) بالبصرة أول محطة رأى فيها العلماء وطلاب العربية تحقيق ذلك الهدف حيث كان (المربد) من أسواق البصرة التي يقصدها الأعراب للمتاجرة ولتبادل المنفعة، وربما حضر بعضهم وليس عنده سلعة يبيعها ولا رغبة في شراء وإنّما جاء ليشبع رغبته في القول والإنشاد واستماع الشعر والأخبار كما هي عادة العرب في أسواقها . وكان أهل البصرة يخرجون إلى هذه السوق وبينهم فئة من رواة اللغة وطلابها جاءوا ليدونوا ما يسمعون عن هؤلاء الأعراب [19] ، وكان من بين هؤلاء الفئة الأصمعيّ ؛ إذ يقول :((جئت إلى أبى عمرو بن العلاء فقال : من أين جئت يا أصمعي ، قلت: من المربد . قال : هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت في ألواحي ، ومرّت به ستة أحرف لم يعرفها فأخذ يعدو في الدّرجة قائلاً : شمّرت في الغريب يا أصمعيّ))[20]

وعندما أحسّ الأعراب بالحاجة إليهم أخذوا يرحلون إلى الأمصار فرادى وجماعات يعرضون بضاعتهم من اللغة ، ويتلقاهم العلماء للسماع عنهم ويتنافسون في الأخذ منهم حتى أصبحت اللغة سلعة غالية يبيعها الأعراب ويشتريها الرواة في (المربد) بالبصرة وفي (الكناسة) بالكوفة ، بل إنّ منهم من اتّخذ التعليم مهنة له كأبي البيداء الرياحي الذي كان يعلم الصبيان بأجر.[21] ومنهم من ألّف الكتب كأبي خيرة الأعرابيّ الذي ألف كتاباً في الحشرات وآخر في الصفات.[22]

وكان أبو مهدي والمنتجع من أبرز الأعراب الذين يُتَحَاكَمُ إليهم ، كلّ يمثل لهجة قومه ؛ يقول الأصمعيّ :((جاء عيسى بن عمر الثقفيّ ونحن عند أبي عمرو بن العلا ء فقال يا أباعمرو: ما شيء بلغني عنك تجيزه ؟ قال: وما هو؟ قال بلغني أنك تجيز ليس الطيب إلا المسك (بالرفع) فقال أبوعمرو: نمت وأدلج الناس. ليس في الأرض حجازيّ إلا وهو ينصب، وليس في الأرض تميميّ إلا وهو يرفع . ثمّ قال أبو عمرو: قم يا يحي– يعني اليزيديّ – وأنت يا خلف– يعني خلف الأحمر– فاذهبا إلى أبي المهديّ فإنّه لا يرفع ، واذهبا إلى المنتجع ولقناه النصب فإنه لا ينصب . قال : فذهبنا فأتينا أبا المهديّ...قال اليزيديّ : ليس ملاك الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ الصالح فقال : ليس هذا لحني ولا لحن قومي ؛ فكتبنا ما سمعنا منه ، ثمّ أتينا المنتجع فأتينا رجلاً يعقل ، فقال له خلف: ليس الطيب إلا المسكَ (بالنصب) فلقّنّاه النصب وجهدنا فيه فلم ينصب وأبى إلا الرفع))[23] .

ولما طال مكث الأعراب في الحضرلانت جلودهم وطاعت ألسنتهم بشوائب العجمة ؛ يقول الجاحظ : ((كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد على أنّه كان قد وضع منزله آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة1))[24] .

فلما ضعفت ثقة العلماء بالأعراب رحل العلماء والرواة إلى البادية بمدادهم وصحفهم ليسمعوا من أولئك الذين لم تتأثر ألسنتهم بمخالطة الأعاجم ، قال أبو العباس ثعلب : ((دخل أبو عمرو الشيبانيّ (إسحاق بن مرار) البادية ومعه دستيجانحبراً فما خرج حتى أفناهما بِكَتْبِ سماعه عن العرب))[25] .

وممن خرج إلى البادية الكسائيّ،ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ماحفظ [26].

وكان أبوعمرو بن العلاء من أوائل الرواة الذين رحلوا إلىالبادية وأعجب بأهل السروات وعدّهم من أفصح العرب لساناً وأعذبهم لغة .[27]

وهكذا ظل التواصل مستمراً بين الرواة والبادية وحرص العلماء على مشافهة الأعراب حتى وجدنا في أواخر القرن الرابع من يروي عن الأعراب كالأزهريّ ، (ت370هـ) ، وابن جنيّ (ت392هـ) ، والجوهريّ (ت393هـ) وابن فارس (ت395هـ) . ثمّ توقّف هذا التواصل مع نهاية هذا القرن حتى أصبحت الرواية عن الأعراب أنفسهم يشوبها شيء من الحذر ، يقول ابن جنيّ: ((أنا لا نكاد نرى بدوياً فصيحاً وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه وينال ويغض منه))[28]

ويرى أحد الباحثين أنّ الطبقة التي تلت الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب كانت من أغزر العلماء إنتاجاً ، ومنهم ثلاثة رواة يعتبرون عصب الرواية في البصرة وهم : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وأبو زيد الأنصاري ، وعبد الملك بن قريب الأصمعيّ.[29]

وقد حدد اللغويون مادة جمعهم فيما صحّ عن العرب ضمن شروط ومعايير هي:

1- **شرط المكان** : وهو الفيصل الذي تم بمقتضاه تحديد مواطن الفصاحة في وسط الجزيرة العربية دون بقية أطرافها التي كانت على صلة بالأمم الأخرى، وفي بواديها دون الحواضرالتي كانت تعجّ بحركة الوافدين عليها من خارج الجزيرة أو من أطرافها بقصد التجارة ونحوها .

2- **شرط الزمان** : وهو الفيصل الذي تم بمقتضاه تحديد عصور الفصاحة عند منتصف القرن الثاني الهجري بالنسبة للاحتجاج باللغة الأدبية وخاصة لغة الشعر، ونهاية القرن الرابع الهجري بالنسبة للاحتجاج باللغة الشفوية المنقولة عن الأعراب.

3- **شرط الفصاحة:** وهو الشرط الذي تم بمقتضاه الحكم على فصاحة اللفظ إذا ثبتت نسبته إلى عربيّ قحّ سواء بالمشافهة أو الرواية الصحيحة وذلك العربي القحّ هو من انطبق عليه شرط الزمان والمكان السابقين .[30]

وعلى ضوء هذه المعاييرعُدّ كلّ ما خالف ذلك مولداً ، فَقُسِّم الشعراء إلى طبقات، والقبائل إلى درجات أعلاها قبيلة قريش ؛ يقول ابن فارس : ((أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم : أنّ قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ...وكانت قريش – مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها-إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم فصاروا بذلك أفصح العرب...ألا ترى أنّك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفيّة قيس ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة...))[31] .

ويقول الفارابي : ((كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عمّا في النفس))[32] .

و يقول وهو يرتب درجة الفصاحة : ((والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم أُقْتُدِيَ وعنهم أُخِذَ اللسانُ العربي من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتّكل في

الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثمّ هذيل وبعض كنانة وبعض الطّائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنّه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم ، فإنّه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين أهلَ الشام ، وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ، ولا من تغلب ولا النمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم ؛ ولامن بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وسكان الطائف ؛ لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم...))[33] .

ولكنّ اللغة لم تجمع دفعة واحدة ، بل اتّخذ جمعها أشكالاً مختلفة قسّمها بعضهم إلي ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: جمع الكلمات كيفما اتفق فالعالم يرحل إلي البادية فَيُدَون كلّ ما سمع من غير ترتيب ولا تنظيم فيجمع كلمة في المطر وكلمة في النبات وكلمة في الخيل ونحو ذلك .

المرحلة الثانية: جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد، وقد توجت هذه المرحلة بظهور الرسائل اللغويّة التي عرفت بأسماءٍ من نحو: المطر، البئر ، الإبل ونحو ذلك .[34]

ويعد موضوع الحشرات أقدم الموضوعات ، وأول من نسب إليه كتاب في ذلك أبو خيرة الأعرابي ثم تلاه بعد ذلك بعض اللغويين فألفوا في الموضوع نفسه ككتاب النحلة للشيبانيّ والأصمعي والذباب لابن الأعرابي ونحو ذلك [35].

المرحلة الثالثة: وضع معجم يضم كلّ الكلمات على نمط خاص وترتيب معين ، ويعد الخليل بن أحمد – رحمه الله – (ت170هـ) أول من شمّر لهذه المهمة ففتح الله على يده أعظم عمل لغويّ حيث سنّ لمن جاء بعده منهج التأليف المعجميّ فظهرت المعاجم اللغوية ،التي من أبرزها: الجمهرة لابن دريد(ت321هـ) ، والبارع للقالي (ت356هـ) ، وتهذيب اللغة للأزهريّ(ت370هـ) ، والمحيط للصاحب بن عباد (ت385هـ) ، ومقاييس اللغة والمجمل لابن فارس(ت395هـ) ، والصحاح للجوهريّ(ت400هـ) ، والمحكم لابن سيده(ت458هـ) ، وأساس البلاغة للزمخشريّ(ت538هـ) ، والعباب للصاغانيّ (ت650هـ) ، ولسان العرب لابن منظور(711هـ) ، والقاموس المحيط للفيروزباديّ(ت817هـ) ، وتاج العروس للزَبيديّ (ت1205هـ) .

طريقة جمع المادة المعجميّة :

أما عن طريقة جمع المادة المعجميّة فنلحظ أن القدماء اتبعوا طريقتين :

الأولى : طريقة الإحصاء التّام بغرض استقصاء المواد اللغويّة مستعملها ومهملها،ويعد الخليل بن أحمد – رحمه الله – أول من ابتدع هذا المنحى ؛ إذ أدرك بعبقريته الفذة في علوم اللغة والحساب أنّ ثمّة نظاماً من شأنه

حصر جميع المفردات اللغويّة ، فكان له فضل السبق في وضع هذا النظام الذي بُني عليه كتاب العين والذي يتفق جلّ اللغويين إن لم يكن كلّهم على أنّه من ابتكار الخليل نفسه ، ويختلفون فيما وراء ذلك .

ويحكي لنا اللّيث بن المظفر (180هـ) قصة هذا النظام، فيقول : ((كنت أصير إلى الخليل بن أحمد فقال لي يوماً :لو أن إنساناً قصد وألّف حروف ألف ، وباء ، وتاء، وثاء على أمثلة لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب فتهيأ له أصل لا يخرج عنه شيء منه بتة ، قال : فقلت له وكيف يكون ذلك ؟ قال: يؤلّفه على الثنائيّ ، والثلاثيّ،والرباعيّ، والخماسيّ وأنّه ليس يُعْرَفُ للعرب كلامٌ أكثرُ منه . قال الليث : فجعلت أستفهمه ويصف لي ولا أقف على ما يصف فاختلفت إليه في هذا المعنى أياماً ؛ ثم اعتلّ وحججت فما زلت مشفقاً عليه وخشيت أن يموت في علته فيبطل ما كان يشرحه لي فرجعت من الحج وصرت إليه فإذا هو قد ألّف الحروف كلّها على مافي صدر هذا الكتاب، فكان يملي علىّ ما يحفظ ، وما شكّ فيه يقول لي : سل عنه فإذا صحّ فأثبته إلى أن عملت الكتاب))[36] .

وخلاصة هذا النظام الذي توصل إليه الخليل بن أحمد – رحمه الله – في حصر المفردات ، أنّه يقوم على ثلاثة أسس هي:

1–الترتيب الصوتيّ الذي يعتمد على مخارج الأصوات.

2– تقليب المادة الواحدة ليتكون منها عدّة صور .

3–اتباع نظام الأبنية من ثنائيّ وثلاثيّ ورباعيّ وخماسيّ . كما سنبينه في موضعه إن شاء الله .

الثانية : طريقة الإحصاء النّاقص بُغْيَةَ الاقتصار على بعض مفردات اللغة واختيارها دون غيرها وأول من نهج هذا المنهج ابن در يد في كتابه (جمهرة اللغة) حيث قال في مقدمته :((هذا كتاب جمهرة الكلام واللغة ومعرفة جمل منها تؤدي الناظر فيها إلى معظمها إن شاء الله...وإنما أعرناه هذا الاسم ؛ لأنّا اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشيّ المستنكر والله المرشد للصواب))[37].

وممن سلك هذا المسلك الجوهريّ في صحاحه ؛ إذ يقول في مقدمته أيضاً : ((أما بعد فإني أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة ، التي شرف الله منزلتها ، وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها))[38]

وخلاصة القول في ذلك أنّ من المعجميين القدماء من أخذ بمنهج الخليل بن أحمد ، وطريقته في جمع مادته المعجمية ، ومنهم من أخذ بمنهج ابن در يد والجوهريّ : فاقتصر على المشهور أو الصحيح ، ولعلّ النّاظر في المعاجم اللغويّة القديمة يدرك من أسمائها غرض أصحابها ، وطريقة جمع مادتها، فكل اسم يوحي تقريباً بذلك.

مصادر جمع المادة المعجمية:

أما مصادر جمع المادة المعجمية لدى القدماء فيمكن حصرها في مصدرين :

أحدهما: السماع والمشافهة عن العرب ، وممن اعتمد هذا المصدر الخليل ابن أحمد –رحمه الله– في كتاب(العين) حيث نصّ الليث في مقدمته – كما أسلفنا– أنّ الخليل كان يملي عليه ما يحفظ وما شكّ فيه يقول له سل عنه، والخليل من أوائل العلماء الذين عاصروا جمع اللغة ، وسمع عن الأعراب خاصة في الحجاز ونجد وتهامة ، يضاف إلى هذا ما نجده في أثناء كتاب(العين) من روايات عن بعض من عاصر الخليل أو جاء بعده

، وروى عن العرب : كالأصمعي وأبي عبيدة وسيبويه ويونس وأبي زيد وغيرهم من الأعراب الذين كان يعوّل عليهم في رواية اللغة كأبي الدقيش وعرام وزائدة وأبي ليلى.

وممن اعتمد السماع والمشافهة من المعجميين القدماء الأزهريّ في(التهذيب) فقد ذكر في مقدمته أنّ من دواعي تأليفه((تقييد نكت حفظها ووعاها عن العرب الذين شاهدهم وأقام بين ظهرانيهم سُنيّات))[39]

ويقول في موضع آخر: ((ولم أُوْدِعْ كتابي هذا من كلام العرب إلا ماصحّ لي سماعاً منهم ، أو رواية عن ثقة أو حكاية عن خطّ ذي معرفة ثاقبة اقترنت إليها معرفتي))[40] .

وممن اعتمد السماع والمشافهة الجوهريّ في (الصحاح) ؛ إذ ألزم نفسه ما صحّ عنده رواية ودراية ومشافهة للعرب في البادية وخاصة في الحجاز وربيعة ومضر إذ يقول : ((فإني قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة بعد تحصيلها بالعراق رواية وإتقانها دراية ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية. ولم آل في ذلك نصحاً ولا ادخرت وسعاً))[41] .

الآخر : الرواية النقليّة ويعدّ هذا الأسلوب من الرواية مما يميّز المعاجم اللغويّة بصفة عامة حيث نلحظ أن اللاحق يروي عن السابق ، وقد أشار ابن دريد إلى هذه التبعيّة ؛ إذ يقول في مقدمة كتابه(جمهرة اللغة)عن الخليل وكتاب(العين) : ((وكل مَنْ بعده له تَبَعٌ أقرّ بذلك أم جحد ولكنه رحمه الله ألّف كتاباً مشكلاً لثقوب فهمه وذكاء فطنته وحدّة أذهان أهل عصره))[42] .

ولعل هذا ما دفع أحد خصوم ابن دريد إلى إنكار كتاب (الجمهرة) بحجة أنّه كتاب (العين) ؛ إلا أنه قد غيّره [43].

وأول من اعتمد الرواية عن السابقين اعتماداً كلياً– فيما نعلم – القالي (356هـ) في كتابه(البارع في اللغة) وإنّ من الطرائف التي ذكرها محققه هو أن كتاب(البارع) ما هو إلا كتاب(العين) للخليل بن أحمد ؛ لشدة التشابه بينهما.[44]

وهكذا ظلّ أصحاب معاجم الألفاظ يعتمدون في جمع مادتهم المعجميّة على الرّواية النقليّة عن السابقين حتى رأينا ذلك واضحاً جلياً عند المتأخرين منهم خاصة كصاحب(المقاييس) وصاحب (اللسان) وصاحب(التّاج) فقد ذكر الأول أنّه اعتمد في جمع مادته المعجمية على خمسة كتب هي: كتاب العين للخليل ، وإصلاح المنطق لابن السّكيّت ، والجمهرة لابن در يد ، وغريب الحديث ، ومصنّف الحديث لأبى عبيد ، حيث يقول في مقدمته : ((فهذه الكتب معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع إليها))[45] .

ويفصح ابن منظور في (اللسان) عَنْ أنّه نقل معجمه عن سابقيه كتهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم لابن سيده ، والصحاح للجوهري ، والحواشي لابن بريّ ، والنهاية لابن الأثير . وفي ذلك يقول :

((وقد نقلت من كلّ أصل مضمونه ولم أبدل منه شيئاً بل أديت الأمانة وما تصرفت فيها بكلام غيرما فيها فليعتدّ من ينقل عن كتابي هذا أنّه إنمّا ينقل عن هذه الأصول الخمسة))[46] .

ويذكر الزَّبيديّ صاحب (التاج) أنّه جمع مادته المعجميّة مما يقرب من مائة وعشرين كتاباً من بينها المعاجم السابقة : كالجمهرة والتهذيب والمحكم والصحاح والمجمل ولسان العرب والتكملة وأساس البلاغة وغيرها موضحاً

في مقدمته أنّ عمله اقتصر في كتابه (تاج العروس) على جمع ما تفرّق في هذه الكتب، إذ يقول :((وجمعت منها في هذا الشرح ما تفرّق وقرنت بين ما غرّب منها وبين ما شرّق وأنا مع ذلك لا أَدعي فيه دعوى فأقول شافهت أو سمعت أو شَدَدْت أو رحلت وليس لي في هذا الشرح فضيلةٌ سوى أنني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب))[47] .

وخلاصة القول أنّ الأخذ والاعتماد على السابقين في جمع المادة المعجمية أدى إلى وفرة المجموع وتضخمه واعتبار اللغة العربية وحدة واحدة مع اختلاف القبائل ألفاظا ، وتراكيبَ ولهجةً ، إذ لم تكن تلك الوفرة وذلك المجموع في درجة واحدة من الصحة فتطرق الخلل إليه أحياناً من وجوه أهمها :

1 – تعدد الأقوال في الوحدة المعجمية الواحدة .

2–فُشُوُّ ظاهرة التصحيف والتحريف نتيجة اعتماد المتأخرين على النقل عن السابقين .

3 – الخلط بين مستوى الفصحى واللهجات العربية وقد كان لذلك الأثر الأكبر في بروز ظواهر لغوية كظاهرة : المشترك والترادف والأضداد ، أو تعدد صيغ الجمع الواحد ، أو تعدد المصادر ونحوها .

4– وجود ثغرات في جمع المادة المعجميّة أدت إلى ضياع كثير من الثروة اللغويّة التي كان حقها أن تأخذ مكانها في المعجم اللغويّ [48] .

المبحث الثاني:ترتيب المادة المعجمية:

ونعني به الطريقة التي عالج بها المعجميون القدماء تنظيم مادتهم المعجميّة ، وقبل الوقوف على هذه الطريقة يجدر بنا أن نشير إلى رأي المحدثين من علماء المعاجم في هذا الجانب ، حيث يرى المحدثون أنّ هناك نوعين من الترتيب يجب أن يُرَاعَيَا في وضع المعجم هما : [49]

النوع الأول الترتيب الخارجيّ للمداخل :

ويسمى بالترتيب الأكبر، ويتم ذلك باتباع طريقة من طرق الترتيب القائمة على الحروف الهجائية أو غيرها . وهذا النوع من الترتيب يعدّ شرطاً لوجود المعجم وبدونه يفقد العمل المعجمي قيمته المرجعية .

وبالوقوف على معاجم الألفاظ عند القدماء ، نجد أنّ المعجميين أدركوا أهمية النوع الأول وهو الترتيب الخارجيّ للمدخل فبرعوا في ضبطه وكانت عنايتهم به تعدّ الأساس الأول في تنظيم مادتهم المعجميّة ، فكان من آثار ذلك ظهور العديد من المدارس التي تسير على عدد من الأنظمة يمكن تصنيفها على النحو الأتي:

أولاً :النظام الصوتيّ أو المدرسة الصوتيّة

وأول من ابتدع هذا النظام الخليل بن أحمد – رحمه الله – في كتاب (العين) المنسوب إليه ويقوم هذا النظام على ثلاثة أسس يكمل بعضها بعضاً وهي :

ا– الترتيب الصوتي : حيث رتب مواده حسب مخارج الأصوات وفق النظام التالي :

ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و أي[50]

فبدأ كتابه بمجموعة الأصوات الحلقية وهي ع –ح – هـ –غ ثمّ اللهوية وهي ق– ك ثم الشجرية وهي ج – ش – ض ثمّ الأسلية وهي ص – ز ثمّ النطعيّة وهي ط – د – ت ثمّ اللثوية وهي ظ – ث – ذ ثم الذلقيّة وهي :

ر – ل – ن – ف – ب – م ثم الهوائية وهي و – ا – ي ، وأخيراً الهمزة .

وقد روي عن الخليل – رحمه الله – أنّه بدأ بالعين دون سواها من أصوات الحلق لأسباب تتبيّن من قوله : ((لم أبدأ بالهمزة لأنّها يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالألف لأنّها لا تكون في ابتداء كلمة ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لأنّها مهموسة خفية لا صوت لها ، فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف...))[51] .

ب– نظام الكميّة : حيث أخضع الخليل بن أحمد – رحمه الله – مادته المعجمية لنظام الكمية فرأى أنّ الكلمات العربية باعتبار أصولها إما أن تكون ثنائيّة أو ثلاثيّة أو رباعيّة أو خماسيّة ؛ إذ يقول : ((كلام العرب مبني على أربعة أصناف: على الثنائيّ والثلاثيّ والرباعيّ والخماسيّ فالثنائيّ على حرفين نحو: قد ولم...والثلاثيّ من الأفعال نحو قولك : ضرب ..... ومن الأسماء نحو : عمر.....والرباعيّ من الأفعال نحو: دحرج... ...ومن الأسماء نحو : عبقر...والخماسيّ من الأفعال نحو اسحنكك ...ومن الأسماء نحو : سفرجل...وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف))[52] .

وعلى ضوء ذلك جاء ت معالجته للكلمات في حرف العين على النحو التالي:

أولاً – الثنائيّ وهو ما اجتمع فيه حرفان صحيحان ولو تكرر أحدهما نحو قَدَّ ، وقَدْقَدَ ، ولو، وبل .

ثانياً– الثلاثيّ الصحيح وهو ما اجتمع فيه ثلاثة أحرف صحيحة على أن تكون من أصول الكلمة .

ثالثاً: الثلاثيّ المعتل وهو ما اجتمع فيه حرفان صحيحان ، وحرف واحد من حروف العلة (مثال أو أجوف أو ناقص)

رابعاً : اللفيف وهو ما اجتمع فيه حرفا علة في أي موضع (مفروق أو مقرون)

خامساً : الرباعيّ وهو ما اشتمل على أربعة أحرف .

سادساً: الخماسيّ وهو ما اشتمل على خمسة أحرف .

سابعاً : المعتل وقد أدخل فيه الهمزة بحجة أنّها قدّ تسهّل إلى أحد حروف العلة.[53]

ج – **نظام التقليبات** : وقد قَصَدَ به الخليل – رحمه الله – تَنَقُّلَ الحرفِ الواحدِ في أكثر من موضع في كلّ بناء من الأبنية السابقة ، فجاء الثنائيّ على وجهين، والثلاثيّ على ستة أوجه ، والرباعيّ على أربعة وعشرين وجهاً ، والخماسيّ على مائة وعشرين وجهاً منها المستعملُ ومنها المهلُ[54] فعالج الكلمةَ ومقلوباتها في كلّ بناء من الأبنية السابقة في موضع واحد مراعياً في ذلك الحروف الأصول وسمّى كلّ حرف من الحروف الهجائية كتاباً فبدأ معجمه بكتاب العين ومقلوباتها ، فكتاب الحاء ومقلوباتها ، وسمّى ما نطقت به العرب مستعملاً وما لم تنطق به مهملاً. فمثلاً نجد الكلمات :(عرب – رعب –عبر––ربع – بعر––برع) تحت باب العين لأنّ العين أسبق من الراء والباء .

ومن المعاجم التي سارت على نظام الخليل بن أحمد – رحمه الله– البارع للقاليّ (ت356هـ) والتهذيب للأزهريّ (ت 370هـ) والمحيط للصاحب ابن عبّاد(385هـ) و المحكم لابن سيده (ت458هـ).

والرابطة المشتركة التي تجمع بين هذه المعاجم اتحادها في الترتيب الخارجي للمادة المعجمية على طريقة الخليل بن أحمد – رحمه الله– مع بعض الاختلاف في الترتيب أو الأبنية ، فنجد على سبيل المثال أنّ القالي بدأ معجمه بالهاء ، كما نجد أيضاً أن ابن سيده في (المحكم) زاد في الأبنية السداسي .[55]

وقد أُخِذَ علىهذا النظام صعوبة البحث ، ومشقة الاهتداء إلى اللفظ المراد ؛ بسبب قيامه على المخارج ، والأبنية ، والتقليبات ، وهذا ما لمسه بعض المعجميين القدماء أنفسهم فهذا ابن دريد يقول في مقدمته عن الخليل وكتاب (العين) : ((.....قد الّف الخليل بن أحمد كتاب العين فأتعب من تصدّى لغايته وعنى من سما إلى نهايته...)) ثمّ نراه يلتمس العذر للخليل بقوله أيضاً:((...ولكنه رحمه الله أَلّف كتابه مشاكلا لثقوب فهمه ، وذكاء فطنته ، وَحِدَّةِ أذهانِ عصرِه))[56] .

ويقول صاحب(لسان العرب) عن هذا النظام أيضاً :((لم أجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهريّ ، ولا أكمل من المحكم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده ...غير أن كلاً منهما مطلب عسر المهلك ومنهل وعر المسلك ...فأهمل الناس أمرهما وانصرفوا عنهما))[57] .

<u>ثانيا : نظام القافية أو مدرسة القافية :</u>

وأول من ابتدع هذا النظام الجوهريّ – رحمه الله – (ت400هـ) في(الصحاح) إذ يقول :

((أما بعد فإنّي أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرّف الله تعالى منزلتها وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها على ترتيب لم أسبق إليه وتهذيب لم أغلب عليه في ثمانية وعشرين باباً وكلّ باب منها ثمانية وعشرون فصلاً على عدد حروف المعجم وترتيبها إلا أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول...))[58] .

وكان الغرض من هذا النظام تيسير البحث عن ألفاظ اللغة بطريقة سهلة وميسرة تقوم على النظام الألفبائي بدلاً من النظام الصوتي ، فابتدع الجوهري هذا النظام الذي بناه على آخر الكلمة بعد ردّها إلى أصلها وتجريدها من الزوائد، وسمّى الحرف الأخير باباً والحرف الأول من الكلمة فصلاً ، ثمّ رتب المواد بين الحرفين (الأول والأخير) ترتيباً ألفبائيا، فتخلص بطريقته هذه من جميع أسس مدرسة الخليل بن أحمد ، وهي النظام الصوتي ، ونظام التقليبات ، ونظام الكمية أوالأبنية ، وأصبح معجمه في متناول الباحثين لسهولة البحث فيه عن مفردات اللغة ، وذلك عكس المعاجم السابقة عليه ، والقائمة على النظام الصوتيّ. ولم يخرج الجوهريّ عن نظامه هذا إلا في الباب الأخير من معجمه حيث جمع فيه الألفاظ المنتهية بالواو والياء معاً وختمه بالألفاظ المنتهية بالألف اللينة ويعني بها التي ليست منقلبة عن همزة أو حرف علّة .

ومن المعاجم التي سارت على هذا النظام العباب للصاغانيّ (ت650هـ) الذي توفي قبل أن يتمه ، ولسان العرب لابن منظور(ت711هـ) ، والقاموس المحيط للفيروزآباديّ (ت817هـ) ، وتاج العروس للزَّبيديّ (ت1205هـ).

ثالثا: النظام الألفبائيّ أو المدرسة الهجائيّة :

وقد ابتدع هذا النظام أبو عمرو الشيبانيّ (ت206هـ) في كتاب (الجيم) وأخذ به ابن در يد (ت321هـ) في (الجمهرة) ، وابن فارس (ت395هـ) في (المقاييس) ، و (المجمل) ، والزمخشريّ (ت538هـ) في (أساس البلاغة) .

ويلاحظ على هذا النظام أن له صورتين :إحداهما: مراعاة الحرف الأول فقط وقد أخذ بهذا أبو عمرو الشيبانيّ والزمخشريّ وانفرد الأول بعدم مراعاة الترتيب بعد الحرف الأول للكلمة وكذلك عدم مراعاة الزوائد في حين التزم الزمخشريّ بذلك.

الأخرى : مراعاة الترتيب الهجائي والأبنية معاً وقد أخذ بهذا النظام ابن دريد وابن فارس وانفرد الأول بإيراد تقلبات المادة في موضع واحد في حين لم يلتزم ابن فارس بذلك بل قَسَّم كتابه إلى حروف وسمّى كلّ حرف كتاباً وكلّ كتاب يضم الأبنية : الثنائي والثلاثي الخ .

النوع الثاني الترتيب الداخليّ للمداخل :

ويسمى بالترتيب الأصغر ويتم باتباع ترتيب خاص للمعلومات في المدخل الواحد وقدأشرنا فيما سبق إلى الترتيب الخارجي لدى المعجميين العرب ورأينا أنّه قام على عدّة أنظمة هي : النّظام الصوتيّ والتقليبات ، ونظام القوافي ، والنظام الألفبائيّ ، وقد رأينا أنّ عناية القدماء به كانت كبيرة وتعدّ الأساس الأول الذي قامت عليه معاجمهم ، أما إذا انتقلنا إلى الترتيب الداخليّ للمداخل فنلحظ أنّه أقلّ حظاً وعناية لدى القدماء ؛ ولعل عذرهم في ذلك أنّ العربيّة لغة اشتقاقيّة ، وهذا ما دفعهم إلى الاعتماد على المادة اللغويّة في الترتيب الداخلي ، فجعلوا من أصل المادة اللغوية أساس البحث عن كل الكلمات التي تشتق من ذلك الأصل فكلمات مثل :

عِلم وتعلم ومعلم وعلوم ...إلى غير ذلك من مشتقات المادة ، تورد تحت مدخل واحد دون مراعاة للترتيب الداخليّ لهذه الكلمات خاصّة عند المتقدمين منهم كالخليل والقالي وابن دريد والأزهريّ ، حيث نلحظ خلط الأسماء بالأفعال والمجرد بالمزيد ونحو ذلك مما يضطر الباحث عن كلمة من الكلمات أن يقرأ كل ما يقع تحت مادتها للحصول على بغيته ، ومن هنا افتقرت المعاجم القديمة إلى الدقة في الترتيب الداخليّ ، فمنهم من يبدأ مادته بالفعل ومنهم من يبدأ مادته بالاسم ومنهم من يبدأ بالمجرد ومنهم من يبدأ بالمزيد بل إن منهم من يبدأ بالشاهد (النثري أو الشعري) أو الراويّ كقولهم : قال فلان ، ونحو ذلك ...ولعل فيما يلي من النماذج ما يدل على ذلك وهو قليل من كثير:قال صاحب العين : ((امرأة جعماء : أنكر عقلها هرماً ، ولا يقال رجل أجعم . وناقة جعماء : مسنة ورجل جَعِم وامرأة جَعِمة .. . وجَعِم الرجل جَعَما أي : قرِم إلى اللحم .[59]

حيث نجد أن صاحب(العين) قدّم الاسم على الفعل والمزيد على المجرد . وفي الجمهرة : ((الكَذب ضدّ الصدق – ورجل كذّاب وكذوب...وكذّبت بالحديث ...وكذّب الوحشي إذا جرى شوطاً ثم وقف لينظر ما وراءه – وحمل فلان فما كذّب حتى طعن أو ضرب أي ما وقف ...))[60] .

فقدم الاسم على الفعل ، والمزيد على المجرد تارة والمجرد على المزيد أخرى .

وفي تهذيب اللغة يقول الأزهريّ :((جاء في الحديث:من روى في الإسلام هِجاءً مُقْذِعاً فهو أحد الشامتين . والهجاء المقذِع : الذي فيه فحش))[61] .

حيث بدأ مادّته المعجمية بالحديث الشريف ، ومثل ذلك يفعل مع الشواهد القرآنية وهذا كثير عنده .

وفي الصحاح :((وجَب الشيء ، أي لزم ، يجِب وجوباً . وأوجبه الله ، واستوجبه ، استحقه . ووجب البيع يجِب... وأوجبت البيع فوجب ، والوجيبة: أن توجب البيع ثمّ تأخذه أوّلاً فأوّلاً ... ووجب القلب وجيباً : اضطرب ، وأوجب الرجل : إذا عمل عملاً يوجب له الجنّة أو النّار ، والوجب الجبان ... والوجبة: السَّقطة ...ووجب الميت إذا سقط ومات ...ووجبت الشمس أي غابت...))[62] .

فنلحظ أنّ الجوهريّ قدّم وأخّر في المشتقات، مما يضطر الباحث عن كلمة (وجب) مثلاً ، أن يقرأ كل ما تشتمل عليه المادّة فقد ذكرها في أول المادة وآخرها . وكان حقّ هذه المادة أن ترتب كالتالي :

وجب الشيء ، والبيع ، والقلب ، والميت ، والشّمس ...

وأوجب الرجل ...

واستوجب الشيء ...

والوجْب...

والوجبة...

والوجيب...

والوجيبة ...

وهذا ما تنبه له بعض المتأخرين كابن سيده في (المحكم) فنهج نهجاً يعدّ أدق منهج التزمته المعاجم اللغويّة القديمة على الرغم من أنّ ابن سيده لم يف بهذا المنهج وفاءً تاماً لكنه حاول أن يرتب الكلمات ترتيباً داخلياً مقبولاً كتقديم المجرد على المزيد والفعل على الاسم و مثل ذلك فعل الفيروزآبادي في (القاموس) حيث فصل معاني كل صيغة عن الأخرى وقدّم الصيغ المجردة على المزيدة ، وأخّر الأعلام ، مما عده أحد الباحثين [63]ميزة تميزه عن سائر المعاجم العربية فتخلص بذلك من الاضطراب الذي كان يرغم الباحث على قراءة المادة كلِّها ؛ كي يحصل على معاني الصيغة التي يريدها ،ولكنه مع هذا لم يسلم من النقد فقد خصص صاحب (الجاسوس على القاموس) باباً من أبواب نقده للترتيب الداخليّ لدى صاحب(القاموس) إذ يقول فيه : ((ومن خلله أنّه لا يذكر المشتقات باطّراد وترتيب ، فيخلط الأفعال بالأسماء، والأصول بالمزيدات ، والأولى تميّز بعضها من بعض ، وربما ذكر في أول المادة أحد معاني اللفظة ثم ذكر باقيها في آخرها...))[64] وهو نقد لا ينفرد به(القاموس) وحده بل تشترك فيه سائر معاجم الألفاظ الأخرى ، ولعل عذر القدماء في ذلك هو أنّ اللغة العربية لغة اشتقاقية ، وعلى ضوء ذلك كان همهم وتنافسهم – كما رأينا – منصباً على الترتيب الخارجيّ للمداخل ، فبرعوا في التنافس فيه فتعددت طرقه ومدارسه .

وهذا ما دفع أصحاب المعاجم الحديثة إلى معالجة هذا الخلل ، بوضع ضوابط للترتيب الداخليّ ؛ من أبرزها المنهج الذي نهجته لجنة تأليف (المعجم الوسيط) والذي تمّ بمقتضاه ترتيب المواد المعجميّة على النحو التالي :

1- تقديم الأفعال على الأسماء .

2 – تقديم المجرّد على المزيد من الأفعال ، أما الأسماء فقد رتبت ترتيباً هجائياً.

3- تقديم ما يدل على المعنى الحسيّ على ما يدل على المعنى العقليّ، والحقيقيّ على المجازيّ .

4- تقديم الفعل اللازم على الفعل المتعدي.[65]

المبحث الثالث:تحليل المادة المعجمية:

ويقصد به ما يقدمه المعجم من معلومات حول المادة المعجمية وأهم هذه المعلومات كما يرى المحدثون :[66]

أ- ما يتعلق باللفظ ، كطريقة النطق ، وتحديد الرسم الإملائيّ أو الهجائيّ، وبعض المعلومات الصرفية أو النحوية أو اللغويّة.

ب- ما يتعلق بالمعنى ، كجلاء الشرح ، ووضوحه، وعدم الخلط فيه ، وهو يمثل أكبر صعوبة يواجهها صانع المعجم لأسباب من أهمها :

1- صعوبة تحديد المعنى .

2- سرعة التطور والتغير في جانب المعنى .

3- اعتماد تفسير المعنى على جملة من القضايا الدلالية التي تتعلق بمناهج دراسة المعنى وشروط التعريف وعوامل التطور الدلالي والتمييز بين المعاني المركزية وسائر المعاني الأخرى .

4- توقف فهم المعنى في بعض أجزائه على درجة اللفظ في الاستعمال وعلى مصاحبته لكلمات أخرى.[67]

وعلى ضوء ذلك تعددت وسائل تحديد المعنى في المعاجم عامّ ة وفي معاجمنا العربية خاصّة وكان من أهمها :

1 -التفسير بالمغايرة وأكثر ما يكون التعبير عنها بلفظ نقيض أوضدّ أو خلاف.

2- التفسير بالترجمة ويكون بشرح المعنى بكلمة أو كلمات من اللغة نفسها أو من لغة أخري .

3- التفسير بالمصاحبة وهو ما يصحب الكلمة من كلمات هي جزء من معناها الأساسي .

4 - التفسير بالسياق سواء كان ذلك السياق سياقاً لغوياً أم مقامياً .

5- التفسير بالصورة وهي من وسائل الإيضاح الحديثة التي تعين على تحديد المعنى ودقته.[68]

ونستطيع القول بأن تحليل المادة المعجمية في معاجم الألفاظ القديمة، شمل جانبي الكلمة وهما المبنى والمعنى وفيا يلي توضيح ذلك:

أولاً : مايتعلق بالمبنى :

أ : ضبط الكلمة من الناحية النطقيّة : وقد اختلف المعجميون القدماء في الاهتمام بهذا الجانب ، فالعين ، والجمهرة ، والتهذيب مثلاً ، لم يعن أصحابها بضبط الكلمة ،ولم يجعلوه سمة بارزة لمعاجمهم ؛ ذلك أنهم لم يروا حاجة إلى ضبط الكلمة في عصرهم على حين اهتم به المتأخرون ورأوا ضرورته والحاة إليه ، وأول من اهتم به من القدماء – فيما نعلم –القالي في كتابه (البارع في اللغة) ثمّ الجوهريّ في (الصحاح) ثمّ الفيروزآباديّ في (القاموس المحيط) . وقد اعتمد القدماء في ضبط الكلمة على أمور أهمها :

1- الضبط بالنصّ أو العبارة ، ومن أمثلة ذلك قولهم :

((شَمَج ثوبه يشمجه شَمْجا بفتح الميم في الماضي وضمها في المستقبل وسكونها في المصدر : إذا خاطه خياطة متباعد الكتب.. .))[69] .

وكقولهم:((دبغ الجلد يدْبَغه ويَدْبُغه بفتح الدال والباء في الماضي، وفتح الباء وضمها في المستقبل ،وسكون الباء في المصدر.والدِباغ بالكسر ما يدبغ به. والمدْبغة بفتح الميم والباء:الموضع الذي يدْبغ فيه)).[70]

2- الضبط بالوزن أو المثال ، ومن أمثلة ذلك قولهم :

((لغب لغبا ولَغوباولُغوبا كمَنَع وسَمِع وكَرُم ...أعيا أشدّ الاعياء...)).[71]

وكقولهم ((الرّشَأ ، على فَعَلٍ بالتحريك ، ولد الظبية الذي قدّ تحرّك ومشى))[72] .

3- الضبط بالإعجام ، ومن أمثلة ذلك قولهم :

((تَهتّأ الثوب : تقطّع وبَلِي ، بالتاء معجمة بنقطتين من فوق وكذلك تهمّأ بالميم))[73] .

ب : ضبط الكلمة من الناحية الصرفيّة و النحويّة و اللغويّة ، إذ حاول القدماء تقديم بعض المعلومات الصرفيّة أو النحويّة أو اللغويّة التي تسهم في فهم المعنى وتوضيحه ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

1- تصريف الأفعال وبيان مشتقاتها ونوعها من حيث التعدي واللزوم ؛ كقول الجوهريّ ((سقط الشيء من يدي سقوطاً ، وأسقطته أنا . والَمسقَط ، بالفتح: السُقوط ... والمَسقِط ، مثال المجلس : الموضع ... وساقطه ، أي أسقطه... وسُقط في يده ، أي ندم ...وقال أبو عمرو: ((ولا يقال أُسقِط في يده على مالم يسمّ فاعله ...))[74] .

2- بيان الصور غير المستعملة من بعض الأفعال ؛ كقول الجوهريّ :

((وقولهم : دع ذا ، أي اتركه . وأصله ودع يدع وقد أُمِيتَ ماضيه ، لا يقال ودعه وإنما يقال تركه ، ولا وادع ولكن تارك ، وربما جاء في ضرورة الشعر: ودعه فهو مودع على أصله ...))[75] .

بيان ملازمة بعض الأفعال للبناء للمجهول ؛ كقول ابن منظور :

((وللعرب أحرف لا يتكلمون بها إلا على سبيل المفعول به وإن كان بمعنى الفاعل مثل زُهِي الرجل وعُنِي بالأمر ونُتِجَت الشاة والناقة وأشباهها))[76] .

بيان المفرد والجمع ؛ كقول صاحب (العين) :

((وجمع الشَّعر : شُعور وشَعر وأشعار . والشِّعار ما استشعرت به من اللباس تحت الثياب ...وجمعه شُعُر ...والأشعر : ما استدار بالحافر من منتهى الجلد حيث تنبت الشعيرات حوالي الحافر ، ويجمع : أشاعر...))[77] .

5- بيان جنسه من حيث التذكير والتأنيث ؛ كقول ابن سيده :

((شَجُع شَجاعة : اشتدّ بأسه . ورجل شُجاع ، وشِجاع ، وشَجاع ، وأشجع ، وشَجِع ، وشَجيع ، وشِجَعَة ، على مثال عنبة ...وامرأة شَجِعَة ، وشَجِيعة، وشُجَاعة ، وشَجعاء...))[78]

6- بيان النسب إلى الاسم ؛ كقول صاحب(العين) :

((يقال أديم عُكاظيّ ، منسوب إلى عكاظ ...))[79] وكقوله أيضاً : ((العجم: ضدّ العرب. ورجل أعجميّ : ليس بعربيّ))[80] .

7- بيان المحذوف من الاسم ؛ كقول ابن منظور :

((والأبُ : أ صله أَبَوٌ ، بالتحريك ؛ لأن جمعه أباء مثل قفا وأقفاء ، ورحى وأرحاء ، فالذاهب منه واو، لأنك تقول في التثنية أبوان ...))[81] .

8- ببيان درجة استعمال اللفظ فأشاروا إلى المستعمل من الألفاظ والمهمل والضعيف والمنكر والرديء والمذموم ، ومن أمثلة ذلك ، قول الأزهريّ عند كلامه عن باب العين والقاف مع الجيم ((عقم ، عمق، قمع ، قعم ، معق ، مقع: مستعملات))[82] وكقوله في موضع آخر من باب العين ((أهملت وجوهه))[83] .

9- بيان اللغات الفصيحة أو المذمومة أو المنكرة ، ونحو ذلك ؛كقول صاحب (العين) مثلاً : ((الصّقْع : الضرب بِبُسط الكف ، صقعت رأسه بيدي، والسين لغة فيه . والديك يصقع بصوته ، والسين جائز . وخطيب مصقع: بليغ ، وبالسين أحسن ، والصقيع : الجليد يصقع النبات ، وبالسين قبيح))[84] وكقول الأزهريّ : ((وقال ابن دريد : الذَّعْج : الدفع ، وربما كني به عن النكاح . يقال : ذعجها ذعجاً . قلت : ولم أسمع بهذا المعنى لغير ابن دريد ، وهو من مناكيره))[85] .

ويتبيّن لنا مما سبق أن المعجميين القدماء أدركوا أهمية اللفظ في تفسير المعنى وتوضيحه ، فدفعهم ذلك إلى الاهتمام بالمادة المعجمية من الناحية الصوتية أو الصرفيّة أو النحويّة أو اللغويّة ، غير أنها تتمايز في معالجة هذا الجانب فيتميّز البارع والصحاح والقاموس مثلاً بالضبط ، ويتميّز المحكم بالنواحي الصرفيّة والنحويّة ، و الصحاح بدرجة استعمال الألفاظ والنص على الضعيف والمنكر ونحو ذلك و المقاييس ببيان المعنى الجامع لأصل المادة ومشتقاتها ، ويتميّز اللسان ، والتاج بجمع الأقوال وكثرة الشواهد.

ثانياً : ما يتعلق بالمعنى :

أما الجانب الأخر للكلمة وهو المعنى فقد اهتم به القدماء اهتماماً بالغاً تمثل في وسيلتين من وسائل الشرح والتوضيح هما:[86]

أولاً : الشرح بالتعريف ، والمراد به تمثيل المعنى بواسطة ألفاظ أخرى أكثر وضوحاً وفهماً . وبالتأمل في المعاجم اللفظيّة القديمة ، نستطيع أن نقسم ذلك إلى قسمين رئيسين :

أحدهما : الشرح بالتعريف بألفاظ واضحة ومحددة ، ومن أمثلة ذلك :

قولهم : ((خَبَع الصّبي خُبُوعاً : أي فُحِم من شدّة البكاء حتى انقطع نفسه)).[87] فقد شرح المعنى بألفاظ واضحة وحدد معنى الخبوع بأنه حالة تكون من شدّة البكاء المؤدي إلى انقطاع النفس .

وقولهم : ((الهُبَع : الحوار الذي ينتج في الصيف في آخر النتاج، والأنثى هبعة وسمّي هبعاً ؛ لأنه يهْبَع إذا مشى ، أي : يمدّ عنقه ويتكاره ليدرك أمه))[88].

فقد شرح المعنى بألفاظ بينة وواضحة ، وحدد معنىالهُبَع بأنه الحِوار، ثمّ خصص بزمن معين وهو الصيف ، ثمّ حدد بآخر النتاج ، وبيّن علة تسميته وهي كونه يمدّ عنقه متكارها ليلحق بأمه .

وقولهم : ((الغِبّ: أن ترد الإبل الماء يوماً وتدعه يوماً))[89] .

فحدد معنى الغِبّ بأنه ورود الإبل للماء في زمن معين وهو يوم بعد يوم .

الآخر : الشرح بالتعريف بألفاظ غامضة وغير محددة ، ومن أمثلة ذلك :

1- التعريف بكلمة (نقيض) كقول بعضهم:((العَقْل نقيض الجهل ومنه عَقل يعقل عقلاً فهو

2- التعريف بكلمة (ضِدّ) كقول بعضهم : ((الحقّ ضدّ الباطل))[91].

3- التعريف بكلمة (خِلاف) كقول بعضهم: ((والعرض : خِلاف الطول ، والجمع أعراض))[92].

4 – التعريف بالمرادف كقول بعضهم : ((مضى هزيع من الليل : كقولك مضى جَرْس وجَرْش وهَدِيء كله بمعنى واحد))[93] .

5- التعريف بكلمة (مثل) كقول بعضهم : ((الكُهْبَة لون مثل القُهْبَة))[94].

6- التعريف بكلمة (معروف) كقول بعضهم : ((الخبيص معروف ، والخبيصة أخصّ منه . والمخبصة : الملعقة يعمل بها الخبيص))[95] .

ونحو ذلك من التعريفات العامة الغامضة التي لا تفيد شيئاً كقولهم : وادٍ لبني فلان ، ومكان معروف، وماء لبني فلان ، ونبات في الصحراء ، ودويّبة أو طائر ، أو موضع ، وكقولهم : البياض لون الأبيض ، والسواد لون الأسود الخ ذلك من ألفاظ مبهمة وغير محددة المعنى ،مما دفع أحد المحدثين إلى اتهام المعاجم اللفظيّة القديمة بابتعادها عن صفات المعجم الجيد إذ يقول:

((وفي الحق أن كثيراً جداً من الألفاظ في المعاجم قد أهمل شرحها إهمالاً شنيعاً فجاءت دلالتها غامضة أو مبتورة وبعدت عن الدقة التي هي من أهم صفات المعجم الجيد))[96] .

والحق أن هذا الذي أشرنا إليه ، وإن عدّ عيباً من عيوب المعجم الجيد ، إلا أنه لا يقلل من قيمة المعاجم اللفظيّة القديمة إذا قارنّا ذلك بتلك الجهود التي بذلت في جمع المادة وترتيبها ، كما تقدم في المبحثين السابقين ، بل إن اعتماد الشرح بالتعريف لم يكن هو الوسيلة الوحيدة في بيان المعنى المعجميّ ، وممن اعتمد هذه الوسيلة اعتماداً كلياً – فيما أعلم – صاحب(القاموس) ،ولكنّه مع ذلك لم يسلم من النقد اللاذع من صاحب (الجاسوس على القاموس) فجلّ نقده كان منصباً على طريقته في شرح المعنى كالإبهام وقصور العبارة وتعريف اللفظ بالمعنى المجهول ونحو ذلك.[97] أما سائر المعاجم اللفظيّة الأخرى، فقد ضمت إلى جانب الشرح بالتعريف شواهد يستطيع القارئ من خلالها تحديد المعنى المراد على ما سنبينه فيما يلي .

ثانيا : الشرح بالتعريف مقترناً بالشاهد ، حيث أدرك معظم المعجميين القدماء ، أهمية الشاهد في شرح المعنى فلجأوا إلى الاستشهاد بالنصوص ضمن المعايير التي وضعوها للفصاحة ، وكانت نتيجة ذلك أن جاءت مصادر احتجاجهم على النحو التالي :

أ – الاحتجاج بالقرآن الكريم : ومن أمثلة ذلك ، قول صاحب (العين): ((عددت الشيء عدّاً : حَسَبْتُهُ وأحْصيته . قال عز وجلّ : { نَعُدُّ لَهُم عَدًّا }[98] يعني أن الأنفاس تُحصى إحصاءً ولها عدد معلوم))[99]

وقول الأزهريّ:((قال الله عزّ وجلّ:{ كَأَنَهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِر }[100] معنى المنقعر المنقطع من أصله ...))[101] .

وقول ابن سيده : ((العرش : سرير الملك . وفي التنزيل : { وَلَهَا عَرْشٌ عَظيمٌ }[102] وقد يستعار لغيره))[103] .

وقول الجوهريّ : ((هششت الورق أَهُشُهُ هَشًّا : خبطته بعصا لِيَتَحات، ومنه قوله تعالى : { أَهُشُّ بِها على غَنَمِي }[104] .

وقول ابن فارس : ((قال الله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرسَلنا الشّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا }[105] قال أهل التفسير : تزعجهم إزعاجاً))[106] .

ب- الاحتجاج بالحديث الشريف : ومن أمثلة ذلك ، قول صاحب (العين): ((الخُشْعَة : قُفٌّ ، غلبت عليه السهولة ، قفٌّ خاشع وأَكَمَة خاشِعة أي ملتزمة لاطئة بالأرض. وفي الحديث : (كانت الكعبة خُشْعَة على الماء فَدُحِيت منها الأرض)...))[107] .

وقول الأزهريّ : ((...(روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل الكافر كمثل الأرزة المُجْذِيَة حتى يكون انجعافها مرّة واحدة) . قال أبو عمرو : الانجعاف : الانقلاع . ومنه قيل جَعَفْت الرّجل ، إذا صرعته فضربت به الأرض...))[108] .

وقول ابن سيده : ((وأكل الشيء عُرْضا : أي مُعْتَرِضا . ومنه الحديث : (كُلِ الجُبن عرضاً) أي اعترضه . يعني كله ولا تسأل عنه : أمن عمل أهل الكتاب هو، أم من عمل غيرهم ؟))[109] .

وقول الجوهريّ : ((والحِبَّةُ بالكسر : بزور الصحراء مما ليس بقوت . وفي الحديث : (فَيَنْبِتُونَ كما تَنْبُتُ الحِبَّة في حَمِيل السيل) والجمع حبب))[110] .

وقول ابن فارس : ((قال الفرّاء : اَلأَلُّ رفع الصوت بالدعاء والبكاء ، يقال منه أَلَّ يَئِلُّ أليلا . وفي الحديث (عَجِبَ ربّكم من أَلِّكم وقنوطكم وسرعة إجابته إيّاكم...))[111] .

والذي يبدو من تصفح المعاجم اللفظيّة القديمة هو أنّ أصحابها لم يكن بينهم خلاف في الاحتجاج بالقرآن ولا بالحديث الشريف ومن هنا رأينا المعاجم اللفظيّة تحفل بهذين المصدرين ، وفي ذلك يقول السيوطيّ : ((ومن ينعم النظر في معاجم اللغة وكتب قواعدها يجد كتب اللغويين أوفر حظّاً في الاستشهاد بالشعر والنثر على السواء في إثبات معنى أو استعمال كلمة ، ويجد النحاة يكادون يقتصرون على الشِعر))[112] .

ويعدّ تهذيب اللغة من أبرز معاجم الألفاظ في هذا الجانب ، فقد اعتنى بالشواهد القرآنية، والأحاديث النبوية عناية فائقة ؛ ولا غرابة في ذلك فقد ربط الأزهريّ خاصّة وعلماء اللغة عامّة بين فهم اللغة ومعرفة الكتاب والسنة يقول الأزهريّ : ((نزل القرآن الكريم والمخاطبون به عرب أولو بيان فاضل وفهم بارع أنزله جل ذكره بلسانهم وصيغة كلامهم الذي نشأوا عليه وجبلوا على النطق به فتدربوا به يعرفون وجوه خطابه ويفهمون فنون نظامه ولا يحتاجون إلى تعلم مشكله وغريب ألفاظه حاجة المولدين الناشئين فيمن لا يعلم لسان العرب حتى يعلّمه ...وبيّن النبي ﷺ للمخاطبين من أصحابه رضي الله عنهم ما عسى أن تمسّ الحاجة إليه...فاستغنوا بذلك عمّا نحن إليه محتاجون من معرفة لغات العرب والاجتهاد في تعلّم العربية الصحيحة التي بها نزل الكتاب وورد البيان))[113] .

ومما يلاحظ على هذه الشواهد :

1- ميل أصحاب المعاجم إلشرح الآيات والأحاديث والتعليق عليها ، بما يخرجهم عن شرح المادة المعنية ، مما أدى إلى تضخم شرح المواد ، وذلك نحو قول صاحب العين –تحت مادة لعق : ((وفي الحديث :((إن للشيطان لعوقاً ونشوقاً يستميل بهما العبد إلىهواه)) فاللعوق اسم ما يلعقه ، والنشوق اسم ما يستنشقه))[114]. فشرح معنى النشوق في غير مادته .

ومثل ذلك قول الأزهر–تحت مادة عج – :((روي عن النبي ﷺ أنه قال:(أفضل الحج العجّ والثجّ) قال أبو عبيدة العجّ :رفع الصوت بالتلبية ، والثجّ: سيلان دماء الهدي .))[115] فنلاحظ أنه شرح كلمة (الثجّ) وهي ليست من كلمات المادة .

ومثل ذلك قول ابن سيده في مادة (عجل) : ((وقوله تعالى: { خُلِق الإنسان من عَجَلٍ }[116] قيل : إن آدم عليه السلام ، حين بلغ منه الروح الرُّكبتين ، هم بالنهوض قبل أن يبلغ القدمين ، فقال تعالى : { خُلِقَ الإنسَانُ من عَجَلٍ }...))[117] فنلاحظ أنه ذكر قصّة نفخ الروح في آدم عليه السلام .

2– ذكر الوجوه والآراء المختلفة ، وذلك نحو قول الأزهري في مادة (عجز): ((قال الله عزّ وجلّ : { وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ في الأرضِ ولا في السّمَاءِ }[118] قال الفرّاء : يقول القائل كيف وصفهم الله أنهم لا يُعجِزون في الأرض ولا في السّماء وليسوا في أهل السماء ؟ فالمعنى ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا من في السّماء بمعجِز . وقال أبو إسحاق : معناه ما أنتم بمعجزِين في الأرض ولا لو كنتم في السّماء . وقال أبو العباس : قال الأخفش :ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السّماء ، أي لا تعجزوننا هرباً في الأرض ولا في السماء . قال أبو العباس : وقول الفراء أشهر في المعنى، ولو كان قال ولا أنتم لو كنتم في السّماء بمعجزين لكان جائزا))[119] فنلاحظ أن الأزهريّ لم يكتفِ بقول الفراء ما دام أظهر في المعنى بل أردفه بغيره من الأقوال الأخرى التي لا تكاد تضيف شيئاً جديداً للمعنى المعجميّ .

ج– الاحتجاج بالشعر: و يعدّ أبكر صورالاحتجاج اللغويّ ، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تساءل عن معنى قوله تعالى : { أو يأخذهم على تخوّف }[120] فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا يا أمير المؤمنين ، التخوف التنقص ...قال عمر : فهل تعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال: قال شاعرنا أبو كبير الهذليّ :

تخوّف الرّحل منها تامكا قَرِدا كما تخوّف عود النبعة السّفن

فقال عمر : ((أيّها الناس عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم))[121]

ثمّ أخذ هذا الاتجاه صورته التطبيقيّة على يد حبر الأمة عبد الله بن عباس (ت68هـ) رضي الله عنهما فيما عرف بعد بمسائل نافع بن الأزرق ، وأصبح حجة فيما أشكل من غريب القرآن والحديث ، حيث وصفه ابن فارس بقوله :

((والشعر ديوان العرب وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر ومنه تعلمت اللغة وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله وغريب حديث رسول الله ﷺ وحديث صحابته رضي الله عنهم))[122] .

وعلى ضوء ذلك قُسّم الشعراء إلى أربع طبقات : الجاهليون ، وهم الذين عاشوا قبل الإسلام ، ثمّ المخضرمون ، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ثمّ الإسلاميون ، وهم الذين كانوا في العصر الأموي كجرير والفرزدق ، وقد عدّهم بعض اللغويين – كأبي عمرو– من المولدين وكان يقول : لقد حسن هذا المولد حتى لقد هممت أن آمر صبياننا برواية شعره ، يعني بذلك جريراً.[123] ويقول الأصمعيّ: جلست إليه (يعني أبا عمرو) ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي[124] ، وأخيراً المولدون ، ويقال لهم المحدثون أيضاً ، ويعدّ بشار بن برد (ت167هـ) أول شعراء طبقة المحدثين ، وقيل ختم الشعر بإبراهيم بن هَرْمَة (ت176هـ) .[125] ، وعن

الاحتجاج بشعر هذه الطبقات ؛ يقول السيوطيّ : ((أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة والعربيّة ، وفي (الكشاف) ما يقتضي تخصيص ذلك بغير أئمة اللغة ورواتها...))[126] .

وبالتأمل في معاجم الألفاظ نلحظ صحة ما ذكره السيوطيّ ، فقد استشهد أصحاب هذه المعاجم بشعراء الطبقات الثلاث الأول ، فهذا صاحب (العين) يستشهد بشعر جرير –الذي عدّه أبو عمرو مولداً – إذ يقول في مادة (عق) وقال جرير :

فهيهات هيهات العقيق وأهله وهيهات خلّ بالعقيق نواصله

أي بَعُد العقيق .[127]

كما نجد الازهريّ – في المادة نفسها – يحتج بالأخطل(ت90هـ) والفرزدق (ت110هـ) وهما من طبقة جرير(ت110هـ) .[128]

أما طبقة المولدين المحدثين فكان الاستشهاد بشعر بعضهم على استحياء ، ولعل ذلك للاستئناس بعربيتهم كبشار بن برد (ت167هـ) ، الذي قال عنه الأصمعيّ : ((بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم))[129] .

ومن هنا رأينا ابن دريد يذكره في (جمهرة اللغة) ويصرح بأنه ليس حجة ؛ إذ يقول في مادة (بظبظ) : ((استعمل من معكوسه – الظَبْظَاب – وهو من قولهم ليس به ظبظاب أي ليس به داء – وسألت أبا حاتم عن الظبظاب فلم يعرف فيه حجة جاهليّة إلا أنه قال فيه بيت بشّار وليس بحجة – وأنشد : بُنيّتي ليس بها ظبظاب . ..))[130] .

ومما يلاحظ على المعجميين في هذا الجانب استشهادهم بأبيات غير منسوبة والاكتفاء بقولهم قال الشاعر ، أو أنشدنا ، أو قال آخر ، ونحو ذلك من العبارات التي تخل بالشاهد اللغويّ ؛ ذلك أنّه لا يجوز الاحتجاج بشعر أو نثر لا يعرف قائله ،خوف أن يكون لمولد ، أو من لا يوثق بفصاحته ، على حدّ قول السيوطيّ .[131]

الخاتمة :

وبعد هذا الوصف و التحليل لمعالجة المادة المعجمية في المعاجم اللفظيّة لدى القدماء تبرز لنا الملاحظات التالية :

– اختلاف مفهوم الكلمة بين المعجميين وغيرهم من علماء اللغة ، نظراً لاختلاف طبيعة معالجتها بين النظريّة والتطبيق ، لذلك آثر المعجميون في معالجتهم للكلمة المعيار الدلاليّ ؛ لأنه أقرب إلى طبيعة المعجم ومن ثمّ تحرروا من كثير من الحدود التي لا تخدم هذا المعيار.

– أن عملية جمع المادة المعجميّة وقف باللغة عند عصور الاحتجاج ، فاكتفى المعجميون القدماء بمادتهم اللغويّة التي ورثوها عن الأعراب في البادية ، ضمن شروط الفصاحة التي حددوها بحكم الهدف الديني الذي انطلقوا منه ، مما فوّت على المعاجم اللفظيّة القديمة ثروة لغويّة كان حقها أن تدرج ضمن مواده مع التنبيه إلى عصرها ، أو قائلها ، أو القبائل التي انفردت بها .

– أن مجال التنافس بين المعجميين القدماء وصل ذروته في صنع المعاجم اللفظيّة ، وخاصة فيما يتعلق بالترتيب الخارجيّ للمداخل فظهر لديهم أكثر من نظام أو مدرسة معجمية .

– أن معالجة المادة المعجمية في كتاب (العين) تعدّ عملاً سابقاً لعصره ، حيث جاءت في صورتها الكاملة جمعاً وترتيباً وتحليلاً ، مع كونه باكورة المعاجم اللفظيّة الأخرى ، مما يرجح أن كتاب (العين) من صنع الخليل بن أحمد .

– اهتم المعجميون في تحليلهم للمادة المعجمية بالمبنى ، ولكنه اهتمام فرضته المراحل التطوريّة للمعاجم اللفظيّة ، فجاء هذا الجهد متفرقاً في تلك المعاجم ، مما يفوت على الباحث الاستفادة الكاملة من تلك الملاحظات القيّمة إلا بعد مشقة البحث ، والتمحيص في أكثر من معجم لفظيّ .

– اعتمد المعجميون في الجانب التحليليّ للمادة المعجميّة على الشرح بالتعريف المبهم ، وعلى الشواهد غير المنسوبة إلى قائليها ، وهو أمر يفقد معه العمل المعجميّ قيمته ومصداقيته العلميّة التي طالما يتحراها مستخدم المعجم أو الباحث اللغويّ ،ولكنّ ذلك قليل من كثير أجادوا في ضبطه وإتقانه .

– أن مما يؤخذ على ترتيب المادة المعجميّة في المعاجم اللفظيّة القديمة، صعوبة البحث عن المادة المعجميّة ، فيما يتعلق بالترتيب الخارجيّ للمداخل في بعض مدارسها ، وصعوبة الوصول إلى الكلمة المراد البحث عنها فيما يتعلق بالترتيب الداخليّ للمداخل إلا بعد قراءة المادة كاملة .

– لم يكن ثمة خلاف بين المعجميين القدماء في الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، بينما نجدهم قد اقتصروا في الاستشهاد بالشعر على طبقة الجاهليين، والمخضرمين ، والإسلاميين.

الهوامش والتعليقات

(1) –الخصائص ، ابن جني 314/1.

(2)– مقدمة الصحاح ،أحمد عبد الغفور عطار ص38.

(3)– اللغة معناها ومبناها، تمّام حسّان ص315.

(4)– ينظر: المعجم العربي التاريخي ، عبد المنعم عبد الله ص 174(مقال بمجلة المعجميّة، العددان الخامس عشر والسادس عشر 1410/1409هـ.

(5)– الكلمة دراسة لغويّه ومعجميّة ، حلمي خليل ص14.

(6)– المفصل ، الزمخشريّ ص6.

(7)– شرح الرضي على الكافية 9/1.

(8)– همع الهوامع ، السيوطي 3/1.

(9)– شرح المفصل ، ابن يعيش 18/1.

(10) – مناهج البحث في اللغة ، تمّام حسّان ص 260.

(11) –ينظر: المصدر السابق ، ودور الكلمة في اللغة ص 45.

(12)– ينظر : الكلمة دراسة لغويّة ومعجميّة ص17، ومناهج البحث في اللغة ص 261 .

(13)- ينظر : الكلمة دراسة لغويّة ومعجميّة ص 17.

(14)-المغني الجديد في علم الصرف ، محمد حلواني ص 15

(15)-مناهج البحث في اللغة ، تمّام حسّان ص 262

(16)- الكلمة دراسة لغويّة ومعجميّة ، حلمي خليل ص 18 .

(17) -ينظر: المعجم العربيّ ،حسين نصّار 1 /123 ، وعلوم اللغة العربية ، عمر كحاله ص 13، ومعاجم الموضوعات ، محمد سليمان ص 15فما بعدها.

(18)- مقدمة الصحاح ، أحمد عبد الغفور عطار ص35.

(19)-ينظر: رواية اللغة ، الشلقانيّ ص 69 صرف .

(20) - معجم البلدان ، الحمويّ 202/2، وينظر : ذيل الأمالي والنوادر ص 182.

(21)- البيان والتبيين ، الجاحظ 252/1.

(22)- ينظر : الفهرست ، ابن النديم ص 70.

(23)-الأمالي ، القاليّ 39/3.

(24)-البيان والتبيين ، الجاحظ 174/1.

(25)-إنباه الرواة ، للقفطيّ 224/1.

(26)- المصدر السابق 258/2.

(27)-ينظر : رواية اللغة ص 81.

(28)-الخصائص ، ابن جني 5/3 ، ولمعرفة المزيد عن ذلك ينظر :383/1فما بعدها .

(29)- ينظر : رواية اللغة ، الشلقاني 104فما بعدها .

(30) -لمعرفة المزيد عن ذلك ينظر : الاحتجاج بالشعر في اللغة ، محمد حسن جبل ص 74.

(31)-الصاحبي في فقه اللغة ،أحمد بن فارس ص33 .

(32)-الاقتراح ص 44 ،المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي 211/1.

(33)-الاقتراح ص 44-45 ،المزهر 212/1.

(34)-أحمد أمين،ضحى الإسلام ص 263.وقد ردّ هذا التقسيم الشلقانيّ ينظر:رواية اللغة ص103. و عدّه حسين نصار تقسيماً مقبولاً نظرياً لا عملياً، المعجم العربي 33/1.

(35)- ينظر : معاجم الموضوعات ، محمود سليمان ص52.

(36)- نظر : الفهرست ، ابن النديم ص 64/1.

(37) - جمهرة اللغة ص4/1.

(38)-الصحاح 33/1.

(39)- تهذيب اللغة 40/1.

(40)- المصدر السابق .

(41)-مقدمة الصحاح 1/ 33.

(42)- مقدمة الجمهرة 3/1.

(43)-ينظر المزهر 93/1.

(44)- مقدمة محقق البارع ص64.

(45)-مقدمة معجم مقاييس اللغة 3/1-5.

(46)- مقدمة اللسان 1/ ذ .

(47)- مقدمة تاج العروس5/1.

(48) -لمعرفة المزيد عن هذه الثغرات ، ينظر : الاستدراك علي المعاجم العربية ، محمد حسن جبل ص15 فما بعدها.

(49)-ينظر : صناعة المعجم الحديث ، مختار ص98.

(50)-ينظر : مقدمة العين 48/1.

(51)-ينظر : مقدمة العين 45/1 ، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها 90/1.

(52)-ينظر : مقدمة العين 48/1، 49 ، و المعاجم العربية ، درويش ص80.

(53)- ينظر : المعاجم العربية ، درويش ص20بتصرف.

(54)- ينظر : مقدمة العين 59/1.

(55)- ينظر : المعجم العربيّ ،حسين نصّار 393/1، و المعاجم العربية ، درويش ص34.

(56) -ينظر: مقدمة الجمرة 3/1.

(57) ينظر: مقدمة اللسان 1/ خ.

(58) -ينظر : مقدمة الصحاح 33/1.

(59)-العين مادة (جعم)239/1.

(60)- الجمهرة مادة (بذك)251/1.

(61)- تهذيب اللغة مادة (فحش) 213/1.

(62)-الصحاح مادة (وجب)231/1.

(63)- ينظر :المعجم العربي ، حسين نصار 2 /589.

(64)- ينظر :الجاسوس على القاموس ، الشدياق ص275.

(65)-ينظر :مقدمة المعجم الوسيط ص67 بتصرف.

(66) -ينظر :صناعة المعجم الحديث ،مختارص115 ، واللغة معناها ومبناها، تمّام حسّان ص325.

(67)- ينظر : صناعة المعجم الحديث ،مختار ص 117 بتصرف.

(68)-ينظر :المعاجم اللغوية ، أبو الفرج ص102.

(69)-البارع مادة (شمج) ص620.

(70) -البارع مادة (دبغ)ص351.

(71)-القاموس مادة(لغب)313/1.

(72) –الصحاح مادة (رشأ) 53/1.

(73)–الصحاح مادة (هتأ)82/1.

(74)–الصحاح مادة (سقط) 1132/3.

(75)–المصدر السابق مادة (ودع) 296/3.

(76)–اللسان (زها) 59/2.

(77) –العين مادة (شعر) 250/1 .

(78)–المحكم مادة (شجع) 174/1 .

(79)–العين مادة (عكظ) 195/1.

(80)–المصدر السابق مادة (عجم) 237/1.

(81)–اللسان مادة (أبي) 12/1.

(82)– تهذيب اللغة مادة (عقم) 288/1.

(83) –المصدر السابق مادة (غجظ) 350/1.

(84)– العين مادة (صقع) 129/1.

(85)– تهذيب اللغة (ذعج) 350/1.

(86)– لمعرفة المزيد عن هذه الوسائل ينظر : صناعة المعجم الحديث ، مختار 120فما بعدها .

(87) –العين مادة (خبع)79/1.

(88)–التهذيب مادة (هبع)147/1.

(89)–الصحاح مادة (غبب)190/1.

(90)–العين مادة (عقل)157/1.

(91)–الجمهرة مادة (حقق) 62/1.

(92)–المحكم مادة (عرض) 242/1.

(93)–التهذيب مادة (هزع) 132/1.

(94)–الصحاح مادة (كهب)215/1.

(95)–الصحاح (خبص) 1035/3.

(96)–دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس ص 249.

(97)–ينظر على سبيل المثال :النقد الثاني ، الثالث ، الخامس ، السادس .

(98) –سورة مريم ، الآية 84.

(99)–مادة (عدد) 79/1.

(100)–سورة القمر ، الآية 20.

(101) –تهذيب اللغة مادة (قعر) 228/1.

(102) –سورة النمل ، الآية 23.

(103) –المحكم مادة (عرش) 121/1.

(104) –الصحاح مادة (هشش) 1027/3.

(105) –سورة مريم ، الآية 83.

(106)–مقاييس اللغة مادة (أزز) 13.

(107)–العين مادة (خشع) 112/1.

(108)– تهذيب اللغة مادة (جعف) 384/1–385.

(109)–المحكم مادة (عرض) 242/1.

(110)–الصحاح مادة (حبب) 105/1.

(111) –مقاييس اللغة مادة (ألل) 20/1.

(112)–الاقتراح ص 59.

(113)–مقدمة تهذيب اللغة 3/1–4.

(114)–العين مادة (لعق) 67/1.

(115)–تهذيب اللغة مادة (عجج) 67/1.

(116)–سورة الأنبياء ، الآية 37.

(117)–المحكم مادة (عجل) 194/1.

(118)–سورة الشورى ، الآية 31

(119)–تهذيب اللغة مادة (عجز) 340/1.

(120)–سورة النحل ، الآية 47.

(121)–ينظر : الجامع لأحكام القران ، القرطبي 110/10 . والكشاف ، الزمخشريّ 205/2.

(122)–الصاحبيّ ص 467.

(123) –ينظر : البيان والتبيين ، الجاحظ 321/1 ، والعمدة ، ابن الرشيق 56/1 .

(124)–ينظر : العمدة ، ابن الرشيق 56/1 فما بعدها.

(125)–ينظر : الاقتراح ص55.

(126)–المصدر السابق ص 54.

(127)–العين مادة (عق) 64/1.

(128)–تهذيب اللغة مادة (عق) 56/1.

(129)–ينظر : الأغاني لأبي الفرج 135/3.

(130)–جمهرة اللغة 127/1.

(131) ينظر : الاقتراح ص55 .

المصار والمراجـع

1– الاحتجاج بالشعر في اللغة (الواقع ودلالته) ،محمد حسن حسن جبل ،القاهرة ،دار الفكر العربي.

2- الاستدراك على المعاجم العربية ، محمد حسن حسن جبل ، القاهرة ، دار الفكر العربي.
3- الاستشهاد والاحتجاج باللغة (رواية اللغة والاحتجاج بها في ضوء علم اللغة الحديث) محمد عيد القاهرة، عالم الكتب ،ط3(1988م).
4- الاقتراح في علم أصول النحو ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق وتعليق: أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد محمد قاسم ، مطبعة الفيصليّة ،ط1(1988م).
5- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ، طبعة دار الكتاب .
6 - الأمالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ، دار الكتاب (1926م).
7- إنباه الرواة على أنباه النحاة ، جمال الدين القفطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، دار الكتاب ، القاهرة (1973م).
8- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، دار الفكر . ط4(بدون تأريخ).
9- البارع في اللغة ، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ، تحقيق : هاشم الطّعان ، ساعدت جامعة الكويت في نشره .
10- تاج العروس من جواهر القاموس ، العلامة مر تضى الزبيديّ ،ط1، المطبعة الخيرية (1306هـ) 11- تاج اللغة وصحاح العربية ، العلامة إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار القاهرة ، دار الملايين ،ط2(1402هـ) .
12 - تهذيب اللغة ، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهريّ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الدار المصرية للتأليف والترجمة (1384هـ).
13- الجاسوس على القاموس ، أحمد فارس الشدياق ، القسطنطينية ، مطبعة الجو ائب (1299هـ).
14- جمهرة اللغة ، أبو بكر محمد بن دريد ، دار صابر .
15- الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبيّ ، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنشر ، القاهرة (مصور).
16- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر البغداديّ ، دار صادر،بيروت (1030-1093هـ).
17- الخصائص ، صنعة أبي الفتح عثمان بن جنيّ ، تحقيق : محمد على النجار ، دار الكتاب العربيّ ، بيروت/لبنان .
18- دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصريّة ، ط4(1980م)
19- دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ترجمة كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة.
20- رواية اللغة ، عبد الحميد الشلقاني ، القاهرة ، دار المعارف (بدون تأريخ) .
21 شرح المفصل ، موفق الدين علي بن يعيش ، بيروت ، عالم الكتب .
22- الصاحبيّ في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ،أحمد بن فارس ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، القاهرة، مطبعة عيسى البابي وشركائه .

23- ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر (1357هـ).
24- صناعة المعجم الحديث ، أحمد مختار عمر،عالم الكتب ، ط1(1418هـ).
25- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،أبو علي الحسن بن رشيق القيروانيّ،تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت /دار الجيل .
26- العين ،الخليل بن أحمد ،تحقيق:مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي،إيران،مؤسسة دار الهجرة.
27- الفهرست ، ابن النديم ، بيروت ، دار المعرفة .
28- القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، بيروت ، دار الجيل .
29-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ ، مصطفى البابي الحلبي (1367هـ).
30- الكلمة دراسة لغوية ومعجمية ،حلمي خليل ،الهيئة المصرية العامة ،فرع الإسكندرية (1980م).
31- لسان العرب ، ابن منظور ، بيروت ، دار الفكر (صورة) .
32- اللغة العربية معناها ومبناها ، تمّام حسّان ،الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2(1979) .
33-اللغة العربية وعلومها،عمر رضا كحالة، دمشق ،دار المعلم العربي،المطبعة تعاونية(1391هـ).
34- مجلة المعجمية ، جمعية المعجميّة العربية ، تونس، العددان الخامس والسادس 1409هـ).
35- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، أبو الفتح عثمان ابن جنيّ ، تحقيق : علي النجدي ناصف و عبد الفتاح شلبي، الجمهورية العربية المتحدة ،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .
36- المحكم والمحيط الأعظم ، علي بن إسماعيل بن سيده ،تحقيق:مصطفى السقا وحسين نصار،ط1 (1377هـ) ، مطبعة البابي وأولاده بمصر .
37- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، شرح وضبط : محمد أبو الفضل وغيره ، دار الفكر .
38- معاجم الموضوعات في ضوء علم اللغة الحديث ،محمود سليمان ياقوت،الإسكندرية،دار المعرفة ياقوت ، الإسكندرية،دارالمعرفةالجامعية (1994م).
39- المعاجم العربية ، عبد الله درويش ، مكة المكرمة ، الفيصلية (1406هـ) .
40- المعاجم اللغوية العربية بداءتها وتطورها، إميل يعقوب ،بيروت،دار العلم للملايين ، ط2(1985).
41- المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ، أحمد أبو الفرج ، دار النهضة العربية
42- معجم البلدان ، ياقوت الحمويّ ، بيروت ، دار صادر .
43- معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مصطفى البابي الحلبي،ط2(1389) .
44- المعجم العربي نشأته وتطوره ، حسين نصار ،دار مصر للطباعة .
45- المعجم العربي بين الماضي والحاضر ، عدنان الخطيب ، محاضرات ألقاها على طلاب قسم الدراسات الأدبية واللغويّة (1966م) .

46- المعجم الوسيط ،مجمع اللغة العربية ، القاهرة (بدون تأريخ).
47- المغني الجديد في علم الصرف ، محمد خير حلواني ، لبنان ، بيروت ، دار الشرق العربي.
48-المفصل في علم العربية ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، بيروت ، دار الجيل،ط2.
(بدون تأريخ).
49- مقدمة الصحاح ، أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة، ط2(1402هـ).
50- مناهج البحث في اللغة ، الانجلو (1955م).
51- نشأة الو وتأريخ أشهر النحاة ، محمد الطنطاوي ، تعليق : عبد العظيم الشناوي ومحمد عبد الرحمن الكردي ، ط2(بدون تأريخ) .
52 - همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق وشرح :عبد السلام هارون وعبد العال مكرم ، ساعدت جامعة الكويت على نشره .

أهميـة المعجم التأثيلي في اللغة العربية

الأستاذ: خشاب صادق

المركز الجامعي د/ يحي فارس المدية

اللغة هي أساس المعرفة ولا يمكن أن تتم هذه المعرفة إلاّ بواسطة اللغة التي تعتبر أداة التواصل، فبدونها لا يمكن لأحد أن يعبّر تعبيرا راقيا واضحا وحضاريا، كما أنّها تعدّ ركنا أساسيا من الأركان المكوّنة للحضارة هذه الحضارة التي يقول فيها أحد العلماء إذا أردت أن تعرف حضارة أمّة ما فانظر إلى معاجمها، فالمعجم إذاُ بمثابة الجسر الذي يربط بين اللغة والحضارة.

إذا كان تطور اللغة ورقيها يتأتى بجهود أبنائها فإنّ مناط الصراع القائم بين اللغات العالمية إنّما هو صراع على القيم الحضارية المتصلة باللسان القومي، وأكثر ما يتجلّى هذا الصراع في قضايا المعجم باعتباره ديوانا لأساسيات المعارف ومفردات العلوم في اللسان الرسمي وأداة للتوصيل.

ومن الثابت أنّ كل ما يبدعه الإنسان من مظاهر حضارية في العلوم والأداب والفنون والمعارف المختلفة تكاد تعود أسبابه إلى ما يتمتع به الإنسان من قدرات لغوية، فهي أساس التواصل بين الأجيال[1].

عرفت اللغة العربية مسارا طبيعيا خضع لسنّة التطوّر والنمو منذ العصر الجاهلي، وكان أكثر استجابة لمستجدات العصر الإسلامي في الألفاظ والدلالات، برزت إبداعات وابتكارات في المجال المعجمي متمثلة في امهات المعاجم من العين ونظريته الصوتية للخليل والجمهرة لابن دريد، وصحاح اللغة للأزهري، ومقاييس اللغة لابن فارس، والمحكم لابن سيدة وغيرها من المؤلفات والمعاجم التي جمعها التنافس على رواية اللغة وجمع مفرداتها مع التأكيد على الصحة والضبط والتوثيق، كما اعتبر علماء اللغة المعجم مؤخرا نظرا لأنّه يختص بمعالجة الجانب العملي للغة فرعا من فروع علم اللغة التطبيقي، ولأنّ علم اللغة التطبيقي أسبق في الوجود من علم اللغة النظري بإجماع جلّ علماء اللغة بأنّ صناعة المعجم أسبق من وضع نظرية له[2].

قبل الخوض في معالجة إشكالية الموضوع والتي هي أهمية المعجم التأثيلي في اللغة العربية لابد من التعريف بأنواع المعاجم وإلى أي نوع ينتمي المعجم التأثيلي، كما هو شائع ومعروف المعجم نوعان معجم ألفاظ ومعجم معاني ،للكلمة جانبان: جانب اللفظ وجانب المعنى؛ إذا كان الباحث يريد الحصول على شيئ مجهول له يتعلق بالمعنى أو النطق أو التأصيل الاشتقاقي أو درجة اللفظ في الاستعمال وغير ذلك، فإنّ مدخله إلى المعجم يكون من خلال اللفظ فيرجع إلى واحد من معاجم الألفاظ والتي تتعدد طرق ترتيبها، وإذا كان يعرف المعنى العام أو الموضوع ويريد أن يحصل على الألفاظ أو العبارات أو المصطلحات التي تقع تحته يرجع إلى واحد من معاجم المعاني أو معاجم الموضوعات[1].

نصنف المعاجم التأثيلية أو التأصيلية أو الاشتقاقية ضمن قائمة معاجم الألفاظ، وهذه المعاجم نوعان، معاجم تأصيلية دلالية وتبحث في الأصول المعنوية للألفاظ والمعاني التي تشعبت عنها وتحاول الربط بينها[2]. ومعاجم تأثيلية التي ترد الألفاظ إلى أصولها، وتبحث عن المنابع الأولى والمعنى الأصلي للكلمة، كما تهتم بالبحث عن اللفظ في اللغات الأخرى التي تشترك مع اللغة المبحوثة في الفصيلة اللغوية الواحدة، وتسعى إلى ردّ

---

[1] اللغة العربية. واقع المعجم العربي المعاصر، جيلالي سلام، عدد /: 02 /1999 الجزائر.
[2] أحمد عمر مختار ، صناعة المعجم الحديث ص:25.
[1] أحمد عمر مختار: صناعة المعجم الحديث ص:36.
[2] جيلالي حلام ، المعاجمية العربية ص: 14.

المعرّب والدخيل إلى أصوله في لغاته الأجنبية مع ذكر المعنى الأصلي في هذه اللغات[3]. ولما كانت لغتنا العربية في ذاتها منبعا فإنّ المعجم الاشتقاقي ينبغي أن يحقق فيها الأهداف التالية:

-ذكر المعاني الحسية الحقيقية الدائمة للمواد، وشرح العلاقات الفكرية التي على ضوئها تنوعت المعاني وتشعبت عن المعنى الأصلي.

-ذكر اللفظ نفسه إذا كان موجودا في غير اللغة العربية ومن اللغات السامية الأخرى، والإشارة إلى بعض النصوص المشهورة التي جاء فيها في اللغة العربية واللغات السامية الأخرى.

-ردّ المعرّب والدّخيل إلى أصوله في لغاته الأجنبية مع ذكر المعنى الأصلي للألفاظ في هذه اللغات.

-ذكر المشتقات التي فرّعها العرب من بعض المواد المعرّبة[4].

من المهم جدا التعرف على ظاهرة التأثيل في المعاجم العربية القديمة، فإذا استفسرناها عن الجوانب التأثيلية فيها لمسنا قلة اهتمام طبعا مع وجود محاولات تأسيسية لهذا النوع من الدراسة المعجمية منذ وقت مبكّر ووجود كذلك بعض الاستشارات والتلميحات الجادة، صحيح أنّ اللغة العربية خلت من معجم مختص في هذا المجال لكن لا يصل بنا القول بأنّ المعجميين العرب القدماء قد أغفلوا إغفالا تاما تعقب كل كلمة في مراحل حياتها، وشرح تطور مدلولها في مختلف العصور وبيان الأصول التي انحدرت عنها[5].

ومن بين المؤلفات القديمة التي تناولت هذه الظاهرة نذكر منها كتاب الزرينة في الكلمات الإسلامية لأبي حاتم الرازي (322هـ)، والعرب من الكلام الأعجمي للجواليقي (550هـ) وشفاء الغليل فيما يخص كلام العرب من الدخيل للخافجي (1060هـ)و غيرها ، فإنّ المعاجم العربية القديمة عامة لاتكاد تخلو من الإشارات التأثيلية، فقد عقد ابن دريد (321هـ) في الجمهرة بابا أسماه (ما تكلمت به العرب من كلام العجم) كما أفرد ابن سيده (456هـ) في مخصصه بابا للمعرّب[1]، كما أثلت معاجم أخرى لكثير من الألفاظ الدخيلة وجمعت ملا نجده في كلام العرب ككتاب (ليس في كلام العرب) لابن خالويه[2].

أما عن التأثيل في المعاجم الحديثة فلا نجد معجما تأثيليا اشتقاقيا وكل ما نجده مجرّد محاولة قام بها المستشرق الألماني فيشر الذي كان حجة في اللغات الشرقية بمعية مجمع اللغة العربية بالقاهرة، لكن المحاولة لم تتم لقيام الحرب العالمية الثانية[3] .دون أن نغفل كذلك مشروع المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية، فيعتبر معجما تأثيليا تاريخيا في الوقت نفسه، فهو يترصد الألفاظ العربية وما تفرّع عنها في المجموعة العروبية (السامية) بخاصة، مشيرا إلى أثل الكلمة مع رسمها وكتابتها بحروف اللغات المقترضة عنها، أما عن العلاقة

---

[3] نور الهدى لوشن – مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص:264.
[4] حسن ظاظا –كلام العرب- ص:118.
[5] حسن ظاظا –كلام العرب- ص:118.
[1] حسن ظاظا –كلام العرب- ص:118.
[2] جيلالي حلام ، المعاجمية العربية ص: 14.
[3] نور الهدى لوشن – مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص:264.

الموجودة بين المعاجم القديمة والحديثة والمعاصرة فيما يخص هذه الظاهرة، هي كون اللغة واحدة لا تتغير كما أن المعجم القديم يسهّل بشكل وافر في صناعة المعجم الحديث، اما ضرورة التغيير فإنّها تتعلق بما استحدث في مجال العلوم التقنية والتكنولوجية الحديثة في مصطلحات لابد أن نجد لها موقعا في المعجم سواء بما يعرف بالكلمات المعرّبة أو الدخيلة والتي نرى أنّ من شأن المعجمية الاعتناء بها بشكل أو بآخر حتى تدخل المدونة اللغوية الخاصة بها في إطار المعجم لا اللغة الأم[4].

أما المعاجم اللغوية المعاصرة فإنّ الجانب التأثيلي يبدو ضئيلا فبعضها لا يشير إلى تأثيل الألفاظ في حالات نادرة كالقاموس الجديد أو المعجم العربي الأساسي وبعضها الآخر يكتفي بتأثيلات جزئية.

يتضح مما سبق أنّ المعاجم العربية الحديثة لا تختلف عن المعاجم العربية المعاصرة فيما يخص ظاهرة التأثيل وفي بعض الأحيان لا يميز بين المعرّب والدخيل ولا ينص في مقدمة هذه المعاجم سواء الحديثة أو المعاصرة على قضية التأثيل.

لقد أصبح أكثر من ضرورة ملحة اليوم قبل الغد تأليف معجم تأثيلي في اللغة العربية مطلبا أساسيا لمواكبة المستجدات في المجالات العلمية برمّتها ودون استثناء حتى نتجاوز بعض النقائص المتمثلة في صعوبة ترتيب المداخل والمشتقات والدلالات وانعدام الإحالات وقصور التعاريف والشروح، بالإضافة إلى إهمال اللغة الوظيفية والجانب الاستعمالي والبيداغوجي للمعجم بما في ذلك المعرّب والدخيل والمولّد، نتيجة التركيز والبحث عن الصحة فيما جاء عن العرب القدماء من اللسان الفصيح[5]، ويعتبر هذا أكبر وأهم قصور ساهم في تأخر إنجاز وتأليف معجم تأثيلي يخدم اللغة الوظيفية واستعمالاتها البيداغوجية، وحتى تكون هذه المعاجم أكثر وضوحا وتفصيلا لابد من ذكر اللغة التي جاء منها المعرّب أو الدّخيل، وأصل اللفظ في هذه اللغة، كما أنّه لو أمكن ذكر العصر الذي ترجع إليه اللفظة المولدة أو المعنى المستحدث يكون ذلك أجود وأدق[1].

يظل ضروريا تأليف معجم تأثيلي ذلك للتعريف بنسبة الرصيد الأثيل من المفترض في اللسان العربي لحفظه من التداخل، والوقوف على درجة عجمة اللفظ سواء كان دخيلا أو معربا مع معرفة اللسان الذي انحدر عنه وبينته ودلالته قبل وبعد دخوله إلى المعجم[2].

في اللحظة التي نجزم ونحن مقتنعين بأن المعجم التأثيلي جزء من المعجم العربي الوظيفي المعاصر القادر على استيعاب حضارة العصر ومواكبة مستجداته، نجد أنفسنا قد تأخرنا وأجحفنا في حق الأجيال الآتية لإمدادهم بكل ما يلبي حاجاتهم العلمية والثقافية ممثلة في المعاجم اللغوية بصفة عامة والمعاجم التأثيلية بصفة خاصة كوسائل لاكتساب المعرفة وإتقان المهارات بشتى أنواعها والتفكير بما هو أبعد وأرقى ذلك بإنجاز معجم تأثيلي إلكتروني أو حاسوبي يخدم اللسان العربي.

---

[4] حسن ظاظا –كلام العرب- ص:118.
[5] حسن ظاظا –كلام العرب- ص:118.
[1] حسن ظاظا –كلام العرب- ص:118.
[2] حسن ظاظا –كلام العرب- ص:118.

قائمة المراجع:

-د/ أحمد مختار عمر- صناعة المعجم الحديث ط1 عالم الكتب القاهرة 1998.

-د/ إبراهيم أنيس دلالة الألفاظ ط6 مكتبة الأنجلومصرية القاهرة 1991.

-د/ حسن ظاظا كلام العرب طبعة2 دار القلم 1990 دمشق سورية.

-د/ حلام جيلالي المعاجمية العربية ط1 ديوان المطبوعات الجامعية 1997 وهران الجزائر.

-د/ رجب عبد الجواد إبراهيم دراسات في الدلالة والمعجم دار غريب القاهرة 2001.

- د/ نور الهدى الوشن مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي المكتبة الجامعية الإسكندرية مصر 2000.

- د/ ديزيره سقال نشأة المعاجم العربية وتطورها دار الفكر بيروت لبنان 1997.

-د/ حلام جيلالي تقنيات التعريفات المعجمية رسالة دكتوراه جامعة وهران .

-المصطلح والمصطلحية الملتقى الدولي الأول كلية الأداب والعلوم الاجتماعية جامعة سعد دحلب البليدة الجزائر مارس 2004.

-اللغة العربية المجلس الأعلى للغة العربية عدد 02/ 1999 الجزائر.

المعجمية العربيـة تاريخ - تطور- تجديد.

الأستاذة: شكور مسعودة.

جامعة جيـجل.

الملخص

لقد فرضت تكنولوجيا المعلومات أنماطا جديدة من التعامل مع اللغة وانتاجاتها الفكرية، غدت معها الوسائل التقليدية في الطبع والنشر- لاسيما في اعتمادها على المنتج الورقي- بعيدة عن تغطية متطلبات سوق المعرفة التي تبنت الحاسوب بشبكته المعلوماتية أداة التواصل بين أفراد القرية العالمية، فأصبحت اللغة بذلك مطالبة باقتحام التقنية والتعامل بها ومعها, بعد أن كان طريق التقنية أو الحوسبة قد مهد لها منذ أول

ظهور لآلات الطبع، هذه الأخيرة التي طرحت نموذج الخط المنفصل الحروف في الكتابة. ولما كان الخط العربي قد توارثته الأجيال خطا متصلا فقد شكلت طبيعته المتصلة عائقا كبيرا حال دون سهولة طبعه بالات الطبع العادية لتزداد المسالة صعوبة بظهور أجهزة الحاسوب وما فرضته تكنولوجيتها من تعقيدات بدا الخط العربي المتصل مستعصيا على السيطرة، الأمر الذي أدى إلى ظهور محاولات لاصلاحه منذ القرن الماضي كما تبلورت في دعوة(زهير الشيهابي) سنة 1929 ، ومشروع (الخط الوحدوي) الذي نادى به(نصري خطار)، وهي جهود رمت في مجملها إلى تخليص الخط العربي من التعقيدات التي تلبسته في عصور التدوين والترجمة، وتعمقت في عصور الانحطاط فحالت اليوم دونه ودون عالم الرقمية، وأدت إلى وصف لغته في آخر المطاف بالتعقيد والغموض ثم بمجافاتها للعلمية.

وإذا كانت الصناعة المعجمية في الغرب قد اكتسحت سوق المعرفة بمعاجم آلية على قدر كبير من الاستجابة لمتطلبات العصر من سرعة وتسارع، فقد جعلت الصناعة المعجمية العربية في ذلك مجبرة على الإسراع بدخول المضمار نفسه لتدارك ما فاتها ومن ثم دفع لغتها من جديد والاستجابة لمطمح جماهير الباحثين المتعاملين في الأساس مع التقنية والحواسب، على أن تحقيق هذه الغاية منوط في البداية بإعادة النظر في الطبيعة المتصلة للخط العربي ومحاولة إيجاد الحل الجذري لها ومن ثم الانطلاق باللغة العربية الانطلاقة الفعلية نحو التقنية. والحقيقة أن هذا التصور هو الخلفية الرئيسة التي وجهت قاموس المشقاق الذي حاول واضعه أن يجيب على عدد من الإشكاليات المطروحة في اللغة العربية من مثل الإملاء والكتابة الصوتية والاشتقاق اللغوي , وهذه القضايا هي ما ستتبعها المداخلة في هذا القاموس الافتراضي في محاولة للكشف عن مدى نجاعتها في دفع المعجم الافتراضي في اللغة العربية نحو الكمال المنشود.

المداخلــة:

رغم السبق الذي عرفته اللغة العربية مقارنة باللغات الأوروبية في مجال الصناعة المعجمية، والريادة التي تميزت بها أعمال وجهود بعض اللغويين العرب فيما ابتكروه من طرق في ترتيب المعاجم، من أمثال(الفراهيدي) في معجمه العين القائم ترتيبه على مخارج الأصوات، فإن حظ اللغة العربية اليوم من السبق و الريادة قد تراجع– شأنه في ذلك شأن التراجع العام الذي يعرفه أهل هذه اللغة على كل الأصعدة– فالجهود التي يحفظها التراث المعجمي العربي لأبناء اللغة العربية تكاد تجعل قائمة المجددين في الصناعة المعجمية قائمة مغلقة، لم تضف إليها العصور التالية لانحطاط الحضارة العربية سوى محاولات لا زالت على ما يبدو متخبطة بين تكرار لمحتويات المعاجم التراثية– وهو تكرار في أغلبه غير مواكب لتطور اللغة أو ما يثبته العاملين فيها من معلومات ومعارف–، وبين النزعة الفردية في الإنجاز التي تحول دون تطوير هذه الصناعة (1)، مما قد يؤهل هذه الصناعة للاستفادة من التطور الذي تفرضه الحياة المعاصرة، على الأقل تبينها للمعلوماتية المتكئة على الشبكات الإلكترونية؛خاصة والعالم قد بدأ مع نهاية القرن الماضي التعامل مع المعاجم الآلية التي اكتسحت

أسواق المعرفة العالمية، التي نالت الرضا لتلبيتها حاجات مستعملي الشاشات الإلكترونية؛ فقد حققت لهم السرعة والسهولة والمرونة التي تفرضها المعلومات المنتقلة عبر الأجهزة الإلكترونية، لاسيما الحواسب بشبكاتها للإنترنت .

ولما كان من غير الممكن أن يتصور حاليا توقف للتطور الرهيب الذي يعرفه عالم المعرفة والمعلومات بشتى تفرعاته، خاصة والشبكات الرقمية سهلت تسريع وتيرة التطور، وتعمل مع كل تطور في تقنياتها على دفعه أكثر نحو آفاق لا يمكن توقعها أو التكهن بها، فقد بات من غير المنطقي أن تظل الجهود العربية في الصناعة المعجمية متوقفة عند رصد عيوب المعاجم الورقية –رغم كثرتها وتكررها– وإغفال حتمية الدخول في مضمار الصناعة المعجمية الآلية، وهو طريق لم يعد فيه الخيار ممكنا؛ لـ "أنه لأمر حاسم في مجتمع المعلومات أن تملك أداة سريعة للمعلومات من كل نوع متصور" (2) كما يؤكد (فلوريان كولماس) في كتابة "اللغة والاقتصاد". فليس متوقعا إذا في عالم الرقمية أن يعول على المعاجم الورقية في تحقيق هذه السرعة.

لماذا المعاجم الآلية في اللغة العربية ؟

قد يتساءل البعض –و قد يكون لهم الحق في ذلك– إن الصناعة المعجمية في معاجمها الورقية تشتكي من عيوب و نقائص باتت تتكرر في أغلبية المعاجم المنجزة، مما جعلها مقارنة بالغرب عاجزة حتى على احتذاء معاجمه الورقية في منهجياتها المبسطة ، فكيف لهذه الصناعة أن تحقق نتائج مرضية في معاجم آلية أو افتراضية والعرب يبدو بعيدين عن هذا المجال ، ثم إن التمويل المالي الكبير الذي يصاحب مثل هذه الصناعة الدقيقة لاعتمادها على تكنولوجيا مستوردة، قد يعجز القطاع العام عن توفيره، بينما قد يخشى القطاع الخاص تقديمه؛لان الأرباح فيه ليست من النوع السريع الذي يفتح شهية المستثمرين، وهو أمر يجعل مجال الرهان على مثل هذه الصناعة في مثل ظروف البلاد العربية غير مضمون النتائج؟

الإجابة على هذا التخوف قد يكون مرهونا بتغيير النظرة إلى اللغة العربية؛ فلا ينظر إليها كوسيلة إنتاج محققة لغاية محددة هي التواصل بين المتعاملين الاقتصاديين وحسب، بل بالنظر إليها كقيمة اقتصادية تقبل من الاستثمارات ما لا تضاهيها استثمارات أخرى؛ فالمعاجم إذا تقصي الأمر، ورقية كانت أو آلية تشكل من الناحية الاقتصادية استثمارا مهما؛ فهي" الحجر الأساس للتهذيب اللغوي وبهذا المعنى فهي عبارة عن استثمار ما دامت تزود اللغة بالقوة الوظيفية للغات الثقافة الحديثة" (3). وهذا هو الفهم الذي جعل اقتصاد الغرب يعول على اللغة في تحقيق عائدات وأرباح حيث رأى فيها مشروعات استثمار رأسمالي بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى المجازي وأهم الاستثمارات التي تساهم في تحسين الانتفاع اللغوي هي ما يلي:

1 تصنيف المعاجم الاستعمال العام وكذلك معاجم المصطلحات في مجالات محددة.
2 برامج معالجة النصوص.
3 الترجمة الآلية.
4 الذكاء الصناعي، وبشكل محدد إنشاء نظم المعلومات وبنوك المعلومات.
5 تحسين الاتصال بين الإنسان والآلة أي تطويع لغات الكمبيوتر للغات الإنسانية[4].

فالانتفاع اللغوي يعتمد في تحسينه بالدرجة الأولى على التكنولوجيا المتطورة وما يفرضه من تحول إلى الدقة الإلكترونية في تحقيق سبل الاستثمار السابقة في اللغة، وليس بالخفي حجم الأرباح التي تذرها البرامج الإلكترونية بشتى أنواعها على المستثمرين فيها، الأمر الذي المشجع للتفكير في اللغة كاستثمار.

قد يبدو الاستثمار في اللغة–حسب ما تعكسه النقاط السابقة– ممكنا عند من يتملك التكنولوجيا المعاصرة، وفضلا عنها يملك رأس المال القابل للاستثمار، بمعنى آخر هذا الاستثمار ممكن للبلاد الغنية المتطورة، التي قد تستثمر في اللغة دون خوف، لامتلاكها المال والتكنولوجيا؛ فهذا النوع من الاستثمارات تزول المخاوف منه حين تكون اللغة التي أنجز فيها ومن أجلها لغة عالمية؛ لكون عالميتها مسوغة لصرف الأموال عليها يقينا واطمئنانا من أصحاب رأس المال إلى أن العائد أو الأرباح آتية لا محالة لأن هذا الاستثمار "لن يكون معقولا من الناحية الاقتصادية إلا إذا كانت اللغة التي نحن بصددها متطورة بشكل كاف وتستجيب بدرجة عالية لمتطلبات الخطاب التقني والعلمي"[5]. وهو الضمان الذي تملكه اللغات الأوروبية عموما والإنجليزية منها خصوصا، وقدمته لمن أراد الاستثمار في اللغة فانتعشت أسواقهم بالبرامج الالكترونية الخاصة باللغة من معاجم آلية وبرامج ترجمة آلية وبرامج معالجة النصوص وغيرها. وهي حقائق قد تجعل التعويل على تحقيق النتائج نفسها في اللغة العربية حلما صعب المنال، بل قد تؤدي إلى الإحباط إذا ما نظر إلى حال اللغة العربية، ومن قبله حال أهلها والمشتغلين بها؛ فلا اللغة العربية اليوم باللغة العالمية، ولا الاستثمارات فيها من القطاعين العام والخاص بالمنبثقة عن وعي لقيمتها العلمية، فكيف الحديث إذا عن قيمتها الاقتصادية التي تبدو مستبعدة أو مشكوكا فيها لأن أرباحها ليست آنية، ولأن التمويل فيها يحتاج إلى رأس مال كبير كي تتحقق النتائج المأمولة. لكن ذلك إذا تجاوز المعنيون سطحية القضية وغاصوا في أعماقها، فإن اللغة العربية تغدو معنية بهذا التطور وبهذا الاستثمار أكثر من غيرها، أولا لتاريخها الذي يؤكد عمليتها وعالميتها وثانيا لواقعها المتخبط في ازدواجية أو تعددية رسمية كانت أو غير رسمية تعكسها مؤسساتها التعليمية والعلمية والإدارية، هذا التعدد أو الازدواجية يفرض ودون نقاش أو تماطل إعادة النظر في اللغة كقضية اقتصادية؛ لأن "صناعة سياسة لغوية رشيدة في دولة متعددة اللغة هي في ذاتها مسألة اقتصادية يجب أن تكون لها أسبقية عظيمة مثلها مثل المسائل الاقتصادية الأخرى"[6].

إن بدا دخول الصناعة المعجمية عالم الرقمية قد اتضح حسب ما تقدم ضرورة تزكيها حاجاتان على قدر واحد من الأهمية، الأولى علمية يلح عليها ملايين المستعلمين للشاشات الإلكترونية، والثانية اقتصادية يشجعها العدد نفسه من المستعملين ويطمع فيها، فإن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال مجرد تسجيل الدخول إلى عالم الرقمية دون تسطير أهداف مدروسة، تحقق هدفا رئيسا توجه إليه الأهداف كلها، وهو إعادة اللغة العربية إلى مكانتها التي تبوأتها أيام عزها الحضاري، وذلك لن يكون إلا بالاستفادة وعن وعي كبير من جهود من سبق إلى عالم الرقمية، ثم حشد وتجنيد الكفاءات اللازمة من مختلف التخصصات اللغوية والعلمية. كما تجدر الإشارة إلى أن دفع الصناعة المعجمية العربية نحو العالم الافتراضي لابد أن يكون مسبوقا بحلول للقضايا الشائكة في اللغة العربية، كي لا تكون هذه القضايا حجر عثرة في تقدم هذه الصناعة، لاسيما قضايا الخلاف التي ساهمت من ناحية أو من أخرى في تدهور الوعي اللغوي. وفي ذلك تبدو قضايا من مثل الخط العربي،

والاشتقاق اللغوي، والصناعة المعجمية، ووضع المصطلحات هي أكثرها لصوقا بالبحث المعجمي وصناعة المعاجم خاصة، مما ينتخبها قضايا محورية لابد من بحث عن حلول لها قبل مباشرة الصناعة المعجمية الآلية، تحسبا للعراقيل التي قد تكبل بها الصناعة المعجمية، على أنه يجدر التصريح هنا أن هذه القضايا الثلاث وإيجاد حلول لها، كان محركا رئيسا لنموذج المشقاق–عينة الدراسة–؛ حيث حاول واضعه أن يقرب هذه القضايا واقتراح حلول عملية لها.

تجربة المشقاق دفع للصناعة المعجمية الافتراضي:

لن يكون من باب المبالغة القول بأن البحث في الأسس النظرية والعملية التي بني (المشقاق) عليها تجعله تجربة رائدة تحتاج إلى الدراسة والاحتذاء، ففضلا عن أن واضعه قد انطلق من خلفية وضعت القضايا السابقة موضع المحور في إنجازه، فهي في الآن نفسه إجابات فعلية على هذه القضايا وحلول جاهزة لإشكالاتها المتعلقة بالتكنولوجيا المتطورة وعالم الإلكترونيات منها، يقول صاحب (المشقاق) الدكتور(عبد المالك بوحجرة) في ذلك "هذا المشروع يعتمد على الوسيلة الترفيهية المشقاق، ويتطرق لميادين البحث الهامة في اللغة العربية، لاسيما، المعجم العربي، تكوين المصطلحات، الخط العربي"[7]، وقبل فحص الحلول التي يطرحها يجب توضيح ما هو المشقاق؟.

المشقاق عبارة عن لعبة إلكترونية تشبه إلى حد بعيد لعبة (السكرابل) العالمية، وقبل أن تكون هذه اللعبة أو كما عبر عنها واضعها (الوسيلة الترفيهية) لعبة إلكترونية تعتمد على جهاز الحاسوب في أدائها، فقد كانت لعبة عادية –غير الكترونية–تحتوي على كيس به 29 حجرا هي حروف الأبجدية العربية بلون أبيض، مع مجموعتين ملونتين بلونين مختلفين تمثل حروف الزيادة التي يمكن أن تدخل في تكوين المشتقات وهي كما وضعها (بوحجرة)؛ (ء، أ، ت، ة، س، م، ن، و، ي، ؟) جاعلا الهمزة حرفا مستقلا كامل الحقوق كما يقول، و(؟) معوضة للحرف المكرر في الكلمات المشتقات، بالإضافة إلى حامل للأحجار قسم إلى ثلاثة أجزاء؛ جزء جانبي لوضع حروف الزيادة، وجزء علوي لتشكيل الكلمات، وجزء أخير سفلي لحمل حروف الزيادة بعد نيل استحقاق استعمالها.

وقواعد لعبة المشقاق العادية، على تقاطع كبير مع قواعد لعبة (السكرابل) وإن بدا بعضها مختلفا لتمايز لعبة (المشقاق) النسبي عن لعبة (السكرابل)، فقواعد (السكرابل) في الحقيقة هي حجارة الأساس في بناء قواعد المشقاق–يدرك ذلك العارف باللعبتين– أما اختلاف قواعد المشقاقعن قواعد (السكرابل) يعود إلى الغاية التي وضع (بوحجرة) من أجلها المشقاق، إذ تبدو في بعضها خادمة لهذه الغاية موجهة لها، هذا ما يلاحظ في قاعدة تجميع النقاط، وقاعدة الاستفادة من حروف الزيادة؛ حيث لا يكون للاعب حق استعمال أحجار حروف الزيادة إلا بعد تكوينه لجذر من الحروف الثلاثة التي اختارها عشوائيا من كيس الحجارة، ولا يجب أن تكون بذلك اسما جامدا أو حرفا عاملا أو ضميرا مثلا[8] وهي غائية أو قصد يؤكده (بوحجرة) حين يوضح أسباب بزوغ فكرة المشقاق لديه: "أثناء انشغالي في كتابة أحد فصوله (فصول كتابه: العربية هي لغة الكمبيوتر الطبيعية) المتعلق بالجذور والمشتقات، جاءتني فكرة الوسيلة التربوية الترفيهية المشقاق، فتركت مشروع الكتاب وانتقلت مباشرة إلى تصميم وصنع الوسيلة"[9]، أي أنه أوجد المشقاق ليكون مسهلا لعملية استيعاب الاشتقاق في

اللغة العربية، باعتباره المنهج أكثر استعمالا والأنجع استعمالا في تكوين الكلمات في اللغة العربية، وهو إدراك يستحق الثناء عليه لكونه متخصصا في الالكترونيك، دراسته كانت بانجلترا واهتمامه باللغة العربية كان من باب الميول، والثناء عليه لانتباهه إلى هذه الخاصية في اللغة العربية يعود إلى احتلال الاشتقاق منها موقع المحور في تشكيل مفرداتها و"العربية تسير في ذلك على نهج مطردي توليد الكلمات الجديدة وخلقها وهو ما يعرف عند علماء العربية القدماء، وخاصة علماء المعاجم باسم الاشتقاق"[10]، وانتباها من قدماء اللغويين العرب لأهمية الاشتقاق، إفرادهم لشروط ثلاثة أساسية في المشتقات[11]، فضلا عن اعتدادهم به فيصلا لإثبات العربي من الدخيل في الكلمات لتكون كثرة المشتقات دليلا على أصالة الكلمة في العربية، يقول (السيوطي) في ذلك: "إن منفعة الاشتقاق لصاحبه أن يسع الرجل اللفظة فيشك فيها، فإذا رأى الاشتقاق قابلا لها، أنس وزال استيحاشه منها وهذا تثبيت للغة"[12].

على شاكلة الألعاب التنافسية أرفق (بوحجرة) لعبة المشقاق العادية بقاموس رسمي (ق م ر) ليلعب دور الحكم بين اللاعبين، ابتدأه بمقدمة شرح فيها كيفية اللعب وقواعدها، وموضحا كيفية ترتيبه للقاموس، مع ذكره للمعاجم التي استقى منها الوحدات المعجمية المشكلة لقاموسه، إلى جانب جداول هي لوحات للاشتقاق تبسط طرق الاشتقاق وتقدم الصيغ المختلفة للمشتقة، ومتحرصا في هذه الجداول على إثبات فراغات للصيغ المشتقة غير الموجودة في اللغة العربية ملاحظة منه أن هذه "الفراغات المتبقية مع الجذر تدل على إمكانية توليد مصطلح"[13] مستوحيا هذه الفراغات من تلك الموجودة في الجدول الدوري للمعادن، التي تركت عمدا تحسبا لاكتشاف معدن جديد.

بعد المقدمة الموضحة لكيفية اللعب بالمشقاق العادية، يرتب (بوحجرة) معجمه على أساس الجذر؛ فالوحدات المعجمية عنده ترتب كترتيب المعاجم اللغوية؛ الابتداء فيها بالجذر تؤكد عليه قواعد اللعبة، التي تعتد بتكوين الجذور من اللاعبين كخطوة إيجابية لتلقينهم طرق الاشتقاق في اللغة، خاصة و"ثبات الجذر في معظم الكلمات المشتقة... يمكن الاعتماد عليه في تحديد العناصر اللغوية الطارئة على الكلمة وبالتالي التثبت من بنيتها الأصلية"[14]، مع ملاحظة أن ترتيب الجذور كان وفق الترتيب الألفبائي، وبعد إثبات الجذر وتمييزه بقوسين، تورد المشتقات تباعا، مع منهجية ثابتة راعى فيها مكان حروف الزيادة من حروف الجذر، مع إثبات الكلمات الجامدة، والملاحظ على القاموس هو جمعه للوحدات المعجمية وترتيبها دون إرفاق لها بالشرح، فدوره محصور في التحكيم بين المتنافسين في إثبات أو نفي للكلمات المكونة من قبلهم، وكان الأحرى أن يحتوي على الشروح لما فيه من إثراء لرصيدهم المعرفي بدلالات هذه الكلمات، للمبتدئين في اكتساب اللغة الفصحى على وجه الخصوص.

جدول الاشتقاق كما وضعه (بوحجرة)

	الماضي	المصدر	اسم الفاعل	اسم المفعول
01	فَعَلَ ك ت ب	متغير ك ت ا ب ة	فاعل ك ا ت ب	مفعول م ك ت و ب
02	فَعَّل ك ت ب	تَفعيل ت ك ت ي ب	مُفَعِّل	مُفَعَّل
03	فاعَلَ ك ا ت ب	مُفاعَلة، فعال م ك ا ت ب ة	مُفاعِل م ك ا ت ب	مُفاعَل
04	ءَفعَلَ ء ك ت ب	ءِفعال	مُفعِل	مُفعَل
05	تَفَعَّلَ	تَفَعُّل	مُتَفَعِّل	مُتَفَعَّل
06	تَفاعَلَ ت ك ا ت ب	تَفاعُل ت ك ا ت ب	مُتَفاعِل	مُتَفاعَل
07	انفَعَلَ ا ن ك ت ب	انفِعال	مُنفَعِل	مُنفَعَل
08	افتَعَلَ ا ك ت ت ب	افتِعال ا ك ت ت ا ب	مُفتَعِل م ك ت ت ب	مُفتَعَل
09	افعَلَّ	افعِلال	مُفعِلّ	غير موجود
10	استَفعَلَ	استِفعال	مُستَفعِل	مُستَفعَل

بعد المشقاق العادية صمم (بوحجرة) مشقاق الكمبيوتر، محولا اللعب إلى شاشات الكمبيوتر، مستعينا بقدرتها الفائقة على المعالجة والخزن والإرسال والعرض، لجعل اللعبة أكثر عصرنة واقتصادا، بحيث أصبحت القضايا التي حاول أن يجيب عليها في المشقاق العادية من خلال القاموس الرسمي ومقدمته بقواعدها وأفكارها –ونظرا للاقتصاد في المساحة التي يسمح به عالم الإلكترونيات– عبارة عن ملفات مرفقة بالبرنامج يمكن لقاصد اللعبة الولوج إليها بمجرد ضغطه على مفاتيح التحكم. كما حظيت اللعبة نفسها في ظل البرمجة الإلكترونية بتجديد على مستوى اللعب، فالتحكيم أصبح آليا، الكلمات المكونة تخضع لمراقبة آلية عن طريق تحميل البرنامج بالقاموس، فضلا عن كونها متصلة ببنك متجدد للمعلومات، يسمح بالدخول إلى القاموس، والبحث فيه مع تقبل الإضافات من المصطلحات التي قد توجد في ساحة المعرفة.

بعد ما تقدم من تفاصيل حول المشقاق يمكن الإجابة عن سؤال قد يطرح نفسه بإلحاح كيف يكون المشقاق دفعا لصناعة المعاجم الافتراضية في اللغة العربية؟ .

تبدو أهمية مشقاق الكمبيوتر فيما يطرحه من حلول لقضايا لغوية شغلت اللغويين واللسانيين العرب، حاول (بوحجرة) من جهته الدنو منها وإبداء الرأي في أسبابها مع اقتراحات لحلول لها، فصرح مثنيا على إنجازه: "أهم مميزات مشقاق الكمبيوتر:

1 تحتوي على بنك متجدد للمعلومات يضم قاموسا ثلاثي اللغة، عربي، فرنسي، إنجليزي.
2 تطرح قضية المصطلحات وتعطي منهجية أصيلة في خلق مفردات جديدة.
3 تبين بوضوح أهمية الخط المنفصل في كتابة العربية.
4 تظهر بوضوح التركيب المنطقي للعربية ومدى انسجامها مع الكمبيوتر وميدان المعلوماتية.[15]

وتوضيح هذه المميزات كل على حده، قد يدفع إلى الاستفادة من أفكار المشقاق لدفع الصناعة المعجمية الآلية في اللغة العربية؛ فمسألة بنك المعلومات المتجدد لاسيما في ثلاثية اللغوية لا يمكن أن يفهم بعيدا عن كونه مواكبة لكل ما يجد في الحقل اللغوي من مصطلحات في الحقول المعرفية الأخرى، مواكبة تضمنها سرعة الحصول على المعلومة التي تسمح بها شبكات التواصل من أنترنت وغيرها، لتبقى الميزات الثلاث المتبقية من الترتيب، متشابكة تدعم إحداها الأخرى، وإن كانت الميزة الثالثة رغم ما يبدو فيها من جرأة هي المحرك الأساسي لبقية الميزات كما سيتضح.

الواجهة الرئيسية لمشقاق الكمبيوتر

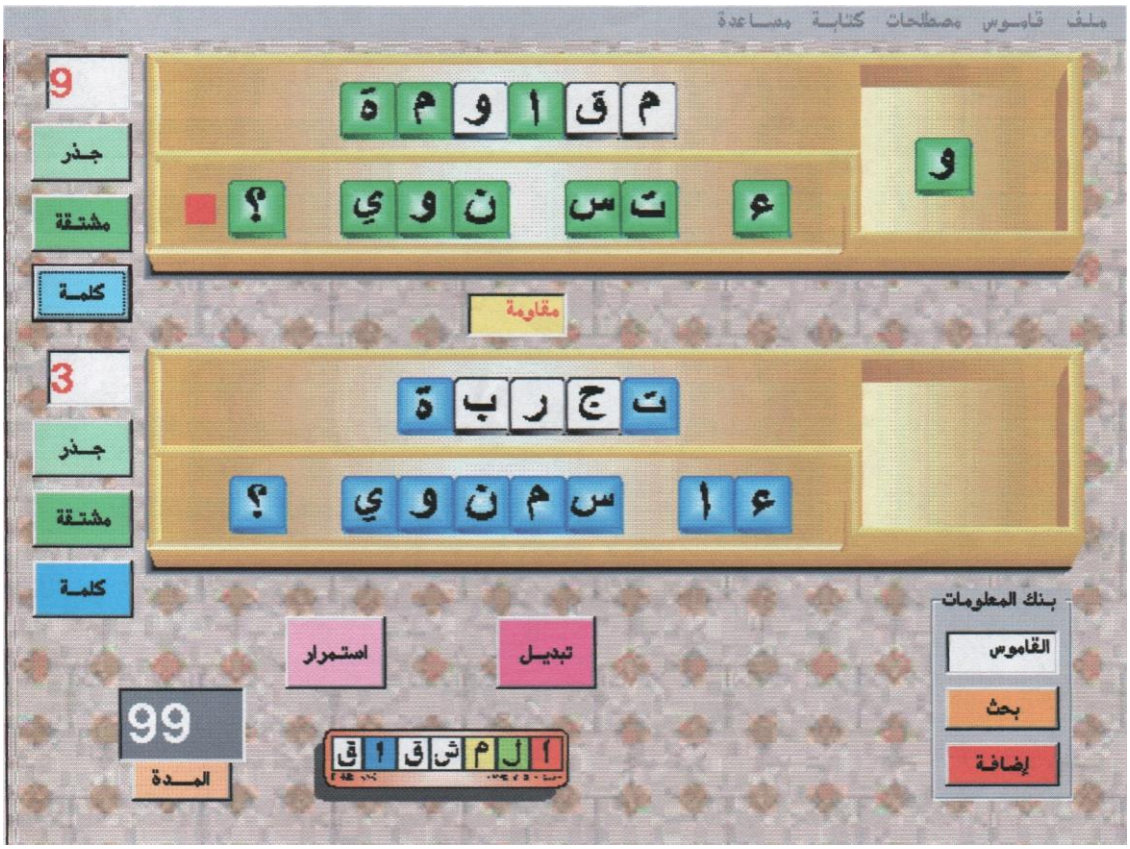

المشقاق وفكرة الخط المنفصل في كتابة اللغة العربية:

قد تبدو فكرة كتابة اللغة العربية بخط منفصل فكرة غريبة لمن لم يسبق له أن سمع عنها –رغم أنها فكرة قد ابتدأت مع ظهور آلات الطباعة برموزها المتحركة في القرن الماضي– وغرابة الفكرة تعود إلى كون أجهزة الحاسوب تتعامل مع الخط العربي في طبيعته المتصلة –وهو الخط العربي هو الخط الوحيد في هذه الصفة– دون إشكال على ما يبدو، وقد لا يرى من يستغربون الفكرة من ضرورة أو حاجة للتجديد فيه ما دام جهاز الحاسوب قادرا على طبعه على ذلك النحو، لكن المستمع إلى (بوحجرة) وهو ينتصر للفكرة، قد يجد في حججه المستقاة ما قد يدفعه إلى الإمعان وربما إلى الموافقة عليها؛ فمن خلال المشقاق –بنموذجيه العادي والآلي– يطرح بوحجرة الفكرة الجريئة (كتابة اللغة العربية بخط منفصل)؛ وتتجسد الفكرة من خلال الأحجار

المنفصلة التي تحمل الحروف برموزها المنفصلة لا المتصلة، ليكون التعود على استعمالها من طرف المبتدئين خصوصا، ممهدا لهم على المستوى النفسي لتقبل الخط المنفصل في كتابة اللغة العربية، ليشرح الأسباب والدوافع الكامنة وراء هذه الفكرة في ركن (كتابة) الموجود في البرنامج، هذا الركن الذي ضمنه موضوعي (الهمزة والخط المنفصل)، اللذين سبق له إثارتهما في كتابه "العربية هي لغة الكمبيوتر الطبيعية"، ففي الكتاب يعرض (بوحجرة) الاقتراحات التي حاولت تبسيط الخط العربي في الطبع، وهي اقتراحات أجمعت على تبني الخط المنفصل، منها اقتراح (يوسف غضوب) في مقالته: إصلاح الأبجدية العربية في العشرينيات من القرن الماضي، الخط الوحدوي المقترح من (نصري خطار) في مقاله: الخط الوحدوي: سلاح ضد الأمية سنة 1955، واقترح أحمد لخضر غزال سنة 1958 في مؤتمر اللجنة العربية ليونسكو، وكان المقترح الوحيد الذي أبصر طريقة التجسيد، وان اقترحت هذه المحاولات الحروف العربية في الكتابة، فإن أجرأها على الإطلاق كان لـ (سلامة موسى) الذي دعا سنة 1945 في كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) إلى كتابة الخط العربي برموز لاتينية[16]، فإذا كان مصير الاقتراحات السابقة هو الرفض فلا عجب أن يقابل هذا الاقتراح بالرفض الصارم، خاصة وان الواقفين خلف هذا الرفض كانت حجتهم أن الخط العربي قد بلغ من الكمال والجمالية ما يجعله مترفعا عن كل تجدد، كما سيتضح في موضع لاحق. ولعله السبب الذي جعل مختصا في الخط العربي وهو (مأمون سكال) يجيب على سؤال: هل يجب على الخط العربي أن يوجه إلى أن يكون أكثر تكيف مع الرموز اللاتينية أم يجب أن ينبع تطوره من أصوله؟ بقوله: "الخط العربي يجب أن ينبع تطوره من أصوله وأن يتفرع إلى اتجاهات الأخر في الآن نفسه، فجزء من هذا التطور وجب أن يستمر في تأثره بتطور الخط اللاتيني من أجل إنتاج رموز محافظة على قيم الخط العربي"[17].

ولعل الدعوة إلى استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني في الطباعة قد أخطأت وجهتها الحقيقية، ذلك أن هذا الاستبدال إنما كان نابعا عن صعوبة لوحظت في الخط العربي، في مقارنته بالخط اللاتيني الذي استوعب في شكله المنفصل بكل يسر اللغات الأوروبية، وبذلك كان على هذا الانشغال المشروع حول الخط العربي أن يستفيد من التجربة الغربية لا أن يحذوها ويتبنى الرموز اللاتينية؛ فقد كان حريا به أن يستفيد من الإنجازات التي حققها الخط المنفصل في الخط اللاتيني لا سيما في تحقيقه للسرعة المطلوبة في العصر الراهن خاصة والخط المنفصل لم يبد للغرب مهددا للغتهم أو حتى لخطهم المتصل بل "إن معظم اللغات الأوروبية حافظت على خطها المنفصل إلى جانب الخط المتصل، فالطباعة بالرموز المتحركة لم تحدث أي زوبعة في تقاليد الكتابة، وبالتالي فالاختيار كان بسيطا وظهر بأن الكتابة المنفصلة تتلاءم أكثر مع أسلوب الطبع الجديد"[18].

إن كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية بات أمرا مرفوضا، و لم يكن لتلك الفكرة أن تتحقق وفكرة كتابتها بخط منفصل وبحروف عربية التي تبدو أقل جرأة منها قد لاقت استهجانا ورفضا كبيرين، وقد حاول الدكتور (بوحجرة) –رغم فكرته الجريئة حول برمجة الحاسوب لكتابة اللغة العربية بخط منفصل– أن يكون أكثر تفهما للمسألة حين فحصها من جانب نفسي مرجعا سبب الرفض إلى كون الخط العربي قد وصل إلى قمم الجودة والإتقان وهي مكانة ليس من الهين التنازل عنها من أجل خط منفصل غربي الفكرة، خاصة والتاريخ العربي أيام

العز والحضارة يحكي قصصا من مثل نقل الغرب أنفسهم للخط العربي وتزينهم لعمرانهم به بعد أن أسرهم بجماله وكماله[19].

في ضوء المعطيات الحالية، وما تفرضه الحاجات المعاصرة من أولويات فمن الطريف أن يكون العامل النفسي هو المعول عليه في تقبل فكرة الخط المنفصل في اللغة العربية؛ فتغير النفسية العربية وتخلصها من الخوف المكبل لها والواقف في وجه محاولاتها للتجديد– حيث تخفي خلف حماية التراث خوفها من خطر وهمي هو التجديد– سيفتح عينيها لترى العالم من حولها بوضوح كبير لا سيما حين تدرك عواقب هذا الخوف وما جناه عليها، حينها سيتسنى لها المواجهة وتقبل التجربة ما دامت لا تنافي أخلاقياتها وأصولها كما توهمت، لأن عالم اليوم يختلف اختلاف كبيرا عن عالم الأمس، فما كان مقبولا في الأمس أصبح مرفوضا اليوم وسيرفض أكثر في الغد وهذا ما حاول(بوحجرة) توضيحه في قوله "لقد كانت البشرية وحتى ماضي قريب تعيش في عالم متصل يسيطر عليه الإنسان بطبيعته المتصلة ...إلا أننا الآن نعيش في عالمين متداخلين عالم عادي متصل Analog world وعالم افتراضي digital world تسيطر عليه الآلة بطبيعتها المنفصلة" إلى أن يقول "ومادام الإنسان العربي يشاهد الخط العربي كما هو سواء كتب باليد أو كتب بواسطة الآلات الحديثة أو الكمبيوتر سيبقى متقوقعا على عالمه المتصل الذي يتميز بالهواية، أي عدم الدقة وقلة السرعة والكفاءة وهذا بالمقارنة مع عالم الاحتراف الذي لا يمكن بلوغه وإدراكه إلا بتعلم لغة أجنبية تستعمل الخط المنفصل"[20] ؛مشيرا إلى أن الأجانب في تقبلهم للخط المنفصل لم يكونوا بالمنسلخين عن تراثهم، بل إن وعيهم بالتراث لم يعن رفض التجديد والتطوير مادام عائد لا محالة بالمنفعة؛ فضلا عن أن تبنيهم الخط المنفصل كان قبل ظهور الطباعة، وهو ما سمح لهم من التمكن من آلات الطبع والاستفادة منها أبعد استفادة، يقول في ذلك "إن الانتقال من خط لآخر في الكتابة ليس بمسألة سهلة، كما يدل عليه تاريخ الخطوط المختلفة، وبالخصوص كيفية ظهور الحروف الصغيرة في الخط اللاتيني المتصل بحيث استغرقت قرونا عديدة...[ف] كل الحروف فيه تمثل بشكل واحد مهما كان موقعها في الكلمة، وهذا إما ساعد في طبع اللغات الأوروبية بخط منفصل فيما بعد"[21]، أما اللغة العربية فيرى (بوحجرة) أن قدرتها على تقبل الخط المنفصل غير قابلة للتشكك فيها؛ إذ يمكنها أن توجد هذا الخط المنفصل دون أن يؤثر على أصالة خطوطها؛ فيقول ما سبق ودعمه الخطاط (مأمون سكال): "سر نجاح أبجدية معينة يكمن في انسجام وتناسق حروفها من أجل تكوين عائلة في غاية التنوع (لتسهيل تمييز الحروف) ولكن في نفس الوقت تمتاز بملامح مشتركة النابعة عن تقاليد الكتابة"[22]. وقد حاول فعلا أن يحقق هذه الأبجدية المحافظة على تقاليد الكتابة العربية من جهة، والمحققة للتنوع من جهة أخرى، فكانت أبجديته المنفصلة إذ تمثل الحروف برمز واحد مهما تغير موقع الحرف من الكلمة محققة للتنوع الذي يحجب إمكانية تداخل الحروف وعدم تمايزها فيما بينها، ليكون التراث متجسدا فيها في اختياره الخط الكوفي لتمثيلها. ولعل الأمر الأكثر جدة والأكثر تحقيقا للابتكار في مشروعه، هو اختياره للخط الكوفي، نظرا للتقاطع المدهش الذي يوجد بين تقنيات الخط الكوفي في اعتماده على مربعات صغيرة لرسم الحروف، وتطابق هذه المربعات مع الشبكة الإلكترونية بخلاياها أو نقاطها الضوئية؛ ليكون هذا التقاطع دعما للنتيجة التي عنون بها كتابه "العربية هي لغة الكمبيوتر الطبيعية" يقول في ذلك: " أبسط شبكة تستعمل لعرض حرف أبجدي على شبكة الكمبيوتر

تحتوي على 7x 5 خلية أو نقطة، والتحدي الذي طرح نفسه هو تصميم كل الرموز الطبيعية بوضوح داخل هذه الشبكة...لقد ظهرت عدة مشاكل في كتابة الخط اللاتيني بواسطة الكمبيوتر ورغم احتوائه على أبجديتين مختلفتين، فلا يمكن تصميمها بكفاءة عالية نظرا لكثرة الخطوط الدائرية، والعمودية والمائلة التي يحتوي عليها...ولا يوجد حل آخر إلا بتغير الأبجدية اللاتينية أو قبول هذا العيب" إلى أن يقول موضحا قدرة الخط العربي على التأقلم مع هذه الشبكة دون إنقاص من وضوحه "فالعربية تحتوي على خطين مختلفين عاشا جنبا إلى جنب لأداء وظيفتين مختلفتين وإذا كان الخط النسخي يتلاءم مع الكتابة باليد، فالخط الكوفي له أكثر قابلية وتجاوبا مع الآلة ولقد وصلتنا من العصور الوسطى آلات جميلة تمثل الأسطرلاب منقوشة بهذا الخط"[23] ، فالخط الكوفي حسب ما تقدم يبدو مسهلا لتبنى فكرة الخط المنفصل، ما دام لا يخرج اللغة عن تراثها الخطي، فضلا عن إمكانيته المشجعة في تقولبه مع شبكات في غاية الدقة الإلكترونية، مما يعني أن اللغة العربية تبدو أكثر حظا من اللغات الأوروبية بخطها اللاتيني، لأن تكلفة اعتمادها هذا الخط تبدو أقل مما قد يتكبده الغرب إذا ما أرادوا لخطهم مزيدا من الوضوح، لأن ذلك يعني زيادة عدد المربعات في الشبكة مما يترجم عمليا في الأموال الباهضة التي قد تدفع لقاء ذلك.

رغم المبررات التي تبدو مقنعة في تصور (بوحجرة) إلا أن سؤال ما الفائدة من تبني الخط المنفصل وأجهزة الكمبيوتر تبنت خطا متصلا وبات التعامل به من أسهل الأمور؟ سؤال ملح قد يحتاج إلى إقناع أقوى، وقد تكون الحجة في كون هذا الخط يجب أن لا ينظر إليه كمنافس للكتابة باليد، بل كمكمل له مجاله الآلة، وهو ما وضحه (بوحجرة) في قوله: "يجب النظر إلى هذا الخط الجديد كمكمل للخط المتصل وليس كمنافس له...الأول أكثر صلاحية للطباعة والآلات الحديثة، بينما الثاني أحسن للكتابة باليد"[24] ، هذا من الناحية العملية، أما من الناحية المالية، فإن تبني هذا الخط قد يعني تكاليف أقل في إنتاج البرامج الالكترونية في اللغة العربية؛ لأن عدد الرموز المطبعية فيه تتناقص إلى 32 رمزا حسب مشروع (بوحجرة)، بحيث يزول في أبجديته المقترحة رموز الهمزات المعروفة (أ، ئ، ؤ) لتعوضها همزة واحدة هي (ء)، وهو الحل الذي يراه حلا جدريا لمسألة الهمزة في الإملاء. رغم جرأة هذا الاقتراح الذي قد يثير حفيظة المتعصبين للتراث فـ "نظام الكتابة بوصفه جانب اللغة الذي تمكن رؤيته ببساطة يساعد على المحافظة اللغوية على نحو أسهل، فحالما تؤسس نظم الكتابة، فإنها تكون شديدة الثبات والمقاومة للتغيير"[25] فالنظر إليه بعيدا عن هذا التعصب، و بإجراء حسابات الكلفة والعائد، يعرضه استثمارا لغويا مهما، هذا ما يوضحه (فلوريان كولماس) منبها إلى أن بعض الأنظمة اللغوية كانت لتكون أفضل لو ابتعد أصحابها عن التعصب ؛ فـ" معظم أنظمة الكتابة القائمة يمكن أن تكون أكثر كفاءة و اقتصادا عما هي عليه، و أن تبنى تبعا لضرورة رفع الكفاية للحد الأقصى، و كونها غير نموذجية من وجهة نظر اقتصادية هو أمر عكس المأمول لأن أنظمة الكتابة يمكن تشكيلها عمدا بشكل أسهل من تشكيل الأنظمة اللغوية الفرعية الأخرى"[26]. فالكتابة إذا وعى المشتغلون باللغة هذا التصور على حقيقته تدرك قيمتها بقدر ما تحققه من اقتصاد في النفقات حين التعامل بالآلات الحديثة، وبقدر السرعة التي تحققها في إيصال المعلومة، وبالتالي بمقدار طواعيتها و ليونتها في التعامل و الاستجابة لعالم الاحتراف، العالم المنفصل، لتبقى مسألة التشدد في الإملاء لا سيما في اللغة العربية مسألة قد يمكن تجاوزها لأن اللغة العربية من أكثر اللغات

حظا في مواكبة نطقها لرسمها. كما أن الإملاء فيما يخص الهمزة غير متفق عليه بشكل نهائي، و تنوع الخطوط في اللغة العربية هو الأخر قد قدم نماذج من اختلافات في إملاء الكلمات قد يجعل التعويل على التشدد في رفض الخط المنفصل لا طائل منه.

المشقاق و قضية المصطلحات في اللغة العربية:

لقد اعتمد المشقاق الرسمي على معاجم أخرى لإثبات المشتقات المقبولة في اللعب وهي المعجم العربي الأساسي، والمنجد في اللغة والإعلام، وarabic–english dictionary [27] وهي نفسها المعتمدة في المشقاق الآلي مما يعني أن صاحبه قد استشار أهل الاختصاص من خلال معاجمهم في إثبات المشتقات، ولعل اعتماد (بوحجرة) المعجمين العربيين السابق ذكرهما، –وإن كان هنا شك في أنه قد سعى إلى ذلك سعيا معللا–، لان المنجد والمعجم الأساسي هي من المعاجم المعاصرة المخصصة للناشئة، فإنه باعتماده عليهما يكون قد أصاب قضية حساسة في الصناعة المعجمية، تتمثل في ضرورة جعل المعاجم المعاصرة دفعا لتطور اللغة العربية من خلال مواكبتها للغة المستعملة و ليس الوقوف على اللغة التراثية، و تكرار ما أثبته القدماء من وحدات معجمية في معاجمهم دون أن تكون لها علاقة بلغة العصر وما يستعمله أبناء اللغة من ألفاظ كتابة وتكلما، ليكون وجه الإبتكار في هذه الجزئية من جهد (بوحجرة) متمثلا في وضعه لبنك المعلومات المتجدد، الذي أبقى الباب فيه مفتوحا أمام إضافة المصطلحات.

ومن خلال ركن مصطلحات، يحاول تبسيط طرق الاشتقاق المعروفة في اللغة العربية عن طريق جداول قابلة خاناتها للملء إن ظهرت احتمالات جديدة، فضلا عن تمكين اللاعب من خلال اللعب من تطبيق القواعد النظرية التي تحتويها الجداول، واستغلالها لتكوين المشتقات بدءا من الجذور، ومن ثم الاحتكاك بهذه الصيغ و تشكيلها مما قد يرسخ المعلومة في ذهن اللاعب. وإن كانت هذه غاية كافية لوحدها في هذه اللعبة وفي هذه القضية من قضايا اللغة العربية فإنها تخدم غاية أخرى هي دفع اللغة العربية واستثمار هذه الخاصية فيها و تنبيه الناشئة إليها، وفي ذلك يقول "إن الاشتقاق يعتبر بمثابة الهيكل العظمي للغة العربية، وأي برنامج دراسي يهمل هذه النقطة الأساسية يجب إعادة النظر فيه، ولهذا المسؤولية تقع بالدرجة الأولى على الوزارات المعنية في مختلف الدول العربية... من أجل تبيين هذه الخاصية ورفع لغتنا إلى المكانة التي تستحقها" [28] .

بعد كل هذه الأفكار التي حاول المشقاق طرحها تصورا وتجسيدا مقدما بذلك النموذج؛ فإنه قد لا يبقى مجال للشك في أنه دفع للصناعة المعجمية العربية نحو العالم الافتراضي.

مآخذ يجب أن تسجل :

رغم الأفكار الرائدة التي جسدها مشقاق الكمبيوتر، وبدت تستحق التأكيد عليها والاعتماد عليها في صنع المعاجم الافتراضية، فإن هناك أخطاء وقع فيها صاحب المشروع قد تقود إلى تأكيد ملاحظة قد تؤجل إلى بعيد عرض الأخطاء وتسجيلها:

*في المشقاق الرسمي وقع خلط في ترتيب المشتقات رغم أن منهجية الترتيب بدت محكمة وواضحة في معظم أجزاء القاموس، منها وضعه لجذر (أبى) بعد (أبه) رغم أن الترتيب الألفبائي يجعل (الألف) قبل (الخاء) بكثير، فكان حق (أبى) التقدم على (أبه) وليس التأخر، وكأنه عد الألف المقصورة (ياء) فبدا له

تأخير (أبى)، وكذا كلمتي (أبزيم) و(إبزن) فـ(إبزن) حقها التقدم على (أبزيم) لأن (النون) تسبق (الياء)، كما أنهما معا سبقتا بـ(أبض) و(أبط) وحقهما التقدم لأن (الزاي) يسبق (الضاد) و (الطاء)كليهما[29].

*اقتصار الجذر في تصور (بوحجرة) على الثلاثي، مع أن الجذور في اللغة العربية تحتمل الثنائي و الرباعي و غيرهما، كما أن الجذر الثلاثي عنده مرهون برسمه المكون بثلاثة حروف، فكانت الجذور الثلاثية المضاعفة تعامل معاملة الثنائي، فتحسب في اللعب بنقطتين.

*في حروف الزيادة يفتقد حرف اللام الذي أثبته العرب في العبارتين (سألتمونيها / أمان و تسهيل) رغم أنه كان مثبتا في جداول الاشتقاق لا سيما في الخانتين 8 و9 من الجدول مع ملاحظة أن (ة) المربوطة عوضت الهاء في العبارتين.

هذه المآخذ على قلتها، إن كانت لا تبخس جهد (بوحجرة) شيئا إذ يكفيه أنه وبحكم تخصصه في ألإلكترونيك ودراسته في إنجليترا مما يعني ابتعادا نسبيا عن اللغة، إلا أن انتماءه العاطفي إليها جعله يوظف ما قدمه له التخصص في الإلكترونيك لخدمة ما حشدته ذاكرته من معارف عن اللغة العربية أيام التمدرس، إلا أنها في الآن نفسه تطرح قضية هامة إزاء هذا النوع من المشاريع، مفادها *"ضرورة إنجازها في إطار جهود مشتركة تشمل أهل الاختصاصات جميعا"* فلو سعى (بوحجرة) لإقحام أهل اللغة في مثل هذا العمل لأمكنه تجاوز هذه المآخذ، التي بدت كلها مسجلة كأخطاء في معارف حول اللغة، لا سيما و هو المستشهد برأي: محمد حسن كبالة من كتابه: " الثقافة العربية عبر لغتها و أدبها" لا يوجد شيء ينقص العربية كلغة، الشيء الذي ينقص الدول العربية هو وجود أناس نشطين، احترافيين في علم اللسانيات ومخططين في ميدان اللغة ليساهموا في عصرنة العربية" [30].لأن هذا النوع من الأعمال لن يحقق نتائجه المسطرة كاملة إلا إذا تمخض عن جهد جماعي، يشارك فيه أهل الاختصاص كل في مجال تخصصه ،لاسيما والعصر بات يؤكد على التخصص نظرا لتشعب العلوم وتفرعها، الأمر الذي بدا يدفع بظاهرة العالم الموسوعة نحو الانقراض و يعوضها بالعالم المثقف.

الهوامش :

1 -ينظر: هادي العلوي معجميا ،سعدي يوسف:.www.googl.com

2 –اللغة والاقتصاد، تأليف: فلوريان كولماس، ترجمة: أحمد عومض. سلسلة عالم المعرفة مطابع الوطن، بيروت، 2000، ص98.

3 -المرجع نفسه ص 98.

4 -المرجع نفسه ص 93.

5 -المرجع نفسه ص 93.

6 -المرجع نفسه ص 121.

7 -مداخلة " مشروع برنامج إلكتروني لإقحام المؤسسات التربوية في ترقية وتطوير اللغة العربية" الدكتور بوحجرة عبد المالك. الندوة الدولية " اللغة العربية وتكنولوجيا المعلومات " تنظيم: المجلس الأعلى للغة العربية. ديسمبر 2002. الجزائر العاصمة.

8 -قاموس المشقاق الرسمي (ق م ر)، عبد المالك بوحجرة، مؤسسة الكافكاف للبحث و التطوير، الجزائر، 1998 نص17 وما بعدها.

9 -العربية هي لغة الكمبيوتر الطبيعية، بعد المالك بوحجرة، منشورات جامعة جيجل، ط1، 2002 ، ص14.

10 -مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2003 ، ص54.

11 -المرجع نفسه، ص55.

12 -الاقتراح في أصول النحو،جلال الدين السيوطي،ص44،نقلا عن المرجع السابق، ص 55.

13 -قاموس المشقاق الرسمي، ص08.

14 -مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، ص53.

15 -مشروع برنامج إلكتروني لإقحام المؤسسات التربوية في ترقية وتطوير اللغة العربية.

16 -العربية هي لغة الكمبيوتر الطبيعية، ص105 وما بعدها.

17 - Modern Arabic typography: Challenges and opportunities : Stuart Tayler interviews Mamoun Sakkal. December 17, 2004. www.Sakkal.com.

18 -العربية هي لغة الكمبيوتر الطبيعية ص102.

19 -المرجع نفسه، ص101.

20 -المرجع نفسه، ص121.

21 -المرجع نفسه، ص122.

22 -المرجع نفسه، ص122.

23 -المرجع نفسه، ص ص125-127.

24 -المرجع نفسه، ص132.

25 -اللغة والاقتصاد، ص316.

26 -المرجع نفسه، ص318.

27 -قاموس المشقاق الرسمي، ص1، 2.

28 -العربية هي لغة الكمبيوتر الطبيعية، ص81.

29 -راجع المشقاق الرسمي، ص35.

30 -العربية هي لغة الكمبيوتر الطبيعية، ص13.

مصطلح: التصور أو المفهوم. بين علماء اللغة والمناطقة

الأستاذة فتيحة بن يحي .
المركز الجامعي يحي فارس بالمدية

تقديم

إن موضوع القصور الذي يراد ف المعنى عند بعض المدارس اللغوية من الموضوعات التي يشترك في درسها علم اللغة وعلم المنطق ومنها انتقل إلى ذلك العلم الناشئ علم المصطلح وخطوط دراسته تتداخل أحيانا كثيرة ، وفي النهاية قد يعزز كل منها نتائج العلم الآخر .

مفهوم التصور :

التصور أو المفهوم conceptمفهوم علم المصطلح ، والمركز الذي تدور حوله مباحثه ولهذا اسماه بعضهم conceptology وقد عرف التصور في إحدى توصيات المنظمة العالمية للتعبير بأنه أي وحدة فكرية يعبر عنها بمصطلح أو برمز حرفي أو بأي رمز آخر .

وعرف على المصطلح بأنه دراسة ميدانية لتسمية المفاهيم التي تنتمي إلى ميادين مختصة من النشاط البشري [39]

والهدف الأول من أهداف هذا العلم هو تحديد موقع كل تصور أو مفهوم في نظام من المفاهيم المنتمي إليه طبقا للعلاقات القائمة فيها .

وتوصف التطورات أو المفاهيم بثلاث طرق : بتعريفها وبيان علاقتها بتصورات أخرى ، وبأشكالها الرمزية التي تتمثل في المصطلحات أو عبارات ...الخ ، في لغة أو في عدد من اللغات .

إن مضمون المصطلح ، أي المفهوم أو التصور ، فيضل هو ذاته بغض النظر عن سياق وروده وكيفيات استعماله ولهذا فان وظيفة النسق المصطلحي هي أن يعكس نسق المفاهيم المحددة بدقة داخل حقل من حقول المعرفة .

وقد سمي المصطلح مصطلحا لارتباطه بمفهوم أو تصور واحد يكون وجه المدلولي حيث يكون دالا عليه مهما تعددت استعمالاته في الحقل اللغوي المخصوص .

لذلك قيل : " أن وضوح المصطلح المفرد يرتبط في المقام الأول بوضوح المفهوم الذي يدل عليه المصطلح ويتحدد في إطار نظام المفاهيم في داخل التخصص الواحد " [40].

التصور عند علماء اللغة :

إن وحدة المفهوم عند علماء اللغة أنها تميل ذهني لموضوع من الموضوعات قد يكون حسيا أو فكرة مجردة ويتشكل التمثيل الذهني لهذا المفهوم من سمات دلالية تحدد صورة الموضوع وطبيعته ووظيفته لذا يمكن تحديد مفهوم من المفاهيم يتم بالنظر إلى بقية المفاهيم التي يرتبط بها والتي تتمثل في مجموعها إلى ميعاد معرف محدد .

لمزيد منن التوضيح نأخذ مثال كلمة شجرة والتي تنتمي إلى معجم اللغة العربية العام ، فهي تستعمل للدلالة على نبات خشبي له ساق واحدة محددة تماما .

وقد انتقلت هذه الكلمة إلى وضع المصطلح بانتمائها إلى ميدان معرفي محدد هو اللسانيات العامة خاصة النظريات التمثيلية حيث أصبحت تدل على وسيلة تمثيلية صورية يتم بمقتضاها تحليل الجملة .

ومن مظاهر دقة المصطلح أحادية العلاقة التي ينبغي أن تقوم بينه وبين المفهوم الذي يحيل عليه وتتمثل في دلالة المصطلح الواحد على مفهوم واحد وتحسين مفهوم واحد بمصطلح واحد داخل ميدان مصرفي محدد

فالمصطلحات عند علماء اللغة ترتبط بما تقتضيه اللغة العربية من بناء صوتي وبنية صرفية إضافية إلى الدلالة اللغوية وتجمع كل هذه العوامل لتحيل على مفهوم واحد .

التصور عند المناطقة :

يعتمد علماء المصطلحية في دراستهم لموضوع التصور اعتمادا جوهريا على ما أنجزه المناطقة القدامى أمثال تبين ذلك واضحا فيما يأتي في نقاط .

3-أ كيف يكون التصور ؟

بين الفيلسوف الألماني (كانت) ثمة ثلاثة أنشطة ذهنية لازمة لتكوين التصور المقارنة، والتأمل والتجريد ، فحين يقارن المرء الأشياء يدرك بعض أوجه التشابه والتباين بينهما وبالتأمل يدرك أن عددا من الخصائص هو المسؤول عن التشابه أو التباين وعليه في نهاية الأمر أن يجرد أو يحدد الخصائص بجوهرية التي تشكل أو تؤلف لقصور قيد البحث [41].

3-ب بعد المفهوم : الشمول والتضمن :

لكل مفهوم بعدان الأول كمي والآخر كيفي ويمثل البعد الأول شمول المفهوم من حيث الأفراد الذين يصدق عليهم ويسمى هذا البعد في ابحاث المنطق التقليدي (بالمصادقة) ويمثل البعد الثاني تضمن المفهوم للصفات الجوهرية أو الصفات المرتبطة في ذهن الشخص لهذا المفهوم أي الصفات المشتركة بين الأفراد الذين ينطبق عليهم ذلك المفهوم [42]

3-ج خصائص التصور (المفهوم) :

هي العناصر التي بها تحدد صفات المفرد (الموضوع) الذي يمثله المفهوم ، وتستخدم هذه العناصر لمقابلة المفاهيم بعضها ببعض وتصنيفها وصياغة تعريفاتها وتمييز المفهوم من المفاهيم الأخرى التي تشترك معه في بعض الصفات وفي بناء المنظومات وفي هذه الحالة يطلق عليها الخصائص التصنيفية في ضوء بنية وطبيعة الحقل العلمي الذي تنتمي إليه المفاهيم المراد تصنيفها [43] وهي بعامة صنفان :

3-ج-1 الخصائص الجوهرية :

المتقومة بذاتها غير المفتقرة إلى غيرها ، والمتعينة بما فيها أي الخصائص الذاتية الدائمة الثابتة اللازمة للفرد المعرف وأهمها : خصائص الشكل والحجم والمادة اللون والطعم والحرارة .

3-ج-2- الخصائص العرضية :

وهي الصفات الخارجية عن ذلك المفهوم ولا تقوم بنفسها ، مثل خصائص الغوص أي الوظيفة والاستعمال والموضوع والمنشأ والكشف ...[44]

4- أنواع المفاهيم (التصورات)

ويفرق الباحثين بين نوعين من المفاهيم أو التصورات :

1 -المفهوم المحسوس الذي يمثل أفرادا أو أعيانا لها خصائص يمكن إدراكها بالحواس الظاهرية، مثل مفهوم سيارة وشجرة .....

2 -مفهوم اللامحسوس الذي يمثل أشياء ذات خصائص لا يمكن إدراكها بالحواس مثل مفهوم الحرية والعدل ..

وكما يمثل المفهوم عينا أو مفردة واحدة فقد تمثل وعن طريق التجريد مجموعة من الحدود أو الأشياء المفردة تشترك في صفات معينة والتجريد عملية ذهنية يسير فيها الزمن من الجزئيات والأفراد إلى الكليات والأصناف .

ولا يقتضي دور المفاهيم على تمثيل الذوات أو الأشياء المعبر عنها بالأشياء بل يقوم بتمثيل السمات أو الصفات المعبر عنها بالنعوت والأفعال المعبر عنها بالأفعال والأماكن والأوضاع والعلاقات المعبر عنها بالظروف وحروف الجر وأدوات الربط والوصل .

3 -العلاقات بين المفاهيم والتصورات :

لا ينبغي النظر إلى المفاهيم لعناصر مستقلة بذواتها بل ينبغي النظر إليها من حيث علاقتها بالمفاهيم الأخرى .

وتتحقق العلاقة بين مفهومين إذا اشتملا على خصائص مشتركة أو إذا تجاور الفردان أو الموضوعان اللذان يمثلانها في المكان أو تعاقبا في الزمان .

وتسمى العلاقة في الحالة الأولى مباشرة وفي الحالة الثانية غير مباشرة .

هذا ويمكن القول بان العلاقات المباشرة هي علاقات منطقية على حين تعد العلاقات غير مباشرة علاقات وجودية [45]

6- العلاقات المنطقية :

علاقات تبعية أو تضمنية super ordination subordination أو تدرج بموجبها عدد أدنى في الحد الأعلى ويطلق عليها في المنطق علاقة النوع والجنس بمعنى أن صفات النوع خاضعة لصفات الجنس ومدرجة فيها بعبارة أخرى إن خصائص مفهوم (الجنس) تقل بخاصية أو أكثر عن مفهوم النوع وتتمثل رمزيا على النحو الآتي :

قارب (جنس) قارب بخاري (نوع)

قارب> قارب بخاري

قارب بخاري< قارب

علاقة التقاطع overlopping

إذا كان للمفهومين خصائص متماثلة جزئيا كانا مفهومين متقاطعين وتتمثل رمزيا على النحو الآتي :

التعليم × التربية

علاقة التناسق أو التوازي coordination

علاقة أفقية ترتبط بين مفهومين لهما مرتبة واحدة في التصنيف مثل مرتبة النوعية في الجنس الواحد وتتمثل رمزيا كالآتي :

ميناء جوي // ميناء بحري

فالمفهوم الأول والثاني نوعان يندرجان في الجنس هو ميناء

علاقة الميلان diagonal

وتتحقق بين مفهومين يكونان نوعين لجنس واحد ولكن لا ترتبط بهما علاقة تبعية أو توازي ويرمز لها كلب سلوقي / قط .

7- العلاقات الوجودية :

تقوم بين المفردات أو الأعيان individuel objectes المنطوية تحت مفهوم واحدة وتبنى على أساس تجاور تلك الأعيان في المكان أو في الزمان أو الحلية (الحلة والمحلول ، أو البيت والنتيجة أو النشأة المالية أو المحلية).

وأكثر فئات العلاقات الوجودية بشريا العلاقات الجزئية pertitive أي العلاقة بين الكل والجزء .

وتقوم هذه العلاقات على صورة من صور أربع .

1 -**تبعية جزئية :** وهي علاقة رأسية بين عينين من الأعيان يزيد أحدهما عن الآخر في الأجزاء ويرمز لها بالرمز (>--)

مثال : شجرة >- ساق

إفريقيا >- مصر

2-التقاطع الجزئي :

يشترك العينان في بعض الأجزاء فقط ويمز لها بالرمز >-<

الكيمياء >-< الأحياء = الكيمياء الحيوية

3 -توازي جزئي :

وهي علاقة أفقية يقوم التناسق فيها بين عينين بثلاث جزأين من كل مشترك ويرمز لها بالرمز (// .)

الجذر //- الساق بحيث يتناسق الجذر مع الساق تحت الكل (شجرة)

4 -ميلان جزئي: إذا لم يكن بين العينين علاقة تبعية أو توازي فان العلاقة تكون علاقة ميلان جزئي ويرمز لها بالرمز

5 -الأنف المقلة والكل الذي ينتميان إليه هو الوجه وهذا وهذا وقد تعتقد هذه العلاقات بين ثلاثة مفاهيم أو أكثر مثل علاقة إفريقيا بمصر بالقاهرة ....[46].

خاتمــة :

إن دراستنا لتراثنا العلمي ما ينبغي أن يكون لمجرد التشبث بهذا الماضي ليعيش فينا أو نعيش فيه كما هو ، بل هي ضرب من البحث عن النفس والتعرف عليها واستخلاص عناصر الأصالة المتجردة والمتطورة ولن يتأتى ذلك إلا بالدراسة المتأنية والمنهج الموضوعي بعيدا عن الارتجال والأسلوب الخطابي والانفعال العاطفي والمبالغات السطحية ، فليس اجتماع أصحاب اللغة أو ما يسمى بالمجامعة اللغوية مقصورا على استخدام الألفاظ فحسب بل يشمل كل أنظمة اللغة مثل بناء الكلمات وبناء الجمل وليس هذا الاتفاق عملا صريحا واضحا في الأحوال العامة ، إن المتكلمين في مجتمع معين يستخدمون نفس الكلمات للإشارة إلى نفس الأشياء ويستخدمون أنواعا من التراكيب للتعامل بها في مواقف متشابهة ، انه العرض الضمني الذي يكون الأنظمة اللغوية ويقرها ويحافظ عليها .

وبعد فلا ازعم أن النظرية الحديثة في المصطلحية والتي جوهرها موضوع العلاقة بين المفاهيم التي تشكل منظومة موضوعية محددة لها مثيل في التراث العلمي عند العرب .

الهوامش :

1 -اللسان العربي : معجم مفردات علم المصطلح ، العدد 19، ص 209 ، 210 .

2 -الأسس اللغوية لعلم المصطلح : محمود فهمي حجازي ، ص11 ،12 .

3 -اللسان العربي : نيدر بيتي ، التصورية والأهلية ، العدد 29 ، ص 114 .

4 -اللسان العربي القاسمي: علم المصطلح بين علم المنطق وعلم اللغة ، العدد 30 ، ص 89 .

5 -نفسه ، ص 80.

6 -نفسه، ص 90 .

7 -نفسه ، ص 88 .

8 -نفسه ص 90 .

9 -نفسه ، ص 90-96.

المعجـم العربي بين المـاضي والحاضر

الأستاذ/ علي حمودين.
جامعة قاصدي مرباح . ورقلة.

إن الحاجـة إلـى استخدام المعجم اللغوي حاجـة ماسـة ودائمـة، بالنسبة إلـى دارسـي اللغـة، فضـلا عن أهميتها بالنسبة إلى كل من يتكلم اللغة، ذلك أن قدرة المتكلم على استيعاب المفردات محدودة بمجال ثقافته وبميدان تخصصه ومستوى تحصيله. إن النصوص تحتوي مفردات ربما قد لا تكون قد دخلت إلى مجال معرفة القارئ لها، فإذا به يحس بالحاجة إلى استشارة معجم يلقي أمامه ضوءا يعينه على تصور المعنى المراد من اللفظة في ذاتها وفي سياقها. وقد لا تعطي المعاجم المعنى الكامل المراد من الكلمة في سياقها، والسبب في ذلك أن أساليب استخدام الألفاظ في حركة مستمرة دائما، فهي تتأثر باستعمالات الأفراد، كما تتأثر بعوامل التأثر الثقافي الأجنبي، فيضيق معناها أو يتسع. غير أن القارئ يستطيع أن يربط بين المعنى المعجمي المنصوص عليه، والمعنى الذي يستشعره ذوقه أو يحس أنه مراد لكاتبه عن طريق لمح العلاقة المجازية بينهما، وبذلك نجد

أن معاني بعض الألفاظ قد انقرضت من الاستعمال، وأن معاني أخرى قد لحقت بها، وتهتم المعاجم الحديثة بتسجيل هذه التطورات الطارئة، وتفسير الكلمات المحدثة.

أطلقت لفظة المعجم على الكتاب الذي يراعى في بنائه وترتيبه ترتيب الحروف. وهذا الكتاب يزيل إبهام تلك المادة المرتبة على حروف المعجم أو يزيل اللبس ويوضح المبهم بما يحتوي عليه من مواد لغوية وغير لغوية المرتبة على حروف المعجم.

أما المعجم إصطلاحا فهو مرجع يشتمل على كلمات لغة ما، أو مصطلحات علم ما، مرتبة ترتيبا خاصا، مع تعريف كل كلمة أو ذكر مرادفها أو نظيرها في لغة أخرى، أو بيان اشتقاقها أو استعمالها أو معانيها المتعددة أو تاريخها أو لفظها... وقد يكون المعجم عاما أو متخصصا، وقد يكون وصفيا أو تاريخيا، وقد يكون المعجم مفردات أو مصطلحات، كما قد يكون مترادفا أو ترجمات أو تعاريف".

بدأت صناعة المعاجم منذ عهد سحيق على يد الهنود واليونانيين والمصريين القدامى والصينيين، ثم نمت في العصر الحديث على أيدي العرب، ومنهم استفاد العبرانيون وغيرهم.

والذي يرجح أن الذي مهد لنشأة الفكرة المعجمية جملة من الظروف الاجتماعية والثقافية أبرزت ضرورة وضع معجم للغة، وأهم هذه الظروف أن حياة البداوة كانت خلال القرن الثاني الهجري قد بدأت تزحف على الحواضر، ومعنى ذلك أن المعين الذي كان يستقي منه الرواة والنحاة قد أوشك على النضوب، وقد تحصل لدى هؤلاء الرواة والنحاة حشد هائل من الروايات اللغوية، كانوا يحسون دائما بالحاجة إلى تسجيلها وتدوين كل حروفها، وبحسبنا أن نقرأ ذلك الخبر المروي عن أبي عمرو ابن العلاء أستاذ الخليل بن أحمد، وقد رواه أبو عبيدة قال: "كانت دفاتر أبي عمرو ملء بيت إلى السقف، ثم تنسك فأحرقها وتفرغ للعبادة"...إلا أنه لم يستطع أن يحرق محفوظ تلاميذه منها...وهذه الظروف الاجتماعية والثقافية بمضمونها العام هي التي زينت للخليل بن أحمد الفراهيدي أن يفكر في وضع معجم يستودعه ما تحصل لديه من المادة اللغوية بعد أن لمس افتقار البادية العربية من موردي اللغة، وكثرة الأعاجم الوافدين إلى الحواضر العربية ينشدون تعلم العربية، وهم بداهة بحاجة إلى تأليف يضم لهم اللغة بشواهدها الكثيرة، وأكد الفكرة لديه ازدهار حركة التدوين في ذلك العصر العباسي الأول، ومن هنا جاءت نشأة المعجم العربي[47].

وقد انبثقت فكرة المعجم الشامل في أذهان اللغويين العرب منذ وقت مبكر لا يتجاوز منتصف القرن الثاني الهجري حينما أنشأ الخليل بن أحمد الفراهيدي معجمه الشهير "العين" بطريقة إحصائية قامت على جملة من الأسس منها: حجم الكلمة، الترتيب الصوتي، نظرية العناصر التوافيق والتباديل، بدء الثاني مما يلي الأول، ثم تتابعت المعاجم في القرون الثلاثة التالية، فرتبت إما بحسب الألفاظ، أو بحسب المعاني، ورتبت معاجم الألفاظ إما بحسب الترتيب الصوتي، أو الألفبائي، أو بحسب الأبنية (الأوزان)، ورتبت المعاجم الألفبائية إما بحسب الأوائل، أو الأواخر.

عرفت المعاجم في اللغة العربية تطورا واستمرارا وصولا إلى العصر الحديث، فأنت لا تكاد تجد تكرارا بينها ولا يكاد يغني واحد منها عن الآخر، فإذا أراد الباحث الوقوف على خصائص التجمعات الصوتية، وصور

[47] - يسري عبد الغني عبد الله، معجم المعاجم العربية، دار الجيل، بيروت. ط:1، 1991. ص33.

تشكيل الكلمات، والتجمعات الصوتية المسموحة والممنوعة فعليه أن يرجع إلى معاجم الترتيب الصوتي، وإذا أراد معجما شاملا تفصيليا كان عليه أن يرجع إلى "تهذيب اللغة" أو "اللسان" أو "تاج العروس". وإذا أراد الوقوف على خصائص الأوزان كان عليه الرجوع إلى معاجم الأبنية. وإذا ربط المعاني الجزئية بمعنى عام يجمعها كان عليه الرجوع إلى المقاييس. وإذا أراد التفرقة بين المعاني الحقيقية والمجازية كان عليه الرجوع إلى "أساس البلاغة" للزمخشري. وإذا كان يدور في ذهنه مفهوم معين ويريد أن يعرف ألفاظه ومصطلحاته كان عليه الرجوع إلى معاجم الموضوعات. وإذا كان يريد البحث عن بعض الألفاظ أو المصطلحات الفقهية كان عليه الرجوع إلى المصباح المنير، وإذا كان يريد الإستيثاق من صحة اللفظ المستحدث أو المولد كان عليه لرجوع إلى المعجم الوسيط...وهكذا.

لقد حقق المعجم العربي تفوقا في مجال المعجم أبهر الغربين، إذ شهدوا لهم بالسبق والتميز، يقول J;A Haywood في كتابه Arabic lexicography: (إن العرب في مجال المعجم يحتلون مكان المركز، سواء في الزمان أو المكان، بالنسبة للعالم القديم أو الحديث، وبالنسبة للشرق والغرب). لكن مع تطور صناعة المعاجم عالميا، وخضعت لمواصفات عامة، واستخدمت الأجهزة الحديثة لبناء قواعد للبيانات، والاستفادة منها للحصول على المادة، وتحليلها وترتيبها وغيرها، كانت النتيجة أن تقدم المعجم عالميا وتخلف عربيا، ودخلت معظم اللغات عصر المعاجم الحديثة وتجمد المعجم العربي، ولم يعد يفي بالمواصفات الضرورية، أو يلبي احتياجات المستهلكين المتنوعة والمتفاوتة.[48]

وظائف المعجم:

يحصر المعجميون أهم وظائف المعجم فيما يأتي:

1 - ذكر المعنى.

2 - بيان النطق (ويدخل فيه التقسيم المقطعي وموضع النبر).

3 - تحديد الرسم الإملائي.

4 - المعلومات الصرفية والنحوية.

5 - المعلومات الموسوعية.

وحتى نلبي حاجة مستعمل المعجم بدقة عالية علينا تنويع طرق شرح المعنى، ويقودنا هذا إلى مجموعة من الطرق، ومنها:

1 - الشرح بالتعريف.

2 - الشرح بتحديد المكونات الدلالية.

3 - الشرح بذكر السياقات.

4 - الشرح بذكر المرادف أو المضاد.

[48] - صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط1: 1998.

5 -استخدام الأمثلة التوضيحية.

6 -اللجوء إلى الشرح التمثيلي.

7 -استخدام الصور والرسوم.

أنواع المعاجـم:

معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني:

للكلمة جانب اللفظ وجانب المعنى. ويتحدد نوع المعجم حسب نقطة الانطلاق من المعلوم للوصول إلى المجهول. وإذا كان الباحث يعرف اللفظ ويريد الحصول على شيء مجهول له يتعلق بالمعنى أو النطق أو التأصيل الاشتقاقي أو درجة اللفظ في الاستعمال...فإن مدخله إلى المعجم يكون من خلال اللفظ فيرجع إلى واحد من معاجم الألفاظ، وإذا كان الباحث يعرف المعنى العام أو الموضوع، ويريد أن يحصل على الألفاظ أو العبارات أو المصطلحات التي تقع تحته يرجع إلى واحد من معاجم المعاني.

طرق الترتيب المعجمي:

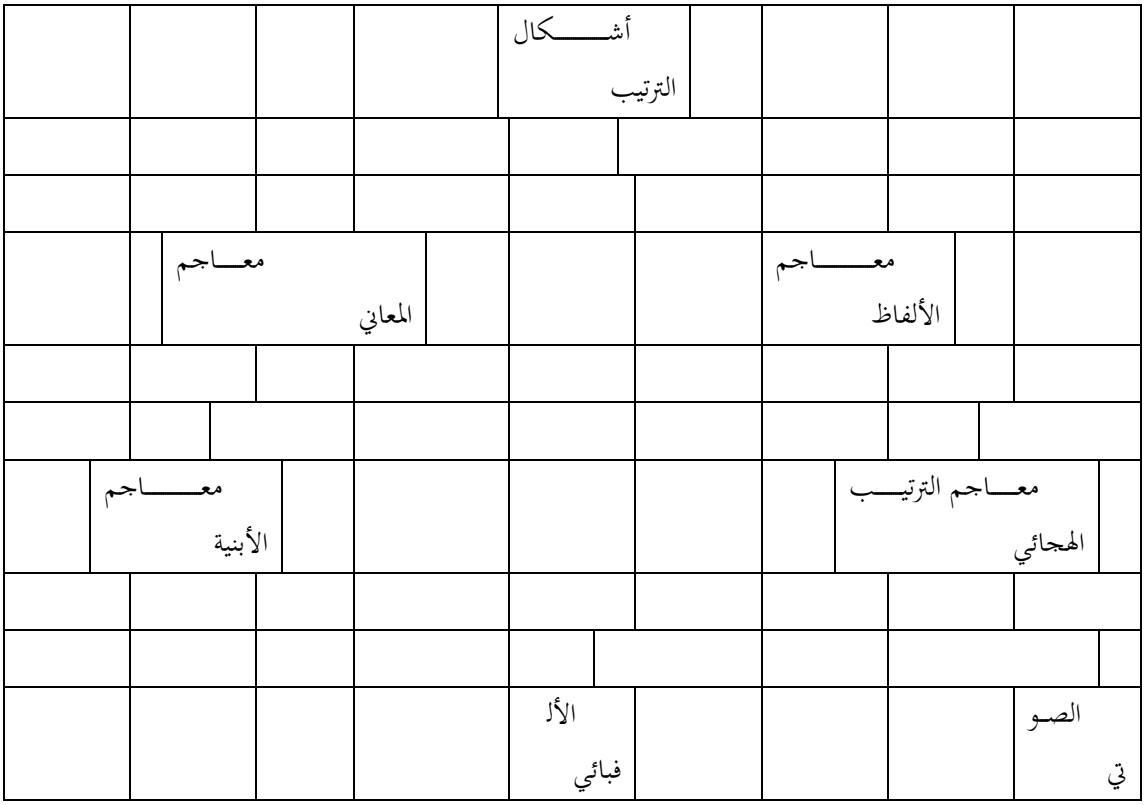

	بحسب أوائل الكلمات				بحسب أواخر الكلمات			
بعد التجريد		بدون تجريد		بعد التجريد			بدون تجريد	

وهذه نماذج من المعاجم بمختلف أنواعها:

1 - معاجم المعاني:

- الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام
- متخير الألفاظ لأبن الفارس
- المخصص لابن سيده

2 - معاجم الترتيب الصوتي:

- العين للخليل بن أحمد
- تهذيب اللغة للأزهري
- المحكم لابن سيده

3 - معاجم الأبنية:

- ديوان الأدب للفارابي.
- شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميري.
- مقدمة الأدب للزمخشري.

4 - معاجم الترتيب الألفبائي حسب أوائل الكلمات:

- أساس البلاغة للزمخشري.
- المصباح المنير للفيومي
- المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)

5 - معاجم الترتيب الألفبائي حسب أواخر الكلمات:

- الصحاح للجوهري.
- لسان العرب لابن منظور.
- القاموس المحيط للفيروزابادي
- تاج العروس للزبيدي.

المعجم الأحادي والثنائي والمتعدد:

المعجم الأحادي ما كانت تتفق فيه لغة الشرح مع لغة المدخل، وعادة ما يوجه هذا النوع للمتكلمين الوطنيين.

أما المعجم الثنائي أو المتعدد فهو الذي تختلف فيه لغة الشرح عن لغة المدخل، ويهتم بتقديم المعلومات عن اللغة المشروحة أكثر مما يهتم باللغة الشارحة. فإذا كان الشرح بلغة واحدة مختلفة فهو معجم ثنائي اللغة، وإذا كان أكثر فهو معجم متعدد اللغة. وتكثر هذه المعاجم في نوعين من المعاجم:

- معاجم المصطلحات وله أهمية كبرى داخل حقله التخصصي، وعادة ما تكون له قيمة موسوعية، ويساعد على إظهار الاستعمال الدقيق للمصطلح في اللغات المختلفة. ومن مشكلاته عدم الاتفاق على المقابل الواحد للمفهوم المعين، تبعا للمدرسة التي تستخدمه.
- معاجم الجيب الموجهة عادة للسواح وتضم كلمات وظيفية يكون بحاجة إليها في تنقلاته.

وفيما يلي مجموعة من أهم المعاجم الحديثة:

1 . محيط المحيط لبطرس البستاني الذي صدر في مجلدين فيما بين 1866 و1870م. وقد اختصر البستاني معجمه محيط المحيط طبع سنة 1869 في معجم سماه: "قطر المحيط"، وهو معجم طلابي سهل تعليمي.

2 .أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، لسعيد الشرتوني، صدر في مجلدين سنة 1890م.

3 .معجم الطالب لجرجس همام الشويري: وصدر سنة 1970م، ويرتكز على معجم لسان العرب وتاج العروس والصحاح ومحيط المحيط، كما تضمن ما استحدث من مصطلحات علمية يحتاجها طالب العلم.

4 المنجد: للأب لويس معلوف، وصدر سنة 1908م، واستفاد من محيط المحيط وأقرب الموارد. ويعتبر أحدث معجم عربي يتبع أسلوب العصر في صنعة المعاجم. مثل استعماله لرموز مثل : مث، للمثنى، وفك : لعلم الفلك. وفي طبعته العاشرة سنة 1956 وضعت له خاتمة من فصل مخصص لفرائد الأدب العربي، وفصل آخر مخصص لأعلام الشرق والغرب، مستمد من المعاجم والموسوعات العالمية. وقد لعب هذا المعجم دوراً كبيراً في تاريخ تعليم العربية، والثقافة العربية. وعاب عليه بعض علماء اللغة بعض الأخطاء التي وقع فيها. وأصدر الأستاذ فؤاد أفرام البستاني مختصراً للمنجد سماه "منجد الطلاب."

5 .المعجم الوسيط: في سنة 1936 كلفت وزارة المعارف المصرية مجمع اللغة العربية بالقاهرة بالعمل لإصدار معجم حديث بأسلوب المعاجم الحديثة. وصدر سنة 1962 المعجم في جزأين.

6 . المعجم الكبير: قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة البدء في إعداده سنة 1945م ولم يصدر الجزء الأول منه إلا سنة 1970 أي بعد ربع قرن بحرف الهمزة من 674 صفحة من القطع الكبير. وصدر الجزء الثاني سنة 1982 بحرف الباء في 743 صفحة.

وصدر الجزء الثالث سنة 1982. ونشير هنا أنه لم يكتمل صدور هذا المعجم بعد.

7 .المعجم الوجيز: وهو معجم طلابي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة احتوى على خمسة آلاف مادة، وستمائة صورة، في 687 صفحة.

8 .المعجم الأساسي: أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وهو ثمرة جهد قامت به مجموعة من علماء اللغة بين 1981 و1988، ويضم ثلاثين ألف مدخل، وهو عمل جيد، لكنه متواضع، فقد أعد أساساً ليكون معجماً موجهاً لقراء العربية من غير العرب.

المعجم العربي والتحديات المستقبلية:

قبل الحديث عن مستقبل المعجم العربي، لا بأس من الوقوف عند واقع هذا المعجم في السنوات الأخيرة، ونشير ولو بصفة مختصرة إلى بعض التطور الذي عرفه في ظل التطور الذي يشهده المعجم الغربي.

يعتبر الدكتور أحمد مختار عمر أن أهم ما يمكن رصده من مظاهر التحول الكبير في صناعة المعجم العربي ما يأتي:

1 -تزايد الجهود الفردية أو المؤسسية في صناعة المعاجم وظهور العديد من المعاجم العربية الجيدة في السنوات الأخيرة، مما يبشر بيتزايد هذه الجهود وتناميها.

2 -تزايد الاهتمام بإقامة الندوات والمؤتمرات حول المعجم العربي وصناعته، ومن بينها ندوات قمت بها جمعية المعجمية العربية بتونس، وكذا قيام المجلس الأعلى للثقافة بمصر بعقد ندوة عن اللغة العربية المعاصرة ضمت أبحاثا تناولت استخدام التكنولوجيا الحديثة في مجال المعاجم.

3 -تأسيس عدد من الجمعيات اللغوية أو المعجمية، منها: جمعية المعجمية العربية بتونس، الجمعية المصرية لتعريب العلوم، جمعية لسان العرب بالقاهرة...وغيرها.

4 - إصدار بعض الدوريات المتخصصة، ومنها: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومجلة المعجمية التونسية.

5 -اهتمام المؤسسات التجارية الخاصة بصناعة المعجم، ومنها: مكتبة لبنان التي نشرت عددا كبيرا من المعاجم، العالمية للبرامج "صخر" اتي قامت بإنشاء قاعدة بيانات لغوية ضخمة يستفاد منها في صناعة المعجم.

6 -التوسع في القيام بالإحصاءات الحاسوبية أو المعالجات الآلية للغة، وهذا بعقد ندوات ومؤتمرات عدة في هذا الميدان.

مستقبل المعجم العربي:

إن أي حديث عن أي تطور مرجو للمعجم العربي، لابد وأن يكون مقرونا بالحديث عن التطور الهائل الذي شهده المعجم الغربي، ذلك أنه يمثل الأفق الذي نسعى إليه نحن العرب في سبيل خدمة لغتنا، وتطويرها ومن ثم التعريف بها.

الاستفادة من التجارب الرائدة:

إن الإنجازات المعجمية الأوربية ليمكن أن تتخذ نموذجا يحاكى من أجل تطوير المعجم عندنا، فالتعاون الذي تقوم به مختلف الجامعات الكبرى في أوربا من أجل تطوير المعجم من شأنه أن يعطي للمعجم دفعة نوعية نحو التطور، فلابد من توحيد الجهود والاستفادة من الخبرات السابقة إذ أن ذلك يحد من تكرار ما

سبق..ويمكن أن نتخذ من بعض المعاجم كمعاجم دار لونجمان التي دأبت –بالتعاون مع جامعات عريقة– على تطوير النسخ السابقة وتوسيع حجم قاعدة البيانات، وكذا الاستفادة من تعدد التخصصات العلمية واللغوية، وأهم من ذلك كله تميز تلك المعاجم من استخدام تقنيات حاسوبية متطورة، بالإضافة إلى تلقي تلك المشاريع للدعم المالي الكافي.

إعداد الكفـاءات القياديـة:

لعل أهم ما يشغل بال المهتمين بصناعة المعجم هو الطاقة البشرية والتي تحتاج بالأساس إلى التكوين المتميز للكفاءات التي تأخذ على عاتقها هذه الصناعة، وإذا كنا سلمنا بكفاءة الأوربيين وتقدمهم فلا مفر من التسليم بضرورة إشرافهم على إعداد كوادرنا، لأن العالم العربي يبقى فاقدا لخبرات يمكن الاعتماد عليها، ولا يختلف إثنان في أن المسألة مسألة التكوين بحاجة ماسة إلى الخبرة اللازمة حتى تؤتي أكلها.

وفي صدد الحديث عن الخبرات البشرية وتطويرها، يعطي الدكتور أحمد مختار مجموعة من النقاط يمكن للمؤسسات الأكاديمية استثمارها وهي:

1 -إدخال برامج جديدة في أقسام اللغات تتعلق بنظرية المعجم، وتطبيقاتها العملية..

2 -تشجيع طلاب الدراسات العليا في أقسام اللغات على توجيه رسائلهم للماجستير والدكتوراه لدراسة المشكلات المعجمية...

3 -خلق قنوات اتصال بين مراكز البحث والتأليف المعجمي في العالم العربي، ومثيلاتها في الدول المتقدمة لاكتساب الخبرة، والتزود بالتقنيات الحديثة للعمل المعجمي، ومن الممكن أن يخصص عدد من البعثات الدراسية لهذا الغرض[49].

استخدام الأجهزة الحديثـة:

كثر الحديث عن استخدام مختلف الوسائل الحديثة من أجل تطوير استخدام الكمبيوتر، ولعلنا بذلك بلغنا ذلك الزمن الذي تنبأ به zgusta بعدم إمكانية استيعاب المعجم الورقي لما هو مخزن، واختصار المادة المخزنة، وأصبح من المؤكد اليوم، أن المعلوميات تعتبر علما دقيقا أكثر من أي علم آخر، وعليها يتوقف التقدم و التطور السوسيو ثقافي. لهذا أضحى تطوير العلوم و التقنيات واللغات من الأولويات الأساسية التي تعتمد على المعلوميات وتطبيقاتها.

وعلى هذا الأساس، ليس من المفيد اليوم الاكتفاء بالمعاجم القديمة الورقية الموضوعة على طريقة المناهج التقليدية والمسماة في الأدبيات المعجمية بالصناعة المعجمية أو المعجمية، لأن تقنيات التخزين ومعالجة المعلومات التي توفرها الآلة تمكن من بناء معاجم آلية وفق ضوابط لسانية وحاسوبية صارمة.

[49]- المرجع السابق، ص177.

في مقال منشور على الانترنيت بعنوان "الحاسوب في خدمة الترجمة والتعريب" وفي معرض حديثه عن المعينات الحاسوبية في الترجمة يتطرق الدكتور محمود اسماعيل صالح[50] إلى الحديث عن دور بنوك المصطلحات الآلية وطرق الاستفادة منها، فبنك المصطلحات يساعد المترجم في تقديم المصطلح حسب الطلب. مثلا إذا أردت أن تعرف معنى كلمة neutron ومقابلاتها بالعربية أو الفرنسية أو بأية لغة أخرى يتعامل معها البنك المعني، تكتب الكلمة أو تدخلها في الحاسوب بالأصح، فتظهر لك على الشاشة معنى الكلمة المقابلة في اللغة التي تريدها من ذاكرة الحاسوب. فيغنيك بذلك عن البحث في عشرات المعاجم ومصادر المصطلحات الأخرى، مما يوفر كثيرا من الجهد والوقت والمال كذلك. وهذا أبسط استخدام لاستخدامات بنوك المصطلحات.

وبعض بنوك المصطلحات أكثر تطورا من ذلك، حيث يمكننا أن نقدم النص المراد ترجمته للحاسوب فينظر فيه، ويعطيك مقابل أية كلمة موجودة في ذاكرته، ومن ثم يظهر لك النص مطبوعا بعد إضافة ترجمات المصطلحات (مثلا الكلمات الإنجليزية ومقابلاتها العربية أو الكلمات الفرنسية ومقابلاتها العربية) إلى أن ينتهي من النص كله.

وهناك أسلوب آخر لعمل بنك المصطلحات، وهو أن ندخل النص الأصلي في الحاسوب، يقارن الحاسوب النص بما في ذاكرته ثم يعطيك جميع المصطلحات التي وردت في النص مع مقابلاتها مرتبة حسب ورودها في النص، أي أن الكلمة التي وردت في السطر الأول تسبق التي وردت في السطر الثاني أو الثالث وهكذا..

ثم هناك أسلوب ثالث وهو أن ينظر الحاسوب في النص ويقارن بما في ذاكرته من مصطلحات ويعطيك الكلمات مع مقابلاتها في قائمة مرتبة ألفبائيا، وهكذا يوفر للمترجم معجما خاصا به، ويوفر عليه بذلك عملية البحث عن الكلمات في القواميس المختلفة.

أما الأسلوب الرابع للاستفادة من بنك المصطلحات فهو أن نطلب من الحاسوب أن يعطينا مثلا جميع المصطلحات المتوفرة في حقل معين من حقول التخصص مع مقابلاتها. فيتوفر لدينا معجم متخصص نرجع إليه وقت الحاجة. هذا وقد يكون المعجم في صورة أوراق مطبوعة أو مصغرات فلمية microfiche.

وهذه بعض بنوك المصطلحات الآلية الشهيرة في العالم العربي:

1- مُعربي التابع لمركز دراسات الترجمة والتعريب في الرباط وهو أقدم بنوك المصطلحات في العالم العربي.

2- باسم التابع لمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية في الرياض، ويرجع تاريخ إنشائه إلي حوالي عام 1983م.

3- قِمَم في تونس، وهو تابع لمعهد (إنوربي)، وقد بدأ تأسيسه في حوالي عام 1986م.

4- بنك المصطلحات الآلي التابع لمجمع اللغة العربية الأردني، وهو أحدث هذه البنوك.

من هنا يتبين لدينا أهمية إنشاء المعاجم الحاسوبية فهي تفيدنا بالأساس في عملية الترجمة وهو الدور ذاته

---

[50] – أستاذ اللغويات التطبيقية ومدير مركز الترجمة بجامعة الملك سعود (سابقا).

الذي يرمي إليه مستعمل المعجم الورقي العادي، وهذا يقودنا إلى معرفة أنواع تلك المعاجم كما فعلنا مع المعاجم التقليدية.

لاشك أن هناك أنواعا عديدة من المعاجم الحاسوبية والمحوسبة. وسنعرض بإيجاز لأهم فئات هذا النوع من المعاجم.

1- المعاجم أحادية اللغة:

لابد لنا من الإشارة هنا إلى أن المعاجم أحادية اللغة قد تكون أداة لفهم النصوص أو للتعبير بلغة ما. ويكفينا هنا التمييز بين معاجم الألفاظ والتعبيرات الاصطلاحية والأمثال من جهة، وكلها أدوات معينة في فهم النصوص المسموعة والمقروءة. ثم هناك معاجم المعاني والمترادفات، من جهة أخرى، وهي أدوات معينة في التعبير والترجمة، حيث تساعد الباحث في التعرف على الألفاظ الدقيقة المناسبة للتعبير عن فكرة ما.

وهناك عدد من معاجم الألفاظ العربية والأجنبية المحوسبة التي يستطيع المترجم الاستفادة منها. بل إن بعض برامج تنسيق النصوص تتوافر بها معاجم مترادفات.

2- المعاجم ثنائية اللغة:

يميل البعض إلى تسمية هذا النوع من المعاجم بالمعجم الإلكتروني وهو معجم محوسب، أي قاموس ثنائي اللغة يقدم للمترجم المقابلات اللفظية بين اللغات المخزونة في ذاكرة الحاسوب. وتتوافر في الأسواق أعداد من هذه المعاجم في صورة أقراص للاستعمال على الحواسيب الشخصية أو في صورة حواسيب بحجم الكف تقريباً. وهي في تطور مستمر من حيث النوع وحجم مخزوناتها. فبعضها لا يكتفي بتقديم الألفاظ ومقابلاتها بل تقدم كذلك بعض التعبيرات والجمل الشائعة ومقابلاتها في اللغة الأجنبية. كذلك نجد أن بعض حواسيب الجيب تتيح إمكانية إضافة ذاكرات إضافية (في صورة شرائح أو chips) لألفاظ أو مصطلحات متخصصة في حقول المعرفة المختلفة. وجدير بالذكر أن بعض برامج تنسيق النصوص متعددة اللغات أو ثنائيتها توفر معجما آليا ثنائي اللغة لمستخدميها، إافة إلى التدقيق الإملائي.

المراجع المعتمدة:

1. البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، دار الثقافة، بيروت 1972.
2. صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، عالم الكتب،القاهرة، 1998.
3. المعجم العربي بين الماضي والحاضر،عدنان الخطيب،معهد البحوث والدراسات العربية 1967.
4. اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، القاهرة 1979
5. المعجم العربي الحديث والخروج من الدائرة المغلقة، أحمد مختار عمر، مجلة كلية دار العلوم ، ع21، يونيو1997.
6. محاضرات في المعجم العربي، محمد سالم الجرح،1966.
7. من قضايا المعجمية العربية المعاصرة، كتاب: في المعجمية العربية المعاصرة، أحمد شفيق الخطيب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

8.هل من معجم عربي وظيفي،كتاب:في المعجمية العربية المعاصرة،أحمد العايد،دار الغرب الإسلامي، 1987.

جهود العلمـاء في جمع و ترتيب المادة اللغوية

الأستاذ :خـالد هدنـة
جامعة فرحات عباس – سطيف.

بسم الله الرحمان الرحيم ،الحمد لله رب العالمين حمدا يوافي نعمه و يكافئ مزيده، و الصلاة و السلام على محمد بن عبد الله أرسله الله رحمة للعالمين و على آله و صحبه و من تبعهم بإحسانه إلى يوم الدين،وبعد:

لم يدخر علماء العربية جهدهم في خدمة اللغة، فجمعوا ألفاظها ورتّبوها وفق طرائق متنوعة ومتكاملة تفننوا في وضعها

فنظروا إلى الألفاظ فوجدوا أنها تتألّف من تسعة وعشرين حرفا لا يخرج عنها أية كلمة ، فاعتمدوا هذا المعيارفي حصر اللغة بترتيب هذه الحروف في نظام ثابت ، اختلف باختلاف وجهات النظر والغاية من التأليف المعجمي وبذل كل فريق جهدا كبيرا في تيسير عملية البحث عن مواضع الكلمات ودلالاتها في هذه المؤلفات التي اصطلح على تسميتها بالمعجم.

والمراد بالإعجام تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لدفع اللبس، فالهمزة في "الإعجام" للسلب ، أي لإزالة العجمة كما في قولك :

أقسطت بمعنى عدلت أي أزلت الظلم.و قسط تعني ظلم كما في قوله تعالى(وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ (الجن)وبهذا يكون معنى أعجم : أزال العجمة أو الغموض أو الإبهام، و أطلق على نقط الحروف لفظ الإعجام لأنه يزيل ما يكتنفها من غموض، و المعجم بمعنى الكتاب الذي يجمع كلمات لغة ما ويشرحها ويرتبها بشكل معين.

ولقد استعمل هذا المصطلح علماء الحديث النبوي،فقد وضع أبو يعلى307هـ معجم الصحابة، ووضع البغوي 317هـ المعجم الكبير والمعجم الصغير في أسماء الصحابة ووضع أبو بكر النقاش الموصلي 351هـ المعجم الكبير والأوسط والصغير في قراءات القرآن.

ولم نجد هذا المصطلح متداولا لدى اللغويين الأوئل إلا عند ابن فارس 395هـ في كتابه "معجم مقاييس اللغة". وتقوم المعاجم على شرطين أساسيين هما :الشمول والترتيب، وإذا كان الشمول أمرا نسبيا تتفاوت المعاجم في تحقيقه، فإن الترتيب ركن أساس لا بد منه وإلا صار العمل ركاما من الألفاظ مبعثرا.

وفكرة الترتيب هذه ليست غريبة على الذهن العربي فقد أدرك اللغويّون العرب هذا الأمر فابتدعوا أنماطا للترتيب، وتفننوا في وضع المعاجم وفي طرق تبويبها، وتعددت مناهجهم حتى كادت تستنفد كل الاحتمالات الممكنة، وكانوا منطقيين حينما لاحظوا جانبي الكلمة وهما اللفظ والمعنى، فرتبوا معاجمهم إجمالا إما على اللفظ وإما على المعنى، وبهذا وجد قسمان رئيسيان هما :

1- معاجم المعاني.
2- معاجم الألفاظ.

وقد حاول دارسو المعاجم العربية حصر هذه الطرق ، واختلفوا في ذلك اختلافا بينا.

فالدكتور رمضان عبد التواب يجعلها ثلاثة (1) :

1-المخارج الصوتية
2-الترتيب الأبجدي.
3-الترتيب حسب الموضوعات.

وجعلها الدكتور عبد اللطيف الصوفي أربعة (2) :

1-مدرسة الخليل (صوتي)
2- مدرسة البرمكي (ألفبائي حسب الأوائل)
3- مدرسة الجوهري (ألفبائي بحسب الأواخر)
4- مدرسة أبي عبيد (بحسب الموضوعات)

وهي عند الدكتور أحمد مختار سبعة (3) :

1- ترتيب صوتي
2- ترتيب ألفبائي
3- ترتيب بحسب الأبنية.

وعدَّها الدكتور علي القاسمي ثمانية (4) :

1- الترتيب العشوائي
2- الترتيب المبوَّب
3- الترتيب الموضوعي.
4- الترتيب الدلالي
5- الترتيب النحوي
6- الترتيب الجذري
7- الترتيب التقليبي
8- الترتيب الهجائي (وفرع الترتيب الهجائي إلى صوتي-ألفبائي- أبجدي).

وبعض هذه التقسيمات لا تثبت عند التطبيق ويظهر خللها واضطرابها وقد أردك الدكتور علي القاسمي هذا الأمر حيث قال : " إن تصنيفنا لمنهجيات ترتيب مداخل المعجم بهذا الشكل وتقسيمها إلى سبع منهجيات مختلفة هو تقسيم نظري ،الغاية منه تبسيط البحث وينبغي ألا نخرج بانطباع مفاده أن هذه المنهجيات متساوية من حيث قدرتها على الاكتفاء بذاتها "(5).

ونحاول عرض البحث وفقا للتقسيمات التي سنذكرها لأنها أيسر استعمالا و بساطة من غيرها.

أ- **الترتيب الأبجدي** : وهو أقدم ترتيب عرفه العرب، وهو ترتيب فينيقي الأصل إلا أن العرب لم يستعملوه في معاجمهم.

ب- **الترتيب الصوتي : الذي يراعي التشابه الصوتي للأحرف وتدرج مخارجها من أقصى الحلق إلى الشفتين.**

ج- **الترتيب الألفبائي:** الذي يراعي التشابه الصوري للأحرف، وقد توسّع العرب في ترتيب معاجمهم على **الألفباء** باعتبار الحرف الأول أو الأخير ثم باعتبار حروف الزيادة أو تجريدها أو باعتبار الأبنية **والتقاليب.**

1- الترتيب الأبجدي

من التراتيب الممكنة في صناعة المعجم وفهرسة المادة اللغوية الترتيب الأبجدي وهو ترتيب قديم يعزى إلى نظام الكتابة الفينيقية، وعدد حروفه اثنان وعشرون حرفا (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت)

وقد أضافت العربية لهذه الحروف (ثخذ ضظغ) فصارت ثمانية وعشرين حرفا (6).

وعلى الرغم من أن هذا الترتيب معروف عند العرب إلا أنهم لم يستعملوه في ترتيب معاجمهم قديما أو حديثا. ويعلل القاسمي هذا الأمر بقوله " وذلك لأن هذا الترتيب لا يستند إلى تعاقب الحروف ورصّها وفقا للتشابه الشكلي في حروفها أو التقارب الصوتي لهذه الحروف (7).

ولكنهم استعملوا الأبجدية في الحساب بدل الأرقام لما وجدوا فيها من سهولة في الحفظ والاختصار، فأعطوا لكل حرف مقابلا عدديا.

وما تزال بعض المدارس القرآنية في جهات كثيرة من البلاد العربية والإسلامية تستخدم الأبجدية في تعليم القراءة والكتابة للمبتدئين.

أما حديثا فتستعمل الأبجدية في ترقيم صفحات مقدمات البحوث، ومباحث الفصول وعناصرها ومختلف الفهارس، وهي تقوم مقام الأرقام

2- **الترتيب الصوتي**

لقد توخّى أصحاب هذا الاتجاه ترتيب معاجمهم على أساس صوتي آخذين بعين الاعتبار تقارب الأصوات من حيث تدرج مخارجها من أقصى الحلق إلى الشفتين، ويعتبر الخليل بن أحمد الفراهيدي 175هـ رائد هذه المدرسة، فقد استطاع بحكم خبرته الواسعة باللغة وبحكم ممارساته الصوتية في جو الأنغام والموسيقى وإيقاعات الشعر وتفعيلات العروض وقراءات القرآن أن يبتكر هذا النظام حيث لم يرتض ترتيب الحروف ترتيبها الأبجدي القديم الذي اقتبسه العرب عن الفينيقيين، ولم يقنعه ترتيبها الألفبائي الذي وضعه نصر بن عاصم الليثي 90 هـ وفق الأشباه والنظائر "فأعمل فكره فيه فلم يمكنه أن يبتدئ التأليف من أول أ-ب-ت وهو الألف، لأن الألف حرف معتل، فلما فاته الحرف الأول كره أن يبتدئ بالثاني وهو الباء إلا بعد حجة واستقصاء النظر فدبر ونظر إلى الحروف كلها وذاقها فصير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق (8)

فعمد إلى ترتيبها على أساس مخارجها، فكان ترتيبه للحروف على الشكل الآتي :

ع ح هـ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط ت د ظ ذ ث ر د ن ف ب م و ي ا همزة.

1 - حروف حلقية	ع ح هـ خ غ	لأن مبدأها من الحلق.
2- حروف لهوية	ق ك	لأن مبدأها من اللهاة.
3- حروف شجرية	ج ش ض	لأن مبدأها من شجر الفم.
4- حروف أسلية	ص س ز	لأن مبدأها من أسلة اللسان (مستدقة).
5- حروف نطعية	ط ث د	لأن مبداها من نطح الغار الأعلى.
6- حروف لثوية	ط ث ذ	لأن مبدأها من اللثة.
7- حروف ذلقية	ر د ن	لأن مبدأها من ذلق اللسان.
8- حروف شفوية	ف ب م	لأن مبدأها من الشفة.
9- حروف هوائية	و ى ا (الهمزة)	لأنها لا تتعلق بشيء (9)

وقد اطمأن الخليل إلى هذا النظام واتخذه أساسا لترتيب مواد معجمه الذي سماه العين ويمكن تلخيص خطواته على الشكل الآتي:

-ترتيب الحروف صوتيا.

- تقسيم الأبنية.

- تقليب اللفظ على أوجهه الممكنة.

وعندما تم للخليل ترتيب الحروف على هذا النحو الدقيق مع تسمية كل حرف كتابا انتقل إلى اللغة فوجد أن كلام العرب مبني على أربعة أصناف : على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ونظر في هذه الأبنية فوجد فيها الصحيح والمعتل وفرّق بينهما في كل بناء فقسم الأبنية على هذا الأساس إلى الثنائي الصحيح والثلاثي الصحيح والثلاثي المعتل والثلاثي اللفيف والرباعي الصحيح والخماسي الصحيح والرباعي والخماسي المعتلين ...وتناول الخليل هذه الأبنية على هذا الترتيب عند تناوله لكل حرف من الحروف الصحاح ابتداء بالعين وانتهاء بالميم .

وقد اهتدى في خطوته الأخيرة إلى نظام التقاليب وهو نظام دقيق ومثال في البناء المنطقي التام يهدف إلى حصر جميع الألفاظ التي يمكن للغة العربية أن تولدها (10) عن طريق تقليب كل بناء على جميع أوجهه الممكنة، فالبناء الثلاثي ينتج عنه ستة أبنية، والرباعي أربعة وعشرون بناء والخماسي مائة وعشرون بناء.

وحين انتهى الخليل من رسم منهج الكتاب أخذ يطبقه خطوة خطوة فبدأ بأول الحروف في الترتيب وهو العين، وبدأ فيه بأول الأبنية وهو الثنائي وراح يؤلف العين مع الحروف واحدا واحدا مبتدئا بأقرب الحروف إليه في الترتيب وهو الحاء، ثم العين وما يلي الحاء في الترتيب وهو الهاء، ثم العين وما يلي الهاء وهو الخاء ...وهكذا (11).

أما طريقة البحث في كتاب العين فتقتضي أولا تجريد الكلمة من الزوائد ثم النظر في حروفها، فإن كان من بينها حرف العين (ع) أيا كان موضعه فإن مكان الكلمة "كتاب العين" وإن لم يكن بها حرف (ع) ووجد بها حرف (ح) فمكان الكلمة "كتاب الحاء" :

فكلمات : نفع –عمي – منع– نعق.

يعاد ترتيبها داخليا : فتصير : عنف –عمي – عنم – عسف – عقن.

وقد ظل كتاب العين بترتيبه الصوتي ومراعاته الأبنية والتقاليب –مهيمنا على مناهج التأليف المعجمي لعدة قرون، ومن أشهر المعجمات التي تأثرت به :

–البارع في اللغة : لأبي علي القالي 356 هـ.

–تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري 370 هـ.

–المحيط في اللغة : للصاحب بن عباد 385 هـ.

–المبرّز في اللغة : لأبي عبيد الله محمد بن يونس الحجاري 462 هـ.

–المحكم والمحيط الأعظم في اللغة: لابن سيده الأندلسي 458 هـ. (27).

–اللامع للفيروزابادي 817 هـ

لقد ألفت هذه المعجمات وما دار في فلكها مدرسة واحدة في تاريخ المعجمات العربية والرابطة المشتركة التي تجمعها : ترتيبها على الحروف بحسب مخارجها وجعل هذا الترتيب أساس تقسيمها إلى كتب تم تقسيم هذه الكتب إلى أبواب تبعا للأبنية ثم ملء هذه الأبواب بالتقاليب، والتزمت جميعها ترتيب كتاب العين للمخارج إلا البارع الذي سار على ترتيب مخالف أخذ أغلبه من ترتيب سيبويه مع خلطه بأشياء من ترتيب كتاب العين(12).

ملاحظات حول العين ومدرسة الخليل

رغم أن الترتيب الصوتي قائم على أساس علمي ناسب تكوين الخليل اللغوي والرياضي والموسيقي إلا أنه لم يخل من اضطراب وتداخل

–فالترتيب الصوتي ليس مجمعا عليه وهو يختلف من عالم إلى آخر، فقد خالف سيبويه الخليل في الترتيب إجمالا حتى قال ابن خروف : إن سيبويه لم يقصد ترتيبا في الحروف التي من مخرج واحد (30) وخالف الأخفش من البصريين سيبويه في مخرجي الألف والهاء وجعلهما معا، فليست إحداهما بمتقدمة على الأخرى ولا متأخرة. و رتّب الصاحب بن عبّاد حروف العلة ترتيبا مخالفا للخليل (أ ي و) ومزج القالي بين ترتيبي الخليل وسيبويه ...

وقد كانت حروف العلة من أسباب الاختلاف والاضطراب، فقد جمع الخليل ما فيه حرف علة أو حرفان مع المهموز وخلطها كلها ببعض في باب اللفيف، وفصل القالي ما فيه حرف علة واحدة عما فيه حرفان، ولكنه لم يفصل المهموز عن اليائي أو الواوي، وحاول الأزهري فصل المهموز وفصل الصاحب بينهما في باب اللفيف فقدّم المبدوء بالحرف الصحيح ثم ما أوله همزة ثم ما أوله واو ثم ما أوله ياء في أكثر المواضع ولكنه لم يفعل ذلك في باب الثلاثي المعتل وخلط الأنواع كلها (13).

وهذا الاضطراب لم يقتصر على حروف العلة والهمزة والحروف النطعية فقط، بل هناك اضطراب آخر ، فالخليل يجعل الجيم والشين والضاد طبقة واحدة تخرج من شجر الفم ولذلك يسميها شجرية وعلى هذا الترتيب جرى في الكتاب ولكنه قال في المقدمة :" وأما مخرج الجيم والقاف والكاف فمن بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم، فهو في هذا القول يخرج الجيم من مجموعتها الأولى ويضعها في مجموعة ثانية هي اللهوية (14).

إذن نستطيع القول إن الخليل لم يبتكر في كتابه العين ومقدمته نظاما صوتيا واحدا محكما لمخارج الحروف، وإنما اضطرب بين عدة نظم يختلف بعضها عن بعض، وتعليل ذلك أنه لم يكن قد استقر رأيه على نظام واحد بعد ...(15).

ومن المآخذ على مدرسة الترتيب الصوتي : صعوبة البحث في معاجمها ومشقة الاهتداء إلى اللفظ المراد واستنفاد الوقت الطويل في ذلك، بسبب الترتيب على المخارج والأبنية والتقاليب، وكثيرا ما وقع المؤلفون أنفسهم في أخطاء في تلك الخطوات يستحيل معه القارئ الوصول إلى بغيته (16).

ولعل هذا ما عرض الخليل ومدرسته للانتقادات يقول ابن دريد :" وقد ألف الخليل بن أحمد كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته وعنى من سما إلى نهايته ...(17)

وقال ابن منظور عن تهذيب الأزهري ومحكم ابن سيده :" وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ... غير أن كلا منهما مطلب عسير المهلك، ومنهل وعر المسلك، وكأن واضعه شرع للناس موردا عذبا جلاهم عنه، وارتاد لهم مرعى مربعا ومنعهم منه، قد أخر وقدم وقصد أن يعرب فأعجم فرق الذهن بين الثنائي والمضاعف والمقلوب، وبدّ د الفكر باللفيف والمعتل والرباعي والخماسي فضاع المطلوب، فأهمل الناس أمرهما وانصرفوا عنهما وكادت البلاد لعدم الإقبال عليهما أن تخلو منهما، وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب". (18)

ولعل هذه الصعوبات هي السبب المباشر في قيام المدرسة الهجائية على أنقاض المدرسة الصوتية، فحاول أصحاب الترتيب الهجائي أن يتجاوزوها ويتخلصوا من عقباتها،و إن بقي بعضهم متأثرا بنظام الأبنية والتقاليب مثل :

-جمهرة اللغة لابن دريد 321 هـ.

-وديوان الأدب للفارابي 350 هـ.

-ومقدمة الأدب للزمخشري 538 هـ.

-وشمس العلوم لنشوان الحميري 573 هـ.

3- **<u>الترتيب الألفبائي.</u>**

ويعرف بالترتيب وفق الأشباه والنظائر وواضعه نصر بن عاصم الليثي تـ 90 هـ بتكليف من الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو الترتيب الذي عليه العمل الآن وجرى عليه أصحاب المعجمات من غير مدرسة الخليل.

ابتدأ الرجل بالألف والباء لأنهما أول الحروف في ترتيب "أبجد" وعقب بالتاء والثاء لمشابهتهما للباء ثم ذكرالجيم من حروف "أبجد" وعقب بالحاء والخاء للمشابهة، ثم ذكر الدال وعقب بالذال، ولكون الهاء تشبه أحرف العلة في الخفاء أخرها معها لآخر الحروف، وقبل أن يذكر الزاي ذكر الراء المشابهة لها لتكون الزاي مع باقي

أحرف الصفير ولذلك ذكر السين بعد الزاي وعقب بالظاء وأخر أحرف "كلمن" حتى يفرغ من الأحرف المتشابهة وذكر العين وعقب بالغين ثم ذكر الفاء وعقب بالقاف ثم ذكر أحرف "كلمن" والهاء وأحرف العلة .

أما الترتيب النهائي لهذه الحروف فهو على الشكل الآتي :

(أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ضع غ ف ق ك ل م ن هـ و ي) ومع أن هذا الترتيب لا يقوم على أساس علمي وإنما يقوم على التشابه والتناضر الحاصل بين الحروف مما جعل الخليل ومدرسته تعزف عنه، إلا أنه شاع وانتشر ورتِّبت معظم معاجم اللغة العربية على أساسه ولقي من الشهرة والقبول ما لم يحظ به ترتيب آخرويستطيع دارس المعجمات العربية المرتبة على الألفباء أن يقسمها إلى الأقسام الآتية :

1-ترتيب الكلمات بحسب أسبق حروفها في الذكر مع اتباع نظام التقاليب.

2-ترتيب الكلمات بحسب الحرف الأول.

أ-دون تجريد الكلمة من الزوائد.

ب-مع تجريد الكلمة واعتماد الأصول فقط.

3-ترتيب الكلمات بحسب الحرف الأخير (نظام القوافي)

أ-دون تجريد الكلمة من الزوائد.

ب-مع تجريد الكلمة واعتماد الأصول فقط.

ويمكن تفصيل القول في هذا النوع من الترتيب من خلال ما يأتي

1-ترتيب الكلمات بحسب أسبق حروفها مع اتباع نظام التقاليب :

ويمثل هذا الاتجاه أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد 321 هـ في كتابه جمهرة اللغة (19) وقد صدّر كتابه بانتقاد طريقة الخليل .

و راعى ابن دريد أن يبدأ كل باب بالكلمة التي تبدأ بالحرف المعقود له الباب يليه الحرف الذي بعده في الترتيب الألفبائي، فأبواب الباء يصدرها بالباء مع التاء وأبواب التاء يصدرها بالتاء مع الثاء وأبواب الدال يصدرها بالدال مع الذال..وهكذا.

فإذا أردنا مثلا أن نبحث عن كلمة فلت، نرتبها ألفبائيا فتصبح تفل ونبحث عنها في باب الثلاثي الصحيح حرف التاء، أي أننا نجد تحت شرح مادة تفل معنى كلمة فلت وتقاليبها بينما نجد مادة وقف في شروح مادة فوق.

كما اعتمد نظام التقاليب (20) الذي أرغمه على تناول كثير من الألفاظ في غير موضعها نظرا لكثرة الأبنية والأبواب لديه – ولعل هذا ما جعل السيوطي 911هـ يصدر الحكم التالي في حق الجمهرة بقوله :" وأما كتاب الجمهرة ففيه أيضا من اضطراب التصنيف وفساد التصريف مما أعذرُ واضعَه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر

2- ترتيب الكلمات بحسب الحرف الأول.

وينقسم هذا النوع إلى قسمين :

أ-دون تجريد الكلمة من الزوائد.

ب–مع تجريد الكلمة واعتماد الأصول فقط.

أ–ترتيب الكلمات بحسب الحرف الأول دون تجريد الكلمة من الزوائد أو دون تمييز بين الأصلي والزائد.

ويمثل هذا الاتجاه مجموعة من الرسائل ذات الطابع العلمي المتخصص مثل المقصور والممدود لابن ولاد المصري 332هـ وهو معجم يحصر كلمات المقصور والممدود في اللغة العربية وقد سار مؤلفه على النحو التالي :

–وضع الكلمات تحت أوائلها دون تفريق بين الأصلي والزائد.

–اتباع نظام الترتيب الهجائي العادي مع طرح نظام الخليل.

–عدم إعطاء أي اعتبار لثواني الكلمات وثوالثها. (24)

ومثل غريب القرآن لأبي بكر السجستاني 330هـ والمعرب للجواليقي 465هـ وقد لاقى هذا النظام رواجا – بصفة خاصة– بين المؤلفين في غريب القرآن وغريب الحديث كالمفردات للراغب الأصبهاني والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، وربما السبب السر في عدم شيوع هذا النظام بين المعجميين القدماء هوأنه يفرق كلمات المادة الواحدة في أماكن متعددة فمادة (جهد) مثلا توزع مشتقاتها على النحو الآتي :

جاهد–حرف الجيم

مجاهد –حرف الميم

تجاهد –حرف التاء

اجتهاد –حرف الألف.

ومما ألف على هذا النهج حديثا: القاموس الجديد، بتأليف مجموعة من المؤلفين التونسيين

كما ألف جبران مسعود "الرائد" الذي طبع سنة 1965، ورتب كلماته تحت حروفها المنطوقة دون تفريق بين أصلي وزائد، وقد رفضت مجامع اللغة هذا الصنف من الترتيب لما يؤدي إليه من تشتيت المادة اللغوية.

ب–ترتيب الكلمات بحسب الحرف الأول مع تجريد الكلمة من الزوائد واعتماد الأصول فقط.

ويمثل هذا الاتجاه كل من أبي عمرو الشيباني 206 هـ في الجيم.

وابن فارس 395 هت في معجم مقاييس اللغة.

والزمخشري 538 هـ في أساس البلاغة.

والفيومي 770 هـ في المصباح المنير.

*الجيم لأبي عمرو الشيباني 206 هـ

يعد أبو عمرو الشيباني رائدا من رواد هذه المدرسية التي اتخذت من الترتيب الألفبائي أساسا لها غير أنه لم يلتزم في ترتيب الأصول إلا بالحرف الأول مهملا ما سواه. فقد قسم الكتاب أو بابا على الحروف الهجائية ولم يخالف هذه الحروف إلا بتقديمه باب الواو على باب الهاء، وأورد في كل باب الألفاظ التي تبدأ بذلك الحرف دون مراعاة لأي حرف بعدها ولا اعتبار للصيغ التي تتحد في حروف أصول تتفرع عنها وإنما هي ألفاظ يرد بعضها وراء بعض.

ففي باب الهمزة مثلا نجد : الأدب –الألب – المألوف– الأفق– الأزواج – المأموم ....

وقد أورث هذا شيئا من العناء والتعقيد في الرجوع إلى الكتاب وذلك أن طالب المادة لا يقف عليها إلا بعد النظر في الباب كله (25).

* معجم مقاييس اللغة لابن فارس 395 هـ

اعتمد ابن فارس الطريقة الألفبائية في ترتيب معجمه، فقسمه إلى كتب بعدد حروف الهجاء، ثم قسم كل كتاب إلى ثلاثة أبواب فقط هي : الثنائي المضاعف والثلاثي وما زاد على الثلاثي وقد حافظ ابن فارس على نظام الأبنية الصرفية الذي يعيق البحث عن الألفاظ، ولكنه سهله بالاحتفاظ بالأبنية المذكورة، كما يسره بإلغاء مبدأ التقاليب.

ومما أخذ على ابن فارس اضطرابه في وضع بعض مواده لصعوبة ترتيبه وأكثر ما احتل عنده الحرف الثالث، فما أكثر ما قدم الحرف المتأخر منه وأخر المتقدم ففي الجزء الثاني مثلا نجده يرتب باب الحاء مع التاء وما يثلثهما كما يلي :

حتر –حتأ – حتم – حتد – حتن – حتل –حتك – حتو

وصوابه : حتد– حتر – حتف – حتك –حتل– حتم – حتن – حتو – حتأ

كما اختل ترتيبه الإجمالي : بحيث كان يقدم الياء على الواو حينا ، والهمزة على الياء أحيانا (26) وخلط بين الهمزة والألف في مواضع أخرى.

*أساس البلاغة للزمخشري 538هـ

يعد الزمخشري أول من اكتمل على يديه نظام الترتيب الألفبائي، حيث رتّب مفردات معجمه من أولها إلى آخرها وفق الحروف الأصول وحدها، ينظر إلى الأوائل فإن اتفقت نظر إلى الثواني وإن اتفقت نظر إلى الثوالث، وكان هذا لأول مرة في تاريخ المعاجم العربية العامة.

يقول الزمخشري واصفا منهج كتابه :" وقد رتّبت الكتاب على أشهر ترتيب متداولا وأسهله متناولا" (27) وذلك بتقسيمه إلى أبواب تبعا لحروف الألفباء، فالباب الأول للهمزة يليه باب الباء ثم باب التاء..إلى باب الياء، مع تقديم باب الواو على باب الهاء مثلما فعل أبو عمرو الشيباني في معجمه، وهو خلاف المشهور.

إلا أنه في الترتيب الداخلي يقدم الهاء على الواو في ترتيب المواد بخلاف عادته في ترتيب الأبواب والفصول.

ولم يسلم الزمخشري من المخالفات وخاصة اضطرابه في الترتيب، من مثل وضعه المضاعف الثنائي من الهمزة مع الياء (أي) في مقدمة الفصل وكان حقه أن يؤخر بحسب منهجه الذي سار عليه في الكتاب كله(28).

ومن معاجم هذه المدرسة "شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم" لنشوان بن سعيد الحميري 573هـ والمصباح المنير للفيومي 770هـ ، وقد سارت معاجم هذه المدرسة على اعتبار الحروف الأوائل ثم الثواني ثم الثوالث (مع تفاوت واضح بينهما في درجة الدقة والالتزام بالمنهج من أوله إلى آخره.

*وقد شذ أبو حيان 745هـ عن غيره في معجمه "تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب" حيث اعتبر الحروف الأوائل ثم الثوالث قافزا على الثواني (29).

3- ترتيب الكلمات بحسب الحرف الأخير (نظام القوافي)

وينقسم إلى قسمين :

أ-دون تجريد الكلمة من الزوائد.

ب-مع تجريد الكلمة من الزاوائد (باعتماد الأصول فقط)

ترتيب الكلمات بحسب الحرف الأخير دون تجريد الكلمة من الزوائد:

وأشهر من يمثل هذا الاتجاه كتاب التقفيه (30) لأبي بشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي 284 هـ فقد رتب المؤلف كتابه على حسب أواخر الكلمات ترتيبا ألفبائيا بغض النظر عن كونها حروفا أصلية أو زادئة ، فما انتهى بالباء بابه الباء وما انتهى بالجيم بابه الجيم وهكذا.

وقد ألف كتابه خدمة للشعراء ولذلك لم يرتب الكلمات داخل القافية أي نوع من الترتيب، وإنما اكتفى بتجميع الكلمات تحت الحرف الأخير، ففي باب الراء مثلا نجد الكلمات :

المجر – الفجر – البشر – العشر ...

ثم قال : قافية أخرى : (ماطر –عنافر – تضافر –تظاهر (31)

وذلك لأن من يبحث عن قافية معينة لا يهمه ترتيب الكلمات تحت هذه القافية ولا بد له أن يقرأ كلمات القافية المرغوب فيها كاملة وينتقي منها ما يشاء.

وهذا النهج سيهيئ لظهور مدرسة الترتيب الألفبائي المحكم بحسب أواخر الكلمات.

ب- ترتيب الكلمات بحسب الحرف الأخير مع تجريد الكلمة من الزوائد :

ويمثل هذه المدرسة مجموعة من الأعلام على رأسهم :

إسحاق بن إبراهيم الفارابي 350 هـ في "ديوان الأدب في بيان لغة العرب"

والجوهري 400 هـ في "تاج اللغة وصحاح العربية "

والصاغاني 650 هـ في "العباب الزاخر واللباب الفاخر "

وابن منظور الإفريقي711هـ في "لسان العرب "

والفيروزابادي 817 هـ في "القاموس المحيط "

وابن الطيب الفاسي 1170 هـ في "إضاءة القاموس "

والزبيدي 1205 هـ في "تاج العروس في شرح جواهر القاموس "

إن السبب في اللجوء إلى هذا النظام شيوع السجع في القرن الرابع الذي ألف فيه ديوان الأدب وحاجة الأديب إلى الكلمات المتحدة في الحرف الأخير، ومن الأسباب كذلك اختفاء العرب من بين الشعراء وغلبة الأعاجم على الشعر وضعف محصولهم اللغوي وحاجتهم إلى البحث عن الألفاظ التي تتفق مع قوافيهم (32).

* ديوان الأدب في بيان لغة العرب للفارابي 350 هـ

قسم الفارابي معجمه إلى ستة كتب على النحو التالي :

1-كتاب السالم 2-كتاب المضاعف 3-كتاب المثال 4-كتاب ذوات الثلاثة(الأجوف) 5-كتاب ذوات الأربعة (الناقص) 6-كتاب الهمزة.

وكل قسم ينقسم إلى قسمين : الأول خاص بالأسماء والثاني خاص بالأفعال، وكل قسم من هذين القسمين ينقسم إلى أبواب على أساس الأبنية، وأخيرا تنقسم الأبواب بحسب حروف المعجم على الألفباء بحسب الأصل الأخير من الكلمة مع مراعاة أولها وأوسطها وهذا ما يعرف بنظام الباب والفصل (33).

وهذا الترتيب هو ما اشتهر أن الجوهري هو الذي اخترعه، ولكن ثبت الآن أن السبق كان للفارابي.

ومن عيوب "ديوان الأدب" :

-تعقد نظام الكتاب وصعوبة استخدامه حتى بالنسبة للمتخصصين.

-تمزيق الصيغ التي ترجع إلى مادة واحدة وتوزيعها على أبواب مختلفة بحسب أوزانها (34).

*تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري 400هـ

اعتمد الجوهري طريقة الترتيب على حروف الألفباء وفق أواخر الأصول يقول : "...على ترتيب لم أسبق إليه وتهذيب لم أغلب عليه" وتتميز طريقته بما يلي :

1. تقسيم مواد المعجم إلى ثمانية وعشرين بابا بعدد الحروف.
2. تسمية الحرف الأخير من أصل الكلمة بابا.
3. تسمية الحرف الأول من الكلمة فصلا.
4. تجزئة كل باب من الأبواب إلى ثمانية وعشرين حرفا.
5. دمج الواو والياء في باب واحد لأن الألف المقصورة أصلها ياء أو واو.
6. خالف في الفصول ما اتبعه في الأبواب بخصوص الواو فلم يجمع بينها وبين الياء، ولكنه فصل بينها فصلا واضحا عندما قدم الواو على الهاء ثم الياء.
7. راعى في ترتيب الألفاظ داخل الفصول جميع حروف الكلمة الواحدة وذلك على ترتيب الألفباء

والصحاح بمنهجه هذا يمثل ثورة حقيقية على مدرسة الترتيب الصوتي وعلى كتاب العين الذي ظل مهيمنا على مناهج التأليف المعجمي مدة تزيد على القرنين -كما تقدم -

وبهذا يكون المعجم العربي قد تخلَّص من تعقيدات الأبنية والتقاليب والتفريعات وبلغ مزية أفضل من حيث التهذيب والترتيب ولذلك لقي قبولا واستحسانا على مدى العصور يقول ياقوت عن الصحاح إنه "أحسن من الجمهرة وأوقع من تهذيب اللغة وأقرب متناولا من مجمل اللغة"(35).

* ومن المعاجم التي سلكت هذا المسلك "العباب الزاخر واللباب الفاخر" للصاغاني 650هـ ويعتبر من المعاجم اللغوية الأساسية في البحث اللغوي وكان العلماء يرون أنه من أعظم الكتب اللغوية بعد الصحاح.

* و"لسان العرب" لابن منظور الإفريقي 711هـ الذي تميَّز بالاستقصاء وحسن الترتيب، والقاموس المحيط للفيروزابادي 817 هـ الذي عرف بالانتظام في الترتيب الداخلي للمواد والانتظام في علاجها وخلَّص المواد اللغوية من التشتت الذي كان يرغم الباحث على قراءة المادة كلها لكي يحصل على المعاني التي يريدها.

*وإضاءة الراموس لابن الطيب الفاسي 1170 هـ.

*وتاج العروس في شرح جواهر القاموس للزبيدي 1205 هـ.

*والمنتهى للبرمكي 398 هـ، إلا أن البرمكي قد اتبع ترتيبا غريبا فعلا كما قال القدماء فقد التزم الترتيب الألفبائي غير أنه طبَّقهُ على الحرف الأخير كما فعل الجوهري، ثم خالف الجوهري فلم ينظر في خطوته الثانية إلى الحرف الأول من الكلمة بل إلى الحرف السابق (36).

وخلاصة القول إن هذه المدرسة على الرغم من الدقة والضبط التي امتازت بهما معاجمهما إلا أنها لم تستطع التخلص من مشكلة الترتيب على الحروف الأصلية وحدها فخطأ بعض أفرادها بسبب اختلاف وجهات النظر في أصالة كثير من الحروف وزياداتها.

خاتمة

على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها المعجميون العرب..الذين كانوا مبتكرين غير مقلّدين بلا شك خاصة إذا علمنا ان دافعهم الأول خدمة القرآن الكريم، فإن أعمالهم في مجال الترتيب لم تسلم من النقد ولم تخل من المآخذ ولعل أهم المآخذات:

1-هي أن المعجمية العربية لم تتوصل بعد إلى منهجية ترتيب محدد تتبعها فقد صار الترتيب أمرا شخصيا واجتهادا فرديا عند كثير من المعجميين لا يراعي فيه إلا تصوّر صاحبه.

فضلا عن عدم ترتيب المواد ترتيبا داخليا وخلط الأسماء بالأفعال والثلاثي بالرباعي والمجرد بالمزيد. وخلط المشتقات بعضها ببعض يقول الشدياق :" لا جرم أن هذا التخليط والتشويش في ذكر الألفاظ ليذهب بصبر المطلع ويحرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائرا بائرا .

2-لم تتخلص المعاجم من الاختلافات المذهبية في أصول الكلمات وحروف العلة، والهمزة وبابي اللفيف والثنائي المضاعف، حيث لقيت المعاجم العربية عنتا شديدا وحارت فيها بين خلط واضطراب وبين فصل وتمييز مما أدى إلى اضطراب في التبويب والترتيب (37) حتى أصبح عدد من المعاجم غير مطروق لصعوبة الإفادة منه.

3-اتسام طائفة كبيرة من الألفاظ في العربية بصلاحيتها للتوجيه على هيئات متعددة إما لفظا وإما تقديرا، وتشتمل الطائفة ما يلي :

1- الألفاظ المعتلة التي يتعاقب عليها الواو والياء في التقدير.
2- الألفاظ التي وردت بأكثر من لغة .
3- الألفاظ التي دخلها التصحيف والتحريف .

فضلا عن ترتيب الحركات وترتيب الهمزة المكتوبة على الحرف وترتيب الألف المقصورة مما لم تتفق المعاجم الألفبائية الترتيب على صياغة موقف موحد تجاهها .

آفاق الترتيب الألفبائي :

لقد اتضح من خلال عرض مناهج المعجميين العرب في ترتيب المادة اللغوية الأبجدية والصوتية والألفبائية بجميع تفريعاتها، أن الترتيب الألفبائي كان أنجع السبل وأجداها، فقد استطاع أصحابه أن يطوّروه ويدقّقوه ، كما اتضح داخل الألفبائية نفسها أن الترتيب بحسب الأواخر خفت صيته ، فبقى أصلح المناهج لترتيب المعاجم الألفبائية بحسب أوائل الحروف فالذي يليها ومما يدل على هذا الزعم:

1–زوال الترتيب المخرجي في العمل المعجمي وتوقفه .

2–زوال الترتيب الألفبائي بحسب الأواخر وتوقفه .

3–اعتماد المجامع اللغوية للترتيب الألفبائي تنظيرا وتطبيقا، فعلى مستوى التنظير رفضت المجامع اللغوية ترتيب المداخل باعتماد الحرف الأول دون الثاني والثالث... وعلى مستوى التطبيق أشرفت المجامع اللغوية على مجموعة من المعاجم كالمعجم الكبير والمعجم الوسيط ومعجم ألفاظ القرآن الكريم وفضلا عن عشرات المعاجم الاصطلاحية المتخصصة في الطب والأدوية والزراعة والجغرافيا لأنه الترتيب الذي يستطيع أن يكتفي بذاته ولا يحتاج إلى الاستعانة بترتيب آخر

4–اعتماد المعجميين المعاصرين الترتيب الألفبائي :

مثل : أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد لسعيد الخوري الشرتوني.

"محيط المحيط" لبطرس البستاني .

"البستان " لعبد الله البستاني .

"متن اللغة" للشيخ أحمد رضا .

"المنجد " للويس معلوف .

"الهادي" لحسن الكرمي .

5–إعادة ترتيب المعاجم وفق الألفباء :

وذلك قصد إحيائها وجعلها في متناول القارئ والباحث، وإعادة الترتيب ظاهرة قديمة حيث قام الإمام البرمكي بإعادة ترتيب كتاب الصحاح للجوهري وفق أوائل الكلمات بدل نهاياتها .

–ورتب الشيخ الطاهر أحمد الزاوي القاموس المحيط على ترتيب أساس البلاغة والمصباح المنير.

–كما رتب الشيخ الزاوي مختار القاموس على طريقة مختار الصحاح.

–ورتب الأستاذان محمد محي الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي المختار من صحاح اللغة قالا : " رأينا أن نرتبه بترتيب الزمخشري في الأساس والفيومي في المصباح لأنه أقرب إلى أذهان الناشئة وأسهل عليه " .

–كما قام الأستاذ محمود خاطر بتحويل كتاب "مختار الصحاح" للرازي على أوائل الأصول بدلا من أواخرها تسهيلا لاستخدامه .

–وقلب يوسف خياط ونديم مرعشلي ترتيب لسان العرب ليصبح على أوائل الأصول بدلا من أواخرها.

–وهذب عبد الله إسماعيل الصاوي لسان العرب ورمى إلى إعادة ترتيبه إذ عدل عن الترتيب الأصلي إلى الترتيب الألفبائي المعتاد من أول الكلمة إلى آخرها ووضع كل مادة في موضعها .

ولعل ما قدم كفيل بأن يبين رسوخ قدم هذا الترتيب و احقيته في إعادة ترتيب المعاجم على وفقه،و الله ولي التوفيق و الحمد لله رب العالمين.

الهوامش :

(1) فصول في فقه العربية 230 (وقد جعل الترتيب الأبجدي مرادفا للألفبائي)

(2) اللغة ومعاجمها/ ص: 85

(3) البحث اللغوي عند العرب/ ص:159 .

(4) ترتيب مداخل المعجم/ ص: 15.

(5) ترتيب مداخل المعجم/ ص 23 .

(6) وللمغاربة في هذه الحروف ترتيب مختلف هو :

أبجد – هوز – حطي – كلمن – ضعفص– قرست – ثخذ– طغش.

(7) لترتيب مداخل المعجم، علي القاسمي/ص: 20.

(8) جمهرة اللغة –ابن دريد/ج1،ص:40.

(9) مقدمة العين/ ج1،ص:9إلى ص:47.

(10) ترتيب مداخل المعجم / ص:19.

(11) الدراسات اللغوية عند العرب –لمحمد حسين آل ياسين/ص: 249 .

(12) المعجم العربي –حسين نصار/ص:393 واللغة، ومعاجمها،عبد اللطيف الصوفي/ص: 102 .

(13) المعجم العربي لحسين نصار/ص: 394.

(14) المصدر السابق/ص: 244 .

(15) المصدر السابق/ص: 245 ، كما أن الخليل اضطرب بين النظري حين جعل حروف العلة بهذا الترتيب (و ا ي ء) إلا انه في مجال التطبيق رتب حروف العلة (ي و ا ء) .

(16) المعجم العربي ، حسين نصارص: 394.

(17) جمهرة اللغة، ابن دريد،ج: 1 ص:3.

(18)لسان العرب المقدمة، ص:11.

(19) طبع بتحقيق د.رمزي منير بعلبكي وصدر في ثلاثة مجلدات عن دار العلم للملايين في طبعته الأولى 1987 م .

(20) معنى هذا أننا لا نجد الكلمة تحت حرفها الأول وإنما تحت أسبق حروفها في الترتيب الهجائي مهما كان هذا الحرف فكلمة (عبد) توجد في الباء لأنها أسبق الحروف في الترتيب. البحث اللغوي عند العرب،ص: 183 .

(21) طبع المعجم بالقاهرة تحت إشراف مجمع اللغة العربية في ثلاثة أجزاء حقق الأول منها إبراهيم الأبياري 1984 وحقق الثاني عبد العليم الطحاوي 1975 وحقق الثالث عبد الكريم العزباوي 1975 ومعنى الجيم: الديباج ولا علاقة له بأول حرف في المعجم كما ظن العديد قياسا على العين .

(26) المعجم العربي لحسين نصار 481–482، فصول في فقه العربية رمضان عبد التواب 277 .

(27) معجم مقاييس اللغة 1/ 455.

(28) مقدمة أساس البلاغة .

(29) المعجم العربي 693 والبحث الغوي عند العرب 191.

(30) المعجم العربي 709 واللغة ومعاجمها في المكتبة العربية 152. ..

(31) طبع باسم التقفية في اللغة بتحقيق د.خليل إبراهيم العطية – ونشر في العراق بمساعدة وزارة الأوقاف .

(32) الدراسات اللغوية عند العرب –محمد حسين آل ياسين 280.

(33)البحث اللغوي عند العرب –أحمد مختار عمر 195 .

(34)المعجم العربي 176 .

(35) المزهر 1/ 99 وقال الخطيب التبريزي :" وكتاب الصحاح هذا حسن الترتيب سهل المطلب لما يراد منه " المزهر 1/ 97.

(36) البحث اللغوي عند العرب 219 .

(37) البحث اللغوي عند العرب 260. .

(38) هذا لا يعني التشكيك في صلاحية جميع المعاجم في وقتها وللغاية التي ألفت من اجلها يقول القاسمي مثلا عن منهجي الخليل الصوتي والتقليبي "فإننا نعتقد بأنهما كانا مناسبين للغاية من ذلك المعجم والخاصة من اللغويين الذين صنف المعجم لاستعمالها ... ويقال الشيء نفسه بالنسبة للترتيب الموضوعي والترتيب النحوي والجذري ....لكن هذا الترتيب لا يغني عن تنظيم فهرس ألفبائي شامل يجمع مصطلحات المعجم بغض النظر عن موضوعها، ويوضع هذا الفهرس في نهاية المعجم لإرشاد القارئ ..." ترتيب مداخل المعجم 26 .

<u>أهم المصادر والمراجع المعتمدة:</u>

القرآن الكريم

- أساس البلاغة –للزمخشري تحقيق عبد الرحيم محمود،بيروت،لبنان، 1979.
- تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد بن منصور الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط3–1984.
- تاريخ الأدب العربي أو حياة اللغة العربية، لحفني ناصف، مطبعة جامعة القاهرة ط3–1973.
- ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، أحمد الزاوي،دار الكتب العلمية، القاهرة ، 1979.
- ترتيب مداخل المعجم، لعلي القاسمي،مجلة اللسان العربي،المجلد 19، ج 1، 1982، الرابط.
- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون، مراجعة محمد علي الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط3–1984.
- الجاسوس على القاموس،أحمد فارس الشدياق،دار صادر،مطبعة الجوائب،

قسنطينة 1299هـ.
- جمهرة اللغة لابن دريد، تحقيق د.رمزي منير بعلبكي،دار العلم للملايين ط1، 1987.
- الجيم، لأبي عمرو الشيباني، تحقيق عبد الكريم العزباوي ومراجعة عبد الحميد حسن الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة 1975.
- دراسات في المعجم العربي، لإبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1987.
- دراسات إحصائية لجذور معجم الصحاح باستخدام الكمبيوتر لعلي حلمي موسى، الهيئة العربية العامة للكتاب، 1978.
- ابن سيده : آثاره وجهوده في اللغة، لعبد الكريم شديد النعيمي، دار الحرية للطباعة، بغداد 1984.
- لعين للخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق مهدي المخزومي–إبراهيم السامرائي دار الرشيد للنشر –العراق 1982 .
- فصول في فقه العربية، لرمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، دار الرفاعي بالرياض، ط2، 1983.
- قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، د.عبد العلي الودغيري منشورات عكاظ، الرباط، ط1، 1989.
- كشافات التبادل واسترجاع المعلومات في اللغة العربية، علي اسليمان الصوينع، مطبوعات مكتبة الملك فهد، 1988.
- كلام العرب من قضايا اللغة العربية، د. حسن ظاظا، دار القلم دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط2، 1990.
- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.
- اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، د. عبد اللطيف الصوفي، دار طلاس، دمشق، ط1، 1986 .
- المزهر للسيوطي، شرح وتعليق، محمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت1987 .
- المصادر العربية و المعربة،محمد ماهرحمادة،مؤسسة الرسالة
- المعجم العربي، حسين نصار، دار مصر للطباعة ط2، 1987 .
- المعجم العربي بالأندلس، د.عبد العلي الودغيري،مكتبة المعارف، الرابط ،ط،1984.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1969 .

المبـاحث الصوتية في معجم لسان العرب

الأستاذ/ أحمد بن عجمية
جامعــة الشلف

تمهيد : يعد معجم لسان العرب لابن منظور (ت 711 هـ) من المعاجم اللغوية الشهيرة التي لا يستغني عنها الباحث والدارس و اللغوي،وحين نقف على المعجم و الذي ناهزت مواده أل(80.000) مادة حسب رواية – عبد الغفور عطار – في كتابه (مقدمة الصحاح) نجد مؤلفه قد درج على استحضار أبرز الآراء النحوية و الصرفية التي يستدل بها في المادة إن وجدت ثم يدعمها ببعض الآثار المنثورة و المنظومة و الأمثال العربية ، و قد اهتم بالمباحث الصوتية في مداخله ، لأهمية الصوت في الدراسات اللغوية صيغة و تركيبا و دلالة مما رفع اللبس عن كثير من الألفاظ ووضح دلالتها .

و يعد ابن منظور معجميا رائدا في مجال المباحث الصوتية، و يتجلى ذلك في مقدمة اللسان و التي اشتملت على بعض المبادئ و البحوث اللغوية لها.وزنها في الدراسات اللغوية الحديثة، و قد تكون هذا امتدادا لآراء سابقة أو تسجيلا جديدا لها من ذلك حديثه عن صفة الحروف و أجناسها في باب (ألقاب الحروف و طبائعها و خواصها)؛فمن ألقاب الحروف يتناول صفة الحرف و يصنفها صنفين:

مهموسة: اتسع لها المخرج فخرجت كأنها متفشية وعدها (عشرة أحرف).

مجهورة: لم يتسع لها المخرج فلم تسمع لها صوتا و هي (19 حرفا) .

و يقسمها كذلك إلى شديدة و رخوة و قد وضع الأصوات يجمعها لقبان : المصمتة و المذلقة و هي ستة أحرف – ثلاثة ذلقية (ل.ر.ن) و ثلاثة شفوية (ب. ف.م) و البقية حروف مصمتة ، و علل تسمية الذلاقة بان عملها من طرف اللسان ، و طرف كل شيء دلقه،وسميت الأخرى مصمتة لأنها أصمتت – منعت – أن تختص بالبناء إذا كثرت حروفه لاعتياصها على اللسان .

1. تعريف الصوت:عرف ابن منظورالصوت فقال:(الصوت:الجرس – معروف مذكر.

و يقال:صات،يصوت صوتا فهو صائت ، معناه صائح. (1) و الصيت و الصات:الذكر الحسن .

* أما اصطلاحا: فالصوت هو الأثر السماعي الذي يصدر طواعية أو اختيارا عن أعضاء النطق له مخرج و صفات حامل لها. و هو بهذا المعنى عملية نطقية تدخل في تجارب الحواس و على الأخص السمع و البصر ، يؤديه الجهاز النطقي حركة و تسمعه الأذن أثرا و تراه العين حين الأداء و يوضح ابن خلدون (ت–808–ه) "بان العرب بعد اختلاطهم بالعجم تغيرت ملكتهم بما القي إليها السمع من المخالفات التي للمعربين و السمع أبو الملكات. (2)

3. مخارج الأصوات : لقد أشار ابن منظور إلى مخارج الأصوات في مدخل كل باب من أبواب المعجم ، يقدم الصفة على المخرج من ذلك قوله في باب (الباء : من الحروف المجهورة ، و من الحروف الشفوية ،و سميت شفوية لان مخرجها من الشفتين ،و لا تعمل الشفتان في شيء من الحروف إلا فيها و في الفاء و الميم) .(3) فهو ههنا يحدد صفة الحرف و يبين مخرجها و يعلل سبب التسمية و يلحقها بالأصوات التي هي من نفس المخرج ، أي ينسبها إلى حيزها ؛ و إذا تتبعنا هذا العمل في مختلف أبواب المعجم وجدناه ينهج نفس المنهج ؛أي يذكر الصفة ثم يعقبه بذكر المخرج . (4)

1. اللسان – صوت – 7 / 435
2. المقدمة – ابن خلدون – 712/2
3. اللسان – الباء – 1 / 297
4. الخروج: نقيض الدخول، قد يكون المخرج موضع الخروج.

و قد تتبعت ذلك ووضعت المخارج في جدول منطلقا من الشفتين على طريقة المحدثين و منتهيا إلى الحلق و مبينا صفة الحروف ، على النحو التالي :

الجدول

الرقم	المخارج	صفة الجهر	صفة الهمس	نسبة الهمس إلى الجهر
1	الشفوي	ب – م	و	1/3
2	اللثوي	ذ – ظ	ث	1/3
3	النطعي	د – ط	ت	1/3
4	الشجري	ج – ض	ش	1/3
5	الأسلي	ز –	س – ص	2/3
6	الذلقي	ل – ن – ر	/	0/3
7	اللهوي	ق	ك	1/1
8	الحلقي	أ – ع – غ	ح – خ – ه	3/3
9	الهوائي	ا – و – ي	/	0/3
المجموع	09	19	10	

و تعليق: توصل ابن منظور بعد أن حدد مخارج الحروف و صفاتها إلى ذكر مجموعة من الأحكام لضبط الحروف و تأليفها في التراكيب اللغوية أو عدمه، و صنفها إلى ثلاثة أقسام:

1) ما هو واجب التأليف في التركيب .
2) ما يحسن التركيب الصوتي إن وجد .
3) ما يمتنع وقوعه .

القسم الأول : خصه لحروف الذلق (*) و الشفوية (راجع الجدول) ، لأنها لما ذلقت الحروف الستة و بذل بها اللسان و سهلت في المنطق كثرت في أبنية الكلام ، " فإذا ورد عليك خماسي معرى من الحروف الذلق و الشفوية فاعلم أنه مولد ، و ليس من صحيح كلام العرب " . (1)

القسم الثاني : خاص بحرفي (العين و القاف) و هما حرفان " لا يدخلان على بناء إلا حسناه، لأنهما أطلق الحروف، أما العين فانصع الحروف و ألذها سماعا، أما القاف فأمتن الحروف و أصحها جرسا فإذا كانتا أو أحداهما في بناء حسن لنصاعتهما " . (2)

القسم الثالث : فيكون في الحروف التي تصدر من مخرج واحد مثل (الحاء و الهاء) لم يأتلفا في كلمة واحدة أصلية الحروف و قبح ذلك على ألسنة العرب لقرب مخرجيهما . (3)

3. صفات الحروف:إذا كان المخرج يشمل على أكثر من صوت وأنه شيءأساس في إنتاج الأصوات ،وإذا كانت كل مجموعة من الأصوات مشتركة في مخرج واحد فإنها تظل بحاجة ماسة إلى أساس آخر يفرق بين كل واحد منها و بين الآخر في نطاق المخرج الواحد ، و هنا يأتي دور الصفات التي

* سميت الحروف الذلقية ذلقا ، لأن ذلاقة في المنطق إنما هي بطرف أسلة اللسان .

1. اللسان – الراء . 75/5 و اللام 107/12 و النون 05/14
2. مقدمة العين الخليل – و انظر لسان العرب – عا – 05/9 .
3. لسان العرب – الحاء . 05/3 . و انظر اللسان – ها – 05/15

تتصف بها الأصوات التي تعتبر الأساس السمعي للتفريق بينهما " . (1)و قد أشار إلى هذه الخاصية سيبويه (ت 180 هـ) حين قال : (لولا الإطباق لصارت الطاء دالا و الصاد سينا و الظاء ذالا) . (2)و الإطباق صفة فارقة بين الأصوات المتماثلة في المخرج و الصفة معا كالطاء و الدال مثلا ، كلاهما من مخرج واحد و صفة واحدة (*) و لولا التفريق بينهما بالإطباق لأصبحا حرفا واحدا ، و تؤدي هذه الصفات دورا بارزا في تعديل وجوه جمة أثناء عملية التزاوج و التشكيل الصوتي(*) كالمماثلة و الإبدال و القلب ، و تتجلى هذه الصفات ثنائية و انفرادية .

أولا : الصفات الثنائية : و نعني بها أن لكل صفة مقابلها .

أ –الجهر و الهمس :

- فالجهر لغة : " ما ظهر و تقول جهرت القول و جهرت به إذا أعلنته " . (3)
- أما اصطلاحا : نقل ابن منظور عن ابن كيسان قوله " إن الصوت المجهور هو" مما لزم موضعه قضاء حروفه و حبس النفس أن يجري معه فصار مجهورا ، لأنه لم يخالطه شيء بغيره " (4) ، و عدها ابن منظور (19 حرفا) تميزت بوضوح صوتها فهي أصغى و أندى من نظائرها .

1. اللغة العربية معناها و مبناها – تمتم حسان – ص67 – عالم الكتب ط3 – سنة 1998 .
2 . الكتاب – سيبويه – 436/4 .
* المخرج النطعي – و الصفة الأساسية هي الجهر ، و الصفة الثانوية هي الشدة .
* ستجد في مبحث الإعلال و الإبدال أثرا للهمس و الجهر في التجانس الصوتي داخل الكلمة
3. اللسان – جهر – 397/2 .
4. المصدر نفسه.

consonnes sonores :

و المهموسة عنده " حرف أضعف الاعتماد من موضع حتى جرى معه النفس " (1) و تعد صفة الهمس صفة ضعف و يظهر ذلك جليا من خلال نطق صوت (الظاء) المجهور و شريكه (الثاء) المهموس و هما من مخرج واحد .و عرفها ابن دريد (ت 321 ه):" و سميت مهموسة لأنه اتسع لها المخرج فخرجت كأنها متفشية و المجهورة لم يتسع مخرجها فلم تسمع لها صوتا " . (2)
هذه آراء القدامى، أما المحدثون فيكادون يتفقون مع القدامى في الصفتين السالف ذكرهما ،غير أنهم " عرفوا الوترين الصوتيين و ما لهما من علاقة لعملية الجهر و الهمس " .(3) و لاحظوا أنهما ينشآن من ذبذبة الوترين الصوتيين و تأثرها بالهواء الخارج من الرئتين و عدم تأثرهما و ذبذبتهما .
" و لا شك أن هذا التأثير مرتبط بفتحة المزمار في انقباضها و انبساطها ، فإذا انقبضت هذه الفتحة ضاق مجرى الهواء ، و اقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر ، فيؤثر الهـواء فيهما بالاهتزاز و هذا يحدث مع الصوت المجهور،أما إذا انبسطت فتحة المزمار اتسع مجرى الهواء و ابتعد الوتران الصوتيان أحدهما عن الآخر،بحيث لا يؤثر فيهما الهواء الخارج من الرئتين بالاهتزاز و هذا يحدث عندما يكون الصوت مهموسا " . (4)

ب الأصوات الشديدة و الرخوة :

- الشـــدة لغـــة : تعنـــي " الصـــلابة و هـــي نقـــيض اللـــين ، تكـــون فـــي الجـــواهر والأعراض " . (5)

1. اللسان – همس – 133/15 .
2. الجمهرة – ابن دريد – 8/1 .
3. ينظر الأصوات اللغة العربية – عبد القادر حامد هلال – 135 .
4. الأصوات اللغوية إبراهيم أليس ص 20–21 .
5. اللسان – شدد – 54/7 .

- الرخاوة : لغة أي " لين صوت (1) و جريانه عند التلفظ به لضعفه و ضعف الاعتماد عليه في مخرجه " . (2) أوضح سيبويه بخصوص الشديدة (و من الحروف الشديدة و هو الذي يمنع النفس أن يجري فيه " . (3) و بين ابن منظور بأمثلة حية معنى منع جريان الصوت نحو : الحق و الشرط إذ لا يمكن مد الصوت بحرفي : القاف و الطاء . و بمعنى آخر " هو كمال انحباس جري الصوت عند النطق لكمال قوة اعتماده على مخرجه " . (4)

* و الحروف الشديدة ثمانية و هي : الهمزة – القاف – الكاف – الجيم – الطاء و التاء و الدال و الباء و يجمعها في اللفظ قولك : أحدك طبقت . (5)

* و الرخوة ثلاثة عشر و هي : الهاء و الحاء و الغين و الخاء والشين و الضاد والصاد و الزاي و السين و الظاء و الثاء و الذال والفاء ، و ذلك إذا قلت : الطش و انقض و أشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت(6) و كأنه خير الناطق بين إجراء الصوت أو عدمه ، و بين هاتين الصفتين نجد صفة التوسط ، و هو الذي بين الشدة و الرخاوة ، و معناه في اللغة الاعتدال . (7)

و الحروف المتوسط هي: ل – م – ي – ر– و– ع – ن– ا.

و من ههنا نجد المصطلحين الشدة و الرخاوة يتناوبان على الأصوات المجهورة و المهموسة ، و يمكن وضعها في الجدول التالي :

1. اللسان – رخا – 181/5 – الرخوة و الرخاوة و الرخو: الهش من كل شيء و بالكسر أشهر.
2. الكتاب – سيبويه 434/4 – و انظر صناعة الإعراب 61/1 .
3. المصدر نفسه و انظر لسان العرب – شدد – 55/7 .
4. أحكام قراءة القرآن خليل الحصري ص 87 .
5. برضاعة الأعراب 61/1 – و أنظر لسان العرب – شدد – 55/7 .
6. الكتاب 434/4 و انظر اللسان رخا 181/5 .
7. المعجم الوسيط – وسط – إبراهيم أنيس و آخرون – 1031/2 .

الجهر		التوسط	الهمس	
الشدة	الرخاوة	ل – م –ي	الشدة	الرخاوة
أ – ج – د– ط – ب – ق	غ – ض – ز – ظ – ذ	– ر – و– ع – ن – ا	ك – ت	هـ – ح – خ – س – ش – ص –ث – ف

ج – الأصوات المستعلية و المنخفضة :

و معنى الاستعلاء : " أن تصعد في الحنك الأعلى فأربعة منها فيها مع استعلائها إطباق ، و أما الخاء و الغين و القاف فلا إطباق فيها " . (1)

و عن الإطباق يوضح ابن منظور : " أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى ، ثم يردف قائلا : و لو لا الأطباق لصارت الطاء دالا و الصاد سينا و الظاء ذالا و أخرجت الضاد من الكلام ، لأنه ليس من موضعها شيء غيرها " . (2)

ثم أحصاها فقال " و الحروف المطبقة أربعة : الصاد و الضاد و الطاء و الظاء و ما سوى ذلك فمفتوح غير مطبق " .

و هكذا فالأطباق في اللغة العربية نوع من الاستعلاء ، فإذا أردنا الازدواج و المقابلة في الإطباق و الترقيق من مخرجها وجدناها ثلاثة أصناف هي : (ظ ≠ ذ) ، (ط ≠ د) (ص ≠ س) ، أما الضاد فلا مقابل لها ، و هو غريب عن اللغات إلا العربية لذلك العربية به ، و يقابل الحروف المستعلية الحروف المنخفضة أو المستقلة و هي الأصوات التي يستقل اللسان عند لفظها إلى الحنك الأسفل ، و هي 22 حرفا.

د – أصوات الذلاقة و الاصمات :

و الذلاقة : هي حدة اللسان و بلاغته و ذرا بته(3)

1. سر صناعة الإعراب – ابن جني 62/1 – و انظر صبحي الصالح – فقه اللغة ص 282 .
2. لسان العرب – طبق – 121/8 .
3. مقاييس اللغة – ابن فارس – ذلق

و الذلق : " طرفه المستدق " . (1)

- و اصطلاحا : " خفة الصوت و سهولة النطق " . (2)

* و سميت هذه الحروف ذلقا ، لان الذلاقة في المنطق إنما هي بطرف أسلة اللسان و الشفتين و هما مدرجتا الأحرف الستة ، منها ثلاثة ذلقية و ثلاثة شفوية . (3)

و يوضح ابن منظور في عدم خلو البناء الرباعي أو الخماسي في العربية من أصوات الذلاقة و ذلك لخفتها و سهولتها .

فيقول : " متى وجدت كلمة معراة من بعض هذه الحروف الستة فاقض بأنه دخيل في كلام العرب و ليس منه " . (4)

- أما الاصمات : فمعناها لغة " المنع لأنه من صمت إذا منع نفسه من الكلام " . (5)
- و اصطلاحا : " منع انفراد هذه الحروف أصولا في كلمة تزيد عن ثلاثة أحرف بأن كانت أربعة أو خمسة " . (6)

و علة ذلك أن هذه الحروف صعبه على اللسان ن و هي الحروف الهجائية الباقية عدا الستة المذلقة .

هـ – <u>الإطباق و الانفتاح :</u>

سبق و أن عرفنا الإطباق و عددنا حروفه ، و نبين أن الإطباق ذات أثر بالغ في عملية التشكيل الصوتي و خاصة الإبدال . و يقابل مصطلح الإطباق الانفتاح .

1. جمهرة اللغة – ابن دريد .
2. الخليل – العين – 51/1 – انظر لسان العرب – ذلق – 54/5 .
3. المصدر نفسه – انظر سر صناعة الأعراب 61/1 .
4. اللسان * ذلق 54/5 .
5. اللسان – صمت – 400/7 .
6. أحكام القرآن محمد خليل الحصري ص 96 .

لقد عرف ابن منظور الانفتاح بقوله : " فالانفتاح من انفتح نقيض الإغلاق " . (1)

و سميت الحروف منفتحة لأنك " لا تطبق لشيء منهن لسانك ، ترفعه إلى الحنك الأعلى " (2) و عددها خمسة و عشرون .هكذا هي الصفات التي تتميز بها الأصوات العربية ، و هذا حسب التقابل ، أي أن لكل صفة ضدها و هي خمس صفات و ما يقابلها كذلك ، غير أن هناك أصواتا تميزت بصفات مميزة لا ضد لها وهي :

ثانيا : الصفات الافرادية :

أ – الصفير : ورد في اللسان الصفير : من الصوت بالدواب إذا سيقت ، وصفر يصفر صفيرا وصفر بالحمار وصفر دعاه إلى الماء .... وصفر الطائر يصفر صفيرا أي مكا . (3)

وظف ابن منظور هذا المصطلح للدلالة على ميزة تختص بها مجموعة من الأصوات و هذه الميزة هي الحدة و الشدة و الوضوح السمعي.و هذه الأصوات هي: الصاد و السين و الزاي، مخرجها من أسلة اللسان و الصفير نسبة للصفة. (4)

ب – التفشي: صفة الشين تتميز بكثرة انتشار الهواء بين اللسان و الحنك." و لو لا التفشي لصارت الشين سينا ، كما يحدث لبعض ذوي العيوب النطقية و لا سيما الأطفال الذين لا يجدون عناية ممن حولهم " . (5) يقول ابن الجزري : " و حرف التفشي هو الشين اتفاقا لأنه تفشى في مخرجه حتى اتصل بمخرج الطاء ، و أضاف بعضهم إليها الفاء " . (6)

1. اللسان – فتح – 170/10 .
2. الكتاب سيبويه 434/4 .
3. اللسان صفر – 361/7 .
4. المصدر نفسه 265/7 .
5. الأصوات اللغوية – عبد القادر عبد الجليل ص 275 .
6. النشر في القراءات العشر – ابن الجزري 205/1 .

ج – الاستطالة : و هي امتداد الصوت بالضاد من أول حافة اللسان إلى آخرها . (1)

د – التكرار : صفة تطلق على صوت الراء في اللغة .

و يذهب ابن منظور أن المكرر من الحروف " الراء ، و ذلك لأنك إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتغير بما فيه من التكرير " . (2)

هـ – الانحراف : (الجانبي) : latérale . و الانحراف لغة : تعني انحرفت عن الشيء و حرفته أنا عنه. إذا عدلت به عنه " (3) يعبر عنه في الدرس اللساني الحديث بالجانبي .

و – القلقلة : معناها لغة : " الحركة و الاضطراب " . (4)

يقال: قلقل الشيء قلقلة وقلقالا أي حركه فتحرك و اضطرب . (5)

و حدد ابن منظور القلقلة في الحروف التالية : (الجيم و الطاء و الدال والقاف و الباء) و علل التسمية لكونك " لا تستطيع أن تقف إلا مع الصويت لشدة ضغط الحرف ، و بعض العرب أشد صوتا كأنهم الذين يرومون الحركة " . (6)

و علل بعض اللغويين المحدثين اختصاص هذه الحروف بالقلقلة لكونها جمعت بين صفتي الجهر و الشدة، و ذكروا أن القلقلة نوعان كبرى أو قوية حين تكون في نهاية الكلمة عند الوقوف ، و صغرى عندما تكون داخل الكلمة . (7)

1. دراسات في فقه اللغة – صبحي الصالح 283 .
2. اللسان – كرر – 64/12 .
3. المقاييس – ابن فارس حرف .
4. اللسان – قلل – 290/11 .
5. المصدر نفسه .
6. الكتاب – سيبويه 174/4 . و أنظر لسان العرب – قلل 290/11 .
7. الدراسات الصوتية و اللهجية عند ابن حني – حسن سعيد النعيمي ، و انظر محاضرات في فقه اللغة الزبير دراتي ص 69 – د. م.ج. وهران.

ز – الاشراب : تعني لغة خلط لون بلون كأن أحد اللونين سقى اللون الآخر،وقال بعض النحويين من المشربة حروف يخرج معها عند الوقوف عليها نحو النفخ ، إلا أنها لم تضغط المحقورة .... و بعض العرب أشد تصويتا.(1)و من المشربة نوعان:المتقلقلة سبق ذكرها و المنفوخة وأصواتها:الزاي، الظاء ، الذال و الضاد وقد عبر عنها سيبويه بقوله : " اعلم أن من الحروف حروفا مشربة ضغطت من مواضعها،فإذا وقفت خرج معها من الم صويت و بنا اللسان عن موضعه،وهي حروف القلقلة " . (2)

و يكون الجهد المبذول في النوع الثاني أقل من سابقتها ، لأنها لم تضغط ضغط المتقلقلة لافتقارها إلى الشدة و نتيجة لرخاوتها لا تتبع بصوت و إنما بنفخ . (3)

ح – المهتوت : صفة تطلق على الهاء لما فيها من الضعف و الخفاء . و يوضح ابن جني بقوله : " و من الحروف المهتوت ، و هو الهاء و ذلك لما فيها الضعف و الخفاء " . (4)

ط – الغنة : صوت في الخيشوم (5)، و هي أن يجري الكلام في اللهاة و هي أيضا أن يشرب الحرف صوت الخيشوم. و يرى إبراهيم أنيس أنها " صوت الحرف من الخيشوم(6) و حروفه الميم و النون لأنه يعتمد لهما في الفم و الخياشيم فتصير فيهما غنة " . (7)

و لعل من نافلة القول أن ندرج أن مؤلفات المحدثين في علم الأصوات لا تخلو من التوسع في شرح و تبيان مخارج الحروف و صفاتها التي منها القوي والضعيف ؛ فصفات القوة تجلت في الجهر والشدة و الاستغلال و الإطباق و الاصمات و الصفير و القلقلة و الانحراف والتكرار و الغنة و صفات الضعف بقيت في الهمس و الرخاوة و الاستعلاء و الانفتاح و الذلاقة و الخفاء ، و قد أضافوا الجديد و ابتكروا بذلك مصطلحات صوتية تعين على توضيح ما يقع بين الأصوات صامتها و صائتها كمصطلح الانهجارية والاحتكاكية مثلا .

1. الكتاب – سيبويه – 174/4 – سر صناعة الأعراب – ابن جني – 63/1 . و انظر اللسان – شرب 67/7 .
2. / 3. المصدر نفسه .
4. سر صناعة الأعراب – ابن جني 64/1 .
5. اللسان – غنن – 134/10 .
6. / 7 الأصوات اللغوية إبراهيم أنيس .

التشكيل الصوتي : يعرف التشكيل الصوتي بأنه تغيير و تلوين يلحقه الصوت المدرك فيغير أصل مادته ، كالإدغام و الإبدال و القلب أو يغير صورته النطقية فقط ، أو الدلالية كالتفخيم و الترقيق و الإمالة ، و من ثمة فهو أشكال متنوعة تلحق الصوامت و الصوائت معا .و من أشهر تشكيلات الصوامت و تلويناتها .

1. المماثلة الصوتية: (الإدغام) يعني لغة "إدخال اللجام في أفواه الدواب " .(1)

و منه اخذ المعنى الاصطلاحي إذ نجده في قول الأزهري(ت 370 ه)" و إدغام الحرف في الحرف مأخوذ من هنا " . (2) و يرتبط التعريف اللغوي لدى القدامى بما ألفه العربي من عيش البداوة و ركوب الخيل و الشد بلجامها لكبحها ، فما انفك تعريفهم يذكر حال الحرف المدغم و انتقال في النطق إلى المدغم فيه مشبهين عملهم في الأداء بإدخال اللجام في فم الفرس .

تتركب لفظة دغم من حروف ثلاثة حروف . الدال ، الغين و الميم و تتصف كلها بالجهر ، أما إذا كانت مزيدة فتصير (أدغم) . و الصيغة الثلاثية – دغم – و إن تشابهت حروفها جهرا ، اختلفت في باقي الصفات ؛ فالدال شديدة و الغين رخوة و الميم متوسطة و تنفرد (الغين) بالاستعلاء(3) ، و تتقاسم الدال و الميم الاستفال و تختص (الميم) بفضيلة الغنة(4) ، و بالرجوع إلى المخرج فهي شفوية خيشومية .

و كأن الغين إذا وقعت في الكلمة دلت على الخفاء . (5)

1. / 2. التهذيب الأزهري 78/18 . و انظر اللسان دغم . 366/4 .
3. اللسان – غين – 162/10 .
4. / 5 . المصدر نفسه . 134/10 ، 151/10 .

لذلك كان من صفات الحرف المدغم أنه يخفي في المدغم فيه أو يكاد .

" و الدغمة في الخيل : أن يخالف الوجه لون سائر الجسد ، و لا يكون إلا سوادا و من هذا الباب دغمهم الحر ، إذا أغشيتهم لأنه يغير الألوان و كذلك دغم الغيث الأرض إذا غيشها لأنه يغير من لونها " .(1) و في حديث ابن منظور عن لفظة – دغم – إشارة صوتية واضحة للدلالة إلى التغير الذي طرأ على اللفظة من خلال حديثه عن التغيير اللوني عند البشر بسبب إصابتهم بالحر الشديد الذي يغير من بشرة الإنسان و ميلها نحو السواد وكذلك الغيث إذا غشي الأرض فانه يغير من لونها المعتاد .

و يمكننا القول إن ابن منظور ابن بيئته ، لأنه استقى الأمثلة من الواقع البيئي لتعليل الظاهرة الصوتية و هي ميزة قلما نجدها عند المعجميين و درس اللغويون المحدثون الإدغام تحت مصطلح المماثلة . فهذا ابن إبراهيم أنيس قد استخدم مصطلح فناء في تعريفه بالظاهرة " فناء الصوت في الصوت آخر هوس اصطلح عليه القدماء على تسميته بالإدغام " . (2)

و قال آخر : " فإذا التقى في الكلام صوتان من مخرج واحد أو من مخرجين متقاربين و كان أحدهما مجهورا ، و الآخر مهموسا مثلا ، حدث بينهما شد وجذب كل واحد فيها يحاول أن يجذب الآخر ناحيته و يجعله يتماثل معه في صفاته كلها أو بعضها " . (3)

و يرى أحدهم أن : " التماثل اللغوي هو اتحاد صامتين اتحادا تاما في المخرج و الصفة و لا يتحقق ذلك نظريا ، إلا بتكرار الصفات بنفسه ، و ضرب بذلك مثلا في (امدد يدك و اغضض من صوتك) ففي هاتين الصيغتين تكرر الصامت نفسه مرتين ، الدال في الأول ، و الضاد في الثانية و إذا وقع ذلك كان ثقيلا على ألسنة الناطقين ،

1. اللسان – دغم – 366/4 .
2. الأصوات اللغوية – إبراهيم أنيس ص 182 .
3. التطور اللغوي – رمضان عبد التواب ص 22 .

فتحصلوا منه بإدماج الصوتين المتماثلين في بعضهما ابتغاء الخفة في النطق و الاقتصاد في الجهد ، فقالوا (مد و غض) . (1)وظف المؤلف لفظ اتحاد صامتين و اشترط أن يكون اتحادا تاما في المخرج و الصفة و ضرب لذلك مثلا و تمثل علة الظاهرة في ثقل النطق ورام من ورائها الخفة و الاقتصاد في الجهد .

- شروط الإدغام : اشترط علماء اللغة ألا يذهب الإدغام بطائفة من الصفات التي امتاز بها الصوت العربي . قال المبرد : " الإدغام لا يبخس الحروف و لا ينقصها " . (2)

و بالنظر إلى هذه النظرة في العلة هو لإدغام في أصوات ذات صفات مميزة حتى لا تبخس هذه الأصوات فضيلتها و هي على سبيل المثال لا الحصر .

- السين و الصاد و الزاي لها فضيلة الوضوح لصفيرها .
- الشين و الضاد لهما فضيلة التفشي و الاستطالة .
- الراء لها فضيلة التكرار .

و لما كان الإدغام اختزال حرفين في حرف واحد و تحويل المدغم إلى جنس المدغم فيه ، فان اللسان يكون قد عالج هذه الصعوبة (الثقل) ليرفع عنه الثقل ، وذلك بأن يرتفع بالصوتين معا بعد ادغامهما يدل تكرار العمل و ذلك أثقل عليه .

- إجراء الإدغام : يجري الإدغام في الكلمة الواحدة كما يجري في الكلمتين المنفصلتين ، و ذلك بإدغام المثلين أو المتقاربين في المخرج أو المتشبهين في الصفات .

و هو باب واسع لدخوله في جميع الحروف ما عدا الألف اللينة . (3)

1. المجمل في المباحث الصوتية من الآثار العربية . د مكي دراد ص 112 – دار الأديب .
2. المقتضيب – المبرد 211/1 .
3. شذا العرف في فن الصرف – الشيخ الحملاوي – ص 128 .

و يتفرع إلى ممتنع و واجب و جائز .

أ / **الإدغام الممتنع** : و هو ما أفاد الإلحاق نحو " القردد ، و إنما أظهروا التضعيف لأنه ملحق بفعلل و الملحق لا يدغم " . (1)و تعليل عدم إدغام الملحق ورد أيضا في قول المبرد " ما كان من حرفين من جنس واحد فلا إدغام فيها إذا كانت في ملحقات الأسماء لأنها تنقص ما ألحقت به نحو: قردد و مهدد،لأنه ملحق بدعفر"(2).و في الأفعال نحو : جلبب وهيلل. (3)

ب / الإدغام الواجب : يجب الإدغام في الكلمة إذا سكن أول المثلين و تحرك الثاني نحو " مد ، و شد بالفتح ، و مل بالكسر ، لأن أصله ملل ، و حب بالضم أصله حبب ، و كذلك إذا تحركا معا ، إن لم يكن في الكلمة ما يدعو للإظهار " . (4)

ج / الإدغام الجائز : يجوز الإدغام كما يجوز الإظهار فيما كان من الأفعال عينه تاء على (افتعل) إذ تلتقي تاءان متحركتان نحو " اقتتلوا ، قتلوا و قتلوا " . (5)

إذا كان الإدغام هو تجاور صوتين متماثلين في صيغة واحدة أو في صيغتين متجاورتين ، فان التجانس هو نصف حال التماثل في أبسط تعريف له ، و معنى نصف حال التماثل (الإدغام) ، لان التجانس يقع عندما يتجاور صوتان متحدان في الصفة في الصفة أو في المخرج فقط ، أي وجود صامتين متحدين إما في الجانب الفيزيائي (الصفة) أو في الجانب االفيزيولوجي(المخرج) فقط . و يغلب على العملية الجانب الأول في مثل (افتعل) نحو (اضطرب ، ازدهر ، ادعى) .

1. الكتاب – سيبويه – 224/4 – و انظر لسان العرب – قرد 96/11 .

2. المقتضب – المبرد – 204/1 . و انظر اللسان – كندر 165/12 .
3. اللسان – 317//2 .
4. شذا العرق في فن الصرف – الشيخ الحملاوي ص 128 .
5. الكتاب – 443/4 – المحكم – قتل – 203/6 – انظر اللسان 34/11 .

2. **التجانس (الإبدال)** :

صيغة افتعل : يأتي التعبير بصيغة افتعل لأغراض و معان فنية ، منها ما يناسب السياق : الاجتهاد الطلب و التصرف و المبالغة في معنى الفعل . (1)

و تعد (التاء) في هذه الصيغة مزيدة و قد يتناسب مع صيغ أخرى و يتحكم في ذلك نوع الحرف الذي هو (فاء) " فعل " فإذا كان فاء " فعل " مثلا باء أو نونا أو قافا جاز تركيبها معها دون اللجوء إلى الإبدال من حروف أخرى نحو :

– ابتدأ من (بدأ) – و انتفع من (نفع) و اقتنع من (قنع) .

أما إذا كانت فاء الفعل واحدة من طروق الإطباق الأربعة أو جاءت زايا أو دالا أو ذالا أو واوا أو ياءا فإنها تبدل حرفا يشاركها في المخرج و يتحد مع فاء الفعل في الصفة نحو :

(اصطبر) من (صبر) ، (اضطرب) من (ضرب) ، (اظلم) من (ظلم) ، (اطلع) من (طلع) ، (ازدحم) من (زحم) ، (اذدكر) من (ذكر) ، (اتصل) من (وصل)

و (اتسر) من (يسر) و أصلها تاء في هذه الصيغ على وزن (افتعل) .

1. الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم – د : عبد الحميد احمد يوسف هنداوي ص 130 .

1) صيغة افتعل :

تحليل مكونات الصيغة و تعليلها صوتيا	الصيغة استعمالا	أصل الصيغة	الصيغة الثلاثية	الصيغة	الرقم
أبدلت التاء طاء لانهما من مخرج واحد و أن فاء الفعل (صاد) حرف مطبق يناسبه حرف مطبق مثله و هو (الطاء) لينسجم الصوتان (الصاد و الطاء) .	اصطبر	اصتبر	صبر	اصطبر	1
أبدلت التاء دالا لأنهما من مخرج واحد ورد فاء الفعل (زاي) حرف مجهور ، لا يناسبه (التاء) لأنه حرف مهموس ، فلا بد له من حرف آخر يناسب الزاي في الجهر و يكون من مخرج التاء . و هو (الدال).	ازدان	ارتان	زان	ازدان	2
أصل الصيغة اظتلم – قلبت (التاء) طاء لتوافق (الطاء) (الظاء) لأنهما مطبقان أولا ثم أدغمت الطاء فيالظاء .	اظلم	اظتلم	ظلم	اظلم	3
إذا كانت فاء الفعل مجهورة (الذال) (فالتاء) المهموسة لا تنسجم معها . لا بد من البحث عن حرف ينسجم مع (الذال) في الجهر و يكون من مخرج (التاء) وجدنا (الدال) . هذا أولا – و لكن الدال قريبة من الذال مخرجا و لكنها أقوى منها لأنها شديدة و الذال رخوة فصارت الصيغة (ادكر) .	اذذكر *	اذتكر	ذكر	اذكر	4
قلبت التاء (طاء) لأنها من مخرجها و هذا لتناسب الضاد ، لأنهما حرفان مطبقان .	اضطجع	اضتجع	ضجع	اضطجع	5
قلبت (تاء) افتعل (طاء) لتنسجم مع (فاء) الصيغة ثم ادغمت في (الطاء) الثانية .	اطتعن	اطتعن	طعن	اطعن	6
قلبت الواو ثاء ثم أدغمت في التاء الصيغة.	اتعد	اوتعد	وعد	اتعد	7

هذه هي المراحل التي يتم قطعها في عملية الإبدال تحقيقا للانسجام الصوتي في السياق وتحقيقا لمبدأ الاقتصاد في الأداء و الانسجام في الإيقاع .

* في صيغة (ادكر) يؤثر الصامت الأول في الثاني ، لأن الصيغة الثلاثية (ذكر) و الصيغة المزيدة (اذتكر) ، وقع تنافر بين التاء المهموس و الذال المجهورة فتأثرت التاء بجهر الذال ، فعادت مجهورة مثلها تحقيقا للانسجام ، و التاء إذا جهر تحولت إلى (دال) لأنها من مخرجها فتصير الصيغة الجديدة (اذدكر) .

و كذلك تؤثر – الدال – في الذال ، لأن الدال شديدة ، و الذال صامت رخو ، و بذلك تتحول إلى (دال) ثم تدغم الدالان فتكون – ادكر – . (1)

2) صيغة الفعل :

يرد الإدغام في صيغة (انفعل) إذا كانت الميم هي فاء الفعل و ذلك في مثل – امحى أصله انمحى ، و الميم و النون متقاربتان . قال سيبويه " و تدغم النون مع الميم لأن صوتها واحد و هما مجهوران " . (2)

و تأتي هذه الصيغة لمعنى واحد المطاوعة ، و المطاوعة عند علماء التصريف هي قبول الأثر ، و ذلك فيما يظهر للعيون كالكسر و القطع و الجذب . (3)

1. الأصوات اللغوية – إبراهيم أنيس – ص 211 .
2. الكتاب سيبويه 4/ 452 .
3. شرح شافية ابن الحاجب 108/1 .

3) صيغة تفاعل :

ورد في اللسان : درأ و تدارأ القوم : تدافعوا في الخصومة و نحوها و اختلفوا و المزيد في الفعل : ادرأ ، و أصله تدارا على وزن تفاعل حيث أدغمت التاء في الدال ، ثم اجتلبت همزة الوصل ليصح الابتداء بها . (1)

و منه قوله تعالى " و إذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها " (2) أي اختلفتم و تدافعتم ؛ و في الجذر (سأل) ورد قوله تعالى " و اتقوا الله الذي تساءلون به و الأرحام " (3) . فمن قرأ تساءلون فالأصل تتساءلون ، قلبت التاء سينا لقرب هذه من هذه و أدغمت فيها .

4) صيغة تفعل : ورد في معجم لسان العرب " تزينت الأرض بالنبات و أزينت و ازدانت ازديانا و تزينت و ازيانت و ازينت أي حسنت و بهجت " (4)

تقول: " ازينت الأرض بعشبها و ازينت مثله،و أصله تزينت فسكنت التاء و أدغمت في الزاي " . (5)

و في التنزيل : (يا أيها المزمل) (6)و أصل المزمل . المتزمل . و التاء أدغمت في الزاي لقربها منها " (7).

و دلالة تزمل تلقف .

ترد هذه الصيغة لمعان مما يناسب السياق كالتكلف و التدرج في الشيء .

4) صيغة فنعلل : مثل ابن منظور لهذه الصيغة بهمرش : العجوز المضطربة الخلق .

1. اللسان درأ – 4 / 314 .
2. سورة البقرة الآية 72 .
3. سورة النساء البية 1 .

4. الكتاب 475/4 المقتضب 1 /242 – اللسان – زاين 6 /129 – 130 .
5. اللسان – زاين 6 /130 .
6. سورة المزمل الآية 1 .
7. الكتاب 4 /462 – التهذيب زمل 13 / 222 – اللسان – زمل – 83/6 .

جاء في قول ابن سيدة : جعلها سيبويه مرة فنعلا و مرة فعلال ، و رد أبو علي أن يكون فنعلا و قال : " لو كان كذلك لظهرت النون لأن إدغام النون في الميم من كلمة لا يجوز "(1).

و قيل أصله همرش (2).

تبين لنا من خلال هذا العرض أن ابن منظور قد أولى عناية كبيرة لظاهرة الإدغام بحيث تتبع مسارها و صنفها إلى ما هو واجب فيها و جائز و ممتنع ، و راعى في ذلك جملة من المقاييس كتقارب الحروف أو تباعدها أو تجانسها ، و نبه إلى استحالة إجراء الإدغام في بعض الحروف معللا ذلك بقرب مخارجها و لثقلها النطقي موضحا أن الإدغام وظف قصد تسهيل النطق و تخفيفه على اللسان و تذليل الصعوبات و اختصار الجهد المبذول و صحح بعض العيوب النطقية و خاصة عند الأطفال .

1. المصدر نفسه و انظر اللسان همرش 15 /131 .
2. برامج شرح الشافية 273/3.

الحرف العربي: الصوت والدلالة

الدكتور: بوجمعة الوالي
جامعة البليدة

حدّ اللغة، في أبسط تعريف لها، أنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" التعريف لابن جني. ومن وظائفها، تتقدم وظيفة التبليغ أو الإخبار، كأن تقول:" حان وقت العشاء". وتليها وظيفة جمالية تظهر في مرحلة من مراحل اللغة؛ أي في مستوى تنتقل فيه اللغة من مستوى الحديث اليومي (النفعي) إلى مستوى فوق عادي؛ أي مستوى الحديث الإبداعي (الفني) كالشعر مثلا...

ظاهرة اللغة، شغلت – منذ القديم – الفلاسفة في أصل نشأتها. وقد انقسمت الآراء حول هذه النشأة: ففريق يميل مع الرأي الذي يرى أنها إلهام وتوقيف من الخالق؛ حيث يرتبط الاسم بمسمّاه في علاقة تلازم وتوحّد. وفريق آخر يرى في أن اللغة تواضع واصطلاح، وأن العلاقة بين الدال ومدلوله قائمة على الاعتباط والتعسف؛ إذ تنعدم الصلة بين ذات الشيء والصورة اللفظية (الصوتية) الدالة عليه؛ فلا يوجد رابط بين كلمة " قلم " و هذا القلم الذي بين يدي الآن... وهاهم النحاة العرب قد اقتفوا أثر الفلاسفة القدامى، وانقسموا فريقين: " ابن فارس" يرفع راية المؤيدين لنظرية الإلهام، مستندا إلى الآية الكريمة" وعلم آدم الأسماء كلها "(1) وتصبح الأسماء عنده وقفا على مسمياتها. أما "ابن جني " فيناصر نظرية الاصطلاح؛ مؤولا الآية السابقة، أن الله أوجد القدرة عند الإنسان لاكتشاف اللغة واصطلح الناس فيما بينهم على وضع الأسماء للأشياء والأفعال. ورفضوا علاقة التلازم بين الدال والمدلول، إلا ما جاء محاكاة لبعض الأصوات: كزقزقة العصافير وخرير المياه ورنين الجرس...

الأصل في نشأة اللغة، الاعتباط والتعسف، تداولت فيما بين الناس تداولا توافقيا. واصطلحوا على وضع اللفظ لذات الملفوظ؛ ومن هنا يأتي تبرير تسرب الخطإ إلى اللغة(2) والعجز في دقة تحديد ذات الشيء؛ فكلمة "جون " صفة للأسود والأبيض معا. وكلمة " عين " تحيلك إلى مدلولات متعددة: عين (العضو) وعين (مصدر الماء) و"عين" الشيء و"عين" الحسد...

إني أتساءل: كيف استقر في ذهن بعض الباحثين الاعتقاد في توقيفية اللغة وأصروا على تأييد نظرية الإلهام في تشكل اللفظ ضمن هيأة يكون فيها دالا على معناه، وصوت الحرف في الكلمة له دلالته في تحديد المعنى، و بنوا هذا الرأي على اجتهادات " ابن جني " في القيام بعملية جرد انتقائي لبعض الكلمات في اللغة

العربية التي صادف وأن تضمنت حروفا معينة كحرف " الغين " وحرف " الراء". وإليك بعض تلك الأمثلة التي ساقها " ابن جني" والتي أعاد الاستدلال بها صاحب مقال " الصوت لفظا ومعنى "(3) سعيا وراء إظهار قيمة هذه الأحرف التعبيرية وتضمنها لمعنى الاستتار والاحتجاب: غاب. غار. غال. غام. غاث... وأكتفي بهذه الأمثلة؛ لأترك للقارئ فضل الرجوع إلى القواميس ليتبين له أن هذه الكلمات قد اختيرت بعناية، كما لعبت فيها الصدفة دورا رئيسا؛ كي تجسد استنتاجهم القائم على وجود دلالة للحرف في اللفظ. ولتفنيد هذا الرأي، نثير السؤال الآتي: بم نفسر القصدية والتعمد في إغفال أو إقصاء ذكر كلمات مماثلة وليس تدل على معنى الاستخفاء؟ فمثلا: غدق 'في العطاء': أكثر غدف: كثر غرن "الغصن": تمايل غرل " الصبي": لم يختن والأمثلة كثيرة لا داعي لذكرها كلها. ثم أيمكن العثور على تعليل لوجود كلمات تدل صراحة على معنى الاختفاء والاحتجاب، وهي خلو من حرفي " الغين " و" الراء " ؟ والكلمات: حجب، أخفى، موّه، ستر... دليل آخر على تعطيل الرأي الذي يرى الحرف وقفا على معناه. وكذلك نجد هؤلاء النحاة قد حصروا أمثلتهم داخل دائرة الأسماء فقط؛ فأين نصيب الأفعال من تلك الخواطر والتخريجات؟ فالأفعال:" رسم، ركب، رأى، رفع، ردم... لا نجد لحرف " الراء " – القاسم المشترك بين هذه الأفعال – أية سلطة في تقريب تباين دلالة هذه الأفعال. ونتساءل مرة أخرى: لماذا تجنب هؤلاء النحاة الإشارة إلى الألفاظ التي اشتركت في احتواء هذه الحروف في (رويها) ككلمات: فرغ، لدغ، نبغ، مضغ ... هل أثر حرف "الغين" في فرض تقارب في معنى هذه الكلمات ؟ إني أسأل. لقد اهتديت – وأنا بصدد البحث عن دليل – إلى آية في القرآن الكريم، لم يلتفت إليها النحاة – في حدود ما أعلم – استأنستها بها؛ لتعليل اعتباطية العلاقة دليل/مدلول. يقول تعالى في سورة الروم:".. و من آياته خلق السماوات والأرض. واختلاف ألسنتكم وألوانكم. إن في ذلك لآيات للعالمين"(4). ففي هذه الآية مربط الفرس وبيت القصيد كما يقال. تعدد لغات البشر وتباين منطقهم، آية من آيات الخالق كاختلاف لون بشرتهم وتمايزها. وأنا لا أريد أن ينصرف ذهن القارئ إلى أني استحضرت هذه الآية لأظهر طلاقة القدرة الإلهية التي جعلت من النفس الواحدة، تعددها وتماثلها. وذلك جلي واضح من ظاهر الآية؛ لكني قاصد تأويلها محاولا فك إشكالية التضارب في الآراء حول توفيقية اللغة وتوقيفية نشأتها: اللغة كالعملة التي يتداولها البشر فيما بينهم؛ فيها وجهان: وجه الوقف والإلهام ووجه الوضع والاصطلاح.

وكما أنه لا يملك البشر القدرة على التحكم في لون بشرتهم؛ فكذلك يكون الأمر في حيال الناس دون تعدد ألسنتهم واختلاف لغاتهم وقسرهم على التخاطب بلغة واحدة. فمشيئة الله أرادت هذا التعدد والاختلاف.

إذن نشأة اللغة وتعددها إلهام، ومن توقيفية تعددها يأتي الاصطلاح والوضع؛ فذات الأشياء واحدة ومسمياتها مختلفة في لغات سكان المعمورة: فتجد مثلا كلمة " كتاب " في العربية تقابلها كلمة " Livre" بالفرنسية و"Book " بالإنجليزية. ولفظ "بيت " يقابله " Maison " بالفرنسية و"House " بالإنجليزية و" Casa" بالإسبانية... فليس لهذا التباين في الأسماء سوى إثبات تعسفية الصلة بين اللفظ وذات الملفوظ. وكل هذه الأمثلة التي سقناها، تدعم رأينا في نفي التلازم بين الدال والمدلول، كما تلغي صفة التشاكل بين هذه الألفاظ الدالة على شيء واحد. يبقى – من هذا المنظور – الربط بين الصورة الصوتية للفظ وصورته المادية، ربطا عرفيا تواضعيا صرف. فما بال الرهان على إسناد الدلالة إلى بعض أصوات الحروف المؤلفة لبعض

الكلمات، إذا كانت الكلمة في ذاتها تبقى محصورة في طبيعة دلالتها الإشارية التعسفية؟ فانظر معي إلى سور آي القرآن الكريم التي تستهل ببعض الحروف: ((ن))، ((يس))، ((الم))،((كهيعص))... فإذا جاز اللجوء إلى التأويل، فإني أذهب إلى أن الحرف لا يدل على أي معنى في ذاته؛ مفردا أو مثنى أو جمعا. فهي (الحروف) – في هذا الوضع – لا تعدو كونها أصواتا لا دلالة لها. لكن أنظر إليها لو أنها ضمت أو نظمت وفق تركيب ونظام خاصين؛ فإنك ستحصل على عدد من الأسماء والأفعال والحروف والظروف، تعرض عليك الكثير من المعاني والأفكار، تثبت أو تتحرك حسب الوضعية التي تحتلها داخل نظام اللغة التواضعي. ثم ما الذي صرف اهتمام هؤلاء الباحثين عن التعرض إلى الكلمات التي تتقاطع في حروفها من آخرها ؟ والأمثلة كثيرة: ((لمع))، ((سمع))، ((قمع))، ((طمع))، ((دمع)) ... ((نبغ))، ((فرغ))، ((مضغ)) ، ((دمغ))، ((بلغ))... ما يبدو جليا، أنه لا أثر لأي تقاطع أو تقارب معنوي بين هذه الكلمات، وإن تجانست في بعض حروفها. ومرة أخرى، يظهر التعسف في إضفاء الدلالة على الحرف: مفردا أو مجتمعا. ولذلك استقر لدى بعض النحاة الرأي الفاصل أن " اللفظ لا يدل جزؤه على شيء من معناه "(5) وهذا واقع تعيشه جميع لغات البشر، بغير أن يكون هناك تفاضل فيما بينها؛ من باب تطابق دوالها بمدلولاتها. إن محدودية مخارج الحروف في جهاز التصويت، أدت إلى محدودية أخرى في عدد حروف اللغة. وهذه القلة الماثلة، لا يمكنها التعبير بمفردها على هذا الكم الهائل من المعاني. ويتعذر علينا أن نجد لكل هذه المعاني حرفا له خصوصية الدلالة على أي من هذه المعاني. في النهاية تبقى دلالة الاسم على مسماه " دلالة عرفية، اتفاقية، اصطلاحية"(6). ويبقى الإنسان مسؤولا عن هذا النظام الوضعي لظاهرة اللغة.

الهوامش:

1 – البقرة، آية: 30.

2 – حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.ط2/ 1980،ص 24.

3– يحيى عبد الرؤوف جبر،الصوت لفظا ومعنى،مجلة اللسان العربي،العدد.1993/37، ص 34–48

4 – الروم، آية، 22.

5 – محاضرات في علم النفس اللغوي، ص 60.

6– نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط6/ 2001، ص 85.

السعـادة في العبارات العربيّـة القديمة

الدكتور/ عبد الرزّاق بن عمر
المعهد العالي للعلوم الإنسانيّة بتونس.

يعدّ الحديث عن السعادة كلاما في موضوع مجرّد باللغة التي تمثّل في هذا البحث وسيلة توصلنا إلى هدف نسعى من ورائه إلى النظر في كيفيّة تصوير العبارات اللغويّة العربيّة لهذا المفهوم. فالمسألة تتعلّق حينئذ بحديث اللغة عن المتصوّرات و المفاهيم المجرّدة. و هو حديث لعمري يدقّق وظيفة من الوظائف الأساسية الكثيرة التي حُدّدت للغة منذ القديم ثمّ تبلورت إبّان ظهور البنيويّة. و من هنا نكون في حاجة بادئ ذي بدء في هذا العمل إلى بلورة بعض المنطلقات الأساسيّة التي تساعدنا في توضيح المقاصد و الأهداف.

فممّا لا شكّ فيه أنّ للغة وظائف كثيرة منها الإبلاغ و التعبير بفضل التنغيم و الإيقاع و ما إلى ذلك... و لكنّ الذي لا لبس فيه كذلك عند المهتمّين بالفلسفة و علوم اللغة منذ القديم هو أنّ اللغة تعكس نظام الفكر و تؤدّي مهمّة التعبير عن المفاهيم المختلفة و تنقل للإنسان معارفه وأحاسيسه و تجاربه في الحياة و الكون. ذلك أنّها نظام علامات من خصوصيّاتها القدرة على حمل تجربة معقّدة و المساعدة على تبليغها خلافا لبقيّة نظم الإشارات و لاسيّما لغة الحيوان التي يبقى مضمون البلاغ فيها بسيطا محدودا. و يعود هذا كما لا

يخفى إلى قدرة الإنسان على التجريد و إحداث الرموز القابلة للصياغة في بلاغات، بطريقة لا يماثله فيها أحد من المخلوقات.

و القول بنقل اللغة لنظام الفكر، بصرف النظر عمّا يثيره من جدل بين الفلاسفة و اللسانيين، يستند منذ نشأ عند الإغريق إلى ما يُلاحَظ من علاقة بين المفاهيم و أقسام الكلام (الإسم يقابل مفهوم الماهية/ الفعل يقابل مفهوم العمل و الحركة/ الصفة تقابل الكيف...) و ما يُدرَك من تناسب بين العلاقات داخل الجمل و الروابط بين الأفكار.

و من ثمّة يصبح النظر في السعادة باللغة من داخل اللغة مشروعا يدفع إلى التساؤل عمّا صوّرته

---

* البحث في الأصل يمثّل مداخلة في الندوة الوطنيّة لمعاهد دوز بتونس حول موضوع السعادة، دوز فيفري 2005.

اللغة من هذا المفهوم بمفرداتها و عباراتها لنتمثّل جانبا من حياة العرب و تفكيرهم. إلاّ أنّنا نظرا لضيق المساحة في هذا العمل، سنقتصر على عيّنة من العبارات القديمة المنتقاة من المعاجم اللغويّة.

1. مفهوم العبارة في اللغة

تذكر المعاجم اللغويّة أنّ التعبير عمّا في النفس هو الإعراب عنها و البيان و الكلام، عبّر عنه: تكلّم، و عبَّرَ الرّؤيا و عَبَرها: فسّرها و العبارة من ذلك و هي من العبور و الاجتياز (1) إلاّ أنّها في الاصطلاح، بصرف النظر عن مفهومها في النحو التقليدي (2)، تعني الملفوظ الدالّ من القول والكلام (2) مهما كان الشكل الذي تواردت فيه أ كان متضمّنا الإسنادَ أو مفتقرا له. و تعتبر العبارة من وحدات اللغة و عناصرها شأنها شأن الكلمة إذا كانت متواترة كثيرة في الاستعمال المشترك بين أفراد المجموعة اللغويّة الواحدة. فهي تساهم كالمفردات إذا دخلت في التركيب في تأدية وظيفة الإبلاغ، و هي لشدّة ترسّخها في المعجم تمتنع من التحويل ببعض الاختبارات البنيويّة و الدلاليّة. إذْ أنّنا في التعبير عن الخيبة مثلا، لا نستطيع استبدال مكوّنات العبارة: "رجع بخفّي حنين" بأخرى كأن نقول: رجع بحذاء حنين أو بخفّي زياد...، دون أن نحسّ بأنّنا ارتكبنا خطأ أو ابتعدنا عن المعنى إلى غيره. و هذا الاحساس ينشأ في الحقيقة من إحساسنا بالخروج عن المعيار واللغة في آن واحد.

و العبارات في مختلف اللغات كثيرة لأنّها تمثّل كما رأينا في الفقرات السابقة بشيء من التعميم في التحديد، كلّ ملفوظ من اللغة مستعمل للدلالة على معنى. وهي بذلك تشمل كلّ ضروب المتلازمات اللفظيّة الشفّافة المعنى و غير الشفّافة والتي تعرّف عادة بكونها "وحدات لغويّة تعبّر عن معناها بمكوّنين متعاقبين

متلازمين فأكثر و قد امتزجا و تواردا في شكل نحوي معلوم في اللغة"...(3) و هي تضمّ عديد الأنماط التي جمعت قديما في كتب معروفة هي المعاجم اللغويّة و كتب الأمثال و الكنايات و المجازات و ما إلى ذلك...

و رغم بعض الاختلافات بين تلك الكتب في ضمّ ضروب من العبارات إلى عبارات أخرى ليست من جنسها لتقارب المجموعات في الخصائص و لاسيّما التواتر فإنّ تصنيف ما يتوفّر عندنا في العربيّة من رصيد يفرز لنا كثيرا من الأنماط التعبيريّة التي نذكر منها:

– *الأمثال*: هي عبارات تحمل عصارة تفكير العرب و أخلاقهم و عاداتهم...، مثالها قولهم في الاستخبار عن الأمرين الخير و الشرّ أيّهما وقع؟: أُنْجُ سَعْد فقد قتل سُعَيْد و المثل يعود في الأصل إلى قصّةٍ تُنْسَب في الجاهليّة إلى ضبّة بن أُدٍّ و هي قصّة يُتَشاءم بها. و كذلك قولهم في السؤال عن الشيء أ هو ممّا يُحَبّ أم يُكْرَه؟: أ سعد أم سُعَيْد؟...

– *اللسنيّات*: (Les expressions idiomatiques / العبارات الاصطلاحيّة/ العبارات المسكوكة)

و هي غالبا ما تتوارد في موقع مكوّن من مكوّنات الجملة و تختلف عن الأمثال لأنّها لا تحتاج إلى قصّة تشرحها، أمثلتها كثيرة و منها قولهم: فلان في مِثْلِ حَدَقَة البعير أي في خصب و ماء كثير و كذلك: حلى في عيني إذا أعجبني و سرّني و كذلك: خضراء الدِّمَن في قول الرسول إيّاكم و خضراء الدّمن لوصف الحسناء في منبت السّوء...

– *الأدعية*: ليست من الأمثال و لكنّها جرت على الألسن في المناسبات و المقامات العديدة للدعاء بالخير أو الشرّ: بُرَّ حجّك (: قبله الله منك و كان مبرورا)، سقاك الله من حوض الرسول (: دعاء بالفلاح و النجاح في الآخرة)...

– *الأقوال السائرة*: يمكن أن نقيّدها في ما أُثِر عن الرسول و البلغاء و الفصحاء و المشهورين...، من أقوال و عبارات ذاع صيتها و تداولتها الألسن و منها قولهم: ليس لبني فلان ساعِدٌ أي ليس لهم رئيس يعتمدونه و كذلك قولهم في مقام التفاؤل: سَعِدَ جَدُّه أي أنماه... و ممّا يمكن أن يلحق بهذا الصنف ما يعرف منذ القديم بـ*الحكمة* كقولهم: إنّ في الشرّ خيارا و قولهم: البِطنَة تَأْفِن الفطنة و قيل تُذْهِب الفطنة... و المعنى في هذه الأقوال شفّاف يفهم من ظاهر القول كما يُرَى.

– *المفاضلات*: و هي عبارات جرت على الألسن و تواردت في صيغة مفاضلة كما يلاحظ في قولهم: أشأم من البسوس(: هي ناقة أو امرأة تملك ناقة هاجت بسببها حرب ضروس في الجاهليّة) و أشأم من غراب(: هو أكثر الطّيور و الحيوانات التي يُتَشَاءَم منها في الجاهليّة)...

– *الأحاديث*: و أبرزها في الذاكرة الجماعيّة للعرب أحاديث الرسول لأسباب دينيّة يطول شرحها و هي كثيرة نأخذ منها على سبيل المثال قوله صلّى الله عليه و سلّم: لا إسعاد و لا عُفْرَ في الإسلام، يقصد إسعاد النساء في المناحات(: مساعدة المرأة للأخرى في النياحة عند موت قريبها أو القائم عليها كالزوج و هي عادة كنّ يعملن بها في الجاهليّة)...

– *التجمّعات المعجميّة*: هي كثيرة نذكر منها *الإتباع* و هو أن تتبع الكلمة الأخرى على وزنها و قافيتها بصورة دائمة لتقوية المعنى و توكيده فتكوّنان معا مركّبا غالبا ما يعدّ في النحو مركّبا توكيديّا و من أمثلته

الكثيرة في اللغة: حَظِيَت الزوجة عند زوجها و بَظِيَت(: كانت لها منزلة خاصّة عنده)، و رجل قسيم وسيم(: جميل)... و منها كذلك *المحاذاة* و هي أن تحاذي الكلمةَ أخرى على نفس الوزن دون أن تكون إحداهما مرادفة لصاحبتها كما في الإتباع و عادة ما يراعى في المعنى الاختلاف و خاصّة التضادّ بين الكلمتين كما في قولهم: نعوذ بالله من شرّ السامّة و العامّة (: السامّة هي الخاصّة أو خاصّة الرجل و نقيضها العامّة)...

– *عبارات الخطاب*: هي عبارات يؤتى بها في الخطاب لضمان قدر أدنى من الانسجام و التماسك بين أجزائه و أمثلتها في اللغة كثيرة منها قولهم في الاستهلال: الحمد لله أي أفتتح الخطاب بالثناء على الله و شكره و في الاستئناف: أمّا بعد (فقد كان كذا و كذا)، يريدون في استئناف الخطاب بعد الاستهلال: أمّا بعد دعائي لك فقد... و قولهم في الاختتام: إلى آخره أو: و السلام عليكم يريدون بذلك الإشارة إلى انتهاء الكلام السابق...

و رغم أنّ ضروب العبارات في اللغة أكثر ممّا ندّعي إحصاءها في هذا البحث فإنّ ما قدّمناه يعطي صورة واضحة عن أهمّية العبارة في وصف حياة العرب و تفكيرهم و عاداتهم و محيطهم الطبيعي و ما إلى ذلك و لكنّ الذي يهمّنا الآن من كلّ ذلك هو أن نبحث في مجال السعادة من خلال عيّنات من تلك العبارات.

2. التعبير عن السعادة في العبارات العربيّة

يمكن التطرّق إلى الموضوع من زاويتين:

أ– النظر في العبارات انطلاقا من مكوّناتها التي تمتّ بصلة إلى السعادة و لاسيّما تلك المشتقّة من الجذر / س ع د/ للبحث في ما أفرزته من معانٍ قد تكون متميّزة في تحديد المفهوم أو بعض جوانبه و ما إلى ذلك.

ب– البحث عن معنى السعادة و حدودها و مظاهرها في العبارات التي لم تؤخذ مكوّناتها من الجذر / س ع د/ و لكنّها أدّت في الاستعمال هذا المعنى أو شيئا منه. و هذا العمل يقتضي منّا القيام بجرد تلك العبارات من كامل نصوص المعاجم التي انطلقنا منها في هذه الدراسة.و نظرا إلى المساحة المحدودة في هذا البحث فإنّنا نقتصر في تحقيق ما نصبو إليه من وصف، على مجموعة العبارات ذات الصلة بالسّعادة في جذر من مكوّناتها و قد اعتمدنا في ذلك المعاجم التالية:

– *لسان العرب* لمحمّد بن مكرم بن منظور القفصي، مدخل / س ع د/ و فيه رصدنا 12 عبارة هي: دُهْدُرَّيْن سَعْدُ القَيْن (: مثل قديم يُضرَب في الباطل و الكذب و سعد القين من الحدّادين) + لبَّيْكَ و سَعْدَيْك (: دعاء في استهلال العبادة كالحجّ...) + أُنْجُ سَعد فقد قُتِلَ سُعَيْد (: مثل يُضرب في الاستخبار عن الأمرين الخير و الشرّ أيّهما وقع؟) + أَ سَعْدٌ أَمْ سُعَيْد؟ (: في العناية بذي رحم أو في السؤال عن الأمرين الخير و الشرّ أو الشيء الواحد أ هو ممّا يُحَبُّ أم يُكْرَه؟) + في كُلِّ وادٍ بَنُو سَعْد (: في التساوي في الاتّصاف بما يُكْرَه و يُذَمّ) + مَرْعًى وَ لاَ كَالسَّعْدَانِ (: في الذي يفضل على أقرانه) + لا إسْعَادَ وَ لاَ عَفر في الإسلام (: إسعاد النساء في المناحات و مساعدتهنّ) + ليس لبني فلان ساعد (: رئيس يعتمدونه و يعودون إليه و يأتمرون بأوامره) + يوم سَعْد (: يُتَفاءل به) + كوكب سعد + سُعود النجوم (: هي كواكب مجموعها 10 أنجم يقال لكلّ واحد منها سَعْدُ كذا. و 4 منازل منها ينزل بها القمر: سعد الذّابح و سعد بُلَع و سعد السّعود و سعد الأخْبِيَة) + سعيد المزرعة (: النهر الصغير أو النهر الذي يسقي الأرض).

– *أساس البلاغة* لجار الله أبي القاسم الزمخشري، مدخل / س ع د/ و قد وجدنا فيه 7 عبارات هي: أَسْعَد جدّه (: أنماه) + إذا طلع سَعْدُ السّعود نَضِرَ العودُ (: سعد السّعود هو نجم يظهر في الربيع و هو من منازل القمر) + شدّ الله على ساعدك (: أعانك) + ساعِدُ الله أَشَدّ + أَمْرٌ ذُو سواعِد (: ذو وجوه و مخارج) + أَ سَعْدٌ أم سُعَيْد؟ + مَرْعَى وَ لا كَالسَّعْدان.

– *مجمع الأمثال* لأحمد بن محمّد الميداني، في فصول متفرّقة، لاسيّما فصل السين أوّل حروف الجذر /س ع د/، لأنّ ترتيب هذا المعجم بأوائل الحروف التي يبدأ بها المثل و فيها وجدنا 6 عبارات هي: أ سعد أم سعيد؟ + أُنْجُ سعد فقد هلك سعيد (القصّة في باب الحاء) + السَّعِيد مَنْ وُعِظ بغيره (: حكمة) + السّعيد من كُفِيَ (: حكمة) + مرعى و لا كالسّعدان (باب الميم) + في كلّ أرض سَعْدُ بنُ زَيْد (باب الفاء).

و الملاحِظ لهذا الرصيد يرى تفاوتا في نسب ما جمع من هذه المعاجم، إذْ بلغ حجم العبارات الواردة في لسان العرب نصف ما في كامل المجموعة (% 50)، مقابل ما يناهز الربع (% 25) بمعجمي أساس البلاغة و مجمع الأمثال و يعود الأمر إلى أنّ المصدر الأوّل يعدّ معجما عامّا و هو أكبر حجما من المعجمين الآخرين، بينما يختصّ الأساس بجمع المستعمل من اللغة (حقيقة/ مجاز) فيما يقتصر المجمع على الأمثال دون غيرها رغم بعض الخلط أحيانا بين أنواع العبارات المختلفة.

و تتوزّع العيّنة المجموعة من المصادر السابقة بصرف النظر عمّا بينها من فروق إلى 7 أصناف من العبارات هي:

– الأمثال: أ سعد أم سعيد؟ + دهدرّين سعد القين...

– الأقوال: ليس لبني فلان ساعد + ساعد الله أشدّ...

– الحِكَم: السعيد من وعظ بغيره + السعيد من كفي...

– الحديث: لا إسعاد و لا عفر في الإسلام...

– الأدعية: لبّيك و سعديك + شدّ الله على ساعدك...

– اللسنيّات: شدّ على ساعده، و ممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ اللسنيّة و االكثير من أنواع العبارات قد تتوارد عند الاستعمال منضوية في عبارة أخرى كما هو الحال في هذا المثال.

– المتلازمات اللفظيّة من صنف المضاف (: يدلّ المصطلح على العبارة التي ترد في شكل إضافة يتلازم فيها المضاف مع المضاف إليه): كوكب سعد + سعد النجوم + سعيد المزرعة...

و رغم أنّنا لا نعثر في المادّة المجموعة على أصناف عديدة من العبارات و خاصّة تلك التي تتوارد في صيغ المفاضلة فإنّ هذا التوزّع يبرز لنا كما نريكيف دخلت العبارة في تقاليد العرب وأقوالهم و أخلاقهم و حياتهم، خاصّة إذا كانت تحمل ملمحا يَسِمُ القِيَمَ أو شيئا من المعاني السامية كالسعادة مثلا... بل إنّ للعبارة قدرةً على تصوير الواقع و المحيط و ما إلى ذلك بما يمكّننا من دراسة عادات المتكلّمين باللغة و تفكيرهم إذا ما انتموا إلى مجموعة لغويّة واحدة.

و ممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ لبعض العبارات تواترا شديدا لأنّها أكثر اطّرادا من غيرها في الاستعمال كما هو الشأن بالنسبة إلى العبارات التالية:

- أ سعد أم سعيد؟ + مرعى و لا كالسّعدان: العبارتان تواردتا في المصادر كلّها.
- سعد السعود: العبارة تواردت في مصدرين هما اللسان و الأساس في سياقين مختلفين.
- أُنْج سعد فقد قتل سعيد + في كلّ واد بنو سعد: العبارتان في مصدرين مختلفين هما اللسان والمجمع بروايتين مختلفتين إذْ أنّهما وردتا كذلك بصيغة مخالفة في المصدر الثاني: أُنْجُ سعد فقد هلك سعيد + في كلّ أرض سَعْدُ بنُ زيد.

و بصرف النظر عن اتّفاق العبارات السابقة في المشتقّ من الجذر / س ع د/ لاسيّما الأسماء، فإنّ ما يؤخذ من لفظها يذكّرنا بأصل كلّ عبارة و يحيلنا على جوانب مهمّة من الحياة العربيّة القديمة هي المعارف و المعاش و العصبيّة و السيادة و كلّها مميّزات أساسيّة للمجتمع التقليديّ الذي كان يَطْبَعُ الحياة القبليّة التي يعيشها العربيّ.

فعبارة سعد السعود تتقاطع في المعجم مع العبارات: يوم السعد + كوكب سعد + سعود النجوم كما أنّها تتّفق مع السعادة في اشتقاق السعد من الجذر / س ع د/ و هما من المصادر الكثيرة التي تُؤخذ من نفس الجذر... و في هذا ما يذكّر بمعارف العرب على الأقلّ من زاويتين:

* زاوية تتّصل بمعارف القوم في الفلك و درايتهم بالنجوم و هي تعود أساسا إلى اهتمام رجال الدين من الكهنة و العرّافين بالعلوم و التنجيم و الأثر لأسباب دينيّة يطول شرحها (4). و لذلك نجد في العربيّة رصيدا لا يستهان به من العبارات و اللسنيّات: لا آتيك أو يَلْقَى الثريّا رَقِيبُها (: أبدا) + لا يفرّق بين السُّهَا و الفَرْقَد (أعمى لا يبصر و لا يدرك)...(5)

* زاوية تتعلّق أصلا باعتقادات العرب في التطيّر و الحظّ و إن كانت لهذه الزاوية علاقة وطيدة بالأولى ناهيك أنّ الكاهن هو الذي تناط بعهدته في الغالب عمليّة التكهّن بمآل الأمور بطرق معلومة كالأقداح فيتفاءلون و يتشاءمون... و قد ظهرت لهم منذ الجاهليّة العديد من العبارات المتّصلة بهذا الغرض: كَبارِحِ الأرْوَى (: مشؤوم أو طالت غيبته) + صَدَقَهُم وَسْمُ قَدَحِه (: قال الحقّ)...(5)

أمّا عبارة مرعًى و لا كالسعدان فبقطع النظر عن معناها أو قائلها الأوّل إن كانت الخنساء أو غيرها فإنّ ما تلتقي فيه المصادر يحيلنا أساسا على أجود المراعي التي ترعاها الإبل في الربيع و قد كان العرب يتنقّلون كثيرا للبحث عن المرعى. و السعدان بقل أو نبت له شوك يقال له حسكة السعدان و تشبّه به حلمة الثدي، إن رعته الإبل في الربيع و كان طريّا رطبا صار لبنها جيّدا حلوا لذيذا يتمصّصه الإنسان حلوا رطبا و يأكله (6)، و كأنّما السعادة التي يناشدها العربيّ تكمن في رغد العيش و حالة الرخاء التي يبحث عنها في حياته و تنقّلاته و قد ذكر ابن منظور في معجمه ما يدعّم هذا بسؤال أعرابيّ لأعرابيّ: أ ما تريد البادية؟ قال: أما مادام السعدان مستلقيا فلا (6) كما أنّنا نجد للعرب قولهم الآخر: خرج القوم يتسعّدون أي يرتادون مرعى السعدان (6) .

و أمّا قولهم أ سعد أم سعيد فإنّه يذهب بنا شأنه شأن قولهم الآخر: أُنْج سعد فقد هلك سعيد إلى قصّة معروفة يتشاءم منها العرب في الجاهليّة و تذكر الكتب أنّها تعود إلى ضَبَّةَ بنِ أُدٍّ و قد كان له ابنان أحدهما سعد و الآخر سعيد خرجا في طلب إبل فرجع سعد و لم يرجع سعيد فصار ضبّة لشدّة تعلّقه بابنه إذا رأى سوادا

تحت الليل يقول: سعد أم سعيد؟ فسار من قوله ذاك المثل في المعاني التي تقدّمت في الفقرات السابقة (6). و لا يخفى علينا هنا اتّفاق أصل العبارة مع مفردات كثيرة منها: الإسعاد الدالّ على المساعدة في النياحة و الساعد في معنى الرئيس يُعْتمد عليه... و قد كان للعرب في هذه المعاني عبارات نذكر منها: في كلّ واد بنو سعد + لا إسعاد و لا عفر في الإسلام (حديث)...، لنؤكّد مدى تأثير حياة القبيلة في وجدان العربيّ و إحساسه بشتّى المعاني و المفاهيم التي تعتبر السعادة من أبرزها.

و لو قمنا من جهة أخرى بجرد أهمّ المعاني التي تفيدها العبارات المكوّنة لعيّنة البحث مهما كانت نسبة تواترها لرأينا كيف أنّها لا تخرج عن مدار المؤثّرات السابقة إذْ نستطيع حصرها في محاور معدودة هي: ما يتّصل بالمعارف و المعاش و الحياة القبليّة و القِيَم:

أ- المعارف: سعود النّجوم + سعد الذّابح + سعد بُلَع + سعد السعود + إذا طلع سعد السعود نضر العود...، و تقترن دلالة العبارات كما لا يخفى بمواقع النجوم و ما يتّصل بها من تفاؤل وتشاؤم و موافقة الحظّ و هي معانٍ تحيلنا في بعض وجوهها إلى أنشطة الكهنة.

ب- الحياة القبليّة: ليس لبني فلان ساعد + أ سعد أم سعيد؟ + في كلّ واد بنو سعد + لا إسعاد و لا عفر في الإسلام + مرعى و لا كالسعدان...، و تحيلنا المعاني التي تؤدّيها العبارات على مظاهر كثيرة ترسم ملامح الحياة القبليّة بروابطها و عاداتها كالعناية بذوي الأرحام و التساوي في الاتّصاف بما يكره و يذمّ...

ج- القيم و الأخلاق و إن كانت في الأصل ترجع إلى الروابط التي تسِم الحياة القبليّة: دهدرّين سعد القين + أ سعد أم سعيد؟ + أُنج سعد فقد هلك سعيد + شدّ على ساعدك...، و هي معانٍ تحوم حول قِيَم الخير و الشرّ و الحثّ على التحلّي بالتآزر و الصدق و نبذ الكذب و الباطل...

د- المعاش و نفضّل عدم الاستعاضة عن الكلمة بمصطلح الحياة الاقتصاديّة لأنّ حجم العبارات في هذه العيّنة لا يكفي في تقديم صورة صادقة للأنشطة التجاريّة و الفلاحيّة و ما إلى ذلك: سعيد المزرعة + السعيد من كُفِيَ + مرعى و لا كالسعدان...، و معاني هذه العبارات تقدّم لونا مهمّا لعلاقة العربيّ بالأرض و البحث عن المرعى...

بيد أنّ ما يجب التنبيه إليه هو أنّنا لا نعثر في كلّ ما سبق على عبارة واحدة تحدّد السعادة أو تصفها و كأنّ درجة التجريد في المفهوم صرفت العرب عن المفهوم إلى الإحساس بالمفهوم. و غاية ما في الأمر هو أنّهم اهتمّوا في تعابيرهم بالسعيد لا بالسعادة: السعيد من كُفِي. و في ذلك إشارة إلى ما يتحقّق بهذا المفهوم من قناعة تبعدهم عن الإحساس بشظف العيش. و في ذلك من التعميم ما يجعلنا ندرك الجوانب المختلفة للسعادة عند العرب. ففيها من الحظّ ما يجعل الإنسان يتفاءل وفيها من المعاش ما يهوّن عليه مصاعب يومه لاسيّما الجوع و الإملاق و فيها من الأخلاق و من العادات و الحياة القبليّة ما يدفع العربيّ إلى الالتزام بقوانين القبيلة و في ذلك الامتثال منتهى الإحساس بالسعادة حتّى أنّ شخصيّة الفرد تذوب في شخصيّة المجموعة.

3. الخاتمــة

قمنا في هذا البحث من خلال ثلاثة معاجم هي لسان العرب و أساس البلاغة و مجمع الأمثال، بدراسة العبارات العربيّة القديمة التي تتقاطع مع السعادة في شيء منها كالجذر و تبيّن لنا بعد الوصف و التحليل أنّ مفهوم السعادة غاب عمّا تؤدّيه العبارة القديمة بدلالتها لأنّه مفهوم على درجة مرتفعة من التجريد و لذلك انصرف العرب منه حسب رأينا إلى "السعيد" إيذانا منهم بدور المحيط في رسم صورة للسعادة بما يؤدّي إليها من أسباب نفسيّة و اجتماعيّة و أخلاقيّة وعقيديّة...، غير أنّ الصورة الحقيقيّة لهذا المفهوم لا تكتمل رغم قيمة اللغة في ضبط المتصوّرات والمفاهيم، سوى بالنظر في الكتب العربيّة القديمة المنظّرة للسعادة.

الحاشيــة:

(1) ابن منظور، "لسان العرب المحيط"، مج4، ص668.

(2) قد تؤخذ العبارة في مفهوم عامّ على أنّها كلّ مكوّن من مكوّنات الجملة، انظر للتحقّق من ذلك: قاموس اللسانيات، جان ديبوا ،(Dictionnaire de linguistique, J. Dubois et Al.)ص 202.

(3) عبد الرزّاق بن عمر، التلازم اللفظي و مداخل المعاجم العربيّة، أعمال الندوة الوطنيّة الخاصّة بالتلازم اللفظي، تنظيم جمعيّة المعجميّة العربيّة بتونس، سنة 2002 .

(4) عبد المجيد عابدين، الأمثال في النثر العربيّ القديم مع مقارنتها بنظرائها في الآداب الساميّة الأخرى، ص 20.

(5) عبد الرزّاق بن عمر، اللسنيّات العربيّة و نشأتها في القديم، دراسات لسانيّة، مج 5، ص 56.

(6) لسان، مج3، ص147.

<u>المصادر و المراجع</u>

(1) ابن منظور (محمّد بن مكرم بن علي)، *لسان العرب المحيط*، 6 مجلّدات، دار الجيل، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، 1988.

(2) الزمخشري (جار الله محمود بن عمر)، *أساس البلاغة*، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت.

(3) الميداني(أبو الفضل أحمد بن محمّد)،*مجمع الأمثال*،جزءان، دار الكتب العلميّة،بيروت، 1988.

(4) ابن عمر (عبد الرزّاق)، *اللسنيّات (التعابير الخاصّة) في العربيّة القديمة*، نسخة مرقونة، كلّية الآداب، منوبة، تونس، أفريل، 2000.

(5) ابن عمر (عبد الرزّاق)، *اللسنيّات العربيّة و نشأتها في القديم*، دراسات لسانيّة، المجلّد 5، تونس، 2002.

(6) ابن عمر (عبد الرزّاق)، *التلازم اللفظي و مداخل المعاجم العربيّة*، أعمال الندوة الوطنيّة الثالثة في التلازم اللفظي والتّضام بمراعاة جمعيّة المعجميّة العربيّة بتونس، في 2- 3 ماي 2002.

(7) عابدين (عبد المجيد)، الأمثال في النثر العربيّ القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب الساميّة الأخرى، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1956.

(8) Dubois (J.) & al, Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris, 1973.

أثر الصوت في توجيه الدلالـة

الأستاذ : ابراهيم بلقاسم

جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم

تتألف العملية الدلالية من عناصر أولها المرجع و آخرها الخط و بينهما المدلول المؤدّى بدال هو اللفظ , الذي يدل عليه الخط وفق البيان التالي(1) :

المرجع ←صورة ذهنية ←اللفظ ←الخط

فالمرجع هو ذات المدلول قائمة في الواقع و في الحقيقة بما هي عليه و المدلول هو الصورة الذهنية الحاصلة لذلك الشيء عند سماع اللفظ الموضوع سمة له.

أما اللفظ فهو المحصلة الصوتية التي تسم مدلولا ما و تحقق له وجوده في عالم الكلام و الاتصال و التعبير, ثم يأتي الخط الحافظ للصوت بالدلالة عليه كتابة.

والمتأمل في هذه السلسلة يستصفي منها الوسطين و يقصي الطرفين بعد أن يتبين له أن المرجع مدلول غير دال و بعكسه الخط دال غير مدلول. إذ الأول مبتدأ السلسلة و الثاني منتهاها. فهذا الأمر في العلاقة الثنائية بين { الصورة الذهنية و اللفظ } جلي من انحصار البحث الدلالي عند الفلاسفة المتقدمين كالفارابي و ابن سينا و الغزالي على الدلالة اللفظية , و هم في تعريفها يحذون حذو أرسطو فحاصل الدلالة عندهم اللفظة و الأثر النفسي و الأمر الخارجي(2) .

أما الكتابة فهي مستبعدة و إن كانت ذات أهمية لا تنكر من حيث تيسر وسم الأشياء على اختلاف طبيعتها { غيب- شهادة} , {مادة-معنى} و على تعددها حتى داخل الصنف الواحد. إذ يكفي لتقييد أسمائها الدالة عليها مجموعة معدودة من الحروف ليس لها صلة بطبيعة الشيء و لا بكنهه .

و لعل الفيصل بين الكتاب و الصوت مايلي :

– الصوت أقرب إمساسا بالمدلول أي الحدث , إما في الدلالة الطبيعية أو غيرها كما سنرى بحيث يعكس حالة الحدث غالبا ولعل ذلك هو ما جعل علماء اللغة المحدثين و المعاصرين يعتدون باللغة المنطوقة دون المكتوبة في نظرة تختلف عن علماء فقه اللغة وعلماء المعاجم , بل وعن الناس جميعا.(3)

– هو ألصق و أعلق بالمدلول. إذ لا يتوسط بينهما و سيط, و هذا الجوار يجعل الصوت كالظل و كالأثر الدال على العين.

– إنه ترجمة صوتية للمدلول في اللحظة الحاضرة. حيث يتخاطب المتخاطبان و يتبادلان المشاعر و الأفكار , فالتواصل حضوري أفقي بفعل الترجمة الصوتية للمدلول , و عنصر الزمن مهم جدا في مسألة الدلالة فمازلنا إلى الآن حين نريد تحليل نص أو كلام أو التعليق عليه أو فهمه قبل ذلك تجدنا ملزمين برده إلى إطاره التاريخي باستحضار البيئة بكل مكوناتها سياسة و اجتماعا و فكرا و نفسية و بخاصة النبر و التنغيم و شاهد الحال.

أما الكتابة فهي أمس بالشكل منها بمضمون الحدث أو المدلول يدل على ذلك موقف النحاة المتقدمين من مادة الحديث النبوي حيث صدوا عنها , و أعرضوا عن الاحتجاج بها إلا في مواضع نادرة بالرغم ما ينقل عن فصاحة الرسول صلى الله عليه و سلم(4) ثم إنها وضعت لاعتبار تحسيني اقتصادي هو إمكان و سم الأشياء على اختلاف جواهرها و كثرة تعدادها بذات الحروف اليسيرة المعدودة . و هو ما يسهل عملية التقييد الذي هو روح الكتابة على حد قول الشاعر :

العلم صيد و الكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الواثقه

فمن الحماقة أن نصيد غزالة و نتركها بين الخلائق طالقه

و هذا يعني صلاحيتها خاصة حال الغيبة مكانا أو زمانا , فالتواصل هنا عمودي من جيل إلى جيل و من عصر إلى عصر لاعتباراب حضارية مثلما حدث مع تدوين القرآن الكريم و تدوين السنة النبوية أو اعتبارات تعليمية تخص نقل العلوم التي يضمن بها اتساق الأجيال في نمطها الروحي أو التفكيري أو البياني , كما حدث مع علوم العربية نحوها و صرفها و بلاغتها و متونها المختلفة المواضيع التي تمرر المعرفة الدينية و اللغوية إلى أبناء الأمة جيلا عن جيل ضمانا للتواصل و الوحدة .

و الحق أن الكتابة أفادت الدرس اللغوي فهي التي أتاحت نصوصا كانت هي مادة الدرس مبنى و معنى خاصة فيما يعرف بفقه اللغة عند الغربيين ..... "(5)

نريد بهذه التقدمة تأكيد فضيلة الصوت في الدلالة, "بل إن الوظيفة الفونولوجية للكلمة كتما سنرى , و خاصة في اللغات الاشتقاقية و المعربة مثل اللغة العربية قد تتصل بصورة أو بأخرى بوظائفها الصرفية و النحوية و الدلالية أيضا , و من ثم تصبح مشكلات النطق و الكتابة , بالإضافة إلى المقولات الصرفية و النحوية للكلمة , من المشكلات التي تواجه عمل المعجمي "(6) و الذي لا يمكن أن يغفل إلا لاعتبارات بحثية نذكر أهمها :

أ– اعتبار تاريخي فلسفي : تمتد عمر اللغة ميلادا و نشأة و تطورا إلى أحقاب سحيقة انقطعت بيننا و بينها أسباب البحث لاندثار الآثار و انبتات الصلة بين المجتمعات المتوالية , الأمر الذي أدخل البحث في عداد

المسائل الفلسفية, فقال البعض بتوفيقها و قال آخرون بتوقيفها مع توسط آخرين ولعل القائلين بالاعتباط هم الصوت الأكثر صدى في الأوساط العلمية و لسنا ممن ننكر الاعتباط كما تقره طبيعة الإنسان و طبيعة الحياة التي يحياها و لكن نقبله على أساس من النظام فلا يعني الاعتباط بحال أن العقل مفقود ظله تماما في بحث العلاقة بين الدال و المدلول , فلو أننا سألنا أيا عن الفرق بين قطع و قطّع لقال أن الثانية أشد و أقوى , و حين يسأل يعلل بالشدة و القوة التي تسبب فيها الإدغام فالشدة صوتا تعكس الشدة حدثا.هذا مثال كثير نظيره. و سنرى بما لا يدع الشك أن هناك إشارات متضافرة تغري بوجود نظام صوتي عجيب في اللغة العربية له أثره البالغ في بناء الدلالة و في استنباطها.

ب-اعتبار منهجي : إن معظم أحكامنا العلمية المتصلة باللغة هي عبارة عن نتائج تبحث لها عن أسباب خلاف المنطق السليم المتصاعد من السبب إلى تحري النتيجة و إليك مثالا من الاعتبار السابق: مسألة نشأة اللغة . اللغة إنتاج بشري, فهي بذلك تحمل النقص الذي هو طبيعة البشر , فلا داعي بل لا ينبغي أن يبحث في العلاقة الموضوعية بين الدال و المدلول. إذ ما يسمى قلما كان من الممكن أن يسمى قمرا , و ما يسمى حجرا كان يمكن أن يسمى خبزا. كما كان جائزا أن يرفع المنصوب و ينصب المرفوع, و ما يسميه حرف السين كان مقدورا أن يكون راء.....

و خلاصة الأمر تسليم بنتيجة تفضي إلى القول بأحكام و قواعد لابد منها مصداقا للنظرة الأولى, ثم ما يلبث الباحث أن يجد و يجتهد في بيان نظام دقيق يسري في جسد اللغة كلها ألفاظها و أصواتها و حركاتها و تركيبها , يقول بلسان حاله خلاف لسان مقاله إنه لا اعتباط في اللغة ,ولعل أحسن مثال لذلك ابن جني في تردده بين التوفيق و التوقيف و في إشارته الكثيرة إلى وجود نظام محكم دقيق يدعو إلى الدهشة و الحيرة معا .

و أود هنا أن أنبه إلى مسألة ذات خطر تتمثل في تكاتف الفلسفي و العقيدي مع المنهج و تفسير ذلك في قضية نشأة اللغة أن الاعتقاد بالاعتباطية قول بحرية الإنسان المطلقة التي تلغي العناية الإلهية و هو ما يدعى خلق الأفعال عند المعتزلة و أن القول بتوقيفها يعني إلغاء السمة الإنسانية و الوقوع في الجبرية . فما اللغة إلا نموذج من الأفعال التي تساءل عنها علماء الكلام و قبلهم الفلاسفة عن نسبتها إلى الخالق أو إلى المخلوق, فإن هم انطلقوا من كونها إنتاجا بشريا يحمل بصمات صاحبه من ضعف و حاجة قدروها اعتباطية و إن هم تملوا ما فيها من أحكام و اتساق أدى بهم إلى استنباط القواعد قالوا أنها توقيف من الله.

و معلوم أن الخوض في المسائل الفلسفية يقود إلى مناقشات لا تمس اللغة وحدها بل تمس الفكر و العقيدة و التاريخ معا. لذلك نفضل منهجا واقعيا في التعامل مع الظاهرة ينطلق من واقع الظاهرة ووصفها علميا و يرقى إلى إقرار أحكام في خاتمة المطاف وإن لم يكن ذلك مما يعنيه أو يعنّيه

مجالي الأثر الدلالي للأصوات

في البدء تحسن الإشارة إلى أن المستويين الصرفي و الصوتي يجمعهما نسب قريب و اتصال شديد من حيث أن كليهما يهدف إلى إحداث التغيير على بنية الكلمة حسبما تحتمله من وجوه. (7) ومن هنا ارتأيت الجمع بينهما محاولا التدرج من المستوى الصوتي إلى المستوى الصرفي, ولو أن فكاكهما و استقلال أحدهما عن الآخر

مما يتعسر, إذ النظر في أصل المادة اللفظية وزيادتها وتقلبها أمر صرفي لكن ذلك ملابس دائما للصورة السمعية (الصوت).

و رغم أنني أحاول أن أكشف عن جهود رجال الاعتزال في هذا المجال دون تمييز إلا أنني أجد نفسي مضطرا للتوقف طويلا عند عمل ابن جني في هدا المجال, إذ ما جاء عند غيره يعد مجرد لمحات لا تتعدى الوصفية في أغلب الأحوال, و يعترف له بعض الباحثين "بأنه حاز على شرف السبق إلى مثل هذا التحليل متقدما بذلك جميع علماء اللغة المحدثين"(8).

(1)المستوى الصوتي:

و المقصود به ما ينجم من تغيرات دلالية تابعة للتغيرات الطارئة على الصوت "phonème". سواء تعلق ذلك بالفونيم القطعي segmental أو بالفوقطعي suprasegmental و يخص الأول الصوامت و الصوائت, أنا الثاني فيتعلق بالنبر و الأنغام و الفواصل. (9)

. الفونيم القطعي:

-أ-إبدال الصوائت: أن تغاير الحركات على الصامت يفضي إلى التغاير في دلالة اللفظ نسبيا, أي من جهة النوعية, فكلمة الذل" بضم الذال" يوصف بها الإنسان أما الذل" بكسر الذال" فوصف للدابة لأن ذل الإنسان أشد وطأة من حيث أنه لا يشاؤه, و لا يرضاه, فاختاروا له الضم لأنه أقوى, واختاروا الحركة الأخف حيث الذل أخف و قعا. (10)

و إذا كان هذا التعليل نفسيا, فإن الزمخشري يقترح تفسيرا آخر مفاده أن اختلاف الحركتين على المحل الواحد قد يرد للتفريق بين جنسين. مثال ذلك قوله" القبطية ثياب بيض من كتان تنسج بمصر نسبت إلى القبط(بالضم) فرقا بين الثياب و الأناسي. و الجمع القباطي"(11)

و يقدم ابن جني في باب الإدغام الأصغر تعليلا صوتيا محضا لتبادل الصوائت , و من ذلك تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو: شعير و بعير و رغيف(12), و علة هذا الإبدال هي الاستثقال الناجم عن الانتقال من الفتح إلى الكسر مع فخامة الحروف الحلقية, فجر ما قبلها يؤدي إلى الخفة.

ب-دلالة الصوامت: ينفرد ابن جني بقوله إن في الصامت الذي هو جزء من اللفظ شبها بجزء من المدلول ذاته, و يمثل هدا الاعتقاد ذروة ما بلغه ابن جني في إثبات الشبه بين الصوامت و الأحداث. فهو يرى مثلا أن كلمة "بحث" تدل بكل جزء منها على جزء من الحدث, فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض, و الحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد و براثن الذئب إذا غارت في الأرض و الثاء للنفث و البث للتراب(13), ومثال آخر شد الحبل, فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد, ثم يليه إحكام الشد و الجذب و تأريب العقد, فيعبر عنه بالذال التي هي أقوى من الشين, لاسيما و هي مدغمة, فهو أقوى لصنعتها,و أدل على المعنى الذي أريد بها"(14).

و قد التفت حسن عباس من المحدثين إلى خصائص الحروف العربية و معانيها , فألف فيها كتابا بهذا العنوان . و هو يقصد بالحروف الأصوات مشيرا إلى إيحاءاتها الحسية و الشعورية مصنفا إياها ما بين بصرية

و سمعية و شعورية غير حلقية و شعورية حلقية مضيفا في الفصل الرابع الشعور كحاسة سادسة , و يذكر مقدما أنه خلاف ابن جني يستهدف ما يوحي به الصوت بغض النظر عن سلسلته التركيبية , فابن جني في نظره لجأ إلى استخلاص معاني الحروف العربية من معاني الألفاظ بدلا من الاتجاه مباشرة إلى تأمل صدى أصواتها في الوجدان ... فلقد ضرب ابن جني لتحديد معاني الحروف و خصائصها الأمثلة التالية:

القاف فيه صلابة و في الخاء رخاوة, هذا صحيح إلى أنه يعود فيقول : الحاء فيه رقة و في الخاء غلظة فقيل للماء القليل نضح بمعنى رشح , و نضخ للماء الغزير بمعنى اشتد فورانه في ينبوعه. فكيف يجتمع في حرف (الخاء) خاصيتا الرخاوة و الغلظة و هما متناقضتان؟.(15).

و من إجراءاته العملية التطبيقية في المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة يذكر أنه عثر على مائة مصدر تبدأ بالتاء مما هو غير مولد أو معرب أو دخيل أو محدث أو عامي ... كان منها ثمانية عشر مصدرا تدل معانيه على الرقة و الضعف و التفاهة بما يحاكي الرقة و الضعف في صوت التاء, منها:تبتب(شاخ). التبن(القش اليابس).تخ العجين (لان و استرخى).التراب.ترف النبات(كثر ماؤه و نضر). تره(وقع في الترهات).تفتف(اتسخ بعد نظافة). التف(وسخ الظفر). تفه(قل و خس و حقر). تك الرجل (حمق). التلب(الخسار). تلف(هلك).تاع الجمد(ذاب وسال). تام الحب فلانا(استعبده و ذهب بعقله). (16).

و في إجراء تحليلي صوتي لسورة الرعد و بعد توصيف لمخرج اللام و بيان صفاته يقرر الدكتور عمار ساسي أن هذا الصوت " يحمل دلالة الاستعلاء و العلو التي هي نواة خطاب سورة الرعد التي منها القوة و العظمة." (17).

و يلي هذه الرتبة قوله- أي ابن جني- بأن تقارب كلمتين في حرف أو حرفين أو ثلاثة يعني تقارب الدلالة أينما كان موقع ذلك الحرف التقارب فيه أولا أو وسطا أو آخر.

*التقارب في حرف واحد:

-أز-هز(ء.هـ) تقارب في الفاء

-جرف-جلم(ر.ل) تقارب في العين, و معناه: الميل.

-علم-علب(18) (م.ب) تقارب في اللام و معناه: الشق

*مقاربة حرفين لحرفين(19):

-سحل-صهل-(س,ص)(ح,هـ) الفاء و العين:صوت

-جلف-جرم-(ل, ر)(ف, م) العين و اللام: القشر و القطع

-صال-سار-(ص,س)(ل,ر) الفاء و اللام

*مقاربة ثلاثة أحرف لثلاثة(20)

سلب . صرف (س,ص)(ل,ر)(ب,ف)

. غدر . ختل (غ.خ)(د.ت)(ر.ل)

. زأر . سعل (ز.س)(ء.ع)(ر.ل)

عند هذا الحد يتوقف المستوى الصوتي في شكله البسيط لنراه شكلا مركبا و أكثر تعقيدا و نعني به "الاشتقاق" وقبل أن نفصل القول في الاشتقاق الأكبر نشير إلى اشتقاق من نوع خاص يصدق على حروف تجمعها خصائص صوتية مشتركة إذ يكفي اجتماع حرفين منها لتؤدي دلالة واحدة بجميع تقلبات الكلمة المكونة من هذين الحرفين المتشابهين بالإضافة إلى حرف آخر خارج المجموعة, فازدحام الدال والتاء والطاء والراء و اللام والنون إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتأخير فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما. (21) وبعملية حسابية بسيطة نحصل على 150(مائة وخمسين) كلمة لها معنى الضعف والوهن. هذا بغض النظر عن تقلباتها الصرفية وإلحاقها بحرف الزيادة. والعملية كما يلي:

ر × ر = 3 × 5 × 6 = 90 كلمة

وقد قدم ابن جني من جملتها أربعة وعشرين لفظا على وجه التمثيل منها: الدالف: للشيخ الضعيف, و الطنف: لما أشرف خارجا عن البناء و هو إلى الضعف, و الدنف: المريض و الطرف: لأنه ليس فيه قوة الوسط, و لذلك قال الله تعالى:"أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها" و قال الطائي الكبير:

كانت هي الوسط الممنوع فاستلبت ما حولها الخيل حتى أصبحت طرفا.

و منه الفرد: لأن المنفرد عرضة للهلاك, و منها الفرات: الماء العذب لأنه ينال منه, و يمال عليه قال الشاعر:

ممقر مرّ على أعدائه و على الأدنين حلو كالعسل.

و كذلك الفتور: أي الضعف, و الرفت:الكسر.....الخ. (22)

و فكرة تشابه الدلالات لتشابه الحروف, و مشابهة الصامت للحدث يتعرض لها الزمخشري في فائقه بشكل بارز, لكن يكتفي بالوصف دون تحليل. فالعشنّق و العشنّط أخوان بمعنى:الطويل(23)و كذلك تلعثم تلعذم(24), و حذا و حثا, و القاحة و الباحة و الساحة أخوات(25), و مثلها البرى و الثرى. (26)

أما الجاحظ فيشير إلى أثر الشبه بين الصامت و الحدث حين يرى أن الحن هو ضعفة الجن فهذا مؤداه . و إن لم يحلله . أن ضعف الحاء في مقابل الجيم هو الذي سوغ هذا الفهم. (27)

ج) <u>الاشتقاق الأكبر و الدلالة المركزية</u>: يعود الفضل في استقراء هذا الاشتقاق و تسميته بـ"الأكبر" إلى ابن جني الذي يصرح بذلك مع اعترافه لشيخه أبي علي بالاستعانة به, و الإخلاد إليه يقول: " أنما كان يعتاده عند الضرورة و يستروح إليه, و يتعلل به. و إنما هذا التقليب لنا نحن"(28)

و حدّه أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقد عليه و على تقاليبه الستة معنى واحد تجتمع التراكيب الستة و ما يتصرف من كل واحد منها عليه. (29)

و مثال ذلك الأصل(ج ب ر) فهو يدل بجميع تقليباته على القوة و الشدة و منه جبر العظم إذا قويته و الجبر الملك لقوته و تقويته لغيره, و كذلك البجر: لمن جرسته الأمور و نجذته, ومنه الجراب لحفظه ما يوضع فيه, و الحفظ سبب القوة.

و منه الأبجر و البجرة و هي القوي السرة, و عليه قوله صلى الله عليه و سلم:" إلى الله أشكو عجري و بجري" أي همومي و أحزاني, و العجرة كل عقدة في الجسد, فإذا كانت في البطن و السرة فهي البجرة, و منه

البرج لقوته في نفسه و ما يليه, و كذلك البرج: لنقاء بياض العين و صفاء سوادها و منه الترجيب أي التعظيم و لذلك سمي الشهر"رجب" لتعظيمهم إياه عن القتال فيه و ما يسند النخلة و يقيمها يسمى"الرجبة", و الراجبة أحد فصوص الأصابع لأنها مقوية لها و منها الرباجي و هو الرجل يفخر بأكثر مما يفعل.

قال الشاعر:

وتلقاه رباجيا فخورا (30)

ويختم صاحب الخصائص هذا الباب بتحفظ صريح العبارة يقول فيه:"و اعلم أنا لا ندعي أن هذا مستمر في جميع اللغة "كما لا داعي للاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة. (31) ومع هذا نجد إبراهيم أنيس يذهب إلى ما يوهم الإطلاق, حيث يرى هؤلاء الاشتقاقيين(ابن فارس وابن جني و أضرا بهم) تأثروا بالعمل الخليلي في العين مع أن تقسيمات الخليل كانت صورية فقط, و يعقب على كل ذلك بإنكاره لوجود الصلة الطبيعية بين اللفظ والمعنى محتجا بأن الكلمات لا تعدو أن تكون رموزا شأنها شأن الرموز غير الصوتية الأخرى كالإشارات, إضافة إلى أن جهاز النطق يضطلع بالنطق كعمل ثانوي, أما عمله الأصلي فهو البلع و المضغ و التنفس. (32)

وهذه في نظري اعتراضات غير مقنعة, فإشارات المرور مثلا وضعت بعد تصور موضوعي ربط فيه الدال والمدلول, و لا يعقل أن توضع بعفوية ساذجة مغفلة لأن مثل هذا الموضع يعني تعدد الفهوم لهذه الإشارات, إذ ليس أحدها أولى من غيره من حيث أنها جميعا خالية من الصلة الموضوعية. فاللون الأحمر لا يصلح أن يكون رمزا للنماء والخصب مثل ما هو الحال مع اللون الأخضر, و هذه الدلالة منتزعة من تجارب الحياة, فخضرة النبات تعني حياته وقابليته للنمو, أما الحمرة فدلالة الخطر لما فيها من صفة الدم و النار المنذرة بالخراب و الفناء .

والواضح أن مسألة نشأة اللغة هي التيار الذي بلغ تأثيره إلى حد إنكار هذه المسائل, إذ التسليم بها يعادل, أو يحث على القول بتوقيفية اللغة, و هو ما يأباه الكاتب و لا يسلم به.

و لم يكن ابن جني المعتزلي الوحيد الذي أشار إلى هذه المحورية الدلالية, فالزمخشري يرى أن الحمد و المدح أخوان, كما يقول بأن نثد و ثدن و دثن بمعنى واحد هو الركود والثبات يقال: نثدت الكمأة و نثطت إذا نبتت و الثبات من باب واحد, و ثدن الرجل إذا كثر لحمه, فهو ثادن أي قليل الحركة, دثن الطائر في الشجرة إذا عشش فيها و أقام. (33) و الزمخشري يذهب إلى أبعد من ذلك عند حديثه عن الفعل "خنز" الوارد في الخبز:"لولا بنو إسرائيل ما خنز الطعم و أنتن اللحم كانوا يرفعون طعام يومهم لغدهم", يقول:"خنز قلب خزن إذا أروح و تغير, و هو من الخزن بمعنى الادخار ولأنه سبب تغيره, ألا ترى في قول طرفة:

ثم لا يخزن فينا لحمنا *** إنما يخزن لحم المدخر.

و يحتمل أن يكونا أصلين, و منه الخنزوانة, وهي الكبر لأنها تغير عن السمت الصالح".(34) ومثل هذا إن أطرد كان من أعجب أسرار العربية و نظامها البديع, كان مدعاة إلى إعادة النظر في قضايا نظرية لغوية هامة مثل نشأة اللغة و علاقة اللفظ بالمعنى.

و لا يقبل ابن جني أن تكون هذه الظاهرة عارضة عابرة, إنما يجعلها في اللغة عامة و متفشية سارية من غير قول بالاتفاق أو الصدفة لأن الحكمة الإلهية هي التي اقتضت ذلك,و إذا نحن عجزنا عن تطبيقها فعليا فإما لعجزنا و جهلنا للغة, و إما لأن بعض اللغة لم يصل إلينا, و يتكئ على قول سيبويه:"لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر"

و يدعم هذه القناعة بالاستدلال بتسمية العرب للأشياء بأصواتها مثل : الخازبار و هو الذباب " لصوته" و البط و الخاقباق (صوت الفرج) و الواق للصرد لصوته و غاق للغراب , و الشيب صوت مشافر الإبل , و الهيقم (صوت اضطراب البحر) كما أن العرب تتنادى بالأصوات فيقولون : حاحيت و عاعيت و هاهيت إذا قلت : حاء و عاءوهاء ,وكذا تسميتهم الحوقلة و البسملة و الهيللة. (35)

و إن كان ابن جني بحكم تمرسه باللغة و جودة اطلاعه عليها و معرفته بها يجزم يقينا بأن هذا النظام يسري فيها جميعا حتى الجزء الذي لم يصلنا, و الجزء الذي وصلنا و لم نحسن التطبيق عليه, فإن تلك قناعته التي رسختها فيه هذه اللغة الساحرة بمرونتها و طواعيتها و اتساقها , و تلك أيضا منهجيته العقلية الصارمة في البحث , لكن الأمر يختلف بالنسبة لغيره سيما المحدثين , إذ يرون هذا التقدير مردودا لأن قيمة الرمز اللغوي (الكلمة) الدلالية عرفية باتفاق اجتماعي متتابع , ولا نستطيع أن ننسب قدرة دالة إلى كل حرف يؤلف هذه الكلمة. ذلك أن العبقرية العربية تجلت في النضج الأبجدي في أوغاريت, إذ غدت الحروف (الأصوات) التسعة و العشرون أدوات مجردة تدخل في تركيبات صرفية كثيرة, و منذ القرن الثاني استقر هذا النهج اللغوي. (36)

و هكذا يجد الباحث نفسه مجبرا على إعادة النظر في قصة النشأة . و النشأة تمثل فلسفة اللغة لا ريب في ذلك , لكن ما الذي يحول بين أن تكون اللغة وضعية و البنى اللفظية تعكس صوتيا تلك الدلالات العرفية؟

إن الذين يرفضون هذه الاقتراحات التي يدعمها التطبيق باطراد مخطئون من حيث يعتقدون أن الوضع يلابسه الارتجال, و أن القول بوجود نظام دقيق على هدا النحو يسلمهم–كارهين–إلى القول بتوقيف اللغة حتى كأن الوضع و النظام لا يلتقيان. و العجيب أنهم يسلمون بوجود الاتساق و النظام في كثير من العلوم كالنحو و العروض محتجين بالسليقة و صفائها لدى الأوائل, فما بالهم لا يقولون مثل ذلك ههنا؟..

و الذي استغربه من صاحب الخصائص أن يعقد بابا في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول و المباني, و يمثل لذلك بالخلق و الخلق و دلالتهما المتلازمة, و كذلك ما جاء على وزن فعيلة مثل الطبيعة و النحيتة و الغريزة و النقيبة و الضريبة و النحيزة و السجية, فهذه البنى على اختلافها, تؤدي دلالة واحدة هي الصفة الملازمة لصاحبها و الثابتة(37) فكيف يوفق ابن جني إذا بين مقالته هذه و قوله أن المباني لها شبه قريب بالمعنى, بل يذهب إلى أن الصامت الواحد يستقل بالدلالة على جزء من المعنى العام؟

و الظاهر أن الجمع بين القولين متعذر, سيما و أن ابن جني ألح على أن المشابهة بين المبنى و المعنى مطردة في اللسان العربي كله, و إن كان هناك إمكان للتوفيق فإنه لم يذكر مسوغه, و يبقى هذا تناقضا ينفي مصداقية القولين معا إن لم يقم قول ثالث ينهض كالقيد أو الاستثناء.

و أعتقد أن هذا من تسامح ابن جني, إذ يقبل بالترادف استعمالا لوجود التقارب لا التطابق لأن المقصود هو المعنى.إذ المعاني أشرف من الألفاظ, لذلك سامحت العرب نفوسها في العبارة عنها(38), و إذا جاز أن يكون

في أصول هذه اللغة المقررة اختلاف اللفظين و المعنى واحد كان اختلاف المباني غير مؤثر إن تحقق المقصود وهو المعنى(39), و هذا إن كان شاهدا على واقعية ابن جني في اعترافه بتقارب دلالات المباني على اختلافها فإن المنهج الاعتزالي يفترض فيه الصرامة العقلية و العلمية التي توجب أن لا يكون للفظ الواحد إلا معنى واحد و العكس يصح.

موانع الإفادة من الظواهر الصوتية في بناء المعاجم و استنباط الدلالة

إنني أدرك جيدا تبعات هذا الاعتقاد الرابط بين الصوت و الدلالة ربطا موضوعيا , و أعرف أنه يمضي قدما , فتصادفه ظواهر لغوية مؤصلة و مقعدة مثل المشترك اللفظي و المتضاد و المترادف و ما إليها, ويعود خلفا , فتجابهه مسألة نشأة اللغة بطابعها الفلسفي, بل يرتمي في أحضان البحث الديني الذي ارتبط بالدرس اللغوي عبر مساره تأصيلا و تفسيرا و إنتاجا.

و لكنني ألقي العبء أول ما ألقيه على المعجم. إذ هو المشرع الدلالي لبقية الحقول لغة ودينا. فاللغوي و رجل الدين كلاهما يستفتيان المعجم في دلالة المفردة لأنه الوحيد الذي يمكنه أن يسعفهما بالمادة اللغوية السليمة و المؤسسة لغويا لتنشيط فكرهما بموضوعية تتفق و البحث العلمي غير أن الملاحظ على المعاجم غالبا ما يلي:

1- تغليب الجمع على التمحيص و التصنيف : لأن الغاية هي الحفظ الذي يحقق التواصل الأممي , و يتيح فهم و تدارس كتاب الله و ديمومة سلامة اللسان. ولأن هذه الغايات النبيلة هي المتوخاة فإن المعجمي ينشغل أول ما ينشغل بمحاولة الإحاطة بالمادة اللغوية و قتلها إلماما. ففي لسان العرب و في المقاييس و في التهذيب يسرد جميع ما قيل عن اللفظة و حولها من إفادة للمعنى , و هذا أمر ذو بال سيما في الأدوار الأولى من الظاهرة المعرفية لكن ينبغي فيما بعد تناول هذا الكم الهائل بالتصنيف وفق معيار لغوي معين نظير ما فعله صاحب فقه اللغة و أسرار العربية , و ما فعله أبو هلال العسكري في فروقه من بيان للبون الدلالي لما يتوهم أنه مترادف , و على شاكلة العمل الجليل الذي قدمه الخليل في (العين) من تصنيف صوتي لمادة المعجم جميعها.

2- متابعة الأحكام المعرفية:المعجمي إنسان له انتماؤه و هواه في مسائل الفكر و الإيديولوجية, و له إلى ذلك محيط قاهر قد يملي عليه كما أملى و يملي على أهل البحث قبله و بعده , و لكنه و هو أخطرهم جميعا قد يكون أريبا لبيبا يتخلص من كل هذا العنت و الحرج بأن يظل داخل الدائرة اللغوية المعجمية , فهو يستفتي اللغة باللغة لا غير . أما أن يقدم المفردة بالدلالة الفلانية عملا بما قال الأشاعرة أو يرفضها مناهضة لما ذهب إليه المعتزلة فتلك مفسدة الموضوعية و قالبة المنهج العلمي الذي يباشر صاحبه البحث بوسائل و أدوات , و يلاحظ , و يفترض و يستصفي و يقصي على هدى من واقع البحث . أما الدخول بمعاني مسبقة و نتائج مبيتة فهو نقض للبحث و قتل له في بدايته , و إليك مثالا لذلك كيف ينحاز صاحب اللسان إلى خصوم المعتزلة من الأشاعرة و غيرهم وهو يقدم لنا دلالة الفعلين رأى و خلق مثلا ذلك أنهما يتعلقان بمسألتين عقيديتين كلاميتين هما رؤية الله يوم القيامة و مسألة خلق القرآن و كذا خلق الأفعال.

يمكننا أن نضيف إلى هذا المثال سائر الأحكام نحوية و صرفية و بلاغية و فقهية و عقيدية , فجميعها نتائج معرفية لا ينبغي أن تفرض قسرا على الدلالة.

ثبت الإحـالات

(1) د. عادل فاخوري:علم الدلالة عند العرب– دراسة مقارنة مع السيمساء الحديثة– ص8.

(2) د. عادل فاخوري :علم الدلالة عند العرب– دراسة مقارنة مع السيمساء الحديثة– ص7.

(3) د. حلمي خليل: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي– ص34.

(4)د. محمد خير الحلواني:أصول النحو العربي– ص49.

(5) د. حلمي خليل: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي– ص34.

(6) د. حلمي خليل د. حلمي خليل: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي– ص32.

(7) د.عبد العزيز عتيق: مدخل إلى علم الصرف– ص9.

(8)محمد بوعمامة: علم الدلالة بين التراث و علم اللغة الحديث– ص85.

209.)AL Khuli(MA) :a dictionnary of theoritical linguistics-P9(

(10)ابن جني: المحتسب–18/2.

(11)الزمخشري: الفائق في غريب الحديث –65/3.

(12)ابن جني: الخصائص– 143/3.

(14)و(13)المصدر نفسه –163/2.

(15) د.حسن عباس: خصائص الحروف العربية و معانيها – ص21.

(16) د. حسن عباس: خصائص الحروف العربية و معانيها – ص31.

(17) د.عمار ساسي:اللسان العربي وقضايا العصر – ص124و125.

(18)المصدر نفسه –146/2.

(19)المصدر نفسه –150,149/2.

(20)المصدر نفسه –150,149/2.

(21)المصدر نفسه –166/2.

(22)المصدر نفسه –167,166/2.

(23)و(24)و(25)الزمخشري: الفائق في غريب الحديث–50/3,و242و234.

(26)المصدر نفسه–103/1.

(27)الجاحظ: الحيوان–291/1.

(28)ابن جني:الخصائص–133/2.

(29)المصدر نفسه–134/2.

(30)المصدر نفسه–136,135/2.

(32)المصدر نفسه–138/2.

(32)د.إبراهيم أنيس:دلالة الألفاظ– ص67وص72.

(33)الزمخشري: الفائق في غريب الحديث–84/4.

(34)المصدر نفسه-399/1.

(35)ابن جني: الخصائص-165,164/2.

(36)د.فايز الداية:علم الدلالة العربي- ص23.

(37)ابن جني: الخصائص -114/2.

(38)المصدر نفسه-466/2.

(39) المصدر نفسه – 468/2.

فهرس المصادر و المراجع

(1)- إبراهيم أنيس

* دلالة الألفاظ : مكتبة الأنجلومصرية – ط3. 1973

(2)- ابن جني(أبو الفتح عثمان ابن جني)

* الخصائص: تحقيق الأستاذ محمد علي النجار- دار لكتاب العلمي –القاهرة- ط2. 1952

* المحتسب : تحقيق علي النجدي و جماعة المجلس الأعلى للشؤون الدينية. 1386هـ

(3)- الجاحظ(أبوعثمان عمرو بن بحر)

* البيان و التبيين : مكتبة الخانجي – القاهرة – ط3. 1968

* الحيوان : دار الكتاب العربي – بيروت/لبنان .1969

* رسالة البرصان و العرجان : تحقيق د. محمد مرسي الخولي

مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر – القاهرة – ط2. 1981

(4)- د.حسن عباس

خصائص الحروف العربية ومعانيها: منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق/سوريا.1980

(5)- د.حلمي خليل

مقدمة لدراسة التراث المعجمي: دار النهضة العربية للطباعة و النشر- بيروت/لبنان ط1. 1997

(6)- زكي نجيب محمود

* مع الشعراء : دار الشروق – بيروت/لبنان – ط2. 1982

(7)- الزمخشري(أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر)

* الفائق في غريب الحديث: تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم و علي البجاوي

دار المعرفة – بيروت/لبنان- ط2

(8)- الشريف المرتضى(علي بن الحسين الموسوي العلوي).

* أمالي المرتضى : دارالكتاب العربي – 1967

(9)- عادل فاخوري علم الدلالة عند العرب " دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة :- دار الطليعة للطباعة و النشر- بيروت/لبنان ط1 .1985.

(10)- عبد العزيز عتيق
* مدخل إلى علم الصرف : دار النهضة العربية للطباعة و النشر- 1971
(11)- عبد القاهر الجرجاني
* دلائل الإعجاز في علم المعاني : تحقيق السيد محمد رشيد رضا.
دار المعرفة – بيروت/لبنان. 1981
(12)- علي عبد الواحد وافي
* نشأة اللغة : مكتبة غريب – مطبعة العالم العربي- القاهرة .1971
(13)- د.عمار ساسي
اللسان العربي و قضايا العصر : دار المعارف للإنتاج والتوزيع – البليدة /الجزائر.2001.
(14)- فايز الداية
* علم الدلالة العربي : ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر- ط1. 1988.
(15)- القاضي عبد الجبار الهمذاني
* شرح الأصول الخمسة : موفم للنشر- الجزائر.1990.
* متشابه القرآن : تحقيق عدنان محمد زرزور- دار التراث- القاهرة.
(16)- محمد بوعمامة
* علم الدلالة بين التراث و علم اللغة الحديث(رسالة دكتوراه)- جامعة قسنطينة .1995
(17)- محمد خير الحلوانيأصول النحو العربي لينوتيب مطبعة الشرق- حلب/سوريا.1979
(18)- محمود أحمد كامل.
* مفهوم العدل في تفسير المعتزلة للقرآن الكريم.
دار النهضة العربية للطباعة و النشر – بيروت/لبنان. 1983
(19)- المهدي فضل الله.
* مدخل إلى علم المنطق : دار الطليعة – بيروت/لبنان – ط4 .أكتوبر 1990.

المراجع الأجنبية

- Pierre Aubenque(1)
Le problème de l'être chez Aristote – 2edition. P.U.F- Paris
EL Khuli (M.A): a dictionary of theoretical linguistics. Librairie du Liban / Beirut – first édition. 1982

المعجميــة و الوظيفـة

الأستاد : نورالدين بلاز
جامعة سعد دحلب البليدة

عندما نريد أن نختبر شخصا ليتأهل في صناعة ما نقول له : مادا تحسن ؟

و من خلال عنوان المداخلة (المعجمية والوظيفة) أريد أن أتوصل إلى الوظيفة التي تتعلق بالمعجمية ، ماهيتها ، أداتها ،هدفها ، و حدودها . و هدا من أجل التوصل إلى تحديد وظيففة هدا الاختصاص .

و إذا رجعنا إلى التراث العربي القديم في اللغة بشكل عام فإننا سنصطدم بكم هائل من الكتب المتنوعة في هدا الجانب ، في زمن ممتد في الدراسات اللغوية قديما .

و إ واصلنا البحث فيما كتب في جمع الكلمات ، و تصنيفها حسب أصواتها و دلالاتها لوجدنا دصيدا معجميا منجزا و مستوفيا من حيث البناء القاعدي لهدا العلم . بحيث ضبطت قواعده و قوانينه و أحسن دليل على دلك ما تركه القدماء من مصنفات معجمية على غرار (لسان العرب) لإبن منظور ، و(كتاب العين) للخليل بن أحمد الفراهدي .

و لعل البحوث اللغوية الأخرى كعلم النحو ، والبلاغة كان لها الأثر في تنشيط الاهتمام بالمعاجم من قبل هؤلاء العلماء و من ثم ارتسمت صورة التعدد الوظيفي للغة ، فشكلت بحوثهم نظاما عرفيا للغة العربية ، حتى بلغت عندهم مرحلة استطاعت أن تضفغي على نقسها أشكالا عدة من خلال تعدد وظائفها البلاغية و النحوية، و الاجتماعية و العاطفية.

ما يهمنا من هده الوظائف ، الوظيفة العاطفية و هي عنصر من أبرز عناصر الأدب .

و لقد دأب كثير من الدارسين أن قسموا الأدب ألى مستويين :

أولا : مستوى بلاغي

ثانيا : مستوى عاطفي فمن خلال هده المسافة التي تفصل بين المستويين نرصد الإزاحة اللغوية اللتي تنشأ نتيجة الانتقال من مستوى إلى آخر .

فأي انتقال يحدث داخل هده المسافة يؤسس إزاحة ما داخل اللغة . صحيح أن اللغة تتميز بالثباتى، و لكن هدا الثبات نسبي مادام متعلقا بحصيلة معجمية للكلمات في مدى زمني محدود .

إن الرصيد المعجمي متغير ما دامت الإزاحة اللغوية واردة ، فيحدث نوع من التمرد عن العرف اللغوي من المستوى الأول لوظيفة اللغة . و كلما اتسعت مساحة تلك الإزاحة تبع دلك نوع من الغموض .

فالوظيفة اللغوية قابلة للتغير ، وهي نتيجة له ، و هدا التغير يمس منطقها داخل تلك الوظيفة العرفية أو ما أسس لها من منطق لغوي خاص .

وإن من أهم أنواع الإزاحات هي الإزاحة الدلالية ، لأنها تتعلق بدلالة الكلمة المفردة الواحدة ، وهي الخلية الأولي للنسق .

فإن التغيير الدي يحدث في المفردات يؤدي إلى التغيير في السياق . فالمفردات – العلامات – تنتج أشكالا ، وإزاحات متعددة بدورها . و هده الأنواع من الإزاحات كما يتصورها (جون بيرس) تتمثل في العلامات اللغوية كما عرفها قدماء اليونان ، ونظر لها من جاء بعدهم من علماء العرب و الغرب قديما و حديثا .

فالعلامة الغوية التي تسمى (الأيقون) هي علامة تشير إلى موضوعها من خلال ارتباطها بموضوعها ، وتشير إليه على أساس التشابه بينهما .

و كدا المؤشر الدي يعتبر علامة يشير إلى موضوعه من خلال ارتباط طبيعي كالدخان بالنار ، و السحب بالمطر . أما(الرمز) فهو علامة لغوية تشيرلا إلى موضوعها من خلال ما اصطلح عليه ، فلون الأحمر مثلا للتوقف ، في قوانين المرور .

إن الفلاسفة العرب استفادوا من اطلاعهم على كتب (أرسطو) ، و آثار المتصوفة الدين ربطوا مفهوم الظاهر و الباطن، فكانت لهم آراء مهمة في هدا الصدد كـ (ابن عربي) الدي أدرك بأن للغة وظائف متعددة .

فشبه الرؤيا بالرحم ، مثل تكون الجنين في الرحم ، كدلك المعنى في الرؤيا عنده نوع من الإتحاد بالغيب . و كأن (إبن عربي) أراد أن يلفت النظر إلى تغيير يحدث في هدا الامتزاج بحيث يحدث شيء جديد . فاللغة وظيفتها نقل هده الصورة الجديدة للعالم .

ومن ثم تتحدد وظيفتها من خلال نقل الحقيقة ، و هي المستوى الأول ، ثم يحدث المخاض في المستوى الثاني عن طريق توليد العاطفة ، فيكون النقل مزدوجا ، و لكن في صورة واحدة .

فإن الإزاحة تجعل من العبارة عبارة غير معقولة ،تهدم المنطق العقلي لتؤسس بدلا منه منطقا عاطفيا.

فبهده الوظيفة تتجاور الواقع و لا تهبط إليه ، بطريقة موازية ، أو معاكسة .

و سيتضح أكثر من خلال الرسم و العلامة اللغوية عبر هده الوظيفة التغيرة ، و بفضل الإزاحة تكون دات فاعلية داخل السياق تارة ، و دات تأثير على المخيلة تارة أخرى

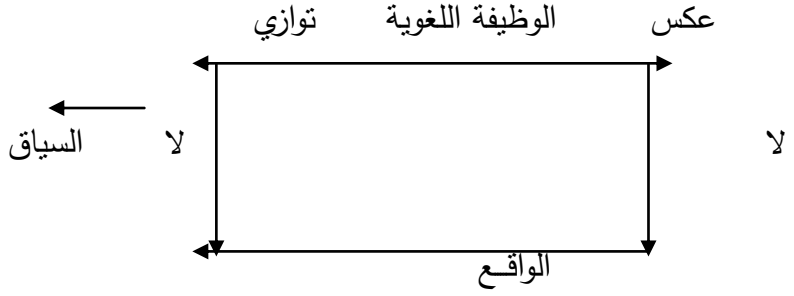

وكلما اتسعت الإزاحة ،اقترب النص من الشعرية ، وبناء على ما تقدم من إظهار ذلك التغيير الذي يحدث في عملية النقل عند التقاء المستويين بفعل تلك الإزاحات ، سنبين من خلال الرسم الآتي الحركة النشطة تتجلى لنا الوظيفة التي تنقلها العلامة اللغوية إدا تعلق الأمر بموضوع يكون مشحونا عاطفيا.

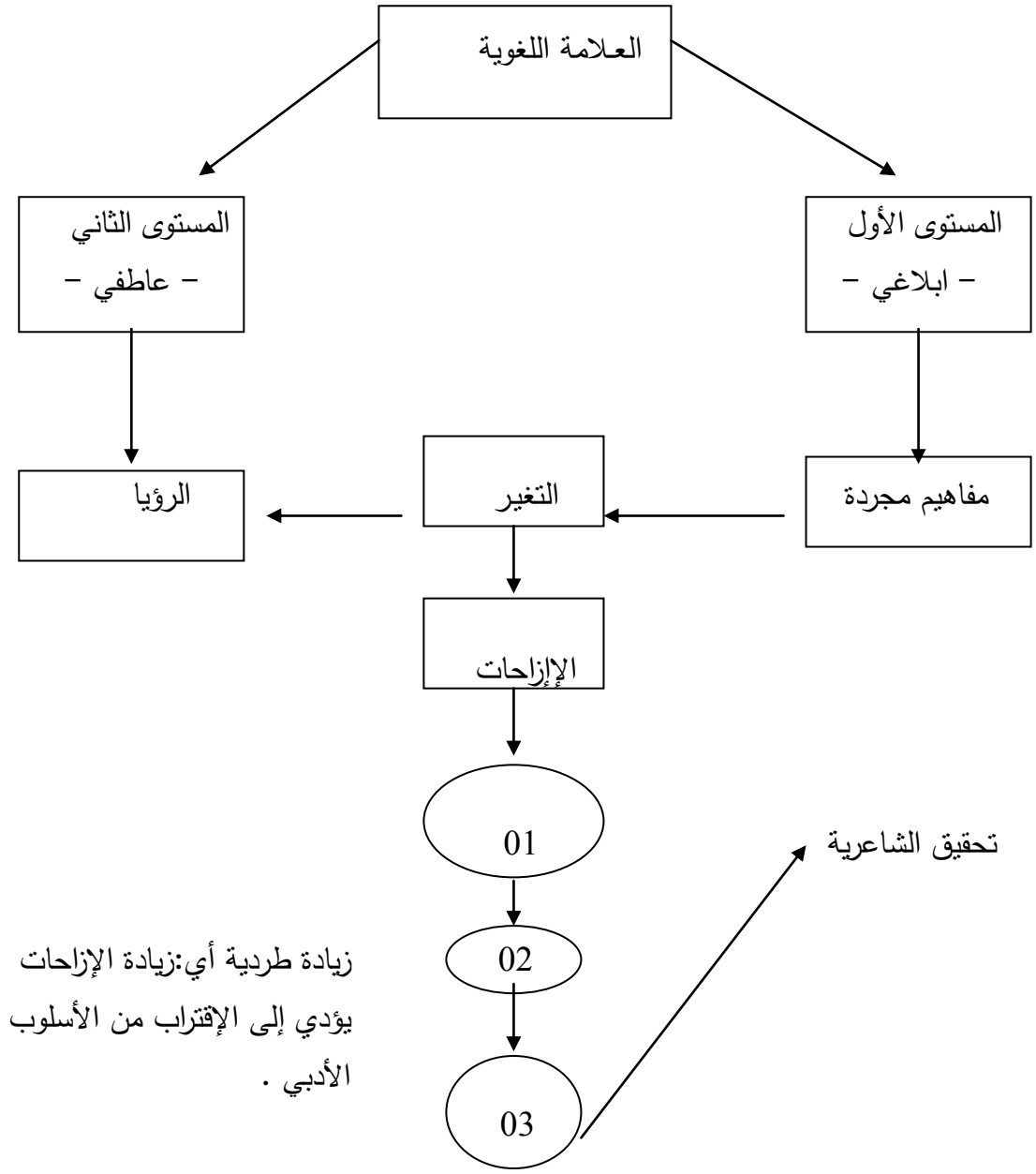

المراجع :

1–الخطاب الشعري و إشكاليات الإزاحة في اللغة . مقال لـ عبد العزيز موافي .

2– سلسلة من المحاضرات في علم الدلالة . نورالين بلاز . جامعة سعد دحلب .

3– مجلة الفكر ، العدد 94 ، ص 24 .

الصدى الصوتي للحرف القرآني فواتح السور نموذجا.

الأستاذ: هشام خالدي
جامعـة المديـة

المقدمة:

يبدأ القرآن الكريم قد وجه اهتمام العرب منذ عهد مبكر ولفت نظرهم إلى ضرورة الإفادة من الزخم الصوتي في اللغة العربية وهو يستهل بعض السور القرآنية بجملة محددة من الحروف الهجائية التي تنطلق بأصواتها أسماء، لا بأدواتها حروفا، للإفادة من صوتياتها لدى الاستعمال دون حرفيتها.

وكان القرآن العظيم قد افتتح عامة سوره بعشرة أنواع بيانية من فن القول شملت طائفة متميزة من معاني النحو وأساليب البلاغة حتى حصر أرباب علوم القرآن بذلك دون تزيد عليها أو نقصان منها، فلا يخرج شيء من فواتح السور عنها، وقد يتداخل بعضها ببعض تارة[51].

ولعل من المفيد حقا للإشارة على سبيل النموذج بأصل قرآني واحد لكل نوع تمهيدا بين يدي النوع المراد بحثه صوتيا، وسنكتفي بإيراد هذا النموذج الواحد للدلالة عليه في النماذج المتوافرة وجودها في أضراب أخرى لكل أصل.

1)- الاستفتاح بالثناء على الله تعالى كما في أول الفاتحة .

2)- الاستفتاح بالقسم، كما في أول سورة الفجر، (والفجر).

3)- الاستفتاح بالجملة الخبرية كما في أول سورة المؤمنون (قد أفلح المؤمنون).

4)- الاستفتاح بصيغة الأمر كما في أول سورة العلق (اقرأ باسم ربك).

5)- الاستفتاح بصيغة الشرط كما في أول سورة النصر (إذا جاء نصر).

6)- الاستفتاح بصيغة الاستفهام، كما في أول سورة النبأ (عم يتساءلون).

7)- الاستفتاح بالدعاء، كما في أول سورة المطففين (ويل للمطففين).

8)- الاستفتاح بالنداء كما في أول سورة المدثر (يا أيها المذكر).

9)- الاستفتاح بالتعليل، وقد ورد مرة واحدة في القرآن، في سورة قريش (لإيلاف قريش)

10)- الاستفتاح بحروف التهجي، وهي موضوع هذا البحث في الصوت الغوي، إذا تم استفتاح تسع وعشرين سورة في المصحف الشريف بحروف هجائية مقطعة تمكين حصرها بالضبط على النحو التالي:

أ- ثلاثة حروف موحدة هي: ص.ق.ن.

ب- عشرة حروف مثناة هي: طه، طس، يس، وحم استعملت في افتتاح سبع سور، فهذه عشرة.

ج-إثنا عشر مثلثة الحروف هي:آلم،آلر،طسم،وقد تكرر الأولان عدة مرات في المصحف دون طسم .

[51] الزركشي: البرهان في علوم القرآن 1/ 146.

د- إثنان حروفهما أربعة: ألمر، آلمص.

هـ- إثنان حروفهما خمسة، كهيعص، حمعسق.

ولقد اهتم علماء الإعجاز القرآني بالتصنيف الصوتي لهذه الحروف في فواتح السور، وبيان أسرارها التركيبية، ودلائلها الصوتية، وكان أبو بكر الباقلاني (ت: 403 هـ) في طليعة هؤلاء الأعلام. فقال:(إن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه (الحروف) هي أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهي أربعة عشرة حرفا ليدل بالمذكور على غيره، والذي تنقسم إليه هذه الحروف أقساما: فمن ذلك قسموها إلى حروف مهموسة وأخرى مجهورة، فالمهموسة منها عشرة، سكت فحثه شخص وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان)[52].

وقد أفاض الزمخشري (ت: 538 هـ) في تعقب هذه الوجوه، وذكر هذه الملاحظة وأفاد مما أبداه الباقلاني وزاد عليه متوسعا، وفصل ما ذكره مجملا بما نحاول برمجته باختصار على النحو التالي:

أولا:

قال الزمخشري: (أعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي الألف واللام والميم والراء و الكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أقصا في أجناس الحروف)[53].

ثانيا:

وبعد هذا التقسيم الدقيق تعقب الزمخشري حكمة هذا التركيب، وغاية هذا الذكر، وفلسفة هذه الأصوات، فقال:(ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكور منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته.

ولقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عز وجل اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم)[54].

ووقف بدر الدين الزركشي (ت: 749 هـ) عند الصدى الصوتي للحروف المقطعة في فواتح هذه السورة من عدة وجوه صوتية، يمكن رصد أبعادها بالخطوط التالية:

<u>أولا:</u>

عرض الزركشي لأعداد هذه الأصوات في فواتح السور، ووقف عندما ابتدأ به بثلاث حروف، واعتبر لذلك سيرا صوتيا بارزا علله بقوله عن (ألم) في تركيبها: (وذلك أن الألف إذا بدء بها أولا كانت همزة. وهي أول

[52] الباقلاني: إعجاز تالقرآن،ص 66.
[53] الزمخشري: الكشان 101/1.
[54] نفسه، 103/1.

المخارج من أقصى الحلق واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف، ومخرجها من الفم وهذه الثلاثة هي أصل مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفتين، وترتبت في التنزيل من البداية إلى الوسط، إلى النهاية، فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة، التي يتفرع منها ستة عشر مخرجا ليصير منها تسعة وعشرون حرفا، عليها مدار الحلق أجمعين، مع تضمنها سرا عجيبا، وهو أن الألف للبداية واللام للتوسط. والميم للنهاية، فاشتملت هذه الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما[55].

ثانيا:

وتعقب الزركشي ملائمة صوت الطاء للسين في (طس) ومجانسة للهاء في (طه). وهو يعمم هذه الملاءمة وتلك المجانسة صوتيا فيقول:

(وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت بين الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها وهي: الجهر، الشدة، والاستعلاء، والإطباق، والاصمات، والسين، مهموس، رخو، مستفل، صفيري، منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها، كالسين والهاء فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف[56].

وقد تنبه الزركشي أيضا إلى اشتمال سورة (ق) على ذات الحرف، لما في صوت القاف من القلقلة والشدة من جهة ولاشتماله على الجهر والانفتاح من جهة أخرى (وتأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة: كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، ممن ذلك (ق والقرآن المجيد)[57].

فإن السورة مبنية على الكلمات القافية: من ذكر القرآن، ومن ذكر الخلق، وتكرار القول ومراجعته مرارا، والقرن من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق، والقرين، والإلقاء في جهنم والتقدم بالوعد وذكر المتقين، وذكر القلب والقرآن والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل، والرزق، وذكر القوم، وخوف الوعيد، وغير ذلك[58].

وعليه فإن حرف القاف في هذه السورة قد تكرر 54 مرة في خمس وأربعين آية زيادة على الحرف الاستفتاحي.

فما هذا السر الصوتي لهذا الحرف؟ وما علاقة تنمية السورة به من خلال هذا البناء عليه؟ وما هو موقع القلقلة في القاف، والشدة في صوتها، والجهر بآدائها و الانفتاح عند نطقها بهذا التكرار في شتى الكلمات، مما ذكره الزركشي ومما يذكره.

وهكذا نجد الزركيشي في تنبيهاته الصوتية، سواء أكان ناقلا لها، أم مجمعا لشتاتها، أم مبرمجا لخططها، أم مبتدعا لبعضها– يؤكد العمق الصوتي لدى علماء العربية في إبراز حقيقة الصوت اللغوي فيما اتسمت به فواتح السور القرآنية ذات الحروف الهجائية المقطعة.

---

[55] الزركيشي، البرهان في العلوم القرآن، 168/1.
[56] نفسه: 186/1
[57] سورة ،ق،1.
[58] المرجع نفسه169/1.

والحق أن استقرار المراد من هذه الحروف المعطلة وإن لم يدرك أسراره – لا يخرجها عن حقيقة واقعها الصوتي في الأسماع، ولا جوهرها الإنصاتي لدى الإطلاق، فهي من جنس أصوات العرب في لغتهم، ومن حروف معجمهم، ومن روح أصداء لغة القرآن العظيم. ولا يمانع هذا الاستقراء على اختلاف وجهات النظر فيه من شموخ الصوت اللغوي في أضوائها، وبروز الملحظ الصوتي في تأويلها، توصل إلى الواقع أو لم يتوصل، على أن السلف الصالح مختلف في المراد من هذه الحروف المقطعة، وقد اختلف القدماء والمحدثون في سر هذه الحروف، فنحاول فيما يلي أن نعطي كشفا منظما بأبرز هذه الآراء، ونعقبها بما نأس به، ونطمئن إلى مؤاه باعتباره جزءا من كلي فرائدها، دون القطع بأنه مراد الله منها أو القول به[59].

1- اختار بن عباس: أن كل حرف منها مأخوذ من أسماء الله تعالى، ويقاربه ما روى عن السدي والشعبي أنها: اسم الله الأعظم[60].

و لا تعليق لنا على هذا الزعم من ناحيتين.

الأولى : أن أسماء الله تتداخل بظمنها جميع الحروف في المعجم العربي وقد تستقطبها فلا ميزة والمادة هذه لحرف على حرف.

الثانية : أننا نجهل اسم الله الأعظم لاختلاف الآثار والمرويات فيه، إن صح صدور تلك الآثار والمرويات.

2- إن الله تعالى أقسم بهذه الحروف على وجهين : وجه اختاره ابن عباس وعكرمة: إن هذا القسم بأسمائه لأنها أسماؤه.

ووجه: أن هذا الكتاب الذي يقرؤه الرسول (ص) هو الكتاب المنزل و لا شك ولا مراء فيه، وذلك يدل على جلالة قدر هذه الحروف، وقد أقسم الله بـ (الفجر) والطور. فكذلك شأن هذه الحروف في القسم بها.

3- ورأي ثالث وهو أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه، فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجبهم سببا لأسماعهم و استماعهم سببا لاستماع ما بعده، فترق القلوب وتلين الأفئدة[61].

وقد انتصر له من المحدثين الأستاذ محمد جمال الهاشمي وترجمه بمنظور عصري، وأضاف إليه البعد الرمزي فقال: "إن القرآن في أسلوبه البياني الفذ أراد أن يجذب الأنظار والأفكار، فافتتح بعض سوره المباركة، بهذه الحروف المقطعة فهي أشبه ما تكون بإشارات المحطات العالمية في الراديو حيث تتخذ كل دولة رمزا خاصا لها يدل على محطة إذاعتها، ويميز بينها وبين المحطات الأخرى وهكذا القرآن كان يتخذ من هذه الحروف رمزا مخصوصا لوحيه يستلفت به الأذهان لتستمع إلى آياته المنزلة بوعي و انتباه، ولازالت هذه الهزة الوجدانية تعتري النابهين من المؤمنين كلما طرقت أسماعهم هذه الحروف الساحرة في تقاطيعها المطربة، وإنما كان يستعمل هذه الإشارة الحروفية في الحالات الخاصة التي تستدعي الاهتمام.

---

[59] للتوفيق بين هذه الآراء وتفاصيلها كلا من الطبري، جامع البيان: 750/1. للطوسي التبيان: 47/1 .

[60] للكشاف: 83/1.

[61] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 175/1

إلا أن الملحظ الذي نقف عنده للدلالة على التنبيه على صوتية هذه الحروف مع كونها إشارات إعجازية في بعض حكمها الملحظ هذا: أنها تنطق كنطقك الأصوات ولا تلفظ كلفظك الحروف، فتقول في قوله تعالى: (ص) "صاد" صوتا نطقيا لا حرفا مرسوما "ص".

وكذلك في الحروف الثنائية مثل: (ألم)، (ألمر). و أشار الشيخ الطوسي (ت: 460هـ) إلى جزء من صوتية هذه الحروف فقال: "وأجمع النحويون على أن هذه الحروف مبنية على الوقف لا تعرب، كما بني العدد على الوقف ولأجل ذلك جاز أن يجمع بين ساكنين كما جاز ذلك في العدد.

الخاتمـة:

هذه لمحات صوتية في خضم دلالات الحروف المقطعة في فواتح السور القرآنية، وقفنا عند الصوت اللغوي فيها، وأشرنا إلى البعد الإعجازي من خلالها، وليس ذلك كل شيء في أبعادها، فقد تبقى من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وخير الناس من قال فيها بكل تواضع، حيث قال مالك بن نبي في حديثه عنها: "لقد حاول معظم المفسرين أن يصلوا إلى موضوع الآيات المغلقة إلى تفاسير مختلفة مبهمة، أقل أو أكثر استلهاما للقيمة السحرية التي تخص بها الشعوب البدائية، الكواكب، و الأرقام و الحروف، ولكن أكثر الناس تعقلا واعتدالا، هم أولئك الذين يقولون في حال كهذه بكل تواضع: الله أعلم". وفق هذا وذاك قول أمير المؤمنين الإمام علي –كرم الله وجهه– فيما ينسب إليه: "إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي". وتبقى التأويلات سابحة في تيارات هذه الحروف المتلاطمة، والتفسير الحق لها عند الله تعالى، ولا يمنع من كشف سيل الحكم و الإشارات و التوجيهات والملامح اللغوية بعامة، أو الصوتية المتخصصة أو الإعجازية بخاصة في هذه الحروف، فهو ليس تفسيرا لها بملحظ أن التفسير هو الكشف عن مراد الله تعالى من قرآنه المجيد، بقدر ماهو إشعاع من لمحاتها، وقبس من أضوائها، يسري على هذه السالكون.

الهوامـش:

- الباقلاني أبو بكر، محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق سيد أحمد صقر، دار المعارف القاهرة، 1954 .
- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمد بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، دار المعرفة بيروت.
- إبن الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق أحمد مطلوب، مطبعة العاني بغداد، 1964.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1957.

المنهج"نحو معجم صوتي للغة العربية، رؤية في المنهج

الدكتور: عبد الحليم بن عيسى.
بجامعة وهران، السانيا.

1–تقديم:

لا أحد ينكر أهمية المعجم في البيئة اللغوية المعيّنة، فهو الوعاء الذي يحفظ متنها، إنّه السجّل الذي يضم كلّ مفرداتها واستعمالاتها المتنوّعة في مختلف التجليات اللغوية. وقد تنبّه علماؤنا لذلك فاهتموا به جمعا ووضعا، وقد شهدت تطوّرا علميا راقيا ومميّزا، وهذا باعتراف المستشرقين أنفسهم؛ يقول "هايوود Haywood": «الحقيقة أنّ العرب في مجال المعجم يحتلون مكان المركز؛ سواء في الزمان أو المكان، بالنسبة للعالم القديم أو الحديث، وبالنسبة للشرق أو الغرب»[1]. ويرجع هذا الأمر إلى الشمولية التي طُبِعت بها هذه المعاجم من جهة أولى، ثم إلى النظامية التي تؤطّرها من جهة ثانية؛ فـ «المعجم العربي منذ نشأته كان يهدف إلى تسجيل المادة اللغوية بطريقة منّظمة، وهو بهذا يختلف عن كل المعاجم الأولى للأمم الأخرى التي كان هدفها شرح الكلمات النادرة أو الصعبة»[2].

ولكن رغم كل هذا فإنّ المتأمّل للصناعة المعجمية العربية الحديثة يلاحظ أنّها لا تزال تتعامل بتردّد وفتور مع المعطيات العلمية الحديثة في شتى مستوياتها. فكان من الضروري الإفادة من الطروحات المنهجية والمعرفية التي قدّمها علماؤنا القدامى من جهة، والاستعانة بالآليات العلمية المعاصرة التي ما فتئت تفرض نفسها عل الإنسان من جهة أخرى. ففي الوقت الذي كان فيه من المنطقي أن تتواصل المسيرة الإبداعية التي رُسمت من قبل في هذا المجال «كانت النتيجة أن تقدّم المعجم عالميا وتخلّف عربيا، ودخلت معظم اللغات عصر المعاجم الحديثة، وتجمّد عمل المعجم العربي، ولم يعد يفي بالمواصفات الضرورية، أو يلبي احتياجات المستهلكين المتنوّعة والمتفاوتة»[3]. ويكفي أن نذكر العجز الذي لا يزال يصيبنا في وضع معجم تاريخي يسجّل المسار التطوّري للغتنا.

وفي ظلال هذا الوضع جاء هذا العمل الذي ندعو فيه إلى الإفادة أكثر من الوسائل التقنية الآنية من أجل تطوير الصناعة المعجمية في طابع آخر يضمن الفعالية والنفعية أكثر. وسنحاول أن نؤكّد أنّه لا مناص من بناء معجم آلي صوتي ذي طابع خاص, يأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات النطقية للغتنا بالدرجة الأولى. ويتم ذلك بالاعتماد على الحاسوب؛ فهذه الآلة الذكية بإمكانها أن تقدّم خدمات جليلة في هذا المسعى. ولذلك قدّمنا هذه الرؤية الشاملة التي تشرح الآليات المنهجية والمصادر النوعية التي تسهم في تحقيق ذلك، بالإفادة من المرجعية المعرفية التي سجّلها لغويونا القدامى من جهة، وما سطّرته الدراسات اللغوية من جهة أخرى.

إنّ التصوّر الذي نقدّمه حول هذا المعجم الآلي لا يقف عند حدود الصوت في مستواه الإفرادي، أو على مستوى الجذر كما هو متوافر الآن في الأقراص المضغوطة؛ بل يتجاوز ذلك ليهتم بالتلوينات التي تمسّه في

الكلمة بحسب ما تمليه البنيات الصرفية المتنوّعة التي تبيحها لغتنا، والتي تضبطها القوانين الصوتية المختلفة، وتتجلّى أكثر في المستوى التركيبي.

2-ماهية المعجم ودوره في حفظ متن اللغة:

تفيد مادة "عجم" الإبهام والإخفاء، يقول ابن جني (ت395هـ): «اعلم أنّ (عجم) إنّما وقعت في كلام العرب للإبهام والإخفاء، وضدّ البيان والإفصاح، من ذلك قولهم: "رجل أعجم وامرأة عجماء" إذا كانا لا يفصحان ولا يبينان كلامهما»[4]. ولكن بإدخال الهمزة على هذه المادة يتغيّر معنى الصيغة الجديدة إلى السلب والنفي والإزالة، وبهذا تصبح "أعجم" تدل على إزالة العُجمة والإبهام.

و"مُعْجَمٌ" أي مزال ما فيه من غموض، ومنه يسمّى المؤلّف المعيّن "معجما"؛ لأنّه الكتاب الذي يجمع كلمات اللغة المعيّنة ويشرحها، ويحدّد معناها واستعمالاتها، ويكشف عن كل المعطيات التي تزيل عنها ما يكتنفها من إبهام، كما يرتّبها وفق طريقة مضبوطة تسهّل على المتعامل الوصول إليها. وقد يسمّى أيضا هذا النوع من من الكتب "معجم" نسبة لحروف المعجم؛ تلك الحروف التي أُزيل عنها إبهامها بالنقط المكنّى بـ "نقط الإعجام"، فقد كانت قبل نقط نصر بن عاصم (ت89هـ) مبهمة إثر التشابه الذي كان بين الأحرف المتساوية في الرسم؛ مثل (ب، ت، ث)، أو (ج، ح، خ)، أو غيرها، فلما أزيل عنها هذا الغموض سُمِّيت بهذا المصطلح، وبالتالي أُصطلح أيضا على المصنّفات التي تعتمد على هذه الأحرف في تقديم المادة المعجمية معاجم.

أما في الاصطلاح فيعرّف بأنّه «كتاب يجمع بين دفتيه مفردات لغة ما، ومعانيها واستعمالاتها في التراكيب المختلفة، وكيفية نطقها وكتابتها مع ترتيب هذه المفردات بصورة من صور الترتيب التي غالبا ما تكون الترتيب الهجائي»[5]. وعُرِّف في المعجم الوسيط بأنّه «ديوان لمفردات اللغة مرتّب على حروف المعجم»[6].

فالمعجم غي إطار هذه التوضيحات هو المصنّف الذي يحاول فيه أصحابه حفظ مفردات اللغة المعيّنة، ببيان كيفية نطقها، وكتابتها، واستعمالاتها المتنّوعة في مختلف التجليات اللغوية، باتّباع طريقة علمية ممنهجة في تقديم ذلك.

ولا يعني هذا أنّ المعجم يهتم بالجانب الكتابي فقط؛ فاللغة ضمن هذا المستوى تبقى مجرّد رموز ساكنة إن لم تتجلّ بوساطة اللسان، ولذا وجب تبيين الطريقة الصحيحة والمقبولة التي توضّح كيف تُنطق الاستعمالات اللغوية المختلفة عبر أشكال الاتصال المختلفة. وقد حاول علماؤنا القدامى الكشف عما يقتضيه هذا المستوى، فقدّموا معلومات دقيقة تبيّن كيفية نطق الصوت ومخرجه وصفاته وبعض التلوينات التي تمسّه، وهذا ما كان حاضرا لدى علماء النحو والتفسير والبلاغة وغيرهم. أمّا العلماء الذين صنّفوا المعاجم فكان لا يبدؤون أي حرف أو كلمة إلا ويحاولون بيان نطقهما بطريقة تتناسب مع منهجم الذي كان مبنيا على الملاحظة والتجربة الذاتية، وأحسب أنّهم لو توافرت لهم مثل الآلات التي هي بين أيدينا لما تغاضوا عنها إطلاقا، من أجل توظيفها في بيان التجليات الصوتية والمظاهر التشكيلية التي تصيب لغتنا.

أما المحدثون فبذلوا جهودا مقبولة من أجل بيان ما يستدعيه هذا الجانب، فوضعوا الأبجدية الصوتية التي تساعد على النطق السليم والصحيح للأصوات للغات العالمية ككل، ولكن نحن مدعوون أكثر من أي وقت

مضى إلى ضرورة تطوير هذه الرؤى من أجل بسط كيفيات أكثر دقة في إبراز الخصائص الصوتية للغة، ولا مفر من الاعتماد على الحاسوب.

3-المعجم الورقي والمعجم الآلي:

كان من نتائج اختراع الحاسوب وتطويره ظهور الكثير من البحوث والدراسات التي حاول فيها أصحابها التقريب بينه وبين اللغة الطبيعية، مستندين في ذلك على النتائج العلمية المبسوطة في المعلوماتية من جهة، وتلك المقّدمة في العلم الذي يدرس اللغة (اللسانيات) من جهة أخرى. وإثر هذا الاهتمام المشترك ظهر حقل علمي مخصوص يعالج الإشكالات التي تطرحها اللغة ضمن هذه العلاقة، يدعى "علم اللسانيات الحاسوبي"؛ فـ «اللغة عبارة عن رموز تدلّ على شيء معيّن، فالكلمات رموز لما تدلّ عليه من معانٍ وأفكار ومضامين، فكلمة "شجرة" ترمز إلى الشيء الذي هو "شجرة"، ولكنّها ليست الشجرة ذاتها... وبالطبع فإنّ الحاسوب لا يعمل إلا من خلال البرمجيات، وهذه البرمجيات عبارة عن لغة مرمّزة، وتدلّ على الشيء الذي ترمز إليه، فمثلا تستخدم كلمة "حفظ" في الحاسوب لتدل على أمر الحفظ، وليس الحفظ ذاته، وأيضا كلمة "طِباعَة" تدل على أمر الطباعة، وليست الطباعة ذاتها»[7]. ومن هذا التوضيح تظهر السمة التجريدية للغة والبرنامج الحاسوبي معا.

فعلم اللسانيات الحاسوبي حقل جديد في اللسانيات التطبيقية، وقد تنوّعت ماهيته لدى العلماء، وهذا ما لاحظناه من خلال الندوة التي ذكرها مازن الوعر في محاورته لـ "زارتشناك M.zarchnak" وألن تكر A.tuker" وجان هيرمنسون J.hermensen"[8]. ومهما اختلفت هده المفاهيم فإنّها تبقى مرهونة بالغاية الأساسية لهذا الحقل؛ وهي محاولة بناء نموذج لغوي آلي، بإمكانه القيام بالعمليات نفسها التي يقوم بها الذهن البشري في تركيب اللغة وفهمها وتحليلها.

وقد انشغل الكثير من الباحثين بهذه الغاية، فقدّموا دراسات متنوّعة تعالج المنظومة اللغوية في مستوياتها المختلفة، فظهرت مع نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن برامج آلية متنوّعة تهتم بالجوانب اللغوية ككل. قد نذكر في الجانب الصوتي "النظام الآلي لنطق النص العربي بالحاسب"، و"نظام التخاطب مع الحاسوب باللغة العربية عبر الهاتف"، وقد نشير أيضا إلى "مركز الأصوات" بمعهد بحوث الحاسب والإلكترونيات"، والذي يتولّى تنفيذ المشاريع البحثية التي تخدم أصوات اللغة العربية. وقد قام ببناء "قاعدة بيانات الصوتيات العربية" التي يوجد بها أكثر من ستة وأربعين ألف ملف تحتوي على تفاصيل دقيقة عن أصوات اللغة العربية، يمكن الاستفادة منها في مجالات الصوتيات التطبيقية المختلفة التي منها توليد الكلام والتعرّف عليه آليا، والبصمة الصوتية، وعلاج عيوب التخاطب[9].

وقد دعت لظهور المعاجم الآلية أسباب كثيرة أهمّها:

-الحاجة إلى المعرفة الدقيقة باللغة المعيّنة معرفة واعية وصحيحة وسليمة، بإمكانها تجاوز المشكلات التي تطرح في التوظيف اللغوي، وتغيب في المعاجم الورقية؛ مثل الجانب التعليمي أو الترجمي أو غيرهما.

-محاولة استدراك التدفّق الهائل للألفاظ والمصطلحات في اللغة المعيّنة، مما يستدعي الدقة والسرعة في استيعاب ذلك، وهذا الأمر يتطلّب وقتا طويلا مع المعاجم الورقيّة. ولهذا أضحى ضروريا الاعتماد على الحاسوب في العمل المعجمي، يقول "لاندو Landau": «من غير المتصوّر الآن أنّ معجما كبيرا يمكن أن

يصنع اليوم دون تخزين المادة في الحاسوب»[10]. وقد كتب أحد المعجميين المشهورين عام 1970م يقول: «إنّنا مقدمون على عصر حينما يكون المعجم الذي لا يتم التعامل معه آليا معجما ناقصا»[11]. وبيّن "زكيستا Zagusta" عام 1971م أنّ المعاجم الأكاديمية الضخمة لن تنشر ورقيا بعد ذلك؛ لأنّ المعجم الورقي عاجز عن استيعاب ما هو مخزن، واختصار المادة المخزّنة فيه قد يخلّ بها[12]. ومنه تظهر حتمية الاعتماد على الحاسوب بدل الورق في الصناعة المعجمية، بناءً على تصوّر خاص ومنهجية علمية مضبوطة.

وفي رحاب هذا الواقع كان من الضروري الاعتماد على المعاجم الآلية, باعتبارها تتوافر على المعطيات التي تمكّنها من الاستجابة الفعّالة للقضايا الطارئة التي تطرح في اللغة.

ويمكن أن نوضّح المزايا التي توفّرها المعاجم الآلية مقارنة مع المعاجم الورقيّة من خلال التركيز على ما يلي:

-الاختلاف التصوّري باعتبار أنّ المعاجم الآلية ليست هي صورة طبق الأصل للمعاجم الورقيّة في البناء والغاية؛ إذ «هناك فرق دقيق بين المعاجم العادية التي يصنعها الإنسان, ويرتّبها وفق نسق معروف البداية والنهاية، والمعاجم الآلية؛ وهي تلك التي يصنعها الحاسوب اعتمادا على خصائص المداخل المتجانس منها والمتخالف»[13]. فإذا كانت المعاجم الورقيّة موضوعة في أساسها من أجل تقديم رصد معيّن حول اللغة انطلاقا من مدخل ما، ثم ضبط الاشتقاقات والاستعمالات مع توضيح الدلالات المعيّنة، من دون التقيّد الدقيق والمتواصل بكل ما تقتضيه اللغة، فإنّ المعاجم الآلية تتجاوز ذلك؛ إنّها تستدعي الدقّة والوضوح والشمولية لكل المعطيات اللغوية الدقيقة التي تستدعيها اللغة الطبيعية المعيّنة في كل مستوياتها.

-الفعّالية والحركية التي تطبع المعاجم الورقيّة، باعتبارها معاجم ساكنة غير نشطة، فمعجم لسان العرب العادي أو الموجود في الأقراص المضغوطة إمكاناته محدودة جدّا، و«لا تتجاوز البحث العادي والبحث الجزئي عن الكلمات، إضافة إلى أنّ محتوى المادة المعجمية غير مبني في هيكل يناسب البحث بطرق حاسوبية، وذلك لكونه ليس أكثر من صيغة إلكترونية للمعجم الورقي نفسه»[13].

أما المعاجم الآلية فهي معاجم نشطة ذات فعّالية تسهم في إمداد المتعامل معها بكل الإمكانات التي قد يحتاجها في القضية المعيّنة؛ بل يمكن أن تمدّه بالاحتمالات التي قد تواجهه في القضايا الجديدة مثل قضية التوليد اللغوي الآلي، فانطلاقا من القواعد التوليدية التي يكون الحاسوب مزوّدا بها يمكن أن يقدّم الاقتراحات الممكنة اتجاه المفهوم المعيّن. كما نلاحظ أنّ هذا المعجم قد يمدّ حتى المؤلّف بالكلمات والتعابير الصحيحة التي تقوّم الأخطاء التي قد تتجلّى في اللغة إفرادا أو تركيبا.

-تُطبع المعاجم الآلية بالتمام والشمولية، على عكس المعاجم الورقيّة التي قد يكتنفها النقص والاختصار، يقول محمد الحناش: «إنّ المعلومات التي يتضمّنها المعجم الآلي يجب أن تكون كاملة غير منقوصة، وذلك حتى لا يفشل الحاسوب في عملية البحث التي يقوم بها عن ظاهرة من الظواهر، وهذا ما لا يشترط في المعاجم العادية التي غالبا ما تستغني عن ذكر بعض المعلومات التي يرى صانعوها بأنّها بديهية، والتي يعوّل في فهمها على ذكاء الفرد المستعمل، لا مجال في المعجم الآلي لكلمة بديهي؛ لأنّنا نتعامل مع آلة ليست لها تلك الخبرة الفطرية أو المكتسبة التي لدى الإنسان. وكل خطأ أو نقص في المعلومات بما في ذلك المعلومات البسيطة، قد

يدعو إلى إرسال علامة الرفض من قبل الآلة»[14]. فالدقّة والشمولية شرطان أساسيان في بناء المعاجم الآلية، فبهما نضمن الصحة والاستيعاب الشامل لكل القضايا التي نعالجها على مستوى الحاسوب. في حين قد نفتقد ذلك في المعاجم الورقية التي قد يتجاوز فيها أصحابها بعض الأمور المعروفة أو البديهية.

-الإمكانية الآنية للإضافة والتطوير في الرصيد المفرداتي الموجود على مستوى ذاكرة الحاسب الآلي، وهذا ما قد يتم ببطء في المعاجم الورقية.

لعلّنا نكون قد أدركنا من خلال هذه الموازنة بين المعجمين الورقي والآلي قيمة الحاسوب في معالجة القضايا اللغوية ،ومنها تظهر الحاجة الماسّة إلى ضرورة الاعتماد على هذه الآلة التي قد تسهم في تحسين الخدمات اللغويّة وتطويرها.

4-حول المعجم الآلي النطقي:

لا يخرج هذا الصنف في تصوّرنا عن التصوّر المنهجي الذي يقتضيه المعجم الآلي ككلّ، وإنّما نحاول أن نلفت النظر فيه إلى الطابع الصوتي الذي قد يُطبع به. فجوهر المعرفة باللغة واستعمالها يتأسّس على الجانب النطقي، لذا لا بدّ من بناء المعاجم الآلية النطقية التي تحقّق ذلك. ويجب أن نشير إلى أنّ هذا التصوّر لا يتعلّق بنطق الصوت مفردا؛ بل يتعدّاه ليشمل أصوات الكلمة والجملة ككل مع الأخذ بعين الاعتبار الخصائص الصوتية التي تطبع بها العربية، ولتحقيق ذلك لا بدّ من الإفادة من العلم الذي يكشف عن هذه المعطيات، نقصد "علم الأصوات العام La phonétique"، و"علم وظائف الأصوات La phonologie" الذي يدرس النظم الصوتية للغة المعيّنة من حيث قيم هذه الأصوات ومعانيها، وقوانينها الصوتية، ووظائفها في التركيب الصوتي، فينظم المادة الصوتية، ويخضعها للتقعيد والتنظيم، وتتّسع دائرته ليدرس الفونيم والمقطع والنبر والتنغيم، ودور كلّ ذلك في تحديد معنى الكلمة أو العبارة، وتمييزه هذا من ذاك، وذلك بوساطة عمليات عدّة منها:

-تحديد وظائف الفونيمات.

-خضوع الفونيمات لقواعد معيّنة في تجاورها وارتباطاتها وعلائقها المتبادلة، مثل: الجهر أو الهمس، الانسداد أو التضييق، التفخيم أو الترقيق، وغير ذلك.

-مواقع الأصوات والتبدّلات التي تصيبها في تحقيقها.

-كثرة ورود الأصوات أو قلّتها في حالات معيّنة.

-نبر المقاطع والكلمات والعبارات.

-تنغيم التراكيب اللغوية[15].

فالنتائج العلمية المتمخّضة عن دراسة كل هذه المعطيات تسهم بفعّلة ونجاح كبيرين في بناء معجم آلي نطقي مستوفي للخصائص التي تتسم بها العربية في تداولها الشفاهي. ونشير ههنا أنّ علماء اللغة قد توصّلوا إلى ضبط القوانين الصوتية المطّردة التي تخصّ الصوت اللغوي سواء في مستواه الإفرادي أو مستواه التركيبي، بإمكانها أن تزوّد الحاسوبيين بالمعطيات التي تضمن الدقّة والفعالية في بناء هذا المعجم.

فمن المعروف أنّ الصوت اللغوي تضبطه خصائص متنوّعة، تتعلّق بكيفية إنتاجه من جهة أولى، ثم بالظواهر التشكيلية التي قد تكتنفه حينما يدخل في بناء الجملة ككل من جهة ثانية. ولا مناص من الأخذ بعين كل هذه الاعتبارات في بناء المعجم الآلي النطقي.

5-مرجعية جمعه وضعه:

كل معجم يحكمه نظام في الوضع ، وآخر في الجمع، ففي نظام الوضع نلاحظ أنّ معجمييينا منذ القدم أخذوا بنظام الجذر بحكم أنّ لغتنا لغة اشتقاقية، ترتدّ في اشتقاقاتها إلى مادة معجمية معيّنة، لذا لما أراد العلماء بناء المعاجم الآلية دعوا إلى ضرورة الأخذ بذلك، لكّن بعضهم لاحظ عدم صلاحية هذا النظام ضمن هذا الصنف من المعاجم، فـ «الجذر يشكّل مدخلا ملائما في حالة الاطلاع على المعجم انطلاقا من الجذر، كما هو الشأن بالنسبة للاستعمال اليدوي. وقد يكون الشأن كذلك بالآلة إذا ما أردنا المعلومات المربوطة بجذر معيّن. ويشكّل الجذر مدخلا كذلك في مرحلة تزويد المعجم بالمعلومات على أساس أنّ المعجم العربي جلّه كلمات تدور حول جذور باستخدام الأوزان. لكن هذا كلّه لا يبرّر أنّ الجذر هو المدخل المطلق؛ إنّ الجذر غير ملائم –على الأقل– في الحالات التالية:

–الاستخدام في الترجمة الآلية وما يدخل في أسلوب علاجها.

–استخدام القاعدة للاطلاع انطلاقا من مفردات؛ فمثلا كيف نحصل على مقابل كلمة " School" التي هي "مدرسة" إذا كان المدخل هو الجذر "درس": دراسة، مدرس، مدرسة، كذلك كيف نستخلص المعلومات المربوطة بـ "مدرسة"؟ ينبغي إجراء تحليل لمدرسة لاستنتاج الجذر "درس" ثم البحث في اللائحة المربوطة على "مدرسة"، في حين نختصر العلاج –وكم نحن بحاجة إلى السرعة– إذا نظمنا المعجم على أساس الكلمة كمدخل»[16]. وفي رحاب هذا الطرح دعا البعض إلى اعتماد الكلمة كمدخل بديل لبناء المعاجم الآلية مثلما هو الحال في اللغات الأخرى، باعتبار أنّ هذا النظام أكثر سهولة وسرعة في ضبط المراد في التعامل اللغوي مع الحاسوب.

أما نظام الجمع فنحبّذه أن يرتبط في أساسه بما يلي:

–النتائج العلمية المبسوطة في إطار العلم الذي يدرس الأصوات اللغوية في مختلف تجلّياتها، ولازلنا نؤكّد على أهمية هذا الجانب في تطوير الصناعة المعجمية المحوسبة. ويجب أن نشير إلى أنّ علماءنا لم يكتفوا بتسجيل هذه النتائج في إطارها التجريدي؛ بل غالبا ما كانوا يوضّحونها بالشرح والتمثيل، وكل ذلك يساعد على المعرفة الصحيحة والسليمة بأصوات اللغة، قد نمثّل لذلك بما ذكره سيبويه (ت180هـ) في باب الإدغام كقوله: «العين مع الحاء كقولك: "اقْطَع حَّمَلاً"، الإدغام حسنٌ، والبيان حسنٌ؛ لأنّهما من مخرج واحد. ولم تدغم الحاء في العين في قولك: "امْدَحْ عَرَفَة"؛ لأنّ الحاء قد يفرّون إليه إذا وقعت الهاء مع العين... ولكنّك لو قلبت العين حاء فقلت في: "امدح عرفة": "امْدحَّرَفة" جاز كما قلت "اجْبَحِّنَبَهُ" تريد "اجْبَهْ عِنَبَهُ" حيث أدغمت وحوّلت العين حاءً ثم أدغمت الهاء فيها»[17]. وقد ذكر ابن جني (ت395هـ) أنّ أبعاد الدلالة قد تخضع للنبرة ألفاظ التركيب اللغوي؛ إذ يقول: «وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: "كان والله رجلا!" فتزيد في قوة

اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة، و تتمكّن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها، وعليها أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك»[18].

بالإضافة إلى ذلك قدّموا القوانين الدقيقة التي تفسّر التغيّرات التي تمس الصوت في تشكيل الكلام، من نبر وإمالة وإشمام ورَوْم وتضعيف وغيرها من الخصائص ذات الطابع الصوتي المحض، والتي كانت تتماشى مع حدود إمكانياتهم، وأكيد أنّهم لو توافرت لهم ما هو متاح لنا الآن من الوسائل التقية لما توانوا في بناء ظلك آليا. ويجب أن نشير أنّ القدامى شعروا بالقيمة الصوتية للغة، والدليل على ذلك معجم العين باعتباره أول معجم موضوع في العربية, فقد وضعه الخليل انطلاقا من الأساس الصوتي.

فمثل هذه المعطيات تسهم بدقّة في إمداد المبرمج في وضع المعجم الآلي النطقي بالتجسيدات الصحيحة لأصوات اللغة.

–المادة اللغوية الموجودة على مستوى المعاجم العربية، ففيها معلومات دقيقة وشاملة بإمكانها أن تزوّد المبرمج بالمادة التي تقدّم للحاسوب، ولكن يجب أن لا يكتفي بالتسجيل المباشر من غير البحث الدقيق في طبيعة الألفاظ واستعمالاتها، مع محاولة ربط ذلك بما هو متداول في اللغة الآنية.

–القرآن الكريم فهو الحامل المادي للغتنا من الجانب الصوتي؛ إذ تعدّ قراءاته المحفوظة والمضبوطة المرجعية الأساسية التي تسهم بدقة في بناء المعجم الآلي النطقي، بل لا يمكن تحقيق هذا الإنجاز من غير الأخذ به.

–المادة الحية المتداولة في لغتنا الفصحى كما هي متداولة الآن، تمثّلها الاستعمالات المتنوّعة للغة في القراءات الشعرية، أو حتى في الاستعمالات الأخرى، لكن يُشترط أن تكون من أهل الاختصاص وذوي المعرفة الدقيقة بالكيفيات السليمة للإنتاج اللغوي.

فكل هذه الأسس تسهم في إمداد نظام الجمع بالمعطيات الأساسية التي تمكّن المبرمج من بناء المعاجم الآلية النطقية الشاملة والمستوعبة لكل ما تقتضيه اللغة في شتى استعمالاتها.

6–أهدافه وغاياته:

إذا ما عدنا إلى الأساس الذي تقوم عليه الصناعة المعجمية فإنّنا نلاحظ أنّه يقوم على تسجيل اللغة الطبيعية المعيّنة كما هي في استعمالاتها ووظائفها، ومنه نقول لا نحسب أنّ هناك وسيلة يمكن أن تحقّق هذه الغاية أهم من الحاسوب، فباستطاعته أن يسجّل وينقل الصورة الحيّة للغة، وهي سمة تغيب منذ القديم عن المعاجم. لذا حان الوقت كي نساهم في تطوير التأليف المعجمي بالاعتماد على وسيلة أكثر نجاعة في تحقيق هذه الغاية.

ويجب أن نشير إلى أنّه عن طريق هذا الصنف من المعاجم يمكن أن نسهم في تحقيق أهداف أخرى ذات قيمة كبرى منها:

–المساهمة في ترقية تعليم اللغات بوساطة الحاسوب، وفي هذا الإطار أشار مؤلّفو "معجم اللسانيات الحديث" إلى غياب عنصر الكلام المنطوق والمواقف الحيّة الطبيعية للاستخدامات اللغوية في برامج التعليم[19]. فبفضله يمكن أن نطوّر "المرجعية Référenciation" التي على أساسها تمكّن الحاسوب وبالتالي المتعلّم أيضا

من التوجيه والتصحيح والتقييم. فمن الموصفات التي يتمتع بها البرنامج الحاسوبي والتي يمكن أن تسهم في تطوير تعليمية اللغات ما يلي:

*التفاعل المستمر؛ أي وجود الحوار الدائم بين المتعلّم والبرنامج في كافة مراحل العملية التعليمية، كأن يستطيع المتعلم في تمرين المحادثة أن يوجّه الحديث بالاتجاه الذي يرغب فيه.

*استخدام تقنية تعرف الكلام في عملية التعليم وفي عملية التقييم، فاللغة منطوقة بالدرجة الأولى قبل أن تكون مكتوبة.

*توافر أداة التسجيل، وتمرين نطقي تسمح بتسجيل الكلمة أو العبارة وإعادة سماعها ومقارنتها بتسجيل النطق الصحيح في البرنامج.

*توافر الترجمة باللغة الأم في المراحل التعليمية الأولى وعند الطلب.

*فصل الكفاءات وتوجيه التمارين نحو التمييز بين القدرات الأساسية، وهي الفهم الشفهي والفهم الكتابي والتعبير الشفهي والتعبير الكتابي[20].

وكل هذه المواصفات التي يُشترط توافرها في البرنامج التعليمي الناجح للغات لا يمكن تحقيقها إلا بالمعجم الآلي الناطق الذي يمدّ المتعامل مع الحاسوب بكل مقتضيات اللغة وما تقتضيه في الاتصال اللغوي. قد نوضّح هذه الأهمية من خلال "تمرين الحوار"؛ إذ «يعتبر هذا النوع من التمارين أكثر الأنواع فائدة، ذلك لأنّ الحوار والمحادثة هما من أهم الأهداف في تعليم اللغات. وقد ازدادت هده التمارين وانتشرت مع انتشار تقنية تعرّف الكلام التي تسمح للمتعلّم بالتفاعل مع البرنامج شفهيا وبالإجابة نطقا، ومن ثمّ إعطاء العملية التعليمية طابعا واقعيا وفائدة أكبر»[21]. وهذه الفائدة تتعزّز أكثر إذا ما قدّمنا برنامجا يقوم على التمثيل الصحيح والسليم للغة العربية المنطوقة.

–تطوير الترجمة الآلية، وبالخصوص الترجمة الصوتية الفورية، فنحن الآن نعيش عصر السرعة الذي يتطلّب تجاوز الترجمة العادية التي تعتمد على الإنسان مباشرة، والتي تستدعي وقتا طويلا. إنّنا مطالبون بمواكبة هذا العصر الذي يتطلّب التعامل المباشر مع مختلف القضايا العالمية، ولتحقيق ذلك لا بدّ من الاعتماد على الحاسوب. وتعني الترجمة الآلية أن يقوم الحاسوب بعملية الترجمة دون أي تدخّل بشري أثناء سير هذه العملية، ويمكنه التدخّل قبلها لإعداد النص للترجمة أو بعدها للتنقيح والمراجعة، وقد تعني أيضا الترجمة البشرية بمساعدة الحاسوب، غير أنّه لا يمكن الوصول إلى نتائج مرضية من غير الاعتماد على المعجم الآلي الذي يؤمّن تحقيق ذلك.

–المساهمة في تطوير الصناعة المعجمية بغية تجاوز المآخذ التي لا تزال تكتنف المعاجم سواء في نطام الوضع أو نظام الجمع، فالمتعامل مع هذا الصنف من المعاجم لا يجد صعوبات في الوقوف على اهتماماته، فمن خصائصه كما ذكرنا من قبل الشمولية المستوعبة لكل ما تقتضيه اللغة من جهة، ثم النظام اليسير الذي يسهّل الوصول إلى المراد من غير المعرفة بنظام الترتيب الصوتي أو التقاليب أو غير ذلك من المعطيات التي يستدعيها التعامل مع المعاجم الورقية الموروثة من جهة أخرى؛ إذ يكفي تسجيل القضية المراد البحث فيها ثم الضغط على رز البحث ليصل الباحث إلى مبتغاه.

خاتمة:

بعد هذه الرؤية التي قدّمناها حول المعجم الصوتي النطقي للغة نلاحظ أنّنا مطالبون أكثر من أي بتطوير الصناعة المعجمية التي تقترب أكثر من الطبيعة الصوتية للغة، ولا يتم ذلك إلا بالحاسوب، فهو يتمتّع بالخصوصيات التي تجعله مؤهلا أكثر من المعاجم الورقية لتحقيق هذه الغاية.

كما أنّنا أدركنا أهمية وقيمة هذا اللون من المعاجم، فهو يقدّم خدمات جليلة تتعدى تلك التي الموجودة في المعاجم الورقية، نبيّن ذلك أكثر من خلال النقاط التالية:

-السهولة التي يلاقيها المتعامل في الوصول إلى المراد، لأنّ الحاسوب يتمتّع بالسرعة في البحث والاسترجاع.

-إمكانية الاستفادة من الاحتمالات التي يقدّمها هذا الصنف من المعاجم في حالة الوقوع في الخطأ في التعامل مع اللغة.

-غزارة قاعدة البيانات للمعجم الآلي النطقي تيسّر للمتعامل الوقوف على كل مقتضيات اللغة وهذا ما يفتقد إليه المعجم الورقي.

الهوامش:

(1)البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، القاهرة عالم الكتب، ط7، 1997، ص344.

(2)نفسه، ص344.

(3)صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، القاهرة عالم الكتب، ط1، 1998، ص27.

(4)سر صناعة الإعراب، 36/1.

(5)البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص162.

(6)نفسه، ص162.

(7)الحاسوب وتعلّم اللغة العربية، عايد سليمان الهرش، مجلة العلوم الإسلامية،مج 1، 1999، ص222.

(8)دراسات لسانية تطبيقية، مازن الوعر، دمشق مؤسسة الرسالة، 1988، ص317.

(9)نظامان آليان لنطق النص العربي والتخاطب مع الحاسب، www.voiceofarabic.com، نُشر بتاريخ: 09-06-2003م.

(10)صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، ص179.

(11)نفسه، ص129.

(12)مشروع نظرية حاسوب لسانية لبناء معاجم إلكترونية للغة العربية، محمد الحناش، مجلة التواصل اللساني، المغرب مطبعة النجاح الجديدة، المجلد الثاني، العدد الثاني، سبتمبر 1990، ص43.

(13)تطبيقات الحاسوب في اللغات والآداب،الدكتور فؤاد الخوري،منشورات جامعة دمشق،2000،ص 59

(14)مشروع نظرية حاسوب لسانية في بناء معاجم آلية للغة العربية، ص43.

(15)ينظر علم وظائف الأصوات الفونولوجيا، عصام نور الدين، بيروت دار الفكر اللبناني، ط1، 1992، ص35-36.

(16)العلاج الآلي للعربية وتطبيقات، يحيى هلال، مجلة التواصل اللساني، ص36-37.

(17)كتاب سيبويه، بيروت دار الجيل (د.ت)، ج4، ص451.

(18) الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، بيروت المكتبة العلمية، (د.ت)، ج2، ص371.

(19)معجم اللسانيات الحديثة، سامي عياد حنّا وآخرون، لبنان مكتبة لبنان، ط1، 1997، ص27.

(20)تطبيقات الحاسوب في اللغات والآداب، فوزي الخوري، ص85.

(21)نفسه، ص87.

الدرس الصوتي عند سيبويه من خلال: الكتاب.

(مخارج و صفات حروف العربية)

الأستاذ: كمال بخوش

جامعة المدية

مقدمة:

نحاول من خلال هذا الموضوع أن نقف و لو بشكل موجز مختصر عند أهم المباحث اللغوية ، و المتمثلة في المبحث الصوتي ، و ذلك من خلال احد أهم المصادر التي أسست لهذا العلم وأرست دعائمه الأولي،. هذا عند سيبويه من خلال : الكتاب. خاصة ما تعلق بالمصطلح الصوتي و مدلوله المعرفي .مع التركيز علي ما يتعلق بمخارج و صفات حروف العربية .

1-**مخارج حروف العربية :**

مفهوم المخرج:المخرج لغة هو <<محل الخروج >>[1].نقول خرج يخرج خروجا، فهو خارج. قال الجوهري :قد يكون المخرج موضع الخروج[2].

أما سيبويه (ت 180هـ) فإننا نجده يستعمل مصطلح :الموضع.للدلالة علي مصطلح المخرج ، و ذلك في مواضع عديدة من الكتاب .حيث نجده يقول في معرض حديثه عن الحروف المطبقة :<<... و هذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن (في مواضعهن) إلى ما حاذي الحنك الأعلى ، من اللسان .فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان و الحنك الأعلى إلى موضع الحروف، و أما الدال و الزاي فإنما ينحصر الصوت إذا وضعت لسانك في مواضعهن ...>> [3].

و واضح من كلام سيبويه انه استعمل مصطلح <<الموضع>> للدلالة علي مصطلح المخرج، أي مكان التقاء أعضاء النطق عند إنتاج الحرف و لحظة حدوثه .سواء كان ذلك التقاء محكما و تاما ، أو دون ذلك أي تضييق فقط.

و مما يلاحظ عند أبي الفتح عثمان ابن جني (ت 392هـ) انه استعمل مصطلح <<المقطع>>. يقول :اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا ،حتى يعرض له في الحلق و الفم و الشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده و استطالته ....و تختلف أجراس الحروف باختلاف مقاطعها>>[4].

عدد مخارج حروف العربية :

لقد اختلف اللغويون القدماء في ضبط عدد مخارج حروف العربية ،و هذا الإختلاف يمكن رصده في ثلاثة أوجه :

– فريق ذهب إلى أنها سبعة عشر مخرجا ، و علي راس هذا الفريق نجد الخليل بن احمد الفراهيدي (ت 175هـ). ومن المتأخرين الذين ذهبوا مذهبه نجد أبا الخير محمد بن محمد الدمشقي (ابن الجزري).يقول ابن الجزري:<<...قد اختلفوا في عددها ،فالصحيح المختار عندنا و عند من تقدمنا من المحققين كالخليل بن احمد (...)و غيره سبعة عشر مخرجا[5].

-فريق ذهب إلى أنها ستة عشر مخرجا ، و هو مذهب سيبويه .يقول :<< ...و لحروف العربية ستة عشر مخرجا ...>> [6].و قد تبعه في هذا جل اللغويون الذين أتوا بعده ،وعلى رأسهم العلامة أبو الفتح عثمان ابن جني،و ابن يعيش و ذلك بإسقاطهم لمخرج الجوف و هو المخرج السابع عشر عند الخليل.

-أما الفريق الثالث فقد عدها أربعة عشر مخرجا << و ذهب إلى هذا علماء القراءات و التجويد ، منهم قطرب و الجرمي و الفراء >>[7].

و لعل الاختلاف في تحديد عدد مخارج حروف العربية ، يرجع إلى تباين في الملاحظة الحسية عند كل من هؤلاء ، ذلك أن الجهاز الصوتي عند الإنسان مستقر علي طبيعته ،كما أن الأصوات اللغوية ثابتة و مستقرة علي طبيعتها الصوتية إلى حد بعيد ،في نفس البيئة الزمانية و المكانية ، و ذلك نظرا لاستعمال الملاحظة الحسية في هذه الدراسة ،فانه يمكن إرجاع هذه الاختلافات إلى اختلافات في دقة الملاحظة الحسية و عمقها بين هؤلاء ليس أكثر.

عدد حروف العربية :

لقد عدد سيبويه حروف العربية إلى حروف أصول ، و أخرى فروع .فأما الحروف الأصول عنده فهي :<< الهمزة ، و الإلف ، و الهاء ، و العين ، و الحاء ، و الغين ، و الخاء ، و الكاف ، و القاف ، و الضاد ،و الجيم ، و الشين ، و الياء ، و اللام ، و الراء ، و النون ، و الطاء ، و الدال ، و التاء ، و الصاد ، و الزاي ، و السين ، و الظاء ، و الذال ، و الثاء ، و الفاء ، و الباء ، و الميم ،و الواو>> [8]. وهي تسعة و عشرون حرفا .

و تتفرع عن هذه الحروف الأصول أخرى فروع منها << ما يؤخذ بها و تستحسن في قراءة القران و الأشعار، و هي : النون الخفيفة و الهمزة التي بين- بين ، و الألف التي تمال إمالة شديدة ، و الشين التي كالجيم ، و الصاد التي تكون كالزاي ، و ألف التفخيم >>[9]. و << منها غير المستحسنة و لا تكون كثيرة في لغة من ترتضي عربيته ، و لا تستحسن في قراءة القران و لا الشعر و هي : الكاف التي بين الجيم و الكاف ، و الجيم التي كالشين و الضاد الضعيفة ، و الصاد التي كالسين ، و الطاء التي كالتاء ، و الظاء التي كالثاء ، و الباء التي كالفاء >>[10]. و منه فحروف العربية عند سيبويه تنقسم إلى قسمين : حروف أصول و عددها تسعة و عشرون حرفا ، و حروف فروع مستحسنة و عددها ستة أحرف و أخرى فروع غير مستحسنة و عددها سبعة أحرف .

مخارج حروف العربية : لقد حدد سيبويه مخارج حروف العربية على النحو الآتي:[11]

1- أقصى الحلق: الهمزة، الهاء، الألف.

2- وسط الحلق:العين و الحاء.

3- أدنى الحلق: الغين و الخاء.

4- من أقصى اللسان و ما فوقه من الحنك الأعلى : القاف.

5- أسفل موضع القاف من اللسان قليلا و ما يليه من الحنك الأعلى:الكاف.

6- وسط اللسان بينه و بين ما يليه من الحنك الأعلى:الجيم، الشين، الياء.

7- من بين أول حافة اللسان و ما يليه من الأضراس: الضاد.

8- من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان، و ما بينها و بين ما يليها من الحنك الأعلى، و ما فوق الثنايا : اللام.

9- من طرف اللسان بينه و بين ما فوق الثنايا: النون.

10- من مخرج النون، غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام: الراء.

11- بين طرف اللسان و أصول الثنايا: الطاء ، الدال، التاء.

12- مما بين طرف اللسان و فوق الثنايا: الزاي ، الصاد، السين.

13- مما بين طرف اللسان و أطراف الثنايا:الظاء و الذال و الثاء.

14- من باطن الشفة السفلى و أطراف الثنايا العليا: الفاء.

15- بين الشفتين : الباء ، الميم ، الواو.

16- من الخياشيم: و يضم مخرجا واحدا ينتج حرفا واحدا : النون الخفيفة.

و قد وافق ابن جني سيبويه في هذا، و ذهب إلى أن ترتيب خليل بن أحمد الفراهيدي:<<فيه خطل و اضطراب >>[12]. و مما يمكن ملاحظته من تقسيم سيبويه هو :

أ- أن عدد مخارج حروف العربية ستة عشر مخرجا، تنتج تسعة و عشرين حرفا. أي أن هناك مخارج تنتج أكثر من حرف.

ب- نلاحظ أن كل المخارج إما أحادية أو ثنائية أو ثلاثية (أي أن كل مخرج ينتج حرفا أو حرفين أو ثلاثة)، و بعملية حسابية بسيطة نجد أن هناك ستة مخارج ثلاثية، و مخرجين ثنائيين و ثمانية مخارج أحادية.

ج- إن سيبويه يفرد (للنون الخفيفة) مخرجا خاصا بها ، في حين لا يعدها من الحروف الأصول.

2- صفات حروف العربية:

مفهوم الصفة: << الوصف: المصدر. و الصفة الحلية (...) و اتصف الشيء: أمكن وصفه>>[13] و صفة الحرف:<<هي كل ما من شأنه أن يعطي لونا خاصا أو جرسا ما للحرف>>[14].أو هي كيفية تولد الحرف و خروجه من مخرجه ، و تحدد الصفة بالنظر إلى : النفس، تجاويف الجهاز الصوتي، الأوتار الصوتية ، حركة اللسان .

و قد ذكر سيبويه صفات كثيرة لأصوات العربية، يمكن تصنيفها على النحو الآتي:

- صفات عامة هي:الجهر- الهمس، الشدة - الرخاوة - التوسط.

- صفات خاصة تتميز بها مجموعات خاصة من الأصوات هي: الإطباق، المد و اللين، التفشي و الاستطالة، الصفير، الغنة.

- صفات خاصة تتميز بها أصوات مفردة هي: الانحراف، التكرار[15] .

1- الصفات العامة:

1-أ- الجهر: قال سيبويه :<< فالمجهورة حرف أشبع الاعتماد في موضعه و منع النفس أن يجري معه ، حتى ينقضي الاعتماد عليه ، و يجري الصوت>>[16].و الحروف المجهورة عنده تسعة عشر حرفا و هي :<<

الهمزة، الألف، العين، الغين، القاف، الجيم، الياء، الضاد، اللام، النون، الراء، الطاء، الذال، الزاي، الظاء، الدال، الباء، الميم، الواو>>[17].

و من خلال تأملن في تعريف الجهر الذي قدمه سيبويه ، نلاحظ أنه يقرنه بحالتين أساسيتين هما : إشباع الاعتماد، و منع النفس من الجريان . فما معنى إشباع الاعتماد؟ و ما معنى منع النفس من الجريان؟ و ما علاقة الإشباع بالمنع؟.

إن إشباع الاعتماد هنا هو العملية العضوية المطلوبة في إصدار الصوت. فهو يكون عند إنتاج صفة الجهر للصوت و ليس عند إنتاج الحرف.و لقد تطرق اللغويون المحدثون إلى هذه الظاهرة قائلين بأنها ناتجة عن اهتزاز الأوتار الصوتية، فقد يتحرك الوتران الصوتيان عند مرور الهواء بهما في صورة ذبذبة فينتج الصوت المجهور، و قد لا يتحرك الوترام فينتج الصوت المهموس[18].

إذن من خلال ما سبق و بمنظور فيزيائي، نرى أن الجهر يحدث كالآتي: يؤدي اقتراب الوترين الصوتيين إلى سد مجرى الهواء المندفع من الرئتين، حتى يكاد يكون ذلك بشكل تام (منع النفس من الجريان) و من هنا يبدأ الضغط في الداخل بالارتفاع حتى إذا وصل إلى درجة معينة، اندفع الهواء المحتبس بقوة إلى الخارج، محاولا تعديل الضغط بين طرفي الوترين الصوتيين وفقا لقانون الطبيعة العام(الضغط الداخلي > الضغط الخارجي) . فيتسرب الهواء بين الوترين ضاغطا عليهما ليحركهما (فيجري الصوت) . فإذا تم الاعتماد صار النفس يجري على طبيعته.

فعملية الجهر تحدث وفق المراحل الآتية:

1- إشباع الاعتماد في الحنجرة (و الذي يؤدي إلى حدوث المرحلة الثانية).

2- منع النفس من الجريان (و الذي يؤدي إلى حدوث المرحلة الثالثة).

3- جريان الصوت ، أي نشاط الأوتار الصوتية الذي يسمح في النهاية للنفس بالانطلاق.

1-ب- الهمس: قال سيبويه:<< أما المهموس ، فحرف أضعف الاعتماد في موضعه ، حتى جرى النفس معه ، و أنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، و لو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه[19] ، و الحروف المهموسة عند سيبويه عشرة: << الهاء، الحاء، الخاء، الكاف، الشين، السين، التاء، الصاد، الثاء، الفاء>>[20].

و ضعف الاعتماد ناتج عن تباعد الوترين الصوتيين مما يؤدي إلى احتكاك ضعيف بينهما و بين الهواء المندفع من الرئتين، إلى درجة أن سهولة انسياب الهواء تقارب بشكل كبير سهولتها في حالة التنفس العادي.

فالهمس يحدث وفق المراحل الآتية:

1- ضعف الاعتماد.
2- جريان النفس على طبيعتها.

} **يحدث هذا في نفس الوقت**

1-ج- الشدة: قال سيبويه: << و من الحروف (الشديد) و هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه و هو :الهمزة، القاف، الكاف، الجيم، الطاء، التاءن الدال، الباء>>[21]. فلو قلت :<< الحقّ، الشّطّ، ثم رمت مد

صوتك في القاف و الطاء لكان ذلك ممتنعا>>[22]. فالأصوات الشديدة أصوات وقتية آنية ، لا يمكن التغني بها و ترديدها لأنها تنتهي بمجرد زوال العائق و خروج الصوت[23].

و مما يمكن ملاحظته هو أن هناك تشابه كبير بين الآليات العضوية التي تؤدي إلى حدوث الجهر و التي تؤدي إلى حدوث الشدة ، فكلاهما قائم على مبدأ الحبس أو المنع نتيجة قوة الاعتماد في الموضع. فالجهر يساوي حبس الهواء(مستوى الحنجرة)، و الشدة تساوي حبس الصوت(في مستويات مختلفة من الجهاز الصوتي).

1-د- الرخاوة: قال سيبويه:<< و منها الرخوة و هي الهاء، الحاء، الغين، الخاء، الشين، الصاد، الضاد، الزاي، السين، الظاء، الثاء، الذال، الفاء. ذلك إذا قلت : الطس، و أنقض، و أشبه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت>>[24].فالرخاوة تنتج وفق نفس المبدأ العضوي الذي تنتج وفقه صفة الهمس، فإذا كانت هذه الأخيرة قائمة على مبدأ جريان الهواء فإن صفة الرخاوة قائمة على مبدأ جريان الصوت.

و مما ينبغي أن نشير إليه في هذا المقام هو ذهاب بعض الدارسين المحدثين إلى أن حرف الضاد يعتبر حرفا شديدا على اعتبار أن نطقه قد تطور من الرخاوة إلى الشدة، و أنه لا يوجد اليوم حرف الضاد مطابقا لحرف الضاد القديمة[25].

1-هـ- التوسط: صفة التوسط هي صفة بين الشدة و الرخاوة، حيث يتم منع الهواء منعا جزئيا لا كليا. و قد أدرك سيبويه هذه الصفة في حرف واحد و هو العين، يقول:<< فأما العين فبين الرخوة و الشديدة>>[26]. أما ابن جني فذهب إلى أن صفة التوسط لا تقتصر على حرف العين فقط بل تشمل ثمانية حروف و هي:الألف، العين، الياء، اللام، النون، الراء، الميم، الواو[27].

2- الصفات الخاصة:

2-1-صفات تخص مجموعات صوتية فقط:

2-1-أ- الإطباق و الانفتاح: قال سيبويه:<< فأما المطبقة فالصاد و الضاد و الطاء و الظاء(...) و هذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن ، انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى >>[28] .

و الإطباق هو ارتفاع ظهر اللسان إلى الحنك الأعلى حتى يكاد ينطبق عليه انطباقا تاما ، مما يجعل الصوت محصورا بين اللسان و الحنك الأعلى و هو ما يزيد في قوته. لذلك فإن سيبويه عد الإطباق صفة قوة في الصوت تميزه عن غيره من الأصوات المنفتحة[29]. و الحروف المطبقة تسمع لها أصوات مفخمة و التي تتميز بأنها غليظة و ثقيلة مقارنة بالأصوات المنفتحة[30].

أما الانفتاح فهو عكس الإطباق تماما. و الحروف المنفتحة هي كل حروف العربية الأصول ما عدا المطبقة منها.<< لأنك لا تطبق لشيء منهن لسانك ، ترفعه إلى الحنك الأعلى>>[31].

2-1-ب- الاستعلاء و الاستفال: و هما صفتان متناقضتان. و الحروف المستعلية سبعة و هي: الخاء و الغين و القاف و الظاء و الطاء و الصاد و الضاد[32]. و ما سواها مستفل .ومعنى الاستعلاء هو أن يستعلي اللسان

عند التلفظ بهذه الحروف إلى مؤخرة تجويف الفم، أي ينحو نحو الحلق. أما اللسان فإنه في حروف الاستفال يستفل نحو الحنك الأسفل[33].

2-1-ج-الصفير: ينتج عن ضيق شديد في المخرج، يؤدي إلى ارتفاع شدة الصوت الناتج عن قوة الاحتكاك. و الحروف الصفيرية هي :الصاد و الزاي و السين. قال سيبويه:<< و هن أندى للسمع>> و لعله يقصد بقوله: أندى، شدة وضوحهن في السمع . فالصفير على هذا صفة قوة في الصوت تميزه عن غيره من الأصوات[34].

2-1-د-الاستطالة و التفشي: معنى الاستطالة أن الصوت يشغل من اللسان مساحة كبيرة، تصل مخرجه بمخرج صوت آخر يجاوره. و هو المعنى الذي تؤديه كلمة التفشي[35]. و يمتاز بهذه الصفة حرفان هما: الضاد و الشين . ذلك لأن هواء النفس معهما لا يقتصر في تسربه إلى الخارج على مخرجهما، أي من الفراغ الذي بين العضوين المتصلين في حالة النطق بهما. بل يتوزع على كامل جنبات الفم[36].

2-1-هـ- اللين: و يتميز بهذه الصفة حرفان هما : الواو و الياء، نظرا لاتساع مخرجيهما. يقول سيبويه:<< ... مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما ...>> [37].

2-2- صفات تخص أصوات مفردة:

2-2-أ- الانحراف: يعرف سيبويه المنحرف بقوله:<<...هو حرف شديد جرى فيه الصوت، لانحراف اللسان مع الصوت، و لم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو اللام...>> [38].

2-2-ب- التكرار: تخص هذه الصفة حرفا واحدا هو: الراء.<< فالراء حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره و انحرافه إلى اللام، فتجافى للصوت كالرخاوة و لو لم يكرر لم يجر فيه الصوت>>[39].

و << إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتعثر>>[40].و ينتج التكرار عند إحداث انسداد كامل في مخرج الحرف لكنه قصير الزمن يتلوه انفتاح فانسداد...و هكذا.

2-2-ج- الهاوي: يتميز بهذه الصفة حرف واحد و هو الألف. و تحدد هذه الصفة بالنظر إلى اتساع المخرج. يقول سيبويه: << فهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء و الواو، لأنك قد تضم شفتيك في الواو و ترفع في الياء لسانك قبل الحنك>>[41]. أما معه فإن الشفتين تكونان منفتحتين انفتاحا كليا.

الهوامش:

1-مصطفي اكرور،حلية التلاوة،دار نجيب ، الابيار ،ص.42

2-ابن منظور ، لسان العرب ،ج4 ص.52

3-سيبويه ، الكتاب ،ج4ص.436

4-ابن جني ، سر صناعة الإعراب ،ج1 ص.06

5-ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ،ج1 ص.214

6- سيبويه ، الكتاب ،ج4 ص.433

7-ابن الجزري،النشر في القراءات العشر ،ج1ص.199

8-سيبويه ، الكتاب ،ج4 ص.431

9-سيبويه ،نفس المرجع ،ج4ص.432

10-نفس المرجع.

11-سيبويه، نفس المرجع،ج4 ص433/.434

12-ابن جني ، سر الصناعة ،ج1ص.45

13-ابن منظور ، لسان العرب،ج15ص315/.316

14-عبد القادر حديدي ،البنية الصوتية للكلمة العربية ،ص.18

15-عبد الصبور شاهين ،اثر القراءات في الأصوات و النحو العربي،ص.199

16-سيبويه ، الكتاب ،ج4ص.434

17-نفس المرجع .

18-عبد الصبور شاهين ، المنهج الصوتي للبنية العربية ،ص.27

19-سيبويه ، الكتاب ، ج4 ص.434

20-نفس المرجع.

21-نفس المرجع .

22-ابن جني ، سر الصناعة ،ج1ص.61

23-رمضان عبد التواب،المدخل الي علم اللغة و مناهج البحث اللغوي،ص.68

24-سيبويه،الكتاب ،ج4 ص.435

25-إبراهيم أنيس ،الأصوات اللغوية ،ص.24

26-سيبويه ، الكتاب ،ج4ص.435

27-ابن جني ، المرجع السابق ،ج1ص.61

28-سيبويه ،الكتاب ،ج4ص.436

29-عبد الصابور شاهين ،اثر القراءات في الأصوات و النحو العربي ،ص.208

30-خوله طالب الإبراهيمي ،مبادئ في اللسانيات ،ص.59

31-سيبويه ،ج4ص.436

32-سر صناعة الإعراب ،ج1 ص.62

33–صبحي صالح ،دراسات في فقه اللغة ،ص.282

34–عبد الصبور شاهين ،اثر القراءات في الأصوات و النحو العربي ،ص208/.209

35–نفس المرجع.

36–إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ،ص.120

37–سيبويه ، الكتاب ،ج4ص.435

38–نفس المرجع.

39–نفس المرجع.

40–ابن جني ،سر صناعة الإعراب ،ج1ص.63

41–سيبويه ، الكتاب ،ج4ص435.

مراجع و مصادر البحث:

1–سيبويه ، الكتاب ، تحقيق : محمد عبد السلام هارون ،مكتبة الخانجي مصر ، .1982

2–ابو الفتح عثمان بن جني ،سر صناعة الإعراب ،تحقيق حسن الهنداوي ،دار القلم ، سوريا ،.1985

3–ابن الجزري ،النشر في القراءات العشر ،المكتبة التجارية الكبرى ،مصر ،دون تاريخ طبع ،

4–رمضان عبد التواب ،المدخل إلي علم اللغة و مناهج البث اللغوي ،مصر ،.1985

5–عبد الصبور شاهين ،اثر القراءات في الأصوات و النحو العربي ،مطبعة المدني ،مصر ، .1987

6–إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ،المكتبة الانجلو مصرية ،مصر ، .1995

7– خوله طالب الابرهيمي ،مبادئ في اللسانيات ،دار القصبة للنشر ،الجزائر ، .2000

8–مصطفي اكرور ،حلية التلاوة ،دار نجيب الابيار ،الجزائر ،.1994

9– ابن منظور ن لسان العرب ،دار إحياء التراث العربي ،ط3 ،بيروت .

أهميــة الأنترنت في ظل العولمـة

الأستادة محمد يسعد ليلى

جامعة – البليدة .

مباشرة بعد انتهاء الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية و الاتحاد السوفيتي برز قطب واحد متعدد الأطراف و الذي يحمل في طياته مظاهر متنوعة و مختلفة من بينها انتشار شبكة الانترنت و تزايد

مستعمليها يوما بعد يوم بالمعلومات السريعة و الغزيرة و هي حرب كسا لفاتها يمكن أن تتحول إلى حرب ساخنة حقيقية واسعة التدمير تحت ظل العولمة وتتعاظم أهمية الشبكة العنكبوتية "الانترنت" و دورها المتزايد في إحداث تحولات جذرية في المعارف المكتسبة من طرف الأفراد و مما لا شك فيه أن هده الشبكة تفتح لنا آفاق و طرق جديدة لا يمكن للفرد تصورها للوهلة الأولى وسوف يكون للانترنت آثار هائلة على حياة الفرد الذي يستخدمها باعتبارها ذات تأثير و أهمية حيث أصبحت أهم الإمكانات لإيصال المعلومات و هانحن ندخل عصر جديد للاتصال و المعلوماتية عصر تجاوز الكلاسيكيات و تحول إلى قرية صغيرة بفضل العولمة الإعلامية و خرج إلينا بتقنية جديدة تحتوي على معلومات و في كل المجالات و هذا حسب طريقة الاستعمال "فإذا استغلت جيدا تخرج الباحثين الجزائريين عزلتهم الثقافية وذلك بتمكينهم من الانفتاح على عالم المعرفة و التكنولوجيا وكذلك تعوض هده الشبكة الباحثين الذين يعانون منه في المعلومات العلمية و التقنية و نقص الاتصال مع الباحثين الأجانب "(1) ص 298.

كما أن هذه الشبكة تمثل قفزة متقدمة في العالم يمكن الاستفادة منها كما تتوفر على خدمات كثيرة تتميز بالاختصار في الوقت و الجهد و كذلك القدرة على إيجاد المعلومات اللازمة في الوقت اللازم بحيث غيرت الانترنت مجالات عديدة كالتجارة الاقتصاد التعليم و البحث العلمي و كذلك أحدثت التغيرات في الهيكل العام للمكتبات و طرق استعمالها "فالكتب الالكترونية المخزنة على الأقراص تحل محل الكتب الورقية المطبوعة بصورتها الحالية كما أن محتوى الكتاب الالكتروني يمكن أن يكون في صورة صوتية أو في شكل صورة ثابتة أو فيديو أو رسوم متحركة بالإضافة إلى النصوص المكتوبة (02) ص 65.

كما أن الانترنت قد وفرت لمستخدميها إمكانية الاتصال بها و الحصول على ما يحتاجونه في أي وقت يريدونه سواء في الليل أو النهار و من أي مكان يكونون فيه و بدلك لا يكون هناك لا أوقات فتح ولا أوقات غلق لهذه المكتبات أي أنها مفتوحة على مدار 24 ساعة فمتى شاء المستخدمون الحصول على المعلومات يجدونها ودون تنقل من مكان لآخر فالمكتبة هي التي تأتي إليهم و ليسوا هم الذين يذهبون إليها " (2) ص65 .

كما أن الحديث عن الانترنت يقودنا إلى الحديث عن العولمة حيث أن العصر الحالي يشهد تغيرات مستمرة حيث أن العولمة و الانترنت واجهتان لعملة واحدة ألا و هي العالم الذي يسجل في تاريخ الإنسانية اد أننا أمام تحول عميق ووضع عالمي جديد و تغير جدري في بنيته و طبيعته و فيه تبلورت أهم الابتكارات و الإبداعات و خصوصا ما يتعلق بالمنهج العلمي في دراسته للظواهر الطبيعية و الاجتماعية و النفسية هذا إلى جانب تغيير اهتمام الإنسان من المكان إلى الزمان أي يتطلع إلى المستقبل البعيد المدى و هدا ما تهدف إليه ظاهرة العصر و المتمثلة في العولمة .

حيث أن هده الكلمة لم تطهر إلا حديثا في القاموس السياسي و الاقتصادي و حتى الثقافي فهي من الألفاظ الجديدة و المستحدثة أد لم تتداول و لم تتناول لحد الآن في المعاجم و القواميس بصفة أكاديمية إلا قليلا فتعد فكرة نهاية التاريخ التي أعلنتها"فرانسيس فوكوياما" جاءت العولمة لتعلن عن نهاية أخرى هي نهاية الجغرافيا "(03) ص 147 . أو نهاية المكان حيث ستصير الكرة الأرضية دولة واحدة غير أن تطور العولمة مرهون بالإدارة القوية و المستمرة لأوامر الأمم المتحدة و الدول المتطورة (04) موقع على شبكة الانترنت.

و لقد أثارت فكرة العولمة الكثير من الجدل و الاختلاف في الرؤية و في الطرح . و في مدلولات الفهم و التحليل و ما أفرزته من نتائج حتى الآن و مهما تعددت و تنوعت تعريفات العولمة بين مؤيديها و رافضيها فاءنها مازالت محل تشكيل و بناء و بالتالي مازالت محل نقاش دائم بين من يراها حقبة تاريخية و من يراها كهيمنة للقيم الأمريكية وآخرين يرونها كثورة تكنولوجية واجتماعية ورغم هدا التعدد في الاتجاهات فاءنها واقع نعيشه و نحياه ولأنها بكل بساطة تتسع كل يوم ويزداد حجمها و تتعدد جوانبها و أبعادها و ما يجب الإشارة إليه أن هده الظاهرة هي مؤشر لتصاعد التغيرات على الدول الغير قادرة على التعولم كالدول النامية وهذا نظرا لما تثيره العولمة من الغموض رغم الوضوح كما أنها معقدة و أن غاياتها محددة رغم أن أشكالها و مضمونها لم يكتمل بعد لدا فاءن عملية العولمة أو التعولم قبل تخيلها توجب على الجميع استغلال الوقت و الجهد و العمل المتواصل للمعرفة المتكاملة بالعولمة و هدا يكون رهان لتنمية القدرات و تعظيم المهارات ورفع المساهمة في النشاطات الدولية والدي يتناسب مع خصوصيات المجتمعات و الذي يساهم في إيجاد التنوع و الذي أساسه التوحد .

و في الأخير إن كنت اعتقد جازما أن هدا المقال ليس كافيا حتى لتغطية جانب من الجوانب المختلفة لموضوع "أهمية الانترنت في ظل التحولات التي يشهدها العالم غير انه يمكن القول إن كان الطرح جادا فاءن النظرة الواقعية ستصبح محور اهتمامنا و مدار بحوثنا و إسهاماتنا العلمية و ستكون دافعا لنا و لجموع الباحثين لطرح الأفكار الإبداعية البعيدة عن التغيير و عن تضخم لأنه ستبنى الأبحاث التطبيقية و البرامج الكفيلة باستغلال ما ستأتيه العولمة .

الهوامش

1–عبد الحق ط " مدخل إلى المعلوماتية العتاد و البرمجيات ". قصر الكتاب.الجزء الثاني .البليدة ص 298 .

2–محمد أديب رياض غنيمي" شبكة المعلومات الحاضر والمستقبل " المكتبة الأكاديمية القاهرة 1998 ص 65 .

3– كاميليا صبحي " الإرهاب الفكري و يزوغ العولمة " دار الثقافة للنشر والتوزيع 1998 ص 147.

4 – A :les effets pervers de la mondialisation .

واقـع الكتـابة المسرحيـة للأطفال في الجزائر

الدكتور : بطابع العمري
جامعة مسيلة

ارتأيت أن أتناول هذا الموضوع من جوانب شتى حتى يتسنى لي الإلمام بمختلف جوانبه، لذا فقد ركزت في معالجتي هذه على ثلاثة محاور أساسية هي :

1/ تنظيم مسرح الطفل في الجزائر منذ الاستقلال إلى اليوم :

لم تنتهج السلطات الوصية على قطاع الثقافة في بلادنا منذ الاستقلال إلى اليوم استراتيجية معينة، تحدد الإطار القانوني العام للمسرح الوطني، لأجل هيكلته وتنشيطه، وإنما فقط اكتفت بالاعتماد في ذلك على بعض المراسيم، مثل المرسوم[1] القاضي بتأميم المسرح الوطني الجزائري والداعي إلى إنشاء مركز وطني يتكفل بتدعيم المسرح الوطني وتطويره. والأمر[2] الذي نص على إعادة تنظيم المسرح الوطني واعتباره مؤسسة ذات طابع صناعي وتجاري، وتلا ذلك الأمر[3] الذي تضمن القانون الأساسي العام للمسرح الجهوي. وسواء في المرحلة الأولى أو الثانية فإن مسرح الطفل لم يحظ بأي اهتمام يذكر، ومع ذلك فإن العروض التي قدمت في هذه الفترة قد تناولت في البعض منها عروضا ل "دراما الطفل"، وكان من بين هذه العروض الدرامية نصوص لمسرحيات مترجمة وأخرى مقتبسة، وقد بلغ عدد هذه العروض المقدمة عرضا واحدا إلى عرضين في السنة الواحدة على المستوى الوطني. كما ساهم المسرح الهاوي – ولاسيما بعد إحداث مهرجان سنوي له بمستغانم سنة 1967 – بقسط وافر في العروض المسرحية الخاصة بالأطفال، وقد شجعه على ذلك ازدهاره، لمدة تقترب من العقدين، وتناوله لمواضيع استحوذت على اهتمام الشباب الهواة إلى جانب تناوله للقضايا الاجتماعية كالتشرد الطفولي وجنوح المراهقين[4].

لم يقيّم مسرح الطفل في الجزائر في جميع مراحله المتعاقبة فنيا وفكريا وتربويا حتى تضبط طبيعة ومضامين وأهداف هذه النصوص بما يتماشى ومتطلبات هذا النوع من الدراما، وإنما اعتمد فقط على التقريب والحدس، ويعود ذلك أساسا إلى أن كتاب النصوص من غير المتخصصين، وحتى إن قام بعض الكتاب بعمليات الترجمة والاقتباس لأهم النصوص المسرحية العالمية فإنهم لم يقوموا بالمحاكاة الإيجابية في ذلك، لكونهم لم يهتموا بالأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري ضمن عاداته وتقاليده ومعتقداته التي تميزه عن غيره، نفس الشيء يمكن قوله عن العروض المسرحية المقدمة لدراما الطفل، باعتبار أن هذه الأخيرة ليست أسلوبا يحتوي على معلومات معينة يقوم المنشط بنقلها للطفل بطريقة ما، بل هي خبرة فنية ذاتية، ولهذا السبب يعتبر ما يقوم به المنشط المبدع أساسي في تحقيق دراما الطفل الإبداعية.

ولا ننس الإشارة أنه خلال المهرجانات الأربعة التي نظمها مسرح قسنطينة الجهوي قيامه بتجربة مسرح الطفل من خلال دوراته الأربعة "حيث كانت الأولى سنة 1982، والثانية عام ،1983، والثالثة عام 1986[1] ، أما الرابعة فكانت خلال شهر مارس من عام 1989[2] ، إلا أنه لم يقدم شيئا ذا أهمية بهذا الخصوص، ذلك أنه فقط اكتفى بتقديم بعض العروض الخاصة بالطفل بالطريقة التقليدية المعتادة.

وأخيرا قامت مديرية الآداب والفنون بوزارة الاتصال والثقافة منذ سنة 1996 بتنظيم مسابقة وطنية موجهة للكتاب والمختصين في أدب الأطفال عموما ودراما الطفل بصفة خاصة، أوكلت مهمة تقييمها إلى أساتذة

---

[1] – المرسوم 63/12 الصادر في 1963/01/08

[2] – الأمر 70/38 الصادر في 1970/06/12

[3] – الأمر 70/39 الصادر في 1970/06/19

[4] – مجلة الجيش – عدد 215 لشهر فيفري 1982، ص : 50.

[1] – صحيفة المساء، عدد يوم الثلاثاء 15 جويلية 1986، ص : 10.

[2] – صحيفة النصر عدد يومي 31 مارس، 01 أفريل 1989، ص : 67.

مختصين، وبالرغم من العدد الهائل من المشاركين في مسرح الطفل على امتداد المسابقات السنوية الأربعة، إذ تجاوز المائة عمل مسرحي. إلا أن ما يلاحظ على هذه الأعمال عموما سواء في جانبها الفكري أو التربوي أو الفني لا يتجاوب مع مادة التنشيط في الدراما الإبداعية طبقا لمطالب النمو وحاجات الأطفال في المراحل العمرية المختلفة. إذ أنها لم تقم على الأسس العلمية الصحيحة التي تدخل في صلب تكوين شخصية الطفل، لأنها مبنية على "التصورات الخاطئة لوظيفة الدراما الإبداعية وإلى النظرة التقليدية لوظيفة التربية التي تستدعي أن الطفل عجينة في يد مربيه أو هو لوحة بيضاء ينقش عليها المربي ما يشاء"[3] . ومن ثم فإنها لم تحقق النضج الفني المطلوب بالرغم من أن غالبيتها استخدمت أسلوب الأنسنة، وهو الأسلوب الأمثل في مجال دراما الطفل، خلال استلهامها لبعض الحكايات المأخوذة من كتاب "كليلة ودمنة"، وبعض القصص الخرافي المستمد من كتاب " Les Fables "للكاتب الفرنسي Jean de la Fontaine . إلا أن ما يميزها عن سابقاتها من مسرح الطفل التي كتبت في المراحل السابقة، أنها قد استخدمت اللغة الفصحى كوسيلة للتعبير والحوار، ولم توظف اللهجة العامية على الإطلاق.

2/ قضايا مسرح الطفل في الجزائر : تناولت ذلك من خلال :

أ/ استلهام التراث والتاريخ : اهتم البعض من الأدباء الجزائريين في فترة ما قبل الاستقلال بالعنصر التاريخي والتراثي في كتاباتهم المسرحية الموجهة للأطفال أو للصبية – إذ أن هذه المسرحيات ليست في مستوى معارف "دراما الطفل" المتعارف عليها – باعتبار أن استلهام التاريخ والتراث يبسط الأحداث ويقربها من مدارك الناشئة وأحاسيسهم، ولا شك أن غالبية المسرحيات المدرسية التي مثلت قبل الاستقلال مستمدة من التراث والتاريخ.

وهكذا وظف عبد الرحمان الجيلالي التراث العربي الإسلامي في مسرحيته " المولد النبوي"[1] وهي تدور حول الإرهاصات المنبئة بمولد الرسول (ص) وقد أراد الكاتب من خلال إبرازه لمختلف هذه المظاهر الإعجازية التي صاحبت ذلك المولود النبوي الشريف تنمية الروح الإيمانية في نفوس النشء الصاعد وتقويتها، وهي مسرحية تربوية تعليمية موجهة لتلاميذ المدارس الابتدائية، ولا شك أنها في مستوى معارفهم ومداركهم، إلا أن ما يعاب على هذه المسرحية شأنها شأن المسرحيات التعليمية الموجهة لتلاميذ المدارس أنها "تمارس فقط من طرف بعض الهواة من تلاميذ المدارس أو رواد الأندية من الأطفال، حيث يقومون بأداء أدوار تلقن لهم، وفي كثير من الأحيان يرددون كلمات ليست لها معنى بالنسبة لهم، هذا إلى جانب ما يتطلبه أداء هذه الأدوار من توجيهات وتدريبات تستغرق وقتا طويلا مما يقيد تلقائيا الطفل ويتعارض مع طبيعته التي تفرض تكرارا المشاهد أو ممارسة عمل واحد لفترة طويلة[2]". إضافة إلى ذلك ربما سائل يقول أن الإعجاز السائد في هذه المسرحية يعتبر فكرا تجريديا ومن ثم فإن الطفل لا يستطيع استيعابه. أجيب أن هذا ليس بالمشكل، باعتبار "أن الدراما الإبداعية ليست أسلوبا يحتوي على مجموعة من المعلومات يحملها المنشط وينقلها للطفل بطريقة أو بأخرى، بل هي خبرة

---

[3] – مجلة المسرح، المصرية، العدد الثاني، السنة الثانية، سبتمبر – ديسمبر، ص : 26.

[1] – عبد الرحمن الجيلالي، المولد النبوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر / د – ت

[2] – مجلة المسرح المصرية، العدد الثامن، السنة الثانية، ص : 22.

فنية غير موجهة إلى غرض معين ... ولذلك فإن المنشط المبدع المدرب يعتبر شرطا أساسيا لتحقيق الهدف من ممارستها مع الأطفال[3]. وما دامت دراما الطفل ليست أداة تسلية وترفيه للطفل فحسب، فإنه يتوجب على "المنشط المبدع حينما يبدأ الأطفال في إبداع المواقف هو البعد عن التوجيه والاقتصار على الاهتمام بإيقاظ الشعور بأسئلة تدفع الأطفال إلى تجاوز أفكارهم وتعبيراتهم إلى المشاهدة والإنصات لتعبيرات وأفكار الآخرين فإن هذا سيؤدي بهم إلى أن يعزفوا جميعا لحنا واحدا مؤثرا"[4].

وبما أن المسرحية كتبت قبل قيام الثورة التحريرية المسلحة، فإن الجيلالي – ربما – كان يهدف إضافة إلى تنمية الجانب التعليمي والتربوي والسلوكي في الطفل، وتنشئته كذلك على التمسك بدينه وأصالته لتهيئته للتصدي للاستعمار ومجابهته.

كما استمد عبد الكريم العقون من التاريخ مسرحيته "زينب الفتاة"، وهي تتمحور حول حب مراد للفتاة زينب الجميلة الساحرة التي ملأت عليه كيانه ووجوده والتي تتظاهر – زينب – بأنها تحب مراد فتبادله عبارات الحب والغرام، ويتفطن مراد أخيرا بعد نصيحة الشيخ سليم له بمكر زينب ومخادعتها فيتمرد عليها. ويبدوا لأول وهلة أن المسرحية تستمد وقائعها من الحياة اليومية إلا أنها في الواقع "تستلهم أحداثها من أفكار سياسية وموضوعها موضوع رمزي رائع"[1]. وهو ما يقر به المؤلف نفسه إذ أنه يقول " أنه يريد بزينب هنا فرنسا، ومن أبطالها مراد ويريد به الشعب الجزائري" [2] وهي بدورها مسرحية تعليمية أراد من خلالها كاتبها تنمية الحس الثوري والوطني، وربما تكون دعوة ضد دعاة فكرة ما يسمى بالاندماج مع فرنسا التي تبنتها بعض القوى السياسية في فترة الأربعينيات، سيما وأن هذه المسرحية قد كتبت في تلك الفترة التاريخية التي كانت حبلى بالصراعات السياسية المختلفة.

وبالرجوع إلى أحداث هذه المسرحية، يمكن اعتبارها مقارنة بمثيلاتها أسهل وفي متناول المراحل العمرية المختلفة، سواء من حيث حبكتها التي تتسم بالسهولة أو بأحداثها البسيطة أو بشخوصها الواضحة.

وانطلاقا من المرحلة الحالكة التي عاشتها الأمة الجزائرية والتي كتبت فيها هذه المسرحية فإن العقون – ربما – كان مدركا لأهمية المسرح الموجه للطفل المستلهم من التاريخ باعتباره وسيلة جد ناجعة في عملية التوعية والتحسيس والتثقيف، وأنه "الأداة الفنية القادرة على نقل مضمون اجتماعي تربوي بطرق بسيطة ومضمونة التأثير، فهو بالتالي أنسب الوسائل الفنية للتعامل تعليميا وتربويا مع الأطفال". [3]

وكتب أبو العيد دودو مسرحية التراب"[4]، وهي مستمد من تاريخ أحداث الثورة التحريرية، وتتمحور حول شخصية الفتى سعيد الذي صعد في أول الأمر إلى الجبل بهدف الانتقام من خصمه حميد الذي نافسه في غرامه لحبيبته فضيلة، ولكنه ما إن اختلط بالمجاهدين وأدرك عمق إخلاصهم للقضية الوطنية – قضية التحرير

---

[3] – المرجع نفسه، ص : 23.

[4] – المرجع نفسه، ص : 26.

[1] – عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، صفحة : 244.

[2] – المرجع نفسه، ص : 244.

[3] – مجلة المسرح المصرية، عدد 22 السنة الثانية، مارس 1984، ص : 70.

[4] – أبو العيد دودو، التراب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ.

– حتى برز في نفسه طموح ثان، وهو مشاركة هؤلاء المجاهدين، وقيامه صحبتهم بواجبه الوطني في الكفاح المسلح.

إن الحبكة التي تتضمنها هذه المسرحية هي الصراع الذي يدور في نفسية الفتى سعيد بين واجب الانتقام من منافسه حميد وواجبه الوطني في الكفاح المسلح. ويهتدي في النهاية إلى تغليب الواجب الوطني.

ويبدوا من خلال أحداث هذه الدراما أن المؤلف أراد أن يبث في نفسية النشء الصاعد حتمية التحلي بالواجب الوطني، وذلك من خلال الابتعاد عن مظاهر اللهو والعبث والمساهمة بقدر الإمكان في الثورة المسلحة، وما يدعم هذا الاعتقاد أن هذه المسرحية قد كتبت إبان الثورة التحريرية، ففي تمهيد لهذه المسرحية يقول دودو أن "الحادثة – تقع – في ربيع السنة الأولى للثورة المجيدة."[1].

وقد استطاع الكاتب إلى حد كبير، أن يبرز مشاعر التعاطف الشباني مع الثورة ومناصرتها لها، وهذا ما يتجلى من خلال موقف الفتى سعيد الذي آثر مصلحة الوطن على مصلحته الخاصة، كما أنه يعد بمثابة دعوى للأجيال الصاعدة لتحمل مسؤولياتها الوطنية. كما استطاع أن يقدم عملا فنيا يكون إلى حد ما في متناول قدرات الأطفال المعرفية والسلوكية والتربوية سواء من خلال بساطة ومحدودية أحداثه أو من خلال وضوح شخوصه ويسر حبكته، إلا أن ما يعاب على هذه المسرحية شأنها شأن المسرحيات الأخرى المماثلة لها، أن أسلوب التوجيه التربوي والتعليمي يبدو جليا، وأنه موجه إلى الصبية أكثر مما هو موجه للأطفال، لأن تحمل المسؤوليات الوطنية لا يدرك كنهه إلا من نضج فكره واكتمل إدراكه، وهذا بكل تأكيد لا يستوعبه أطفال الدراما الإبداعية المتعارف عليها.

إلى جانب ذلك كتب محمد الصالح رمضان مسرحية "الهجرة النبوية"[2] ، وهي مستلهمة من التراث العربي الإسلامي. وكتب محمد رايس مسرحية مستمدة من الأحداث التاريخية تحت عنوان "أبناء القصبة"[3]، وقد ركزت على الوعي الثوري داخل العائلة الجزائرية، ومسرحيات اخرى لا سبيل لذكرها.

ب/ أسلوب الألسنة : يعد أسلوب الأنسنة هو الأسلوب الغالب في كتابة "دراما الطفل" عند المبدعين الجزائريين في فترة ما بعد الاستقلال،ومعناه هو إضفاء صفات الإنسان على الحيوان، وقد استخدم – هذا الأسلوب – لإبراز صور النماذج الإنسانية المختلفة في قالب رمزي، وذلك من خلال تعليم الطفل لبعض سلوكات الحيوانات المختلفة، قصد تنمية معارفه وإشباعه ببعض القيم السلوكية والتربوية التي تتناسب مع مستويات مراحله العمرية، ومن بين المسرحيات التي انتهجت هذا الأسلوب، مسرحية الخياط الماهر"[4] لأحمد حمومي الذي جزأرها عن نفس المسرحية للإخوة قريم، وتتلخص فكرتها في تخيل الطفل الخياط – بعدما يقوم عابثا بتطريز حزامه بعبارة "بين الشدة والمدة، سبعة مجبدة"[1]–، أنه بطل شجاع، وتساعده الظروف في ذلك على تحقيق حلمه في أن

---

[1] – المصدر نفسه، ص : 07.

[2] – محمد الصالح رمضان، الهجرة النبوية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ.

[3] – عبد الحليم رايس، أبناء القصبة (لم تنشر) أخرجها مصطفى كاتب للمسرح الوطني الجزائري سنة 1963.

[4] – أحمد حمومي، الخياط الماهر (لم تنشر) أخرجتها فوزية آيت الحاج، قدمها المسرح الوطني الجزائري 1993.

[1] – المصدر نفسه، ص : 08.

يصبح أميرا، ويتزوج بابنة الملك. وقد استطاع الكاتب في محاكاته لهذا العمل الدرامي أن يمزج بين الأصالة والمعاصرة، بعد أن أصبغ عليها اللون المحلي من عادات وتقاليد وأبعاد نفسية واجتماعية وثقافية، وهو بذلك يكون قد وفق إلى حد كبير في الجمع بين روح البطولة والإقدام في نفوس الأطفال وإشباعهم بأصالتهم وانتمائهم، بعد أن نأى بنفسه عن القيام بالترجمة الحرفية لهذه المسرحية.

ويمكن اعتبار هذه المسرحية انطلاقا من الفكرة التي تتناولها، وطبيعة الصراع الانفعالي الذي يحرك بناءها، ونمو أحداثها الذي يتسم بالتشويق والتطور الدرامي، ووضوح شخوصها وبساطة حبكتها، قلت يمكن اعتبارها بالناجحة، وهي تتناسب مع المستويات العمرية المتوسطة للأطفال، باعتبار "أن مادة إيقاعها تتجاوز المحسوس وتحتوي على المغامرة والطموح والبطولة"[2].

أما مسرحية "النملة والصرصور"[3] لمؤلفتها فوزية آيت الحاج التي استمدت فكرتها من كتاب "الخرافة" للافونتين، فقد قامت هي الأخرى بجزأرة هذه المسرحية شكلا ومضمونا، إذ أنها إضافة إلى كتابتها باللهجة العامية الجزائرية أضفت عليها اللون المحلي ممثلا في العادات والتقاليد، وكذا الأبعاد السيكولوجية والسوسيولوجية والفسيولوجية للمجتمع الجزائري، وهذا تماشيا مع المحتوى الفكري الذي يتلخص في انشغال الصرصور بالرقص والغناء حتى إذا ما أقبل فصل الشتاء ولم يجد ما يقتات به، ذهب يصرخ من شدة الجوع إلى جارته النملة، متوسلا لها، أن تقرضه حبات يقتات بها، واعدا إياها، بأنه سيردها لها في الفصل الجديد، ولكن النملة ترفض اقتراضه وتحمله مسؤولية ما وصل إليه حاله، وتطلب منه ساخرة أن يرقص ويغني لها كما اعتاد على ذلك.

استطاعت الكاتبة من خلال فكرة مسرحيتها الداعية إلى الجد في العمل والادخار وقت الرخاء للإنفاق وقت الشدة والحاجة، إضافة إلى مزجها بالطابع المحلي استطاعت أن تبسط من عقدة مسرحيتها، وتسير تطور أحداثها، وتوضح دور شخوصها، ومن ثم فإنها توافق مختلف المستويات العمرية للأطفال، " الذين تناسبهم مادة الإيقاع الحركي المستمدة من أفكار تعبر عن آفاق جديدة عن العالم المحسوس المحيط"[4].

نفس الشيء تقريبا يمكن قوله على مسرحية "وصية دمنة"[1] لكاتبها نذير حسين والتي اقتبس فكرتها من كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، ويتلخص مغزاها في أن السعادة لا تكون على حساب الآخرين، كما أن الغدر والكذب والنفاق لا يعود على صاحبه إلا بالوبال والخسران والمبين (1).

وقد أراد الكاتب من خلال هذه الدراما، التنويه بالخير والإشادة بمحاسنه، ونبذ الشر والدعوة إلى تجنبه، والابتعاد عنه قولا وفعلا، لأنه لا يجلب لصاحبه إلا الخزي والهوان، وقد وظف الكاتب شأنه شأن الكتاب السابقي الذكر عاملي البيئة والأبعاد الثلاثة المعروفة في عملية البناء الدرامي لهذه المسرحية ووفق في ذلك إلى حد كبير. إضافة إلى ذلك فإن هذه المسرحية تحمل معنى فكريا ساميا ينمي الحب والخير في نفوس الأطفال،

---

[2] – مجلة المسرح المصرية، العدد الثامن، السنة الثانية، سبتمبر – ديسمبر، ص : 24.

[3] – فوزية آيت الحاج، النملة والصرصور، أخرجتها المؤلفة نفسها للمسرح الوطني الجزائري سنة 1994

[4] – مجلة المسرح، العدد الثامن، السنة الثانية، سبتمبر – ديسمبر، ص : 24.

[1] – نذير حسين، وصية دمنة (لم تنشر) أخرجها المؤلف نفسه، قدمها المسرح الوطني الجزائري سنة 1993.

بالقدر الذي ينزع من نفوسهم الضغائن والأحقاد والمكاره، كما أنها تنمي فيهم السلوك الإيجابي، وتمدهم بالتربية والأخلاق السامية، وتثري معارفهم وتدعم خبراتهم المحسوسة والمجردة، ضمن المحيط الذي يعيشون فيه.

ونجد إلى جانب ذلك عددا وافرا من المسرحيات التي عالجت موضوع مسرح الطفل منها المترجم والمقتبس ومنها المؤلف، ومن أهمها مسرحية "البطة البرية"[2] لعلال خروفي، و"العرش"[3] ليماني الزبير و"أغنية الغابة"[4] لحميدة آيت الحاج وغيرها من المسرحيات الأخرى التي لا يتسع المجال لتناولها.

ج/ الحياة اليومية : أما دراما الطفل التي استمدت موضوعاتها من الحياة اليومية أو الواقع المعيش فبالإضافة إلى قلة عددها تتسم بضعف بنائها الدرامي، سواء في المجال الفكري أو الفني أو التربوي، ففي الميدان الفكري نجد أن أغلبية هذه المسرحيات تتضمن كل واحدة منها عددا من الموضوعات المتفرقة، فعلى سبيل المثال لا الحصر نلاحظ أن مسرحية "ناس الحومة"[5] وهي من تأليف جماعي، تتناول موضوعات السكن والصحة والطب المجاني[6]. وبالتالي فهي لا تتجاوب فكريا مع المستويات العمرية لدراما الطفل التي تشترط المحدودية والبساطة في الموضوع الفكري. وفي المجال الفني يمكن القول أنه لا يمكن داخل "دراما الطفل" الواحدة، أن نعالج مجموعة من الموضوعات الفكرية، باعتبار أن البناء الدرامي يقوم على أساس وحدة الموضوع وبساطة الأحداث ووضوح العقدة، وهكذا فإن أغلبية مسرحيات الطفل المستلهمة من الحياة اليومية، لا تتماشى وقواعد الفن الدرامي. أما في المجال التربوي فإن هذه المسرحيات قد ركزت على الجانب الفكري، ذلك أنها تتناول مشاكل اجتماعية متنوعة ذات علاقة بالمحيط المعيش، ومن ثم فإنها لا تهتم بالقيم التربوية والسلوكية الخاصة بالطفل، ولهذا فإن هذا الأسلوب في عمومه وهو أبعد ما يكون في معالجة القضايا المتعلقة بدراما الطفل. بالرغم من جفاء هذا الأسلوب فإن هناك بعض المسرحيات التي تقترب إلى حد ما من مادة هذه الدراما، فمسرحية "المحقور"[1] التي كتبها سليمان بن عيسى تتضمن بعض الجوانب التعليمية والتربوية والسلوكية، إذ أنها تحمل دعوة إلى النشء الصاعد بتحمل مسؤولياته من أجل الحفاظ على العائلة من التفكك والاندثار، وهذا ما يتجلى من الفكرة التي تطرحها هذه المسرحية، وهي قضية الحقرة التي يمارسها بعض الآباء في حق زوجاتهم وأبنائهم داخل العائلة نتيجة تقاليد موروثة وسوء فهم للتغييرات الجارية بفعل العصرنة[2]. وحتى وإن بدت هذه الفكرة عميقة الدلالة صعبة الإدراك، وليست في مستوى المراحل العمرية للطفل، فإنها بلا شك تحمل فكرة حساسة باعتبار أنها من نوع الأفكار التي تترتب عنها أسئلة تخلد بفكر الطفل وتوقظ ضميره من مثل – ماذا ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ – لأنها من نوع الأسئلة المفتوحة التي "تستدعي التفكير وتتطلب التنقيب الذي يحرك الإبداع الكامن لدى الطفل"[3].

---

(2) – علال خروفي، البطة البرية (لم تنشر) أخرجها المؤلف نفسه، قدمها المسرح الوطني الجزائري سنة 1990

(3) – يماني الزبير، العرش (لم تنشر) المخرج عبد الله أورياشي قدمها المسرح الوطني الجزائري سنة 1989.

(4) – حميدة آيت الحاج، أغنية الغابة (لم تنشر) أخرجتها المؤلفة نفسها، قدمها المسرح الوطني الجزائري سنة 1987.

(5) – ناس الحومة، تأليف جماعي (لم تنشر) أخرها عبد الحميد حباطي، وقدمها مسرح قسنطينة الجهوي سنة 1980.

(6) – أحمد بيوض، المسرح الجزائري (1936 – 1989)، منشورات التبيين / الجاحظية، الجزائر سنة 1998، ص : 114.

(1) – سليمان بن عيسى، المحقور (لم تنشر) إخراج عبد المالك بوقرموح، قدمها مسرح عنابة الجهوي سنة 1978.

(2) - Algérie – Actualité , N°903 du 03 au 09 Février 1983 P:12.

(3) – مجلة المسرح المصرية، العدد الثامن، السنة الثانية، سبتمبر، ص : 25.

وقريب من الفكرة التي تطرحها الدراما السالفة الذكر، كتب عبد القادر تاجر مسرحيته "رقصة الأبرياء"[4] ، التي تتمحور حول يوميات أسرة متواضعة، تظهر بين أفرادها تناقضات تتولد عنها أزمة تعصف بكل الأسرة ويتضح من خلال الفكرة التي تطرحها هذه المسرحية أنها شبيهة إلى درجة كبيرة بسابقاتها في مسرحية المحقور، إذ أنها هي الأخرى تطرح عدة تساؤلات مفتوحة توقظ فكر الطفل وتقوم (بضم التاء وكسر الواو) سلوكه، كونها تضعه أمام مسؤولياته في المحافظة على أسرته، وبالتالي فهي تقوم من جهة بتوعيته تربويا وأخلاقيا، ومن جهة أخرى تجعله في موقف البحث والتنقيب، ومن ثم إثراء معارفه وتنمية شخصيته وفق ما تحبذه الحياة العائلية "للإسهام في حل مشكلات أسرهم، وتكون هذه المواقف في الوقت نفسه سبيلا لاكتساب الأطفال القيم الأخلاقية والسلوكية والاجتماعية الحميدة"[5].

إلى جانب ذلك كتب محمد بن قطاف مسرحية "حسناء وحسن"[6] وهي تتناول ظاهرة الطفولة المراهقة عند الشباب، "ولم تخرج عن الإطار الاجتماعي"[7] . ومسرحيات أخرى لا يتسع المجال لذكرها.

3/ ملاحظات فكرية، فنية وتربوية :

إن طبيعة دراما الطفل – كما هو معروف – تخضع فكريا لمراحل عمرية محددة، وهذا تماشيا مع تقسيم علماء النفس لعمر الطفولة إلى ثلاث مراحل تبدأ من سن الثالثة وتمتد حتى سن السادسة عشرة[1].

وإذا ما أردنا تقييم الكتابة المسرحية للأطفال في بلادنا بهذا الخصوص أمكننا القول، أننا كسائر البلاد العربية نفتقر إلى مسرح أطفال حقيقي، ذلك أن هذا اللعب الدرامي لم يتجذر بعد في حياتنا الثقافية، وما هو موجود بحوزتنا لم يتبلور شكلا ومضمونا مع رغبات الطفولة ومتطلباتها، كما أنه لم يقم على الثوابت العلمية الصحيحة التي تحدد طبيعة دراما الطفل التي بواسطتها نعرف ما يريد الطفل ؟ وكيف ومتى يقدم له العمل الدرامي ؟

لذلك فإن مختلف الأعمال المسرحية الخاصة بالطفل المكتوب منها والمقدم على خشبة المسرح، قد اتسمت بالضعف والفتور، كون الكاتب أو المدرب عندما يقدم عمله فإنه يقدمه انطلاقا من رؤيته الخاصة للحياة، ومن ثم فإنه يخطئ التقدير عندما يعتقد أن حياة الأطفال تتشابه على الدوام عبر مختلف الأزمنة، لذلك فإن ما قدم لحد اليوم بعيد عن دراما الطفل وهو أقرب ما يكون إلى المسرح الموجه، أو ما يصطلح على تسميته في المغرب بالمسرح الصبياني.

أما الموضوعات التي تعالجها هذه الأعمال الدرامية فتتعدد قضاياها، وتأتي في المرتبة الأولى القضية التي تستمد أحداثها من التراث العربي الإسلامي، وكذا من تاريخ الثورة التحريرية المسلحة – وهي كما سبق وأن ذكرت – كانت موضوع اهتمام كتاب مرحلة ما قبل ثورة أول نوفمبر 1954 وأثنائها، تليها الموضوعات التي

---

[4] – عبد القادر تاجر، رقصة الأبرياء (لم تنشر)، قدمها المسرح قسنطينة سنة 1983.

[5] – مجلة المسرح المصرية، العدد الثامن، السنة الثانية، سبتمبر – ديسمبر، ص : 25.

[6] – محمد بن قطاف، حسناء وحسن (لم تنشر) إخراج سيد أحمد أقومي، قدمها مسرح قسنطينة الجهوي سنة : 1975.

[7] – صحيفة المساء : عدد 554 ليوم 11 جويلية 1987، ص : 12.

[1] – أضافت مؤخرا منظمة اليونيسيف مرحلة أخرى إلى المراحل العمرية للطفولة تبدأ من حسن السادسة عشرة حتى سن الثامنة عشرة.

استلهمت أحداثها من أسلوب الأنسنة وهي موضوعات كانت محل اهتمام كتاب مرحلة ما بعد الاستقلال، وإن كانت في عمومها مترجمة أو مقتبسة، إلا أنها في بعض الأعمال تحمل طابع المحاكاة الإيجابي من خلال توظيفها لعادات وتقاليد الأمة الجزائرية في مختلف أبعادها، تليها القضايا الاجتماعية التي تأخذ مادتها من الحياة العامة والواقع المعيش بإيجابياته وسلبياته.

دأب الكتاب الجزائريون في المرحلة الأولى – من خلال استلهامهم للتراث والتاريخ وتوظيفه في أعمالهم الدرامية – إلى تعريف الطفولة الجزائرية بطريقة رمزية بقضايا الوطن الجريح الذي يعاني من ويلات استعمار بغيض مس الأمة في مقدراتها وثوابتها، محاولة منهم في بعث الهمم في النفوس وتهيئة الأجيال الصاعدة لحمل مشعل الثورة، إلا أن الطابع التوجيهي الوعظي هو السائد في مثل هذه المسرحيات. وكنموذج على ذلك نأخذ مسرحية "بلال بن رباح"[1] وإن كانت هذه المسرحية شأنها شأن باقي المسرحيات التاريخية الأخرى، لها أهميتها الكبرى – سيما في ذلك الظرف – في مجال التوعية والإرشاد، فإنها تحمل طابعا رمزيا يتعسر معه على الطفل في أغلب الأحيان إدراك دلالتها ومغزاها، كما أن الأسلوب المباشر طغى على لغة التخاطب مع الطفل فساد الوعظ والإرشاد، واتسم هذا النوع من المسرح بالجدية والصرامة، مما قد يجعل الطفل معه يشعر بأنه يجلس في قسم مدرسي وليس في قاعة مسرح، ويفقد الإحساس بالمتعة والفرجة التي تعد شرطا أساسيا في دراما الطفل باعتبار "أن فرجة العرض المسرحية – في اللعب الدرامي – ليست هي الغاية النهائية للعمل، بل هي النتيجة الطبيعية لهذا النشاط بحيث تسمح هذه النتيجة بخلق تواصل مع الآباء والمرساين التلاميذ وباقي تلاميذ المدرسة"[2].

أما الموضوعات الخاصة بمعالجة القضايا الاجتماعية فقد ارتأى المؤلفون فيها كتابة مسرحياتهم الخاصة بالطفل انطلاقا من تشريحهم للواقع المعاش بمختلف تناقضاته، وهم من خلال تلك المعالجة قد أخطؤوا التقدير، سواء في مجال اعتمادهم على الجانب الفكري، وهو – بطبيعة الحال – لا يتطابق مع مادة النشاط التمثيلي الذي "يعتمد على عنصر اللعب والمشاركة وتنمية الخيال وتحقيق الذات وطرح الثقة بالنفس ... إلخ[3] أو حتى بالنسبة لمضمون هذه المسرحيات الذي يتسم بالتعقيد تارة وبالنقد تارة أخرى، وهو ما لا يتجاوب مع نظريات التربية الحديثة للطفل.

وكمثال على ذلك نأخذ مسرحية "ناس الحومة"[4] التي "عالجت جملة من المشاكل السيئة بحي من الأحياء الشعبية حيث تعرضت للشباب وتسكعه في الشوارع ثم السكن والصحة فالطب المجاني والنقل وكل ما يمس حياة الناس اليومية"[5]. وهكذا فنتيجة لتعدد القضايا المتناولة ضمن هذه المسرحية وتشبعها، إضافة إلى

---

(1) – محمد العيد آل خليفة، بلال بن رباح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ.

(2) – مجلة المسرح المدرسي، تصدرها جمعية تنمية التعاون المدرسي بالمملكة المغربية، العدد الأول، أفريل 1997م، ص : 15.

(3) – مجلة الحياة المسرحية، طبع وزارة الثقافة السورية، العدد 41 لسنة 1994م، ص : 155.

(4) – ناس الحومة، تأليف جماعي، قدمها مسرح قسنطينة سنة 1980.

(5) – أحمد بيوض، المسرح الجزائري (26 – 89)، ص : 114.

"السطحية – التي – غلبت على المسرحية من حيث الطرح والمعالجة"[6]. كل ذلك يجرد هذه المسرحية وغيرها من المسرحيات الأخرى المثيلة لها من المقومات الموضوعية والفنية والتربوية الكفيلة بتحديد شروط دراما الطفل.

وفيما يتعلق بالأسلوب المستخدم في هذا اللون من المسرح يمكن القول أن المسرحيات المستلهمة من التاريخ والتراث كانت تحرص على الجانب التوجيهي أكثر من عنايتها بمتطلبات الطفولة ورغباتها في مختلف المراحل العمرية المختلفة. أما الدراما المستمدة من أسلوب الأنسنة التي هي في غالبيتها – كما أشرت – مترجمة أو مقتبسة، بالرغم من كتابتها باللهجة العامية، فإنها نظرا لكونها منتقاة من أمهات مسرحيات الأطفال العالمية، فإنها قد اتسمت بالتبسيط من جهة والترميز من جهة أخرى. وعلى الرغم من طابع المحاكاة الذي أضفاه كتابنا على أعمالهم بما يتجاوب مع بيئة المجتمع وأبعاده المختلفة فإنها كانت موفقة إلى أبعد الحدود، باعتبار أن طبيعة هذا الأسلوب يتصف بالمرونة والتشويق، وربما يعود اهتمام الكتاب بهذا الأسلوب إلى حرصهم على التوجيه القيمي والتربوي للطفل.

أما مسرحيات الطفل المستمدة من الحياة اليومية فكونها تركز على الفكرة وحدها في إطار اللهجة العامية، فإنها جاءت إلى حد كبير معقدة البناء سواء من حيث العقدة أو من حيث سير الأحداث، أما شخصياتها ولاسيما الأساسية منها فهي بالإضافة إلى أنها لم تكن من الأطفال، لم تكن واضحة بالقدر الذي تفرضه دراما الطفل، كما أن أسلوبها الفكري يفوق مستوى المراحل االعمرية للأطفال.

أما اللغة التي صيغت بها دراما الطفل فيمكن القول أن المسرحيات التي استخدمت ما يصطلح على تسميته بأسلوب الأنسنة قد وفقت إلى حد كبير فنيا وتربويا في مخاطبة الطفل حسب المراحل العمرية المختلفة، بالرغم من كونها مكتوبة باللهجة العامية كون هذا النوع من المسرحيات قد جاء مترجما ومقتبسا من أشهر أعمال الكتاب المسرحيين العالميين والعرب.

أما دراما الطفل التي انصبت موضوعاتها على الحياة اليومية، فإنها لم ترتق إلى المستوى المطلوب فنيا وتربويا، لأن كتابها تنقصهم الخبرة ويفتقدون معرفة أساسيات الكتابة في مسرح الطفل، كما أن كتاباتهم في عمومها تركز على النقد السطحي في معالجاتها لمناحي الحياة المختلفة، وتحرص على التوجيه المعرفي، وهم بدورهم يكتبون باللهجة العامية.

وفيما يخص مسرح الطفل المستمد من التراث والتاريخ فإنه شبه معدوم في مرحلة ما بعد الاستقلال، ويعود ذلك أساسا إلى أن مسرح الطفل في الجزائر مكتوب في عمومه باللهجة العامية واستلهام التراث والتاريخ لا تستساغ كتابته إلا باللغة الفصحى، ومع ذلك فإن ما كتب قبل الاستقلال بالرغم من تركيزه على الوعظ والإرشاد فإنه نسبيا قد وفق إلى حد كبير.

فقط ما ينبغي الإشارة إليه من كتابات باللغة الفصحى في مجال دراما الطفل، هي الأعمال المسرحية المشارك بها مؤخرا في مسابقة أدب الطفل، الذي تنظمه سنويا وزارة الاتصال والثقافة إلا أن هذه المسرحيات في أغلبيتها لا تعد أكثر من محاولات لهواة في هذا النوع من الكتابة.

---

[6] – المرجع نفسه، ص : 114.

وفيما يخص استخدام الشعر، فإن دراما الطفل الذي يستمد أسلوبه من الأنسنة يوظف بشكل كبير استخدام الشعر، سيما إذا كان الموقف يتطلب الغناء، ناهيك عن استخدامه للمحسنات البيانية والبديعية مثل السجع والجناس والطباق، وإن كانت صياغتها تتم باللهجة العامية، أما دراما الطفل المستمدة من الحياة اليومية فتركز اهتمامها على المضمون الفكري أكثر من اهتمامها بالجانب الشكلي، ومن ثم خلت في مجملها من الأشعار والمحسنات. نفس الشيء وإن كان بدرجة أقل يمكن قوله عن المسرح المستلهم من التراث والتاريخ، إذ أن هذا الأخير وإن كان لا يهتم إلا بالموضوع فإنه قد يتضمن بعض المقاطع الشعرية والمحسنات البديعية عندما يتطلب الأمر ذلك، كونها مكتوبة باللغة الفصحى.

تبقى الإشارة أن الأعمال المسرحية الخاصة بالطفل المشارك بها في مسابقة أدب الطفل المشار إليها أعلاه تكثر فيها الأشعار والمحسنات البيانية والبديعية إلى حد كبير، وهذا لعدة أسباب منها أنها في أغلبيتها تكتب بأسلوب الأنسنة، وهذا الأسلوب بطبعه يتطلب النظم الشعري بقدر ما يتطلب الصياغة النثرية.

والخلاصة أن ما تم تقديمه خلال ما يقرب من أربعة عقود من عمر الاستقلال من مسرح الطفل في الجزائر، لا يرتقي إلى مستوى الآمال المرجوة، ذلك أن هذا النوع من المسرح هو في حاجة إلى إبداع جزائري أصيل يتبناه كتاب جزائريون، فهم الذين يعايشون واقع المجتمع الجزائري بعاداته وتقاليده ومعتقده، ويتفهمون واقع الطفولة في الجزائر من خلال أبعادها النفسية والاجتماعية والثقافية والتربوية والأخلاقية، ومن ثم فإنه ليس هناك ما هو أهم من هذا العامل في الظرف الراهن، لأن الترجمة الحرفية البعيدة عن المحاكاة الإيجابية الهادفة، والاقتباس دون تمحيص وغربلة يعكس واقع مجتمعات أخرى قد تكون بعيدة في ذلك عن واقعنا.

وحتى بالنسبة لشكل الكتابة، فإن الكتابة باللهجة العامية في كل الحالات غير عميقة الدلالة، وقاصرة عن التعبير في كثير من الأبعاد والمواقف، ولا أدل على ذلك من أن الكتاب الجزائريين لم يهتموا بمسرح الأطفال المستوحى من التاريخ والتراث في فترة ما بعد الاستقلال، لأن الكتابة بهذا الأسلوب باللهجة العامية غير ناجعة ولا مستساغة، وأعتقد جازما أن مسرح الطفل في الجزائر قد تجاوز مرحلة التجريب، وأنه في خضم المحاولات المتكررة التي تسعى جميعا للنهوض به سيعرف نهضة شاملة في المستقبل المنظور

قدرة نتائج اختبارات شهادة البكالوريا و بطارية الاستعدادات الخاصة على التنبؤ بالتحصيل الدراسي للطلبة في السنة الأولى جامعي.
دراسة ميدانية في كلية الطب (طب، صيدلة، جراحة أسنان)

الأستاذ : بوسالم عبد العزيز
جامعة البليدة

ملخص الدراسة:

نجاح الطالب في دراسته الجامعية يتوقف إلى درجة كبيرة على مدى ملائمة التخصص لقدراته ميوله ورغباته، وعملية التوجيه المعتمدة اليوم في الجامعة الجزائرية تركز على معيار أساسي وهو المعدل العام في شهادة البكالوريا، ومنه كشفت هذه الدراسة وجود علاقة إرتباطية ضعيفة بين نتائج شهادة البكالوريا و التحصيل التراكمي للطالب في إحدى تخصصات كلية الطب، مما يعني انخفاض درجة الصدق التنبؤي لاختبارات شهادة البكالوريا إلى الحد الذي لا يمكن الاعتماد عليها لوحدها في عملية التوجيه، و هو ما تأكد من خلال هذه الدراسة حيث جاءت القيمة الارتباطية ما بين نتائج تطبيق بطارية الاستعداد الأكاديمي للدراسة بكلية الطب و نتائج التحصيل دالة إحصائيا إلى الحد الذي يمكن معه تطبيق هذه البطاريا و الاستعانة بنتائجها في عملية التوجيه، قصد التقليل من الإهدار المادي والتربوي و النفسي الذي يحدث نتيجة اعتماد عملية التوجيه على نتائج

شهادة البكالوريا التي أكدت الدراسة أن درجة صدق محتواها منخفض وصدقها التنبؤي لا يسمح باعتمادها كمعيار أساسي للتوجيه نحو التخصصات الثلاثة لكلية الطب.

1-الإشكاليــة:

تتطلب الدراسة في كل تخصص جامعي استعدادات تختلف عن الاستعدادات التي تتطلبها غيرها من التخصصات الأخرى، ولعل فشل بعض الطلبة في متابعة دراستهم بنجاح ما يشير إلى وجود نقص في الاستعدادات التي تتطلبها هذه الدراسة. بل أن فروع الدراسة الواحدة تختلف من حيث الاستعدادات التي تتطلبها في دارسيها . لذلك يتطلب الانتقاء والتوجيه التربوي تطبيق المقاييس السيكولوجية للحصول على بروفيل أو ملمح لقدرات الفرد، يستطيع من خلاله الطالب أن ينظر إلى ذاته نظرة موضوعية فيقارن بين استعداداته وما تتطلبه الدراسة التي يريد الالتحاق بها .

بما أن الدراسة في كلية الطب بتخصصاتها الثلاثة ذات طبيعة خاصة تجعلها تفترض ألا تستقبل الطلبة على أساس المعدل العام المحصل عليه في شهادة البكالوريا أو في بعض المواد العلمية التي يفترض أن لها علاقة بالتخصص. بل لابد أن يكون لها معاييرها الدقيقة ومحدداتها الواضحة، وأن يكون هذا الاختيار وفق مقاييس موضوعية تمكنها من قبول و استيعاب ذوي الاستعدادات الأساسية اللازمة للدراسة في هذه التخصصات، هذه المعايير تكون لها درجة مرتفعة من الصدق التنبؤي .

فالأمر يتطلب وضع معايير أخرى للانتقاء بالإضافة الى نظام القبول الحالي عن طريق معدل النجاح في البكالوريا، من خلال إختبارات لا تتوفر لدينا أدلة علمية حول صدقها التنبؤئي، مما يجعلها لا تأخذ في الاعتبار إستعدادات الطلبة وقدراتهم، ولا يعتني بتوجيههم إلى نوع الدراسة التي تناسبهم مما يؤدي إلى الكثير من مشكلات الرسوب الدراسي، الاهدار التربوي، مشكلات التكيف و الصحة النفسية للطلبة.

وفي ضوء نتائج بعض الدراسات التي تشير إلى أن النتائج التحصيلية في البكالوريا بمفردها لا تسمح بالتحديد الموضوعي للتخصص الذي يوجه إليه الطالب، وأنه ليس من المفيد الاعتماد عليها بمفردها كمعيار للالتحاق بمختلف الفروع في الجامعة، ومنها دراسة إسماعيل الفقي (1998) ودراسة ماري تينوبر(MARY TENOPER 1981) ودراسة رجائي الشريف و حسن حسنين (1992) وأحمد العريان (1996) ورجب عليوه حسن (1997). كما تشير الإحصاءات الصادرة عن بعض الجامعات الوطنية خلال المواسم الدراسية 1998 – 2004 إلى أن متوسط نسبة الرسوب من مجموع المسجلين في السنة الأولى بكليات العلوم الطبية بلغت 25 % من مجموع المسجلين. الأمر الذي يدعو إلى التساؤل حول صلاحية المعايير المعتمدة حاليا للقبول بمختلف تخصصات هذه الكلية،و هل نتائج مختلف إختبارات مواد البكالوريا تمتاز بدرجة مقبولة من الصدق التنبؤي تسمح بالاعتماد عليها في عملية التوجيه .

هكذا تناولت الدراسة الحالية مشكلة الصدق التنبؤي لنتائج إختبارات البكالوريا، مع محاولة تحديد الاستعدادات اللازمة للدراسة بكلية الطب بتخصصاتها الثلاثة، وتطبيق بطارية إختبارات لقياسها على عينة تتألف من(271) طالبا و طالبة من كلية الطب (طب، صيدلة و جراحة أسنان) في جامعة البليدة، و تم تطبيق

البطارية على الطلبة أفراد العينة في بداية الموسم الجامعي 2002-2003 و تم تتبعهم خلال مسارهم الدراسي لموسمين دراسيين بالكلية لتحديد مدى قدرة البطارية على التنبؤ بنجاحهم الدراسي.

وتتحدد تساؤلات الدراسة فيما يلي:

- ماهي درجة القيمة التنبؤية لبطارية الاستعدادات الأساسية للدراسة بكلية الطب على التنبؤ بالنجاح في ضوء مستويات الأداء التحصيلى التراكمي للطلبة ؟

- ماهي القيمة التنبؤية لمقاييس الاستعدادات الأساسية (الاستعداد العلمي، الأكاديمى الذكاء العام، والميل نحو دراسة التخصص، المثابرة على التحصيل) على التنبؤ بالنجاح في ضوء مستويات الأداء التحصيلى التراكمي للطلبة ؟

- ماهي القيمة التنبؤية لنتائج شهادة البكالوريا على تحديد مستوى أداء الطلبة بكلية الطب في ضوء مستويات الأداء التحصيلي التراكمي ؟

2- الفرضيات:

2 -1- توجد علاقة إرتباطية موجبة ضعيفة و غير دالة إحصائيا بين الأداء التحصيلي العام للطلبة في شهادة البكالوريا و نتائجهم التحصيلية التراكمية في السنة الأولى جامعي في التخصصات الثلاثة لكلية الطب (طب، صيدلة، جراحة أسنان).

2-2- هناك علاقة إرتباطية موجبة و دالة إحصائيا بين نتائج بطارية الاستعدادات الأساسية للدراسة بكلية الطب و نتائج الأداء التحصيلي التراكمي للطلبة في السنة الأولى للتخصصات الثلاثة لكلية الطب (طب، صيدلة، جراحة أسنان).

- أهداف الدراسة :

- تحديد درجة الصدق التنبؤي لبطارية الاستعدادات الأساسية للالتحاق بتخصصات الطب على التنبؤ بالنجاح التحصيلي بإستخدام محك مستويات الأداء التحصيلي التراكمي للدراسة بالتخصصات الثلاثة.

- معرفة مدى موضوعية الاعتماد على نتائج إختبارات شهادة البكالوريا في التوجيه إلى التخصصات الثلاثة بكلية الطب، على إعتبارها الأكثر طلبا من طرف الطلبة المتحصلين على معدلات مرتفعة في شهادة البكالوريا، مما يجعل الحد الأدنى للقبول فيها الأول على مستوى كل تخصصات الجامعة.

- تحديد القيمة التنبؤية لمستويات الأداء في إمتحان شهادة البكالوريا في تحديد درجات التحصيل الدراسي بإستخدام محك مستويات الأداء التحصيلي التراكمي .

4- أهمية الدراسة :

- تكمن أهمية الدراسة الحالية في محاولة إيجاد مقاييس يمكن إستخدامها كمعايير في عملية توجيه الطلبة على أسس علمية، تسمح بالرفع من القيمة التنبؤية لهذه المعايير و منه معرفة الطلبة الذين تسمح لهم قدراتهم، إستعداداتهم و ميولهم بالنجاح في إحدى التخصصات الثلاثة (طب، صيدلة وجراحة أسنان) تجنبا لزيادة نسب الرسوب و التسرب الذي يعاني منه طلبة الكلية.

– محاولة تحديد قدرة بطارية الاستعدادات الاساسية وقيمتها في التنبؤ بنجاح الطلبة في الدراسة و إلى أي حد يمكن الاعتماد عليها في توجيه الطلبة، أمام ظاهرة الإهدار المادي، التربوي و النفسي الذي يلحق سواء بالطالب في حد ذاته الذي يجد نفسه معرضا للرسوب سنة تلو الأخرى (نسبة الرسوب في موسم 2003–2004 في التخصصات الثلاثة لطلبة السنة الأولى في جامعة البليدة بلغت 27%)، مما يؤثر على دافعيتهم و إتجاههم نحو الدراسة. فيدفع بالكثير من الراسبين إلى تغيير التخصص بعد ضياع سنوات في كلية الطب، ليصبح هدف الطالب هو الحصول على شهادة جامعية بغض النظر عن التخصص بعدما كان الطالب من المتفوقين في شهادة البكالوريا، وهذه إحدى النتائج السلبية لعدم إعتماد التوجيه على معايير علمية متعددة، هذه الحالات تتطلب البحث عن حلول علمية و عملية للتقليل من حدته قدر الإمكان .

5– المفاهيم الأساسية للدراسة:

يعد التحديد الإجرائي للمفاهيم الواردة في أي دراسة بمثابة المفتاح لفهم مختلف مراحلها و نتائجها من طرف الباحثين الأخرين، وعليه تم تحديد المفاهيم التالية لهذه الدراسة.

5–1– التنبؤ:

يعرف التنبؤ لغة، تنبأ بالأمر أي أخبر به قبل وقت حدوثه (أحمد زكي بدوي، 1987). أما اصطلاحا فالتنبؤ هو تقديرا لما سيحدث أو يحتمل حدوثه في ضوء وقائع معينة، وذلك بالاستنتاج العلمي المبني على تحليل هذه الوقائع، ولا سيما من الناحية الإحصائية وتتضمن عملية التنبؤ بهذا المعني ثلاثة عناصر أساسية حسب عطوف محمود ياسين(1981) .

– الوقائع أو المتغيرات التي سيبني عليها التنبؤ وهي نتائج امتحان البكالوريا و بطارية الاستعداد..

– مجموعة الظروف التي توجد فيها هذه الوقائع أو المتغيرات وهي مجمل مكونات العملية التعليمة التعلمية بكلية الطب و التي في ضوئها يتعام الطالب .

– تقدير احتمال حدوث النتائج بالتحقق التجريبي (صلاح الدين محمود علام، 2000 ص 156) وهذا ما يتم خلال الدراسة الحالية من تحديد القيمة التنبؤية للمتغير المستقل مستويات الأداء على بطارية الاستعدادات الأساسية من مستويات الأداء التحصيلي التراكمي خلال الدراسة بالتخصص للإجابة على التساؤل هل لنتائج تطبيق البطارية قيمة تنبؤية بالنجاح التحصيلي بكلية الطب ؟ و هل لنتائج شهادة البكالوريا درجة تنبؤية مقبولة تسمح بمعرفة الطلبة الذين لديهم القدرة على النجاح في الكلية ؟

5–2– الاستعداد :

يعرف الاستعداد بأنه إمكانية الوصول إلى درجة من الكفاية أو القدرة عن طريق التدريب أو السرعة المتوقعة للتعلم (عبد اللطيف خليفة و عبد المنعم شحاتة، 1992، ص53) .

ويعرف الاستعداد بأنه القابلية الفطرية لإكتساب معرفة معينة، مهارة عامة، خاصية أو نمط من الاستجابات، بحيث تمكن الفرد من الوصول إلى درجة من الكفاية أو المقدرة إذا لقي الفرد التمرين الكافي(فؤاد عبد اللطيف أبو حطب، أمين علي سليمان، 1992، ص 12).

و الاستعداد سمة موجودة في الفرد، وهي إمكانات كامنة لا تظهر إلى حيز الوجود، إلا إذا وجدت العوامل و الظروف المساعدة على ظهورها، من ممارسة وتدريب و بيئة مناسبة، فالاستعداد هو نقطة البداية في أي تعلم، ويشير الاستعداد في ميدان القياس النفسي إلى القيمة الكمية للتنبؤ بالأداء اللاحق أي المدى الذي يمكن تحصيله أو توقع تحقيقه في موقف مستقبلي جديد بناءا على معطيات الحاضر. وتشمل الاستعدادات في الدراسة الحالية .

أ- الاستعداد العلمي :

في ضوء العوامل التي توصلت إليها الدراسات والبحوث العملية من وجود إرتباطات وثيقة ودالة بين الاستعداد العلمي والأداء في الدراسة ذات الطابع الطبي الذي ترجع جذورها إلى أبحاث جولتون (GOLTON 1883) وثورنديك (THORNDIKE 1920) الذي افترض وجود ثلاثة أنواع للذكاء منها الذكاء العلمي. وما توصل إليه أحمد زكي صالح (1985) من أن للعوامل العقلية مسؤولية عن النجاح في التخصصات الطبية، وما أشار إليه جابر عبد الحميد جابر (1997) على أن الاختبارات التي ثبت فائدتها في التنبؤ بالنجاح في العمل الطبي هي إختبارات (الذكاء، الفهم الكيميائي، المعلومات البيولوجية، القدرة المكانية والإدراكية).

في ضوء بعض الدراسات العربية والأجنبية تم انتقاء سبعة عوامل تكاد تجمع عليها هذه الدراسات وتعد من مكونات الاستعداد الطبي وهي :

المرونة في الإدراك المكاني، تقدير الأشكال، الذكاء العملي، التصور البصري التوجه البيولوجي و القدرة على إستعمال الوسائل.

ب- الذكاء العام :

يعد الذكاء العام أحد العوامل المساعدة على التنبؤ بالنجاح في دراسة أي من التخصصات، ومنها الطبية، وتم قياسه باستخدام مقياس المصفوفات المتتابعة لرافن التي تتضمن القدرة على إدراك العلاقات، المتعلقات، الاستدلال و الدقة في الإدراك، وتعد هذه العوامل من المتغيرات الهامة التي ترتبط بمفاهيم البحث، ويعرف الذكاء العام في الدراسة الحالية بأنه مجموع ما يتحصل عليه الطالب من درجات نتيجة لأداءه في اختيار المصفوفات المتتابعة لرافن .

ج- الاستعداد الرياضي:

تعد الرياضيات ذات صلة وثيقة بالتحصيل في التخصصات الطبية، ويعد الإدراك الجيد لهذه القدرة و وظيفتها ومكوناتها عامل مساعد على الانتقاء السليم للدراسة الذي يمكن التوجيه إليها باكتشاف القدرات الطبية عند المتعلمين، ويشير(يحيي المرزوق الأحمدي، 1987) إلى أن المتعثر في دراسة الرياضيات في مراحل التعليم قبل الجامعي يصعب عليه إتمام الدراسة بإحدى تخصصات كلية الطب. وإيجاز لنتائج البحوث والدراسات التي تناولت تعريف القدرة الرياضية من خلال عواملها يمكن تعريفها في الدراسة الحالية بأنها إستعداد معرفي يهدف إلى حل المشكلات الاستدلالية ذات الطابع الرمزي أو العددي .

ء- الاستعداد العلمي :

تعد الفيزياء والكيمياء من العلوم الاساسية في الدراسة بكلية الطب قصد الإلمام بخواص المادة، أساسيات الأجسام، المادة الحية، الخلية و التكاثر وفي مجالات الاختزال والهدرجة والأكسدة و الأمراض و غيرها من المبادئ الأساسية في الدراسات الطبية.

6- الدراسات السابقة:

6-1- دراسة لويز و جيمس(JEMES D.PERRY & LOUIS LANG 1994) :

تناولت هذه الدراسة العلاقة بين التحصيل الدراسي في كلية الطب وأساليب الانتقاء المتبعة بهدف تحديد مدي تأثير الدرجات المرتفعة في شهادة البكالوريا في الانتقاء للالتحاق بكلية الطب كأساس للتنبؤ بمتوسط الدرجات في الأربع سنوات التالية في الكلية. و دراسة العلاقة بين متوسط الدرجات في الأربع سنوات بالكلية وبين درجات اختبارات سترونج وكيودر للميول . وذلك باستخدام درجات إختبار القدرة العلمية، القدرة الرياضية العامة، اختبار سترونج وكيودر للميول – ومتوسط درجات الأربع سنوات في الدراسة بالكلية – علي عينة تتكون من 433 خريجا من جامعة نيويورك. وأكدت النتائج على وجود معامل إرتبط متوسط (00.40) بين درجات الأربع سنوات بالكلية ومتوسط درجات البكالوريا و (00.53) معامل ارتباطهما بمتغيرات الدراسة. كما تشير النتائج إلى إنخفاض معامل الارتباط بين متوسط درجات الأداء للأربع سنوات بالكلية واختبارات الميول فيما عدا الميل العلمي كان متوسط ارتباطهما (00.91) والميل العلمي (00.76) .

6-2- دراسة أمسية الجندي (1980):

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة العلاقة بين التحصيل الدراسي في المواد التخصصية وبين القدرات العقلية الأولية والميول المهنية في المدارس الثانوية، قصد تحديد الفروق في الميول المهنية والقدرات التخصصية بين المتعلمين مرتفعي الدرجات التحصيلية والأقل تحصيلا في المواد العلمية التخصصية. و أكدت النتائج على أن هناك فروقا دالة إحصائيا في الميل العلمي والميكانيكي بين الطلبة الأكثر والأقل تحصيلا في المواد العلمية و الثقنية لصالح الأكثر تحصيلا .

6-3- دراسة يحيي مرزوق الأحمدي (1987):

تناولت الدراسة العوامل العقلية وغير العقلية المساهمة في النجاح في التعليم الثانوي العلمي. وهدفت الدراسة لقياس القدرات العقلية والميول المهنية والمهارات اليدوية وسمات الشخصية لدى طلبة التعليم الثانوي العلمي و علاقتها بالنجاح في المقررات الدراسية الجامعية. وتشير النتائج إلى أن مجموعة العوامل العقلية المساهمة في النجاح (التصور العلمي، الاتجاه المكاني، القدرات البيولوجية، السرعة الإداركية الحس العمي) العوامل غير العقلية (الميول المهنية، المكانة الاجتماعية، المهارة اليدوية) .

6-4- دراسة باري كوين BARRY J.COYNE (1988):

تناولت الدراسة القيمة التنبؤئية لاختبار روكش للتنبؤ بالنجاح الأكاديمى الجامعي وحاول الباحث تحديد قيمة الاختبار في التنبؤ بالأداء الأكاديمى، لإستخدامه كمعيار للتوجيه بالجامعة. وتشير النتائج إلى معامل صدق تنبؤى مرتفع مع مراعاة إستخدام متوسط درجات المرحلة الثانوية ودرجات الاختبار المنبئ بالنجاح .

6-5- دراسة إبراهيم مبارك الدوسري (2000):

تناولت لدراسة الفروق الجنسية في الأداء واتجاهات الطلبة والطالبات، دراسة طولية لطلاب كلية الطب حول مستوى الأداء ومعدل الاحتفاظ. وشملت الدراسة 83 طالبا و 34 طالبة، أستعرضت الدراسة العوامل التي تحدد نجاح أو فشل طلبة كلية الطب بجامعة نورث كارولينا. وتشير نتائج الدراسة التي أستمرت 4 سنوات دراسية أن أفضل العوامل التي تحدد النجاح هي الاستعدادات والاتجاهات، والمثابرة كما تؤكد الدراسة على العوامل المعرقلة لأداء الطلبة وهي سوء معاملة الاساتذة من تحيز وعدم إحترام أراء الطلبة .

ويتضح من خلال هذا العرض أن بعض الدراسات تشير إلى أهمية درجات اختبارات الاستعداد العلمي وإرتباطها بمستوى الأداء الدراسي بكليات الطب، ومنها مما يشير إلى ضرورة توافر الإستعداد الأكاديمى في الانتقاء بهذه الكليات، وكذلك أهمية الذكاء العام كعامل من العوامل المساعدة على النجاح. كما أشارت الدراسات إلى أهمية الارتباط بين العوامل المعرفية والوجدانية في الانتقاء للدراسة. وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن عملية التوجيه لكليات الطب يمكن أن تعتمد على متوسط درجات أداء الطلبة على الاختبارات المعرفية (الاستعداد العلمي، الاستعداد الأكاديمي، الذكاء العام) وإختبارات السمات الوجدانية(الميول، والمثابرة) .

7- الإطار الميداني للبحث (العينة – الأدوات – الإجراءات) .

7-1- العينة : شملت العينة 271 طالبا و طالبة من كلية الطب بجامعة البليدة، تم تطبيق عليهم بطارية الاستعدادات الأساسية للالتحاق بكلية الطب عند إلتحاقهم بالتخصصات الثلاثة للكلية (طب، صيدلة، جراحة أسنان) في بداية الموسم الجامعي 2002-2003 وتم تتبعهم خلال ثلاثة مواسم دراسية. و يوضح الجدول رقم (01) عينة الدراسة.

جدول (01) يوضح عينة الدراسة .

التخصص / الجنس	طب	صيدلة	جراحة أسنان	المجموع
ذكور	84	23	17	124
إناث	93	28	26	147
المجموع	177	51	43	271

7-2-الأدوات :

7-2-1- بطارية الاستعدادات الاساسية للالتحاق بكلية الطب، وتتضمن الاختبارات التالية:

أ – اختبارات الاستعداد البيولوجي: يتكون الاختبار من ثمانية مجموعات من النماذج تتضمن كل مجموعة أربعة نماذج يرمز لها (أ، ب، ج، د) وإلى اليمين منها يوجد شكل والمطلوب إستخراجه من أحد النماذج .

ب- اختبار الإدراك المكاني: و يتضمن اختبار الإدراك المكاني ثنائي البعد الذي يتكون من ست مجموعات تتضمن كل مجموعة نموذج وأربعة أشكال محتملة بضم بشكل صحيح يتكون النموذج المطلوب .

ج- اختبار الإدراك المكاني ثلاثي البعد: يتكون من (06) ست وحدات تضم كل وحدة شكلا مستويا وعدة أشكال محتملة (مجسمات) والمطلوب تحديد أي الأجسام بعد توزيعها عشوائيا يمكن أن يكون الشكل المستوي .

ء- اختبار تقدير الأطوال: و يتكون الاختبار من جزئين:

الجزء الأول : يضم أربع مجموعات من المستقيمات كل مجموعة تضم خمسة مستقيمات مختلفة الأطوال والمطلوب تحديد أقصر المستقيمات في كل مجموعة .

الجزء الثاني : يضم ستة مستقيمات كل منها مقسوم بالنقطة (ع) إلى جزئيين بينهما نسبة ويوجد أسفل كل مستقيم عدة نسب والمطلوب إختيار النسبة الصحيحة .

هـ- اختبار الذكاء العلمي: يتكون الاختبار من تسع رسوم لمجسمات يتبع كل مجسم عدد من الأسئلة لقياس القدرة على الفهم و التحليل و إستخلاص العلاقات المنطقية المتضمنة داخل هذا الشكل وتصور حركة الأجسام أثناء تحركها .

و- إختبار التصور البصري المكاني: ويقيس القدرة على تصور الأجسام الساكنة في أوضاعها الأصلية، ويحتوي الاختبار رسما منظورا لكتلة خشبية على شكل متوازي مستطيلات، ورسم على سطحها العلوي و في الجانبين خطوط توضح الطريقة التي شقت بها هذه الكتلة أفقيا أو عموديا، ويوجد أسفل هذه الكتلة أشكال تمثل منظور نتج عن عملية الشق بعد فصله عن الكتلة الكبيرة، وعلى الفرد تصور موقع هذا الجزء داخل الكتلة .

ز- اختبار التوجه المكاني: يتضمن الاختبار سلسلة من الصور لمجموعة من الأيدي بعضها لليد اليسرى والأخرى لليمني، والمطلوب معرفة إذا كانت الصورة لليد اليمني أو اليد اليسرى .

ي – إختبار الاستعداد الأكاديمى (رياضيات . علوم): وهو مقتبس عن اختبار
(RECORD-EXAMINATONS (G.R.E-GRADATE.) في ضوء ثلاثة اختبارات.

ز- اختبار الميل نحو الدراسة بكلية الطب : يتضمن الاختبار ثمانية محاور وهي :

- النظرة الشخصية نحو دراسة أحد فروع العلوم الطبية (حسب تخصص الطالب).
- الميل نحو المواد الدراسية المقررة في التخصص .
- التقييم الشخصي للقدرة على دراسة التخصص .
- أقسام الدراسة بكلية الطب .
- نظرة المجتمع نحو دراسة الفرع الذي يدرس فيه الطالب .
- الأنشطة المتنوعة داخل القسم .
- جوانب المهنة (طب، صيدلة، جراحة أسنان).
- أوجه النشاط الطبي .

7-2-2- إختبار الذكاء العام:

ويقاس باختيار المصفوفات المتتابعة لرافن، وقد تم تقنين البطارية من طرف أحمد ماهر سنة (1994) على عينة مصرية تتكون من 250 طالبا وطالبة من كليات الطب جامعات (القاهرة –حلوان – المنيا – الإسكندرية) حيث كانت معاملات الثبات والصدق للبطارية على درجات مقبولة، و بالتالي يمكن الاعتماد على نتائجها في بحوث على أفراد من بيئات عربية تشبه البيئة المصرية.

– مستويات الأداء التحصيلي التراكمي للطلبة أفراد العينة و تم الحصول عليها من خلال محاضر النقاط الموجودة على مستوى مصلحة البيداغوجيا لكلية الطب جامعة البليدة.

– مستويات التحصيل في شهادة البكالوريا و تم الحصول عليها من خلال كشف النقاط لشهادة البكالوريا و الموجودة في الملف البيداغوجي للطلبة على مستوى الكلية، فعلى أساس هذه الدرجات تم قبول الطالب أو الطالبة في إحدى تخصصات الكلية.

7-3- الإجراءات :

بما أن تقدير الانحدار هو تقدير لقيمة المتغير الذي يمكن الحصول عليه بالتعويض من القيم المعلومة للمتغيرات المستقلة في معادلة الانحدار، هذا التقدير بالانحدار هو التنبؤ، حيث تعد الدرجات التي حصل عليها الطلبة أفراد العينة نتيجة الأداء على البطارية هي المتغيرات المستقلة وتعد مستويات الأداء التحصيلي التراكمي في الدراسة بإحدى التخصصات الثلاث في كلية الطب هو المتغير التابع، وقد تم الحصول عليها من نتائج الموسم الجامعي 2003-2004.

ويعبر معامل الانحدار عن الأوزان التي تسهم بها هذه المتغيرات في تقدير قيمة التنبؤ بالمتغير التابع، أي مدى الارتباط بين الأداء على كل اختبار بالبطارية ومستوى الأداء التحصيلي التراكمي .

عرض ومناقشة النتائج:

بعد جمع المعطيات بتطبيق الاختبارات المذكورة في أدوات الدراسة، والحصول على الدرجات التحصيلية للطلبة من خلال مصالح الكلية، وكذا نتائج إختبار شهادة البكالوريا، بعد هذا تم تفريغ هذه النتائج في جداول قصد تحديد طبيعة العلاقات الاحصائية التي تربطها بهدف التحقق من فرضيات الدراسة.

جدول رقم (02): معاملات الارتباط بين مستوى الأداء على مقاييس البطارية ومستوى التحصيل الدراسي التراكمي.

	س1	س2	س3	س4	س5	س6	س7	س8
الأداء التراكمي س1	-	00.20	00.10	00.10	00.34	00.28	00.15	00.47
شهادة البكالوريا س2		-	00.24	00.27	00.24	00.11	00.18	00.22
الاستعداد العلمي س3			-	00.37	00.42	00.29	00.29	00.44
الذكاء العام س4				-	00.31	00.35	00.46	0.42

الاستعداد الأكاديمي س5					-	00.29	00.36	00.45
الميل نحو الدراسة س6						-	00.34	00.40
المثابرة س7							-	00.35

يتضح من خلال النتائج المبينة في الجدول رقم (02) عدم دلالة معاملات الارتباط بين مستوي الأداء على مقاييس البطارية ومستوي الأداء التحصيلي التراكمي بكلية الطب، حيث بلغت أكبر قيمة إرتباطية (00.47) ما بين الأداء التحصيلي في الكلية و قيم الأداء على بطارية الاستعدادات الأساسية للالتحاق بكلية الطب، وهي قيمة إرتباطية غير دالة إحصائيا، أما بقية القيم فتتراوح ما بين (00.10) لدرجات الأداء على الاستعداد العلمي الخاص و التحصيل الدراسي في الكلية أو في التخصص. و(00.45) لدرجات الأداء على مقياس الاستعداد الأكاديمي و التحصيل في الكلية.

أما القيم الارتباطية ما بين درجات التحصيل في شهادة البكالوريا (المعيار الوحيد المعتمد في عملية التوجيه نحو كلية الطب في الوقت الحالي) ومختلف مقاييس البطارية، فتراوحت ما بين (00.27) و هي أعلى قيمة إرتباطية و سجلت مع درجات الأداء على مقياس الذكاء العام. أما أصغر قيمة فهي (00.11) و سجلت مع درجات الأداء على مقياس الميل نحو الدراسة بكلية الطب. و الملاحظ على هذه القيم أنها منخفظة و غير دالة إحصائيا، أي أن الاعتماد على نتائج شهادة البكالوريا لا يسمح بتحديد الطلبة الذين يملكون فعلا الاستعدادات المختلفة للدراسة بكلية الطب و التي تقيسها البطارية المطبقة في هذه الدراسة، وعليه جاءت القيم الارتباطية منخفظة وغير دالة.

وقد أمكن صياغة معادلة التنبؤ بالنجاح باستخدام قيم البطارية وقيم التحصيل الدراسي في امتحان شهادة البكالوريا، بما أن القيمة التنبؤية لنتائج البكالوريا منخفضة لا تسمح لنا بمعرفة الطلبة الذين يمكن أن ينجحوا في دراسة مختلف تخصصات كلية الطب، و جاءت معادلات التنبؤ المستنبطة من الدراسة الحالية كما يلي:

ص = 1.65+ 00.308 س8 + 00.216 س2

حيث: ص – الأداء التحصيلي التراكمي بكلية الطب.

س8 – قيم الأداء على بطارية الاستعدادات الأساسية للالتحاق بكلية الطب .

س2 – قيم الأداء علي اختيارات إتمام الدارسة الثانوية العامة .

يتبين من المعادلة إن الدرجات التي تحصل عليها الطلبة في البطارية المعدة خصيصا للتنبؤ بالنجاح في كلية الطب بتخصصاتها الثلاثة، أكثر إسهاما في التنبؤ بالنجاح الدراسي حيث بلغت قيمة معامل الارتباط

بينهما(نتائج تطبيق بطارية الاستعدادات و النتائج التحصيلية في الكلية) بـ (00.308)، في حين بلغت القيمة الارتباطية ما بين نتائج التحصيل في التخصص و نتائج إمتحان شهادة البكالوريا (216. 00) .
كما أمكن صياغة معادلة للتنبؤ بالنجاح في تخصصات كلية الطب، كما يلي .

معادلة تخصص طب :

ص = 5.132 + 0.163 س2 + 0.746 س 4 + 0.232 س 5 +0.107 س6 +0.345 س7

حيث: ص : الأداء التحصيلي التراكمي بتخصص الطب.

س 2 : المعدل العام في إمتحان شهادة البكالوريا.

س 3 : درجات الأداء على الاستعداد العلمي الخاص.

س4 : درجات الأداء على مقياس الذكاء العام .

س5 : درجات الأداء على مقياس الاستعداد الأكاديمي.

س 6 : درجات الأداء على مقياس الميل نحو الدراسة بكلية الطب.

س7 : مقياس المثابرة.

يتضح من المعادلة مدى إسهام درجات مقياس الاستعداد العلمي الخاص في التنبؤ بالنجاح في تخصص الطب، حيث قدرت قيمة معامل الارتباط بـ (00.746) وهي قيمة موجبة و دالة إحصائياعند مستوى 00.05.

معادلة تخصص جراحة أسنان:

ص= 3.459 +0.334 $س^2$ +0.211 $س^3$ +0.236 $س^4$ + 0.51 $س^5$ +0.97$س^6$ +0.62 $س^7$

معادلة تخصص صيدلة:

ص=4.893 +0.286 $س^3$ +0.317 $س^4$ +0.749 $س^5$ + 0.214 $س^6$ + 0.302 $س^7$

يتضح من قيم معادلة تخصص جراحة أسنان إرتفاع نسب إسهام قيم مقياس الاستعداد الأكاديمي (رياضيات– فيزياء – كيمياء) في نجاح الطالب في دراسة التخصص، حيث بلغت النسبة (00.751) وهي أعلى قيمة. بالمقابل بلغت قيمة ارتباط هذه المواد بالنسبة للتنبؤ بالنجاح في تخصص صيدلة (00.749)، و هذا يشير إلى مدى الارتباط بين مستوى الأداء التحصيلي لتخصص جراحة الأسنان و الأداء على مقياس الإستعداد الأكاديمي من خلال المواد الأساسية، ويلاحظ على قيم معادلات التنبؤ بالنجاح التي تم التوصل إليها من خلال الدراسة ما يلي :

– إرتفاع درجة إسهام قيم المثابرة لجميع معادلات التنبؤ بالنجاح للدراسة بكلية الطب، وهو مؤشرا على إرتباط درجات التحصيل في التخصص بالمثابرة أثناء الدراسة على مدار الموسم الجامعي و ليس في فترة معينة دون بقية فتراته.

– التباين في درجة إسهام قيم مقاييس البطارية في التنبؤ بالنجاح باختلاف التخصص (طب جراحة أسنان و صيدلة)، ويعد هذا التباين مؤشرا على تباين المتطلبات الأساسية اللازمة للنجاح في كل تخصص على حدى وليس بناءا على إختلاف المعدل العام في شهادة البكالوريا فقط، مما يتطلب أخذه بعين الاعتبار عند التوجيه

لكل تخصص، وعدم الاعتماد على المعيار نفسه وهو المعدل العام في شهادة البكالوريا، بدون الأخذ بعين الاعتبار درجات مختلف المواد الدراسية، أو تطبيق اختبارات موضوعية قبل الإقرار بقبول أو عدم قبول الطالب في إحدى تخصصات الكلية.

– التباين في درجة إسهام المعدلات المحصل عليها في شهادة البكالوريا في التنبؤ بالنجاح باختلاف التخصصات، فقد أظهرت النتائج أن هذه المعدلات أكثر إسهاما في التنبؤ بالنجاح في تخصص الطب بمعامل إرتباط يساوي (00.334)، ويليه تخصص جراحة اسنان بقيمة (00.228)، ثم تخصص الصيدلة بـ(00.163). مما يشير إلى تزايد القيمة التنبؤية بالنجاح في تخصصات طب ثم جراحة أسنان و أخيرا صيدلة بحسب مستوى التحصيل الدراسي في شهادة البكالوريا.

– جميع قيم الارتباط بين المعدلات التحصيلية في شهادة البكالوريا و التحصيل في التخصصات الثلاثة بكلية الطب، جميع هذه القيم منخفضة و غير دالة إحصائيا، مما يشير إلى أن الاعتماد على النتائج التحصيلية لامتحانات البكالوريا في عملية التوجيه نحو هذه التخصصات غير موضوعي و لا يحقق نسبة مقبولة و دالة من النجاح، وهذه ما أكدته الإحصاءات الصادرة عن كلية الطب بجامعة البليدة والتي تشير إلى ارتفاع نسب الرسوب وطلبات التحويل إلى تخصصات أخرى، يكتشف الطالب بعد سنة أو أكثر من الدراسة في الكلية بأن قدراته أو ميوله واهتماماته لا تتلاءم و متطلبات النجاح في واحد من التخصصات الثلاثة.

و عليه نقبل الفرضية الأولى التي تقول بوجد علاقة إرتباطية موجبة ضعيفة و غير دالة إحصائيا بين الأداء التحصيلي العام للطلبة في شهادة البكالوريا و نتائجهم التحصيلية التراكمية في السنة الأولى جامعي في التخصصات الثلاثة لكلية الطب (طب، صيدلة، جراحة أسنان).و لو أن هذه العلاقة تختلف قيمتها من تخصص إلى أخر، ولكن كل القيم غير دالة إحصائيا.

في ضوء هذه النتائج يمكن قبول الفرضية الثانية التي تقول – هناك علاقة إرتباطية موجبة و دالة إحصائيا بين نتائج بطارية الاستعدادات الأساسية للدراسة بكلية الطب و نتائج الأداء التحصيلي التراكمي للطلبة في السنة الأولى للتخصصات الثلاثة لكلية الطب (طب، صيدلة، جراحة أسنان).

و من خلال هذه النتائج يمكننا القول أنه من أجل التوجيه العلمي الذي من شأنه أن يحقق مستوى مقبول من النجاح في هذه التخصصات الثلاثة، و تكيف الطالب معها مما يساعد على تحقيق نتائج تحصيلية جيدة في المسار الدراسي لطلبة كلية الطب التي يعاني طلبتها من كثرة الرسوب و إعادة التوجيه إلى تخصصات أخرى بعد قضاء عدة سنوات في الكلية مما ينتج إهدارا ماديا ونفسيا كبيرا للطالب والجامعة على حد سواء.

هذا يدفعنا إلى القول و بناءا على نتائج هذه الدراسة الميدانية بضرورة إعتماد عملية التوجيه الجامعي بصفة عامة و التوجيه إلى كلية الطب بصفة خاصة، والتي تلقى إقبالا اجتماعيا كبيرا. إعتمادها على الجمع بين تطبيق اختبارات للقبول تتضمن الاستعدادات الأساسية اللازمة للدراسة بكلية الطب (الاستعداد البيولوجي، الأكاديمي، الذكاء العام، المثابرة ،الميل نحو الدراسة بكلية الطب). بالإضافة إلى المعدل العام المحصل عليه في إمتحان شهادة البكالوريا أو معدل المواد الأساسية و هي الرياضيات، العلوم الطبيعية و الفيزياء والكيمياء.

المراجـع:

1- إسماعيل الفقي: دراسة تتبعية لفاعلية نتائج امتحان البكالوريا في التنبؤ بنجاح طلبة الطب في الثلاث سنوات الأولى في التخصص، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة عين شمس، مصر 1998.

2- ماري تينوبر في التقرير الختامي الصادر عن المركز العربي للبحوث التربوية حول الندوة الإقليمية لنظم الامتحانات و بنوك الأسئلة في الدول العربية، القاهرة، 1999.

3- رجائي الشريف وحسن حسانين: تقرير حول أعمال اللجنة المشكلة لدراسة القبول بالجامعات للسنوات الخمس 1988- 1992 مقدم إلى ندوة تنظيم سياسات القبول في التعليم العالي والجامعي المنعقد في الفترة من 7- 8 فبراير 1992 المركز الأعلى للجامعات – القاهرة، ص .15

4- أحمد العريان: : المدخل إلى العلوم الطبية، الطبعة الأولى، عالم الكتب، الكويت، .1996

5- رجب عليوة حسن: كليات الطب والتكنولوجيا – دراسة تقويمية – رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الزقازيق، مصر 1997.

6- أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات التربية والتعليم، دار الكتاب الحديث، الطبعة الثانية، القاهرة، 1987، ص.25

7-عطوف محمود ياسين:اختبارات الذكاء والقدرات العقلية، الطبعة الأولى،دارالأندلس،بيروت، 1981.

8- صلاح الدين محمود علام: تحليل البيانات في البحوث النفسية و التربوية، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، .2000

9- عبد اللطيف خليفة و عبد المنعم شحاتة: سيكولوجية الاتجاهات، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1992.

10- فؤاد عبد اللطيف أبو حطب، أمين علي سليمان: الذكاء الشخصي باستخدام مقاييس الذاكرة كمحك، المجلة المصرية للدراسات النفسية، العدد 11 ، القاهرة، .1992

11- أحمد زكي صالح: اختبار القدرات العقلية الأولية، دار النهضة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1985.

12- جابر عبد الحميد جابر: قراءات في تنمية الابتكار، إصدار مركز تنمية الإمكانات البشرية، دار النهضة العربية، القاهرة، .1997

13- يحيي المرزوق الأحمدي: العوامل العقلية وغير العقلية المساهمة في النجاح بكلية الطب، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، مصر، 1987 .

14- لويز و جيمس : العلاقة بين معايير التوجيه و النجاح بكلية الطب، ترجمة: أياد ملحم، دار الحسام: بيروت، لبنان، .1994

15- أمسية السيد محمد الجندي : دراسة العلاقة بين التحصيل الدراسي في المواد التخصصية وبين القدرات العقلية الأولية والميول المهنية في المدارس الثانوية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الإسكندرية، مصر، 1980 .
16- - يحيي المرزوق الأحمدي: المرجع السابق.
17- باري كوين: القيمة التنبؤية لاختبار روكش للتنبؤ بالنجاح الأكاديمي الجامعي: ترجمة أمين علي سليمان، المكتبة الأنجلومصرية، .1988
18- إبراهيم مبارك الدوسري: مستوى الأداء ومعدل الاحتفاظ عند طلال وطالبات كلية الطب، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، .2000
19- أحمد ماهر: اختبار الذكاء العام من خلال المصفوفات المتتابعة لرافن: الدار المصرية للكتاب، 1999.

الحلـم : محتـواه و عملـه

الدكتـورة نادية شرادي
جامعة سعد دحلب- البليدة

ملخص :

يعتبر الحلم تجربة شخصية خاصة ، يختار مادته من فترات الحياة المختلفة ، فهو يصل بين أحدث الانطباعات و تلك التي تكون بعيدة عن متناول الذاكرة لانقضاء زمن طويل عليها ، بحيث أن المادة التي ينسج بها الحلم صوره مستمدة من الماضي البعيد: من الطفولة ،رغم أنها تستقطب من حياة اليقظة الحاضرة ما يسهل لها الظهور به.

نشير إلى أن الذكرى التي تبقى بعد الاستيقاظ من النوم، عبارة عن محتوى ظاهري للحلم، و ليس الأفكار الحقيقية له ، لأن هذه الأخيرة تتخفى بفعل عمل الحلم ، و تبقى في إطار محتوى كامن ، لا تظهر إلى السطح إلا بعد أن تتكفل بها آليات التشويه.، و هكذا يشكل المحتوى الظاهري بديلا مشوها لأعماق الشخصية.

نحاول في هذا المقال تسليط الأضواء على الحلم ، لنبين كيف يظهر بشكل محتوى بريء، حائز على رضا و مصادقة الأنا .

كلمات مفتاح:
الحلم – المحتوى الظاهري –المحتوى الكامن – عمل الحلم.

مقدمـة:

إن الحياة النفسية ترتكز على جانب لا شعوري مفعم بالغرائز والنزوات و الرغبات، يخضع لمبدأ اللذة، وهو ينشط، وفقا للعمليات الأولية التي تهدف إلى تحقيق المطالب النزوية دون مراعاة مبدأ الواقع، وترمي عرض الحائط ضرورة الاشتراك مع الضغوطات الاجتماعية، فهذا الجانب من الحياة النفسية مكوّن من مادة مرفوضة من قبل الوعي، لذلك لا تظهر بصورة مباشرة، إنما تتخفى بفعل تأثير ميكانيزمات الأنا، كما هو الشأن في الحلم الذي يعرب عن رغبات مكبوتة، لا تظهر على ساحة الشعور إلا بعد أن تتعرّض لتشويهات دقيقة، بفضل رقابة الأنا.

إلى جانب النظام اللاشعوري، ترتكز الحياة النفسية على نظام ما قبل الشعور، الذي يخضع للعمليات الثانوية التي لا تسمح بظهور الرغبات النابعة من الهو إلا بعد أن تراعي مبدأ الواقع، فيتم تشويه ما يتعارض وهذا الأخير، حفاظا على استقرار الأنا، و دفاعا منه عن ذاته ضد الأنسجة اللبيدية؛ نلمس ذلك جليا في الحلم، الذي هو ظاهرة نفسية تعرب عن الأعماق الدفينة للاشعور، باعتباره تحقيق متنكر لرغبة مكبوتة و مكبوحة، بحيث يتم تشويه الأفكار الحقيقية للحلم . لكونها أنسجة لبيدية . أثناء عمل الحلم، حتى تمنح لها تأشيرة العبور إلى الوعي، لتتجلى على مستوى الذاكرة في شكل محتوى ظاهري "بريئ".

يتضح إذن أن هناك نشاط عقلي مستمر أثناء النوم، هذا النشاط مرتبط بالحياة النفسية للشخص الحالم، فهو عبارة عن وصف داخلي للحالة النفسية العميقة التي يعيشها الشخص، يعكس القوانين التي تسيّر جهازه النفسي.

إن المادة التي نتحصل عليها عن طريق الحلم، تصوّر أسرار النفس، لكن لا تتجلى على سطح الوعي، كما كانت كامنة، بل تتعرض لتعديلات نتيجة لرقابة الأنا، الذي يجند أساليبه الدفاعية بشكل يتماشى و مبدأ الواقع.

تحليلنا لهذه المادة يؤدي بنا إلى الكشف عن مختلف جوانب الشخصية، من حيث صراعاتها و آلياتها المجندة لحل هذه الأخيرة ومجابهتها.

من البديهي أن الجسم يحتاج إلى النوم، لكن النفس تحتاج إلى الحلم، فما مفهوم هذا الأخير، ماهو محتواه ؟ كيف يظهر؟ هذا ما سنحاول معرفته من خلال ما يلي.

1. <u>تعريف الحلم:</u>

يظهر الحلم أثناء النوم ،وهو ليس عملية مجردة من معنى ، بل ظاهرة نفسية معقدة ، بأتم معنى الكلمة هو عبارة عن تحقيق رغبة.

فهو سر ذا معنى نفسي و محتوى يمكن بلوغه عن طريق التفسير و التأويل، لكن لبلوغ المحتوى الكامن للحلم لابد من معرفة بيوغرافية للشخص الحالم لأن «الحلم يعطي نوع من الخلاصة لوصف (CAHEN R.,1967,p.105) شامل للوضعية الداخلية للشخص»

فالحلم مرآة تعكس الحياة النفسية الداخلية فهو «نتاج نفسي لا إرادي و عفوي، و هوعادة غامض وصعب للفهم، باعتباره يظهر على شكل رموز و صور»(FORDHAM F.,1979, p. 108)

للحلم لغة خاصة مختلفة عن لغة حياة اليقظة و ذلك حتى يفلت من الرقابة النفسية التي يفرضها الأنا، «في حالة اليقظة نفكر بمنطق، "بنظام" و استمرارية و باستنتاج، بينما الحلم ليس له إطلاقاً هذه الخاصية، لا يهتم بالتنظيم (...)»(PREVOST C.M, 1973, p.188) .

نشير إلى أن الحلم يعد إستعراضاً لأحداث و فصول النهار السابق، فهو ناجم عن بقايا ذكراوية، قصيرة أو طويلة المدى أي عن ترسبات ماضية. «الحلم ليس إنتاجاً منعزلاً، إنما هو نتيجة لمجموعة من التجارب المعاشة من طرف الإنسان» (SCHULTZ - HENCKE H.1977,p.134) فالأحلام عمليات نكوصية ناتجة عن تأثير حالة اليقظة و المحتويات المكبوتة و المكبوحة، و لقد توصل فرويد الى الإستنتاج بأن التحقيق "الهلوسي" للرغبات هو الهدف المقنع للنشاط الحلمي، بمعنى آخر الأحلام «تعبّر عن الإنفعالات، و الدوافع و الطموحات التي لا تفصح عن نفسها في حالة اليقظة(...)»
(PICAT J. 1984,p.66.)

فالحلم إذن تنفيساً و تفريغاً نفسياً عميقاً، لأنه يعبر عن اللاشعور، «الذي لا هدف له إلاّ تحقيق الرغبات، و الذي لا قوة له إلاّ قوة الدوافع والنزوات». (FREUD S.,1967,p.508)، فحسب فرويد ماهية الحلم هي إشباع هلوسي للرغبات اللاعقلانية، إذ يعتبر أن القوة المنشطة لحياتنا الحلمية هي الرغبات اللاعقلانية (Irrationels) إذ يقول: «الحلم هو دوماً تحقيق (مقنع) هلوسي لرغبة لاشعورية (مكبوحة و مكبوتة) عن طريق الأفكار أو المحتوى الكامن للحلم».(Ibid,p.145)

يخضع الحلم لمبدأ اللّذة، وظيفته حراسة النوم، «الحلم حارس دائم للنوم».(,Ibid,p.493)، إذ يظهر عندما يهدّد النوم بفعل تأثير الغرائز «فحينئذٍ يهدف إلى تحقيق هلوسي للرغبات التي يسمح الأنا بظهورها بصفة مباشرة فتخضع لتشويهات تستجيب لمتطلبات الأنا الأعلى (...)».(JEAMMET Ph., REYNAUD M., CONSOLI S,1980,p.132) .

فالحلم يمدنا بتطلعات اللاشعور، إذ يتيح للحلم حرية أكثر في الإعراب عن رغباته بعد أن يستغل إنخفاض الرقابة « فتظهر الأفكار التي تستجيب لمجموعة من المتطلبات و الشروط التي يفرضها و يصادق عليها الأنا».(GARMA A.,1964,p.139)

فهدف الحلم هو تحقيق الرغبة، إلاّ أن هذه الأخيرة لا تكون جليّة في الحلم لأول وهلة، بل تتعرض إلى تشويهات نتيجة لعمل الحلم حتى تفلت من الرقابة، «فهذه الرغبة لا تعرب عن نفسها إلاّ بصفة مشوهة».(PESCH E.,1985,p.147)

يتبين لنا مما سبق أن الحلم هو المسار الأساسي نحو اللاشعور، له معنى كامن يحجبه المحتوى الظاهري، يخضع لمبدأ اللذة، إذ هدفه تحقيق النزوات و الرغبات المكبوحة، و بما أن الوعي لا يكون ملغى تماماً أثناء النوم لا يسمح بالإعراب المباشر لهذه الرغبات، فتتعرض هذه الأخيرة إلى تشويهات تجعلها تستجيب لمتطلبات الأنا الأعلى، و« في حالة فشل الحلم من تحقيق الرغبة وفقاً لمتطلبات الأنا الأعلى، تنتاب الشخص النائم حالة من القلق التي تؤدي إلى إستيقاضه بعد أن يتحول الحلم إلى كابوس».(JEAMMET Ph., REYNAUD M., CONSOLI S,1980,p.131) .

يتجلى لنا أن الحلم كما يقول فرويد «ليس مجرد نشاط عقلي مجزء (...) و النشاط العقلي الذي يساهم في تشكيله هو نشاط عالي و معقد».(FREUD S.,1967,p.119)، و هو تجربة شخصية ديناميكية يبدو كالمجهر عن طريقه ندرك أسرار النفس و يعد صراعاً بين الميولات و العالم الخارجي يظهر دوماً متستراً وراء أفكار كامنة بفعل تأثير عمل الحلم، و هو في كل ذلك يعد مظهراً من مظاهر الحياة النفسية.

4. محتوى الحلم:

وفقاً للتحليل النفسي فإن الحلم يتكون من محتوى ظاهري و محتوى باطني، يشمل هذا الأخير على أفكار الحلم التي لا تظهر للوهلة الأولى بسبب عمل الحلم الذي تعرضت له و الذي شوهها بواسطة آليات معينة (التكثيف، النقل، قابلية التصوير، والمراجعة الثانوية) حتى تفلت من الرقابة. و يمكن إكتشاف هذه الأفكار الكامنة عن طريق تفسير الأحلام الذي يخضع لتحليل الأجزاء و محاولة فهمها في إطار تاريخ و دينامية شخصية الحالم، كما يقول فرويد. س. (FREUD. S.) «يشكل الحلم بديلاً مشوهاً للاشعور، و مهمة تفسير الأحلام تكمن في الكشف عن هذا اللاشعور (...) و جع ما هو لاشعوري شعورياً».(FREUD S.,1976 ,p.99-100)

و تذهب إلى ذلك أيضاً الباحثة دريفوس. د. (DREYFUS. D.) إذ تقول: «المحتوى الكامن و المحتوى الظاهري للحلم يبدوان لنا كمتضادين لنفس الأحداث، بلغتين مختلفتين، أو بالأحرى يبدو المحتوى الظاهري للحلم كتدوين (Transcription) لأفكار الحلم (...) و لفهم الحلم نلجأ إلى مقارنة الترجمة بالأصل».(DREYFUS D., 1991,p.81)

نتطرق فيما يلي إلى توضيح أكثر لمعنى المحتوى الظاهري والمحتوى الكامن للحلم.

1.4 المحتوى الظاهري:

يعطي فرويد س. أهمية ثانوية للمحتوى الظاهري «المحتوى الظاهري للحلم ما هو إلاّ واجهة (Façade)»(FREUD S.,1985, p.84) لأنه يخفي وراءه أفكار كامنة مصدرها كل ما هو مرفوض من طرف الأنا، أي المكبوتات.

يطلق اسم المحتوى الظاهري على ما نتذكره و نسرده عند اليقظة، بعد ذلك النشاط النفسي الذي تعرضنا له أثناء النوم، «الذكرى التي تبقى لنا من الحلم تسمى المحتوى الظاهري، و عن طريق التحليل نكشف وراء هذا المحتوى الظاهري عن الأفكار الأولية التي تعرضت لعمل الحلم، و الذي يطلق عليها الأفكار الكامنة للحلم. إذن تفسير الحلم هو الوصول إلى أفكاره الكامنة، و اكتشاف الخطاب الذي يعرب عن رغبة التي هي مصدر الحلم. فالمحتوى الظاهري و الأفكار الكامنة للحلم يبدوان لنا كتصورين مختلفين لنفس المحتوى، كلغتين متباينتين معبرتين عن نفس الفكرة».(BERGERET J. et al,1974,p.81)

المحتوى الظاهري هو ما يبقى عالقاً بذاكرتنا . بعد أن استيقظنا من النوم . من صور و أفكار يمكن سردها على الآخرين و «يعاد الحلم إلى الذاكرة النهارية و بطبيعة الحال يسرد بكل التحفظات البريئة التي يفرضها الأنا الأعلى».(GUILLAUMIN J. 1981, p. 168)

كما يقول فرويد س.: «نسمي المحتوى الظاهري للحلم ما يسرده الحالم (...) و هو يتكون (FREUD S., 1976, p. 106 – 107). أساساً من صور بصرية».

المحتوى الظاهري يغطي وراءه كل ما هو ممنوع و مرفوض من قبل الوعي «فحتى يتمكن المحتوى اللاشعوري من الظهور لابدّ من أن يرتدي رداءاً يتمثل في محتوى المدركات التي سجلها في الماضي.

الحديث».(GARMA A., 1981, p. 182.) هذا الرداء هو ما يطلق عليه المحتوى الظاهري للحلم

نستنتج أن تحقيق الرغبة في الحلم لا يتم بصورة مباشرة، إنما يمر بعمل الحلم الذي ينسجها في محتوى ظاهري مقبول من طرف الرقابة و كما يقول فرويد س. (FREUD. S.) حسب قارما أ. (GARMA. A.) «كي تصبح أفكار الحلم ظاهرة، لابد أن "تغطى" الرغبة بمتبقيات حياة اليقظة الشعورية». (Ibid,1981,p.178)

إذ أن رداءها الأخير هذا، هو الذي يمكنها من نيل رضا و مصادقة الرقابة لتظهر على مستوى الوعي.

2.4 المحتوى الكامن:

إذا كان محتوى الحلم الظاهري «ذا علاقة بما قبل الشعور (Préconscient)، لذلك نجد فيه متبقيات حياة اليقظة لا سيما الماضي الحديث (...) فإن المحتوى الكامن ذو علاقة مباشرة باللاشعور (L'inconscient)، لذلك نجد فيه التجارب، الخبرات و الهوامات الطفلية، أي الماضي البعيد».

(GARMA A., 1981, p. 314)

كل ما لا يستطيع الظهور على ساحة الشعور مباشرة في الحلم يكون كامناً «الأفكار الكامنة للحلم تمثل ما هو مخبأ و مخفياً (...) فالأفكار اللاشعورية تدخل في الحلم الظاهري،عن طريق إما أجزاء (Fragment) أو تلميح (Allution) باستعمال الرموز و الأسلوب التليغرافي».

(FREUD S., 1976, p. 106)

إذن حتى تعبر المادة اللاشعورية (الأفكار الكامنة) إلى الأنا و تصبح شعورية في شكل ظاهري للحلم تعالج أولاً أثناء عمل الحلم، ذلك لأن هذه المادة اللاشعورية التي تشكّل الأفكار الكامنة للحلم حافلة بالنزوات اللبيدية التي يرفضها الوعي «إن الجنسية المكبوتة في اللاشعور تبحث عن طريق لها في الحلم لتعبّر عن نفسها (...) و ما هو ظاهري في الحلم هو السرد الحلمي (récit onirique) مثلما يسميه فرويد "واجهة الحلم" (façade du rêve). الشخص الذي يسرد حلمه فإنه يبوح بالجزء الظاهري، و هذا الأخير بشكل بديلاً مشوّهاً للتفكير الحقيقي واللاشعوري للحلم».(AEPPLI E.,1962, p. 95 - 96) أي يكون بديلاً للمحتوى الظاهري للحلم.

يهدف الحلم كما اتضح لنا إلى تحقيق الرغبات اللاشعورية المكبوتة التي يتضمنها المحتوى الكامن للحلم، و يخضع هذا الأخير للتشويه حتى تتقبله رقابة الأنا.

إذن المحتوى الكامن هو تلك الأفكار التي يحملها الحلم ضمنياً، و التي لا نصل إليها إلاّ عن طريق التحليل و تفسير الحلم.

« نسمي الحلم كما سُرد، نص الحلم، الحلم الظاهر، وما نبحث وراءه، الأفكار الكامنة للحلم (...) و لفهم الحلم لابد من تحويل المحتوى الظاهري له إلى محتوى كامن محاولين تفسير الكيفية التي تم وفقها تكوين الحلم».(DREYFUS D ,1991 , 75)

يحمل المحتوى الكامن للحلم المعنى المراد التعبير عنه بتلك الطريقة المشوّهة، نتيجة لتعرضه لعمل الحلم (Travail du rêve) فالحلم يشكل نصاً مجهولاً ذو معنى مجهول و «الأفكار الكامنة للحلم هي تلك التي تتضمن معنى الحلم».(FREUD S., 1970, p. 55)

نستنتج مما سبق أن المحتوى الظاهري للأحلام مرتبط بما هو شعوري، بينما يرتبط المحتوى الكامن لها باللاشعور و مثلما يؤكد فرويد: «الحلم هو الذكرى التي يتركها لنا بعد إستيقاظنا، و هي ليست السيرورة الحقيقية له، إنما فقط الواجهة التي تختفي وراءها هذه الأخيرة. و بذلك يتبين لنا أن في الحلم محتوى ظاهري و أفكار كامنة، و تسمى العملية التي يتم وفقها تشويه الأفكار الكامنة هذه و تحويلها إلى محتوى ظاهري بعمل الحلم. بحيث أن المادة اللاشعورية للهو المكبوتة، تفرض نفسها على الأنا و تصبح قبل شعورية (Préconsciente)، ثم نتيجة لإعتراض الأنا عليها تتعرض للتغيرات و التحورات التي سميناها تشويه الحلم (Déformation du rêve)».(FREUD S., 1985, p. 29)

كما يتجلى الحلم ليس كما يبدو في صورته النهائية التي ترسخ في الذاكرة بعد الإستيقاظ، إنما يتعرض لنشاط نفسي ليتخذ شكلاً يخفي وراءه أفكاره الحقيقية و التي ترتبط بالنزوات اللاشعورية، هذا النشاط النفسي يبلوره عمل الحلم الذي نتعرض له فيما يلي لفهم ميكانزماته التي تتدخل في تكون الحلم.

5. عمل الحلم:

قبل أن يكتب فرويد س. (.FREUD S) كتابه عن الأحلام سنة 1900، كانت كل الأنظار منصبة على المحتوى الذي يسرد فيه الحلم. إلاّ أنّ أب التحليل النفسي: فرويد توصل إلى أن هناك مادة حلمية متسترة وراء مضمون الحلم الظاهر، مادة تحمل أفكاراً تعرضت لسلسلة من التحورات و التغيرات حتى تفلت من الرقابة، و يطلق عليها المحتوى الكامن للحلم. فالحلم قبل أن يصل إلى الشعور يتعرض لسياق تحويلي من محتوى كامن إلى محتوى ظاهر، و ذاك بفضل آليات التشويه، بحيث يؤكد فرويد أن أهم ميكانيزم للغة الحلم هو التشويه، إذ يتم «تشويه الرغبات اللاعقلانية مما يسمح بمواصلة النوم دون أن نكون مضطربين».(FROMM E., 1989, p. 59.) .

يلجأ اللاشعور إلى وسائل التخفي و الحيل كي يعبّر عن نفسه، بحيث أن هناك ضغط الدوافع لتعبر عن الحوافز الغريزية من جهة و من جهة أخرى الضرورة القاضية بالقمع ليكون السلوك مقبولاً في المجتمع. فالإنسان يحلم بسبب الضغط الأول، و تأخذ الأحلام مجرى آخر بسبب الضغط الثاني، فتتحلى بوسائل التخفي و الحيل حتى تكون مقبولة من قبل مبدأ الواقع، إذ أن الرقابة لها ميولات إجتماعية، فهي تقولب الرغبات حسب الأطر الإجتماعية التي تسمح لها بالظهور. و مثلما يقول فرويد: «هدف تكوين هو الحصول على أفضل وسيلة للتعبير للإفلات من الرقابة».(FREUD S., 1967, p. 310) .ويقول أيضاً: «أن مادة الحلم المكبوتة تفرض نفسها

على الأنا و تصل إلى ما قبل الشعور ثم و نتيجة لرفض الأنا تتعرض لجملة من التغيرات التي نسميها تشويه الحلم».((FREUD S., 1985, p.29))

هناك عدة عمليات تتدخل في تكوين الحلم بحيث أن « الذكرى التي تركها فينا الحلم بعد النوم ما هي إلاّ محتوى ظاهري يتستر وراءه. نميز بذلك إذن أن في الحلم محتوى ظاهري و أفكار و أفكار كامنة. و العملية التي يتم وفقها تحويل هذه الأخيرة إلى محتوى ظاهري تسمى عمل الحلم (Travail du rêve)».(Ibid,p.29)

إذن المادة اللاشعورية حتى تمر إلى الأنا لابدّ أن تعالج أثناء الحلم الذي هو حسب فرويد «خاصية من خصائص اللاشعور، و تكمن مهامه في إعداد لاشعوري لأفكار ما قبل الشعور».

(Ibid,p.31) فبالنسبة لفرويد عمل الحلم «ما هو إلاّ عملية تحويل الأفكار الكامنة إلى محتوى ظاهري، عمل الحلم ليس مطلقاً المخترع، لا يتخيل، لا يحكم، لا يستنتج إنما مهمته تكمن في تكثيف و نقل كل مواد الحلم بشكل يجعلها مقبولة من طرف الأنا (...) فالحلم يصبح غير مفهوم نتيجة لعمل الحلم».(FREUD S., 1969, p.77-78)

كما يؤكد فرويد أن «عمل الحلم لا يتم إلاّ على الأفكار الكامنة التي تستعمل و توظف في الحلم». (Ibid,p.63)

و يذهب برجوري (BERGERET) في نفس الإتجاه إذ يقول: «إن عمل الحلم يختص بتشويه الأفكار الكامنة له، بشكل يجعلها مقبولة من طرف الأنا و يجنبها بذلك الكبت (...) فعمل الحلم يشوه الخطاب (Le discours) الذي يعرب عن الرغبة، التي هي مصدر الحلم». (BERGERET J. et al, 1974, p. 81) بما أنه أثناء النوم تتحرّر كمية معتبرة من الطاقة التي لها علاقة وطيدة بنزوات ورغبات الشخص «فإن عمل الحلم يؤدي إلى وضع سيناريو مقنّع لهذه الرغبات المكبوتة». (LEBOVICI S., 1976, p. 21) أي حتى يتم تفريغ النزوات و تحقق الرغبات «لابد أن يكون للحلم ميكانيزمات نفسية تسهّل عملية النكوص، و تسمح للنشاط الحلمي بالظهور». (MANCIA M., 1976, p. 44)

يتبين لنا إذن أن عمل الحلم «عبارة عن مجموعة العمليات التحويلية التي تساهم في دمج الأفكار الكامنة للحلم في المحتوى الظاهري». (DREYFUS D., 1991, p. 80)

و الآن السؤال الذي يطرح نفسه هنا كيف يشوه عمل الحلم أفكار العميقة و الكامنة للحلم؟

يلجأ عمل الحلم إلى أساليب أساسية لتقديم الأفكار الكامنة و هي: التكثيف (Condensation)، النقل (Déplacement)، قابلية التصوير (Figurabilité) والمراجعة الثانوية (L'élaboration secondaire).

نقدم فيما يلي كل آلية من آليات التشويه بنوع من التفصيل و تجدر الإشارة إلى أن هذه العمليات «التكثيف، النقل و قابلية التصوير، و المراجعة الثانوية، التي أطلق عليها فرويد اسم "عمل عمل الحلم"، لا يمكن معالجتها منفصلة لأنها مرتبطة ببعضها البعض إرتباطاً وثيقاً» (S, 1972,p.106 .BOSSARD) و هذا ما سيتجلى لنا من خلال تقديم كل آلية على حدة.

و هذا ما سيتجلى لنا من خلال تقديم كل آلية على حدة.

1.5 التكثيف: (Condensation)

التكثيف هو أحد ميكانيزمات عمل الحلم، يساهم في تشويه الأفكار الكامنة حتى يسمح لها بالظهور على ساحة الشعور.

يعتبر فرويد التكثيف عملية اختزال للأفكار الكامنة إذ يقول: «نقصد بالتكثيف أن المحتوى الظاهري للحلم يكون قصيراً عن المحتوى الكامن له، وهو يظهر كنوع من ترجمة مختصرة لهذا الأخير (...) لا يحدث إطلاقاً أن نجد محتوى ظاهري ثرياً عن المحتوى الكامن للحلم».(FREUD S.,1976, p.156) فعن طريق التكثيف يظهر المحتوى الظاهري قصيراً مقارنة بالأفكار الكامنة للحلم بحيث «يفقد الحلم بعض العناصر الكامنة، يدمج أجزاءًا لمختلف العناصر و يكثّفها في الحلم الظاهري بشكل يعطي عنصراً جديداً». (FROMM E., 1989, p. 61).

و نشير إلى أنه في أغلب الأحيان يكون التكثيف المكوّن الأساسي للحلم، إذ أن أغلب الأحلام تتعرض لعملية التكثيف التي تتم حسب فرويد كما يلي: «مجموعة من أفكار الحلم التي تكون، العناصر الأكثر ترشيحاً للظهور، تنفصل لتدخل ضمن محتوى الحلم. ففي التكثف يتم إختيار عنصراً واحداً يمثل عناصر أخرى متشابهة فيما بينها و تشبه العنصر الذي تم اختياره و إنتقاءه ليظهر في محتوى الحلم». (FREUD S., 1967, p. 247)

إذن هذا الإختصار في الأفكار الكامنة يفسر لنا كيف أن الحلم الظاهري يكون قصيراً، ذلك لأن الأنا في الحلم يوجه اللبيدو بشكل متكيّف مع متطلبات مبدأ الواقع لذلك يختصر عن طريق تكثيف كل العناصر التي تتعارض و هذا المبدأ، ليقدمها في شكل عنصر بريئ حتى يفلت من الرقابة. «ففي الحلم تظهر كلمة ذات معنى خاص، لكنها لا تستعمل بذلك المعنى و تكثف عدة معاني»،(Ibid,p.263)

و هذا حتى تتمكن هذه الكلمة من إيجاد سبيل لها للإعراب عما هو نابع من اللاشعور، الطاقة المحركة للنزوات النفسية.

يؤكد فرويد أن «ما يجلب الانتباه هو ميل الحلم إلى التكثيف، أي يربط بين العناصر التي تبقى متفرقة و منفصلة في حالة اليقظة، و نتيجة لذلك فإن عنصر واحد للحلم الظاهر يمثل مجموعة أفكار كامنة،

و هكذا فإن المحتوى الظاهر للحلم يكون جدّ مختصراً مقارنة بالمادة الوافرة التي استخلص منها».

(FREUD S., 1985, p. 31 - 32)

فالتكثيف، في تكوين الحلم، يعمل على جعل مختلف أفكار المحتوى الكامن تتصور على شكل عنصر واحد في المحتوى الظاهري للحلم.

تخضع مادة الحلم غالباً للتكثيف، كمثلاً ظهور أجزاء من عدة أشخاص مختلفين، تلتحم و تتحد لتكون صورة لشخص واحد، كأن نحلم بشخص لكن في الأصل هو تصور لشخصين أو أكثر، بحيث نأخذ من كل واحد صفة كحركات إعتاد القيام بها في حالة اليقظة، و صفة لشخص آخر ككلمة إعتاد ترددها، نجمع بين هذه الصفات في شخص واحد و نحلم أنه يقوم بها، و هذا هو التكثيف الذي يساهم في الإفلات من الرقابة، هكذا يبدو لنا المحتوى الظاهري، بعد عمل الحلم، اختصارا للمحتوى الكامن.

يتبين لنا إذن أنه بفضل التكثيف يكتسي الحلم طبعه الغريب إذ يصبح غير مفهوم «لأنه ظاهرياً يبرز عنصراً واحداً مقابل عناصر كثيرة بقيت متسترة، أو عنصر واحد كامن تقابله عدة عناصر في المحتوى ا لمحتوى الظاهري».(FREUD S., 1976, p. 158)

بفضل آلية التكثيف يخدم الحلم مبدأ الواقع حتى يتقبل هذا الأخير ما يرفضه لو لم ينشط التكثف.

2.5 النقل: (Déplacement)

إن المحتوى الظاهري أي الحلم كما يسرده الشخص بعد النوم، أو الآثار الذكراوية التي تبقى بعد الاستيقاظ، قبل أن تصل إلى الشكل النهائي الذي تقدم فيه، تتعرض إلى أحد العمليات الهامة لتشويه الحلم ألا وهو النقل(Déplacement) و ذلك بسبب الرغبات الغريزية غير المحققة، و التي تعطي طيلة العمر كله الطاقة الضرورية لتكوين الحلم و «طريقة ظهور مادة الحلم توضح الجهود المبذولة لتكوين الحلم و التي تهدف بفضل النقل، إلى تحويل ما لا يمكن تحقيقه، وإعطائه فرصة و إمكانية التحقيق».
(PESCH E., 1985, p. 150.)

يعتمد عمل الحلم على «نقل الشحونات النفسية بشكل يقبلها الأنا» (Ibid, p. 151) فبواسطة النقل، الأفكار الكامنة تظهر في المحتوى الظاهري «ليست كما هي إنما بطريقة جزئية أو فقط بالإشارة إليها». (GARMA A.1964, p.127)

كما يرى فرويد أن النقل «يظهر بشكلين: الأول، عنصر يعوض بمجرد إشارة، بعيد كل البعد عن ذلك العنصر الكامن، ثانياً الطاقة النفسية تحوّل من عنصر ذو أهمية أساسية إلى عنصر ذو أهمية ثانوية بشكل يجعل الحلم يظهر غريباً».(FREUD S., 1976, p. 158) .

و يقول فرويد أيضاً عن النقل: «عند تكوين الحلم بعض العناصر ذات أهمية قصوى يمكن أن تعالج كأن ليس لها قيمة كبيرة، و عناصر أخرى أقل أهمية بالنسبة لأفكار الحلم قد تأخذ مكانها». (FREUD S., 1967, p. 264)

فالنقل كما يبدو عبارة عن آلية تنتقل من خلالها الطاقة النفسية من مضمونها الحقيقي إلى موضوع ثانوي.

يرى لاقاش د. (LAGACHE D.) أن «كل عنصر ظاهري يتعلق بعدة أفكار كامنة، و الطاقة العاطفية تنسلخ من مضمونها الحقيقي لتبلور حول موضوع ثانوي».(LAGACHE D., 1989, p. 51)

فعن طريق النقل العنصر ذو الأهمية يظهر في المحتوى الظاهري في المرتبة الثانية، و العنصر الذي ليس له أية أهمية يظهر في المرتبة الأولى «يركز النقل أثناء تكوين الحلم . في المحتوى الظاهري . على نقطة ليس لها في الأفكار الكامنة إلاّ أهمية ثانوية، بينما يضع العنصر الأساسي في مرتبة ثانوية». (GARMA A, 1964, p. 127)

يقصد بالنقل إذن ما يظهر بمظهر مختلف عن المظهر الأصلي، لذلك يأتي الحلم غامضاً غير مفهوم «بواسطة النقل تأخذ أفكار الحلم مساراً مختلفاً عن الذي كان يقصده مبدئياً الخطاب، أي الأفكار الأولية للحلم». (TZ VETAN T., 1977, p. 298.)

كما أن النقل «من الميكانيزمات الأكثر أهمية في تشويه الأحلام، فهو يعكس المشاعر، إذ نجده مثلاً يستبدل الحقد بالمحبة، و يمكنه تقديم مشاعر خاصة بشخص ما لشخص آخر».

.(GARMA A., 1964, p.127)

يتبين لنا أن التكثيف و النقل هما أكبر العمليات التي تساهم في تشكل الحلم و «هما ميكانيزمان ينتميان إلى العمليات الأولية (Processus primaires)، و بطبيعة الحال يقومان بعمل الرقابة باعتبارهما يحاولان جعل الحلم غير مفهوم من طرف الشخص». (BERGERET J.et al., 1974, p. 81.)

النقل إذن عامل أساسي يساهم في تحول مادة الأفكار الكامنة للحلم إلى المحتوى الذي يبدو لنا فيه بعد النوم.

3.5 قابلية التصوير: (Figurabilité)

إن أهم مظهر من مظاهر الأحلام يتعلق «بتحويل الأفكار إلى صور بصرية (...) التي لها دوراً أساسياً في تكوين الحلم». (FREUD S., 1976, p. 159.)

حتى يتمكن الحلم من التكوّن لابدّ أن ترتدي أفكاره رداء ملموساً يكمن في الصور الحسية «المرور من أفكار الحلم (Les pensées du rêves) إلى محتوى الحلم (Le contenu du rêve) يتم غالباً عن طريق صور بصرية».(FREUD S., 1967, p. 295.)

هذا التحويل لأفكار الحلم إلى الصور البصرية (Images visuelles) هو الميكانيزم الثالث و الأساسي الذي يتدخل في إعداد الحلم.

ترتكز هذه الصور البصرية على الرموز، «عندما نلاحظ في مختلف الأحلام عنصراً ملموساً للمحتوى الظاهري، ذو علاقة وطيدة بعنصر مكبوح للمحتوى الكامن، نطلق على العنصر الأول اسم الرمز» (GARMA A., 1964, p. 128) يستعمل الحلم الرموز للإفلات من الرقابة «الرقابة التي لا تنام كلياً» (FREUD S., 1967, p.417)، فالرغبات المكبوتة هي التي تعطي نتاج الحلم، لكن قبل أن تظهر هذه الرغبات تتعرض للتشويه عن طريق التصور الرمزي مثلما يقول فرويد: «يستعمل الحلم الرمزية من أجل تمثيل مقنّع لأفكاره الكامنة».(Ibid, p 302)

يتبين أن الأحلام عملية لتهريب الرغبات المكبوتة عن طريق الحيل إذ تستخدم الرموز، تبدو في شكل صور بصرية و التي تستعمل لوناً مفضلاً من العلاقة بين الرمز الذي تختاره و بين الشيء أو الشخص أو الفكرة المرموز إليها.

بالنسبة لفرويد لا نحلم عبثاً إنما للتعبير عن رغبة مكبوتة لذلك تلجأ أحلامنا إلى الرموز لتخفي الأغراض التي يقمعها المجتمع، فالحلم إذن يقوم بعملية تشويه أفكار الحلم حتى يحافظ على النوم كما يقول فرويد: «الحلم يهدئ الغرائز التي من شأنها إيقاظ النائم و يجد لها مخرجاً عن طريق الرمز».
(AEPPLI E., 1962, p. 97) بهذا الشكل الرمز « يظهر بمثابة جواز سفر يسمح للمكبوتات الوصول إلى الوعي».(PICAT J., 1984, p. 87) فالحلم يستعمل رموزاً للتعبير عن مكنوناته «هذه الرموز موجودة جاهزة في اللاشعور». (FREUD S., 1967, p. 300) الرمز وسيلة تعبيرية للاشعور «هو مناسب لتصوير الجانب المكبوت و جعله مقبولاً من قبل الوعي». (AEPPLI E., 1962, p. 96)

إن الإنتقال من أفكار الحلم إلى محتواه الظاهري، يتطلب عملاً معقداً كإنتقاء الرموز التي تخدم الأفكار الكامنة بشكل يجعلها مقبولة، «الحلم يقوم بعمل هام بحيث يحوّل الرغبات إلى صور بصرية، يكثف أفكار الموضوع المرغوب فيه ليظهر على شكل رمز». (AEPPLI E., 1962, p. 97)

كما يؤكد فرويد أنه «غالباً ما يتم الإنتقال من أفكار الحلم إلى المحتوى الظاهري له عن طريق الصور البصرية». (FREUD S., 1967, p. 295)

إذن تستعمل اللغة الرمزية في الحلم للتعبير عن علاقة بين المحتوى الظاهري و المحتوى الكامن، و الصور البصرية التي تؤدي هذا الغرض تكثف رموزاً قد ترجع إلى ثقافة معينة أو عالمية أو هي رموزاً شخصية.

يتجلى لنا مما سبق أن الحلم «مكون من نص مجهول، ذو محتوى و معنى مجهولين أيضاً» (AEPPLI E., 1962, p. 104) يستعمل رموزاً للإعراب عن مكنوناته، و تظهر هذه الرموز على شكل صور بصرية.

تطرقنا إلى الخصائص الثلاثة الأساسية لعمل الحلم ألا و هي:

التكثيف، النقل و قابلية التصوير. إلاّ أن عمل الحلم لا يكتمل إلاّ بتدخل عنصر رابع يتمثل في المراجعة الثانوية التي نعرضها فيما يلي:

4.5 المراجعة الثانوية: (L'élaboration secondaire)

بعد أن يقوم عمل الحلم بالتكثيف و بالنقل و تحويل الأفكار إلى صور بصرية، تبقى ثغرات لابد من معالجتها حتى يظهر الحلم منسجماً و منسقاً. و العملية التي تقوم بهذا التنقيح تسمى المراجعة الثانوية، التي تعمل على وضع آخر الرتوشات للحلم، كي يبدو كما يسرده الشخص. فهي تحرص على خلق الإنسجام بين عناصر حاول الحلم تكثيفها و تحوليها لتفلت من الرقابة، و هدفها في ذلك أن يظهر الحلم مفهوماً، «المراجعة الثانوية تنظم تدخل علاقات، تحدث الانسجام و الإدراك الجيد الذي يستجيب لإنتظاراتنا».(FREUD S., 1967, p. 425) وظيفة المراجعة الثانوية إذن هي التنسيق بين عناصر الحلم حتى تبدو لنا واضحة. «المراجعة الثانوية تسمح لنا بالربط بين جزأين أو أكثر من أجزاء الحلم وتحويلها إلى كل منسجم».(Ibid, p. 425)

يتضح إذاً أن «ثغرات الحلم الظاهري تملأ، و كل ما هو غير منسجم يصبح منسقاً بشكل يجلي الحلم الظاهري على شكل قصة منسجمة منطقية». (FROMM E., 1989, p. 62.)

كما يقول برجوري. ج. (BERGERET. J.) عن المراجعة الثانوية إنها: «تهدف إلى جعل من الحلم كل متكامل منسجم و مفهوم (...) و هي تتدخل فقط عند تكوين الحلم، أثناء النوم، بل تتدخل أيضاً عند تذكره. ليس من المؤكد أن الحلم الذي نسرده مطابق تماماً لحلم الذي قمنا به أثناء النوم، و هذا الإعداد الثانوي أو المراجعة الثانوية، باعتبار عملها دفاعي، يمكن أن تكون قريبة من العقلنة». (BERGERET J. et al., 1974, p. 82.)

يرى كذلك الباحث سولي ج. (SULLY J.) حسب فرويد أن: «النفس تقوم أثناء النوم بنفس العمل التنسيقي المنطقي الذي تقوم به أثناء اليقظة على الإحساسات، تربط بينها عن طريق رباط خيالي، و تسد كل الثغرات الكبيرة الموجودة بين الصور». (FREUD S., 1967, p. 166)

نستنتج إذن أن عملية المراجعة الثانوية هي مراجعة نهائية للحلم، هدفها جعل هذا الأخير مفهوماً، قابل للسرد.

يتبين لنا من خلال ما تطرقنا له في عمل الحلم أن نظرية فرويد في الأحلام لا ترتكز على المحتوى الظاهري للحلم، إنما على محتوى الأفكار التي تكون وراء الحلم نفسه. و مثلما يقول فرويد: «الحلم الذي نتذكره عند الإستيقاظ، ما هو إلاّ بقايا من مجموعة عمل الحلم». (Ibid, p. 243)

فالحلم ليس مجرد نتاج عديم المعنى لنشاط نفسي بسيط أو مجزء، بل هو ذو معنى يحجبه و يخفيه عمل الحلم و هذا الأخير «لا يفكر، لا يجري حسابات، لا يحكم إنما يكتفي بتحويل و تشويه (...)» (Ibid, p. 232) تشويه للتعبير عن رغبات لا شعورية «فالحلم يعبر عن رغبة لاشعورية عن طريق مختلف التشويهات». (DREYFUS D., 1991, p. 71) .

يلجأ الأنا إلى الحيل لتحقيق الرغبات حتى يحافظ على توازنه موفقاً بين مبدأ اللذة و مبدأ الواقع فهو أي الأنا «يسمح بإرضاء و إشباع الهو و الأنا الأعلى محافظاً على هيكله الخاص و مؤكداً إستقلاليته». (FREUD S., 1985, p. 39)

إن فرويد يعطي أهمية ثانوية للمحتوى الظاهري للحلم، و يعتبره وجهاً مقنّعاً لأفكار كامنة، ساهم عمل الحلم في إخراجها باعتبار هذا الأخير «أهم نموذج للعمليات الخاصة بالطبقات العميقة اللاشعورية، للحياة النفسية». (FREUD S., 1970, p. 57)

من السهل الآن أن نفهم بأن مساهمة اللاشعور في تكوين الحلم جعلت فرويد يقول بأن «تفسير الأحلام هي المسار الأساسي الذي يقودنا لمعرفة اللاشعور». (FREUD S., 1967, p. 231)

و الخلاصة إذن أن عمل الحلم كما يقول فرويد نفسه «يكمن في معالجة خاصة لمادة أفكار ما قبل الشعور، عن طريقه يتم تكثيف مختلف هذه الأفكار، كما يتم نقل شحناتها النفسية، و الكل يحوّل إلى صور بصرية، ثم يتمم و يكمل عن طريق المراجعة الثانوية للحلم». (FREUD S., 1970, p. 57).

بفضل المراجعة الثانوية يتم إخراج الحلم ، فيظهر برداء جديد، منسجم، حتى ينال مصادقة الرقابة للظهور على مستوى الوعي مقبول اجتماعيا.

الاستنتـاج

بناءاً على ما سبق يتجلى لنا أن هذه الظاهرة المعقدة، التي منبعها اللاشعور ركناً أساسياً في فهم الحياة النفسية للشخص، فهي معلماً يساهم في إعطائنا نظرة عميقة حول النشاط النفسي و التنظيم العقلي لشخصية الحالم، باعتبار أن الحلم أكبر مستقطب لحياة اليقظة بذكرياتها القريبة أو البعيدة المدى و التي تتفاعل وفقاً لصدى نفسي داخلي، ثم تترجم إلى صور بصرية تبدو في شكل حلم، بحيث أن هذا الأخير يعكس و يصور لنا . تماماً كما تفعل الآلة الفتوغرافية . الحياة النفسية بمختلف مظاهر نشاطها. مبرزاً رغبات، طموحات، وجدانات، هوامات و انطباعات الشخص و مخاوفه المترسبة في الطبقات العميقة للنفس.

فباعتبار الحلم المسار الرئيسي نحو اللاشعور، فإنه يعكس القوانين التي تسير الجهاز النفسي، عن طريقه يمكننا التوغل إلى الأعماق لفهم الحياة النفسية بأبعادها المختلفة.

نستنتج أن الحلم ظاهرة معقّدة، و هو مفتاح الحياة النفسية، عن طريقه نتوصل إلى التعرّف وفهم النشاط النفسي و التنظيم العقلي للشخص الحالم. فهو صورة صادقة لأغوار النفس و الحياة النفسية، كما أنه مؤشر ضروري نرتكز عليه لفهم هذه الأخيرة، لكونه يصور لنا التفاعلات والنشاطات النفسية من الداخل، يجلي لنا هذا النشاط النفسي الداخلي للشخص، بعد أن يتم تشويه أفكار الحلم الحقيقية بواسطة عمل الحلم، كي تفلت من الرقابة ، وبالتالي يتم التعبير بشكل متخفي عن أعماق الشخصية.

قائمة المراجع

1- الكتب باللغة الفرنسية:

1) AEPPLI (E.), Les rêves et leur interprétation, Paris, Payot, 1er cd, 1962, 309p.

2) ANZIEU (D.), L'auto-analyse de FREUD et la découverte de la psychanalyse, Paris, P.U.F. , 2em cd , T.2, 1975, 853p.

3) BERGERET (J.),et all, Abrégé de psychologie pathologique, Paris, Masson, 2em cd, 1974, 278p

4) BERGERET (J.), et al., Psychologie pathologique, théorique et clinique, Paris, Masson, 3em cd, 1982, 325p.

5) BOSSARD (R.), Psychologie du rêve, Paris, Payot, 1972, 280p.

6) BRAUNSCHWEIG (D.) et FAIN (M.), La nuit, Le jour, essai psychanalytique sur le fonctionnement mental, Paris, P.U.F., 1er cd, 1975, 302 p.

7) CAHEN (R.), "La psychologie du rêve, son utilisation comme moyen de connaissance et agent thérapeutique", in Le rêve et les sociétés humaines,

CAILLOIS (R.) et VON RGUNEBAUM (G.E.), (sous la direction de...), Paris, Gallimard, 1er cd, 1967, pp.102 -121.

8) CHARRIER (J.P.), L'inconscient et la psychanalyse, Paris, P.U.F., 1er cd, 1968, 126p.

9) CHAZAUD (J.), La personnalité: ses dimensions et son développement, Toulouse, Privat, 1980, 175p.

10) DE MIJOLLA-MELLOR (S.), Le plaisir de pensée, Paris, P.U.F., 1er ed, 1992, 413p.

11) DREYFUS (D.), FREUD-Psychanalyse, Paris, P.U.F., 10em ed , 1991, 190p.

12) EY (H.), La conscience, Paris, P.U.F., 1er ed , 1963, 439p.

13) FENICHEL (O.), La théorie psychanalytique des névroses, Paris, P.U.F., 3em ed, T.1, 1979, 393p.

14) FORDHAM (F.), Introduction à la psychanalyse de JUNG, Paris, IMAGO, 5em ed, 1979, 173p.

15) FREUD (A.), Le Moi et les mécanismes de défense, Paris, P.U.F., 8em ed, 1975, 166p.

16) FREUD (S.), L'intreprétation des rêves, Paris, P.U.F., 2em ed, 1967, 573p.

17) FREUD (S.), Le rêve et son interprétation, Paris, Gallimard, 1969, 118p
18) FREUD (S.), Ma vie et la psychanalyse, Paris, Gallimard, 3em ed, 1970, 184p.

19) FREUD (S.), Inhibition, symptôme et angoisse, Paris, P.U.F., 5em ed, 1975, 102p.

20) FREUD (S.), Introduction à la psychanalyse, Paris, Payot, 1976, 443p.

21) FREUD (S.), Abrégé de psychanalyse, Paris, P.U.F., 10em ed, 1985, 84p.

22) FROMM (E.), Le langage oublié, Paris, Payot, 2em ed, 1989, 211p.

23) GARMA (A.), La psychanalyse des rêves, Paris, P.U.F., 1964, 417p.

24) GARMA (A.), Le rêve. Traumatisme et hallucination, Paris, P.U.F., 1er ed, 1981, 385p.

25) GUILLAUMIN (J.), Le rêve et le moi: rupture, continuité, création dans la vie psychique, Paris, P.U.F., 1979, 334p.

26) JACOBI (J.), La psychologie de C.G.JUNG, Zurich, Delachaux et Niestlé, Neuchâtel, 1963, 259p.

27) JEAMMET (Ph.), REYNAUD (M.), CONSOLI (S), Psychologie médicale, Paris, Masson, 1er ed, 1980, 356p.

28) KLEIN (M.), Essais de psychanalyse, Paris, Payot, 2em ed, 1972, 452p.

29) LAGACHE (D.), La psychanalyse, Paris, P.U.F., 16em ed, 1989, 126p.

30) MAGNIN (P.), Le sommeil et le rêve, Paris, P.U.F., 1er ed, 1990, 125p.

31) NACHT (S.), La théorie psychanalytique, Paris, P.U.F., 1969, 432p.

32) NUNBERG (H.), Principes de psychanalyse, leur application aux névroses, Paris, P.U.F., 1975, 415p.

33) PERRON (R.), Genèse de la personne, Paris, P.U.F., 1er ed , 1985, 256p.

34) PESCH (E.), FREUD, Paris, Bordas, 2em ed, 1985, 185p.

351) PICAT (J.), Le rêve et ses fonctions, Paris, Masson, 1984, 131p

36) PREVOST (C.M.), JANET, FREUD et la psychologie clinique, Paris, Payot, 1er ed, 1973, 213p.

37) RILLAER (J.V.), Les illusions de la psychanalyse, Bruxelles, Pierre Mardaga, 2em ed, 1980, 415p.

38) SCHULTZ-HENCKE (H.), Analyse des rêves, Paris, Payot, 1977,251p.

39) TEILLARD (A.), Ce que disent les rêves, le symbolisme du rêve, Paris, stock plus, 1986, 229p.

40) TZVETAN (T.), Théories du symbole, Berlin, édition du seuil, 1er ed, 1977, 375p.

41) VALERY (P.), Questions du rêve, Paris, Gallimard, 1er ed, 1979, 308p

2- المجلات:

42) CAIN (J.), "Présence et absence de rêve comme signal d'angoisse", in Rev. Française de Psychanalyse, N° 1, T.XL, 1976, pp.119-123.

43) GUILLAUMIN (J.), "Le travail du rêve comme deuil des objets de la veille, crise d'objets et nouvelle création du rapport de réalité ", in Rev. Française de Psychanalyse, N° 1,T.XL V, 1981, pp.161-185.

44) LEBOVICI (S.), " Le psychanalyste d'enfant ", in Rev. Française de Psychanalyse, N°1, T.XL, 1976, pp.11-29.

45) LE GUEN (C.), et all, " Le refoulement, (les défenses) ", in Rev. Française de Psychanalyse, N°1, T.L, 1986, pp.23-335.

46) MANCIA (M.), " Sommeil, rêve et instincts: une approche interdisciplinaire", in Rev. Française de Psychanalyse, N°1, T.XL, V.40, 1976, pp.31-58.

47) RALLO-ROMERO (J.), RUIZ DE BASCONES (M.J.), ZAMORA DE PELLICER(C.), "Les rêves comme unité et continuité de la vie psychique ", in Rev. Française de Psychanalyse, N° 5-6, V.38, 1974, pp.821-962.

مشكلة هروب المراهقين من البيت العائلي:
دراسة تحليلية من المنظور النسقي الأسري.

الأستاذة:فتيحة كركوش
قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا

الملخص:

تسعى الباحثة من خلال هذه المقالة إلى إبراز تأثيرات عملية التغير الاجتماعي من حيث أنه حتمية اجتماعية تخضع لها المجتمعات في سيروراتها التطورية هذا من جهة، ومن جهة أخرى تظهر أن الأسرة تعد من بين أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية تأثرا بهذا التغير خاصة إذا كان سريعا وغير متزنا؛ الأمر الذي يفرز الكثير من المشكلات والأمراض الاجتماعية.

وفي هذا السياق، تعتبر الباحثة أن مشكلة هروب الأبناء من بيوتهم العائلية تتدرج ضمن افرازات التغيرات الاجتماعية التي يصعب على الأبناء–خاصة في مرحلة المراهقة– التكيف وفقها.ومن ثمة، تجد الأسرة نفسها في محاولة صعبة للمحافظة على مهامها التربوية ووظائفها في تقديم التوجيه السليم والإرشاد المناسب لهؤلاء الأبناء.

ومن هنا، تبرز أهمية هذه المداخلة من حيث أنها تقدم تحليلا علميا لهذه المشكلة في ضوء نظرية الأنساق ومن وجهة نفسية اجتماعية التي تبلور سيرورة التغير الاجتماعي وكيفية تأثيرها في الأسر، وكيف أن هذه الأخيرة تؤثر بدورها على الأبناء الذين هم في مرحلة تغيرات نفسية اجتماعية.

كلمات مفتاح: الهروب من البيت العائلي. المراهقة. النسق الأسري.التّغير الاجتماعي.

1.مقدمة:

تشير مختلف الهيئات والمنظمات العالمية والدولية المهتمة برعاية الطفولة والمراهقة إلى تزايد الأرقام بخصوص مشكلة هروب الأبناء من البيت العائلي، حيث سجلت مصلحة الإعلام والتوثيق حول العالم الثالث(Service d'information et documentation sur le tiers monde, 1996) انتشارا ملحوظا لهذه المشكلة على المستوى العالمي، إذ بلغت أعداد الهاربين في الهند أكثر من خمسة وأربعين ألف طفل، ووجدت في البرازيل مائتي ألف طفل في وضعيات خطيرة، وقدّر في أكرا وجود عشرة ألاف طفل ومراهق في الشوارع عرضة لكل أنواع الاستغلالات.

ويضيف جوستيس ودانكان(Justice & Dancan, 1976) أن الإحصائيات في الولايات المتحدة الأمريكية خلصت إلى اعتبار سلوك الهروب يعد الأكثر انتشارا بين المراهقين الموجودين في المؤسسات العقابية ودور الإصلاح.

ولا يختلف الوضع كثيرا في المجتمعات العربية بخصوص المشكلة رغم التحفظات الكثيرة التي تبديها المصالح الرسمية وقلة إحصائياتها، فقد أشار المجلس العربي للطفولة والتنمية (2000) إلى وجود المشكلة في الوطن العربي وان كان الاهتمام بها ما يزال طليعيا، إذ اعتبر الهروب في موريتانيا ظاهرة أحياء فقط لأن الهاربين يوجدون في الحي الذي تقطن فيه أسرهم الأصلية، بينما تزايدت أعداد الهاربين بشكل ملحوظ في المدن المغربية الكبرى لدرجة شكّلوا جماعات صغيرة من أطفال الشوارع.

وأشارت الإحصائيات الواردة عن المديرية العامة للأمن الوطني (2004) في الجزائر، إلى أنه غالبا ما ارتبط هروب الأبناء من البيت العائلي بسوء المعاملة الوالدية وتعرضهم للضرب من طرف أهلهم؛ حيث سجلت في سنة 1993 أكثر من مائين حالة هروب كان من بينها خمسة وعشرين حالة كان هروبها نتيجة للعنف الجسدي، وارتفع العدد في سنة 1994 ليبلغ مائتين واثنى عشرة هارب.

ويؤكد نفس المصدر أن مشكلة الهروب تزداد انتشارا ما بين العاشرة والثامنة عشرة خاصة في صفوف الذكور، فقد سجلت مصالح الشرطة سنة 2003 أكثر من مائين وستة عشر هاربة وثلاثة مائة وستة وأربعين هارب، وقدّر في سنة 2004 ما يزيد عن مائة وسبعين هاربة ومائتين وسبعين هارب.

ما يمكن استخلاصه من خلال هذه المعطيات التي تناولت مدى انتشار مشكلة الهروب من البيت العائلي أنه حان الأوان لتحظى هذه المشكلة بالاهتمام وببذل الجهود وتكثيفها على المستوى القاري العالمي وكذا المستوى الوطني المحلي.

ورغم قلة الدراسات بخصوص الموضوع إلا أن التفسيرات التي قدمت كانت جد متنوعة وذلك بتنوع وجهات نظر الباحثين.لذلك، نسعى في هذه الدراسة إلى التطرق إلى هذه المشكلة من زاوية شاملة آخذين بعين الاعتبار عملية التغيرات الاجتماعية كمحطة رئيسية تفرز مختلف السلوكات التي تؤثر لا محالة في النسق الأسري، والذي بدوره يتأثر بسيرورات التغير الاجتماعي الذي تظهر آثاره بالدرجة الأولى في طرق التنشئة الأسرية التي تمد بها الأسر أبنائها المراهقين الذين تكون الحاجة إلى الاهتمام بهم بشكل مركّز مطلبا ضروريا خاصة مع ما يعيشونه من تغيرات فيزيولوجية وسيكولوجية جديدة.

إضافة إلى قلة الدراسات الخاصة بمشكلة الهروب في المجتمعات العربية، فانه يوجد الكثير من الغموض واللبس في تحديد مفهوم الهروب وفي تصنيفه، حيث غالبا ما صّنف ضمن السلوكات المنحرفة؛ الأمر الذي جعل الباحثين يجدون صعوبات منهجية كثيرة في كيفية تمييزه عن حالات مشابهة له (مثل التشرد والتوهان).

ومن هذا المنطلق، تولدت الحاجة الملحة لطرح مشكلة هروب الأبناء كمشكلة يجب البحث فيها قصد فهمها بالدرجة الأولى، وكونها أيضا تصب في سياق المشكلات النفسية الاجتماعية ذات الانعكاسات الوخيمة على الفرد والأسرة والمجتمع ككل، حيث أنها تؤثر في الصحة النفسية للأبناء الهاربين مبرزة في نفس الوقت اختلال البنيات الأسرية والاجتماعية في ظل ما تعيشه هذه الأخيرة من تغيرات وتحولات.ولتجسيد هذا الطرح، أوجب تحديد بعض المفاهيم الضرورية:

2.المفاهيم الأساسية للدراسة:

بما أن الفئة المعنية بمشكلة الهروب من البيت العائلي هي فئة المراهقين، فانه من المنطقي أن نحدد أولا مفهوم الهروب من البيت ثم مفهوم المراهقة:

1.2.مفهوم الهروب من البيت العائلي:

غالبا ما وصف هروب المراهق أنه عامل – خطر (Risk – Factor)، إذ قد يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في العديد من المشاكل الخطيرة، غير أنه وجدت العديد من التعاريف التي قدمت بخصوص مفهوم الهروب لدرجة يصعب على الباحث الأخذ بتعريف واحد.وحسب ما اتفق حوله المنظّرون، فان مفهوم الهروب يرتبط بفئة المراهقين بالدرجة الأولى، وهذا السلوك هو عبارة عن ذهاب غير مألوف أو مفاجئ وفي معظم الأحيان يكون فرديا دون هدف وغالبا ما يتم في جو مشحون بالصراع مع العائلة التي ينتمي إليها الهارب(Marcelli &Braconnier,1980).

ويعبّر الهروب تبعا للاتجاه الاجتماعي عن الانحراف(Déviance) عن القيّم المجتمع، وهو يختلف عن التشرد(Vagabondage) في كون هذا الأخير اختيار لنمط حياتي حر يعبّر على وجه التحديد–حسب أجورياجيرا(Ajurriaguerra,1974)– عن فعل أكثر تدبرا ومختلف عن الهروب من حيث هدفه المتمثل في اللاعودة والرغبة في القطيعة.

وقد انبثقت العديد من التصنيفات المستخلصة من الأبحاث والدراسات لتحدد معايير تعريف الهروب، منها:

–تصنيفات مبنية على أساس شخصيات الهاربين المرضية؛ كأن يكون الهارب مضطربا أو له مشاكل نفسية.

–بنيت تصنيفات أخرى على معيار مدة الهروب، فمنه الهروب العابر والمتعدد والممتد.

–وتصنيف هومر(Homer,1973) الشهير المبني على أساس دافعية الهارب ،وحددتها في "الهارب من"(هروب من الأزمات العائلية المختلفة) و"الهروب إلى" (هروب نحو المغامرات والمتعة). والملاحظ أن معظم الهاربين ينتمون إلى فئة"الهاربين من"، أي أنهم يعانون من صراعات عائلية وضغوطات كثيرة تشجعهم على أن يبتهجوا سلوك الهروب من البيت.

ومن هذا المنطلق، فقد حددت هذه الدراسة مفهوم الهروب على اعتباره فرار من البيت العائلي من دون ترخيص السلطة الوالدية (أو النائبة عنها) لمدة تزيد عن الليلة الواحدة بغض النظر عن وجود ممارسات انحرافية أو عدم وجودها.

2.2.مفهوم المراهقة:

نالت مرحلة المراهقة اهتمام الكثير من الباحثين لدرجة تبلوت –قصد معرفتها وفهم سيرورته– الكثير من الاتجاهات والتناولات؛ فمنها من ركزّت **على الأبعاد البيولوجية، ومنها من أعطت الأولوية** للمتغيرات الاجتماعية الثقافية، بينما وجدت اتجاهات أخرى وحدّت ما بين هذين الاتجاهين، بالاضافة والى الاتجاهات التي فسّرت المراهقة و مشكلاتها على أساس ادراكات المراهقين ومدى تفاعل هذا الكل في سياق موحد.

وكان حسين الغزي(1976) قد قسّم مرحلة المراهقة إلى ثلاث مراحل، حيث توجد ما قبل المراهقة ثم المراهقة المبكرة ثم المراهقة المتأخرة؛ بمعنى أنها سيرورة متطورة تبدأ بحالة من الارتباك والمعاناة والحساسية الزائدة لتنتهي بمعرفة المراهق لأهدافه ويسعى للوصول إلى الاكتمال الرجولة والأنوثة.

والمقصود من هذا أن المراهقة تعتبر مرحلة إشكاليات والبحث عن الذات وبروز حاجات جديدة.لذلك،فإننا –في هذه الدراسة–ننظر إلى هذه المرحلة من هذه الزاوية التي يعيش خلالها المراهقين تغيرات تؤثر لا محالة على استيعابهم للعالم وادراكاتهم نحو الذات والمحيطين بهم.

وبعد تحديد هذه المفاهيم، لزاما علينا أن نحدد السياق العام الذي تدور حوله مشكلة الهروب، حيث أن عملية التغير الاجتماعي التي تخضع لها المجتمعات في تطورها تفرز العديد من الظواهر.ومنه، فان هروب الأبناء لا ينسلخ عن أطر التغير الاجتماعي الذي تعيشه الأنساق الأسرية في النسق الكلي الذي تتأثر به في تعاملها مع أبنائها.وسيحدد مفهوم "التغير الاجتماعي" في سياقه التحليلي:

3.**السياق التحليلي للمشكلة:**

يعتبر الهروب من البيت العائلي من بين أهم الظواهر النفسية الاجتماعية التي يتعرض لها الأطفال والمراهقون في الوسط الاجتماعي الذي ينشاؤون فيه، وغالبا ما يعد هذا السلوك

تعبيرا عن رفض هؤلاء للواقع الاجتماعي الذي يحيط بهم لاسيما الجماعة الأولى التي ينتمون إليها. ومما لاشك فيه أن عملية التّغير التي تخضع إليها المجتمعات في تطورها تفرز العديد من الظواهر التي تطرح بدورها إشكاليات على مستوى التكيّف.وسيتم تحليل مشكلة هروب الأبناء من البيت على مستويين:الأول على مستوى عملية التغير الاجتماعي والثاني على مستوى النسق الأسري وعلاقة ذلك بسيرورة المراهقة:

1.3.على مستوى المراهق والتغير الاجتماعي:

لا ينسلخ هروب المراهقين عن إطار التّغير الاجتماعي الذي يعيشه المجتمع والذي تتأثر به الأسرة بلا شك، بل يجب النّظر إلى سلوك الهروب من البيت العائلي –كباقي المشكلات النفسية الاجتماعية– من زاوية شاملة تمس كل ما توصل إليه المجتمع من تطّور وتحوّل في بنياته وفي قيّمه وطريقة معيشته حتى يتسنى فهم هذه الظاهرة

من الناحية الاجتماعية والأسرية بحيث أن الأسرة تخضع حتما لديناميكية تّغير المجتمع على مستواه المادي والمعنوي.

فالتحولات خاصة منها السريعة (كما يشهدها المجتمع الجزائري) تؤدي إلى اضطرابات مختلفة تفتح المجال واسعا لاحتمالات الانحراف والتهميش وسوء التكيف التي لا تمس المجتمع في شموليته فحسب؛ إنما تمتد إلى شخصية الأفراد وهذا ما يهيئ لبعض الأفراد أن يقعوا ضحايا لسوء التوافق في شتى صوره وأشكاله، حيث ينشأ الصراع نتيجة تناقض القيّم بين الوالدين وقيّم الجيل الحاضر، وهنا يجد المراهق نفسه حائرا في متاهات المعايير المتناقضة مما يعرضّه لأن يسلك سلوكا شاذا لأنه لا يعرف أين الطريق(محمود حسن، 1981).

ويؤكد موسى أبو حوسة(2001) أنه عندما يتغير المجتمع بسرعة فان العلاقة الطبيعية بين الأجيال تتغير، حيث أنه كلما كان تغير المجتمع أسرع كلما كان الميل نحو الفوضى العائلية أشد قسوة.

كما يشعر المراهق بحكم مجموع التغيرات النمائية المختلفة التي يعيشها بحاجة ماسة إلى البحث عن مكانة له خاصة في ظل التحولات المزدوجة الأبعاد:على المستوى الأسري الاجتماعي وعلى المستوى النفسي الشخصي.ويشير لورد (Lord,1984) إلى أن كل هذه التغيرات تؤثر بصفة وثيقة على المهام الوالدية التي من المفروض تأديتها،حيث قد تنحرف عن مسارها الطبيعي فيفقد الأولياء قدراتهم على مراقبة الأبناء ،ويكون الأبناء أكثر تقبلا لمستجدات عصرهم وأكثر قدرة على التكيف مع التغيرات الاجتماعية مقارنة بأوليائهم الذين–نتيجة ذلك–يشعرون بالإحباط وبالفشل.ومنه تكون النتيجة الحتمية للتغير غير المتوازن ظهور الهوة الثقافية أو التفكك الاجتماعي وتمتد هذه الهوة بين الأبناء والوالدين بحيث أن الأبناء يعللون هروبهم من البيت العائلي أنه نوع من التكيف واستجابة لعدم تفهم الأولياء لهم، بينما الأولياء يشخصّون المشكلة أنها انحراف أو رفض للأنماط السلوكية المتفق عليها.ومعنى ذلك أن الكيان الثقافي لم يعد متماسكا كما كان من قبل ،فينعكس أثره على كفاءة تأديته لوظيفته في إشباع حاجات أبناء المجتمع وفي توجيهه التوجيه المحكم على مستوى تفكيرهم واتجاهاتهم وسلوكاتهم.

ويوضح علاء الدين كفافي(1999، ص115) هذه الفكرة معتبرا أن"الأسرة نسق إنساني اجتماعي منفتحا ولو إلى درجة ما، ولا تستطيع أن تكون منغلقة انغلاقا كاملا لأنها تكون منتمية إلى نسق أكبر يتضمنها ويستوعبها ولابد وأن تتفاعل مع هذا النسق الأكبر بطريقة ما".ومن ثمة، فان الأسرة كنسق مفتوح تتأثر بالأنساق الأخرى وتؤثر فيها بوصفها نظام اجتماعي:فإذا كان النظام الأسري في المجتمع فاسدا ومنحلا فان هذا الفساد يتردد صداه في وضعه السياسي وإنتاجه الاقتصادي ومعاييره الأخلاقية، وبالمثل إذا كان النظام الاقتصادي أو السياسي فاسدا، فان هذا الفساد يؤثر في مستوى معيشة الأسرة وفي تماسكها(موسى أبو حوسة، 2001).

وبما أنّ المجتمعات تعيش حالة من التّغيرات المختلفة، فانّ الأسرة العربية قد تعرضت – بحكم هذه التّغيرات البنائية التي أصابتها في السّنوات الأخيرة نتيجة التّحديث والتّغيرات الاقتصادية السّريعة– لتقلص وظائفها الاجتماعية وذلك في غياب الضوابط التقليدية التي كانت تقوم بمهمة الضبط الاجتماعي، ومن ثمة ضعفت سلطة الأسرة التقليدية.

وفي هذا السياق، كان بوتافنوشت(Boutafnouchet,1982) قد أشار في كتابه حول"التغير الاجتماعي" في الوسط الجزائري إلى أن المجتمع الجزائري يحتوي على ثلاث أنظمة اجتماعية:الأول نظام اجتماعي متقدم مستمد من الغرب ،وآخر يعرف بالنظام التقليدي ونظام ثالث وسيط هو في طور البناء.فأمام هذه النماذج المختلفة تتضارب القيّم في المجتمع وكذا على مستوى العائلات، وما هروب الأبناء في خضم هذه الاختلافات إلا مؤشر هام يجسّد شكل من أشكال ضعف البنيات الاجتماعية وتعبير عن استجابة فاشلة في عملية التكيف في حد ذاتها.

ومن الصعب الوصول إلى تكيف اجتماعي تام في مجتمع ديناميكي خاصة في وجود الاتجاهات الفردية وما تستلزمه من مقتضيات التوافق الاجتماعي.لذلك،تطرح مسألة التوافق كإشكالية جوهرية :فالأبناء الهاربون غالبا ما يكونون مراهقين بصدد بناء خبرات حياتية للوصول إلى النضج النفسي والاجتماعي والى تنمية علاقات بين أقرانهم وبين المجتمع ككل.

ومنه، فان فترة المراهقة تعد أكثر مراحل العمر تأثرا بالتغيرات الاجتماعية السريعة إذ أن سلسلة التغيرات التي يعيشها المراهق –باختلاف جنسه– تعمل على وضعه في موقع يشعره بأن المجتمع الذي ينتمي إليه والعائلة التي نشأ فيها لا تمنحه التوجيه الذي يبحث عنه، حيث يمكن اعتبار ذلك كنتيجة لتغير نمط البناء الخاص بالمعايير وغموض الأدوار بخصوص مكانة المراهق وسط مجتمع في حالة تغير وفي فترة انتقالية أيضا.

فالمراهق في هذه الفترة من عمره يواجه تغيرات جسمية وفيزيولوجية كبيرة وسريعة إضافة إلى المطالب الاجتماعية المتغيرة والكثيرة، لذلك يصعب عليه أن يشعر بثبات ذاته واستقرارها ويكون بحاجة إلى فترة من الوقت ليدمج هذه التغيرات الطارئة في إحساس مستقر.وقد أشارت هدى قناوي(1996) إلى أن مشكلات المراهقة هي نتاج طبيعي لديناميكية المرحلة مع الوضع الاجتماعي للمراهق،والمناخ النفسي للأسر والإطار الاجتماعي وأن عناصر الترابط والاحتكاك بين هذه الأطراف متوفرة ومتاحة،والمشكلة ليست في الحادث(الهروب من البيت) الذي يحدث وإنما في الأسلوب الذي يعالج به الحادث ، فمتطلبات المراهق لابد وأن تتصادم في بعض الأحيان مع شخصية الأب أو الأم أو التركيبة الاجتماعية.

وقد ربط دوفيل (Douville ,1994) هذه التّغيرات بعملية التّنشئة الاجتماعية للمراهقين الذين لا تعطى لهم فضاءات لممارسة حريتهم وتحقيق مكانتهم.وبالتالي، تفتح هذه الوضعية مجالا أوسع لممارسات غير مرغوب فيها.

ومن هذا المنطلق، فان مفهوم التصور الذاتي (كان يمثل محورا أساسيا من محاور نظريات الثقافة الفرعية بالإضافة إلى مفهوم التفاعل الرمزي) أكد أنه عندما يفشل الفرد في تكوين تصور ملائم عن ذاته في إطار الثقافة العامة السائدة في المجتمع، فانه ينتمي إلى ثقافة أخرى تعطيه المبادئ اللازمة لبناء فكرة ذاتية ترضيه(سامية جابر، 2001)؛ ومعنى ذلك أن المراهق الهارب يشعر مع أقرانه أنه إنسان مقبول وتمكّن من تحقيق أهداف هامة كالانتماء والمشاركة الفعالة وأنه عضو لديه القدرة على الخضوع لمعايير الجماعة الفرعية وهذا ما يحقق بالنسبة إليه الإحساس بالأمن والثقة بالذات.لذلك،قد تمتد فترات الغياب عن البيت العائلي بسبب

وجود جماعات مدعمّة ،حيث أكد برينان(Brennan,1978) أن الرفاق –إضافة إلى السياق الأسري أو المدرسي– يلعبون دورا كبيرا في هروب المراهقين من البيت العائلي وفي تعزيزه ومدة في استمراريته؛الأمر الذي يجعل من هؤلاء الهاربين ينغمسون بسهولة في ممارسات انحرافية وإجرامية يصعب إصلاحهم.

ويضيف خالد (Khaled,1986) أنّه عندما تفشل العائلة في القيام بدورها في التأهيل الاجتماعي بسبب هذه التّغيرات، فانّ هذا يولد لدى المراهق الشعور بعدم الأمان والحرمان العائلي؛مما يدفعه إلى جماعة العصابة وما قبل المنحرفين ليحس بالانتماء وإشباع حاجاته المختلفة، وفي سبيل ذلك يقوم بعدة عمليات من أجل التّكيف مع الأوضاع السائدة في الجماعة ومن هنا يبدأ تأثير الجماعة على شخصيته ويبدأ يتدرج شيئا فشيئا في طريق عدم التكيف.

ومن ثمة، يعبّر سلوك الهروب بصورة مباشرة عن اختلال في النسق الأسري والاجتماعي وما يفرزه من انعكاسات تمس بصفة مباشرة مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية، ويشير علاء الدين كفافي (1999، ص110) إلى أنّ "الأبناء في نموهم غالبا ما يضغطون على الأسرة مما يستوجب أن تغير من قواعدها ونظمها أو تعيد ترتيب علاقات أفرادها بعضهم ببعض.وكثيرا ما يتحدى المراهقون قيّم الأسرة وعاداتها وأعرافها علانية، ويسبب المراهقون بذلك خللا في التوازن الأسري، ويصبح الوضع يعاني من الخلل إلى أن يستطيع النسق الأسري أن يستعيد توازنه".

ومن هذا المنطلق، يمكن فهم سلوك الهروب من البيت في سياق التغير الاجتماعي بناءا على المؤشرات التالية:

– مجتمع في حالة عدم استقرار وتغير سريع أفضى إلى صعوبة تأدية أدوار التنشئة الاجتماعية.

– هروب الأبناء من البيت عرض لفشل المجتمع في تحقيق حاجات المراهق الأساسية ومؤشر لتذبذب مكانته الاجتماعية.

– سهولة انجذاب الأبناء نحو الثقافة المضادة في خضم تناقض القيّم.

2.3.على مستوى المراهق والنسق الأسري:

يتم التركيز في الجزء الثاني من التحليل على متغيرين أساسيين أسهما بشكل كبير في فهم سلوك الهروب:أولهما يعتمد على فكرة أنه نتيجة لضعف البنية الأسرية خاصة على مستوى الاتصال بين الوالدين والأبناء.والثاني يعتبر أن الهروب ليس دوما استجابة لحالات من الضغوط الأسرية؛ فالهارب يتميز بآليات نفسية ضعيفة تسمى استراتيجيات المواجهة وتوظف بطريقة غير فعالة.

ويقصد باستراتيجيات المواجهة كل الاستجابات المعرفية التي تقلل أو تقضي على الضيق النفسي وعلى مختلف الضغوطات قصد التعامل مع متطلبات الداخلية أو الخارجية التي تشكّل عبء يفوق إمكانيات الفرد وقدراته، ويستمد الفرد هذه الاستجابة من عمليات تقييمية معرفية يحدد من وراءها نوع الاستراتيجية التي يعتقد أنها مناسبة للموقف الضاغط والتي تتماشى أيضا مع موارده الشخصية والاجتماعية؛ بمعنى أن المراهق الذي يعيش موقفا ضاغطا أو مهددا يحاول أن لا يكون سلبيا إزاءه إنما يدرسّه مستعينا في ذلك على اعتقاداته وما يمكن أن يوظفه لحل المشكلات أو تفاديها.

وكانت هومر(Homer,1973) قد أشارت إلى أن سلوك الهروب من البيت غالبا ما يعبّر عن ضعف استراتيجيات المواجهة لدى الهارب ،كما أكد لورد(Lord,1984) أن الهاربين يعانون بصورة واضحة من ضعف مراقبتهم على المحيط،بمعنى أنهم لا يتحملون معايشة الضغوط الأسرية فيكونون عرضة لجميع أنواع الحلول السلبية التي قد تضر بهم بدل أن تحقق توازنهم النفسي الاجتماعي.وبالرغم من أن الكثير من المراهقين قد يعيشون في عائلاتهم أزمات وضغوط إلا أن البعض منهم لا يفر من وسطه العائلي؛ وذلك بناءا على الطرق التي اعتاد أن يواجه بها مشكلاته بعيدا عن استراتيجية الهرب.

ويضيف مارتن(Denoff,1991) أنه يمكن اعتبار الهروب أسلوب من أساليب مواجهة وضعيات يدركها الهارب في معظم الحالات أنها مؤلمة أو ضاغطة،لأن الهروب سلوك يعبّر عن محدودية مواجهة الهاربين لمختلف الخبرات الحياتية وبالتالي لا يجدون حلا للمواجهة إلا الفرار بدون التبصر بعواقب هذا السلوك.

كما أن الهروب خاصة منه الهروب الاعتيادي يعد الواجهة السلبية لفشل متكرر في تعلم مواجهة سليمة؛ إذ أن استعمال الهروب كنوع من المواجهة في العديد من لمواقف مهما كان نوعها يوحي بمحدودية اختيارات الهارب في تعلم استراتيجيات ناجعة لمواجهة التهديدات، حيث أن الهارب كلما صادفه مشكلا (حتى خارج السياق الأسري)، فانه لا يحاول التعامل معه بايجابية إنما يفرمن الموقف.

وبالرغم من أن سلوك الهروب له انعكاسات جد ضارة على هؤلاء الهاربين الذين كوّنوا اعتقادا أنه بتخلصهم من ضغط السلطة الأسرية سيتحررون من كل متاعبهم إلا أن الشارع يصدمهم بما هو أشد بدليل أن الكثير ممن هربوا كانوا عرضة لمختلف أنواع الانتهاكات والاعتداءات(دعارة، سرقة وانحرافات مختلفة...).

أما بخصوص الجزء الثاني من تفسير الهروب والمتعلق بالاتصالات الأسرية، فان علماء النفس الاجتماعيين يتفقون على أن الاضطرابات والانحرافات السلوكية هي نتيجة صعوبات في الاتصال أو نتيجة لاتصال خاطئ ومضطرب؛ الأمر الذي يعوق من إمكانيات الفهم والاستيعاب وهذا ما يعرف بباتولوجيا الاتصال بالمفهوم الواسع.

كما أن الاتصال يعد من بين الحاجات النفسية والاجتماعية الأساسية التي لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها، فمن خلاله يشعر الفرد بالانتماء واطمئنان والاستقرار النفسي والتقدير الذاتي والاجتماعي.

ويعتمد الاتصال في الأساس على مهارتي التحدث والاستماع حيث أن استراتيجية الاستماع تتمثل في أن يفهم المستقبل ما يتلقاه من المرسل، وأن مهارة التحدث قائمة على تبادل الأدوار بداية من رغبة الفرد في التحدث ووصولا إلى عملية الفهم المتبادل الذي يعد هدف التواصل.(الريماوي عودة، 1998).

وإذا كان الاتصال بطبيعته هادفا وقصديا، فانه يقوم كذلك على شكلين أساسيين هما الاتصال اللفظي والاتصال غير اللفظي:

أ.الاتصال اللفظي:

إن لغة الألفاظ هي الأداة الرئيسية لتحقيق التواصل بين الأفراد والمساهمة في تحقيق أدق عمليات التفاعل بين الأنا والآخر وفي تنمية السلوك الاجتماعي سواء من حيث اندماج الفرد في الآخرين وفي زيادة شعوره باستقلاله عنهم.(مجدي عبد الله ،2003).

وأن اللغة هي من بين عوامل التماسك والتضامن والتكامل في المجتمع وذلك إذا عرف المجتمع كيف يستخدمها بالطريقة التي تخدم ذلك الهدف.

ب. الاتصال غير اللفظي:

يقصد به كل عملية تبادل بدون اللجوء للغة الألفاظ كأداة اتصالية. ومن هنا يمكن للفرد أن يتصل بغيره باستخدام لغة الجسم أو ما يرادف ذلك.ويمكن تلخيص ذلك في لغة الإشارات، لغة الحركات والأفعال ولغة الأشياء.(نصر الله عمر، 2001).

يفهم من هذا أن الاتصال مهما كان شكله يكون مستمرا ويتم بطريقة دائرية مبنية على التركيز والانتباه والاهتمام لما يقال ولما يلاحظ.

ويبدأ التعلم والاتصال في التربية الأسرية التي تعمل فيها الأسرة على تنشئة الأبناء عبر عملية الاتصال الأولي التي تحدث داخل الأسرة بين الوالدين والأبناء(ثم الاتصال المنظم بين الجماعات الثانوية)، الا أن الكثير من الأبناء، حسب عمر نصر الله(2001)يعيشون مع والديهم، وبالرغم من ذلك ينقصهم الحنان والمحبة في غياب الاتصال الفعّال والتواصل الناجح فيما بينهم، فيشعر الأبناء بأنهم غير محبوبين وهذا ما يؤثر سلبا في معظم الحالات على علاقاتهم واتصالاتهم مع الآخرين فيما بعد.ومن ثمة، فان الاتصال يساهم في تحقيق الاتزان داخل الأسرة على اعتباره عملية تفاعلية تتضمن التأثر والتأثير وكذا التقارب بين أعضاء النسق الأسري مولدا التماسك فيما بينهم ومؤديا إلى خفض التوترات النفسية.

وكان ستيرلن(Stierlin,1973) قد قدّم نموذجية مميزّة لطبيعة الاتصالات والتفاعلات العائلية المساهمة في هروب الأبناء ،وخلّص إلى وجود ثلاثة أنماط من القوى البنيوية في تفاعلات ما بين الأبناء وأوليائهم:

–تفاعل من نوع موحّد:هذا النوع من التفاعل يتميّز بالمرونة ويعمل على ربط العائلة وتوحيدها، ومعنى ذلك أن الابن قد يفكّر في الهروب إلا أن تجسيده لهذا السلوك يكون صعبا بحكم هذه الروابط السرية المتينة، ويسمى بالهروب المجهض.

–تفاعل من نوع نابذ:هذا النوع من التفاعل يفّرق أعضاء العائلة فيما بينهم، حيث تطبع تفاعلات الوالدين والأبناء بالإهمال والعدوانية أحيانا وبارتباط ضعيف يجمع الأولياء بالأبناء الذين في غياب التعلق بالوالدين يميلون أكثر نحو الارتباط بالأصدقاء.هذا النوع من الهروب شائع ويعرف بالهروب في حالة أزمة.

–تفاعل تناوبي:يتميز هذا النوع من التفاعل بالتذبذب على مستوى الاتصالات الأسرية، حيث أنه يجمع بين الاتصال الموحّد والاتصال النابذ؛ فبعيش الأبناء تناقضات وصراعات خطيرة تجعلهم في وضعيات هشّة.

والمؤكد أن ستيرلن اعتمد في تفسيره لهروب الأبناء من البيت العائلي على العلاقة التفاعلية التي تربط الهاربين بأوليائهم:فإذا شعر المراهق بمحبة وعطف الوالدين فانه لا يلجأ إلى الأقران طلبا للحب والتقدير.أما إذا قدم الوالدان عطفا لا يشعر به المراهق أو زوداه بحنان خانق ،فانه ينفر منه ويبحث في أطر خارج أسرته عن مشاعر يحقق من خلالها الرضا والتقدير.وهذا ما يؤكد بدوره قيمة الاتصال بين الوالدين والأبناء وأهميته في تطوير السلوك السوّي].ومن ثمة،فان النسق الأسري (الوالدان والأبناء) يخضع حتما لعمليات تفاعلية متنوعة أشد

ما تظهر في علاقاتها واتصالاتها بين أفرادها،وبقدر ما تكون الرسائل الاتصالية دافئة وواضحة بقدر ما ترسل إلى هؤلاء الأبناء معاني المحبة والاحترام وتمدّهم بالصلة وبالتعلق،وهذا ما يؤثر بالإيجاب ليس فقط على المستوى العلائقي الأسري إنما يمتد ليشمل علاقات طيّبة مع الأنساق الأخرى(المدرسة،الزملاء...)

الخاتمــة:

وما يمكن قولبته من خلال هذا التحليل الذي أخذ بعين الاعتبار مشكلة هروب الأبناء من البيت العائلي في ظل التغير الاجتماعي وما يصاحب ذلك من تحولات على مستوى الأسرة التي تعتبر مثلها مثل أي ظاهرة اجتماعية داخل المجتمع تكون متغيرة لا تثبت على حال واحد، وبالتالي فان ذلك ينعكس على الأنماط التربوية التي تقدمها لأبنائها الذين هم بحاجة إلى تلبية متطلباتهم الجديدة.

مع العلم أن عملية التّغير الاجتماعي تعد حتمية ضرورية لتطور المجتمعات، إلا أنّها قد تعاش بصفة أخرى تتمثل في حالات الاضطراب والفوضى، بحيث أن الاضطرابات الاجتماعية والأزمات التي تعيشها المجتمعات أدت بدرجات متفاوتة إلى هروب الأبناء من منازلهم العائلية بسبب سهولة تنفيذها دون أن يجد الطفل المراقبة الكافية، إذ أن هذه العوامل تؤثر على الرقابة العائلية التي ترتخي بل وقد تنعدم في بعض الأحيان.

وتجدر الإشارة إلى أن زيادة أعداد السكان بالإضافة إلى ما تفرزه من متطلبات جديدة يستلزم تطبيقها لحاجيات التربية وتفتح الشخصية بالنسبة للأطفال والمراهقين الذين– في غياب ذلك– قد ينغمسون في ممارسات انحرافية تبدأ غالبا بالهروب من البيت العائلي.

ففي هذا السياق، لا يمكن النّظر إلى مشكلة الهروب من البيت العائلي بمنأى عن افرازات التّغير وعن تأثيرات ذلك على الأفراد والمجتمعات على حد السواء، على اعتبار أن الجمود نفسه في أية ناحية من نواحي الحياة الإنسانية أمر لا يمكن التسليم به أو الموافقة عليه.

ومن ثمة، فانه يمكن استخلاص أن الهروب من البيت العائلي غالبا ما يعود إلى أسباب مجتمعية (اقتصادية، تعليمية...)، أسرية (التفكك، كثرة عدد الأبناء...) وأسباب خاصة بالهاربين أنفسهم مثل الميل إلى الحرية والفرار من الضغوط والأوامر الأسرية وصعوبة التّكيف مع الظروف الأسرية غير الملائمة، إضافة إلى كون الشارع قد يكون عنصر جذب بما فيه من خبرات جديدة ومغامرات تستهوي الأطفال والمراهقين.

قائمة المراجع المعتمدة:

المراجع باللغة العربية:

1.الريماوي محمد عودة(1998) علم نفس الطفل، ط1، دار الشروق.

2.المجلس العربي للطفولة والتنمية (2000)أطفال الشوارع، ط1، منشورات المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة.

3.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، المديرية العامة للأمن الوطني، إحصائيات خاصة بقسم حماية الأحداث(2004).

4.مجدي عبد الله(2003)الاضطرابات النفسية للأطفال، دار المعرفة الجامعية.
5.سامية محمد جابر (2001) سوسيولوجيا الانحراف، دار المعرفة الجامعية.
6.علاء الدين كفافي(1999)الإرشاد والعلاج النفسي الأسري، المنظور النسقي الاتصالي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة.
7.هدى محمد قناوي (1996) سيكولوجية المراهقة، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية.
8.نصر الله عمر (2001)مبادئ الاتصال التربوي والإنساني، ط1، دار وائل للطباعة والنشر، عمان.
10.موسى أبو حوسة(2001)دراسات في علم الاجتماع الأسري، منشورات عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، عمان.
11.حسين فيصل الغزي(1976)علم نفس الطفولة والمراهقة، دار المعارف، مصر.

المراجع باللغة الأجنبية:

12. Ajuriaguerra.J (1974) Manuel de psychiatrie de l'enfant, 2e édition.

13.Boutefouchet, M (1978) Système social et changement social en Algérie, OPU, Alger.

14.Brennan, T (1978) The social Psychology of Runaways, Toronto Lexington ,Canada .

15. Denoff .M(1991)Irrational beliefs ,situational attributions,and the coping responses of adolescents runaways.Journal of Rational –Emotive & cognitive-behavioral therapy.Vol.9,No.2,pp113-135.

16.Douville, O (1994) Errer à l'adolescence ? Adolescence en crise et champ social. sauv Enf, No2, p149-157.

17. Homer,L (1973)Community – based resource for runaway girls.Social case work,Vol.54,pp 473-479.

18.Justice .B, & Duncan D.F (1976) Running Away: An epidemic problem of adolescence. Adolescence, Vol.XI, No.43.pp365-371.

19.Khaled, N (1986) Changement social et inadaptation de l'enfant. Revue algérienne de psychologie et sciences d'éducation .No spécial.

20. Lord .P (1984) La fugue du foyer famillial à l'adolescence.
Bibliothèque Nationale du Québec, Canada.

21.Marcelli,D&Braconnier, A (1980) Psychopathologie de l'adolescent .2éme édition, Paris, Masson.

. Service d'information et documentation sur le Tiers monde 22
(1996) Les enfants des rues ,Dossier d'information de Infomundi.

23.Steirlin, H (1973).Family perspective on adolescent runways. Mental Health Digest, Vol 5, Vo10, pp 1- 14.

أثر الإعجاز البياني
في ظاهرة الإعجاز العلمي

جمالية الدلالة الإيحائية في معنى العطف
"الفاء" و"ثُمَّ" في آيات خلق الإنسان نموذجاً

د. **حسام "محمد عزمي" العفوري**
جامعة البلقاء التطبيقية كلية أصول الدين

ملخص الدراسة

يتحدث هذا البحث عن طرائق الائتلاف والاختلاف في تناوب أو مغايرة معنى العطف في المقطعين الصوتيين "الفاء" و"ثُمَّ" في آيات خلق الإنسان وتصويرها للأحداث، وتشكيل أبعادها الزمانية من ناحية العمليات المتتابعة في نمو الجنين، والحالات الانتقالية من حالة إلى حالة، حيثُ إنها تختزل الحدث والمعنى، وتنسيق مكوناتها.

اختصت الدراسة بمشاهد العمليات، والحالات في الصورة الخلقية التي يعايشها الإنسان، كمشهد تخلق الجنين من النطفة إلى أن يخرج طفلاً، ومشهد الموت والحياة، وغيرها من الآيات التي تُعنى بالخلق، وكيفية استخدام معنى العطف لـ (ثُمَّ) و(الفاء) في السياق، وماذا أفادت في الخطاب. وهدفها تحقيق وإثبات عدة فرضيات:

الأولى: العلاقة بين مشهد نمو الجنين وأسلوب التعبير عنه بمعنى من **معاني العطف في (الفاء)** و(ثُمَّ).

الثانية: كيفية دلالات التخلق لبيان توجيه الصورة الحركية لعمليات نمو الجنين.

الثالثة: الأثر الفني والدلالي لتعدد السياقات في حركة تبادلية بين معاني العطف في(الفاء) و(ثُمَّ)، وتنوع الصورة في بيان روعة الإعجاز البياني مبيناً كيفية الإعجاز العلمي.

لعل الناظر إلى علاقة "ثم" بـ"الفاء"، سيجدها في جمالية الدلالة الإيحائية إما في تناوب المقطعين الصوتيين أو ترادفهما، حيثُ اختزال مدة الحدث والمعنى في سياقات مختلفة في الآيات موضع التناول، وبيان روعة الإعجاز البياني وارتباطه بالإعجاز العلمي، وفي حديثنا عن تناوب[i] "ثم" و"الفاء"، يرد سؤال طالما بحث فيه العلماء الأوائل والمحدثون، ألا وهو الترادف[ii] وثَمَّ من عارضه ورفضه جملة وتفصيلاً؟ وهل تناوب العطف يعني الترادف أم شيء آخر؟ أم أنّ جمالية موقع المقطع الصوتي في سياق معين يتطلب التناوب على سبيل

إظهار الدقة في الدلالة؟. وهل يكتمل الحدث والمعنى بوجود العطف المعني في سياق محدد؟ كل هذه الأسئلة ستبحثُ حتى نستطيع قبولها أو ردها.

وإذا أنعمنا النظر في معنى "ثُمَّ" العاطفة في سياق قوله تعالى: (اللهُ الّذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، هل من شُركائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شيءٍ، سُبْحنه وتعلى عمّا يُشركون(40))[iii] سيُنْظَرُ إليه، للوهلة الأولى، على أنه تابع يتوسط بينه وبين متبوعهِ، وسنجد من معانيه أنه عطف، يفيد التشريك في الحكم، والترتيب والتراخي، وأيضاً الفصل بين الحالات المختلفة، فطبيعة الحالة خلقكم تختلف عن طبيعة الحالة رزقكم، وطبيعة الحالة يميتكم تختلف عن طبيعة الحالة يحييكم، ومثل ذلك في قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لأدَمَ فَسَجَدُوا إلآ إبليسَ لمْ يكنْ مِنَ السجدينَ (11))[iv]فقيل التقدير خلقنا أباكم ثم صورنا أباكم؛ فحذف المضاف منهما.[v]ومن المعاني أنّ (ثُمَّ) للتشريك في الحكم، والترتيب والتراخي، وقد يطلق على التراخي المهلة أو عدم التعقيب. وقال ابن جني: ومعنى (ثُمَّ) المهلة والتراخي تقولُ: قامَ زيدٌ ثُمَّ عَمْرو أي: بينهما مهلة. وشرح ابن الخباز هذا الكلام بقوله: وأما (ثُمَّ) فمعناها المهلة والتراخي فإذا قلت: مررت بزيدٍ ثُمَّ عمْروٍ فهذان مرورانِ بينهما فاصل؛ إذن الحالات منفصلة، والعمليات متصلة.

وحينما سأل ابن الخباز شيخه[vi]عن (ثُمَّ) في آخر سورة البلد: (ثُمَّ كانَ من الّذين ءامَنواْ وتواصوا بالصبرِ وتواصوا بالمرحمة)[vii]. أين المهلة؟ وقد علم أنه إذا أطعمَ اليتيمَ وفكَّ الرّقبةَ كانَ مِنَ الّذين ءامَنواْ، فقال: (ثُمَّ) إذا دخلت على الجمل لا تفيد الترتيب. والمهلة تكون في كل شيء بحسبه نحو[viii]: نمتُ ثُمَّ قمتُ نشيطاً، وفي اللسان[ix]: حرف(صوت) عطف يدل على الترتيب والتراخي. وثُمَّ وثُمَّتَ وثُمّتْ، كلها حروف نسق. والليث يقول: ثُمَّ حرف(صوت) من حروف (أصوات) النسق لا يُشرِّك ما بعدها بما قبلها إلا أنها تبين الآخر من الأوّل، وأما قوله: (خَلَقَكُمْ مِنْ نفْسٍ واحدةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوجَها وأنزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَمِ ثَمَنِيةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ في بطون أُمَّهَتِكُمْ خَلْقاً مّن بعْدِ خَلْقٍ في ظُلُمتٍ ثَلَثٍ ذلكُمُ اللهُ ربُّكُمْ لهُ المُلْكُ لآ إلهَ إلا هُوِ فأنّى تُصْرَفُونَ(6))[x] والزوج مخلوق قبل الولد، فالمعنى أن يُجعل خلقه الزوجَ مردوداً على واحدةٍ، المعنى خلقها واحدة ثُمَّ جعل منها زوجها، ونحو ذلك قال الزجاج، قال: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَّفْسٍ واحدةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوجَها) أي خلق منها زوجها قبلكم؛ قال: وثُمَّ لا تكون في العطوف إلا لشيء بعد شيء، والعرب تزيد في ثُمَّ تاءً تقول فعلت كذا وكذا ثُمَّت فعلت كذا؛ وقال الشاعر:

ولقد أمرُّ على اللئيمِ يَسبُني فمضيتُ ثُمَّتَ قلت: لا يَعْنيني[xi]

وقال الشاعر:

ثُمَّتَ ينباعُ انبياعَ الشجاعْ[xii]

وحينما نفرق بين ثُمَّ وثَمَّ، بفتح الثاء، يقول اللسان: ثَمَّ إشارة إلى المكان؛ قال الله عزّ وجل: (وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نّعيماً ومُلْكَاً كبيراً)[xiii]؛ وأما قوله تعالى: (ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تُولوا فثَمَّ وجه الله إنّ الله واسعٌ عليمٌ)[xiv]. قال الزجاج: ثَمَّ موضعه موضعُ نصب، ولكنّه مبني على الفتح لالتقاء الساكنين. وثَمَّ في المكان: إشارة إلى مكان منزاحٍ عنك، وإنما منعت ثَمَّ الإعراب لإبهامها، قال: ولا أعلم أحداً شرح ثَمَّ بهذا الشرح، وأما هنا فهو إشارة إلى القريب منك. وثَمَّ: بمعنى هناك وهو للتبعيد بمنزلة هناك زيد، وهو المكان البعيد منك، ومنعت

الإعراب لإبهامها وبقيت على الفتح لالتقاء الساكنين. وثَمّتَ أيضاً: بمعنى ثَمَّ. أي أنها ظرف مكان مبني على الفتح في محل نصب.

وإذا أنعمنا النظر في علاقة "ثُمَّ" بـ "الفاء" نجده في جمالية الدلالة الإيحائية في معنى التناوب أو التحريف، وهذا التناوب ليس بمعنى الترادف بين "ثُمَّ" و"الفاء"، وإنما جمالية موقع الصوت في سياق معين تطلب التناوب على سبيل إظهار الدقة في الدلالة، وفُمَّ: لغة في (ثُمَّ)، وقيل: فاء (فُمَّ) بدل من ثاء (ثُمَّ). ويقال رأيت عَمْراً فُمَّ زيداً وثُمَّ زيداً بمعنى واحد. قال الفراء (فُمَّ) و(ثُمَّ) من حروف (أصوات) النسق. وقد تكون لغة وليس صوتاً. حيثُ ذكر في الخصائص أيضاً في "باب في الحرفين(الصوتين) المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه"[xv] أنّ (ثُمَّ) تنطق (فُمَّ) بالفاء بدلاً من الثاء، وقالوا: قام زيد فُمَّ عمرو؛ كقولك: ثُمَّ عمرو. وإنْ كان بدلاً فإنه من التحريف.[xvi] وإذا ما كان البدل قائماً بزيادة حرف الميم المشدد في(فُمَّ) فإنها تؤدي إلى المهلة، والترتيب، والتراخي، والتشريك في الحكم، فإنها قد تأخذ جانباً في الدلالة الإيحائية من معنى الفاء بالترتيب دون مهلة.

ومثال إفادة (الفاء) للترتيب والتعقيب، و(ثُمَّ) للترتيب والمهلة قوله تعالى: (قُتل الإنسنُ مآ أكفره(17) من أي شيءٍ خلقه (18) من نطفة خلقه فقدره (19) ثُم السبيل يسره (20) ثم أماته فأقبره (21) ثم إذا شاء أنشره (22))[xvii]، فعطف الإقبار على الإماتة بالفاء –وكأن الموت سبب في الإقبار–، والإنشار على الإقبار بـ ثم، لأن الإقبار يعقب الإماتة، والإنشار يتراخى عن ذلك.[xviii] نلحظ في معنى الفاء أنّ الموت والإقبار عمليتان متتابعات في حالة واحدة، والإنشار حالة مستقلة ومختلفة عن الموت والإقبار.

يقول ابن جني في معنى الفاء: "ومعنى الفاءِ التفرُّقُ مع مواصلةٍ، أي: الثاني يتبعُ الأولَ بلا مهلةٍ تقول: قامَ زيدٌ فعمْرو أي: يليَهُ لم يتأخرْ عنه.[xix] ويعلق عليها ابن الخباز بقوله: " وأما الفاءُ (فمعناها التفرُّقُ على مواصلةٍ) وهذا تفسير حسنٌ، فمعنى التفرق أن كل واحد من المعطوف والمعطوف عليه منفرد. ومعنى المواصلة: أن الثاني بعد الأول بلا مهلة، فإذا قلت: مررتُ بزيدٍ فعمروٍ، فهذا يسميه سيبويه مُرُورين، "ومن ذلك قولك: مررت بزيدٍ فعمروٍ، ومررتُ برجلٍ فامرأة، فالمرور هنا مروران، وإذا قلت: مررتُ بزيد وعمروٍ فهذا يسميه مروراً. فإن قلت: فما تصنع بقولهم: (دخلتُ البصرة فالكوفة) وبين المدينتين مسافة طويلة؟ قلت: معناه: أن المتكلم بعد دخوله البصرة لم يشتغل بشيءٍ غير الدخول إلى الكوفة[xx]؛ أي أراد أن يسلط الضوءْ على حدث الدخول بالترتيب، وليس حدث السفر حيثُ المسافة الطويلة بين المدينتين مع التراخي؛ لذلك استخدم (الفاء) كي تنوب عن (ثم) لوقعها الجمالي ودقتها في هذا السياق. وبهذا قد توضع ثُمَّ موضع الفاء،[xxi] كقول أبي دُؤاد ابن الحجّاج:

كهز الرُّدينيِّ تحت العجاج جَرَى في الأنابيب ثُمَّ اضطربْ

وقد تقع ثُمَّ موقع الفاء في إفادة الترتيب بلا مهلةٍ نحو: دخلتُ ثُمَّ حييتُ الحضورَ ثُمَّ جلستُ. وفي (ثُمَّ) يأتي معناها الترتيب مع عدم التعقيب(أي: الترتيب مع التراخي)؛ وهو: انقضاء مدة زمنية طويلة بين وقوع المعنى على المعطوف عليه ووقوعه على المعطوف، وتقدير المدة الزمنية الطويلة متروك للعرف الشائع؛ إذ لا يمكن تحديد الوقت القصير أو الطويل تحديداً عاماً يشملُ كل الحالات. فقد يكون الوقت قصيراً في حالة معينة، ولكنه يُعَدُّ طويلاً في أخرى.[xxii]نستشف من كلام عباس حسن معانيَ أخرى لـ(ثُمَّ) وخصوصاً في المدة الزمنية

التي تستغرق للوصول من المعطوف إلى المعطوف عليه. ومن المعاني أيضاً أنها تكون بمعنى (الفاء) أحياناً فتفيد الترتيب مع التعقيب بقرينة؛ نحو[xxiii]: شرب العاطش ثُمَّ ارتوى، وإذا أنعمنا النظر فيها نجد ما بين شرب العاطش والارتواء مدة قصيرة من لحظة حدوث الشرب إلى نهاية الشرب، ولو قلنا: شرب العاطش فارتوى، لأفادت الشرب والارتواء معاً ولم تعط المعنى اللازم في إنشاء الصورة الحركية المتتابعة في الشرب، فتكون النتيجة هي الارتواء، أو أنّ العاطش في لحظة الشرب ارتوى ولم يُمهل حتى يدخل الماء في جوفه ثُمَّ يرتوي، ولذلك نستطع القول بأنّ (ثُمَّ) لم تأتِ بمعنى (الفاء)؛ لأن وجودهما في مكانهما هو الذي يعطي المعنى الدقيق والبليغ في السياق بعيداً عن الانطباع والذوق العام.

وإذا ما قرأنا المثال: (دخلتُ ثُمَّ حييتُ الحضورَ ثُمَّ جلستُ) قراءة دلالية إيحائية نجد أن معنى التحية هنا لم تشترك مع وقت الدخول، وكأنّ التحية سبب في الدخول وهي متلازمة في الحركة والصوت. ففي(ثُمَّ) الأولى نجد المدة الزمنية قد استغرقت فترة قصيرة تفيد التشريك بين حركتي (دخلتُ وحييتُ الحضورَ)، وهذه الحركة (حركة الدخول) من طبيعتها أن تشترك في أمر آخر، إما النطق بالتحية أو حركة ما توحي إليه بالتحية، كما أن المدة الزمنية المستغرقة في (ثُمَّ) الثانية هي المساحة التي تم المشي فيها من وقت الدخول إلى وقت الجلوس، حيثُ تساوي المسافة الزمنية التي استغرقها المشي، أما الشاهد:

(كهز الرُّدينيِّ تحت العجاج جَرَى في الأنابيب ثُمَّ اضطربْ)

فالمعروف أنّ اضطراب الرمح المهتز لا يحتاج إلى مهلة وقد استخدم الشاعر (ثُمَّ) لتدل على حدوث الفعل دون مهلة مع أن أصل وضعها عكس ذلك؛ يعني للمهلة والتراخي، حتى إننا نجد فيه أن الحركة في هذه الصورة قد توالت منذ لحظة اهتزاز الرمح المنسوب إلى الردينية، وانبعاث الغبار وتواصلها مع حركة الجري حتى إذا رمي اهتز، وهذه الحالة الأولى، وبعد أن سار قليلاً في الهواء حدث الاضطراب، وهذه الحالة الثانية، حيثُ تتابع الاضطرابُ بعد زمن من الاهتزاز فظن المستمع أن الشاعر أراد ذكر الحدثين وأنهما جاءا معاً وأن لا مهلة بينهما فاستخدم (ثُمَّ) بدلاً من (الفاء)، مع أنّ الشاعر كان واعياً في وضع(ثُمَّ) هذا الموضع دون(الفاء).

أثر علم الدلالة بمعنى العطف في (ثُمَّ) و (الفاء) في السياق القرآني

نلحظ فيما سبق أن المدة الزمنية المستغرقة في نطق أصوات (ثُمَّ) و(الفاء) تؤديان إلى تغير في الدلالة الإيحائية للمعنى في الجملة الواحدة.

ولقد اخترت مصطلح الدلالة الإيحائية مصاحباً للإعجاز القرآني من أجل إيجاد أثر الدلالة بمعنى العطف (ثُمَّ) و(الفاء) في الآيات القرآنية الخاصة بهذه المسألة؛ ولذلك حاولت ربط بعض العلاقات بين الكلمات (مفردات الآية) والآيات من ناحية، وبين الصور الحركية من ناحية أخرى.

يقول أحمد مختار عن علم الدلالة: هو "التركيب الموحد الذي تُعنى به الكلمة المكونة من مورفيم حر بالإضافة إلى مورفيم متصل أو أكثر، أو المكونة من مورفيمين متصلين أو أكثر. وقد عرف (Nida) التركيب الموحد بأنه ما يتكون من اثنين أو أكثر من الصيغ الحرة، أو ما يتكون من مجموعة كلمات يتصرف تجمّعها ككل بطريقة مختلفة عن الطبقة الدلالية للكلمة الرئيسية"[xxiv].

و"يعرفه بعضهم بأنه(دراسة المعنى) أو (العلم الذي يدرس المعنى) أو (ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى)"[xxv] . ولقد أضفنا على الدلالة كلمة (الإيحائية) لتضيف إليها جمالية جديدة في المعنى الداخلي والخارجي لصوتي العطف (ثُمَّ) و(الفاء). والمعنى الإيحائي يعمل على استنباط الدلالة الكامنة في المفردة اللغوية لما تؤديه هذه الأخيرة من وظائف صوتية مختلفة، بحيث يستشف قدرتها على الإيحاء بناءً على ما تتميز به من شفافية في درجات النبر والتنغيم والوصل والفصل والطول والقصر.

ونجد أن تأثيرات هذا المعنى مرتبطة ببعض المستويات اللغوية، وقد حصرها أولمان في ثلاث مستويات[xxvi]:

أ . التأثير الصوتي: وينقسم إلى قسمين:

1. تأثير مباشر: وهو ما تدل به الكلمة على بعض الأصوات أو الضجيج

الذي يحاكيه التركيب الصوتي للاسم مثل صليل السيوف ومواء القط وخرير الماء.

2. تأثير غير مباشر: مثل القيمة الرمزية للكسرة التي ترتبط في أذهان الناس بالصغر أو بالأشياء الصغيرة.

ب . التأثير الصرفي: وهو خاص بالكلمات المركبة مثل الكلمات المنحوتة(بحتر) من بتر وحتر، أو غيرها.

ج . التأثير الدلالي: وهو ما يتعلق بالمعنى المجازي للكلمة وهو غالباً ما يترك فيه المعنى الأكثر شيوعاً أثره الإيحائي على المعنى الآخر، ويصبح بمجازيته متداولاً أكثر من غيره.

إن الدلالة الإيحائية لمعنى (ثُمَّ) و(الفاء) في السياق القرآني له موقعه الدقيق في المعنى، فوجود (ثُمَّ) العاطفة في الآية الكريمة (اللهُ الّذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، هل من شُركائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ، مِنْ شيءٍ سُبْحنه وتعلى عمّا يُشركون). ستجد في أصواتها اختلاف الدلالة الإيحائية في معنى المدة الزمنية، والمعنى السياقي المقامي في وجودها بين الحالات، ففي (ثُمَّ) التي بين الحالتين (خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ) تجد أنها تفيد الترتيب الزمني في حالة الخلق ثم كانت حالة الرزق مع أنهما مقترنات معاً في طبيعة النمو الجسدي والرزق المادي على مدى العمر، من لحظة الإخصاب إلى لحظة الموت، والمعنى الفعلي لصوت (ثُمَّ) يبدأ بلا مهلة وينتهي بمهلة مع التشريك في الحكم مع التعقيب بقرينة، ولم تأتِ بمعنى (الفاء)؛ لأن الخلق والرزق حالتان مختلفتان وليس عمليتين متتاليتين، ولو جاءت بمعنى (الفاء) لجاء الرزق مع الخلق وانتهى. والذي يجعلنا نتبع هذا الرأي هو أن الرزق مقرون بخلق الإنسان؛ لأن المدة الزمنية المستغرقة في الخلق والرزق فيها معنى التلازم، حيثُ إنها جاءت على سبيل الترتيب الكيفي وليس الترتيب الكمي. أما في كلمتي (خَلَقَكُمْ) و(رَزَقَكُمْ)، فنجد أنّ الدلالة الإيحائية تعني الزمن الماضي؛ أي حدث مرة واحدة ولم يتكرر الخلق ولا الرزق مرة أخرى، فخلق الإنسان تم بقدر الله تعالى، وفي هذه الأثناء جاء الرزق مسايراً للتخلق والنمو؛ فالرزق كتب للإنسان منذ خلقه، ومن ثم نزل منجماً حسب عدد الساعات والأيام والسنين، وإذا شئت أن تبحث عن دليل مفصلٍ، فستجده في قوله تعالى: (وَلَقدْ خلقنا الإنسنَ من سُللةٍ من طين (12) ثُمَّ جعلنـهُ نطفةً في قرارٍ مكين (13) ثُمَّ خلقنا

النطفةَ علقةً فخلقنا العلقةَ مُضغةً فخلقنا المضغةَ عظماً فكسونا العظم لحماً ثُمَّ أنشأنهُ خلقاً ءآخرَ، فتبارك اللهُ أحسنُ الخلقين(14) ثُمَّ إنكم بعد ذلك لميتون(15) ثُمَّ إنكم يومَ القيمة تبعثون(16))[xxvii] وفي هذه الآيات تجد حركية الدلالة الإيحائية في وضعية (الفاء) و(ثُمَّ) في وضعية خاصة تنم عن دقة في الدلالة بشكل لافت للانتباه مما يجعل الحياة بشكليها التخلق والرزق حركة تبادلية فيها الأخذ والعطاء، حيثُ تجد الرزق سبباً في حركة التخلق ومرة تجد التخلق سبباً في وجود حركة الرزق، وهذه الحركات متتابعة ومتلازمة من لحظة الخلق والتخلق؛ أي من لحظة خلق الإنسان من طين إلى بعثه يوم الدين.

إنّ فترة حياة البويضة ساعات قليلة أو يوم على أبعد تقدير، فإذا لم تلتق بالحيوان المنوي، تتفطر ثم تدمى فتسقط على شكل دماء (حيض).

إنّ المدة الزمنية التي تستغرقها رحلة دخول الحيوان المنوي إلى البوق تستمر من ثلاثة إلى أربعة أيام ويكون هذا عمره، وإذا لم يتم التلقيح مات بعد أيام، أما إذا تم التلقيح فتضرب البويضة على محيطها الخارجي جداراً يمنع دخول النطف الأخرى، فيبدأ انقسام الخلية الجديدة وهي البيضة الملقحة بشكل سلسلة هندسية، 2، 4، 8، 16، 32، 64، 128، 256، 512، وهكذا حتى تنتج عدداً ضخماً من الخلايا مع عدم زيادة حجم البيضة الأصلية؛ أي أن الذي يحصل تقسم البيضة فقط، وأثناء ذلك تسير البيضة في نفق البوق، وتستمر الرحلة قرابة عشرة أيام، وما أن تصل جدار الرحم حتى يصبح شكلها من كثرة ازدحامها بالخلايا مثل حبة التوت، وهذه البيضة (النطفة) تعلق بجدار الرحم بعدما تمد أرجلاً مثل أرجل الأخطبوط، وتقوم بقضم محتويات الجدار مع العروق الدموية فينسكب الدم الغزير بشكل برك تحيط بهذه البيضة التي يصبح اسمها (علقة)، حيثُ تقوم هذه الأرجل بامتصاص الغذاء من الدم وكل ما يلزم لتخلق الجنين من الماء،والأملاح المعدنية، والفيتامينات، والسكريات، والدسم، والمواد الغذائية من فواكه وخضراوات ومآكل طيبة، ووجبات كثيرة تقدم له من كل مكان داخل الرحم، وخلال عملية التخلق يصبح اسمها (مضغة) وتظهر ميزابة في وسط المضغة وهي التي ستكون في المستقبل الدماغ والنخاع الشوكي كما تظهر بجانبها قطع عرفت بالقطع البدنية، ومن هذه القطع تتولد الفقرات وامتدادها العظمي، وهي عظام الأطراف، وبعد ذلك تأتي عملية كسو العظام بالعضلات (اللحم) التي هي امتداد طبيعي للعظام لتكون عضلات كل الجسم ثُمَّ يكون خلقاً آخر[xxviii]. وإن ما نلحظه من الدلالة الإيحائية في معنى (ثُمَّ) في مفردات الآية الكريمة: (ثُمَّ خلقنا النطفةَ علقةً) أنّ المدة الزمنية ما بين تخلق النطفة حتى تصبح علقة عشرة أيام، وهي فترة طويلة؛ لذلك كان من المناسب لوجود (ثُمَّ) في السياق للدلالة على معنى طول المدة الزمنية، وهي الفاصلة بين جعل النطفة في قرارٍ مكين وبين خلق النطفة وجعلها علقة، أما ما جاء في المفردات (فخلقنا العلقةَ مُضغةً) فالفاء لها دلالة إيحائية أخرى، وهي سرعة التحول من صفة إلى صفة بعلية متتابعة، حيثُ إنّ العلقة تكون على شكل حبة التوت، وهي ذات الشكل للمضغة فجاءت هنا الفاء للدلالة على الترتيب وسرعة عملية تحولها إلى مضغة؛ لأنها غمست بالدم، والمضغة الحقيقية تغمس بريق الإنسان حين مضغها. وأما ما نجده في الدلالة الإيحائية من صورة علاقة الصوت بما سبقه ولحقه أن المفردات أعطت معنى وصف العمليات في التحولات التي تحدث للجنين خلال التخلق والرزق وتلازم التحولات المتتابعة في التخلق(فخلقنا المضغةَ عظماً فكسونا العظم لحماً) ولماذا يقال إن (الفاء) قد نابت بدلاً عن (ثُمَّ)؟ لأن المضغة،

والعظام، والعضلات، وكل أجهزة الجنين تتخلق في نمو مطرد في الخلايا المختصة بإنشاء كل جهاز من أجهزته، ولكن مرحلة ظهور العظام وكسوها لحما في أسبوع الجنين الحادي عشر، سارت في مُدَدٍ زمنية متعاقبة لا يفصلها سوى التحول الشكلي، أي إن عملية التخلق كلها تمر بتزامن دقيق متلاحق التحولات، فالعظم أساس البناء واللحم مكمل له، كما ينمو الغصن بعوده ولحائه وبرعمه في زمن واحد، وإذا ما أقمنا علاقة نمو العظم مع القراءة القرآنية حيثُ قرأها ابن عامر وشعبة (عَظْمَاً، العَظْمَ) موصولة الأصوات والمقاطع لا يفصلها شيء مما تؤدي إلى معنى عملية النمو المطرد وزيادة حجم الجنين الموصول بعمليات متعاقبة متلازمة وليس بمعنى الحالة، فكانت (الفاء) في هذا المقام أنسب من (ثُمَّ)؛ لأن(ثُمَّ) تأتي بمعنى التراخي ولو كان صورياً في سياق النص، أما الفاء فتأتي بترتيب متعاقب ودون مهلة عادةً، وحتى تأتي الآية (ثُمَّ أنشأنهُ خلقاً ءآخرَ)، التي تبدأ بالأصوات العاطفة (ثُمَّ) بمعناها الحركي المتتابع المتلازم مع عملية التخلق؛ أي أن معظم أجهزة الجنين اكتملت في الخلق بعد مدة زمنية طويلة ومناسبة لحالة نمو الجنين إلى أن يصل الجسم في بدءِ عمل أجهزته مجتمعة من تنفس وتغذية وتصفية وإفراز وإفراغ في لحظة واحدة. وإذا ما قرأنا قول الله تعالى: (يايُّها النَّاسُ إن كنتم في ريبٍ من البعثِ فإنَّا خلقناكم من ترابٍ ثُمَّ من نُطفةٍ ثُمَّ من علَقةٍ ثُمَّ من مضغةٍ مخلقةٍ وغير مخلقةٍ لنبين لكمْ ونُقرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجلٍ مسمىً ثُمَّ نخرجكمْ طفلاً ثُمَّ لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتَوفى ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً وترى الأرضَ هامدةً فإذآ أنزلنا عليها المآء اهتزتْ وربتٍ وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيجٍ (5))[xxix].

وإذا ما أنعمنا النظر في هذه الجملة القرآنية (ثُمَّ نخرجكمْ طفلاً) من الآية السابقة، سنجدها تساوي عمليات التخلق التالية في الآية (14) من سورة المؤمنين: (فخلقنا المضغةَ عظماً فكسونا العظم لحماً ثُمَّ أنشأنهُ خلقاً ءآخرَ).

وفي قوله تعالى:(هو الذي خلقكم من ترابٍ ثُمَّ من نُطفةٍ ثُمَّ من علَقةٍ ثُمَّ يخرجكمْ طفلاً ثُمَّ لتبلغوا أشدكم ثُمَّ لتكونوا شيوخا ومنكم من يُتَوفى من قبل ولتبلغوآ أجلاً مسمىً ولعلكم تعقلون (67) هو الذي يحى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون (68))[xxx]

وإذا أنعمنا النظر في الآية (67) من سورة غافر (ثُمَّ من علَقةٍ ثُمَّ يخرجكمْ طفلاً) سنجدها تساوي عمليات التخلق التالية: (فخلقنا العلقةَ مُضغةً فخلقنا المضغةَ عظماً فكسونا العظم لحما ثُمَّ أنشأنهُ خلقاً ءآخرَ)، ونلحظ أيضاً في هذا المجال أن (ثُمَّ) هنا في السياق لها دلالة إيحائية جاءت بمعنى (الفاءات) في السياق السابق؛ لأنها اقترنت بـ(من) التبعيضية، وهي تأتي بمعنى اللحظة الأولى التي أصبحت فيها العلقة مضغة، وتعني أيضاً صغر العلقة حين تحولها من النطفة التي لم يزد حجمها إلا حينما أصبحت علقة، ومع بداية عملية التخلق. وفي قوله من سورة غافر: (هو الذي خلقكم من ترابٍ ثُمَّ من نُطفةٍ ثُمَّ من علَقةٍ ثُمَّ يخرجكمْ طفلاً ثُمَّ لتبلغوا أشدكم ثُمَّ لتكونوا شيوخا). وقوله تعالى من سورة الحج: (فإنَّا خلقناكم من ترابٍ ثُمَّ من نُطفةٍ ثُمَّ من علَقةٍ ثُمَّ من مضغةٍ مخلقةٍ وغير مخلقةٍ لنبين لكمْ ونُقرُّ ما نشاءُ إلى أجلٍ مسمىً ثُمَّ نخرجكمْ طفلاً ثُمَّ لتبلغوا أشدكم). والشاهد في هذه الآيات الأصوات العاطفة (ثُمَّ) حيثُ إنّ سياق الآية(ثُمَّ من نُطفةٍ ثُمَّ من علَقةٍ) جاء فيها مساحة أكبر في

الحالات من العمليات التابعة للفاء، ومتسق مع السياق البياني والعلمي؛ أي جعلناها تنمو لفترة معينة وهي على هذا الشكل، وليس الانتقال من مسمى إلى مسمى. إذاً فيها عموم الحالة والشكل؛ أي مكتملة التخلق مثلاً في حالة العلقة أو المضغة، وفيها استمرارية التخلق، وهذا يحتاج إلى فترة زمنية أطول حتى تكتمل العملية التخلقية وتمامها لتحولها إلى شكل آخر. وأفادت (ثُمَّ) دلالة التراخي والمهلة في حالات كل شكل من أشكال التخلق حتى تكتمل المدة الزمنية المقرر حدوثها إلى أن تصل إلى مرحلة من المضغة (مخلقةٍ وغير مخلقةٍ) وهنا وصف لكيفية عملية التخلق وحركية الحالة الخاصة بالمضغة. أما في قوله من سورة المؤمنين: (فخلقنا العلقةَ مُضغةً فخلقنا المضغةَ عظماً فكسونا العظم لحما) فنجد في معنى (الفاء) بداية عمليات التشكل من علقة إلى مضغة، ولم تصف حالة؛ وإنما العملية حينما يصبح اسمها مضغة فالفاء أفادت السرعة بلا مهلة وهي متوافقة ومتسقة مع الإعجاز العلمي في حدها الفاصل بين مرحلة ومرحلة في التخلق الإنساني. و(الفاء) هنا وصفت عملية التخلق بمراحلها المتعددة بعرض سريع دون الوقوف على كيفية التخلق. وكأننا نشاهد تنقل (الفاء) عرضاً سينمائياً، وفي تنقل (ثُمَّ) عرضاً فوتوغرافياً، فكانت (الفاء) للعمليات المتتالية، و(ثُمَّ) للحالات المتفرقة والمختلفة.

قال تعالى: (يأيها الناسُ اعبدوا ربّكمُ الّذي خلقكمْ والذين من قبلكم لعلكم تتقون (21) الذي جعل لكمُ الأرض فراشاً والسماء بنآءً وأنزل من السمآءِ ماءً فأخرجَ به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون (22))[xxxi] فـ(الفاء) في هذا السياق قد تأتي بدلالة إيحائية بمعنى (ثُمَّ)؛ ولكن المعنى الدقيق هو أنّ استخدام (الفاء) في هذا المقام أنسب، والصورة هي أن في اللحظة التي وصل فيها الماء إلى الأرض لامس البذور فامتصت البذور شيئاً منه، وبذلك تبدأ عملية الإخراج في هذه اللحظة، حيثُ يخبرنا العليم الخبير بقوله: (وترى الأرضَ هامدةً فإذآ أنزلنا عليها المآءَ اهتزتْ وربتْ وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيجٍ (5))[xxxii]. وفي هذا السياق جاء النمو في عدة مراحل زمنية، حيثُ الاهتزاز في المرحلة الأولى التي يتساقط الماء على الأرض؛ بذلك يكون فيها معنى اهتزت تحركت، وتجوّز به هنا عن إنبات الأرض نباتها بالماء، وأثناء حركة البذور تربو أي تزداد وترتفع من ربا يربو، وبعد ذلك تتم عملية الإنبات، ومن الناحية الدلالية الإيحائية فيها التواصل والتتابع والتلازم في حركة النمو للبذور، وتكون أنبتت من كل زوجٍ بهيج صفة لمفعول به تقديره: وأنبتت أشياء وأصنافاً كائنة من كل صنف، وبهيج صفة لزوج.[xxxiii] والبذرة من لحظة تلامسها بالماء ونموها من خلال امتصاص الماء المكتنز في التربة، تحسب لها المدة الزمنية بالأيام والشهور حتى يستوي الزرع على سوقه، وهذه الثمرات تنمو وتكبر من ماء المطر فقط؛ أي الزراعة البعلية.

قال تعالى: (اللهُ الذي خلقَ السموات والأرضَ وأنزل من السمآءِ ماءً فأخرجَ به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهر (32))[xxxiv] وهذا السياق يعني وجود الأنهار والبحار في بقعة ما، فيعتمد الناس في الزراعة على هذه المياه في سقاية المزروعات، وفي هذا أنواع معينة لا تنبت إلا من سقاية الناس لها، وهي النباتات والأشجار المثمرة التي تعيش في البيئة البحرية أو النهرية، وعدا عن ذلك الأشجار غير المثمرة تكون في البيئة نفسها.

قال تعالى: (أيحسبُ الإنسنُ أن يترك سُدىً(36) ألم يكُ نُطْفَةً من مّنيٍ يُمْنى (37) ثُمَّ كان علقةً فخلقَ فسوى (38) فجعل منهُ الزوجين الذّكر والأنثى (39) أليس ذلك بقدر على أن يحى الموتى (40))[xxxv]

وقد جاءت (ثُمَّ) في هذا السياق بمعنى الترتيب والتراخي من لحظة النطفة إلى أن أصبحت (علقة) وهنا وصف حالة النطفة، وحالة العلقة ثُمَّ وصف عملية التخلق وعملية خروج الإنسان سوياً في حركة متعاقبة ومتلازمة، وقد جاءت (الفاء) أنسب من (ثُمَّ) لعدم انفصال عملية التخلق عن الاستواء في سياق النص القرآني: (فخلقنا العلقةَ مُضغةً فخلقنا المضغةَ عظماً فكسونا العظم لحماً ثُمَّ أنشأنهُ خلقاً ءآخرَ)، ونعتقد أن التناوب لا يأتي مترادفاً أو دون معنى دقيق، أو دلالة إيحائية مستقلة عن سياق الآيات المتشابهة في الموضوع.

ونلحظ في هذا المقام عدم وجود ترادف أو تناوبٍ في أصوات العطف أو غيرها من أصوات الرفع أو النصب أو الجر، فكل له ما يستحق من التميز في الدلالة والمعنى، وهذه الأصوات تعكس المعنى في الألفاظ والجمل وحتى الآيات القرآنية عامة. وقارئ القرآن الدارس له يجد روعة الإعجاز البياني متسقاً مع الإعجاز العلمي من خلال قوله تعالى: (.. وانظر إلى حِمَارِكَ ولِنَجْعَلَكَ ءَايَةً للنّاسِ وانظر إلى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلمَّا تَبَيَّنَ لهُ قال أعلمُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ(259))[xxxvi]. في الشاهد (ثُمَّ نَكْسُوها لَحماً) من سورة البقرة مع الشاهد (فكسونا العظم لحماً) من سورة المؤمنين. فـ (ثُمَّ) جاءت بمعنى العطف، تفيد التشريك في الحكم، والترتيب والتراخي، حيثُ كان بناء اللحم على العظام بعد مدة من (نَشْزِهَا) أي رفع العظام وتركيبها، وفي قراءة أخرى (نُنْشِرُهَا) نبعثها ونعيدها إلى ما كانت عليه من قبل، أي أن الكسو هو تلبيس اللحم على العظام بعد مدة زمنية، وهذه المدة هي التي استغرقها بناء العظام، وقد جاء البناء في سياقه مختلفاً عن النمو المطرد، وعكس هذا الأمر في وجود (الفاء) في عملية التخلق الإنساني داخل الرحم وليس خارجه؛ فاستدعى ذلك استخدام الفاء من أجل تصوير نمو العظام مقترناً بنمو اللحم، وكما قلنا من قبل إنّ العظم أساس البناء واللحم مكمل له، كما تنمو البذرة من اللحظة الأولى ويكبر معها الجذع فالغصن فاللحاء فالبرعم فالأوراق في زمن متلاحق متتابع لا يفصل بينهما فاصل؛ أما في حالة التركيب من نوعٍ إلى نوعٍ آخر فيشق الجذع ثُمَّ يؤتى ببرعمٍ من شجرة أخرى من نفس الفصيلة ويوضع في الشقِ ويربط إلى أن يلتحم ثُمَّ يقطع الجذع القديم ويبقى الجديد وينمو إلى أن يصبح فرعاً ملتصقاً بالجذع لا يفرق بينه وبين الأصل إلا ذو خبرة في هذا المجال؛ فكانت (الفاء) في هذا المقام أنسب من (ثُمَّ)؛ لأنَّ (ثُمَّ) يأتي بمعنى التراخي وضمن وصف الحالة حيثُ تكون نتيجة في سياق النص، أما (الفاء) فيأتي مع وصف العمليات بترتيب متعاقب ودون مهلة ظاهرة عادةً، ففي هذا المقام تكون (الفاء) في العمليات أنسب حيثُ إن العملية المقترنة بـ (الفاء) لا يتم إلا بعملية سابقة له تمت وقد يكون بعده عملية أخرى، أو حالة منفصلة عنه في تتابع العمليات الخاصة للفاء؛ لذلك تأتي الحالة المنفصلة عن حالة أخرى، أو عملية سابقة مقترنة بـ (ثُمَّ)، إذن (الفاء) مقترنة بالعمليات، و(ثُمَّ) مقترنة بالحالات. قال تعالى: (هل أتى على الإنسن حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً(1) إنا خلقنا الإنسن من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليهِ فجعلنه سميعاً بصيراً(2) إنا هديناه السَّبيل إما شاكراً وإما كفوراً (3))[xxxvii]وقد نلحظ أن (الفاء) في السياق القرآني له دلالة إيحائية بمعنى (ثُمَّ)؛ لأن صوت الفاء في قوله تعالى(فجعلنه سميعاً بصيراً) يساوي عملية التخلق في قوله تعالى: (فخلقنا العلقةَ مُضغةً فخلقنا المضغةَ عظماً فكسونا العظم لحماً ثُمَّ أنشأنهُ خلقاً ءآخرَ)، فصوت (الفاء)

هنا أيضاً يساوي كل الفاءات في الآية التي سبقت؛ ولكننا سنجد (الفاء) ذكرت في سياقها المتمثل في طريقة العرض من ناحية العملية التكوينية للأعصاب السمعية والبصرية، وليس حسب حالة منفصلة عن التخلق النموي. ففي قوله تعالى: (والله خلقكم من تراب ثُمَّ من نُّطفةٍ ثُمَّ جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضعُ إلا بعلمهِ وما يُعَمَّرُ من مُعَمّرٍ إلا في كتبٍ إن ذلك على اللهِ يسيرٌ(11))[xxxviii] وقوله تعالى: (سبح اسم ربك الأعلى(1) الذي خلق فسوى(2))[xxxix] أن (الفاء) هنا تساوي في معناها الدلالي الإيحائي معناها في قول الله تعالى: (وَلَقدْ خلقنا الإنسنَ من سُللةٍ من طين (12) ثُمَّ جعلهُ نطفةً في قرارٍ مكين (13) ثُمَّ خلقنا النطفةَ علقةً فخلقنا العلقةَ مُضغةً فخلقنا المضغةَ عظماً فكسونا العظم لحماً ثُمَّ أنشأنهُ خلقاً ءآخرَ فتبارك اللهُ أحسنُ الخلقين (14)) والمتتبع لعملية التخلق يجد أن (الفاء) بمعناها الحركي المتتابع والمتلازم مع عملية التخلق، إلى أن يصل الجسم إلى عمل أجهزته مجتمعة من تنفس، وتغذية، وتصفية وإفراز، وإفراغ في لحظة واحدة، إلى خروجه من رحم أمه إلى الدنيا طفلاً، وفي قوله:(ولقد خلقنا الإنسن في أحسن تقويم (4))[xl] يجد المرءُ أن كلَّ هذا دليلٌ آخر على جمالية الاختزال الزمني في الشكل والمعنى، وحتى دلالة النغمة في صوت العطف(ثُمَّ) الأولى (ثُمَّ خلقنا النطفةَ علقةً) في الآية (14) و(ثُمَّ) الثانية في الآية(ثُمَّ أنشأنهُ خلقاً ءآخرَ فتبارك اللهُ أحسنُ الخلقين (14)) من سورة (المؤمنون) وما بينهما تمتلك هذه الجمالية.

خلاصة البحث:

* هناك أصوات في القرآن الكريم يُظنُّ أنها زائدة أو مترادفة مع أصوات أخرى – ذكرها المفسرون – ولكن وجدت فروقٌ دقيقة بين تلك الأصوات مما ينفي الزيادة أو الترادف.

- إن الصوت لا يتحدد معناه كوحدة مستقلة إلا من خلال أثر السياق الوارد في بيان الدلالة.
- كل صوت في القرآن الكريم استعمل في الموضع الذي يناسبه، ولا يمكن أن يقوم صوت آخر مقامه، ولا يمكن الفصل بينه وبين السياق؛ وإنما هما أمران متلازمان.
- إذا ما نظر الدارس إلى أصوات العطف في أشكال صورها الخارجية سيجد أن لها معنى التناوب أو الترادف أو الزيادة؛ ولكنه إن نظر نظرة المتفحص المتبصر بإنعامٍ يجد أن الأصوات لا تتناوب في السياق، وسيجد أن معنى(ثُمَّ) أدق وأبلغ من (الفاء) في سياقٍ ما، وهكذا تجد معنى (الفاء) في سياقٍ آخر أدق وأبلغ من (ثُمَّ)؛ لأن المقطع الصوتي (فَ) يتكون من (ص ح)، فمجاله السرعة والتتابع في العمليات، وأن المقطعين الصوتيين (ثُمَّ) (ص ح ص ص ح)، فمجاليهما الطول والتنوع في الحالات المختلفة والمتفرقة.

الهوامش:

1- وتناوب القوم الماء: تقاسموه على المَقْلةِ، وهي حصاة القسم. الجوهري: النوبة واحدة النوبِ، تقول: جاءت نوبتك ونيابتك، وهم يتناوبون النوبة فيما بينهم في الماء وغيره. وناب الشيء عن الشيء، وينوب: قام مقامه؛ وأنبْتُه أنا عنه. وناوبه: عاقبه. لسان العرب، مادة نوب.

2- في اللغة: ترادف الشيء: تبع بعضه بعضاً. والترادف التتابع. لسان العرب، مادة ردف. أما في المصطلح أن تأتي بكلمة معينة تشبه كلمة أخرى بنفس المعنى العام من مثل: الخوف والخشية والتقوى.

3 – سورة الروم، آية 40.

4- سورة الأعراف، آية 11.

5- ابن هشام الأنصاري، قطر الندى وبل الصدى، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الخير،بيروت، 1990، ص 304.

6 - شيخ ابن الخباز: هو عمر ابن أحمد ابن أبي بكر ابن أحمد بن مهران العراقي النحوي مجد الدين أبو حفص الضرير.

7- سورة البلد، آية (17).

8 - أسعد النادري، نحو اللغة العربية، المكتبة العصرية، بيروت، 2002، ص 603.

9 - ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثمم).

10- سورة الزمر، آية (6).

11 - لرجلٍ من بني سلول، حماسة البحتري، ص593.

12- للسفاح بن كثير اليربوعي، رثى بها يحيى بن ميسرة صاحب مصعب بن الزبير، الخصائص لابن جني،ص 122.

13 - سورة الإنسان، آية (20).

14- سورة البقرة، آية (115).

15 - أنظر: ابن جني، الخصائص، حققه محمد علي النجار،ج2، دار الهدى، بيروت، دون تاريخ، ص 82- 88 .

16- ابن جني، الخصائص، حققه محمد علي النجار،ج2، دار الهدى، بيروت، دون تاريخ ،ج2، ص 440 .

17 - سورة عبس، آية (20،21،22).

18- ابن هشام الأنصاري، شذور الذهب، محمد محي الدين عبد الحميد، بدون تاريخ ، ص 446.

19- أحمد ابن الحسين ابن الخباز، توجيه اللمع في شرح كتاب اللمع لأبي الفتح ابن جني، تحقيق فايز دياب، دار السلام، القاهرة،2002، ص 283.

20 - ابن الخباز، توجيه اللمع ، تحقيق فايز دياب، ص 285.

21 - عبد الغني الدقر، معجم القواعد العربية، دار القلم، دمشق، ط3، 2001، ص 190.

22 - عباس حسن، النحو الوافي، ج3،ط4، دار المعارف، القاهرة، 1976، ص ص 574-578.

23- عباس حسن، النحو الوافي، ج3،ط4، دار المعارف، القاهرة، 1976، ص ص 574-578.

24- أحمد مختار عمر، علم الدلالة،عالم الكتب،ط1998،5، ص33.

25 - أحمد مختار عمر، علم الدلالة،عالم الكتب،ط1998،5، ص11.

26- صفية مظهري، الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص 15.

27. سورة المؤمنون، الآيات من 12-16 .

28- خالص جلبي، الطب محراب الإيمان،ج1، ط4،مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985،ص ص 73-75.

29- سورة الحج، آية (5).

30 - سورة غافر، آية (67،68).

31- سورة البقرة، آية (22).

32- سورة الحج، آية (5).

33- محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ط7،ج5، دار الإرشاد للشؤن الجامعية،حمص،،ص 99- 105.

34- سورة إبراهيم، آية (32).

35- سورة القيامة، آية من (36- 40).

36 - سورة البقرة، آية (259).

37- سورة الإنسان، آية من (1-3).

38- سورة فاطر، آية (11).

39 – سورة الأعلى، آية(1،2).
40– سورة التين، آية (4).

صطلحية وموسوعية الرؤية االمتخصصة بين المدرسة الفرنسية والأمري
– دراسة إبستيمولوجية –

الأستاذة: عايدة حوشي
جامعة عبد الرحمان ميرة (بجاية)

إذا كانت " اللسانيات (la linguistique) تعاني مبدئيا ما تعانيه العلوم المفترضة من مشكلات متعددة ، كوضع ثمرات العلوم في متناول الباحثين من حيث اللغة و الأسلوب و الأدوات العلمية الخاصة، ومتابعة التطور السريع الذي يرهق في عصرنا المتابع بله المتباطئ"[1] نقول : إذا عادت هذه المعاناة إلى خصوصية لغة العلم، فإنها بالضرورة تؤثر تباعا في سيرورته و الأخذ به فكيف ذلك؟

المعاناة التي تخص وضع ثمرة علم من العلوم تحيط أكثر شيء بمفاتيحه و سياقاتها المتعددة أي: المصطلح(Terme)* و السياق (Contexte)** المنطقي الفلسفي الذي يلفه، لأننا يمكن أن نعتبره :" كترجمة بوسائل لسانية خالصة " [2]، وهذه الترجمة لا يحق لها من جانب لغوي إلا أن تكون موضوعية في إطار علم

اللغة بشكل مميز،وذلك على اعتبار أن ما يفرق بين مصطلح و كلمة عادية؛ هو خروجها إلى جانب المجاز و الدلالات المتنوعة ، أما وسائل العلم فلا مجال فيها لغير الدقة و التخصيص...

إن ما يمس دلالة المصطلح هو:" أخطر من لفظه مع ما يفعله اللفظ من بلبلة ... فالدلالة هي الغاية القصوى التي يطلبها البحث ، لذلك ينبغي أن تكون محددة ومضبوطة ضبطا نابعا من المجال الذي ترد فيه ، وأول ما يجب الالتفات إليه ههنا؛ هو الوعي بالفرق بين الدلالة اللغوية العامة من جهة، والدلالة الاصطلاحية الخاصة من جهة أخرى، حتى لا يكون خلط أو التباس" [3]، و هو الدور المنوط بعلم المصطلح بوصفه متعلقا بحاجة كل علم إلى رصيد خاص من الألفاظ مضبوطة المفاهيم، فهو علم الحد، لذا تكون كل مدرسة لسانية لديها حدود التناول أي المصطلحية الخاصة. فلا يمكن أن يكون هناك علم دون محدد لمصطلحاته هو عالم المصطلح « terminologue »،الذي يشتغل بجانبه المكتوب « terminographie ».[4]

وفق كل ما سبق تبرز قيمة وضع المصطلح و صياغته؛فالعلم لديه عالم متخصص والمصطلح له واضعه، لكن صياغته: " لها ثوابت معرفية مطلقة و لها نواميس لغوية عامة، كما لها مسالك نوعية خاصة، و كل ذلك يمثل الآليات التي تقتفيها المصطلحات العلمية و الفنية. فأما الثوابت المعرفية فتتصل بطبيعة العلاقة المعقودة بين كل علم من العلوم و منظومته الاصطلاحية، و أما النواميس اللغوية فتقتضي تحديد نوعية اللغة التي تتحدث عن قضية المصطلح ضمن دائرتها و ما تختص به من فروق تنعكس على آليات صياغة الألفاظ ضمنها، فإذا جئنا إلى المسالك النوعية فإننا نعني بها مجال الاختصاص المعرفي الذي نتناول آلياته الاصطلاحية بالدرس " [5].

لقد وضح بهذا عبد السلام مسدي مسألة وضع المصطلح و اختصاص دائرتها ضمن موضوع معين و مجال علمي أو فني متخصص، نقصد بها أن يكون في معجم يحوي مفردات خاصة[6] ليست في مستوى مفردات اللغة العادية: أي أنها تشكل مواد معجمية متخصصة المداخل « entrées » [7].

فـ "مادة المعجم تضيق و تتسع أو تكون مادة لغوية خاصة أو عامة" [8].

و بهذا الشكل لنا أن ننعت واضع المعجم بالمطبق ، الواضع أو الصانع... إذ بعودتنا إلى تصنيفية المعاجم « typologie des dictionnaires »؛لانجد المعجم التقني المتخصص « dictionnaire technique spécialisé » يحوي مجموع ألفاظ عامة من بين مجموع الألفاظ الخاصة « les mots du vocabulaire général »، بل يحوي مصطلحات دقيقة لقربه اللغوي من معاجم المصطلحات « dictionnaires terminologiques » التي تحددالمفهوم الدقيق للكلمة، هذه التي تكرس لمجموع مفردات اللغة « ensemble lexical » ،وترتبط بتطبيق عملي لمحيطات تقنية اجتماعية خاصة « univers socio techniques particuliers » .

من خلال ما سبق وليتحدد بدقة ما يحويه معجم المصطلحات؛ علينا أن نبرز بأنه (يقدم تحديدات اصطلاحية لمجال أو عدة مجالات) [9] ، و هنا يتميز هذا النوع من المعاجم بكونه لا يتعلق بلغة عامة مثل معجم اللغة العامة « dictionnaire de langue généraliste » .

إذ بتخصيص الحديث عن هذا النوع من المعاجم نقول: إن دراسة ما بحاجة ماسة لها ، و حاجة العلوم لها مسألة لا تناقش، و السيميوطيقا (علم العلامات) (Sémiotique) بوصفه علما دقيقا من جانب ما و عاما من جانب آخر، يحتاج بشكل بارز. كباقي العلوم . إلى تأصيل لساني و آخر عملي، فكيف ذلك؟

من أبرز المعاجم الفرنسية التي اعتنت بهذا العلم (السيميوطيقا) معجم:

(Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage) لصاحبيه ألجيرداس جوليان غريماس (Algeirdas Julien Greimas) و جوزيف كورتاس[10] (Joseph Courtès) ، هذا المعجم الذي سنتوقف عنده حتى نقارب ملمحا هاما من ملامح بنيته المصطلحية وكيفية عرضها، وفق هذا المسار:

التعريف بالمعجم:

هومن أبرز المعاجم الفرنسية المتخصصة في العصر الحديث، إذ يعتبرزادا معرفيا هاما للباحثين المشتغلين في السيميوطيقا و أصولها اللسانية، فهومشروع يهدف إلى ضبط حقل معرفي هام يخص نظرية يرى أصحاب المعجم: إنه حان الوقت لإثباتها عمليا بوصف مشروعها خلال ربع قرن سابق لصناعة هذا المعجم قد دفع إلى محورة الأفكار لإنجاز هذا العمل... لكن لماذا اختاروا له شكل معجم؟ " كل هذا العمل لا يشرح بعد اختيار شكل المعجم " يقول أصحابه :" شكل المعجم يجمع المحاسن و المساوئ المقاربة البراغماتية و التمثيل غير المحدود، إنه يسمح بطريق مباشرة مجموع التحديدات الاصطلاحية في العمل، إنه يجعل التقديمات الخارجية للمعلومات الإضافية التي لا تفتقر لجلب التطورات العلمية. إنها تسمح خاصة بوضع الأقسام الماوراء لسانية جنبا إلى جنب أين درجة الإعداد و الصياغة (la formulation et l'élaboration) هي غير متكافئة تماما..." [11]

معجم عقلاني: Dictionnaire raisonné

الحديث هنا يتعلق بلكسيك خاص جدا (Lexique spécialisé) يعتبر بمثابة قائمة متغايرة المداخل (liste hétérogène d'entrées)، كل واحد يرجع إلى محيط مفهومي مختلف و أخيرا إلى أساسات (أسس) نظريات متشعبة. الجزء الذي أخذناه لإبعاد هذا النوع من الانتقائية (l'éclectisme) يستقر قبلا على يقين أنه غير موجود في العلوم الإنسانية و الاجتماعية من المعاجم الموضوعة (objectifs) أو الحيادية (neutres). إن صح التعبير: حضور الصناع مسجل فيها سواء رغبوا في ذلك أم لا ، عبر اختيار المصطلحات المنتجة أو المقصاة باستقبالها أو معالجتها ..[12]

يظهر في ضوء ما سبق أن الجانب العقلاني ؛ أساس هذا النوع من المعاجم ، لكن جانب الانتقائية كذلك له دوره الموجه لعمل الصناعة المعجمية ، ذلك أن جزء العقلنة (Le raisonnement) يخص التفكير في المفاهيم التي تكتب أولا كل واحدة في سياقها النظري الخالص ، ثم تفحص لاحقا بدرجة قابلية المقارنة (Degré de la comparabilité) التي تدور حول إمكانية احتمال الموافقة (Homologation) ، والتي تحمل عدة مخاطر هي في مرتبة أولى ؛ محو المضامين النظرية الخاصة بطريق ملكي لواقعة ثابتة ، وإلا لحلول مقترحة ،

أين تنقص إشكاليات أن نظرية اللغة اقترضت . منذ مائة وخمسين سنة . تبعا لهدف مضاعف أقلق القارئ بإبراز غياب علم منجز قائم على اليقين [13]

من خلا ل عرض: (643) مدخلا، حاول صاحبا المعجم توفير إيديولوجية خاصة للمعرفة: « Nous avons cherché à servir à notre manière une certaine idéologie du savoir »[14]

لقد سار هذا العرض والترتيب وفق الألفبائية الفرنسية عبر مداخل عامة ،كل مصطلح منها يقابل بكتابته الإنجليزية ثم يعرض مقابله حسب خصوصيته . الشيء الذي سنركز عليه . ،إذ وعبر هذه الخصوصية حتى يتفادى الواضع تكرارا في بعض المفاهيم اعتنى الواضعان بإظهار جزء منها في شكل مختصر ، حتى لا يضيع وقت وجهد المستعملين للمعجم ... سننطلق بداية من إقرار الواضعين(غريماس وكورتاس) بمايلي:

« Tel qu'il est ,ce dictionnaire se prête à être jugé aussi bien sur ce qu'il contient que sur ce qu il passe sous silence »[15]

لقد وضع المعجم في فترة لم تتضح فيها معالم هذا العلم بشكل جيد، لكن مع ذلك سطر له الواضعان أسسه اللسانية ،وفي أكثر من موضع أسسه الفلسفية ...

نشرع بيان نظرتنا الإبستيمولوجية في ضوء الثغرات (Les lacunes) التي نراها قد مست جزءا من المصطلحات الهامة فيما يخص الجانب التأسيسي الأمريكي على يد تشارلز صندرس بورس Charles (Sanders Peirce)،(1914.1838) ،فلقد حوى المعجم كما معتبرا من المصطلحات التي تعنى بنظريات علم العلامات نأخذها وفق مستويين:

<u>الأول يتعلق بالمصطلحات التي أبرزت قيمة التأسيس البورسي:</u>

1. الأيقونية (L'iconicité. Iconicity) : (177)
2. المؤشر (L'indice .Index):(186)
3. السيميوطيقا (Sémiotique .Semiotic):(339)
4. الدليل (Signe.Sign).(349)
5. الرمز (Symbole.Symbol) (373)

أهم ما نلاحظه حول هذه التحديدات ما يلي :

. تمحور مفهوم الأيقونية ضمن الثلاثية البورسية بشكل تحديدي مبسط دون إيغال يذكر ، لكنه ألحق بتعليق جانبي يخص التقسيم بشكل عام من أنه لا يوفر فائدة كبيرة

« La classification proposée , sans être gênante , n'offre que peu d'intérêt… »[16]

إن وجهة نقدية علمية لا تكون لنظرية على حساب نظرية أخرى ، ف " المدخل والمعلومة مترادفان"[17]، فتحديد المصطلح ليس دراسة إبستيمولوجية لحمولة النظريات بل هي تحديد للمعادل العملي والدقيق للمصطلح .

أعطت النظرية البورسية تقسيمات هامة في مجال (الأيقونية)، لكن الملاحظ هو:أن الأيقونية ليست الأيقون ، فالمدخل خاص بشرح الأيقون لكن الأيقونية الفعلية عند بورس هي:

" نظام شامل لفكرة الثالثية، فيها علاقة نظم دنيا هي الأيقونات الدنيا (Hypoicons) التي تكون منحرفة تبعا لنمط الأولية ، فالطريق الوحيد و المباشر لتوصيل فكرة بمعنى الأيقون هو؛ أثناء الاستعمال الذي يدخل فيه ؛ مجموع الأيقونات ، ضف إلى ذلك حمولة الأثر (Rhetorical évidence) البلاغي إلى جانب التركيبة الجبرية[18]« Algebric Formula »

وهنا نلاحظ أن الأيقون جزء من عملية أوسع هي المجال الأيقوني بصفة شاملة.

- أما المدخل الثالث فنلاحظ فيه أن تشبيها أقيم بين نظريتين للاحقة منها فضل السبق ،إذ الأسبقية للنظرية البورسية لا للنظرية الهيمسليفية.

- الهام في هذه المحطات الإبستمولوجية أنها ركزت على القيمة العلمية – على الأقل– للجهد الأمريكي التأسيسي ولو من جانب إبراز التواجد البعيد عن التطبيق – حسب رأي الواضعين– اللذان يريان في الثغرات الخاصة بالنظريات الأمريكية أو الخاصة باللغة الإنجليزية القديمة والتي لم تستوف حقها من الحضور في هذا المعجم المتخصص مايلي :

« C’est le cas par exemple de la place accordée à la logique anglo- saxonne si elle peut paraître insuffisante , c’est pour une part parce que le problématique des actes de langage a été homologuée à la théorie de l’énonciation … ».[19]

« il en est un peu de même de la pragmatique Américaine dont le champ de préoccupation correspond en partie à la théorie de la compétence modale que nous avons développée… »[20]

لأن السبب في هذا القصور هو الخلل الذي غالبا ما يمس اقتصادية المعاجم– حسب رأيهما:

« ce qui tout en étant légitime , aurait bouleversé l’économie générale de l’ouvrage »[21]

- اعتبار النظرية الأمريكية لا سيميوطيقا من السيميوطيقا « Un appendice non sémiotique de la sémiotique » ؛ يخل إلى حد بعيد بأصل التأسيس لأي نظرية كانت فأصل النظريات فلسفة ، واشتغال بورس بالأيقون البلاغي و أسماء الإشارة والأسماء الموصولة ، والصفات ...[22]؛ يجعل من نظريته النظرية الأكثر شمولية لمناحي هذا العلم بصفة عامة ،أي الجانب اللغوي وغير اللغوي.

- من جانب آخرإذا كان مصطلح السيميولوجيا (Sémiologie) بأصل نشأته عند فرديناند دي سوسير (Ferdinand De Saussure) السابق إلى تقديم هذا العلم ، كما أبرز ذلك صاحبا المعجم ، تبقى قيمة التأسيس الفعلية للجهد الأمريكي ، وشرح المصطلح إذا كان بعرض النظرية و أصحابها ،لا يكون حكما عليها بالابتعاد عن الأصل أو عدمه وذلك باعتبار السيرورة والصيرورة العلميتين ، الشيء الذي يرجع إلى عنصرين هامين هما على التوالي:

- تأليف المعجم كان في وقت تبوأت فيه النظرية السوسيرية الصدارة . علما أن المعجم قد أورد تحديدات هامة لثلاثية بورس . .....

- الاهتمام الكبير بالنظرية الأمريكية التي تؤسس للنظرية السيميوطيقية ؛ كان مجانبا في الكثير من المرات للجهود النظرية و التطبيقية لبورس و تطوراتها السلوكية عند شارل موريس(Charle Morris) . إذ يقول جيرار دولودال(Gerrard Deledalle) ؛" تتبع الأبحاث المعاصرة حول العلامات من منبعين اثنين : من شارل صندرس بورس (1839ـ 1914) الذي هو أصل التيارالسيميوطيقي ومن فرديناند سوسير (1857ـ 1913) الذي هو أصل التيار السيميولوجي...."[xli] . ودون خوض في أسبقية المجهود البورسي المؤكد علميا . نقول إن التحديد الاصطلاحي هو دقة علمية لمصطلحات بعينها وليس نظرة نقدية للابتعاد عن بعض المفاهيم أو التأكيد عليها ....

- أما الرمز فقد أرجأه الواضعان إلى حين الفراغ من نظريات لاحقة لبورس أي بعد مفهوم هيمسليف ثم أوغدن وريتشاردز ، لكن رغم ذلك فقد أبرزاه في مجاله الثلاثي الذي يشتغل فيه ....

من جانب آخر أهم ما يستوقف الباحث بعد هذه المذاخل هو: مداخل أخرى تستوجب التمعن والتدقيق نظرا لما خصها به الواضعان من عدم العناية بأصولها الحقيقية ،أو بعدم إبرازها كمحطة هامة من محطات تطور المصطلح، والتي سنبرزها في الجدول الموالي بهذا الشكل:

ضبط المجال العلمي		المصطلح
• **La sémiotique visuelle** • **Théorie de la communication.** • **La sémiotique de l'image.** • **la sémiotique planaire.**	• وفق السيميوطيقاالرؤيوية. • وفق نظرية التواصل. • وفق سيميولوجيا الصورة . وفق السيميوطيقا المستوية.	L'image ; Image ; (181)
. • **La conception classique** • **La terminologie Hjelmslévienne** • **Sémantique** • **La tradition épistomologique** • **La phenomenology de Husserl**	• التأويل وفق السيميوطيقا عموما. • المفهوم الكلاسيكي • التحديد الهيمسليفي • علم الدلالة	Interpretation-Interpretation-(192).

	• التقليـــــد الإبستيمولوجي • الفينومينولـو جيا الهوسرلية • التحليـــــل النفسي الفرويدي • النحـــــــو التوليدي • السيميوطيقا المسماة جماليات	• **Psychanalitique** • **La grammaire generative** • **Sémiotiques dites esthétiques**
L'objet-Object (258)	• المقاربـــــة السيميوطيقية البنيوية • التحديـــــد الهيمسليفي	• **L'approche structurale sémiotique** • **Selon Hjelmsleiv**
Phénoménal-Phenomenal-(277)	• حســـــب المفهوم الكانطي	• **La tradition scolastique reprise par Kant**
Prédicat-Predicate-(258)	• تقليديا • اقتصـــادية الملفوظ • النظريـــات اللسانية	• **Traditionnellement** • **L'économie de l'énoncé** • **Théories de linguistiques**
Probabilité-Probability.(315)	• وفق الصيغ	• **Les modalités**
-Representation – Representation(315)	• الفلســـــفة التقليديةحسب • جاكوبسون وبوهلر • النظريـــات اللسانية	• **La philosophie classique** • **R. Jackobson _- K. Bohler** • **Théories linguistiques**
Rhétorique-Rhetoric(317)	• التـــــراث الإغريقي الروماني	• **La tradition gréco romaine** • **Rhétorique**

générale de L- H	• البلاغـــــة العامة عند هيمسليف	
• **L'école de Prague** • **La sémantique** • **La logique** • **B – Pottier**	• مدرسة براغ • علم الدلالة • المنطق • حســـب ب – بوتييه	Séme- seme(333)
• **La terminologie de Hjelmsleiv** • **Selon F- Saussure**	• تحديـــــــد هيمسليف • تحديـــــــد سوسير	Sémiosis-Semiosis(338)
• **Linguistique** • **Logique** • **Classique** • **La syntaxe**	• **لسانيا** • **المنطق** • **التقليدي** • **علـــــــم التراكيب**	**Sujet-Subject(369)**

بعد عرض مصطلحات تخص المدرسة الأمريكية بشكل يقرب النظرية؛سنتوقف عند أهم مباديء السيميوطيقا البورسية في ضوء ما يقارب أو يباعد اهتمامات المدرسة الفرنسية . داخل هذا القاموس . بهذاالشكل:

– لقد تم إبراز مجال تناول الصورة وفق ماأظهره الجدول ومن خلال ما أبرزه الصانعان ضمن عدة منطلقات تعود إلى مجموعة من الاتجاهات السيميوطيقية ،أما مسألة الاتجاهات المعروضة فهي إلى حد بعيد تعود إلى فكرة التأسيس عند الصانعين ، لكن السؤال المطروح في هذه الحال هو:

لماذا إغفال القيمة البارزة لهذا المفهوم السيميوطيقي ضمن الاتجاه البورسي الأمريكي ، علما أن مباديء هذا التوجه قد أبرزت أهميتها في أكثر من موضع ، فالصورة بجذورها الأفلاطونية الأرسطية ومن خلال ارتباطها بفكرة ما ؛عنصر هام مكون للأيقون لأن" الدليل بالأولية هوصورة عن موضوعه " [24]

ولأجل هذا لابد أن ينتج التأويل بفعل الصورة وما تولده ،إذ يتحدد في الوقت نفسه وجود موضوع خارجي يخلق بدوره فكرة أساسها الدماغ ، وكذلك فالأيقونات الدنيا(Hypoicons) هي: عبارة عن صور مادية مرتبطة بالصفات ، لأنها تمثل إلى حد ما علاقات المماثلة الثنائية ، ولما نتحدث عن الصور نقول إنها صور لغوية وغير لغوية لا تخص لوحة ملونة أو رسم بياني وحسب، بل تمس صورا استعارية بلاغية لها حمولة الأثر البلاغي (Rhetorical evidence)هنا [25]

فهذا النوع من التحديد يجعل المدقق في سيرورة الدرس السيميوطيقي يلاحظ إغفالا لتحديدات مفهومية بالغة الأهمية يبقى الدارس بحاجة ماسة للاستزادة منها في ضوء رؤية شاملة لهذا العلم الهام الذي يلف العلامة اللغوية وغير اللغوية بالبحث والتحليل ...

ـ بالنسبة لمصطلح التأويل(Interpretation) فإن الملفت للانتباه حقيقة هو أن أبرز نظرية سيميوطيقية تأويلية هي النظرية البورسية المنطقية ، والملاحظة السابقة نفسها تحيط بهذا المصطلح كيف ذلك ؟

لم يول الصانعان أهمية للتأويل البورسي علما أن تجدد النظرية موريسيا قد أوضح أسس التأويل عند بورس و الذي وصف بالهرمسية(Hérmetisme)، ذلك أن الهرمسية الدليلية هي مجال سيرورة سيميوزيسية(Semiosis) ففكرة التأويل تسيرها ثلاثة أنواع من المؤولات ، إذ" تعتبر المؤولات المباشرة (Immediate interpretants)أول ما يقربنا من التعرف على الموضوع ، أما الدينامية Dynamique؛ فهي مؤولات تعتمد الطاقة التحليلية وإن كانت فردية ، لأنها مرحلة هامة من التأويل تستمر إلى حدود ما يمكن أن يصله الدليل ، أي وصولا إلى تأويل نهائي، وكلها تسير بموجب سلطة العقل" [26]

مصطلح الموضوع:

هو مصطلح توقف عنده مؤسس المدرسة الأمريكية السيميوطيقية إذ طرح على نفسه سؤالا ، وجهه إلى الليدي ولبي في 14 مارس1908 :" حينما يقال إن العقل متمحور بواسطة صلاحية شرعية ، حتى يحقق علاقات بين الموضوعات ، لابد أن أبسط وأثبت تحقق علاقات بين الأفكارو الأفعال كذلك . ففي الجواب لابد أن أشرح هذا ، فتبعا لمعلوماتي حول الأخلاق و الاصطلاحات والتي لابد أن احملها لكم ... أوضف مصطلح موضوع في معنى عريض يكون أولا و بشكل مبدئي جوهريا ،وذلك منذ عقود ثلاثة ... " أقصد شيئا يأتي قبل الفكرة أو العقل في أي معنى مستعمل " الشيء الذي استعمله ستوت(Stoot) و بالدوين (Baldwin) بالمعنى ذاته ... أضيف في الوقت الذي لا أقيم فيه أي اعتراض أو اختلاف بين الفاعل والموضوع /Subject) (Object ... أوضف الفاعل بوصفه رابطة تنبؤ، ولا أتحدث عن الفاعلين إلا عن تلك التي علاماتها لها جزء يبين ما للموضوع من دلالة على العلامة " [27]

أي أنه يطوع مفهوما عاما لعمل سيميوطيقي خاص يصبح فيه مجال الدلالة أكثر دقة ، وذلك حسب خصوصية العلامة سواء ضمن مجال لغوي أو غير ذلك....الظاهري (Phénomenal)

الظاهري مصطلح بارز في المعجم الذي نحن بصدد تناوله ، والملفت للانتباه أن صانعي المعجم قد أورداه في شكل مختصر جدا علما أن مجال التناول هو السيميوطيقا وليس الفلسفة الكانطية، فالهام في كل هذا أن الظاهرية من الناحية السيميوطيقية قد أخذت تحديدا هاما مع مؤسس الاتجاه الأمريكي " الظاهراتية (Phaneroscopy) أو الفينومينولوجيا (phenomenology) بتعبير بورس ؛ هي عبارة عن وصف للظاهرة (الفينرون) (Phaneron) ، والتي تعني مجموعة شاملة لكل ما هو عبر أي طريق أو أي معنى حاضر في

الذهن ، وذلك بصرف النظر عما إذا كان شيئا حقيقيا أم لا" [28] ، و هو علم يسير بموجب العمل الرياضي الثلاثي و الذي نشأ من أصل أرسطي و كذلك كانطي .... الاحتمالية (Probabilité)

مبدأ غير خاص بالصيغ وحسب، بل طريقة رياضية تخص إبراز أنواع الدليل ..... ففي الأنواع العشرة التي قسم بورس بموجبها الدليل ، رأى جيرار دولودال Gérard Deledalle إنها في حقيقة الأمر حصيلة مسألة رياضية، فكل دليل يحدد من خلال جعله يحمل ثلاثة أسس و يكون العدد المحتمل (3)[3] أي 27 حالة احتمالية هي: الثواليث الثلاثة، إذ يكون لدينا نتاج احتمالات يبقى منها :

. قسم منها موضوعه في الأولية : (Firstness).

. قسمان موضوعهما في الثانية : (Secondness) .

. ثلاثة أقسام موضوعها في الثالثية : (Thirdness).

إلى هنا نرى أن الوزن الحقيقي الذي قدمه الصانعان لم يعتن فيه العناية الكافية بتنوع التيارات السيميوطيقية، بقدر ما أبرز عناية أكبر بالمجهودات الأوربية، الشيء الذي سيشكل صعوبة على مستخدمي المعجم الذين يطمحون إلى معجم متخصص يخدم خصوصية هذه النظرية ودقتها العلمية...

الهوامش

[1] أحمد محمد قدور.اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي .دار الفكر بيروت ودار الفكر دمشق .ط1 مايو 2001 . ص: 13.

*المصطلح: في علم التراكيب هو كلمة تتحمل داخل جملة وظيفة محددة ... في بعض الأحيان يوظف المصطلح كمرادف ل :كلمة، عبارة، عنصر، إذا تعلق الأمر بوصف بنية لأن المصطلح يتضمن شكلا محددا بواسطة علاقات العبارات في البنية ،كما يحوي إلى جانب هذا تموقعا خاصا في علم المصطلح(La Términologie) ، فهو وحدة دلالية تؤلف كلمة (مصطلح بسيط) ، أو تتألف من عدة كلمات (مصطلح مركب) يعين مفهوما بطريقة تشاركية داخل مجال معين ... وهذه التسمية وفية للتعليم الذي يعود إلى أوستر(E Wuster) والتي أعادت بالفعل إخراج محدودية المصطلح إلى الواجهة الدالة للمصطلح اللساني ، لكن لا يمكن أن نخلط هذا مع المصطلح السوسيري (النظام المعرفي) . (Système Motionel) ...لمزيد من التوضيح أنظر:

Jean Dubois ,Jean Pierre Mével, Mathée Giacomo,Louis Guespin, Christiane Marcellesi, Jean Baptiste . Dictionnaire de linguistique . Larousse. VUEF. 2002 . p : 480 .

**نقصد به سياق النظرية .

[2] **Voir : Gorges mounin et autres . Dictionnaire de linguistique. PUF . janvier 2004 .p :83.**

[3] اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي .ص: 30.

[4] يضيف ديبوا وزملاؤه (On appelle également terminologie l'étude systématique de la dénomination des notions ou concepts) علما أن القائم على هذا الضبط هو عالم المصطلح (Terminologue) فهو المتخصص في مجال إخراج المصطلح .أنظر:

Dubois et autres .dictionnaire de linguistique .p :480.

[5] عبد السلام المسدي.المصطلح النقدي. مؤسسات عبد الكريم عبد الله للنشر و التوزيع تونس أكتوبر 1994.ص:.10

[6] نلاحظ في إطار معاجم المصطلحات أن مفهوم كلمة معجم مرتبطة ب:استجماع المصطلحات Recueil (terminologique) ، رغم تعارض هذا مع تصنيفية المعاجم حسب اللغات بين مجموع مفردات اللغة والمفردات الخاصة(Lexique et Vocabulaire). لمزيد من التوضيح حول المعاجم الخاصة في اللغة الفرنسية أنظر:

François Gaudin .Louis Guespin .initiation à la lexicologie Française de la néologie aux dictionnaires duculot. ed N'1.Bruselles.2000.p :103-104.

[7] نقصد بالمدخل هنا العام منه ـ بشكل خاص ـ في المعاجم المتخصصة أي : المصطلح.

[8] حلمي خليل. مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي .دار النهضة العربية, بيروت ط1 1997.ص:.21

[9] Voir :Initiation à la lexicologie Française. p :103

[10]الواضعان هما :(Algirdas Julien Greimas et Joseph Courtés)

الأول ليتواني:(1917-1992)، لديه دكتوراه في الآداب من السوربون عام:1949، عمل باحثا من سنة (1946-1949) في المركز الوطني للبحث العلمي، كما توجه إلى الإسكندرية فدرس بجامعتها من(1949-1958)، ثم من سنة (1958-1962) أستاذا بجامعتي أنقرة واسطنبول، فأستاذا محاضرا، ثم مدرسا في كلية بواتيي من (1968إلى1966) ليواصل أعماله في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريس منذ 1965 ، له:

- Sémantique structurale1966
-Dictionnaire de l'ancien Français sémiotique et science1968
-Du sens 1970….

أما كورتاس الفرنسي فمولود عام 1936 ، له دكتوراه درجة ثالثة في اللسانيات (منشورة) ، ولديه دكتوراه دولة في الأدب و العلوم الإنسانية عام:1983 عمل أستاذا من الدرجة الأولى بجامعة تولوز (toulouse) منذ عام 1991 ، كما تقلد عدة مناصب علمية من1973إلى1980 كبروفيسور دائم بالجامعة نفسها ، ورئيسا لجمعيتها المتخصصة لعلوم اللغة ، إلى جانب عضوية بارزة في المجلس الوطني للجامعات (CNU) من (1991إلى1993) من نتاجاته

- Introduction à la sémiotique narrative et discursive
-Rhétorique et sémiotique...
-Quelque chose qui ressemble à un ordre
-Analyse sémiotique du dic

[11] Agirdas Julien Greimas.Joseph Courtes. Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie de langage.Hachette.Tome 1 .1979 Paris.p :III (La mise au points).

[12] Voir :Ibid :P :IV .

[13] Voir :Ibid :mp .

[14] Voir :Ibid : mp .

[15] Voir :Ibid :mp .

[16]بعد عرض كل مصطلح وما يقابله من صفحة؛ فكل ما سيعرض كتعليق حول المصطلح يعود إلى الصفحة نفسها

[17]Josette Rey-Debove . Le domaine du dictionnaire . La lexicographie. Langages.5éme année ,Revue trimestrielle .Septembre 1970 .N' 19 .P :17.

[18]Voir : Charles Sanders Peirce . Philosophical writings of Peirce. Select, Edit :Justus Buchler.Dover Pub/INC/New York 1955. p:105.

[19] Dictionnaire raisonné.p :V

[20] Ibid.mp.

[21] Ibid.mp.

[22] Gerrard Deledalle .Théorie et pratique du signe . introduction à la sémiotique de Charles Sanders Peirce . Payot . Paris. 1979. P:79.

[1] Philosophical writings .et Selected writings. et letters to Lady Welby.

[24] Philosophical writings .P : 104 .

[25] Ibid. P : 105 .

[26] Charles Sanders Peirce . Selected writings . Letters to Lady Welby.14 Mars 1909 Edit :by Philip Wiener .Dover pub New York 1958.P:413_414.
[27] Ibid. P :394-395.
[28] Philosophical writings .P : 74.

التحوّلات النطقية لصوت القاف

د.ناصر إبراهيم النعيمي

أستاذ مساعد/جامعة البلقاء التطبيقية/الأردن

ملخص:

يعالج هذا البحث ظاهرة لغوية صوتية تتعلق بالتحولات النطقية لصوت القاف في العربية .و يهدف إلى الكشف عن التحولات النطقية التي تطرأ على صوت القاف ، إما لأسباب تتعلق باختلاف اللهجات المحكية في أوساط المجتمعات المتراطنة بلغة الضاد ، وهي ما يمكن تسميتها بالتنوعات الحرة ، وإما لأسباب تتعلق بوضع الصوت في القالب (السياق) الكلمي ، وهي ما يمكن تسميتها بالتنوعات المقيدة .

وقد انتهى البحث إلى النوع الأول من التنوعات – التنوعات الحرة – ترتبط باللهجات الدارجة أكثر من ارتباطها باللغة المشتركة –الفصحى – . وعلى العكس تماما فيما يتعلق بالنوع الثاني من التنوعات – التنوعات المقيدة ، إذ إن معظمها يرتبط باللغة المشتركة – الفصحى – أكثر من ارتباطها باللهجات الدارجة.

Kinds of Speech for Letter Gaff

Summary:

This research solving sound lingual phenomenon, which is related to letter gaff in Arabic language.

The aim of the research is to discover the changes, which happened to letter gaff, and we can summarize the reason for the changing in this letter into two kinds:

1. Reasons related to the multifarious of dialect spoken by the society of Arab people. Under the title of "Free multifarious".
2. Reasons related to the position of the sound (talk) form (sequence) under the title of "Limitative multifarious.

But we will concentrate in this research in first kind "Free multifarious" because this multifarious linkup with common language (Fluent language) the opposite of the

second kind "limitative Kind" because in this kind most multifarious connected with the common language (fluent language) more than it's relation with dialect.

مقدمة:

تعدّ القاف من أمتن الحروف، وأوضحها جرسا[1] وهي من الأصوات الوقفية الشديدة(Fortis) في العربية، وهي: الهمزة، والقاف، والكاف، والضاد، و الطاء ، والتاء، والدال، والباء). وهي أحد ستة أصوات أكثرت العرب من استعمالها، ولا توجد البتة في لغات كثيرة من العجم[2]، وتظهر في الانجليزية كالوفون للكاف[3] أما في اللغات السامية فصوت القاف صوت انفجاري مهموس كما ذكر الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه بحوث ومقالات في اللغة: إنّ هذا الصوت موجود في العبرية في مثل qol بمعنى" قول" وفي الآرمية qala بمعنى "قالا" وفي الحبشية:qal " قال" بمعنى صوت،وهو يقابل في الغربية"قول" وفي الآشوريّة kulu قول بمعنى صراخ[4] .

والقاف وهي هدف هذا البحث حرف متمكن قوي كما ذكر مكي بن أبي طالب" والقاف حرف متمكن قوي"[5]وقال الأزهري:" والعين والقاف لا يدخلان على بناء إلاّ حسنتاه؛لإنهما أطلق الحروف"[6]

مخرج القاف وصفاته :

تباينت آراء علماء اللغة ، قدماء ومحدثين ، في وصف صوت القاف ، فبينما يذكر اللغويون القدماء ومنهم سيبويه [7] وابن جني [8] وابن يعيش [9] أن صوت القاف انفجاري مجهور يخرج من أقصى الحنك (أقصى اللسان) يذهب علماء اللغة المحدثون ، ومنهم جان كانتينو [10] وبراجشترسر [11] وكمال بشر [12]ورمضان عيد التواب [13] إلى أن صوت القاف صوت لهوي انفجاري مهموس ، يتم نطقه برفع أقصى اللسان حتى يلتقي بأدنى الحلق واللهاة مع عدم السماح للهواء للمرور من الأنف ، وبعد ضغط الهواء مدة من الزمن يطق صراح مجرى الهواء بأن يخفض أقصى اللسان فجأة فيندفع الهواء محدث صوتا انفجاريا ولا يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به كما يظهر في نطق القرآن الكريم [14] .

من خلال وصف علماء اللغة القدماء والمحدثين لصوت القاف ، يظهر أن الخلاف بينهما يقع في:

– تحديد مخرج القاف

– وصفة الهمس والجهر به .

ويرى الدكتور كمال بشر [15] والدكتور عبد القادر عبد الجليل [16] وكذلك الدكتور أحمد مختار عمر[17] أن هذا الخلاف يرجع إلى واحد من اثنين هما :

الأول : لعل علماء العربية أخطأوا في وصف صوت القاف .

الثاني : وهو ما تشير الدلائل إلى رجحانه ، وهو أن العرب ربما كانوا يتكلمون عن قاف تختلف عن قافنا الحاضرة . إذ ليس من البعيد أنهم يقصدون بالقاف ذلك الصوت الذي يمكن تسميته (بالجاف g) أو ما يشبه الكاف الفارسية ،وهو ذلك الصوت الذي نسمعه في بعض لهجات الصعيد وريف الوجه البحري وهو شبيه بالجيم القاهرية .بمعنى أنّ هناك تطور ما طرأ على القاف فتشكل صوتان لها:

الأول: القاف الانفجارية اللهوية المهموسة،

والثاني: والقاف الأقصى حنكيّة المجهورة التي تشبه الجيم المصرية

وقد أيد كانتينو الاحتمال الثاني ، وهو أن القاف كانت تنطق مجهورة ، كالجيم القاهرية ؛ وذلك لشيوع هذا النطق على ألسنة الكثير من الناطقين بالعربية اليوم فقال : " وبما أن قسماً كبيراً من الألسن الدارجة العربية ينطق بقاف مجهورة ، أمكننا الاعتقاد على سبيل الاحتمال والترجيح ، بأن القاف كان بالفعل حرفاً مجهوراً في العربية القديمة ، ويمكن أن يكون نطقه مهموساً في العربية الفصحى اليوم ناتجاً عن كونه أصبح مهموساً في اللهجات الحضرية المدنية ؛ لأن أغلبية المثقفين اليوم من أصل مدني " [18] وهذا ما أشار إليه هنري فليش بقوله:" إنّ القاف كانت مجهورة وأنها ظلت محافظة علة جهرها عند البدو جميعا، وأنّه كان من خصائصهم، وأمّا عند غير البدو فلا يصدق وصف القدماء هذه الأيام[19].و أكد هذا مصطفى حركات أيضا [20].

التنوعات النطقية الحرة لصوت القاف

تعددت الأنماط التي ينطق بها صوت القاف ، بتعدد اللهجات المحكية في مختلف أنحاء الوطن العربي ، ويمكن إجمال هذه الأنماط بما يلي :

1. نطق القاف همزة:

نطق القاف همزة في مناطق القاهرة وفلسطين ومعظم مدن سوريا وشمال المغرب [21] ، وهذا النطق يعني أن القاف تحولت إلى صوت حنجري انفجاري [22] . ومن الأمثلة على هذا النطق قولهم (آل) في قال و(أَبل) في قَبل (عَئِل) في عقل، وغيرها ...

ويبدو أن تطور القاف همزة، قديم في اللغات السامية، فقد نقل بروكلمان عن ليتمان أن القاف تحولت في أعلام الفينيقية في بعض الأحيان إلى همزة ثم سقطت كما سقطت الهمزات الأصلية في الفينيقية، فمثلا العلم الفينيقي(himalkart) حِمَلقَرت تحول إلى (himalar) حِملَر[23].

ولعل هذا التطور في نطق القاف كان موجوداً في عصور الفصاحة الأولى. فقد روى أبو الطيب اللغوي عن العرب أنهم كانوا يقولون: قَشبه وأشبَه، أي لامه وعابه، والقوم زهاق مائة وزهاء مائة أي قريب من مائة، والقفز والأفز أي الوثب[24]. غير أن مصطفى حركات يرى أن نطق القاف همزة يقتصر على العامية فقط[25].

ويذهب ابراهيم أنيس إلى أن التطور في نطق القاف همزة راجع إلى تغير مخرج القاف، وتطور الصوت بتغير مخرجه يكون"بأحد طريقين: إما بانتقال المخرج إلى الوراء، أو إلى الأمام، باحثاً الصوت في إنتقاله عن أقرب الأصوات شبها به من الناحية الصوتية. فتعمق القاف في الحلق عند المصريين لا يصادف من أصوات الحلق ما يشبه القاف إلا الهمزة؛ لوجود صفة الشدة في كل منهما. فليس غريباً إذن أن تطورت القاف في لغة الكلام عندنا إلى الهمزة[26]).

ويذهب براجشتراسر إلى أن قلب القاف همزة عند أهل القاهرة عائد إلى ذوق العصر "إذ إن أهل القاهرة كانوا قد استخشنوا صوت القاف واستغلظوه، فأبدلوه همزة، ثم انتقلت إلى بعض المدن الأخرى كدمشق والقدس الشريف"[27].

ويرى رمضان عبد التواب[28]، وكمال بشر[29]، أن العادة اللغوية عند أهل القاهرة هي التي تحكمت بالتغيير الصوتي لصوت القاف الذي تحول إلى همزة .

2. نطق القاف جافا (g) ، كالجيم القاهرية .

تنطق القاف جافا(g) كالجيم القاهرية، أو كالكاف الفارسية في معظم مدن السودان، والأردن **والإمارات العربية والخليج وفي قطاع غزة وبعض العراق، وفي لهجات البدو في الوطن العربي، وفي صعيد مصر[30].**

إن نطق القاف جافا(g) يعني، أن مخرج القاف قد تقدم إلى الأمام قليلاً، ليصبح صوتاً أقصى حنكي انفجارياً مجهوراً[31].

وقد روى بعض علماء اللغة القدماء[32] أن نطق القاف جافا كان سائداً عند بني تميم. يقول ابن دريد :"فأما بنو تميم، فانهم يلحقون القاف بالكاف، فتغلظ جدا فيقولون الكَوم يريدون القوم، فتكون القاف بين الكاف والقاف وهذه لفة معروفة في بني تميم. قال الشاعر:

ولا أكَول لكَدر الكَوم كَد نضجت ولا أكَول لباب الدار مكَفول [33]

كما كان نطق القاف جافا سائدا عند بني غنم من قبيلة أسد، فقد قرأوا"فأما اليتيم فلا تكَهر[34]

ويرى كمال بشر أن وجود هذا النطق لصوت القاف بكثرة يوحي بأنه أثر باق لنطق قديم، إذ انتشاره بكثرة في مناطق مختلفة في الوطن العربي يضعف احتمال كونه ابتكارا لغويا محليا[35].

ويذهب رمضان عبد التواب إلى أن هذا النطق لصوت القاف كان من التغييرات التاريخية في العربية القديمة[36]

أما عن العلة الصوتية في تحول القاف جافا(g) فيرى ابراهيم أنيس أن صوت القاف قد انتقل إلى الأمام قليلا باحثا عن أقرب الاصوات شبها به من الناحية الصوتية، فكان أقرب المخارج له" مخرج الجيم القاهرية والكاف، فلا غرابة أن تتطور القاف إلى أحدهما، وقد رجح تطور القاف في لهجة البدو، وبعض أهالي صعيد

مصر، إلى الجيم القاهرية، أن القاف في الأصل صوت مهجور، فحين تتطور تنتقل لإلى صوت مجهور أيضا، يشبهها صفة؛ لهذا اختارت القاف في تطورها الأمامي الجيم القاهرية دون الكاف[37].

3. نطق القاف كافا :

يسود نطق القاف كافا في مدن شمال فلسطين، وفي بعض مناطق السودان[38] فهم يقولون (كال) في قال، و(برتكان) في برتقال، و(متله كتل) في قتله قتلا.

ويبدو أن نطق القاف كافا قديم في العربية، فقد روي أن العرب كانت تقول: امتك الفصيل ما في ضرع أمه، أي شربه، في امتق، وتمكك في تمقق[39].

ويفسر رمضان عبد التواب تحول القاف كافا في بعض اللهجات عن طريق قانون الأصوات الحنكية؛ بأن تزحزح مخرج القاف قليلا الى الامام، مع ترقيقها واحتفاظها بصفة الشدة في نطقها[40]. وقرأ بعض الأعراب قوله تعالى:" فأمّا اليتيم فلا تكهر"(سورة الضحى ،آية 9) وقد نسبت إلى بعض قبيلة بني أسد، وهي قرآءة شاذة[41]

4. نطق القاف جيما :

يسود نطق القاف جيما في بعض مناطق الخليج العربي: مثل الامارات، والبحرين،وشمال العراق[42]، فهم يقولون في الشارجة في الشارقة، والجبلة في القبلة، والصديج في الصديق، والطريج في الطريق، وجاسم في قاسم و...

وجاء في الامثال العامية العراقية قولهم:" البزون لا تحب إلا خانجها" أي خانقها[43].

كما تحولت القاف جيما في لهجات بعض مناطق الأردن الأغوار إذ يقولون : إبريج المي بدلا من ابريق الماء. وجدّوم بدلا من قدّوم.

ولعل هذا النطق في صوت القاف له ما يؤيد وجوده في بواكير العربية الفصحى، فقد روت لنا المعاجم العربية كلمات وردت بالقاف والجيم من مثل: المقذاف والمجداف، التقادع والتجاذع، القذ والجذ، القرح والجرح، القص والجص[44].

ويذهب بعض اللغويين المحدثين[45] إلى تفسير قلب القاف جيما في بعض اللهجات ع طريق قانون الأصوات الحنكية، إذ من الملاحظ أن الكلمات التي قلبت فيها القاف جيما كانت القاف فيها مجاورة لصوت لين أمامي، كالكسرة التي نجدها في العقِل، والياء التي نجدها في: العاقِل، والياء التي نجدها في:قريب،قليل،طريق،رفيق، والفتحة المرققة أو الألف التي نجدها في القابلة والقاسي ومن ثم فإن صوت اللين الأمامي يعمل على جذب الصوت الذي مخرجه من أقصى الحنك مثل (القاف والكاف) إلى الأمام ، وصوت القاف ، الذي مخرجه من اللهاة ، إذن انجذب إلى الأمام في الفم ، خرج من وصت الحنك ؛ أي من مخرج الجيم التي تناظر القاف في صفتي الجهر والشدة [46] .

ونحن إذا أخذنا في هذا التفسير لتحول القاف كافاً ، فإن هذا النطق لصوت القاف يصبح من التنوعات النطقية المقيدة لا من التنوعات الحرة ؛ لأنه يشترط وجود صوت لين أمامي حتى تتحول القاف كاف .

5.نطق القاف غيناً :

يسود نطق القاف غيناً في بعض مناطق السودان وفلسطين وسوريا، وفي جنوبي العراق، وكذلك في البحرين والكويت[47].

ومن ذلك أنهم يقولون : لغاء في لقاء، يغدر في يقدر، الديمموغراطية في الديموقراطية ، والعلاغات في العلاقات، واغتصادي في اقتصادي، والاستغلال في الاستقلال.

ويذكر الدكتور رمضان عبد التواب، أن ثمة كلمتين قلبت فيهما القاف غينا في اللهجة المصرية وهما : يقدر ومشتقاتها اذ اصبحت يغدر ، وزغزغ بمعنى حرك يده في خاصرة الصبي ليضحكه، والأصل في الفصحى زقزق[48].

لقد عرفت العربية الفصحى شيئا من هذا التحول – تحول القاف غينا – في بواكيرها الاولى، فقد كان بعض العرب ينطقون بعض الكلمات بالقاف والغين، ومن ذلك ما رواه ابو الطيب اللغوي من قول العرب:" غلام أقلف وأغلف أي لم يختن، والقمز من الناس والغمز، أي الرذال ومن لا خير فيهم، وقلقل في الأرض وغلغل أي ذهب من الأرض[49].

ويذهب الدكتور عبد المجيد عابدين إلى أن مصدر هذا النطق – نطق القاف غينا – هو بعض لهجات المنطقة اليمنية وامتدادها في اتيوبيا. اذ لا تزال اللغة التجرينية في أثيوبيا تقلب القاف غيناً في مثل (تقبل) فتقول (تغبل) ، كما أن أهل اليمن عندما نقلو كلمة (بقل) بالقاف من لغة الحبشة إلى لغتهم ، وأعاروها أهل الشمال في الجاهلية ، وصلت إلى الحجازين بالغين (بغل وهو اسم الحيوان المعروف) ولا تزال بقايا هذه القاف التي تشبه الغين في بعض لهجات اليمن الحديثة ، في لهجتي تعز والحجرية يقال : " التَبَغْ في الطاغَة " يريدون : الطبق في الطاقة [50] .

أما عن العلة الصوتية ففي قلب القاف غيناً فيرى مصطفى حركات أن الغين هي المقابل الصوتي الرخو لصوت القاف ؛ لذلك كان من الطبيعي أن يتحول القاف غيناً في بعض اللهجات [51] .

ويذهب رمضان عبد التواب أن ضياع الانفجار من القاف .وتزحزح مخرجها إلى الأمام قليلاً ، هو السبب في تحول القاف غيناً[52] .

أما الدكتور أحمد عبد الرحمن حماد ، فيرى أن الصلة بين القاف والغين أنهما من مخرج واحد ، وهو أقصى الحنك عند اللهى ؛ وهذا هو السبب في قلب القاف غين في بعض اللهجات [53] .

6.نطق القاف صوتاً مزجياً بين الدال والزاي (dz) :

يسمع نطق القاف صوتاً مزجياً بين الدال والزاي في مدينة الرياض وضواحيها من الجزيرة العربية ، إذ يقولون : (دزِبلة) في قبلة و(دزِليب) في قليب ، وغيرها مما يزعم رمضان عبد التواب أنه سمعه بنفسه من أهل الرياض [54] .

ويُرجِعُ عبد التواب السبب في هذا النطق في صوت القاف إلى قانون الأصوات الحنكية ، إذ لا يطرأ هذا التغير في نطق القاف إلا إذا وليتها (القاف) كسرة ، والكسرة من أصوات اللين الأمامية التي تجذب أصوات الحنك إلى الأمام [55] .

7. نطق القاف عينا :

يسمع نطق القاف عينا في ريف حلب الشمالي الغربي في مثل (سلع وعلي) في سلق وقلي[56] .

ولعل السبب في نطق القاف عينا راجع إلى تغير مخرج القاف بان يراجع إلى الخلف فصادف العين التي تشاركه صفة الهمس .

وبعد، فإخالني لا أجافي الحقيقة إن زعمت أن سبعة التنوعات السابقة الذكر في نطق القاف ترتبط باللهجات واختلافاتها، أكثر من ارتباطها باللغة المشتركة – الفصحى – وإن كانت القراءات القرآنية قد جاءت موافقة لبعضها، يؤيد هذا الزعم ما جاء من وصف للقاف، سواء عند علماء اللغة القدماء، أو عند المحدثين.

وإذا أردنا أن نكون أكثر موضوعية في إعطاء الحكم في هذا الشأن، أمكننا اعتبار القاف التي نسمعها من المجيدين في قراءة القران الكريم، في الوقت الحالي، إلى جانب القاف المجهورة(g) التي تؤدى بما يشبه الجيم القاهرية، أو الكاف الفارسية، أمكننا اعتبار هذين الوصفين لنطق صوت القاف، هما الأساس الفصيح الذي قامت عليه العربية الفصحى – اللغة المشتركة – وما سواهما من اشكال ينطق بها صوت القاف لهجات، قد ترتبط بالفصحى ولكنها لا تمثلها.

التنوعات النطقية المقيدة لصوت القاف

يتغير نطق القاف في السياق الكلامي تبعا لما يجاوره من أصوات. ويسمى مثل هذا التغير – التغير في السياق الكلامي – ، تغيرا مقيدا؛ لأنه لا يتم إلا بسبب مجاورة الصوت لأصوات أخرى، تعمل على تغيير صفة أو مخرج ذلك الصوت – وهو هنا في هذا البحث صوت القاف – . ومن التغيرات النطقية المقيدة التي تطرأ على صوت القاف نذكر ما يلي :

- **القلقلة :**

القلقلة هي اتباع بعض الاصوات الانفجارية بصويت أو صوت قصير عند النطق بها ساكنة ، وتجمع حروف القلقلة بعبارة(قطب جد). ويسميها سيبويه الحروف المشربة وحروف القلقلة[57].

ويرى إبراهيم أنيس أن القاف المقلقلة التي تحدث عنها القدماء ليست القاف التي نسمعها الآن بل هي القاف المجهورة التي كان ينطق بها كالغين أو الجيم القاهرية[58] ويرجع سيبويه[59] وابن جني [60] سبب اتباع حروف القلقلة بصويت عند تسكينها الى شدة ضغط هذه الحروف يقول ابن جني في تفسير حدوث القلقلة :" وذلك لانك لا تستطيع الوقوف عليها الا بصوت ؛ وذلك لشدة الحفز والضغط ، وذلك نحو الحق[61].

أما بالنسبة لتفسير ظاهرة القلقلة في ضوء علم اللغة المعاصرة، فيفسرها كمال بشري في قوله " إن وجوب اتباع هذه الحروف. حروف القلقلة بصويت او بحركة خفيفة عندما تكون ساكنة، راجع إلى أن في هذا النطق تحقيقا كاملا لخواص هذه الحروف أي صفتي الانفجار والجهر . فعدم وجود هذا الصويت ينشا عنه تقليل صفتي الانفجار والجهر معا . وتفسير ذلك ان نطق هذه الاصوات بالذات نطقا كاملا واضحا حالة السكون (وبخاصة في الوقوف) يستدعي جهدا كبيرا . وذلك لان شدتها تعني ان الهواء عند نطقها محبوس حبسا تاما؛ ولان جهرها يعني عدم جريان النفس معها . ومن ثم يجب اتباعها بصوت او حركة خفيفة فتنتقل هذه الحروف من السكون الى شبه التحريك، فيتحقق نطقها كاملا بكل صفاتها من شدة وجهر ،،[62] .

ويرى عبد القادر عبد الجليل أن القلقلة ليست الا مبالغة في الجهر بالصوت؛ لئلا يعتريه بعض الهمس[63].

- الإدغام :

تدغم القاف بالكاف ، اذا تلازمتا وكانت القاف ساكنة قبل الكاف ، مع الحرص على اظهار الاستعلاء والاطباق في صوت القاف[64] ومن ادغام القاف بالكاف قوله تعالى :" الم يخلقكم ،،[65] " فقد قرائها جميع القراء بالادغام ، ولم يظهر القاف الا ابن ذكوان[66] ومن المثلة على ادغام القاف الساكنة بالكاف أننا نقول في مثل : لم ينطق كثيراً -- ، بحذف القاف وتشديد الكاف[67].

ويفسر سيبويه ادغام القاف ساكنة بالكاف بعدها ، بقرب مخرج الصوتين[68]. وكذلك يرى إبراهيم أنيس أنه لا فرق بين القاف والكاف إلا في إن القاف أعمق قليلاً في أقصى الحنك[69].

وأعتقد أن السبب في إدغام القاف بالكاف، راجع إلى صعوبة اننتقال مؤخرة اللسان من مخرج القاف إلى مخرج الكاف دون وجود فاصل – صوت صائت – بينهما، لا سيما أن مخرجيهما قريبان جدا من بعضهما ،

لذلك يتقدم اللسان إلى الأمام قليلا عند النطق بالقاف، فتماثل القافُ الكافَ، ثم تدغم بها، فينطقان كأنهما حرف واحد، وتسمى هذه الظاهرة بالمماثلة الرجعيّة أو التماثل المدبر(regressive)في الدرس اللساني الحديث.

- المخالفة في صوت القاف :

يذهب براجشتراسر على أن العربية تميل في بعض الحروف المشددة (المدغمة)، إلى فك الادغام ، ثم قلب الحرف الاول إلى حرف آخر، غالبا ما يكون من الحروف المائعة(ل ، ر ، ن) [70].

ومن الاصوات التي يحدث فيها هذا النوع من القلب(المخالفة)، إذا كانت مشددة، القاف، في مثل كلمة(فقّع) التي تحولت إلى فرقع[71].

ويرجع براجشتراسر سبب المخالفة في مثل هذه الحالة (في الحروف المشددة) إلى علة نفسية؛" وهي أن المتكلم يرجو أن يؤثر في نفس السامع زائدا، فلا يكتفي بالضغط على الحرف وتشديده، بل يضيف إليه حرفا آخر لزيادة ذلك التأثير"[72].

- إظهار القاف :

حرص العرب على إظهار القاف في حالتين، هما :

1. إذا وقعت القاف متحركة قبل الكاف أو بعدها فيظهر الصوتان ؛ خشية أن يتجاوز صوت إحداهما الأخرى مثل (فرقَ كُل ، خلقَكُم، رزقَكُم ، لكنكَ قَادر) [73].
2. إذا تكررت في مثل (يشّقّق) [74] .

- تفخيم القاف :

تعد القاف من الأصوات المفخمة في العربية ، غير أن تفخيهما لا يصل إلا درجة التفخيم الذي نجده في حروف الإطباق ؛ لذلك سماها (القاف) الدكتور عبد القادر عبد الجليل مع (الخاء والغين) بالأصوات شبه المفخمة أو المتوسطة التفخيم ، إذ قدر نسبة تفخيمهما مقارنة بأصوات الإطباق ب(50%) [75] .

غير أن هذه الأصوات (شبه المفخمة) قد تصل إلى درجة أصوات الإطباق في التفخيم ؛ وذلك بسبب ما يجاورها من أصوات أخرى مثل ألف المد في مثل (قال ، قادم) [76] .

- المماثلة في القاف :

لم يكن للقاف نصيب كبير في المماثلة ،فلا تحدث فيه المماثلة إلا في حالة واحدة ، وهي في نطقها المجهور –أي عندما تنطق (g) كالجيم القاهرية– إذا إجتمعت مع التاء في كلمة واحدة، إذ تتحول القاف كافاً ، أي تنطق مهموسة ؛ وذلك بسبب مجاورتها لصوت مهموس ، وهو التاء .ومن الأمثلة على هذا النوع من المماثلة قولنا (كتله، كتل ، مكتدر)[77] .

ويشيع هذا النطق بصوت القاف في لهجة البدو في الساحل الشمالي لجمهورية مصر[78]، وكذلك في قرى الشمال الأردني. واعتقد انه شائع كذلك في جميع المناطق التي تجهر بالقاف، فتحولها إلى (g).

ولعل الأمر مختلف في ستة التعددات المقيدة التي تطرأ على صوت القاف، أو على غيره من أصوات اللغة، إذ اعتقد أن هذه التعددات ترتبط باللغة المشتركة – الفصحى – أكثر من ارتباطها باللهجات الدارجة ومصداقية هذا الاعتقاد من نجده في قراءات القرآن المختلفة، إذ من النادر من نجد قارئا يخالف إجماع القراء في كيفية تأدية الصوت عند مجاورته أصواتا أخرى قد تؤثر فيه أو يؤثر فيها. كما أن لهجاتنا الدارجة تؤيد مثل هذا الزعم، إذ من النادر ما نجد لهجاتنا تعترف في مثل ما يسمى بالإدغام،أو الإخفاء،أو القلقلة،أو التفخيم، وغيرها من التعددات النطقية المقيدة.

وبشكل عام، أستطيع القول: إن معظم التعددات النقطية المقيدة في أصوات اللغة، ترتبط باللغة المشتركة –الفصحى– أكثر من ارتباطها باللهجات المتعددة باللغة الواحدة، وعلى العكس تماما فيما يخصّ

التعددات النطقية الحرة في أصوات اللغة، إذ ارتباطها- في معظمها – باللهجات الدارجة، يكون أكثر من ارتباطها باللغة المشتركة – الفصحى – .

الهوامش

(1) اللسان والمجتمع، 283/11.

(2) الرعاية،ص90

(3) Gairdner , p, 26

(4) انظر: بحوث ومقالات في اللغة،ص 20.

(5) الرعاية، ص 145.

(6) اللسان والمجتمع، 283/11.

(7) انظر سيبويه، الكتاب 405/2.

(8) ابن جني، سر صناعة الإعراب 278/1.

(9) ابن يعيش، المفصل 129/10.

(10) جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية 107.

(11) براجشتراسر، التطور النحوي، 12،15،16.

(12) كمال محمد بشر، علم اللغة العام، الأصوات 109.

(13) رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة 54-55 ،78.

(14) انظر كمال بشر، علم اللغة العام 110، رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة 54-55، عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية 179.

(15) كمال بشر، علم اللغة العام 110.

(16) عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية 180.

(17) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص 294.

(18) جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية 107.

(19) هنري، فليش، العربية الفصحى، ص 38.

(20) مصطفى حركات، الصوتيات والفونولوجيا 120.

(21) انظر بروكلمان، فقه اللغات السامية 48، رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة 14، كمال بشر، علم اللغة العام 111، محيى الدين رمضان، في صوتيات العربية 106، احمد عبد الرحمن حماد، الخصائص الصوتية في لهجة الإمارات 31.

(22) كمال بشر، علم اللغة العام 111، مصطفى حركات، الصوتيات والفونولوجيا 121.

(23) رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة 11.

(24) أبو الطيب اللغوي، الإبدال 561/2-562، رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة 12.

(25) مصطفى حركات، اللسانيات العامة وقضايا العربية 21.

(26) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية 86.

(27) براجشتراسر، التطور النحوي 28.

(28) رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي 35.

(29) كمال بشر، علم اللغة العام 111.

(30) انظر: بروكلمان، فقه اللغات السامية 28، براجشترسر، التطور النحوي 16، كمال بشر علم اللغة العام 110-111، رمضان عبد التواب،المدخل إلى علم اللغة 222-80، عبد المجيد عابدين من أصول اللهجات العربية في السودان 43، محيي الدين رمضان، في صوتيات العربية 105، أحمد عبد الرحمن حماد، الخصائص الصوتية في لهجة الإمارات 31،17.

(31) مصطفى حركات، الصوتيات والفونولوجيا 121.

(32) انظر: ابن دريد، جمهرة اللغة 42/1، وابن فارس، الصاحبي 36-37، والسيوطي، المزهر 222/1-223.

(33) ابن دريد، جمهرة اللغة 42/1.

(34) أبو الطيب اللغوي، الإبدال 356/2.

(35) كمال بشر، علم اللغة العام 111.

(36) رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، 222.

(37) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية 86.

(38) انظر: رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة 10، عبد المجيد عابدين، من أصول اللهجات العربية في السودان 45، محيي الدين رمضان، في صوتيات العربية 106، أحمد عبد الرحمن حماد، الخصائص الصوتية في لهجة الإمارات .

(39) محيي الدين رمضان، في صوتيات العربية .ص 105.

(40) رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، ص11. .

(41) انظر: ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن ص 175.

(42) انظر: رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة ، أحمد حماد، الخصائص الصوتية في لهجة الإمارات، 30-31، عبد القادر عبد الجليل، الدلالة الصوتية والصرفية في لهجة الإقليم الشمالي 35.

(43) عبد القادر عبد الجليل، الدلالة الصوتية والصرفية 35.

(44) ابن منظور، لسان العرب 277/9 و 24/9 وانظر كذلك عبد المجيد عابدين، من أصول اللهجات 44.

(45) رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، وأحمد حماد، الخصائص الصوتية في لهجة الإمارات 31-32.

(46) أحمد عبد الرحمن حماد، الخصائص الصوتية في الإمارات 31-32.

(47) انظر: رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة 10، وعبد المجيد عابدي، من أصول اللهجات العربية في السودان 43-44، محيي الدين رمضان، في صوتيات العربية 106، وأحمد حماد، الخصائص الصوتية 30-31.

(48) رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة 10.

(49) أبو الطيب اللغوي ، الإبدال 328/2-329 .

(50) عبد المجيد عابدين ، من أصول اللهجات العربية 47.

(51) مصطفى حركات ، الصوتيات والفونولوجيا 120.

(52) رمضان عبد التواب ، بحوث ومقالات في اللغة 11.

(53) أحمد عبد الرحمن حماد ، الخصائص الصوتية في لهجة الإمارات 33

(54) انظر: رمضان عبد التواب ، بحوث ومقالات في اللغة 10

(55) رمضان عبد التواب ، بحوث ومقالات في اللغة 11.

(56) انظر محي الدين رمضان ، في صوتيات العربية 106.

(57) سيبويه ، الكتاب 174/4.

(58) إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية 157.

(59) سيبويه ، الكتاب 174/4.

(60) ابن جني ، سر صناعة الإعراب 73/1.

(61) كمال بشر ، علم اللغة العام 116.

(62) عبد القادر عبد الجليل ، الأصوات اللغوية 278.

(63) انظر من القدماء سيبويه ، الكتاب 452/4 ، ومن المحدثين مصطفى حركات ، الصوتيات والفونولوجيا 121.

(64) المرسلات 77.

(65) ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر 19/2.

(66) انظر مصطفى حركات ، الصوتيات والفونولوجيا 121.

(67) سيبويه ، الكتاب 452/4.

(68) إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية 200.

(69) براجشتراسر ، التطور النحوي 35.

(70) براجشتراسر ، التطور النحوي 35.

(71) براجشتراسر ، التطور النحوي 35.

(72) محي الدين رمضان ، في صوتيات العربية 106-107.

(73) محي الدين رمضان ، في صوتيات العربية 107.

(74) عبد القادر عبد الجليل ، الأصوات اللغوية 152 ، و179.

(75) محي الدين رمضان ، في صوتيات العربية 184، وعبد القادر عبد الجليل ، الأصوات اللغوية 153.

(76) عبد العزيز مطر ، لهجة البدو في الساحل الشمالي لجمهورية مصر العربية 74.

(77) عبد العزيز مطر ، لهجة البدو في الساحل الشمالي 74.

المصادر والمراجع

1. **ابن ابي طالب،مكي،** الرعاية، **تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار الكتب العربية _ القاهرة.**
2. **ابن الجزري** ، النشر في القراءات العشر ، **تصحيح علي محمد الضباع.**
3. **ابن جني** ، سر صناعة الإعراب ، **تحقيق حسن هنداوي ، دمشق 1993.**
4. **ابن خالويه،** مختصر في شواذ القرآن، **نشره براجستراسر، دار الهجرة.**
5. **ابن دريد** ، جمهرة اللغة ، **تحقيق رمزي منير بعلبكي ، ط1 ، دار العلم للملاين ، بيروت لبنان ، 1987.**
6. **ابن فارس** ، الصاحبي ، **تحقيق السيد أحمد صقر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .**
7. **ابن منظور،** لسان العرب ، **دار صادر – بيروت .**
8. **أبو الطيب الغوي** ، الإبدال ، **تحقيق عز الدين التنوخي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، 1961.**
9. **أنيس ، إبراهيم** ، الأصوات اللغوية ، **ط5 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1979.**
10. **براجشتراسر** ، التطور النحوي للغة العربية ، **تحقيق رمضان عبد التواب ، 1977.**
11. **بشر ، كمال** ، علم اللغة العام ، **الأصوات ، دار المعارف – مصر 1975.**
12. **حركات ، مصطفى** ، الصوتيات والفونولوجيا ، **المكتبة العصرية – صيدا بيروت ، ط1 ،1998.**
13. ------- اللسانيات العامة وقضايا **العربية** ، **الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، ط1 ، 1998.**
14. **حماد ، أحمد عبد الرحمن** ، الخصائص الصوتية في لهجة الإمارات العربية ، **دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1986.**
15. **رمضان ، محي الدين** ، في صوتيات العربية ، **مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان .**
16. **سيبويه** ، الكتاب ، **تحقيق عبد السلام هارون ، ط2، 1983، مكتبة الخانجي – القاهرة .**
17. **السيوطي** ، المزهر في علوم اللغة ، **تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت 1986.**

18. **عابدين ، عبد المجيد** ، من أصول اللهجات العربية في السودان ، **دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1989.**

19. **عبد التواب، رمضان** ، بحوث ومقالات في اللغة ، **مكتبة الخانجي – القاهرة ، ط1 ، 1982.**

20. --------، لحن العامة والتطور اللغوي ، **دار المعارف ، القاهرة 1967.**

21. ------- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، **مكتبة الحانجي ،القاهرة ، ط1 ، 1982.**

22. **عبد الجليل ، عبد القادر** ، الأصوات اللغوية ، **دار الصفاء ،عمان–الأردن ، ط1 ، 1998.**

23. ------- الدلالة الصوتية والصرفية في لهجة الإقليم الشمالي ، **دار صفاء، عمان الأردن ، ط1 ، 1997.**

24. **عمر، أحمد مختار**، دراسة الصوت اللغوي، **عالم الكتب، مصر، 1976م.**

25. **فليش، هنري**، العربية الفصحى، **ترجمة ، عبد الصبور شاهين، ط1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1966م.**

26. **لوفيفر، هنري**، اللسان والمجتمع، **ترجمة:مصطفى صالح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983م**

27. **كانتينو ، جان** ، دروس في علم أصوات العربية ، **ترجمة صالح القرمادي ، تونس ،1966.**

28. **مطر، عبد العزيز** ، لهجة البدو في الساحل الشمالي لجمهورية مصر العربية ، **دار المعارف ، مصر ، 1981.**

- **المراجع الأجنبية.**

1- Gairdner, W.H.T. The phonetics of Arabic, oxford University Press, 1925.

هل يخرج من السرد قصيدة؟ إلى أي مدى يمكن اعتبارالسردية (Narration) من مكونات النص الشعري؟ للوقوف على إجابة لهذه الأسئلة أو غيرها الذي يصب في اتجاه علاقة السرد بالشعر ، لا بد من الانخراط في مسألة تحديد المفاهيم،ولنبدأ بمفهوم السرد.

العودة للمعاجم العربية ترشدنا إلى مفاتيح لهذه المسألة ، فنجد في لسان العرب :(السرد لغة هو تقدمة شيء إلى شيء تأتي به منسقا،بعضه إثر بعض متتابعا. وسرد الحديث ونحوه يسرده سردا إذا تابعه . وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق) (1) ونجد في الوسيط : يقال سرد الدرع أي نسجها فشلُ طرفي كل حلقتين وسحرهما ، والحديث والخبر متتابعا، والسرد اسم للدروع المحكمة النسج ، وشيء سرد متتابع) (2).

إن ما يستخلص من البعد اللغوي للجذر (سرد) يقود إلى مفهوم الجمع والنسق والنسج المحكم المتتابع، والتتابع تبعا لعلاقات التجاور المنظم، وبذلك يبدو فن السرد طريقة متعلقة بالأسلوب وكيفية التعبير، عندما يراد تطبيق المفهوم على النصوص الأدبية.

لم يقف مفهوم السرد عند هذه الحدود الواصفة، وإنما تعدى الأمر ليصل إلى مستوى المصطلح القار في العصر الحديث ، وبالتالي أصبح موضوعا للدراسات النقدية الحديثه ، ويمكن بوساطته التعامل مع فحص النصوص وتقييمها، وبالتالي أصبح جزءا من الدرس النقدي الحديث.

إن مفهوم السرد حديثا، راح يتشعب كثيرا ليصيب بأثره معظم الأجناس الأدبية، خاصة القصة والرواية والشعر.

أصبح السرد يتحرك بوصفه مقابلا للحكي والحكاية ، ولا يمكن القول أن جميع أنواع الحكي تمثل نصا فنيا ، لا سيما وأن طرائق الحكي تتنوع بتنوع الأجناس ، ولنا أن نؤكد على أن مفهوم الحكي والحكاية، قديما، راح يتطور عبر الزمن ، ويبدو أن جذوره ضاربة في القدم ، حتى ليمكن القول: إنها تصل إلى بداية التلفظات والكتابات الإنسانية ، لكن مع التمركز حول النص الفني والإبداعي، راح يظهر على السطح البعد القيمي لمادة الحكي، خاصة التي تنطوي على نسق خاص لا يشير إلا إلى صانعه –مبدعه تحديدا.

يبدو أن الدراسات النقدية الحديثة ، ومع تزاحم الأجناس الأدبية ، غالبا الرواية والشعر ، راحت تعيد إلى الحكاية والسرد البعد القيمي اللافت ، ثم إن الدرس النقدي الحديث لم يغفل علاقة السرد مع الأجناس الأدبية المختلفة .

الذي يقودنا لهذا القول ، ما نراه من تطور ملحوظ في المصطلح عبر الدراسات النقدية الحديثة ، التي باتت تطلق مصطلح السرد على كل محكي ، خاصة ما له علاقة بالنص الإبداعي ، ولعل الذي شجع على هذا التناول النقدي ظهور التداخلات والتعالقات بين النصوص، وعدم إمكانية الفصل بينها بشكل صارم.

إن الرجوع لمفهوم السرد حديثا يفتح لنا الطريق أمام إحداث مقاربه له في النصوص الإبداعية الحديثة خاصة ؛ لقد ورد في معجم (G.Prince جيرالد برنس) أن السرد (Narrativ)هو: (الحديث أو الإخبار – كمنتج وعملية وهدف وفعل وبنية وعملية بنائية– لواحد أو أكثر من واقعة حقيقية أو خيالية) (3) ، وتعني اللحظة التسريدية (Narrating instance):(الفعل الإخباري لسلسلة من الوقائع والمواقف، وبالتبعية، السياق الزمني –المكاني بما في ذلك السارد والمسرود له، لذلك الفعل) (4)، وتعني الشفرة السردية (Narrativ code) : (نظام الأعراف والقواعد والأجزاء المؤلفة التي يتم عن طريقها إضفاء الدلالة على الرسالة، وهذا النظام ليس أحاديا ، إنه يصل ويربط ويستدعي مجموعة من الشفرات التابعة – الشفرة التأويلية والشفرة الحدثية ، والشفرة الرمزية ...) (5).

من هذه التعريفات يمكن القول : إن فعل السرد وعنصره الجوهري هو النص الذي ينطوي على خبر، أو حدث يقع في زمان ومكان ويتم تقديمه من سارد معين ، ويمكن أن ينطوي على أبعاد عميقة يمكن أن تصل إلى حد الترميز ، ومن هنا يمكن الكلام على الشفرة والدلالة العميقة والبسيطة... والخبر بحد ذاته يحتاج إلى عناصر تقيمه، وهي : السارد والمسرود والمسرود له ، وما دمنا بصدد الحديث على الشعر، فلنا أن نطرح مسألة وجود الخبر ومشتملاته فيه؛ فهل ينطوي الشعر على هذه العناصر، أو بعضهاعلى الأقل؟ يرى صلاح صالح في تعريفه للسرد اصطلاحا أنه : (فرع معرفي يحلل مكونات و ميكانزمات المحكي ، ولكل محكي موضوع ؛ إنه يجب أن يحكي عن شيء ما ، هذا الموضوع هو الحكاية)(6) ، ولم يحدد هذا الباحث أن المقصود بالحكي هنا هو النص القصصي أو الروائي أو الشعري ... حتى أن البعض يربط الحكي بالإنشاد ، كما يذهب عبدالله إبراهيم من خلال رصده للمصطلح عبر التراث القديم ، فيقول : (كان لإنشاد السير الشعبية تقاليد ثابته ، وصفها الباحثون ، وفيها يقوم المنشد بقراءة جزء من أجزاء السيرة في مكان ما ، وقد ترافق القراءة مقاطع موسيقية على بعض الألات كالربابة والجوزة ، وكانت هذه التقاليد معروفة على نطاق واسع في منتصف القرن العشرين ، في كثير من المدن العربية) (7)، ونحن نتفق مع هذا الباحث إلى حد بعيد.

يمكن أن نضيف لما ذكر، من خلال تتبع مفهوم هذا المصطلح عبر الزمن ، أن السرد كان مترابطا وظاهرا في النصوص الشعرية العربية القديمة، إضافة إلى الأجناس التي كانت شائعة في عصرها، دليلنا على ذلك تلك اللوحات الجميلة التي أضحت نمطا يشار إليه في بنية القصيدة العربية الجاهلية ، وما تلاها من عصور اتكأت على الأسلوب نفسه، فلوحة الطلل مثلا كانت تقدم قصة السارد – الراوي في النص – قصة لشخصية محورية مع المحبوبه أو تقدم حالة معها ، أو خبرا عنها، ولوحة الرحلة مثلا، تقدم قصة الظعينة مع الراوي أو مع من يدير الخبر أو يدار عليه ، مثل ذلك يمكن أن يقال عن اللوحات الأخرى المضمنة في النص الشعري ،وحتى بعض قصائد الصعاليك ،التي كانت كثيرا ما تسرد سيرة صاحبها مع الإنسان والكون والعالم، إنها حزم من الأخبار والسرود والحكايات تبث عبر هذا الجنس الأدبي – الشعري–، إ ذ نجد في هذا النمط من الكتابة تداخلا نصيا بين جنس القصة وجنس الشعر.

لم يقف الأمر عند هذا الحد ،فهذا سعيد يقطين يرى أن الخطاب الحكائي هو: (كل خطاب يدفعنا إلى استدعاء عالم مدرك كواقع مادي أو روحي ، وهذا العالم يقع في زمان ومكان محددين ،وهو يعكس غالبا فكرا محللا لشخص أو مجموعة من الأشخاص، بما فيها الراوي)(8) ، هذا التعريف لا يحصر السرد بجنس أدبي محدد ، فالقصيدة تقدم خطابا ، وتستدعي، بوصفها نصا، عالما من الخيال لدى المتلقين ، وتحثهم على تمثل وقائع وأمكنة وأزمنة ، وفق مسيرة وتوجهات الخطاب النصي ومنتجاته، والقصيدة كذلك تضمر راويا ومنشئا للنص ، ومتلقيا ضمنيا ومفترضا وعاما... لأن (الشيء الأساسي في قراءة كل عمل أدبي هو التفاعل بين بنيته ومتلقيه ..ومن هنا يمكن أن نستخلص أن للعمل الأدبي قطبين ، قد نسميهما: القطب الفني والقطب الجمالي،الأول هو نص المؤلف ، والثاني هو التحقق الذي ينجزه القاريء)(9) .

وفق هذا المفهوم لم يعد السرد/الحكي مسألة تتعلق بقص ما أو نشيد ما... فمع كل تلفظ يبني نصا وينفتح على دلالت معنوية، يمكن الوصول إليها، يكون منطويا تحت جناح السرد.

السرد النصي إذا يشكل موقفا من العالم والوجود ، إنه رؤيا من الكون والحياة، ينقله الراوي وسيطا بين المؤلف والمتلقي بأنواعه ، وقد يتعدى ذلك ليصبح رؤيا للمجتمع والعصر، عبر الراوي وعبر النص ،ينقل خطابا ما ، أيدلوجية ما للمتلقين.

السرد عندما يتداخل مع فكر وأيدلوجية الذات المنشئه له يقترب من السيرة الذاتية للفرد المتكلم ، أو للمؤسسة التي يعبر عنها الفرد، إنه خطاب الحالة الساردة، إنه مرور من حالة إلى أخرى ، ومن هذه الرؤيا يمكن فهم ما يرمي إليه (G.Genette جيرار جينيت) عند قوله عن الحكاية: إنها(ارسال لفظي) (10) ويقول : (وعندي أنه حالما يكون هناك فعل أو حدث ، ولو فريد ، قصة ، لأن هناك تحولا ، مرورا من حالة سابقة إلى حالة لاحقة وناتجة)(11). ولا يمكن القفز عن علاقة الشعرية بالسرد التي تسهم هي الأخرى في تذويب الفروق بين الأجناس الأدبية ، حيث نجد كثيرا من النقاد يبحثون في هذه القضية ، وعلى رأسهم (. T.Todorov تزفتيان تودوروف) الذي يمهد لإزالة الفوارق بين الشعر والنثر لتنطوي بمجملها تحت مصطلح النص، وتدخل في السرديات ، بوصفها المساحة الأكثر رحابة لاحتضان المرسلات اللفظية ، فها هو يقول: (ستتعلق كلمة شعرية في هذا النص – يعني كتابه الشعرية- بالأدب كله أكان منظوما أم لا، بل قد تكاد تكون متعلقة ، على الخصوص ، بأعمال نثرية)(12).

لقد أوردنا كل ذلك لنشير إلى إمكانية فحص النص الأدبي وقراءته استنادا إلى علم السرد، والتقنيات السردية، التي غالبا ما كان ينظر إليها على أنها تتعلق بدراسة القصة والرواية والحكاية، ونحن نريد إعادة الاعتبار لهذا اللون من الدراسات في الجنس الأدبي الأكثر شيوعا، وأعني به الشعر هنا.

لنعد إلى السؤال الجوهري :هل يخرج من السرد قصيدة؟ وإلى أي مدى يمكن للطرائق والتقنيات السردية أن تتغلغل في نسيج النص الشعري ، دون أن تسلبه شعريته؟ إن القراءة المتأنية لكثير من النصوص الشعرية القديمة والحديثة تجعلنا نقع ، أو على أقل تقدير، نستشعر لونا من ألوان الحكاية أ و لونا من ألوان السرد المنطوي على القص ، ولا نجد كبير عناء في اثبات هذه المسألة ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار

المفهوم الكامن وراء مصطلحات مثل: (حكاية ، قص ، رواية ، سرد..) ، ولعل هذا المنحى كما سلف لا يتحدد بالشعر الحديث فقط ، وإنما يمكن أن ينسحب على القديم كذلك .

سنحاول الآن الوقوف على نماذج من الشعر في الأردن ، يتوافر فيها البعد السردي، بوصفه مكونا من مكونات النص ،. إن أية دراسة نقدية تحاول اكتناه وتتبع البعد السردي في النص، لا بد لها من الوقوف على مسألة السيرة الذاتية،لأن الكاتب /منشئ النص أثناء الكتابة يصبح هو وغيره في آن بحيث (يخلق المؤلف صورة لنفسه،وصورة أخرى لقرائه، إنه يصنع قارئه كما يصنع ذاته الثانية ، والقراءة الأكثر نجاحا هي القراءة التي يمكن فيها للذاتين المبدعتين ، أي القاريء والمؤلف ،أن يتوصلا إلى الإتفاق) (13)؛ ذلك أن السيرة الذاتية للنص إنما هي حصيلة امتزاج بين الأنا والعالم ، إذ أنه (في السيرةيشتغل الميثيولوجي والشعري في منطقة متداخلة ، بحكم اشتغال التخييلي الذي يسحب السيرةمن مضاربها التاريخية – الشعبية– الشخصية إلى التحوير)(14)، والنصوص التي نختارها هنا تنطوي على قدر واضح من الحكاية، وطرائق السرد، وامتزاج التاريخي باللاتاريخي، دون أن تفقد شعريتها .

لقد ارتأينا أن نأخذبعين الإعتبار نماذج من الشعر الأردني المعاصر الذي يتوزع بين أنماط ثلاثة: العامودي – الكلاسيكي– ، وشعر التفعيلة ، وقصيدة النثر، سعيا إلى إلقاء الضوء على حركية هذا الشعر وعلاقته بالسرد.

النموذج الأول : الشعر التقليدي–قصيدةعرار أنموذجا

تنتمي معظم أشعار عرار– مصطفى وهبي التل– إلى نمط الشعر العامودي التقليدي، حتى أنه في القصيدة التي بين أيدينا (أنفاس عيد الفصح) والتي اخترناها نموذجا ، ينحى فيها الشاعر منحى اللوحات التي يمكن أن نجدها في القصيدة العربية القديمة،على مستوى الشكل، على أقل تقدير، وإن اختلفت عنها في بعض المضمونات المثارة فيها، وقد جعلها مصرّعة، على بحر الرمل ، وابتدأها بلوحة خمرية:

هاتها واشرب فإن اليوم فصح وقبيح بالفتى في العيد يصحو(15)

إن هذا التوجه يحملنا على إبداء رأي حول إمكانية وجود السرد الذي ينطوي على قص ، في الشعر القديم، وفي الشعر الذي ينسج على منواله، إذ يجد الدارس ، في هذا اللون من الشعر ، سردا للحكايا والقصص والمغامرات ... إلخ، هذا السرد الذي يحول العالم والحياة إلى مدونةحكائية، أو على حد تعبيرعبدالفتاح كليطو، تصبح (الحكايات مدرسة للحكمة، غير أنه يلزم وقت طويل لاكتسابها) (16)، سواء أكانت هذه الحكاية في جنس الشعر أو القصة أو غير ذلك، وكان يمكن للقاريء من خلال قراءاته للنص القديم ، لا سيما القصائد الطوال ، المعلقات مثلا، الوزقوف على لوحات سردية متتالية ، تتضمن كل منها حكاية ، أو قصة للذات المتكلمة في النص ، أو للآخر ،عندما يكون المتكلم راويا– ساردا– .

إن لوحة الطلل مثلا ، تتناول في النص الشعري، سيرة الراوي مع المكان وشخوصه وأزمنته وأحداثه، ولوحة الرحلة يمكن أن تحكي سيرة الراحل، بوصفه شخصية ، وعلاقته بالأمكنة وما يدور فيها من أحداث ... وقد يبث الراوي من خلال سروده مضمونات مختلفة تتوافق ومقولة النص الأساسية، ويمكن أن يقال ذلك عن لوحة الصيد ، ولوحة وصف الحرب ...الخ.

كل ذلك ، وربما غيره، يشي بوجود عناصر سردية ما، أو إرهاصات لطرائق قصصية، أو حكائية ، ولعل غياب التصنيف الحاسم للأجناس الأدبية ، وقلة التدوين في العصر الجاهلي، على الأغلب، أسهم في تشكيل هذه العناصر البنائية للحكاية والقصة في جنس الشعر ، وربما في أجناس أخرى نثرية مصاحبة ، كما نجد في الحكايات والملح ،التي وردت في كتاب البخلاء للجاحظ (– ت 255هـ) حتى لفتت هذه المسألة نظر الباحثين فذهبوا إلى الإشتغال عليها بوصفها حكايات تجسد بدايات تكون السرد والقص العربيين(17).

إن النصوص القديمة، ومنها الشعر الجاهلي ،ومن نسج على منوالها ،فيما بعد يعتمدون في سرد حكاياتهم وقصصهم على طرائق معينة ، أصبحت تشكل ملمحا لافتا للسرد القصصي فيما بعد، ومن هذه الطرائق – التقنيات– نجد أسلوب العرض ، والملحة والحكاية البسيطة، والتمثيل ، وتقديم المشهد الحركي ، القائم على الحسيّات ، ولا يتسع المجال لإيراد أمثلة، ونكتفي بالإحالة على شعر المعلقات، ولعل هذه الأساليب ، وتفككها، وعدم وجود ضابط تقني لها ، كان بسبب تداخلات الأجناس الأدبية ، وبسبب تسلط جنس الشعر على ما عداه، فكان الشعر بمثابة الجنس الأكثر امتصاصا للأجناس الأخرى.

هذا التوجه الكتابي ، جعل المتلقي يواجه نصوصا تنحازإلى السرد،التاريخي التوثيقي ، بثوب شعري، أو على حد تعبير (بول ريكور P.Recour) في مثل هذه النصوص: جعلها (نوعا من الأمثولة على الزمانية ، ولكنها أمثولة من نوع خاص كالأمثولة اللاهوتية ، والأسطورية ، والشعرية ...الخ ، مع ذلك فقد أسندت للسرد التاريخي مهمة تمثيل واقع يقدم نفسه للشعور الإنساني من جانب واحد ، على الأقل، بوصفه سردا ولكنه ممكن الفهم في آخر الأمر) (18).

إن عرار الشاعر، في نصوصه ، أفاد كثيراً من أساليب القدماء في رفد قصيدته بالبعد السردي ، لكنه رفد يتكيء على منتجات الشعر الحديث ، أو المعاصر له ، على أقفل تقدير ، فهو لم يغرق في التفاصيل ، ومن هنا، لم تكن قصيدته طويلة ، كما نجد في المعلقات ، وجاءت لغة النص قريبة من التداول ، لكنها لغة محمّلة بالتعالقات النصية والفكرية والأيدلوجية ، وهذا ما أنقذ شعريتها، لا سيما عندما اتكأ على بناء صور فنية قائمة على استثمار عنصر الخيال ،كما نجد في الصورة المثارة في البيت :

إن هذا العمــر ليل ما له يا أخي في غير فق الكأس صبح (19)

لقد أفاد الشاعر هنا من مكونات الصورة الحديثة ، التي تتجاوز المحسوسات إلى الخيال ، جعل للكأس أفقا يطل منه الصباح، وجعل العمرليلا ،ومثل هذه الصورة لا يمكن تمثلها إلا في الخيال،حتى أن العتبة النصية الأولى للنص، المتمثلة بالعنوان، تنطوي على صورة فنية عالية تتكيء في مكوناتها على

استثمار الخيال، بشكل لافت، إذ أنسن العيد، وجعل له أنفاساً، ثم إن عرار ذهب إلى تقسيم قصيدته ، شأن القصائد القديمة ، إلى لوحات ،وشأن بعض القصص والروايات، وضمنها سرودا لحكايات وقصص يمكن تمثلها في الواقع، حيث تداخلت هذه السرود لإنتاج سرد قصصي متكامل ، يحكي سيرة إنسان وشعب وأمة .

يبدأ الشاعر قصيدته بلوحة خمرية ، إلا أن هذه اللوحة تتمركز على أحداث وأمكنة بعينها وشخوص تتحرك في هذه الفضاءات المكانية والزمانية المحدودة، التي يمكن تخيلها بشكل واضح ، فهو يعرض من خلال هذه اللوحة لمشهد /طقسية لأناس يمارسون احتفالا بعيد الفصح في كنيسة ، فتكونهذه الحكاية منطلقا لبث حكايات أخرى تنسجمع بعضها البعض وفقا لاستراتيجية النص بكاملة، ولوجهات النظر المنتوقعة منه ، والمتلقي بعد قراءة اللوحة ، يتمثل المشهد ويمكن له أن يتقمصه ، كمافيالأبيات التالية:

هاتها واشرب فإن اليوم فصح وقبيح بالفتى في العيد يصحو
إن في الدير أبا فذ النـــدى ونبـــيذ وراعابيب وصدح
ومسيح كيس كهانـــــه دأبهم في الناس إصلاح ونصح(20)

استثمر عرار في هذه السياقات الشعرية وغيرها أسلوب العرض والتمثيل ، بشكل لافت ، وهذا من شأنه أنيقدم مشهدا احتفاليا جاذبا للتلقي، فيظهر ، من خلال هذا العرض، بعض التقنيات السردية التي تعرف في جنس القصة والرواية ، ومن أنماط السرد التي نراها هنا، تلك التي تتعلق بالكيفية التي يعرض بها السارد/ الراوي في النص الشعري الوقائع والأحداث، ومن يقوم بها من شخوص، وهذا يتوافق ليقدمها لنا ، وإننا نعلم بوجود نمطين للسرد ، كما ذهب إلى ذلك النقاد الحداثيون، وهما التمثيل(Rpresentation) والحكـــــي (Narration). هذان النمطان يقابلان في مستوى أكثر عينية الخطاب والقصة ، ويمكننا أن نفترض أن لهذين النمطين في السرد المعاصر مصدرين :القصة التاريخية والدراما) (21)، ومن الطرائق السردية التي يمكن رصدها في هذه القصيدة والتي ذابت في نسيج الشعرية لهذه القصيدة المختارة يجد الدارس الحالي:

أ- الحوار

إن أسلوب الحوار ، بوصفه تقنية سردية يتضح من الفعلين : (هاتها) ، (اشرب)، حيث يفترض هنا وجود طالب ومطلوب من خلال صيغة الأمر، وهذا ما يثير مسألة الحوار بين اثنين ، وفي الوقت نفسة يشي هذا الكلام بوجود الحركة/ المتنامية مع الحدث ، إضافة إلى أن الحوار هنا يشكل عنصرا سرديا هاما في بنية النص- الحكاية في هذه الأبيات- وعندما تأتي هذه الأفعال بصيغة المفرد فإنها تشكل عنصرا باثا وجاذبا للمتلقي ، لأن (الحديث بصيغة ضمير المفرد يرضي فضول القارىء المشروع... ،وهو بالمقابل ،

يضيف على الأقل مظهرا من مظاهر التجربة المعيشة ، التي تأخذ القارىء مأخذا محترما وتقلل من عدم ثقته) (22) .

لم يكتف الشاعر بهذا،بل ذهب إلى جعل الجملة (هاتها واشرب) بمثابة الصيغة (Mode) ، ويتوضح هذا بتكرارها في اللوحات على شكل لازمة أيضا، بحيث تبدو هذه الصيغة وكأنها افتتاحية لقصة جديدة تتداخل وتتقاطع مع قصص أخرى ستثار في اللوحات المتبقية. ثم إن هناك صيغ حوارية أخرى تظهر في النص ومنها الجملة (دع الشيخ) ، والجملة (ودع بود) حيث يبدو الخطاب هنا للآخر، ونجد حوارا أيضا من خلال أسلوب النداء في الجملة (فأنا يا عوف) ، كل ذلك يمكن أن يضاف للضمائر التي تسيطر على النص والتي تتركز في قسم كبير منها على ضمير المتكلم والغائب ، ومثال ذلك الأبيات:

لست صوفيا ولكني إذا أحضر الذكر فذكري فيه شطح
إنها رجس ولكن ربنا أنه عفو وإغضاء وصفح
وبفقه الدن متن نصه هامش الكأس لمتن الروح شرح..(23)

ب – الحدث المشهدي

يعد الحدث في جنس القصة والرواية عنصرا أساسيا في إقامة المتن الحكائي ، وعرار الشاعر، يبدو بارعا في انتقاء الأحداث ، ودمجها في جنس الشعر ، ليقدم لنا بوصفنا متلقين رؤية عن العالم والكون والحياة ، ويبث من خلال المشاهد التي يعرضها لنا بشعرية لافته إيديولوجيته واتجاهاته الفكرية، إضافة إلى نقده للطرائق الفكرية السائده عن الأمة والحياة والناس.

إن جنس الشعر ،هنا ، يصبح وثيقة على العصر ، بهذه الكيفيات التعبيرية التي سنمثل عليها الآن، لكن عرار لم يغرق في بناء قصيدته بالمباشرة والخطابية التقليدية، وإنما أنقذ نصه باستثماره لصور شعرية ، وتعالقات نصية عميقة، وكثافة شعرية تتكيء على الإيقاع الداخلي والخارجي للنص الشعري ، باختصار عرار لم يقع تحت ضغط التاريخ، وتسجيل الواقع، على حساب شعرية النص.، ولعل النص التالي يوضح هذا المنحى الذي ذهبنا إليه:

هاتها واشرب فقومي كاد من فرط ايقاظي لهم صوتي يبح
فأنا يا "عوف"نشوان أسى وخماري اليوم آلام وبرح
وبقلبي من عشيات الحمى ذكريات في حناياه تلح
وجماح الحر هيهات له إن يثره الضيم إمساك وكبح (24)

فالجمل: (نشوان أسى) و(خماري اليوم آلام وبرح) و (ذكريات تلح)و(جماح الحر) ... كلها تركيبات وتكوينات لصورة قائمة على استثمار عنصر الخيال والتكثيف متجاوزة لمسألة المشبه والمشبه به فقط.

ج – الزمان والمكان

لعل هذه القصيدة، وكما يتضح من أبياتها تركز بشكل لافت على فضاءات الأمكنة والأزمنة ، فقد ورد المكان لتسع وعشرين مرة في أبيات القصيدة، التي لا يتجاوز عدد أبياتها ،كما سلف، السبعة والعشرين، ويلفت الانتباه أن هذه الأمكنة التي وردت بصراحة في النص ، تتوزع جغرافيا، بين المملكة الأردنية الهاشمية ، موطن الشاعر الأصل ، وبين المملكة العربية السعودية ، في اغترابه المؤقت ،ومن هذه الأمكنة نجد: (الدير ، المنبر– المسجد– ، الحمّر ، وج، زيزاء، الدوحاء، منى، عمان، الأردن،رغدان– القصر– الحمى، ...) وهذا دليل لافت على اشتغال المكان بوصفه بؤرة نصية في النص وتسهم في أن تكون مفتاحا لتفكيك النص وقراءته.

ولا تقل أهمية حضور الزمان ، فضاءً في النص ، عن حضور المكان، حيث ورد ت أزمنة متعددة تشكل مع الأمكنة فضاءات لحركية الأحداث والشخوص وما ينطوي عليهما من أبعاد متنامية، ولعل الحس الإغترابي لدى الشاعر ، هو الذي جعل الأزمنة والأمكنة تظهر بهذه الكثافة ، ومن هذه الأزمنة نجد مثلا :(اليوم ، العيد، العمر، ليل، صبح، البعد، ...) إضافة للأبعاد السياسية المثارة قصدا، وفي زمن بعينه، وهو زمن الأحداث الذي يركز عليه الشاعر عرار ، لا سيما بعد ضياع القسم الأول من فلسطين عام (1948) ، وفقدان الزمن العربي المضيء،والجراح التي ألمت بالإنسان العربي في مواجهة ذلك، وقد عبر عن هذه المواقف صراحة في الأبيات:

موطني الأردن لكنـــي به كلما داويت جرحا سال جـرح
وبنفس رحلة عن أرضـــه عله يشفي من الإرهاق نـــزح
كل ما أرجوه لو أن منـــى عاثر الجد لإذا يرجـو تصـــح
أن أرى لي بيت شعر حولـه من شلايا قومك السرحان سرح
في فلاة ليس للعلـــج بهـا حية تسعى وثعبـان يفـــح(25)

د– الشخوص

من الطبيعي أن تكون الشخصيات من من العناصر السردية للقص، لكنها في الشعر تفقد الكثير من سماتها القارة في النصوص القصصية والروائية، لأن مسألة القناع فيها يختلف ، والمساحة الشعرية لا مجال فيها لتقديم توصيفات عن الشخصية،؛ فذلك يثلب العمل أهميته ، ويخفف من شعرية النص، ومن هنا يكون تبرير وجودها منوطا بما يصاحبها من أحداث تتعالق نصيا مع مرجعيات أكثر كثافة ورمزية.

يقع العبء الأكبر،هنا، على الشاعر لتخليص ذهنية المتلقي من تمركزه حول سرد يسينحاز لجنس القصة فقط ، رغم أنه يتناو وقائع وأحداث قد نجد شبيها لها في الواقع،لأن (السرد يقوم – في مهمته الأساس – بترحيل أحداث وفعاليات بعينها ؛ ينتقيها الكاتب، من الواقع الحقيقي أو المتخيل، إلى علم اللغة،

حيث يرتبها ترتيبا مخصوصا ليتخلق بذلك النظام الزمني في العمل السردي) (26)، ولنلتفت هنا أننا إزاء لغة شعرية ،ولسنا أمام كلام نثري آخر.

الشخوص في هذا النص الشعري ، منتقاة بعناية فائقة ، تمثل إطلالة على عصر وبيئة، وعلى رموزومرجعيات لها حضورها في ذاكرة المتلقي العربي، على الأقل، فشخصية الشيخ عبود تمثل المرجعية الدينية عند المسلمين على اعتبار أنه إمام،يعتلي المنبر في النص، والكهان في الكنيسة كذلك هم مرجعية عند النصارى، هذا يضاف إلى دور مثل هؤلاء زمن النص الذي قيلت فيه، إذ عاش عرار في الفترة ما بين (1889-1949) .

أما شخصية الشافعي صاحب كتاب (الأم)لا يمكن أن تمر دون التفكير بتعالقاتها النصية مع التراث والدين والتاريخ، لا سيما عندما يقدمهم عرار بصورة في بعضجوانبها تشيي بالسخرية، وهنا يتضح البعد الإيدلوجي عند عرار ، ومدى اعتراضه على الفكر السائد المتعلق بالتراث تعلقا أعمى، ومن ذلك يبدو النقد الإجتماعي والسياسي والفكري،ولعل الأبيات التالية تسلط الضوء على ما ذهبنا إليه:

إن في الدير أبا فذ النـــدى ونبيذ ورعابيـــب وصـــدح
ومسيحَ كيـــسَ كهانـــه دأبهم في الناس إصلاح وصلح..
هاتها واشرب ودع عبود من شرح متن" الأم"يستهويه شرح(27)

النموذج الثاني: شعر التفعيلة – قصيدة المقدادي أنموذجا-

تتصدر هذه القصيدة التي اختار الشاعر لها العنوان (أبي) المجموعة الشعرية الموسومة "ذاكرة النهر"، وتنطوي القصائد بمجملها في هذه المجموعة على جملة النداء التي تؤسس لأسلوب الحكاية والقص في النص الشعري، ويبدأ الخطاب بنداء للأب منذ البداية (أبي) ، وتصير جملة النداء لازمة تتكرر على مدار النص، ويفترض النص وجود متكلم وسامع، أو راوي ومروي له، ويتناول النص موضوعات وشخوص وأحداث عدة، ويأتي في مقدمتها اشتغال الحكاية، بوصفها أسلوبا، لإثارة المدلولات المتفرعة عنها من خلال الشعر، ويمكن أن نرصد تبعا لهذا الأسلوب حركة السرد فيما يلي:

العنوان بوصفه عتبة سردية:

يشكل عنوان القصيدة (أبي) مفتاحا سرديا لافتا من خلال بنية الكلام التابع للعنوان مباشرة، والذي كان بمثابة اللوحة التصديرية للنص، بمعنى كان نصا موازيا للنص، حيث يظهر أن الكلمة (أبي) هي للوهلة الأولى بمثابة الخبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا ، لكن هذا لا يستقيم عند متابعة القراءة للوحة التصدير، وهنا يحولنا مسار القراءة بالضرورة إلى جملة يذوب فيها معنى النداء ، لا سيما عندما تأتي جملة نداء تالية لكلمة أبي بصورة مباشرة، هذا يتبين من الصياغة للتصدير والعنوان معا ، بصورة مدمجة ، حيث جاء في التصدير:

أبي
يا أبي ...،
الروافد تحن إلى النهر
فأين أنت
يا نهري الجامح العظيم (28)

عند قراءة هذه اللوحة التصديرية المحاذية ، بل والمدمجة بالعنوان، يبدو الخبر متصلا بالنداء ، وبتكرار جملة النداء على مدار النص ، بوصفها لازمة لكل لوحة، يتبين مدى الإلحاح على انشاء اسلوب الحوار ، حيث النداء هو بداية لتكّون الكلام بين إثنين ، نقول ذلك لأن المنادى يتلوه فراغ يطل على فضاء منفتح ، ويمكن القول إنه لا نهائي حتى لو انتهى بالفصلة ، التي كان مابعدها فراغا لا متناهيا، هذا المعنى يقود إلى غياب مفتوح للمخاطب المقصود بجملة النداء ، وسيؤسس إلى كونه مخاطبا مفترضا في الحكاية ، أو متخيلا على الأقل ، وهذا هو جمال الشعر. يفتح هذه الدلالات وغيرها عدم استجابة المنادى وغياب صوته ،هنا على الأقل. يقود لهذه النتيجة جملة السؤال: أين أنت؟ فالمتكلم /الراوي في النص إزاء تيه وضياع ، وهو الباحث دون جدوى عن الأب . الشعرية /الشعر ، وفق هذا المسار، لا تقف عند هذا الحد من الدلالة، إذ بقراءة متنامية للنص تنفتح دلالة أخرى قد تحيل إلى مرموزات مختلفة ، وقد يتحول الأب إلى الماضي القديم وإلى آدم ... الخ.

إن عتبة النص هنا جاءت مشحونة بحكاية تنطوي على سرد من القول، سرد يوضح علاقة بين الأثنين (الأنا /الإبن والآخر/ الأب) ، وتؤسس العتبة النصية لقصة المتحاورين وتظهر الخطاب الناتج عنهما ،وبشكل خاص ، خطاب الإبن الراوي والسارد للحكاية في النص.

إن الكلام على العنوان يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته (لقد شبه جاك دريدا العنوان بالثريا التي تحتل بعدا مكانيا مرتفعا ، يمتزج لديه بمركزية الإشعاع على النص (29) ، واهتمامنا بعتبة النص يأتي لاعتقادنا أنه يكتب بعد الفراغ من كتابة النص–غالبا– وبالتالي فهو يكتب من لحظة وعي ، ويسجل وجهة نظر منشيء النص نحو نصه، ثم إن الشاعر لم يجعل السرد متسلطا ، حتى لا ينسى المتلقي أنه أمام شعرية تنتمي إلى جنس الشعر، فذهب إلى استثمار الصورة الفنية القائمة على أبعاد الإستعارة والإنحراف السياقي ، واعتماد الخيال لإثراء الصورة؛ فجعل الأب مقابلا للنهر والأبناء– الأجيال – مقابلة للروافد المتوالدة من النهر العظيم.

التصدير والعنوان ، وفق المنحى السابق ، يقدم للمتلقي مدخلا لقصة أو حكاية، على أقل تقدير، ومن التقنيات السردية المتوافرة هنا، يظهرأسلوب الحوار، والخطاب ، والمناجاة، وسيكون المرتكز الأساس فيما يلي من سطور القصيدة .

عند الدخول إلى القصيدة والشروع في قراءتها ، يقع المتلقي على تقنية سردية واضحة تحيل إلى سارد ، ومسرود ، ومسرود له، وتذكرنا هذه التقنية بأسلوب الحكواتي والقص التقليدي، كجملة (كان ياما كان) ، التي تحيل إلى زمن ماضي لكنه لا متناهي ، بينما الجملة (كنت طفلا) تنغلق على زمن في حياة

الشخصية الماضية، وهو زمن الطفولة، الراوي هنا يتموضع في زمن محدد تقريبا يتراوح من سنة إلى ما قبل البلوغ ، وهو زمن معلن ، وهذا المنحى الأسلوبي من سمات القص ، وهذا الزمن يمكن الإمساك به عند القراءة ، وتغدو جملة(كنت طفلا) نافذة لتقديم مزيد من الأحداث ، ومزيد من الأزمنة والأمكنة والحوادث ، وكل ذلك من متعلقات القص، فما علاقة القصة إذا فيما نذهب إليه؟

القصة هي: (سرد قصصي لأحداث مرتبة تبعا لتسلسلها الزمني ...إن القصة تتمتع بميزة واحدة ، هي الميزة التي تجعل المستمعين يريدون معرفة ما يلي) (30)، فهل الشعر، أو بعض السياقات الشعرية تحمل المتلقي على انتظار ما يلي؟ الإجابة على ذلك يمكن أن تكون بالإيجاب، المتلقي هنا يعيش تحفزا مستمرا لمعرفة ما يجري للأب والإبن، ولا يجد الإجابة إلا مع اكتمال القراءة، وهي إجابة أيضا ملبسة ؛ لأن من استراتيجية النص السردي هنا هي فتح حزم من الدلالة وحزم من التوقعات، وهذا في صالح النص، لأن من هدف النصوص الحداثية الرفع من سوية القارئين وحفزهم على التفكير. فما هي الأحداث التي يسردها الراوي في القصيدة ؟ نجد في النص:

كنت طفلا
قبل أن تمر كرة يركلها المارة ذوو الأصابع المنتفخة
وقبل أن تهشم إحداها آنية الفخار التي
عجنت طينتها بيدي الضئيلتين
شكلتها ،من قبل، على هيئة الطير ، كسوتها ريشا،
ونفخت فيها من روحي ، ثم أرسلتها في فضائي كي
تنشئ عالما غير هذ...!
عالم من سناء الأشياء ، وطعمها النوراني المقدس
عالم أودع فيه أحلامي المتصاعدة ، إلى أن تكون المواسم
لي...وتكون الفصول!!(31)

في هذه اللوحة الأولى، يسرد لنا الراوي على لسان الطفل علمه االأول ، وينقل أحلامه، وعبثياته ، وعلاقة هذه الأفعال بالوجود والحياة والعالم. إن العودة لهذا العالم هي عودة الى الحنين للماضي الإيجابي ، ورفض الحاضر السلبي، والخطاب موجه هنا إلى متلقي غير معين ، لكنه مع مسار القصيدة سيكون موجها إلى الأب، والأب سيتحول من الأب الواقعي إلى الأب الرمز، ويتضح ذلك من السياق: (كنت طفلا ...، تغمرني يداك يا أبي ..) . القصيدة بحكايتها وسرديتها لا تنقل مجرد رثاء للأب ، إنها تتجاوز هذا بكثير.

السارد في النص هو الطفل ، والمسرود له هو الأب ، والمسرود هو الحكاية بما فيها من محمولات ،ويقدم لنا الحوار هنا عنصرا سرديا بامتياز، لكنه سرد مكثف بعناصر الشعرية، ولهذا يصبح للنص وجهان، بل وجوه، الوجه الظاهري القريب من الحوادث والمتعالقات الواقعية ، وآخر خفي، ينطوي على وجوه متعدده،

ومرموزات مختلفة. المتلقي للنص يبدو كأنه إزاء خطاب يتشظى إلى خطابين في آن: خطاب يتوجه إلى قارئ عادي ، وآخر يتوجه إلى قارئ متعمق.

قد يعترض معترض على إمكانية وجود الحوار في الشعر، و يسأل عن جدوى الحوار ، لكننا نقول: إن الحوار يوجد في الشعر، وإن أحسن الشاعر استثماره يكون فاعلا ومؤثرا في شعرية النص، وقد استثمر الحوار بشكل لافت في المسرح الشعري عند شوقي ، في مسرحية هدى مثلا، وكان له وظيفة قصوى في تفعيل مسألة الدراما في النص، والحوار في هذا النمط من الشعر يحيل المتلقي إلى لحظة من التأمل ، والتمثل لحالتين متقابلتين عن شخصيتين في السرد ، وهما الأب والإبن، ولإدراك أهمية الحوار نقدم تعريفا شائعا له ، فهو : (حديث يدور بين اثنين على الأقل ، ويتناول شتى الموضوعات ، وهو كلام يقع بين الأديب ونفسه ، أو من ينزل مقام نفسه ، يعرض فيه الإبانه عن المواقف ، ويكشف عن خبايا النفس)(32)

.

إن ما تطرحه الشخصية في اللوحة السابقة ، من خلال الحوار هو التمركز في عالم الطفول، وما كان فيه من لحظات إيجابية مملوءة بالفرح والبراءة والعبثية ... ويريد الراوي الإبقاء على هذا الزمن، والتعلق فيه والهروب من الزمن الآني ؛ إنه حوار يمتلئ بالعتاب للأب ، بكل ما يرمز إليه ، ثم إن استحضار الأب والحديث معه ، رغم أنه في عالم الغياب ، لهو محاولة للتمسك بالماضي والحنين إليه ، والإنفلات من الحاضر والثورة على الواقع. الحوار يقدم نقدا لافتا للواقع المعيش بالنسبة للراوي، وهذا يتضح من السياق:

كل شيء يكبر فينا ويشيخ
أرأيت يا أبي...
كل شيء ينخره السوس ، ويغزوه العفن... والدمار

الشاعر لا يكتفي بالحكاية والسرد، بوصفهما اسلوبا تقليديا، كما يفعل الحكواتي الذي ينقل المتلقي ،غالبا ، الى عوالم ما ويتركه فيها ليتخيل بمحدودية اللحظة – زمنية إلقاء الحكاية– أو يحيله إلى وقائع تبدو أكثر قربا من الواقع. الشعر يتجاوز ذلك ، فالراوي في الشعر أكثر انحرافا عن الواقع، ويحاول الإيهام به عبر الصور الفنية، والإنحرافات الإسلوبية. ومن هنا يبدو المتكلم عبر النص باثا لوجهات نظر ناقدة ، ومن بين ما يتوسل به الشاعر هنا لإثراء الشعرية عنصر الإيحاء لتخفيف شحنة الحكاية ، وحتى لا يبقى المتلقي أسيرا لأجواء القص فيعيده إلى الشعر من خلال الشعرية الكثيفة ، ومن خلال توسلاته بالتناص والمتعالقات النصية، وهذا الجانب يعمق مساحة التأمل عند القاريء ومن المتناصات في هذه القصيدة ، التي تسهم في تكثيف شعريتها:

أ- سردية التناص الديني

ينهل هذا النص /القصيدة من مرجعيات متعددة ،منها القرآن الكريم،وهي مرجعية استثمرها كثير من الشعراء، وبالتحديد من قصة عيسى عليه السلام ومعجزته في إعادة الحياة للجسد، بإذن الله، وقصة إبراهيم

عليه السلام الذي أراد الإطمئنان لخلق الله تعالى وقدرته، فنجد هذه التوظيفات في النص الآتي : (كنت طفلا يا أبي ...، قبل أن تمر كرة ... شكلتها ، من قبل ، على هيئة الطير ، كسوتها ريشا ، ونفخت فيها من روحي، ثم أرسلتها في فضائي كي تنشيء عالما غير هذا) **(33) . هذا النص يحيل المتلقي إلى السرد القصصي القرآني ، فيحملنا على استحضار الآيات:** (أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله)**(34) والأية:** (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطيربإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني)**(35)**.

الآية الأولى تتحدث عن قصة عيسى عليه السلام، و خطابه لبني أسرائيل، تبيانا وإثباتا لنبوته، والثانية كذلك، وقد يحيل إلى السرد القصصي الذي يتناول سيدنا إبراهيم عليه السلام،في الأية(وإذ قال إبراهيم ربي أرني كيف تحيي الموتى قال:أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي،قال فخذ أربعة من الطيرفصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم)(36).

الراوي في النص يدمج القصتين: (القصة ذات المرجع الديني، والقصة التي تدور أحداثها على الأب والأبن) ومع اضفاء مسألة الشعرية إلى جانب الطرائق السردية التي تتوضح من خلال بنية اللغة(أسلوب النداء مثلا) وأسلوب(الخبر) الذي يقابل الحدث، ثم أسلوب الحوار وبنية الشخصية الإنسانية ...ألخ كل ذلك يدفع المتلقي لإحداث مقاربة بين النص المرجعية،المشتقة من القرأن الكريم،والنص المقرؤ، ليصل المتلقي لإحداث وجهة نظر تجاه المدلولات المثارة .

الشاعر لا يعيد القصة الدينية بكيفيتها، وإنما يقدمها بوصفها عنصرا فاعلا يكثف النص /القصيدة ، بينما الشخصية/الأبن في محاورته لا يريد أن يكون نبيا أو متنبئا بما يكون فقط ، وإنما يشير إلى حالتين متقابلتين من خلال التعالقات النصية، فيقدم نقدا للعالم– الحلم الذي كان – ويتوج وجهة نضره بالرفض الشديد للحالة التي يعيشها في الواقع بقوله: (ثم أرسلتها –الكره التي شكلتها–في فضائي كي تنشئ عالما غير هذا)(37)، **وهنا يسأل المتلقي: أي عالم هوالذي سيكون غير هذا المعيش ؟! وأي عالم يحلم به؟ فهو يرفض العالم الذي كان يودع فيه الأحلام والأمنيات ، وليست أية أحلام يريد، وإنما يبحث عن الأحلام المليئة بالمواسم، والمتجددة عبر (الفصول) ، وهذا ما ينبثق عنه السياق: (عالم أودع فيه أحلامي المتصاعدة ، إلى أن تكون المواسم لي... وتكون الفصول)؛ إنه البحث عن التجديد والتغيير باستمرار.**

ب– سردية التناص مع التراث القديم

يتكيء الشاعر في هذه القضية على صوت الطفل بوصفه راويا ، ويقدم على لسانه الأحداث التي كانت تقع في أمكنة وأزمنة مختلفة، ولها مرجعية تراثية ، خاصة في ذاكرة الإبن، الذي سيتحول مع حركة النص إلى الصوت المقابل للجيل المعاصر، هذا الجيل الذي يستحضر الزمن الماضي ، وتمثيلا على ما ذهبنا إليه، نجد النص التالي:

(كنت طفلا ..، وكانت البيادر ، والحواكير ملاعبي. وكان الثغاء المبكر في الصباحات الماطرة يملأ علي

كياني.. والخراف المتقافزة فوق أسوار بيتنا الخشبية تتملك علي دهشتي ، قبل أن تتوقف عن بهلوانياتها المحببة لتصير أكباشا متورمة الأقفية، وغير مبالية بكل هذا الضوء ... والفرح)(38).

الصورالثلاث الأولى تبدأ بالأزمة التي تؤسس للحكاية، (كنت ، كانت ، كان) وجميعها صيغ لغوية تحيل الى زمن الأحداث والأفعال، وإلى الأمكنة (للبيادر والحواكير والملاعب...)، ثم ينبثق عن هذه السطور الشعرية قصة الطفل مع هذا العالم ،الذي يشكل مساحة يمكن استثمارها وإعادتها عبر الزمن . الراوي ينقل عالم البيادر، والحواكير، والمواشي، والصباحات الماطرة ،والأسوار الخشبية ... وكل هذه الكلمات والجمل ترسم عالما له طبيعة خاصة، تنشأ عن مجتمع بسيط يعيش على الزراعة ، ويرتضي بالأشياء البسيطة ... كل ذلك يقدم للمتلقي نكهة خاصة عن هذا المجتمع القديم لأبائنا، وما كان فيه من أشياء ، إضافة إلى صورة الطبيعة ،التي يبدو لها نكهة خاصة هنا ، تشير إلى بيئة قديمة تصلح وثيقة على العصر الذي تدور الأحداث فيه، وتكون مكانا مناسبا لحركة القص.

الشاعر يقدم قصة الأباء/الأجيال السابقة مع هذه العوالم .. و ينحاز لهذا العالم لفطرته وجماله ونقائه...الخ، ومن هذا يأتي الانبهاروالدهشة على لسان الراوي / الطفل ، ويتحول الشاعر من السرد القصصي إلى شعرية كثيفة لإنقاذ المسار الحكائي، حتى لا يتسلط على النص ويسلبه جماليته الشعرية، ومن هنا يتوسل بالإنحراف النصي والسياقي، ويتوسل بالصور الفنية المتكئة على الخيال ، فيؤنسن عالم الحيوان، ويجعل للطبيعة قدرة على إثارة الدهشة، والنفس (المتورمة الأقفية)، ويجعل الشاعر للمواشي ذاكرة تفكر لتصبح غير مبالية بالضوء، (العالم الجميل والطقسية المبهجة).

هذه اللوحة تشكل نقطة أنفلات وتحول إلى سرد آخر، ويجعل الشاعر من خلاله قصة للإنسان مع العالم والحياة ، وويثير مسألة حركية الأزمنة والواقع المتحرك على الإنسان .(كل شيء يكبر فينا ويشيخ، كل شيء ينخره السوس، ويغزوه العفن الأسود... والدمار)(39) **. بهذه الكثافة الشعرية يكشف الشاعر عن الوجه السلبي للزمن الذي يثير الغضب والفساد في الجسد الأنساني ، إنها قصة الإنسان مع الزمن والمكان والموت... حتى أن الراوي يطلق عبارة (الحكاية) في السياق النصي، ليبين لنا مدى الأثر السردي القصصي على مسار النص الشعري؛ فهاهوالنص يذكر:**(الحكايات التي نسجناها على عتبات بيوتنا الفقيرة في فجوات الليل) **(40)، هنا ترتبط الحكاية بالحلم ، لكنه الحلم المتهافت المظلم كالليل الذي يضارع الزمن السلبي، الذي تدورعليه الحكاية في هذه السياقات ، وليس الزمن فقط ، كذلك يقدم الراوي في النص الحالة المجدبه واليباس للمكان ، وبالمجمل لكل فضاء زمن، يسلط الشاعرالضوء على هذا الجيل مقارنة بالأجيال الماضية، التي كانت أكثر إيجابية، وهذا ما يظهر من حكاية النص وسرده في الآتي:**

أرأيت يا أبي !!كيف تشيخ بهجة الأحلام في ربوعنا !!

فلم يعد لنا

غير دعواتك التي سيجت بها بيتنا العتيق ...،

ولم يعد في حقولنا من شيء

سوى ذلك الغبار

يسد علينا نافذة الضوء

ويعلق أغنياتنا على مشانق الإنهيار (41)

ويختم الشاعر قصيدته (فلتعش يا أبي بصمتك الشامخ ولنمت يا أبي في ضجيجنا الكسيح)**(42)**، **وإذا ما أخذنا بزمنية كتابة النص (1990/7/1) أي بعد حرب الخليج واجتياح العراق، يظهر مدى اليأس الذي يعيشه الشاعر، وحنينه لزمن الانتصارات العربية القديمة، وينعى زماننا زمن الهزائم، ولعل وجود الشاعر في مغتربه أثناء كتابة القصيدة يعمق حس السوداوية لديه ، لا سيما وأنه في نيوجرسي بأمريكا تلك التي تمثل هجمة الغرب على البلاد العربية والإسلامية، وهذا مثبت في نهاية النص .**

ج- سردية التناص الشعبي

يقدم لنا النص في هذه القصيدة ،أيضا، مستوى آخر من مستويات التناص ، وهو المرجعية المتكئة على الأغاني الشعبية ، والألعاب الشعبية القديمة التي كان يمارسها الأطفال والطقوس الإجتماعية البسيطة للأجيال السابقة، فالراوي يقدم في النص التالي صورة عن حكاية المجتمع عبر مرافقة الأغاني الشعبية للرعاة، والمجتمع الرعوي، وأغاني مواسم الحصاد :

الحكايات التي نسجناها على عتبات بيوتنا الفقيرة ، في فجوات

الليل...،

أهازيج البيادر في مواسم الحصاد ....،

تراتيل الرعاة في الحقول...(43)

مثل هذا النص وغيره ، يشي بمدى الإتكاء على الموروث القديم، رغم بساطته، لكنه مشحون بدلالات عميقة ، يقع على المتلقي عبء اكتشاف مرموزات هذا النص، وما ينطوي عليه من أبعاد. العودة مثلا لهذه الأغاني، تنقل لنا حلم الشاعر وحنينه لهذا العالم الطبيعي ، الأكثر نقاء وجمالا ؛ كأن الشاعر من خلال حكاياته وسرده في هذه السياقات يرى فيها الأجواء النظيفة ، والفاعلة والمريحة للنفس ، مقابل ما لحق بالنفس والطبيعة بفعل الإنسان من عطب وتلوث وفساد.

كل هذه المعطيات يقدمها الشاعر من خلال أصوات يوظفها عبر النص ، وعبر الراوي ؛ فيوظف صوته بضمير الأنا ، وصوت الطفل وصوت الأب ، وصوت المختفي ،على تقنية المنولوج الداخلي ، وصوت الهو، الذي يسترجع الأشياء، كل ذلك يستثمره دون أن يخل بمسار شعرية النص ، ودون تفكيك مخل لبنية الشعرية في هذه القصيدة.

النموذج الثالث:" قصيدة النثر "

1- قصيدة العناني أنموذجاً

اخترنا لهذا الشاعر نصه الموسوم (أكثر من موت مرّ على قلبي)، إذ يتميز نص العناني بالقصر والكثافة ، لانتمائه لمعطيات قصيدة النثر ،وهذا النمط يفترض فيه إذا ما أريد له أن ينطوي في جنس الشعر أن يتكثف ، بحيث يصبح المحمول اللغوي للنص يفوق العادي والمألوف، وينحرف عن المتداول من القول

حسب مفهوم الإنزياح والإنحراف عند(Jean cohen كوهن) ، الذي يرى أن (القصيدة الشعرية ليست التعبير الأمين عن عالم غير عادي ، إنما هي التعبير غير العادي عن عالم عادي . إن القصيدة الشعرية هي كيمياء الفعل)(44) ، ولهذا يحتاج التعامل مع النص المتكون بهذه الطريقة إلى قراءة مختلفة، بحيث تتجاوز القراءة حدود الشعر ، وتصبح القراءة الكلية للنص ضرورية، حيث تصبح القصيدة (مجموع مركب وغير قابل للتجزيء ، يصير كل شيء فيه حسب عبارة بودلير دالا ومتبادلا ومتضادا ومناسبا) (45).

إذا كيف نبحث عن السردية في هكذا نص؟ لعل مايشجعنا على ذلك ، انتما نصوص العناني إلى قصيدة النثر ، وهذا يغري المتلقي للوهلة الأولى ، لعلمه أن مصطلح قصيدة النثريحتمل ذلك، لكن الحقيقة توضح أن مهمة المتلقي لتتبع الخيط السردي في قصيدة النثر أكثر صعوبة ، لانطوائها على المجانية والتكثيف الشديدين ، إضافة لشعريتها العالية ، التي تتطلب غالبا البحث في (الميتانص) .

إذا كان كل تلفظ يحتمل السرد، فمن الطبيعي أن يكون الشعر سردا ، لأن المتكلم يحكي مافي ذهنه قبل كل شيء، لكنه سرد ذو طبيعة خاصة، وقد نستند لقول (جوليا كريستيفا Julia Kristeva) عن الشعر حيث ترى أن اللغة الشعرية تشتمل الشعر والنثر(46)وهذا المناصرة يقول:(في النثر نجد كمية من الشعر أحيانا ، كذلك نجد في السرد بعض الشعر، ولكن الحدود بينهما غير واضحة، بل متداخلة وغير حاسمة)(47)، مثل هذه النصوص يمكن أن تستثمر طرائق السرد وتقنياته ، وتشحن به مضموناته الموضوعية والفنية، وبالتالي ستدعو القاريء لمزيد من القراءة والتعمق ، وتجذبه إلى حزم دلالية متعددة ، وهذا مما تطرحه أسلوبيا قصيدة النثر التي تقوم في الحدود المتماسة بين الشعر والنثر .

قد يطرح سؤال آخر عن إمكانية تحمل قصيدة النثر للسردية التي قد تعني لدى البعض أنها تحتفي بالإسهاب ، فنرد عليه بأن ليس الإسهاب من شرائط السرد ، فيمكن للإنسان أن يسرد حكايته بأقل ما يمكن من الألفاظ مع تضمينها أكبر قدر من المعاني ، وقد قال الصوفيون قديما : كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة، تقول (Suzan bernard سوزان برنار) : (على قصيدة النثر أن تتجنب الاستطراد والإسهامات التفسيرية ، أي كل ما يؤول بها إلى أنواع النثر الأخرى ، كل ما يضر بوحدتها وكثافتها ؛ لأن قوتها الشعرية لا تتأتى من رقى موزونة ،بل من مركب اشراقي)(48) ، ونحن نشاطرها القول ، فقصيدة النثر يمكن أنُ تضمن النص سردا وحكاية وقصا،ولكن تحت شرط الكثافة المعبرة والمنطوية على أكبر قدر من المعاني ، وعندما تكسر أفق توقع القارىء، وعندما تحتوي على بعد اشراقي يحتاج لمزيد من التأمل والتفكير.

إن قصر شريط النص اللغوي والفضائي في القصيدة، موضوع الدراسة، يظهر مدى اعتناء العناني بمسألة الكثافة اللغوية والدلالية في آن ،وقصر الشريط اللغوي والبصري للنص لا يعني عدم امكانية وجود السرد القصصي أو الحكائي، وهذا يحسب له،ويذكرنا بمفهوم القصة القصيرة جدا ، أو القصة الومضة، وفضاء النص الزماني والمكاني خاصة ينطلق من الزمن، حسب يمنى العيد، التي تراه زمنا أحاديا، (يتوالى في شريط مادي لغوي ، هذا الشريط يتميز بقصر مدته – القرائية والكتابية ... – على أن قصر زمن القص المادي أو طول مدته لا دخل له بطوله التخييلي) (49) وهذا الأمر الذي تراه يمنى العيد، خاصة العلاقة بين القص والسرد والتخييل، أمر في غاية الأهمية عند النظر إليه من زاوية القراءات الشعرية.

زياد العناني/ الشاعر يميل لهذا اللون من الكتابة ، ففي قصيدته (أكثر من خوف مرّ على قلبي) يقدم لوحات مكثفة في شريطها البصري والقرائي واللغوي ، وفي هذه اللوحات يسرد من خلال الراوي قصة الأنا/ الإنسان ، في الكون والحياة، المتماهي في ضمير المتكلم بالضرورة، نتيجة لمرموزات المعنى في بنائية الجمل .

لنبدأ بالعنوان ، هذا الذي يشكل عتبة لدخول النص ، إذ يتضح أن الصياغة الأولى للعنوان هي صياغة سردية بامتياز، لانطوائها على حكاية ، تقدم في خلفياتها القرائية أحداثا وأزمنة وأمكنة، فجملة (أكثر من خوف) تستدعي أكثر من حدث نتج عنه الخوف، وكلمة (مرّ) تستدعي فعلا زمنيا متحركا، وشبه الجملة (على قلبي) تستدعي مكانا تقع فيه الأحداث وترحل عنه ، إضافة إلى الشخصية التي تظهر على لسان الراوي وتتكلم عن نفسها، بدليل الياء في قلبي. فنحن بوصفنا قارئين أمام قصة هذا الإنسان الذي أراد أن يدفعنا لمعرفة عوالمه وقصته في الوجود ،ومأزقه من هذا الوجود، لنتخذ وجهة نظر تجاهها.

السرد يقدم حكاية الوجود/ العالم ، عبر التقنية السردية المستثمرة والمستعارة من جنس القصة والرواية ، فالشاعر لا يقدم الأمكنة والأزمنه وفق المعتاد والمتداول ، وإنما يتوسل بالانحراف والإنزياح ، على مستوى اللغة وتركيبة الصورة؛ فصورة الطبيعة مثلا تتعدى مفهومها المكاني للأحداث، فها هومثلا يؤنسنها، ويجعل للأشياء أحاسيس ومشاعر، ويصبح المتكلم هو وليس هو في الوقت نفسه ، وهذا ما يفيد في مسألة شعرية النص ، لنقرأ السياق التالي من القصيدة:

في كل يوم
تفصح الطبيعة
عن ميولها (50)

قد لا يبدو السرد هنا متسلطا بقدر تسلط الشعرية ، وهذا مبرر من حيث إرادة الشاعر أن يدخل للقصيدة بشعرية عالية، ثم يتحول الى السرد الكثيف ، ومع ذلك يمكن الحديث عن سرد يتناول حكاية الطبيعة ، لكنها ليست أية طبيعة ؛ إنها الطبيعة التي تمتلك أحاسيس ومشاعر بل وتتكلم، (تفصح) عن المشاعر، وحاول الشاعر هنا أن يكثف البعد الفلسفي العميق لمعطيات الوجود من خلا هذه السياقات الشعرية.

أما اللوحة الثانية فتبدأ بتقنية سردية وبأسلوب الحوار الموجه إلى الأب ، لكنه الأب الممتد من الأن وحتى أدم، إنه السلالة الأنسانية على شريطها الزمني الأفقي . انفتاح السرد على هذا الشريط الزمني يوضحه السياق:

يا أبي
أزف اليك أفراح التناسخ
بعد قليل
ستغلف معجون الأرواح
ونغزو أسواق التصدير .
الموت تقاعد

ولهذا سأبشر خنجرك الكونيّ

وأقول:

ما عاد ترابي يطعن في الظهر كما السابق

وستظهر تسوية أخرى

يمكننا

المشي

إليها

من غير الدعوات التي كانت

تذوب بفعل الشمس حين نرفعها إليك.(51)

يتضح، منذ القراء الأولية، أن النص ينطوي على حوار واضح بين الأب والإبن ، ويتأسس هذا الحوار بجملة النداء ، ويبدأ الراوي بالكلام على نفسه، ويحاور أباه، وينقل إليه حدث إغلاق معجون الأرواح ، وهو سياق يمكن أن يشير إلى انتهاء الجنس البشري ، بعد زمن ما، يراه الراوي قريبا ، ويتحول الراوي من ضمير الأنا إلى ضمير الجماعة ، ليتحدث الراوي بلسان الإنسان بعامة في هذا الوجود ، وكأني به ينقل بسرديته وحكايته قصة وجود الإنسان على هذا العالم ،ومشكلاته فيه .

يطرح الشاعر من خلال هذا ا النص مسألة وجودية ، لطالما أقضّت مضجع الفلاسفة ؛ ولكن بأسلوبية شعرية تمتح من ماء السرد . المتلقي يستشعر نبرة المرارة الكامنة من الوجود ، بظرفيته وكيفيته ، ويغدو الإنسان من وجوده المتعب باحثا عن الراحة الأبدية في الموت ، هذا الذي أعطاه الشاعر صفة التقاعد ،ويصبح التراب أصل الخلق- مطلبا ورفيقا يسار إليه ،فهو الملاذ لأنه لا يغدر .هذه النظرة الإديولوجية تجاه الكون والعالم والحياة كثيرا ما استثمرها الكتاب والمبدعون في نصوصهم م، وهذا المنحى يثري النص، ويدعو المتلقين للذهاب إلى ما وراء النص ، لسبر أغواره والوقوف على الدلالات المثارة فيه، لإن كان الشعراء التموزيون يتكئون على الأسطورة مثلا ، بوصفها مرجعية محورية للنص ، فإن شاعرنا يتجه إلى الأبعاد الفلسفية لتعميق الدلالة.

السرد يقدم قصة الإنسان في العالم، ويحاول الخلاص من عوالم الواقع المتعبة، وهنا يبرز السؤال : هل نلوم آدم على نزوله لهذا العالم ، ونتهمه باقتراف الخطيئة، الراوي عبر سروده هذه يدعو المتلقي لاستحضار قصة آدم (عليه السلام) دون أن يذكرها ، وهذا هو التعالق النصي الأكثر جمالا ونفعا؛ لأنه يستحث المتلقي على التفكير فيما ورائيات النص، ويصبح الأمر دمجا لقصة في القصيدة الشعرية ، إن جاز التعبير ،ودمجا لمرجعيات دينية وفكرية ، في آن ، وفي ذلك تعميق للدلالات المضمرة في النص .إن ما يبرر قولنا تحول ضمير الأنا إلى ضمير الجماعة ، وبذلك ينتقل الصوت الفردي إلى الصوت الجماعي،والخطاب وفق هذا التحول يصير موجها للإنسان بعامة.

أما اللوحة الثالثة فتعتمد تقنية أكثر عمقا ودلالة ، وذلك باعتماد الشاعر على توظيف تقنية مسرحة الحدث ، ويقدم مشهدا حكائيا من خلال الشعر. النص التالي سينقل لنا مشهد جلسة تضم الأب والإبن ، بحيث يتخيل المتلقي أنهما في جلسة واحدة ويتحاوران:

ياأبي ...
حدث هذا
إثر مباعدة شاملة بين الأقدار
ولكن...
كان حتما
أن تحاول
إيقاف الضربات المضطربة
قبل أن يتحول العالم إلى شركة أموات(52)

الابن يتكلم إلى الأب وينقل له خبرا(حدث هذا) ويستمر بالكلام، وفي الوقت نفسه لا يعطي مجالا للأ ب ليجيب ، الراوي يقمع صوت الأب ويغيبه ؛ فهو يرى أن فعله سلبيا ،ويدعوه لوقف لعبة التناسل ، التي قادت البشر إلى ما قادت إليه من متاعب، فإذا كان التناسل الأولي حدث صدفة ، أو لغياب القدرة والأقدار ، فليتوقف الآن! لأن الزيادة في التناسل تعني زيادة في الموت، ومن هنا يمكن أن نفهم المسألة المثارة في جملة(شركة أموات)، إذاَ هل يريد الراوي /السارد في النص الراحة للبشرية؟ الراوي يسرد ويسرد ، ويقدم قصة الإنسان في الوجود ويجترح مسالك جديدة لفهم العالم ، ومع ذلك يترك للمتلقين مساحة واسعة جدا للتخيل، ومجالا لاستحضار مسألة الخلق، والتفكر فيها، وإبداء وجهات نظر حولها . السرد القصصي هنا يشكل دعامة استراتيجية تدعم هدف النص بحيث يشتبك المتلقي مع أكثر من جنس، أكثر من شعر، وأكثر من قصة، إنه اشتباك مع مجرة المعنى التي تبتلع كل التوقعات الممكنه، وتنفتح على غيرها باستمرار.

هذا الأمر المتعلق بالبحث عن الدلالة، من خلال مسألة الحضور والغياب، تعرض له غير ناقد ، فهذا(فولفغانغ إيزر Wolfgang Iser) يذكرعند حديثه على قضية القراءة والتجاوب : (إن الشيء المفقود من المشاهد التي تنبثق من الحوار ، هو ما يحث القاريء على ملء البياضات بوساطة الإسقاطات ، حيث يجذب القاريء داخل الأحداث ويلزم بإضافة ما يلمح إليه فيها من معنى، من خلال ما لم يذكر)(53). فجملة (حدث هذا) تثير فعل السببية لأفعال حدثت، وقام بأدائها شخوص ، وهذه الأحداث سلبية، والدليل على ذلك تغييب صوت الأب، والرد عليه بالإستدراك (لكن)، ويتلوها القرار (كان حتما)، بمعنى لا مجال للحوار فيما سيقرر، ولم يقف الحد عند هذا، بل يعاتب بقسوة ويقرر أنه كان يجب (إيقاف الضربات) والتناسل، حتى لا نصل لما وصلنا إليه ، الحدث /التناسل والإستمرار في ممارسة الأفعال السلبية من جهة الإنسان في هذا

العالم جعلت الكون شركة أموات ، لا جمال فيها ولا حياة تستحق البقاء. إن قمع صوت الأب هنا هي محاولة من السارد لتعطيل الفعل السلبي،وعدم الإستمرار في فعل التمادي بالأحداث التي تقود إلى العبثية واللاجدوى.

2- قصيدة النوايسة أنموذجاً

يقع اختيارنا على هذه القصيدة (كأنني السراب) لإمورعدة منها : إن الشاعر جعلها عنوانا لمجموعته ، وقد جعلها آخر قصيدة في المجموعة ، وتكون تبعا لذلك آخر ما يعلق في الذهن، بعد الفراغ من القراءة... والسؤال الذي ينشأ الآن لماذا جعل الشاعر هذه القصيدة عنوانا وعتبة نصية ، ليس لقصيدته حسب، وإ نما لمجمل النصوص في المجموعة؟ إن اختيار الشاعر لهذا النص وعزل ما سواه يعني تفضيله واختياره لها ، و بناء على معايير كامنه في ذاكرته ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأنها باحتوائها على ضمير المتكلم الذي يشكل مهيمنة لافته في النص ، تسرد قصة الذات المتكلمة .

الشاعر في هذا المنحى الأسلوبي يعطي مجالا لتصور الذات المتكلمة/ الأنا والآخر في آن؛ وهذا التوجه يغذي فاعلية السرد في النص الشعري ، لأن مقولة النص – العنوان- تفتح للمتلقي كثيرا من الأسئلة، ومنها لماذا التركيز على الذات؟ لماذا السراب ؟ لماذا يتخيل هذا الطيف / السراب،الذي يذكر المتلقي بالضبابية والخداع والتلاشي؟... مثل هذه الأسئلة وغيرها تدعو المتلقي لمعرفة قصة هذه الأنا ، التي تجعل نفسها كالسراب. إن هذه الجملة بكثافتها ومحمولاتها تشكل اطلالة شعرية قصصية في آن.

هذه العتبة النصية تشكل مفتاحا جيدا لعبور النص وتفكيكه ، وهي في الوقت نفسه تؤكد مقولة (أن للعتبات حمولة إيديولوجية خاصة ، تكون غالبا مقصودة لتوجيه منحى القراءات الممكنة)(54). إن الاختيار ضرب من النقد ، وهو يعكس وجهة نظر صاحب الاختيار ، وهذا يتطلب تفكيك محمولات الجملة: (كأنني السراب) . الملمح الأبرزهنا أن الجملة تحيل على الذات ، وتبين حالة المتكلم ، ويريد الراوي نقل هذه الحالة إلى المتلقي ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك ، إذا ما أخذنا النسق السردي المتبطن في السياق بعين الاعتبار، يبدو أن الشاعر يعرض قصته روحا وجسدا ، الراوي هنا ينطلق من ذاته ، وفي هكذا سرد تظهر حركة القاص/الشاعر ، حيث يدمج الشعر بالقص ، ويصبح النص/القص أكثر تداخلا ، إن لم يكن اقترابا ، فالنص المتداخل بالقص ، والمشحون بالسرد ، يبدو أكثر انحرافا باتجاه الحكاية ومنتجاتها ، والحكاية من طبيعتها أن تقترن بالطبائع السلوكية لصاحبها ،(فأي فنان – روائي أو غير روائي – يحاول أثنا رسم الشخصية أن يحشد عبرها أكبر كمية من القيم والعناصروالملامح النفسية والسلوكية ، التي يراها متحدرة إلى الفرد من المجتمع)(55) ، وهذا ما يبرر دراسة النصوص المفعمة بالسرد من زاوية السيرة الذاتية.

الشخصية المركزية التي تتحرك عبر الكلام- في قصيدة النوايسة – ويدور حولها النص كله تبدأ بهذه الجملة: (كأنني السراب) ، وهو تمركز هنا حول الأنا /الإنسان. إن حالة الإنسان هنا يضارع حالة وهمية ، سرابية ، متماهية متلاشية ، وإذا عدنا إلى دلالات اللغة ومحمولاتها في السياق، سنكتسف أن حرف الكاف هنا لم يأت لأداء وظيفة التشبيه التقليدية ، وإنما لتوكيد الفعل الذي يتنامى ويتبعه أحداث .

الذات المتكلمة هنا لا تشبه السراب وإنما هي السراب ، والنون المضافة والمشددة هنا هي لأداء وظيفة التوكيد ، تغدو الكاف هنا ليست للتشبيه وإنما للتحقيق، وقد ورد مثل هذا الرأي عند اللغويين العرب ؛

فهذا صاحب مغني اللبيب يقول : (وهي – يعني الكاف في كأن – حرف لا يتعلق بشيء لمفارقته الموضع الذي تتعلق فيه بالاستقرار ولا يقدر له عامل ؛ لتمام الكلام بدونه... وذكروا لكأن أربعة معان ... والثالث – من معانيها– التحقيق ، ذكره الكوفيون والزجاجي) (56)، ونحن نميل لهذا تبعا لمنتجات السياق النصي للقصيدة برمتها ، وهذا ما تصل إليه القصيدة في الختام ، عندما يقدم الراوي رؤيته لذاته، ويوظف البعد البصري في تناثر وتفتيت كلمة السراب ، أنظر السياق الختامي:

وأكتب : "أينك"
شعرا يفسره الشارحون
كأنك لست، كأنني السراب
ك أ ن ن ي ا ل س ر ا ب

الراوي في هذا النص – الشخصية المركزية – ينفي الوجود عن الذات ، أو على أقل تقدير يعزل الحالة عما هي عليه لقوله : (كأنك لست) ، ويترك للمتلقي إمكانية البحث عن الجواب للسؤال: (لست ماذا؟) ويمكن لنا أن نكمل بوصفنا قارئين لست أنت ، وتأتي الإجابة بطريقة المنولوج الداخلي ، فيستشعر المتلقي الذات المتكلمة مع نفسها وهي تقول: (كأنني السراب) ويعطي السارد مفتاحا للفهم والتحليل بتناثر كلمة سراب ، ليتمثل الشخصية ومكابداتها وتشظيها بفعل أحداث الوجود، السائده والمتخيلة ، التي يقدمها مسار النص.

النوايسة بارع في استثمار مكونات اللغة الداخلية ، وله قدرة على اختيار الكلمات البانية لدلالات متشعبة ، وهذا يحسب له ويلفت الانتباه عند قراءة نصوصه؛ وهنا تتجلى استراتيجيات النص الشعري ووظيفته ، كثافة مرجعياته الفكرية والقرائية، وهذا ما أكده غير ناقد حديث ، عند التعامل مع هكذا نصوص ، تتمتع بمرجعيات كثيفة، فهذا (ياكبسون Roman Yakbson) يرى (أن في الكلمة وفي الفعل شيئا مقدسا يمنعنا من أن نجعل منه لعبة الصدفة. إن الإستخدام المتقن للغة ما يعني ممارسة نوع من السحر الإيحائي) (57) ، والسحر هنا يأتي من قدرة الشاعر على الأختيار والتأليف ، وبالتالي تقديم كيفيات تعبيرية حافزة للقراءة والتأويل، ويقول (ياكبسون Roman Yakbson) أيضا: (مسألة العلاقة بين الكلمة والعالم لا تخص فن اللغة ، وإنما تخص أيضا كل أشكال الخطاب)(58) ، ولهذا يرى الدارس الحالي أن الشاعر هنا يقيم لغة تسهم في تكوين عالمه الخاص، الذي يتوسل بالسرد تقنية لإجراء حواره مع الناس والعالم، لكنه العالم الذي يؤسس لاستراتيجية خطاب قصدية، يبثها من خلال هذه الكيفية التعبيرية.

الشاعر يحاول أيضا التوسل بالتعالقات النصية المختلفة ليثري نصه ، لكي يفتح النوافذ واسعة على أفق أرحب من التلقي ، وبهذا التوجه يمكن القول : إن كل عمل يستدعي من القارئ أن يستحضر عوالم من خارج النص ، المتلقي في هذه الحالة يقيم في المساحة الأكثر توترا بين الحضور والغياب ؛ (لأن أكثر الفرضيات بساطة هي أننا نفترض دائما أن هناك في النص المقرؤ معرفة ضمنية لنص أو مجموعة من النصوص

السابقة المقروءة والمفهومة من قبل) (59) ، ومن التناصات التي يستثمرها الشاعر في سرده ، والتي تذكرنا، ليس بنصوص من الماضي فقط ، وإنما بأحداث وقصص ومرجعيات مختلفة ، عبر الزمان والمكان، تقدمها هذه النصوص، ومن ذلك نجد :

1 -التناص مع النص الديني :

لقد وظف الشاعر تعالقات نصية مختلفة في هذه القصيدة والتي لها جذور في النصوص الدينية، و من ذلك مثلا قصة العشاء الأخير لعيسى ،عليه السلام، ولم يقدم القصة التي ألمح اليها في السياق: كنت (أكثر محبة من عيسى في الرحيل الأخير من الفجر)**(60)، ففي هذا النص يستحضر المتلقي قصة عيسى عليه السلام مع اليهود، قبل قصة الصلب، وقد كان النص قبل ذلك يقدم تمهيدا سرديا يتصف بشعرية عالية ، تتكيء على معطيات صورة فنية تعتمد الخيال ، وكسر أفق التوقع والإنتظار لدى المتلقي، بمرموزات الفراشة ، التي قد تشير في بعض الاحتمالات إلى التفاني والتماهي ،والتي عرف عنها عشق النور والنار حتى الموت ، وفي ذلك تتضح صورة من صور التضحية ، وهذا ما كان يعرف كذلك عن دلالات قصة النبي عيسى ، عليه السلام، بوصفه رمزا للتضحية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ ولكن الراوي يقدم كل هذه السرود التي تشي بحكايات وقصص يستحضرها المتلقي مدمجة بحالته التي يعيشها ، أو يرصدها في الواقع الذي جعله موضوعا لسرده.**

يدعم هذا التوجه عندما يتكلم الراوي في السياق بضمير المتكلم ، ويبتابع بتناص آخر عن علاقة النص بأيام الخلق ، واختياره لليوم الخامس الذي يشارف يه الخلق على الإكتمال ، دون عناء، ويجعله كيوم السبت ، وقت الظهيرة ، وهو اليوم الذي يعقب الانتها من خلق الوجود .. مثل هذه القضايا تنتج عن قلق الشخصية من العالم الذي يعاني منه وينقده في آن ، ويترك للمتلقي مساحات واسعة للتأمل والاستحضار .

2 -التناص مع مقولات الصعاليك

يتضح من النص الضام لهذه المقولات مدى وعي الشاعر لحركة الصعاليك في المجتمع الجاهلي ، بوصفها حركة إيجابيه لها مداها الإنساني ، خلاف ماهو شائع لدى الغالبية من القراء إذ يبدو هذا الوعي عندما يقترن السرد القصصي لحكايتهم ، من خلال الشعر، بالأبعاد الفلسفية ، واللافت عند الشاعر قدرته كذلك على دمج معطيات الطبيعة مع منتجات الحركة ،ولنضرب مثالا النص التالي:

كنت أعرف بيد أن النجوم بدلت مواقعها
الجهات
وحليبب الصمت ما عاد لباء الشعر
كنت عشقت الضباع في البر
بين غابة الناس وجنة الوحوش

أرسم للشنفرى صورة وهو يقود الخبز إلى مستحقيه(61).

الشاعر لم يكرر أو يقدم سيرة الشنفرى/ الصعلوك كما هي في الذاكرة التقليدية ، الراوي يقدمه وكأنه على رأس مؤسسة وطنية خيرية ... يدرك آلام الناس وحوائجهم ، إنه يضحي بأتعابه وغنائمه ، وحتى بعمره الذي قضاه في جمع الغنائم للإحياء الآخرين ، إنه يكرر رمز المسيح المخلَص والمنقذ للناس من آلامهم ، وهو الفراشة التي تعشق هذا الفعل النوراني .. ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، الراوي يدمج أيضا قصته مع قصة عيسى ، عليه السلام ، والشنفرى ، والفراشة ، لقول الراوي (أرسم للشنفرى صورة وهو يقود الخبز إلى مستحقيه **).الإنسان يرسم الشيء لأنه متعلق به أو يساويه ، أو يقترب من روحه على الأقل ، إذًا هو مثاله.**

الشاعر يعيش الشنفرى بفلسفته وكيانه في هذا العصر الذي يحتاج،ويستحق أن يعيش فيه. إنه من أمثال هؤلا لتخليص العالم مما هو فيه. الشاعر يدمن حكاية الشنفرى ويكونه ، ولهذا نجده يقول من خلال النص : (جربت أن أخلع الرمل عن جسدي فاستوحشت أصابعي) **إنه الإعتياد على فعل الخير ، والإعتناق الشديد للمباديء التي استوحاها من منتجات فعل الشنفرى وأمثاله.**

3-التناص مع التراث والأحداث التاريخية

إن إعادة سرد التاريخ، أو الكلام على وقائع وأحداث التاريخ، في الشعر، يتطلب عناية فائقة ؛ لأن الشعر لا يحتمل التفاصيل ، وفي الوقت نفسه يتطلب صياغة فنية قائمة على استبطان المعاني الكامنة في منتجات الأحداث، وليس تقديمها كما هي، ولا يكتفي الشاعر بذلك بل عليه البحث عن كيفيات تعبيرية تقود إلى استشراف المستقبل.

النوايسة يقدم مجمل أحداث تاريخية على شريط لغوي لا يتعدى الورقتين ، وهذا يحتاج إلى دربة خاصة تستند إلى الإختزال اللغوي ، والإنحراف الأسلوبي. ومن الأحداث التي يلتقطها ويوظفها في النص نجد قدرة للشاعر على الاختيار، فهو يأخذ مفاصل زمنية ومكانية، وأحداثا تحفر في الذاكرة الجماعية العربية، خاصة، مزيدا من العمق الدال ، وهي مفاصل مهمة، كان لها الأثر الفعال في إحداث تطورات على أكثر من صعيد ، فكري وسياسي واجتماعي، فنجد مثلا توظيف قصة مقتل الحسين ،رضي الله عنه، وقصة التحكيم التي قام بها أبو موسى الأشعري، رضي الله عنه، بين علي ومعاوية، رضي الله عنهما . هذان الحدثان لا يمكن تجاوزهما عند القاريء العربي الإسلامي ، خاصة الذي يعي الانقلابات الحادة التي نتجت بفعلهما، الشاعر لم يسرد القصتين وإنما المح أليهما فهاهو النص:

كانت الصحراء تمتد أمامي كالمرآة
ولم تكن الغيمات
كان (رجم التحكيم)

وكنت أكثر محبة لليمن
قلت : (بعيدة ويداي طويلتان)
فرطت برأسي
بكت أشجار الشام ، والشياطين والملائكة...(62)

السؤال الذي ينبثق الآن: ماجدوى إعادة مقولة النص التاريخي وأحداثه؟ الراوي يقدم النص بوصفه ساردا، بتقنية المنولوج الداخلي ، ويبدأ الانحراف الأسلوبي للدخول بهذه المسألة منذ السياق: (كانت الصحراء تمتد أمامي كالمرآة) ؛ للأن الراوي هنا يعيش الحلم وتبدو المرآة وكأنها شاشة الذاكرة التي تعرض ما جرى عبر الزمن الماضي الممتد في القديم . الشخصية في النص تعيش حالة استحضار لما كان، لكنه الاستحضار القائم على بث دلالات يقدمها السياق ، فيظهر الأمر أمام المتلقي وكأن هناك مقارنة بين زمنين: الأمس واليوم .

يظهر فعل الإدانة للواقع متبطنا في السياقات الشعرية التي رأيناها آنفا. السلبية تظهر من خلال القول : (بكت أشجار الشام)، **وليس هذا فقط ، حتى أن الراوي يقدم هذه الصورة مدمجة بصورة الملائكه وهي تبكي، والشياطين كذلك؛ إنه الإحساس بالمرارة والإدانة لما يجري ، أمس واليوم، نقول اليوم، لأن الواقع العربي مليء بالدماء المسفوحة كدم الحسين ، رضياالله عنه، والإقتتال يتكرر، وبضراوة أكثر من ضراوة الاقتتال بين معاوية وعلي رضي الله عنهما، وعلى المتلقي أن يفيد من هذه المعطيات ويكوّن وجهة نظر تسهم في إنقاذ الواقع المرير. هذا هو فعل النص عندما يدمج فيه السرد التاريخي للأحداث ، ضمن نص تذوب فيه الشعرية مع عناصر مستمده من القصة ، بوصفها نصا رديفا هنا وليس لاغيا ، أو ماحيثا لجنس الشعر.**

ويقع الدارس الحالي على مجمل قصص، ومشتملات موضوعية لهذه القصص، في مواقع أخرى من النص ،وهي تستند أيضا للتراث والتاريخ ، وقد يلفت الانتباه، أن الشاعر في السياقات التالية ،يقدم الكلمات الشعرية مصفوفه طباعيا، وكأن المتلقي أمام كتابة نثرية ، ثم يعود للكتابة الطباعية التي توحي بأن ما نقرأه هو شعر، وفي هذه السياقات يحشد كما كبيرا من الأحداث والوقائع ، بحيث يمكن التقاطها لمجرد قراءة اسم الشخصية التي يدور عليها القص، ولعل هذا يخفف من شعرية النص ، إذ يقع المتلقي أثناء تلقيه لهذه السطور تحت سلطة تراكم الأحداث الموحية بقصص مختلفة ، وفي الوقت نفسه تخف عناصر الشعرية الأخرى، لكن الشاعر هنا يستدرك ويعود لما كان عليه من الاستناد لجدار الفنية الواجب توافرها في النص الشعري، وتمثيلا لما ذهبنا إليه نسوق النص :

من أنا الآن؟؟
(هسهسة النار تلفح وجهي،
وأبحث حين يقشرني الموت عن أصدقائي

أبحث ، أتلمس،
أثقب الوصاوص المتخيلة في زمن الكشف ،
وأنتجع مكانا يليق بسعاد،
وأم أوفى ، وعبلة ، وفاطمة، وبثينة ،
وعشاء مع الأوانس المتخيلات
تحت ضوء نجمة نبطية الوجه واللسان
تسمى سمية اعتباطا ،
وهي نجمة فقط ،
لها حضور النار في الجسد والقلب ،
ونبل الأسئلة الموجعة..)(63).

النص يحملنا على استحضار شعراء العصرالجاهلي وربما غيره ومعلقاتهم،وما أثاروه من قصص وأحداث ... من أمثال : (كعب بن زهير ، وزهير بن أبي سلمى ، وعنترة العبسي، وامرؤ القيس و...) ، وفي الوقت نفسه يقدم لنا النص وثيقة اجتماعية و فكرية وتاريخية على أزمنة مختارة ، وعصور محددة، لها حضور في ذاكرة المتلقين وإدماج حالات هؤلاء الشعراء وأشعارهم فيمثل هذه النصوص يبقى محلا للقراءة والتساؤل في آن، وتسريد المقولات التاريخية والتراثية بهذه الكيفية يشكل إضافة مرجعية للقارئ ، لتحثه للكشف والبحث والربط بين الماضي والحاضر، وربما لاستشراف المستقبل .

تبقى مثل هذه النصوص ، وربما غيرها ، سبيلا لتجريبات كتابية تطرح في الساحة النقدية العربية، والمحلية على أقل تقدير ، مزيدا من الأسئلة ، التي تحتاج إألى إبداء وجهات نظر حولها، ونأمل أن تكون خطوتنا القرائية هذه من ضمن خطوات ستتبعها مستقبلا، إن شاء الله.

جريدة المصادر والمراجع

1- ابن منظور(جمال الدين) ، لسان العرب ، مادة سرد.

2- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ، الجذر (سرد).

3- برنس (جيرالد) المصطلح السردي ، ترجمة عابد خزندار ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة 2003ص.145

4- المصدر السابق ص .144

5- المصدر السابق ض.149

6-صالح(صلاح) سرديات الرواية العربية ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة2003 ص.10
7- إبراهيم (عبدالله) السردية العربية ، بيروت المركز الثقافي العربي ، 1992 ص.21
8- يقطين (سعيد) تحليل الخطاب الروائي – الزمن ، السرد، التبئير- بيروت ، المركز الثقافي العربيط3، 1997، ص34.
9- إيزر(فولفغانغ) فعل القراءة – نظرية تجاوب الأدب- ، ترجمة حميد لحمداني ، فاس/المغرب، مكتبة المناهل ،1995، ص.12
10- جينيت(جيرار) ، عودة إلى خطاب الحكاية ، ترجمة محمد معتصم ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، 2000ص .16
11- المصدر السابق، ص .19
12- تودوروف (تزفتيان) الشعرية ، الدار البيضاء، دار توبقال، ط2، 1990،ص .24
13- إيزر(فولفغانغ) فعل القراءة- نظرية تجاوب الأدب- ص.33
14-الجزائري(محمد) تخصيب النص، عمان، مطابع الدستور،2000ص.59
15- عرار(مصطفى وهبي) ، ديوان"عشيات وادي اليابس" ص.42
16- كليطو(عبدالفتاح) ، العين والإبرة، دراسة في ألف ليلة وليلة ، ترجمة مصطفى النحال ، القاهرة ، دار شرقيات،1995،ص97.
17- راجع مثلا : الشخاترة (خولة)، بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان ، عمان، دار أزمنة، .2005
18- وايت(هيدن) ميتافيزيقا السردية في فلسفة التاريخ عند ريكور ، ضمن كتاب : فلسفة بول ريكور ، الوجود، الزمن، السرد، ترجمة سعيد الغانمي، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي 1999ص.188
19- التل(مصطفى وهبي) ديوان "عشيات وادي اليابس" ، عمان ، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، 1993، ص.42
20- المصدر السابق ،ص.42
21- تودوروف(تزفتيان) مقولات السرد الأدبي، من كتاب : طرائق تحليل السرد ، الحسين سحبان وفؤاد صفا، الرباط، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 1992، ص.61
22- ساروت (ناتالي) عصر الشك، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة، 2002 ص.41
23- التل(مصطفى وهب) الديوان ، مرجع سابق.
24- المصدر السابق، ص.42
25- المصدر السابق ص 45.
26- خريس(أحمد) ثنائيات ادوار الخراط النصية"دراسة في السردية وتحولات المعنى"عمان، دار أزمنة،1998،ص.66
27-التل(مصطفى وهبي) الديوان ، مرجع سابق ص.42

28- مقدادي (محمد) ، ذاكرة النهر، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2000ص.5

29كليطو (عبدالفتاح) الغائب، دراسة في مقامة الحريري، الدار البيضاء ، دار توبقال، 1987، ص.38

30- فورستر(إدوارد) أركان الرواية، ترجمة موسى عاصي ، طرابلس/لبنان، دار جروسبرس،1994 ص.25

31- مقدادي(محمد) ، ذاكرة النهر، مصدر سابق، ص.5

32- كاظم (نجم عبدالله) مشكلة الحوار في الرواية العربية، الإمارات العربية، منشورات اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، 2004،ص.17

33- مقدادس(محمد)، ذاكرة النهر، ص.5

34- آل عمران: الآية 49.

35- المائدة- الآية .110

36- البقرة- الآية .260

37- المقدادي (محمد)،ذاكرة النهر، مصدر سابق، ص.6

38- المصدر السابق،ص.6

39- المصدر السابق،ص.6

40- المصدر السابق،ص.6

41- المصدر السابق،ص.7

42- المصدر السابق،ص.8

43-المصدر السابق،ص.7

44- كوهن(جان) بنية اللغة الشعرية ، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، الدار البيضاء، دار توبقال، 1986،ص.113

45- ياكبسون (رومان)، قضايا الشعرية، ترجمة محمدالولي ومبارك حنون، الدار البيضاء ،دار توبقال، 1988،ص.79

46- كريستيفا (جوليا) علم النص، ترجمةفريد الزاهي، الدار البيضاء، دار توبقال ،1991، ص.13

47- المناصرة (عز الدين)، تقنيات السرد الشعري، ضمن كتاب أوراق فيلادلفيا- مجموعة بحوث-عمان ، منشورات جامعة فيلادلفيا، 2005،ص.20

48- برنار(سوزان)، قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن، ترجمة راويى صادق، القاهرة، دار شرقيات، 1998، ص.36

49- العيد (يمنى) ملاحظات حول الكتابةالقصصية، ضمن كتاب – دراسات في القصة العربية ، وقائع نتدوة مكناس – بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية، 1986، ص.34

50- العناني (زياد)، مرضى بطول البال، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،2002، ص.11

51- المصدر السابق،ص.11

52- المصدر السابق،ص.12

53- إيزر(فولفغانغ) فعل القراءة ، نظرية جمالية التجاوب،ص.100
54-لحمداني(حميد) ،عتبات النص، مجلة علامات، ع12،مجلد 46، 2002،ص.19
55-صالح(صلاح)، سرد الآخر، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،2003، ص.100
56- ابن هشام(جمال الدين)، مغني اللبيب، بيروت ، دار الفكر، ط5، 1997،ص.252
57- ياكبسون(رومان) ، قضايا الشعرية، ص.81
58- المصدر السابق،ص24/.25
59- أوتان(ميشيل) ،سيميائية القراءة ، ترجمة محمد خير البقاعي، ضمن كتاب – آفاق التناصية- القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص.166
60- النوايسة(حكمت) كأنني السراب، عمان، منشورات بيت الشعر الأردني، 2002،ص.105
61- المصدر السابق،ص.106
62- المصدر السابق،ص.106
63- المصدر السابق،ص107.

ملحق للقصائد موضوع الدراسة

أنفاس عيد الفصح

(الشاعر عرار – مصطفى وهبي التل –)

"مهداة إلى العلامة السيد عبدالله السقاف بالقاهرة ،وإلى الخوري موسى في قرية شطنا"

هاتها واشرب فإن اليـــوم فصح وقبيح بالفتى في العيــد يصحـو
إن في الدير أبا فـــذ النـــدى ونبيذ ورعابيـــب وصـــدح
ومســـيح كيـــس كهـــانه دأبهم في الناس إصلاح وصلـــح
هاتها واشرب فمثلـــي ما لـــه يا أخـي عن دكـة الخمار نـــدح
إن هـذا العمر ليـــل ما لـــه ياأخي في غير أفق الكأس صبـح

***

هاتها واشرب ودع عبـــود مـــن شرح متن "الأم" يستهويه متـــح
لست صـــوفيا ولكنـــي إذا أحضر الذكر فذكري فيه شطـــح
إنها رجـــس ولكـــن ربنـــا شأنـــه عفو وإغضاء وصفـــح
وبفقه الـــدن متـــن نصـــه هامش الكأس لمتن الـــروح شرح
فدع الشيـــخ على منبـــره يعظ الناس وينهاهـــم ويلحـــو
قـــدر اللـــه علينا شربهـــا ليس خطا قدر اللـــه فنمحـــو

***

إن في "الحمّر"عـن "وجِ" غنـــى و"بزيزاء" من "الدوحـــاء" روح

وكما تامــك سفـــح من "منى" تام هذا الشيخ في عمان سفـــح
وحجـــازي الهوى أشواقـــه أصبحت أنى نحى الأردن تنحـــو
إن في بعد الفتـــى عن موطـــن سامه الغوغـــاء إرهاقا لربـــح
حسب من "أجياد" ليست صرحـه في ظلال المجد من"رغدان" صرح
وبآل "التل" أهـــلا وحمـــى زهره ما يعتريه الدهر صـــوح
وبعثمـــان وأتـــراب لـــه روضـــة فينـــانة أنسا ودوح

***

هاتها واشرب فقومي كـــاد مـن فرط إيقاظي لهم صوتي يبـــح
فأنا يا "عـوف" نشوان أســـى وخماري اليـــوم آلام وبـــرح
وبقلبي من عشيـات الحمـــى ذكريـات في حنايـاه تلـــح
وجمـــاح الحر هـيهات لـــه إن يثره الضيـم إمساك وكبـــح

***

موطـني الأردن لكـني بـــه "كلما داويت جرحا سال جـــرح"
وبنفسي رحلـة عن أرضـــه عله يشفـي من الإرهـاق نـزح
كل ما أرجـوه لو أن منـــى عاثر الجـد إذا يرجو تصـــح
أن أرى لي بيت شعر حولـــه من شلايـا قومك السرحان سرح
في فـــلاة ليس للعـــلج بهـا حية تسعى وثعبـان يفـــح

***

(21أيار 1943)

أبـــي

(الشاعر محمد مقدادي)

"يا أبي...،
الروافد تحن إلى النهر
فأين أنت،
يانهري الجامح العظيم؟؟ "

م.م

كنت طفلا ،

قبل أن تمر كرة يركلها المارة ذوو الأصابع المنتفخة،

وقبل أن تهشم إحداها آنية الفخار التي

عجنت طينتها بيدي الضئيلتين

شكلتها،من قبل ،على هيئة الطير ،كسوتها ريشا،

ونفخت فهخات من روحي، ثم أرسلتها في فضائي كي،

تنشيء عالما غير هذا...!

عالم من سناء الأشياء،وطعمها النوراني المقدس...،

عالم أودع فيه أحلامي المتصاعدة ،إلى أن تكون المواسم

لي ...وتكون الفصول!!

****

كنت طفلا...،

تغمرني يداك يا أبي ،وتأخذني إلى حضنك المفعم برائحة اللوز البري،

تخدش جبهتي ، شوكة علقت في ثوبك العتيق،

وأنا أتمرغ في صدرك العظيم ، وأبتل بضوء وجهك البهي

****

كنت طفلا ....،

وكبرت يا أبي ....،

وأشتعل الرأس و القلب... شيبا،

وما زلت أحن الى شوكة مخبأة في أردان قميصك

تخدش جبهتي... وتعيدني ذراعاك، وأصابعك الندية،

طفلا...يعبث بشعر لحيتك الوقورة البيضاء!!

****

كنت طفلا...،وكانت البيادر، والحواكير ملاعبي،

وكان الثغاء المبكر، في الصباحات الماطرة يملأ عليّ كياني

والخراف المتقافزة فوق أسوار بيتنا الخشبية ،

تتملك عليّ دهشتي، قبل أن تتوقف عن "بهلوانياتها" المحببة،

وتصير"أكباشا" متورّمة الأقفية،

وغير مبالية بكل هذا الضوء...والفرح

***

أرأيت يا أبي...،
كل شيء يكبر فينا ويشيخ !
كل شيء ينخره السوس، ويغزوه العفن الأسود...والدمار
الحكايات التي نسجناها على عتبلب بيوتنا الفقيره، في فجوات
الليل...،
أهازيج البيادر في مواسم الحصاد...،
تراتيل الرعاة في الحقول...،
توسلات الخائفة من الظلمة...،
الرعشة الأولى في أصابع المحبين...،
فرحة الأرض العطشى، بأول غيث يغسلها...،
ونشوة الصائم ، عند أول قُبْلَةٍ بعد الغروب!!
أرأيت يا أبي كل شيء يترهل فينا... وينطفىء
حتى الدروب التي مشطتها أصابعك
اجتاحتها سيول الحصى،
فامتلأت بالحفر... والثقوب

***

أرأيت ياأبي!! كيف تشيخ بهجة الأحلام في ربوعنا !!
فلم يعد لنا،
غير دعواتك التي سيجت بها بيتنا العتيق...،
ولم يعد في حقولنا من شيء
سوى ذلك الغبار،
يسد علينا نافذة الضوء،
ويعلق أغنياتنا على مشانق الإنهيار

***

أرأيت يا أبي!!
كم كان غيابك عميقا...،
وكم كان حضورنا،
ضحلا، بائسا...، وحزين!!
كم كان صمتك صارما...،
وأنت تشق الأرض بمحراثك الخشبي،

وكم كان صراخنا خافتا... كالمواء...،
وباهتا... كأوراق الخريف!!
فلتعش يا أبي،
بصمتك الشامخ،
ولنمت يا أبي،
في ضجيجنا الكسيح!!!

نيوجرسي/أمريكا
1990/7/1

أكثر من خوف قد مر على قلبي
(الشاعر زياد العناني)

(1)
في كلِّ يوم
تفصح الطبيعةُ
عن ميولها.
* * تستثمر
كل فتوق اللحم
وتأخذنا
أخذ عزير .. أخذ عزير
دون مجاهرةٍ بما تريد
من الإنسان
أو المعنى .
*
يا أبي
أكثر من خوفٍ قد مرَّ على قلبي
من نابِ الوحش إلى الجوعِ
إلى كرسي الأمر
ومع ذلك
لم أفهم بعد لم كانت قسوتك المرة
حاضرةً

حاضرةً
وتبيض في كلِّ الفصول .
*
من فوق دكتي
... أرى ...
العناصرَ تتقدم
بأسنانها الحادة نحو فكرةِ
العذاب .
يا أبي
سأرتب الحيوات وفقَ
مشيئة الميول .
الموسيقى .
أجسام الشمع
أو النساء اللواتي يجئن إلى الليل
بفعل الحرارة .
الحدائق والمياه .
شمس الصباح وقد تحالفت
مع الندى .
الطيور في أعشاشها
الحلم
كعرض أو حفلة امتاعٍ
لا تنتهي .

(3)
نصفُ نائمٍ
على نصف حالمٍ
على نصفِ مجنونٍ

الفضيحةُ
عالمٌ ثالثٌ
أو رابعٌ

يتبارزُ في ليل الانجاب !!

(2)

يا أبي
أزفُّ اليك أفراح التناسخ
بعد قليل
سنغلفُ معجونَ الأرواحِ
ونغزو أسواق التصدير.
الموت تقاعد
ولهذا
سأبشر خنجرك الكونيّ
وأقول:
ما عاد ترابي
يطعن في الظهر كما السابق
وستظهر تسويةٌ أخرى
يمكننا
المشي
إليها
من غير الدعوات التي كانت
تذوب بفعل الشمس
حين نرفعها إليك .
*
يا أبي...
حدث هذا
إثر مباعدة شاملة بين الأقدار
ولكن ...
كان حتماً
أن نحاول
ايقاف الضربات المضظربة
قبل أن يتحول العالم

إلى شركة أموات تستثمر
كل فتوق اللحم
وتأخذنا
أخذ عزير .. أخذ عزير
دون مجاهرةٍ بما تريد
من الإنسان
أو المعنى .
*
يا أبي
أكثر من خوفٍ قد مرَّ على قلبي
من نابِ الوحش إلى الجوعِ
إلى كرسي الأمر
ومع ذلك
لم أفهم بعد لم كانت قسوتك المرة
حاضرةً
حاضرةً
وتبيض في كلِّ الفصول .
*
من فوق دكتي
... أرى ...
العناصرَ تتقدم
بأسنانها الحادة نحو فكرةِ
العذاب .
يا أبي
سأرتب الحيوات وفقَ
مشيئة الميول .
الموسيقى .
أجسام الشمع
أو النساء اللواتي يجئن إلى الليل
بفعل الحرارة .
الحدائق والمياه .

شمس الصباح وقد تحالفت
مع الندى .
الطيور في أعشاشها
الحلم
كعرض أو حفلة امتاعٍ
لا تنتهي .

(3)

نصفُ نائمٍ
على نصف حالمٍ
على نصفِ مجنونٍ
وقبل هذا .. وذاك
أقولُ البراءة مثل طفلٍ
رأى النساء وهن ينزعن
خسارةَ الزغبِ الطويل عن
السيقانِ ويجلسن على فمٍ
منزوع الأسنان
فخاف على اللحم من اللحم وفرّ من المرئي
إلى غير المرئي .
لست مرئيا ....
وأكره رائحة الأرض الممزوجة بالدم
وأكره رائحة الدم الممزوجة بالكرسي
وأكره اصرار الأرض على إثبات
فحولته في جر يدي من خان الجينات
إلى مذبحة العالم .. وأكره تمتمة الأم
حليب الأم وضعف الأم وأفضح رغبتها
المسبوقة بالماء وبالرعشات على فعل
الانجاب .
لست مرئيا
ومع ذلك أشرب دفء نبيذي

من دون بلاد ترهقني .

البر الواسع لا يرهق أحدا .

لست مرئيا

وأطوف مصحات العقال

لأعرف ما نوع جنوني .

لا بأس علي .

عال أنا

خال أنا

من كل مثلبة

وأقول لقلبي لا تحزن .

المرأة عين الأكذوبة

فتفيأ جانبها المظلم .

أنا

أنا نسيان من؟

مالي نسيت نصفي الأول .

أقسم بالنفس المخمورة

أني أحس بروحها ودفئها .

المرأة عين الاكذوبة :

تهب في عشي

ربما شاءت الأغصان

أن تحتفي بعشنا الواحد .

نحن في العش إذن .

فيما العالم مربوط في وتد الكلب

ومعزول بالصخر الزيتي لا قيل

ولا قال .

ربما تمتد يدي . دغدغة

الجس إلى شق قد يشعل

لغة ثانية فيها الملفوظ على

وزن الرعشات

لانحو

ولا سجع

بعد أن ولّى المجاز بعظمة ظبي
كان طليقا قبل القنص ويحمل
روحا لا أدري الآن لها جهة .
ربما
يتطور النص دون علمي .
مالي نسيت نصي الأول؟!
سأعود إليه
ها أنذا أخلط أمراض الناس
بجيناتي
خذ مثلا
جينات الجسم الخالي
من رعب الشيخوخة .
أو جين نمو الأسنان لعدة مرات
أو جين البولجة الحرة .
*****
كغناء حزين
أصبح عمرنا
ومع ذلك
سأجمع معجزتي
وسأصرخ في هلع الكائن
أن خذ أعمالك الرثة من بين أقدامي
السيئات ليست قصتي
والأرض كذلك
ليست مذنبة .
وأقول للموتى : قوموا
لا تربة بعد الآن .
قوموا
لا شئ يبرر يتم الأطفال
لا شئ يبرر عطش الزوجات .
قوموا معي
انتهى الرعب تماما

النار .. النار

صارت تدفئة حسنه.

لم يبق مشفى

أو مريض

يدي سوت .. أنا الأكيد

دون رمل أو تمور

*** ***

حدث هذا ....

حدث هذا تحت شباك المصحة .

حدث هذا بعد أقراص الطبيب .

كم ...

كم أنا متعب ....

من سماعي !!

ليت أذني ظلت في يد المعلم

ليت سكينا

تمرفي لساني .

ليتني

في

البوق

أنفخ

أن خذوني

فالحقيقة دون إذن

دون عين

دون أنف

ولساني مثل نقار الخشب .

*****

سأتوب عن بذاءتي !!

******

كأنني السراب

(الشاعرحكمت النوايسه)

في الأخير من الليل

كنت أشرب سرب الوشايات

مندهشا بالرحيل

كنت أكثر إيجازا من فراشة

وأكثر محبة من عيسى

في الرحيل الأخير من الفجر

كنت أكثر هدوءا من غابة تركت شياطينها

أخز الغزلان من أظلافها إلى معاقل الصمت

يمر خميس الخلق على غرفي باردا كأنه ظهيرة السبت

هذي يدي مشوهة مشوهة عندما أصبح أكثر احتمالا للأذى

الطيور تغادرني مثل سحابة مشمسة، والأيدي . يدي ويد الجماعة .

تصطفق ارتعاشا وترقبا

يمر الوقت بين أصابعي مثل دخان

وتعبرني الترهات في شريط من الرغبة والتنفس، وأنتخب زجاجة

فارغة .. وأسكر

كنت أعرف بيد أن النجوم بدلت مواقعها

الجهات

وحليب الصمت ما عاد لباء الشعر

كنت عشقت الضباع في البر

بين غابة الناس وجنة الوحوش

أرسم للشنفري صورة وهو يقود الخبز إلى مستحقيه

جربت أن أخلع الرمل عن جسدي فاستوحشت أصابعي

ألف رأس أطل من المرآة يتقدمهم رأس الحسين، بجماله ووقاره

المهيب، وشفتيه الناشفتين ..

لم يكن الماء بعد

كانت الصحراء تمتد أمامي كالمرآة

ولم تكن الغيمات

كان (رجم) التحكيم

وكنت أكثر محبة لليمن

قلت : "بعيدة ويداي طويلتان"

فرطت برأسي،

بكت أشجار الشام، والشياطين، والملائكة

وبكت أرض كانت تسمى العراء

بكت وغيرت لونها ....من أنا الآن؟؟

هسهسة النار تلفح وجهي، وأبحث حين يقشرني الموت من أصدقائي، أبحث، أتلمس، أثقب الوصاوص المتخيلة في زمن الكشف، وأنتجع مكانا يليق بسعاد، وأم أوفى، وعبلة, وفاطمة، وبثينة، وعشاء من الأوانس المتخيلات، تحت ضوءنجمة نبطية الوجه واليد واللسان تسمى سمية اعتباطا، وهي نجمة فقط، لها حضور النار في الجسد، والقلب،ونبل الأسئلة الموجعة

أنتجع الشعر

ينداح باب من الباب

أشوف النوم في النوم

تختلج الذكريات ثوب الطفولة الأبيض

أخلع أصحابي جميعا

وتخلعني عدن عن جنة الله

وتنتخب الأرض حارسها

وأنا شآمي اليمن

يزلزلني سعف نائس في العيون

ويحدثني الرمل عن ساحل في الفضاء

وتهرسني ذبذباتك

أينك ؟؟

أنتجع الماء

أصطاد رملا وملحا

وأكتب : "أينك"

شعر يفسره الشارحون

كأنك لست، كأنني السراب

ك أ ن ن ي ا ل س ر ا ب

ملخص البحث

السردية في الشعر العربي الحديث

نماذج من الشعر في الأردن

لقد بدأ التركيز على مصطلح السرد في العصر الحديث ، بشكل لافت، مع شيوع الدراسات التي تناولت القصة والرواية خاصة ، ثم تطور الأمر إلى أن أولى كثير من النقاد الحداثيين اهتماما لافتا بتقنيات السرد، التي راحت تتوزع وتذوب في الأجناس الأدبية المختلفة، ولم يقتصر الحال على النقاد الغربيين من أمثال: رولان بارت وجيرار جينيت وبول ريكور... بل راح النقاد العرب، أيضا، يهتمون بالمسائل المتعلقة بالسرديات وتقنياتها، من أمثال عبد الملك مرتاض وسعيد يقطين ويمنى العيد... وبناء على ذلك شعرت بأسئلة تراودني وحاولت تلمس الإجابة عليها ، ومن هذه الأسئلة:كيف تعامل النقاد مع السرد وتقنياته، في جنس الشعر؟ وما مدى وجود القص في الشعر ؟ وهل يؤثر وجود عناصر من جنس الرواية والقصة على شعرية النصوص الشعرية؟

هذا المنحى حملني على البحث ،لا سيما وأنني رأيت في النصوص القديمة – الشعرية – شيئاً من القص، وشيئاً من عناصر السرد القصصي، فذهبت إلى محاولة التنظير لهذه المسألة في الشعر ، ثم ارتأيت أن أقوم بتطبيق نقدي على نصوص من الشعر الحديث في الأردن، لأشفع الجانب التنظيري بالجانب التطبيقي، فكان أن قسمت توظيف التقنيات السردية بين أنماط ثلاثة من الشعر الشائع في الساحتين: الثقافية والإبداعية في الأردن،وهذه الأقسام هي: الشعر التقليدي – العامودي– وشعر التفعيلة، وما اصطلح عليه، على الأغلب،قصيدة النثر.

ويبدو أن الشعراء الحداثيين، لم يكونوا مغيبين عن الحراك التطوري، الحاصل في حركية الأجناس الإبداعية ، ومن بينها الشعر الحديث، ولهذا جاءت نصوصهم مشبعة بتقنيات سردية وافدة ، من عالم القصة وعالم الرواية،وكأنهم بوعيهم لهذه المسائل كانوا فاعلين ومؤثرين في عملية تداخل الأجناس ، كالتي تحدث عنها جيرار جينيت في كتابه ذائع الصيت " مدخل لجامع النص،"لكن هؤلاء الشعراء كانوا، في الوقت نفسه، أكثر حرصا على الإمساك بشعرية النص ، بمعنى أنهم لم يفيدوا من تقنيات الأجناس الأخرى ، بتوظيفها على حساب شعرية النص لديهم،بل عمدوا بأسلوبهم هذا إلى تكثيف النص ، وشحنه بإمكانيات دلالية أكثر ،أسهمت في تعميق النص وإثرائه أمام المتلقين.

تبقى هذه الدراسة بمثابة المحاولة على طريق محاولات أخرى ، نأمل أن تتبعها محاولات ، فتزيد المسألة كشفا وتنويرا، والله من وراء القصد.

علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية بين البرامج الاكاديمية و الواقع الاجتماعي

الأستاذة: مساك أمينة

جامعة سعد دحلب، البليدة

مقدمـة:

إن تنمية مجتمعنا و تطوره مشروط بتقدم العلوم الاجتماعية. فهو لا يستطيع التحكم في سيرورته دون جهد في التفكير حول حقيقته الخاصة، و مستويات بنائه المختلفة. و لا يمكن له التقدم دون تنمية كفاءاته المحلية، فهو ليس مجالا لتجارب النظريات التنموية و النماذج الجاهزة انطلاقا من فكرة العالمية، و إنما تحتم ضرورة التلازم بين المعرفة و الواقع أن يكون علم الاجتماع على اختلاف اتجاهاته نتاجا للمجتمع الذي ينتمي إليه في فترة زمنية، و ظروف خاصة من خلال إقامة علاقة بين المتغيرات الأكاديمية و التغيرات الاجتماعية حسب اختلاف التكوينات و نظم العلاقات الاجتماعية و الاقتصادية، و أشكال علاقات الإنتاج.

و رغم الحث على أن حالة المجتمع هي التي تتطلب نوعا معينا من البرامج،ما زال العكس قائما، حيث لا تزال الجامعة تفرض تعريفها الخاص فيما يتعلق بهذا الجانب و من أكبر التحديات التي تواجهها عدم تمكنها من ربط برامجها باحتياجات التنمية و متطلبات سوق العمل. فمع أن قطاع التعليم العالي في مجتمعنا عرف تطورات كمية معتبرة من حيث الهياكل القاعدية، و التخصصات، و ما إلى ذلك.فلم يصاحب هذه التحولات تغيرا في محتوى البرامج الدراسية و طرق التدريس التي لا تزال غير مسايرة للتطورات في مختلف ميادين العلوم، مما يبين أن نتائج التعديلات لا تزال غير واضحة، من حيث أن التكوين الجامعي في الجزائر لا يخضع لطلب اجتماعي محدد، فالمجتمع في تغير مستمر، بينما تبقى الجامعة على حالها، تشهد تغيرا فقط في زيادة عدد المسجلين في معاهدها سنويا. و بهذا، فهي لا تخضع لمتطلبات القوى المتجددة و لا تعكس نتائجها، غير مستجيبة لظروف بيئتها، و لا شروط البحث العلمي، رغم أن العلاقة بين علم الاجتماع و المجتمع علاقة جدلية. فهو انعكاس لوضعية المجتمع في مختلف جوانبه، و عامل من عوامل تكريسها. و يعبر تعليمه هنا عن وظيفة اجتماعية، يكوّن إطارات مؤهلة في مجال المعرفة و الفعل حسب ثقافة المجتمع و تاريخه متكيفا مع متغيراته، مما يستوجب تعديل برامجه حسب المستجدات.

وعلى الرغم من التواجد المؤسساتي لعلم الاجتماع كتخصص في جامعاتنا، و رغم التزايد الكبير للمسجلين في معاهده سنويا، و تخرّج العديد منهم في مختلف التخصصات، يبقى الجدل قائما حول فاعليته، و هدفه في إطار المحيط الخارجي للجامعة، و مدى الاستفادة منه معرفيا بصورة ملموسة خارج حيزها. لاسيما فيما يتعلق بالمكانة التي يشغلها المتخرج من معاهد هذا التخصص في الوقت الذي كثر فيه التذمر في هذا الجانب. و نقص تكفّل الجامعة الجزائرية بمتخرّجيها خاصة في مجال العلوم الاجتماعية، في الوقت الذي يحتاج فيه مجتمعنا تظافر كل الجهود الفردية و الجماعية للخروج من الاضطرابات و مسايرة التطور، أين تغيرت النظرة إلى الأشخاص و المؤسسات حسب ما تؤديه من أدوار تفيد المحيط العام، حتى تضمن مكانتها و تحافظ عليها، انطلاقا من إعادة التفكير التقييمي للنتائج المتوصل إليها و ربطها بما يحتاجه هذا الأخير.

الإشكالية:

يعرف المجتمع الجزائري اليوم كباقي المجتمعات تحولات كبيرة، تهدد استقراره و تؤدي إلى اضطراب مؤسساته –التي يكون وعيها بالعوامل الفاعلة فيها و تأثرها بها بمثابة قوة داخلية و حيوية

تدفعها للتقدم و الفعل المبدع- و هو يحاول باستمرار التكيف مع نتائج هذه التحولات، للحفاظ على بقائه من جهة، و لمسايرة التطور من جهة أخرى.لكن هذا الأمر يستوجب تظافر جهود مختلف المؤسّسات و الممارسات...

و في هذا الإطار تلعب العلوم الاجتماعية دوراً مهما في تحليل الشروط التي يمر عبرها المجتمع الجزائري بمظاهر الأزمة و التي ترتبط من خلالها بمختلف الشركاء الدوليين، حيث تبنى و تتركب هذه العلوم حول ضرورة التفكير النقدي للمجتمع حول نفسه و ممارساته في فترات زمنية معينة بمختلف الطرق الممكنة، خاصة في أولى مظاهر التحولات النظرية التي يعرفها انطلاقا من التحولات البنائية، فالعلوم الاجتماعية مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى للقيام بدور اجتماعي أكثر أهمية في إطار هذه التحولات.

و يركز علم الاجتماع هنا على العلاقات الاجتماعية، و سعيه لكشف الحقائق في إطار تركيبات اجتماعية، اقتصادية، ثقافية، دينية، ...، قصد المساهمة في تطوير طرق التفكير، و تغيير نوع العلاقات القائمة لمسايرة الوقائع من خلال التطبيقات اليومية، لمحاولة إنتاج علم سوسيولوجي في المجتمعات النامية، يتماشى وخصوصياتها الثقافية و الحضارية، عوض التبعية للغرب، و إنتاج المفاهيم السوسيولوجية انطلاقا من ضرورة التوافق البنيوي بين تطور الفكر السوسيولوجي و الحياة السياسية و الاجتماعية...

و رغم محاولات مجتمعنا لمسايرة التطورات المختلفة، إلا أنه لم يحقق النتائج المرغوبة، نظراً لاستخدام مناهج و نظريات مجتمعات أخرى، لأن المناهج و النظريات لا تجدي نفعا في مجتمع لم ينبع منه و له، فكل نظام صمم لمجتمع معين، وفق ثقافة معينة تختلف باختلاف المجتمعات المتباينة في تطورها الحضاري.و من الملاحظ أن النظريات المعتمدة في المجتمع الجزائري من خلال الدروس المحتواة في البرامج الجامعية متجاهلة مسألة الخصوصية، ممّا يميزها بنزعة لا تاريخية، من خلال إسقاط المحتوى التاريخي للمجتمعات الغربية على مجتمعنا، و يستوجب هذا، النظر في النماذج النظرية الغربية، و محاولة استقاء نماذج ملائمة من واقع التراث الجزائري[62].

و وظيفة عالم الاجتماع كفاعل أن يبني تصورات تتلاءم مع مجتمعه عوض الاقتصار على أخذ مفاهيمه من المجتمعات المتطورة، احتراما للطابع الداخلي للمجتمع الجزائري و خصوصياته، متخليا عن الإيديولوجيات التي لا تخدم التفكير العلمي، فتلك المجتمعات ليست و لا تستطيع أن تكون مرجعا لمجتمعنا[63].

و من خلال المنطلق الذي يبين العلاقة بين علم الاجتماع و المجتمع، ستحاول هذه الدراسة إبراز الدور الذي يقوم به حذا العلم داخل الجامعة الجزائرية باعتبارها مؤسسة فاعلة و من أولى المؤسسات

([62])- هذا لا يعني رفض التراث السوسيولوجي العالمي، و إنما استعماله بشكل محايد و استبعاد التعامل معه كأي بضاعة أخرى من خلال النقل التكنولوجي، للتحرر من التبعية المتحكمة في ممارساته و فاعليه و مواضيعه. فالعلم شمولي، و أصالة المجتمع تحيا في الظروف الجديدة.

([63])- من المنطقي الخوض في التراث العالمي و فهم مختلف النظريات العالمية، لكن عدم الإقتصار عليها، بل الإستفادةمنها من حيث المنهجيات المستعملة في بنائها لأخذ فكرة عنها و محاولة الإستعانة بها من أجل إنتاج معرفتنا الخاصة.

تأثرا بما يحدث في المجتمع، حيث تمثل حلقة الوصل بينهما، محاولة فتح المجال لمساهمة هذا العلم حسب الاتجاهات السوسيولوجية التي تحملها برامجها الرسمية، و مدى تعبير مبادئها على المصالح الاقتصادية، الثقافية، الاجتماعية، الدينية،... للمجتمع، لمعرفة نوعية العلاقة القائمة بينهما من حيث إنتاج و إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية الأساسية في المجتمع، من أجل الاندماج و التكيف الاجتماعي، و كذا دور المشتغل في علم الاجتماع في إيصال المعرفة و محاولة إنتاجها في هذا المجال.

و بعبارة أدق، سيتم التطرق لعلم الاجتماع في إطار الجامعة التي تحتم مصداقيتها أن تكون في مستوى هذه التحولات، باعتبارها في مقدمة مؤسسات المجتمع وعيا و تأثرا بالتغير، حتى تجيب على القضايا التي يطرحها، قصد مساعدته للوصول إلى مستوى معيشي أفضل، بفرض وجودها داخله بما يوافق التطور التكنولوجي، الاقتصادي،... و التغير في البنيات الاجتماعية و القيم التقليدية، بالتمسك بمواردها و امتحان قدراتها الاندماجية، و ذلك بتكوين إطارات مؤهلة، و ذات كفاءة لمعالجة القضايا الاجتماعية، و ذوي القدرة على مسايرة التحولات من خلال البرامج البيداغوجية المعبرة عن الواقع.

لكن واقع الجامعة الجزائرية في هذا المجال يبرز بعض النقائص فيما يتعلق بالدور الذي تقوم به لإخراج المعرفة من حيزها و نشرها في المحيط الخارجي و تقليص المسافة بينهما، من أجل إدماج الطالب في الحياة الوطنية. مما يحول دون إنتاج معرفة سوسيولوجية تجيب عن القضايا الاجتماعية و كذا خطاب سوسيولوجي علمي من خلال برامجها التكوينية، فهناك قطيعة بينهما -كمؤسسة اجتماعية- و بين المجتمع، تظهر من خلال وضعية الطالب الذي يجد نفسه بين مجالين متباينين "داخل الجامعة" و "خارجها". و كذا من خلال رؤية أفراد المجتمع لها باعتبارها مؤسسة غريبة عنهم و عن اهتمامهم.

و هذا ما يجعلنا نتساءل عن أسباب هذه القطيعة، دوافعها و النتائج المترتبة عنها، و انعكاساتها على الواقع الاجتماعي.

- ✓ **فما مدى تجاوب البرنامج الرسمي لعلم الاجتماع داخلها مع القضايا المطروحة؟**
- ✓ **و هل هو نتيجة دراسة ميدانية للمجتمع الجزائري؟**

مميزات الخطاب السوسيولوجي العربي:

إذا ما قيّمنا بعض القضايا التي أثارها هذا الخطاب لدى المتخصصين الاجتماعيين أثناء تشخيصهم لممارسات علم الاجتماع في الوطن العربي باعتبار أنها تعكس الواقع المجتمعي من تخلف، تبعية، و تحديات مراحل التغير و الانتقال التي تمر بها هذه المنطقة، نجد أن الممارسات القائمة مغتربة عن الواقع الاجتماعي العربي و ذلك تماشيا مع خصوصياته في شتى المجالات.

حيث يبين الباحثون مضمون هذا الخطاب فيما يلي:

- ✓ **مسألة الخصوصية التاريخية و مشكلة التأصيل: فالإنتاج السوسيولوجي العربي غير أصيل، لأن تاريخه لا يزال في متاهات البحث عن الهوية، كما لا يزال تابعا لمدارس و اتجاهات سوسيولوجية غريبة عن خصائص و مقومات المجتمع العربي.**

و نوافق تماما هذه الفكرة، لأن واقع علم الاجتماع في المجتمعات العربية يؤكد ذلك، ففي الوقت الذي يتوجب عليه أن يستمد أطره المرجعية من التراث السوسيولوجي لهذه المجتمعات و يركز دراسته على الواقع الملموس، نجده لا يعبر إلاّ عن مجرد إسقاط لما ورد في مجتمعات مختلفة عنه تاريخا و هوية، فمبدأ التأصيل ما هو إلاّ تجسيد لمفهوم الخصوصية التاريخية. و من لا يعرف تاريخ مجتمعه لا يوفق في التنبؤ بمستقبله.

- ✓ **مسألة التأسيس و محدودية الابتكار: و يتعرض "جمال بوقزاطة" هنا إلى بعض آراء المتخصصين العرب في علم الاجتماع واصفا إياه بالمُبالغ فيها، فهم يعملون على معرفة ما إذا استوطن علم الاجتماع في الوطن العربي كما هو عليه الحال بالنسبة للغرب من خلال مقاييس معيارية: تعدّد المعاهد العلمية و المؤسّسات التطبيقية و كذلك عدد المساهمات الإبداعية من مؤلفات و مقالات ذات فعالية بالنسبة للمجتمع. فرغم بعض المبادرات الفردية الدالة على مدى الوعي بضرورة العمل على تنمية "علم اجتماع عربي" أصيل نابع من اهتمامات هذه المجتمعات، انشغالاتها و طموحاتها، لا يزال المشروع السوسيولوجي في شبه عزلة عن المحيط الاجتماعي و الثقافي للمجتمع العربي، و مازالت أبحاثنا و دراساتنا غير قادرة على التحرر من عقدة التبعية و الاستهلاك لما هو غربي.**

كما يعاني هذا الخطاب من بعض المشاكل، أهمها:

- ✓ **رسوخ التبعية الفكرية و الاقتصادية.**
- ✓ **غياب المناخ الديمقراطي و تأثيره على الممارسة السوسيولوجية.**
- ✓ **سيطرة مظاهر التجزئة و التخلف و عدم ربط الممارسة السوسيولوجية بالواقع العربي و العلمي و المحيط الاجتماعي.**
- ✓ **إخفاء الفئة المهتمة بالعمل السوسيولوجي في الوطن العربي في تأسيس و تأصيل تقاليد واضحة لمشروع سوسيولوجي يتطابق مع الواقع.**
- ✓ **غياب نظرية فعلية عن خصائص المجتمع العربي، ممّا لم يسمح لممارساتنا السوسيولوجية التخلص من معوقات تقدهما.**

و لا يخرج علم الاجتماع في الجزائر عن هذه الحالة.

<u>مميزات الإنتاج التعليمي لعلم الاجتماع العربي</u> :

من مميزات الإنتاج التعليمي لعلم الاجتماع العربي النقائص في الكتب المستعملة في الجزائر و المغرب العربي، و المطبوعة في المشرق من حيث تكرار المواضيع و تحريف المعاني، مما يجعلها مجرّد مذاهب و نظم فرعية إيديولوجية، إضافة إلى عدم وجود المتخصصين في المجال السوسيولوجي، مما جعل أقسام علم الاجتماع مرتبطة بفروع معرفية أخرى و دعّم كونها أكاديمية لا تتجاوز جدران الجامعة. مما يؤكد

قول الكثير من علماء الاجتماع لا سيما الدكتور" عبد الغني مغربي" الذي يجزم أن السوسيولوجيا في العالم العربي تدور في حلقة مفرغة ...، لم تبرز من فرضية محدّدة ذات معنى، و مستخرجة من إشكالية دقيقة. و يرجع عدم الفعالية في ممارسة علم الاجتماع في المجتمعات العربية أساسا إلى ثلاثة مستويات هي:

1. الضعف النظري أو الحاجز النظري: **معتبرا ضعف النظرية سببا و انعكاسا في الوقت ذاته، لأن أغلب علماء الاجتماع درسوا النظريات السوسيولوجية بصفة جد سطحية، و منقولة بصفة آلية من مفكرين غربيين دون النقد البناء، مكتفين بالترجمة السطحية التي لا تؤدي إلى فهم عمق النظرية، بل تساعد على انتشار الرداءة.**

و إزاء هذا الوضع يعطي الدكتور مغربي أربعة مراحل موضوعية دقيقة لفهم النظرية، بدءا بدراستها في النص الأصلي أو على الأقل من خلال الترجمة الدقيقة من طرف ذوي الخبرة. ثم محاولة نقدها من حيث الأرضية الاقتصادية، الثقافية... للمفكر و التعرف على السيرورة التاريخية الخاصة بالمجتمع الذي ينتمي إليه، قصد معرفة الأسباب المؤدية إلى استنباط النظرية، إضافة إلى الاطلاع على المناخ العلمي الذي عاش فيه المفكر. و كل هذا يؤدي إلى تفهم النظرية، و نقدها. و بعدها يتم أخذ موقف إزاءها، و أخيرا دراسة كيفية استغلالها أو إلغائها و تعويضها بأخرى، مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات المجتمع في حالة محاولة تكييفها.

2. الضعف المنهجي: **الذي يكمن في غياب أو شبه غياب العديد من التخصصات الهامة الناتجة عن عدم الاهتمام بتصنيف الشعب الأساسية في علم الاجتماع: السوسيولوجيا الاقتصادية، الأنتروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية، علم النفس الاجتماعي، الإسلاميات, التاريخ. إضافة إلى ضعف استعمال اللغة العربية، و عدم وجود محاولة جادة لتكييفها أو إثرائها.**

3. الحاجز الاجتماعي: **يكمن في تكرار نفس المواضيع في الجامعات العربية، بصفة محافظة دون تشجيع الابتكار أو المواضيع الجديدة، مع التدخل القوي للعنصر الذاتي في الممارسة السوسيولوجية للمجتمعات العربية، مما يرسّخ الجانب الأكاديمي فيها و غياب فعاليتها في مختلف جوانب هذه المجتمعات.**

واستنادا إلى كل من فكر ابن خلدون و التراث العالمي. فللخروج من النزعة الذاتية و المصالح الشخصية الضيقة للمشتغلين بالعلم، يجب استخدام الموضوعية كشرط منهجي للقيام بأي نشاط علمي كأول قاعدة علمية، تليها جدلية الفكر و الواقع، من خلال التعامل مع مختلف أبعاد الواقع لفهمه بدقّة مما يستوجب المعرفة التامة بتاريخ المجتمعات المغاربية حتى تخطط لمستقبلها، بتطبيق مبدأ الشمولية في دراسة الوقائع و الربط بينها و بين وقائع أخرى. و هنا يُطرح التساؤل كيف يتمكن المشتغلين بالعلم فهم مجتمعهم إذا كانوا بعيدين عنه يدرسونه من الخارج و بأدوات أجنبية و رؤى مستوردة؟.

وانطلاقا من الوعي بعدم تطابق نسق المفاهيم الخاصة بالعلوم الاجتماعية بما فيها علم الاجتماع بين المجتمعات الغربية و العربية نظرا لنسبية هذه العلوم و اختلاف هذه المجتمعات، نُؤكد فكرة أن

علم الاجتماع على اختلاف اتجاهاته و انتماءاته الإيديولوجية و الاجتماعية هو نتاج مجتمع في حقبة سياسية، اقتصادية و تاريخية معينة. فهناك ظروف أو خصوصيات بنائية و فكرية، أنتجت على المستوى المعرفي تراكمات نظرية و اتجاهات فكرية معينة. فقد أبرزت التجربة السوسيولوجية الغربية العلاقة بين المستويين البنائي و المعرفي، و بينت أن توفر الحقل المعرفي في الغرب هو السبب في ولادة هذا العلم، من خلال الصراعات التي أفرزها الوضع البنائي السائد، و ما أنتجته من ظروف أبرزت إشكالية النظام المشكل لمحور التقاء كل الاتجاهات السوسيولوجية التي ظهرت على الساحة الفكرية الغربية، و التي كانت مصدرا للتراكم المعرفي لعلم الاجتماع في الغرب.

فالمؤشر الداخلي لتأزم الفكر السوسيولوجي الغربي هو انتقاد الانتظامية، وطغيان العرقية المركزية فيما يخص البعد التنموي[64]. و هذا ما يجعلنا نُركّز على الأحكام القيمية لهذه النظريات باعتبارها إحدى عوائق المقاربة السليمة لوضع المجتمعات المتخلفة، مرتكزين في ذلك على مفهوم "الخصوصية" لفهم الواقع المعرفي لعلم الاجتماع في مجتمعنا، محاولين تحديد مضمونه في الفكر العربي بطرح رؤية تحليلية نقدية،

و بهذا جسّدت الإشكالية، الجدل القائم حول وضعية علم الاجتماع في الجزائر و وصفته بالمتأزم لعدّة أسباب أهمها التبعية للأطر النظرية الغربية بمفاهيمها و تحليلاتها، و مختلف اتجاهاتها المنهجية. و ترجع هذه الأزمة لتلك المتوطنة في البناء الاجتماعي، مما دفعنا للتركيز على العلاقة الجدلية بين العلم كنسق معرفي و الظروف المجتمعية و البنائية المتواجدة فيها، مبينين أن الخلفيات الإيديولوجية سببا في تشتت الأفكار و المواقف، مما زاد من حدّة الأزمة و تفاقمها. و قد أدت الآراء المتعددة و الأطروحات فيما يتعلق بعلم الاجتماع في الجزائر إلى الحديث عن بروز خطاب سوسيولوجي عربي ناتج عن انشغالات و اهتمامات المشتغلين في هذا الإطار بالإشكاليات المعرفية و البنائية. و هكذا تمّ إبراز بعض المواقف المتعلقة بتحليل هذه الوضعية و صياغتها، و من ثمّ نقدها للكشف عن بعض خصوصيات علم الاجتماع، من خلال محاولة الإجابة على التساؤلين التاليين:

- **ما هي مميزات البرنامج الأكاديمي لعلم الاجتماع في الجامعة الجزائرية؟.**
- **هل تعمل الجامعة من خلال هذه البرامج على فهم و تشخيص الواقع الاجتماعي الجزائري؟.**

العلاقة بين علم الاجتماع و المجتمع:

يجدر بنا التركيز على أن كل تجربة سوسيولوجية نسبية، متأثرة بالظروف التاريخية و البنائية لمجتمع معين, ممّا ينفي صفة الشمولية و العالمية، فعلم الاجتماع الغربي ظلّ عاجزا عن تفسير واقع البلدان المختلفة رغم ادعائه بالعالمية من خلال إسقاط المفاهيم السوسيولوجية بأحكامها القيمية و نزعتها العرقية المركزية، و استعمالها كأدوات إجرائية مطلقة. و على الباحث الاجتماعي أن يستفيد منها بعد نقدها

([64])- قصور النظريات التنموية في تفسير واقع البلدان النامية.

لأنها تحمل مضامين إيديولوجية و تاريخية تعكس مكان نشأتها و تطورها، ملحا على النقد الإبستمولوجي باعتباره وسيلة معرفية للكشف عن النسبية و مدى صلاحية هذه المفاهيم.

فمازال المتخصصين العرب يطرحون هذه القضية طرحا نظريا لا يعبر عن خصوصيات مجتمعاتنا مع هيمنة التبعية و عدم التوصل إلى رؤية متجانسة، إضافة إلى توظيف الإيديولوجية في التغطية على جوانب النقص في الجانب المعرفي عوض تحديد موقف إزاء التراث السوسيولوجي الغربي، و احترام الخصوصية التاريخية العربية لا برفض هذا التراث، و إنما بتصفيته، و العمل على تحقيق هوية معرفية تتماشى و الإطار البنائي لهذه المجتمعات و الممارسة الامبريقية عوض الاكتفاء بتقديم آراء نظرية كانت أو منهجية. و هذه أهم لأنّها تشكل أكبر حساسية يعاني منها علم الاجتماع العربي عموما و الجزائري على وجه الخصوص، فالفصل بين هذين الجانبين المتكاملين جعل علم الاجتماع ينحصر في حدود الجامعة، ممّا أبعده عن المجتمع و عزله عنه و عن ثقافته، و لابد من التعمق في هذه المسائل للوصول إلى حلول، أو بالأحرى منافذ للخروج من الرؤية السائدة حول هذا العلم، و إخضاعه للنقد هو نفسه حتى يساهم في عملية التنمية الشاملة.

حيث تُؤدي قضية الأحكام القيمية المتضمنة في بعض النظريات التنموية إلى عجزها عن فهم و تحليل الواقع الاجتماعي للبلدان النامية فتحرر علم الاجتماع من القيم في هذه الحالة هو أمر مستبعد، مما يفرض على هذا العلم في مجتمعنا تحديد إستراتيجيته كمصدر للأحكام القيمية التي تتماشى إلى حد ما مع ظروفه، حتى لا تفرض عليه قيم غريبة عنه. وعن استحالة التخلي عن هذه الأحكام أو استبعادها يقول" جمال بوقزاطة" أن " الباحث يرتكز خلال علاقته مع الواقع على أحكام قيمية، خاصة في اختياره للمقاييس التي تساعده على تحديد و حصر مجال بحثه "[65]. كما يرى أنه على العالم الاجتماع العربي أن يحدد الأبعاد القيمية و المعرفية التي تساعده على تحديد وظائفه أثناء نقد واقعه و تحليله، معتبرا أن النقد هو سبيل الإبداع انطلاقا من النسيج الموضوعي للمجتمع المطلوب تطويره على ضوء خصوصيته التاريخية.

و نجد هنا أن مسألة الخصوصية التاريخية مفقودة في أغلب النظريات التي حاولت دراسة وفهم المجتمعات النامية،فالالتباسات الناجمة عن استعمال هذا المفهوم مختلفة و كثيرة ، و لا مفر من استخدام النقد الإبستمولوجي كأداة معرفية للكشف عن أبعاد هذه الخصوصية فيما يتعلق بالموقف إزاء الاتجاهات السوسيولوجية الغربية ، و العلاقة مع التراث و كذا التعامل مع الواقع المحلي.

---

1. لمزيد من الإطلاع، انظر: جمال بوقزاطة، خصوصية علم الاجتماع في الوطن العربي، "دراسة تحليلية نقدية"، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الاجتماع، 1989.

[65]– نفس المرجع، ص 144.

و تتميز النظريات الغربية المسقطة على مجتمعاتنا بنزعتها اللاتاريخية بإهمالها لخاصيتي الزمان و المكان في محاولة الوصول إلى مستوى القوانين الطبيعية. هذا ما يستدعي القول أن خصوصية المجتمعات العربية بينت عدم صلاحية نماذج التنمية الغربية لمعالجة مشاكلها، مما يستوجب إعادة النظر فيها. و لا يقصد بالخصوصية البحث عن عروبة علم الاجتماع. و إلاَّ وقع في المركزية العرقية، كما لا يعني كذلك رفض أي تعامل أو اتصال مع التراث السوسيولوجي العلمي، و إنما " هي القاعدة الأساسية التي تمكنه من التحرر من التبعيات المتحكمة في ممارسته بطريقة منهجية " حيث [66] . جُعل الواقع العربي كمجال يبرهن على صحة هذه النماذج و النظريات المطبقة، ممّا أنتج تحليلاً مطبقا في واقع آخر، و يرجع هذا النزيف إلى عدم طرح الإشكالية الأساسية لعلاقة العلوم الإنسانية و الشروط الاجتماعية و الثقافية لإنتاجها في الساحة الثقافية، و عدم التساؤل بعد عن الحدود المميزة بين هذه العلوم و المنظورات الإيديولوجية المؤثرة على واقعنا. مما يحتم وجوب النظر في هذا المفهوم من المنظار السوسيولوجي باعتباره مفهوما يعني علميا فقط مجموعة الظروف ذات طبيعة اجتماعية و[67] اقتصادية سياسية تشكلت في ظروف تاريخية محدّدة . حيث تنتج هذه الخصوصية عن التفاعل المستمر بين المجتمع و أوضاعه الاجتماعية داخليا و خارجيا، و لا تتصف بالانسجام الدائم، بل قد تكشف أيضا عن بعض التناقضات في جميع مستويات الواقع المادي و الفكري معا، ممّا يجب اعتبارها عنصرا متغيرا.

و انطلاقا من رفض الفصل بين المنهج و مادة التحليل، أين أصبح علم الاجتماع الغربي هو المنهج و المجتمعات العربية هي مادة التحليل و بالتالي موضوعا بالنسبة لعلم الاجتماع الغربي بمختلف أدواته و أساليبه المنهجية و النظرية مما يتنافى مع مبدأ الخصوصية التاريخية المشكّلة الإطار الضروري و المنطلق الأساسي لكل إبداع سوسيولوجي عربي، نُؤكد على وجوب النظر في هذا البعد التاريخي و رفض الصيغ الجاهزة.

إضافة إلى ما سبق، مفهوم النقد الإبستمولوجي يعتبر ضرورة للمراجعة الدقيقة للمفاهيم والنظريات، و يربط مع الخصوصية التي يقتضي تحقيقها اختبار النظريات و المناهج و نقدها احتراما لمراحلها التاريخية.

و إذا ما اعتمدنا على نظرة كل من "أنور عبد المالك" و "عبد الكريم الخطيبي" فيما يتعلق بمسألة النقد نجد أن أهمية هذا النقد عند أنور عبد المالك تعطي الأهمية لعلم الاجتماع حين يمارسه على نفسه، فلا يهم التراكم الكمي بتراكم الأبحاث، بل التأسيس الكيفي لممارسة البحث العلمي الخاص به، مما يمكنه من إعادة النظر النقدية للمفاهيم التي يستخدمها، لأنه يرى أن بناء المفاهيم هي المشكلة الأساسية التي تواجه علم الاجتماع غير الغربي. و هكذا يتم بناء العلوم الإنسانية بناءا جديدا يجمع بين الصفة العلمية للمفاهيم، و قدرتها الإجرائية.

---

[66]- نفس المرجع،ص 150.

([67])- نفس المرجع، ص152.

أما "عبد الكريم الخطيبي" فيحث على النقد المزدوج المتمثل في:

- ✓ **تفكيك المفاهيم التي تتكلم عن الواقع العربي، بمنظور عربي و إيديولوجية متمركزة حول الذات لتحريرها من التمركز.**
- ✓ **نقد المعرفة و الكتابة السوسيولوجية المنجزة من مجتمعات العالم العربي حول ذاتها مركزا على كتب ابن خلدون في هذا المستوى من النقد.**

و هكذا فهو يعتبر النقد المزدوج الوسيلة الوحيدة لتجاوز الممارسات الفكرية القائمة على الإعادة و التكرار، من أجل الحصول على معرفة أقل استلابا، و أكثر تكيفا مع خصوصية الموضوع المطروح لبناء مفاهيم تسمح لعلم الاجتماع بمواجهة موضوع معرفته، فيتحرر و يصبح شاملا للزمان، المكان و المعرفة في إطار تاريخي، فلا وجود لعلم كلي ينطبق على جميع الحالات و الاختلافات الاجتماعية، و كل معرفة سوسيولوجية متجدّدة على الدوام.

و من أجل الكشف عن العوائق النظرية و البنائية المميزة للوضع الراهن لعلم الاجتماع في الوطن العربي عموما يستلزم الربط بين هذين المستويين ليتعدى النقد الإبستمولوجي المستوى النظري أو المعرفي لتشمل المستوى البنائي.

<u>البرامج الأكاديمية: وسيلة اتصال بين الجامعة و المجتمع:</u>

يعتبر التعليم وظيفة اجتماعية، يُفترض أن يُكَوِّن إطارات مؤهلة في مختلف مجالات المعرفة و الفعل، "و يساهم في ترقية المجتمع تكنولوجيا، كما يجب أن يكون عامّا في إطار التكوين الثقافي، إضافة إلى احتوائه على مضمون جديد مكيف حسب الحاجة الوطنية، و ذلك بإعادة تشكيل سياسة حقيقية للتربية و التكوين العلمي و التقني".[68]

و من هنا يتوجب أن يكون هذا البرنامج، مرنا، قابلا للتعديل حسب المستجدات في مختلف الميادين، مكيفا حسب الحاجة الإجتماعية و خاضعا للنسق الثقافي القائم. حيث تقوم الجامعة بدور أساسي في توجيه العلاقة بين العلم المُدرَّس و الواقع الإجتماعي، فهي تعطيها طابعا مميزا حسب خصوصياتها، من خلال المبادئ الأساسية التي يحملها البرنامج الرسمي الذي يؤثر على الطلبة بمختلف اتجاهاته بعد تخرجهم و تفاعلهم مع المجتمع. و يستوجب هذا، وضع برنامج معبّر، و عدم الإقتصار على الجمع التسلسلي للمعلومات، لأنّ التكوين يأخذ معناه عندما يُعطي للفرد الفعالية الإجتماعية و يُطوِّر قدراته التكيفية و إعادة الوقائع.

([68])- Malika Téfiani. Université et nouvelles technologies en Algérie. Geneve-Afrique, vol 28, N°02, 1990, p 112.

و يتجسّد هذا العمل من خلال التسيير العقلاني و تطوير برنامج يسمح بانتقاء و تكييف المحتوى مع الوقائع، "فعوض أن تفرض الجامعة تعريفها الخاص بالبرامج في نص مجرد، أصبح المجتمع هو الذي يُعبّر عن احتياجاته من الإطارات المؤهلة للقيام بمسؤولياتها، و تميل في ذلك نحو التجربة الإجتماعية مع ضرورة التربصات في مجال النشاطات التربوية، و يجب أن تحتل مكانة في المخططات التعليمية".[69]

و يتفق الجميع أنّ قطاع التعليم العالي في بلادنا، عرف عموما تطورات هامة من ناحية الهياكل القاعدية، و عدد الأساتذة و الطلبة المسجلين في مختلف المعاهد، حيث أصبح عدد الجامعات و المعاهد العالية هاما جدًّا.

> "لكن هذه التطورات لم يصاحبها تطورا في محتوى البرامج الدراسية، و طرق التدريس و البرمجة، حيث بقيت أغلب هذه البرامج من دون تغيير لمدة طويلة (...) ممّا أثر على الطلبة و الأساتذة، و أدى إلى انخفاض مستوى التعليم الجامعي في الجزائر. و يكمن الحل في مراجعة محتوى البرامج الدراسية و طرق التدريس، و جعلها مسايرة للتطورات الدراسية في ميادين العلوم المختلفة".[70]

فانطلاقا من أساس أن التغيرات المستمرة في المجالات العلمية و التكنولوجية، تُملي مزيدا من الاهتمام بمحتوى التعليم و مناهجه، و تحديث خططه، و ربطه بحاجات الإنتاج الاقتصادية و الإجتماعية...، مما ييسّر الربط العضوي بين متطلبات القوى المتجددة و ما هو موجود في مستويات التعليم العالي، و عكس مستلزمات تطوير شتى جوانب الحياة في ضوء التطورات الجديدة. و ممّا يلفت النظر أنّه رغم التعديلات القائمة في محتويات البرامج الدراسية في جامعاتنا، إلاّ أنها لم تستطع لحد الآن الإجابة على المتغيرات الجديدة كمًّا و كيفاً، فالكل يُجمع على وجود هوة بين البرنامج الأكاديمي –لا سيما في العلوم الإجتماعية– و الواقع بكل جوانبه، و أصدق حَكَمٍ هو الواقع الذي يبين "عدم توافق الإعداد مع حاجات المجتمع و أنساق تنميته، حيث يغلب على التخصصات الإعداد النظري، كما لا تتمتع بمرونة تعديلية أو تطويرية تواكب سرعة تطور وسائل الإنتاج"[71]، و هكذا فقد بات واضحا، أنّه من أكبر التحديات التي تواجه جامعاتنا عدم تمكنها من ربط برامجها و مدخلاتها، باحتياجات التنمية، و متطلبات سوق العمل.

فما هي يا ترى مميزات البرنامج الأكاديمي لعلم الاجتماع في الجامعة الجزائرية؟ و للإجابة على هذا التساؤل الجوهري، نجد أنه إثر التحولات التي عرفها مجتمعنا، و التي تطلّب أن يكون قطاع التعليم العالي و البحث العلمي في مستوى معطياتها الجديدة، مازال المشكل يُطرح في إطار محتوى البرامج التي تخضع

---

*([69])– مراد بن اشنهو ،*نحو الجامعة الجزائرية، تأملات حول مخطط جامعي. ترجمة عائدة أديب بامية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية،1981.، ص22.

([70])– صادقي عبد الرحمان، "التعليم العالي 1992–1994"، مجلة ربع سنوية يُنتجها الديوان الوطني للإحصائيات، رقم 38. ص 15.

([71])– نزار الزين، "الخلفيات و الآفاق التربوية في توجهات العلوم الإنسانية و برامجها". الوحدة، المرجع السابق، ص 171.

للنصوص الحاملة لإصلاح التعليم العالي و التي ترجع لسنة 1971، رغم محاولات التقدم (بالمقارنة مع البرامج القديمة)، و تكيفها مع السياق الوطني، حيث تتطلب إعادة النظر في الصميم. فهناك عدة مقاييس ذات اتجاهات نظرية، و تحمل البعض منها مضامين تجاوزها الزمن، "و رغم أن تعليم السوسيولوجيا المعتمد حاليا يشمل برامج تبين إرادة متفتحة على الحقائق الإجتماعية للوطن، لكنها لم تصل إلى العمق."[72]

علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية:

سيتم التطرق إلى جانب المضمون و المحتوى، أي الكيف المندرج تحت مختلف العوامل المتداخلة في التطور النوعي لهذا العلم، من حيث مردوديته و مدى فعاليته في المجتمع. انطلاقا من البرامج التي تعتبر العنصر المادي الذي يصل بين الجامعة و المجتمع بكل مكوناتهما.

لكن قبل ذلك، نشير أن الأسباب التي دفعت إلى إحداث علم الاجتماع في جامعة الجزائر هو" الشعور بمحاولة لا مركزية التعليم، استجابة لرغبات و تطلعات المثقفين في الجزائر، إضافة إلى معرفة الشعب الذي يسكن معه هؤلاء المثقفون(...) حيث لم يكن هذا الفرع المعرفي مستقلا بذاته، بل تابعا لمعهد الحقوق، و موجّها للطلبة الذين هم بصدد تحضير دكتوراه العلوم السياسية و الاقتصادية، و ذلك للتعرف على عادات و مؤسسات هذا المجتمع.[73]

و تبقى المرحلة التأسيسية الأولى لهذا العلم مبهمة لعدّة أسباب من بينها إهمال التأريخ من طرف المختصين، إضافة إلى استيلاء الفرنسيين على الأرشيف و تعمّد إتلافه، إضافة إلى عدم اهتمام السلطات بجمعه و تنظيمه. كما نشير إلى أنه ما بين 1962 و 1972، تكونت فئة من السوسيولوجيين حسب النموذج السوسيولوجي التابع للإطار الليبرالي للجامعة الفرنسية، و كان عدد الطلبة قليلا جدا، أما الأساتذة فكانوا مفرنسين، مع هيمنة المدرسة الوضعية على الجانب الفكري، وإحساس بالماركسية من طرف الطلبة الجزائريين كمرجع مضاد لتصور كل من فرانس فانون، مصطفى لشرف، ابن خلدون. كما كان الجانب السياسي و الإيديولوجي يطغى بقوة على الأكاديمي و العلمي.[74]

و قد ظل التوجه الفرانكفوني للخطاب السوسيولوجي قائما داخل الجامعة الجزائرية حتى عام 1971، حيث عُنِيَ بالتنظير الذي يفتقر إلى الدراسات الميدانية الواقعية، كما تميز بالاهتمام بدراسة أعمال دوركايم، و يكاد يقتصر على النقل و التحصيل دون التأصيل و التحليل. فرغم الإصلاحات، لم يتم إحداث التغيير المطلوب، من خلال التقويم الشامل لما خلفته السوسيولوجيا الاستعمارية من حيث الممارسة البيداغوجية و البحثية، و مقتضيات فهم طبيعة التحولات و الأحداث المستجدّة، حيث "نجد الكثير من

)- Safir Nadji, **essai d'analyses sociologiques (culture et développement). Alger: ENAL,** *[72]* **(tome 1, 1985.**

O. P. Cit., p 29.

([73])_ Réné MAUNIER, Mélanges de sociologie nord-africaine, programme d'une sociologie algerienne. Librerie félix alcon, 1930,p 36.

([74])- لرجان عمر. "المجتمع الجزائري و الممارسات السوسيولوجية." جامعة الجزائر: الملتقى الوطني الثاني لمعهد علم الإجتماع. 11-12نوفمبر 1997، مداخلة حول الفاعلون السوسيولوجيون.

النظريات و التيارات الفكرية التي ظهرت على الأرض الأوروبية انطلاقا من إشكاليات لها خصوصياتها، قد نُقلت كما هي إلى الجامعات العربية لتردّد فيها بشكل آلي."[75]

وقد ساد في تكوين علم الاجتماع مناخ فكري نابع من الفكر الاشتراكي المتميز بهيمنة خطاب ذو نزعة إيديولوجية و سياسية، إضافة إلى تواجد خطاب ليبرالي، مع وجود تيار إسلامي بصفة ضعيفة في تلك الفترة. و هكذا تم وضع برامج التكوين في علم الاجتماع لخدمة المحاور الكبرى الخاضعة للسلطة، و نموذج التنمية المعتمد. مما جعل التخصصات المُدرّسة آنذاك منسجمة مع أهداف الثورات الصناعية، الزراعية، الثقافية، و قد حُصر الطلبة في تخصّصين هما: علم الاجتماع الريفي–الحضري، و علم الاجتماع الصناعي.

أما فيما يخص الجانب الثقافي، فلا تتجاوز وحداته إلا فيما تقرّر في الاقتصاد كمواد مكملة، بينما لم يُخصّص لدراسة و تحليل المجتمع الجزائري، إلا وحدة واحدة ضمن البرنامج و هي "التحليل الإجتماعي للتاريخ الجزائري"."و إذا اعتبرنا الوحدة المخصّصة لدراسة مواثيق الثورة تدخل ضمن خصوصيات مجتمعنا، فيكون البرنامج قد تضمّن بذلك وحدتين مقابل ستة وحدات للإقتصاد، أما بقية الوحدات المقرّرة فتتميز بالعمومية، حيث أنها في مجملها لا تتعدى كونها نظريات عامة تصلح لكل المجتمعات."[76] حيث كان هذا النوع من التكوين يركز على الجانب الاقتصادي على حساب القطاعات الإجتماعية و الثقافية. و بهذا، فإن التكوين كان يخدم الاتجاهات السياسية القائمة. و الاهتمام بمستقبل الممارسة السوسيولوجية في الجزائر يتطلب تشخيص أهم المنطلقات النظرية و الفكرية و المنهجية السائدة في ميدان البحث السوسيولوجي، الذي يدرس الواقع الموروث أو المستقبل.

و كنتيجة من بين نتائج إصلاح 1971 ظهرت فئتين من التكوين في العلوم الإنسانية، تحمل كل منها اتجاهات مختلفة هما: المعربين و المفرنسين. حيث يميز حمداش عمار "فئة المعربين التي درست نصوصا بالعربية على أنّها ذات أصل أنجلو سكسوني، أنجزت دراساتها العليا في إنجلترا و أمريكا، و فئة المفرنسين الذين بدءوا في التعريب، المتجهين أكثر إلى السوسيولوجيا الفرنسية المتميزة باتجاه نظري أكثر عمقا و نقدا، فالجانب الإمبريقي موجود أكثر عند المعربين و الجانب النظري (الماركسي أو البنيوي،...) موجود أكثر عند المفرنسين."[77]

---

(75)– *علي الكنز*، **حول الأزمة: 5 دراسات حول الجزائر و العالم العربي. الجزائر: دار بوشان للنشر،1990، ص 142.**

(76)– *محمد خالد، التكوين و البحث السوسيولوجي. عن أعمال الملتقى الوطني الثاني حول علم الإجتماع في الجزائر: المجتمع الجزائري و الممارسات السوسيولوجية، الورشة رقم (1): علم الإجتماع في الجزائر، مؤسسات، فاعلون و ممارسات، مجلة البحوث السوسيولوجية. عدد 1، السنة 2000، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإجتماعية، قسم علم الإجتماع، 11–12 نوفمبر 1997، ص 15.*

(77)– *حمداش عمار، "وضعية البحث السوسيولوجي في الوطن العربي" (الدراسات الإجتماعية في الوطن العربي). المستقبل العربي، العدد 134، أفريل 1990، ص69.*

و من هنا تبرز المفارقة البيداغوجية في علاقة الأستاذ و الطالب من حيث إيصال المعلومات، ممّا يخلق قطيعة بينهما. ففي حين نجد أن أغلبية الأساتذة مفرنسين، نجد طلبتهم معربين فيحدث خللا في الانسجام الذي يُفترض أن يقوم بينهما على أساس أنّ اللغة دورا حاسما كنقطة اشتراك بين أطراف العملية التربوية. و تتعدى نتائج هذا الخلل فترة التكوين لتظهر بوضوح عند خروج الطلبة للحياة العملية. و من بين هذه النتائج أن يجد الطالب المعرب نفسه تائها في مؤسسات تسير بالنظام القديم، معتمدة اللغة الفرنسية، انطلاقا من القطيعة القائمة بين الجامعة و المؤسّسات الاقتصادية. التي مازالت تسير باللغة الفرنسية و ترفض المتخرجين المعربين لاسيما في العلوم الإجتماعية.

أما عن المواضيع التي ميزت هذه الفترة فكانت متمركزة حول الريف، و التنمية الزراعية و الخدمات الإجتماعية. أي كل ما له علاقة بنتائج الثورة التحريرية، أما في الثمانينات فقد ترسخ علم الاجتماع من الناحية الكمية، حيث ارتفع عدد الدفعات و الأساتذة، وعدد الأساتذة المناقشين لأطروحات الدولة، و بهذا أصبح الجانب المؤسساتي لعلم الاجتماع قويا في الساحة الأكاديمية، و فرض نفسه كعلم قائم، و تدعّم من خلال البحث و اللقاءات و نشر الأفكار، و برزت ظواهر اجتماعية جديدة في مختلف المجالات. أمّا اليوم فقد تنوعت الاهتمامات و شملت مشاريع جديدة، فمع استمرار الدراسات الريفية و اتخاذ صورة مستقلة نوعا ما عن السياسة، أخذت ظاهرة الشباب و الحركات الإجتماعية اهتماما واضحا.

البرامج الدراسية في علم الاجتماع:

يُعتبر علم الاجتماع مادة علمية تساهم في التنمية. مما يستوجب الانسجام بين دروس هذا العلم و المشاكل الأساسية للمجتمع، لا من خلال الشعارات و الجانب النظري، و إنّما من خلال التطبيقات الواقعية، من أجل إنتاج علم سوسيولوجي للبلدان النامية- بما فيها المجتمع الجزائري- يتماشى مع اهتماماتها و تطلعاتها. و " يمثل التحكم في علم الاجتماع أحد المظاهر السياسية لعدم التبعية...، من أجل إعادة التلاؤم الاجتماعي الشامل... لكن الصورة التي تنظر من خلالها الشعوب النامية إلى نفسها ليست ظاهرة من الظواهر الأصلية لثقافتها، لقد اتخذت بأوسع معانيها، و لكنها عبارة عن إبداع منقول و مرفوض يمثل أحد مظاهر السيطرة الخارجية الحالية أو الماضية. فما هي إلاّ نقلا بسيطا لمشاكل و نتائج مجتمع متطور إلى مجتمع يتطلع إلى التطور"[78].

([78])- من الخطاب الافتتاحي، مجلة الجامعة، رقم 01. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1975، ص ص19،20. نقلا عن محمد بشير، مدخل لدراسة علم الاجتماع في الجزائر ما بين 1972-1982. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994. ص03.

و تُحتم الضرورة هنا معرفة عالم الاجتماع لخصوصيات مجتمعه، و يهتم بكل ما يجري داخله مبتعدا عن كل الإيديولوجيات السائدة، فيصبح بذلك محركا للبحث في العلوم الاجتماعية. و تطرق "محمد بشير" في دراسة تندرج ضمن إطار علم الاجتماع المعرفة، أو ما يسمى بـ "سوسيولوجية علم الاجتماع" الذي يعتبره "بودون" **أنه الجزء من علم الاجتماع الهادف إلى دراسة الظروف الاجتماعية المساعدة على إنتاج المعرفة، و نشر الأفكار."[79] إلى مضمون البرنامج الرسمي لعلم الاجتماع الذي عرف طورين أساسين: قبل عملية الإصلاح و بعده و ما أحدثه من تغيرات على مستوى علم الاجتماع في جميع التخصصات:**

مضمون البرنامج قبل الإصلاح:

اتصف البرنامج في هذه المرحلة بالفصل بين الجامعة و الظروف الاجتماعية و كذا اهتمامات المجتمع الجزائري, ممّا يُفقد الشهادة الجماعية فعاليتها و لا يعطيها أهمية ملموسة واقعية، مكتفيا بمجرد معطيات نظرية بعيدة عن مشاكل المجتمع. رغم أنه من المفروض أن تكون" البرامج التعليمية المختارة لنشر المعارف مستوحاة من الواقع الاجتماعي الذي يُعبّر عنه, لذا تطلب هذا الأمر إصلاحا موضوعيا من أجل إخراج الجامعة من خدمة مصالح المستعمر و تكريس هيمنته الثقافية و الإيديولوجية...حيث كانت الاتجاهات التعليمية تُعطى من الزاوية الاستعمارية و بمناهجها "[80]

و قد هدف هذا الإصلاح إلى تغيير محتوى البرامج, و طرق التدريس من أجل تحديد مواضيع و طرق البحث بطريقة فعاله و مردود أكبر." فهو ليس تلقين مفاهيم فحسب،و إنما تلقين تقنيات ميدانية لتحويل الواقع الاجتماعي "[81].

أما عن مضمون البرنامج بعد الإصلاح:

فيحصر المؤلف الميزة العلمية للتيار السوسيولوجي في هذه المرحلة في:

- ✓ **شرح الظواهر الاجتماعية في شموليتها.**
- ✓ **التجريب،**
- ✓ **المذهب السيكولوجي (المهتم بعلاقات الشخص مع الجماعة).**
- ✓ **العلاقة بين المدينة و الريف (من أجل التوازن و تكافؤ الفرص).**
- ✓ **العلاقة الإنتاجية في المؤسسات الصناعية (علم اجتماع العمل).**

([79]) نفس المرجع، ص8.

([80])- مجلة الجامعة ص 21، نقلا عن نفس المرجع، ص 15

([81])- إصلاح التعليم في الجزائر، مجلة تصدرها وزارة التعليم العالي و البحث العلمي، 1977، ص35، نقلا عن محمد بشير، نفس المرجع، ص17.

✓ **البنيوية الوظيفية (فلكل مجتمع أن يخلق البنيات الكفيلة للقيام بالوظائف الأساسية حتى يعيد إنتاج نفسه، و تبحث البنيوية الوظيفية فيما إذا كانت البنيات الموجودة واقعيا تتماشى و الوظائف المراد تحقيقها من طرف النظام الاجتماعي).**

و مما يلاحظ في البرنامج حسب "محمد بشير"هو التجزئة المفرطة للمقاييس مما يخل بتجانسه و يصعّب ابراز اتجاهاته بسبب تداخل مواده، فهو برنامج مبهم و غامض حتى بالنسبة للأساتذة أحيانا. و يرى أنه ربما يمكن اعتبار غاية شمولية البرنامج المحتوي على عدّة علوم كالإقتصاد، علم االنفس، التاريخ و الإحصاء... هي تعليم متكامل يساهم في تكوين علماء اجتماع تقنيين، تطبقيين. كما يبين الضغط الذي يلقاه الأساتذة حين يجدون أنفسهم يطبقون برامج خارج إرادتهم، ممّا يفقدهم الدور الذي يجب عليهم القيام به على أكمل وجه.

و انتقد الاتجاهات الأساسية لتلقين البرنامج باعتبار مضمونه يأخذ طابعا معرفيا نظريا مجزءا يفقد فعاليته في التعامل مع الواقع الاجتماعي، حيث يصبح مجرّد سرد للحوادث و الظواهر الواقعة تاريخيا، فيكون بذلك ثقافة عامة لا غير.

و يدعم الكاتب قول "بورديو" و "باسرون" "في أنّ المثقفين هم المنتوج الجاهز من الجهاز التعليمي، و أنّهم مكلفون بالسهر على هذا المنتوج"[82]. حين يتكلم عن الأستاذ الذي ينفذ برنامجا مسطرا دون أي تدخل منه، فيفتقد بذلك دوره كمعلم أو مدرس مبدع، ليصبح مجرّد موظف، فيكون على حدّ قوله "مثقفا موظفا، أي وكيلا للدولة أو ما يمكن تسميته وكيل التنمية"[83].

أما عن الاتجاهات الأساسية لتقلين البرامج، فيجسّدها في الاتجاه الوضعي، الوجه الفلسفي و علم الاجتماع التحليلي. و يتعرض إلى كيفية مساهمة علم الاجتماع في تكوين الإطارات السوسيولوجية بإبراز ميادين هذا العلم و حصر أهدافه في حل المشاكل المؤسسات الاجتماعية و تنظيم و دراسة الواقع، و الممارسة الإيديولوجية و الثقافية و كذا المساهمة في عملية التنمية بحل المشاكل اليومية و المشاركة في وضع الخطط الاجتماعية و الاقتصادية للنمو.

و أبرزت أفكار المؤلف وجود تناقض بين مضمون البرنامج و طريقة إلقائه، فبالرغم من امتداد فترة طويلة على تطبيق الإصلاح الجامعي الهادف إلى الإبداع و التجديد، إلاّ أنّه ما زال يلقي بطريقة بيداغوجية تقليدية غير مشجعة على الابتكار و الإبداع.

([82])- Bourdieu (p) ; Passeron (cl). La reproduction. Paris : Ed. Minuit, 1970, p 230.

([83])- Jagloul (A). In Algérie Actualité N°846. Du 7 au 13 janvier 1992.

نقلا عن محمد بشير, نفس المرجع, ص24.

و بعد ما تمّ التطرق إلى وظائف علم الاجتماع التقنية و الإيديولوجية و الثقافية تبين عدم وضوح وظيفته الحقيقية، نظرا للتناقص الموجود بين التكوين و التشغيل، مع انعدام مخطط شامل يربط حاجيات التنمية من حيث الإطارات. و بالتالي على عالم الاجتماع أن يخدم و يرتبط بالتحولات الاقتصادية لصالح تقدم المجتمع الجزائري مع دوره في التوعية المرتبطة بواقع هذا المجتمع في جميع الميادين.

و نتفق مع الباحث حين يقول أن الجزائر تعتبر المدرسة الأولى التي أُقحمت للتجارب السوسيولوجية الغربية، لا سيما الفرنسية، كما أنها البلد الوحيد الذي لم يُنظّم و يرتب الأرشيف الخاص بهذا العلم، ممّا يصعب البحث في هذا الموضوع.

<u>علم الاجتماع الأكاديمي و الخصوصية الإجتماعية للمجتمع الجزائري:</u>

"إن للمجتمعات و الثقافات وجوداً متقلبا على الدوام، فهي في تدفق مستمر، مشكِّلة حزمة من الظاهرات المستعارة و المستوعبة في أغلب الأحيان، و هي متفككة على الدوام ليُعاد تنظيمها خلافا على ما كانت عليه"[84]. و هكذا يتبين مرة أخرى أن الثقافات تختلف من حيث البنية و ماضي كل منها، و على الفرد أن يعرف مميزات ثقافته في إطار مجتمعه، حتى يتمكن من فهم مختلف النماذج. و من هنا تبرز المقارنة بين هذه الأخيرة لمعرفة الصالحة منها. حيث تطرق الكثير من المفكرين الجزائريين لهذه النقطة، مبرزين خطأ إهمال خصوصية مجتمعنا، لما لهذا من نتائج سلبية في مختلف المستويات التي تنعكس بدورها على مردود المؤسسة الجامعية عموما، و تخصصات علم الاجتماع على وجه أدق. منهم الدكتور عبد الغني مغربي الذي يجزم أنّ "العلوم الإجتماعية التي تُدرَّس في الجزائر لا تتجاوب مع حقائق بنياتها كما أنها لا تتجاوب مع حاجياتها الأساسية، لعدم توافق الجهاز التصوري المستعمل مع نوعية الظواهر الإجتماعية للبلاد... ثم أن مجموع الموضوعات و توجيه التعليم بأنواعه يكشفان عن انحراف الأولوية التي من اللائق أن تُعطي لبعض المواد"[85]. و يُرجع هذه الظاهرة لما يُسمى بالعلوم الإجتماعية المستوردة نظرا لقابلية تأثر معظم الطلبة المتشبعين بالثقافة الغربية عن مجتمعهم، ممّا يُبعدهم عن الحقيقة و يجعلهم يعيشون في عالم خيالي، يرى أنه يتجسّد في دروس علم الاجتماع.

([84])- A. Laraoui, <u>L'idéologie arabe contemporaine.</u> Préface de Maxime Rodinson, (1), Paris : Maspero, 1967, p 5. *نقلا عن :*

عبد الغني مغربي، <u>الفكر الإجتماعي عند إبن خلدون</u>، ترجمة: محمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص 204.

([85])- نفس المرجع، ص201.

و يضيف أنّ الجيل الأوّل لعلماء الاجتماع أنشئ المادة السوسيولوجية من خلال قواعد رسمية أكاديمية بحتة، متسمة بطابع اصطناعي. فهم لم يُنشئوا القواعد الكيفية للعلم،و المتمثلة في الأخذ بعين الاعتبار خاصيات المجتمعات العربية، بما فيها الجزائر باعتبارها جزء ينتمي إلى هذه المجتمعات جغرافيا و حضاريا."[86]

و بهذا فإن علم الاجتماع الأكاديمي مازال تابعا للإيديولوجيات الأجنبية، ففي الوقت الذي تفرض فيه التغيرات العلمية و الاكتشافات محاولة تحصيل المكتسبات الجديدة، عبر التغير السريع الذي يُحول شروط و مناهج الفعل، نجد أن علم الاجتماع يتواجد في عمق الأزمة أكثر من أي علم أو مهنة ثقافية، من خلال الانطباع الذي مُؤَدّاه أن كل شيء قد قيل في هذا المجال، و أن أي تدخل يجد نفسه يُعيد ما قاله السابقون.

إذن من خلال تقويم المُمارسات السوسيولوجية الحالية لمجتمعنا نجد أنها تابعة للسوسيولوجيا الغربية"حيث تأخذ هذه التبعية أشكال التكرار و التقليد، ممّا يُؤدي إلى انحراف قضايا و إشكاليات العالم الغربي داخل البنى الثقافية و الإجتماعية لعالمنا. و تتعدّد هذه الأشكال و تختلف مع اختلاف التاريخ الاستعماري الذي عرفته بلادنا و مع سياستها الحاضرة و مع تاريخ مؤسساتنا الجامعية و مدى تماسكها"[87].

و تشمل هذه التبعية جانبي المضمون و المنهجية، و يضيف "علي الكنز" أنّ إيجابيتنا تجاه النظريات السوسيولوجية الغربية جعلتنا نُتقن التعليم في هذا المجال. إلاّ أنها لم تُعطنا الأدوات اللازمة لمعالجة قضايا واقعنا الذي يختلف في تكوينه، و يزيد تعقيدا على واقع المجتمعات الغربية، لذا تبقى أغلبية الأبحاث عقيمة، إذ تُؤدي في أحسن الحالات إلى تجميع معلومات تجريبية يُعاد تركيبها في إشكاليات مصطنعة لا تُلائم الواقع.[88]

و هكذا يتبين غياب الخصوصية التاريخية لمجتمعنا و ما يتصل بها من خصوصيات في مختلف المستويات، ممّا يستوجب إعادة النظر في مقوماتنا الثقافية و تراثنا، عن طريق تقييمه موضوعيا دون تهميش الرصيد المعلوماتي السوسيولوجي الغربي، بل إضافة ما هو نابع من مقوماتنا، لمحاولة تشخيصها، و الخروج بنظرية خاصة بنا.

و تُطرح هنا أيضا العلاقة بين الكم و الكيف مرّة أخرى، حيث نجد عددًا من المؤلفات و المشتغلين في علم الاجتماع. لكن هذا لا يعني أن هذا الجانب قد نال حقه، فنادرًا ما نجد مؤلفًا يحمل صفة الإبداع، أو على الأقل تشخيص ما هو موجود حسب خصائص مجتمعنا، لأن أغلبية المؤلفات ما هي إلاّ نقلاً أو ترجمة لمؤلفات و نظريات غربية، لا تصلُح لمجتمعنا، الشيء الذي عَدَم إنتاج سوسيولوجي جزائري.

و إذا حاولنا معرفة السبب في ذلك فنجد أن هناك عوامل متعددة قد أدّت إلى هذه النتيجة، قد ذكرناها سابقا. في حين أننا سنعيد الكلام حول البرامج الدراسية ، حيث نجد أن جامعتنا حاليا تُساهم إسهاما محدودًا في مجتمع المعرفة، و واقع المجتمع الجزائري على وجه الخصوص. بالرغم من أنّ دورها يكمن في

([86])- عبد الغني مغربي، وجود و عدم وجود السوسيولوجيا في البلدان النامية، نموذج العالم العربي. محاضرة في مقياس التحليل النقدي للنظريات السوسيولوجية، ألقيت بتاريخ 19/02/1997.

26)- علي الكنز، "المسألة النظرية و السياسية لعلم الاجتماع العربي". المرجع السابق، ص .99

27)- نفس المرجع ، ص142.

وضع برامج دراسية معبّرة، و السير بالتعليم لصالح المجتمع. "حيث أنه لم تجر حتى الآن دراسة تحليلية للمقررات أي البرامج التي تُدَرَّس في الجامعات، و مدى ارتباطها بمشاكل المجتمع، و نجد أن ما يُدرس من مواضيع علم الاجتماع يدخل في إطار المفاهيم الأجنبيّة"[89]. و للخروج من هذه التبعية يجب تخطيط البرامج الدراسية بعقلانية تماشيا مع الخصوصيات الزمنية و الثقافية للمجتمع، و قد أعطى "محمد نبيل السمالوطي" في كتابه "علم اجتماع التنمية" مبادئ بناء نموذج خطة العمل المحلي في إطار عملية من التنظيم، حيث تنطبق هذه المبادئ على تخطيط البرنامج الرسمي، من أجل إعطاء معرفة فعالة. و يشتمل هذا النموذج على المبادئ التالية: "الواقعية، الشمولية، المرونة، التتابع"[90]. و بهذا فهو ينبع من الواقع، و يكون موضوعيا حسب الأولويات، يشمل كافة الجوانب التي تحتويها شبكة العلاقات و التفاعلات الوظيفية، قادرًا على مواجهة الظروف المستجدّة التي لم تكن في الحسبان، و كذلك مستمراً، متواصلاً، حيث تُمهَّد نقاط البرنامج الحالي للبرامج التالية، ضمن سيرورة منظمة.

و في نفس السياق، فمن أجل تحقيق التخطيط بصفة واقعية، يجب ألا يكون التخطيط للتعليم العالي منعزلا، بل مُندمجا في إطار التخطيط للتربية في مجملها، باعتبارها وظيفة تخطيط التطور العام، فالتربية يجب أن توضع كسيرورة تشمل حياة كل الأفراد. و حتى في الجامعة ذاتها، "يجب أن يُدمج التخطيط في بنية الإدارة الجامعية، لأنّها تّمثل القدرة على القرار الثابت. و لكي يكون التخطيط الجامعي دقيقا، يجب أن يُساهم في التطور العام للمجتمع، و أن يمتلك الحرية في الدراسات و التسيير، و أن يعتمد التربية الدائمة و التوجيه، حيث تُمكّن هذه المبادئ من خلق مصالح مناسبة، و كذا إصلاح مناهج الدراسة و الامتحانات"[91].

إذن يجب الاعتماد على التخطيط لإدراج برنامج جديد للتعليم في مستوى ليسانس علم الاجتماع في جامعاتنا، لأنه العلم الذي يُؤسس و يُفهم التوازنات الإجمالية المرجوة سواء فيما بين القطاعات المنتجة، أو بينها و بين قطاعات أخرى، باعتبار أنّه مادة التحليل المستعملة لرُؤية متطلبات المجتمع، ارتباطا بنمط استهلاكه. كما يُعطي من خلال إشكاليته و مناهجه الحقل المعرفي الأكثر استعمالا في البعد الثقافي للتنمية.

و نعود للاستعانة بما ورد عن "سفير ناجي" حين يُؤكد على ضرورة إصلاح برنامج الليسانس في علم الاجتماع، و يرى أنه من المفروض أن يتجه التدريس هنا لتكوين إطارات في اتصال مع المشاكل الإجتماعية، من أجل تكوين و إرساء قواعد و عناصر أساسية لتحليل المجتمع الجزائري المعاصر، و كذا بنيته عبر مختلف تحولاته. و يقترح المبادئ التي على الجامعة إتباعها في هذا المجال، ندرج أهمها المتمثلة في:

---

(89)– **فؤاد إسحاق الخوري، "علم الاجتماع و قضايا الإنسان العربي"(ندوة)، المستقبل العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، السنة السابعة، العدد 72، فيفري 1985، ص 129.**

(90)– *محمد نبيل السمالوطي، علم إجتماع التنمية: دراسة في إجتماعيات العالم الثالث. الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص ص157–158.*

(91)- *HENRI jeanne. Les principes généraux de la planification universitaire. (Étude des problèmes de l'enseignement supérieur). Belgique : Edition de l'institut de sociologie (université libre de Bruxelles), 1971, pp52-53.*

1) الجزأرة: بدءًا بالهيكل التعليمي، الباحثين و إدارة الجامعة، و كذلك مراكز البحث.

2) تكوين إطارات إجرائية: حيث يُطرح هنا مشكل تكيف الإطارات المكونة مع متطلبات القطاع المستخدم الذي عادة ما يشتكي و يتذمّر من نوعيتهم التي يصفها بالرديئة، و بالتالي وجوب إعادة النظر في برنامج الليسانس و تدريس علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية لضرورة الربط العضوي بين وحدات التعليم و البحث و مختلف قطاعات النشاط الوطني.

3) النشر العلمي المتخصص في علم الاجتماع، و تحريك سياسة الأبحاث الإجتماعية.

4) إنشاء جمعية علمية متخصصة، و تنظيم لقاءات مستمرة بين السوسيولوجيين و ممثلي مختلف قطاعات النشاطات الوطنية.

5) التفتح على قطاعات أخرى للنشاط الوطني، و يُعتبر هذا العمل أهم بُعد للتجسيد الفعلي للمبادئ السابقة،" فلا يجب أن تكون العلاقة بين الجامعة و قطاعات النشاط الوطني علاقة عشوائية و سطحية، بل من الضروري أن تعود الجامعة و البحث سواء تجاه القطاعات المنتجة مباشرة، أو قطاعات النشاط الاقتصادي، الإجتماعي و الثقافي."[92]

و هكذا، تتأكد مرّة أخرى ضرورة العلاقة بين الجانب النظري في الدروس و التطبيقات العملية في مختلف التخصصات، من جهة، و ضرورة البحث الإجتماعي من جهة أخرى.

خاتمـــــة:

في إطار العلاقة النسقية القائمة بين كل من الجامعة و المجتمع، نتوصل إلى المخطط التالي الذي يربط بين مختلف المتغيرات:

البرامج الأكاديمية لعلم الاجتماع في جامعاتنا عبارة عن إسقاط لمحتويات غربية

↓

علم الاجتماع محصور في إطار

غير واضح الأهداف، نتائجه غير ملموسة عدم التمكن

من إنتاج سوسيولوجي يعبر عن المجتمع

(92)- *Safir NADJI. O. P. cit, p p 36-38.*

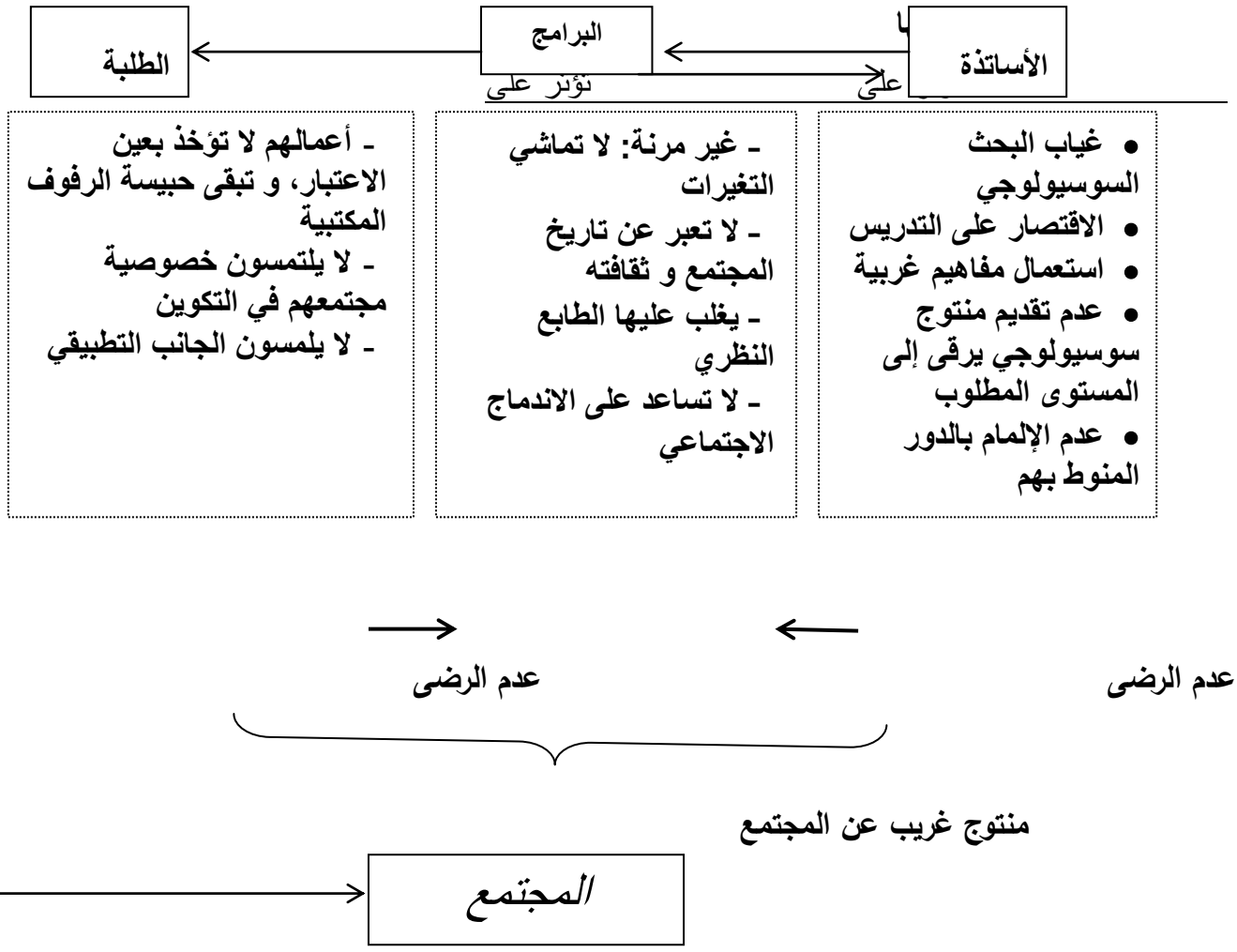

يتبين من خلال المخطط العلاقة النسقية القائمة بين مختلف متغيرات الدراسة في إطار نسقين أساسيين هما: الجامعة و المجتمع، فالعلاقة بينهما غير منسجمة مما يبين أنّ هذه المؤسّسة لا تؤدي جميع الوظائف التي يجب تغطيتها من حيث التكوين الاجتماعي و إنتاج ما يعكس حاجات المجتمع، من خلال البرامج الأكاديمية لعلم الاجتماع، سواء فيما تعلق بالموضوع، المنهج و التقنيات، فلم تُعبّر عن ثقافته ولا تاريخه بل اعتمدت برامج غريبة عنه فكرا و بيئة. ممّا يجعلها بعيدة عنه بكلّ مواردها، حيث أن برامجها تقتبس النتائج النظرية لحقل ابستمولوجي آخر، إضافة إلى أنها لا تُحضّر الطلاب للعالم الخارجي عن أقسامها و الاندماج في الحياة العامة للمجتمع الجزائري، و لا تعطي للأساتذة مكانة داخله أيضا، كما لا تجعل العلاقة البيداغوجية "طالب –أستاذ" واضحة، و بهذا ينحصر علم الاجتماع في الإطار الجامعي، بعيدا عن انشغالات المجتمع و الطلب الاجتماعي، فاقتصر على كونه فرعا من التخصصات الاجتماعية، ذو طابع مؤسساتي مقتصرا على التكوين دون البحث، الكفيل بتشخيص الواقع الاجتماعي.

و أخيرا توصلت الدراسة إلى أن:

- علم الاجتماع في جامعاتنا أكاديمي بحت مهما كان التخصص، نظرا لعدة أسباب، ترجع أساس إلى عدم مرونة برامجه الأكاديمية، و عدم مسايرته لجوانب الواقع المحلي، مع غلبة الطابع النظري.

- يعرف هذا العلم عدّة نقائص، أهمها: انحصاره داخل المؤسسة الجامعية، نقص العناية به من طرف مختلف الهيئات (منها: الجامعة، المجتمع، السلطة)، فصله بين الجانبين النظري و التطبيقي، و عدم توصله إلى نتائج ملموسة. فالطبيعة النظرية للبرامج لا تساعد على فهم الواقع و تشخيصه، بل تضعه في قالب معرفي لا يناسبه، مغتربا عنه تاريخا و ثقافتنا، مستوحى من التفكير الغربي موضوعا و منهجا.

- و رغم وجود محاولات من طرف بعض الأساتذة إلا أن هذه الجهود لا ترقى إلى النوعية الكفيلة بإخراج هذا العلم من الحيز الضيق, و فسح المجال له و لممارسيه المساهمة في عملية التنمية الشاملة في إطار الحياة العامة للمجتمع.

- و ينعكس هذا على الطلبة الذين لم يستطيعوا التماس جوانب واقعهم في التكوين و لم يوفقوا فيه، و أجابوا بالأغلبية على عدم وجود علاقة بين علم الاجتماع المدرّس في جامعاتنا و بين المجتمع الجزائري.

- يجد الأساتذة أنفسهم محاصرين داخل الجامعة أثناء تطبيقهم للبرامج الأكاديمية المعتمدة حاليا، مما يحدث قطيعة بينه و بين المجتمع، باعتباره مثقفا يساهم في تسيير مجتمعه.

- هناك علاقة بين نوعية البرامج الأكاديمية و نوعية التصورات و المفاهيم التي يستعملها الأساتذة، حيث أنه كلما كانت هذه البرامج عبارة عن إسقاط لمحتويات غربية، أثرت على مفاهيم الأساتذة و تصوراتهم التي تتصف ببعدها التام عن ميدان واقعنا، و يحدث العكس في حالة نبوع هذه البرامج عن دراسة ميدانية مشخصة للواقع، حيث تؤدي إلى تضمن الدروس لخصوصية مجتمعنا. لكن الواقع عندنا أن الأساتذة نظرا لنوعية البرامج الأكاديمية المعتمدة، يقدمون للطلبة قيمة علمية غير متصلة بالواقع، مغتربة عنه، فرغم اكتسابهم كما معرفيا إلا أنه لا يشخص ما يجري في الحياة العامة للمجتمع إلا من خلال الشرح أحيانا مما يمنعهم من عكس اهتمامات مجتمعهم.

- و بهذا ينادي أغلب الأساتذة بضرورة تقويم هذه البرامج التي لم يشاركوا في تخطيطها بأكبر النسب، فهم غير راضين عنها لأنها تحدث القطيعة بينهم و بين المجتمع و تحصرهم في الإطار الضيق للجامعة.

وهكذا فإنه إذا لم تفكر الجامعة في الحد الأدنى من استقرار الأساتذة و بدء حياتهم الأكاديمية على أرضية تسمح لهم بمتابعة بحوثهم العلمية و التحضير لمحاضراتهم و الإشراف على الطلبة بفعالية، يخلق ذلك شتاتا في هذه الفئة التي تجد نفسها أمام مقررات إجبارية، و مهام بحثية ضعيفة ممّا لا يساعدهم على إنتاج علمي لرفع المستوى الأكاديمي، أما في حالة وجود علاقة بين المجتمع و الجامعة يشعر الطلبة و الأساتذة بفضل الأفراد المثقفين فبإعلاء مقام الجامعة، و تطوير الحرية السياسية و المدنية داخل المجتمع، و من جهة هذا الأخير، و مؤسساته السياسية، يسود إدراك دور الحرية الأكاديمية في إرشاد و توجيه مسيرة المجتمع سياسيا و تنمويا.

- لكن سبب هذا النقص لا يرجع لطبيعة البرامج الدراسية فحسب، بل يتحمل هؤلاء الأساتذة قسطا معتبرا من المسؤولية، من حيث عدم قيامهم بجهد يمكنهم من تحسين وضعيتهم في إطار المحيط العام، فهم لم يستطيعوا تجاوز إشكالياتهم الخاصة و إنجاز دراسات متجددة تساعد في فهم و تشخيص مختلف الظواهر الاجتماعية، فاقتصروا على التدريس دون البحث الذي يعتبر روح العمل الجامعي، و لم يساهموا في

إصدار مؤلفات في إطار تخصصهم و لا مقالات، مما يضعف دورهم في هذا المجال. و يجعلهم رغما عنهم منحصرين في الجامعة التي تصبح ملجأهم الوحيد و يزداد بعدهم عن المجتمع فكريا، فيصبحوا مغتربين عنه، مجسدين لثقافات بعيدة عنه كل البعد، و لن يستطيع هذا العلم بذلك المساهمة في رفع مستواه لا داخل الجامعة كتخصص و لا خارجها.

بعد الإطلاع على مختلف ما كتب حول الأسباب المؤثرة في علم الاجتماع في مجتمعنا و التي تحول دون تأديته للوظائف التي عليه القيام بها في إطار المجتمع الكلي، و التي يرجعها البعض إلى:

-البنية السلطوية: التي تمنح للأنظمة السياسية حق التشريع في كافة المجالات بما فيها العلم عموما، و مجال التعبير الاجتماعي و المعرفة الاجتماعية على وجه الخصوص.

-الجو السائد داخل المجتمع الجزائري في كافة المجالات و التي من بينها ذهنية المجتمع و مدى تقبله للعلم، مع طغيان النظرة المادية حتى في مجال العلوم.

-اقتباس النتائج النظرية العائدة إلى حقل ابستمولوجي آخر من خلال المسار النظري للمشتغلين في علم الاجتماع الذين تجاهلوا المسافة بينهم و بين علماء الاجتماع الغربيين و ما أنتجوه خلال قرنين من الزمن و الذي أدّى بهم إلى إهمال البحث الميداني للظواهر المحلية و الوصول مباشرة إلى الاستنتاجات النظرية الغربية التي لم يكونوا طرفا في استنتاجها و التي لا تستطيع أن تكون بديلا لكشف الحقائق المحلية.

الاقتصار على الماضي دون التحديد مع عدم مجاراة البرامج الدراسية للقضايا الإجتماعية.

-انعدام التخطيط الطويل المدى و الدراسات الإسقاطية، و التنبؤية و التقويمية.

و بصفة عامة الضعف النظري و المنهجي الذي يميز إنتاجها السوسيولوجي حيث أننا ألِفنا التكلم عن الجوانب السلبية بنوع من الاتهام، الكل يتهم الكل و يبرئ نفسه، فالسلطة ترى أنّ المشتغلين بالعلم لم يقدموا الملموس، و المجتمع يرى أنهم يعيشون في معزل عن جوِّهِ العام، كمثقفين سطحيين، متقوقعين في أبراج عاجية، و يتكلمون عن مشاكل مجتمعهم من فوق، دون التعمق فيها، بنظرة مستعارة لا تفهم الواقع و لا تمدّه بالبديل. في حين يرى المشتغلون بعلم الاجتماع أنّ ذهنية المجتمع لا تساهم في التقدم، انطلاقا من إيمان الأفراد العاديين بالجوانب المادية للعلوم و التي لا يستطعون التماسها في علم الاجتماع، و أنّ السلطة تحصر شرعية الخطاب السوسيولوجي و تضغط عليه بما يخدمها ممّا يجعله محصورا في إطار ما تسمح به. و مع كل هذا تستمر جامعتنا في جعل علم الاجتماع في مجال ضيق و غير واضح معرفيا، فعوض أن تُكوّن نخبة مثقفة، فهي محكوم عليها بالاحتقار، و عدم الرضى.

ففي الوقت الذي يتحتّم على الجامعة الاهتمام الفعلي بمشاكل و تطلعات المجتمع بجعل البرامج التكوينية مساعدة على خلق حركة جدلية، و نوعا من التجاوب بين العلوم المدروسة و حقائق الحياة العملية، نجد أن هذه البرامج غير متجذِّرة في الواقع الإجتماعي، حيث يدرس الطالب خلال سنوات تكوينه الجامعي محتويات خاصة لا وجود لها في الواقع و لا تعبر عنه. مما يجعله مستاء لتلك السنوات التي يرى أنّه قد ضيّعها دون

جدوى عند مواجهته للحياة العملية، و يجد نفسه أمام عالم غريب لم يُحضر له من قبل، و قد أصبحت هذه الجوانب السلبية بمثابة مسلمات لا جدال و لا نقاش فيها.

و مهما كانت التعديلات التي مسّت البرامج التكوينية، إلاّ أنّ نتائجها لا زالت غير واضحة، و لا تعبر عن طلب اجتماعي بارز، و إنما تجيب على طلب كمي فوضوي غير مدروس الأهداف و النتائج في غياب الاتصال بين الجامعة عموما –و لا سيما طلبة العلوم الإجتماعية و بالأخص علم الاجتماع– و المؤسسات المندمجة في سيرورة الإنتاج. و يستلزم هذا كلّه تحوّل عميق للمؤسسة الجامعية، فعوض تنظيمها حول فئاتها الخاصة، و تدعيم هياكلها الداخلية فقط، يجب أن تكون مكان التقاء مختلف الأقطاب: العلم، السياسة، الاقتصاد،... أي بصورة أدق بين المعرفة و الطلب الإجتماعي المنظم من خلال إعادة التفكير في وضعية هذا العلم انطلاقا من موضوعه، حتى تصبح الجامعة المكان الإستراتيجي الذي تتكامل فيه علاقات العرض[93] و طلب التكوين و المعارف من طرف الفاعلين الاجتماعيين، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ النسق التعليمي حاليا موجه لا عن طريق الأفكار التربوية، و إنما عن طريق متطلبات الإنتاج و سوق العمل.

إذن حينما نتكلم عن علم الاجتماع في المجتمع الجزائري، نجده محصوراً في إطار ضيق، و لا يستطيع التفاعل مع كافة أفراد المجتمع الذي يُفترض أن يعبّر عن انشغالاتهم في مختلف المجالات، و أن يجيب عن الطلب الإجتماعي، ممّا جعله مقصوراً على الجامعة كفرع من التخصصات الإجتماعية. حيث يبرز التناقض بين التزايد الكمي في الهيآت القاعدية للإطار المؤسساتي، و أعداد الأساتذة و الطلبة في مختلف التخصصات، و بين المردود الكيفي المُقدم من طرف هذه المؤسسات الرسمية سواء في مرحلة التمثلات الإجتماعية التي لم يدخل فيها الطلبة بعد في الحياة العملية الإنتاجية أثناء تكوينهم، أو بعد تخرجهم لعدم امتلاكهم لمتطلبات العمل في مختلف المؤسسات الاقتصادية من كفاءة و دراية في الميدان. و يرجع ذلك لأسباب مختلفة تساهم كل منها في حدّة الوضع، أهمها البرنامج الأكاديمي و ما يحتويه من اتجاهات فكرية، و المشتغلين بعلم الاجتماع بدءا بتكوينهم، ثم ما يقدمونه في مجال عملهم، فيّقدمون بذلك منتوجا بشريا غير مطلوب خارج الجامعة. و بهذا يكثر التذمر من طرف هذا المنتوج، و من طرف أفراد المجتمع، و من طرف هؤلاء المشتغلين به الذين يعترفون بمسؤولياتهم و يتذمرون لما آلت إليه حالة هذا العلم. و ينبع الحل من طرفهم في إطار الجامعة و لا يُعطى من خارجها، إذا وقفوا عند واجباتهم في إطار التوقعات المحتملة، و عرفوا أنهم لا يُقدمون ما هو مطلوب منهم. لكن هذا لا يقصر المسؤولية عندهم، و إنما نضيف إليهم غياب إستراتيجية تتكفل بعلم الاجتماع من طرف السلطات مع غياب دراسات التنبؤ المسطرة انطلاقا من الأهداف المحدّدة مسبّقا، ممّا يجعل المعاهد في علم الاجتماع يكونون عددا كبيرا من حاملي شهادات، غير ضامنين لمناصب عمل.

إضافة إلى هذا نجد أن الإطار المؤسساتي لهذا العلم اقتصر على جانب التكوين دون البحث الذي يكفل فهم التغيرات الحاصلة في المجتمع، و لم يستطع لحد الآن عكس ملامح مجتمعنا بإنتاج نظرية خاصة، لاقتصار أغلبية المشتغلين به على جانب التدريس النظري دون محاولة التطبيق، رغم أن الواقع هو الحَكَم

([93])– نقصد هنا عرض المعارف من طرف الباحثين.

على صلاحية مختلف النظريات أو لا. و رغم اعترافنا أن المشتغل بعلم الاجتماع ما هو إلاّ موظف كباقي الموظفين إلاّ أننا نرى أنّ وعيه كفاعل هو بداية حل الأزمة التي يعرفها هذا العلم، لأن إرادته في التأثير هي المحرّك الأساسي في هذا الإطار، و تحديده لأهداف عمله ضرورة لا بدّ منها، في الوقت الذي نجد فيه أنّ الأهداف المادية طغت على العلمية، لكن لا ضرر في التوفيق بينهما مع ترجيح كفّة الجانب العلمي من أجل الوصول إلى علم يُعبّر على الهوية و يجسد الممارسات الاجتماعية لمجتمعنا الذي لا يتحقق فيه قيام عمل اجتماع إلاّ بتضافر الجهود في مختلف المستويات من سلطات و جامعة (إدارة، أساتذة، طلبة)، و كذلك باقي أفراد المجتمع من خلال تحمّل كل جهة لمسؤولياتها و قيامها بالأدوار المنوط بها. و من أجل كل هذا:

نجد أن علم الاجتماع لم يتواجد إلاّ في الوقت الذي يسير فيه المجتمع انطلاقا من نظامه الداخلي حسب مبادئه التاريخية، و ما تحمله من انعكاسات، و ذلك في إطار قدرته على الإنتاج. ولهذا، فمن الخطأ امتثال المفاهيم البعيدة عن مجتمعنا، لأن كل مجتمع عليه أن ينتج مفاهيمه الخاصة انطلاقا من تاريخه الخاص. و بهذا تُحتم الضرورة إعادة التفكير في وضع برامج دراسية تأخذ بعين الاعتبار متطلبات المجتمع بتكوين إطارات تماشيا مع قدرات استعابه، أي احتياجاته، و كذا في احتكاك مع مشاكله في مختلف المجالات،عن طريق البحث و جعل الجانب الأكاديمي مرنا إزاء عوامل التغير في المجتمع، حتى تتمكن الجامعة عموما من التلاؤم مع هذه العوامل في صيغ للعمل العلمي و تطوير نمطها للقيام بمسؤوليتها كما ينتظر منها المجتمع.

و على عالم الاجتماع ألاّ يعتبر الجامعة مكانا ينعزل فيه، و إنما كمكان لفهم و مواجهة الظواهر الخارجية بأسلوب منظم، لأنه يمثل المجتمع، ويعمل من أجل تطوره و استمراره. وعلى الجامعة أن تنخرط في نشاطات المجتمع، و تنفتح نحو الاعتماد المتبادل بين البحث و التطوير العلمي من جهة، و تطبيق المعرفة الأصلية حول مسائل سير المجتمع و تطوره من جهة أخرى، و الرفع من مستوى هيئة التدريس، و مساعدتهم في البحث، لتفعيل دورهم في هذا المجال، و إيقاظ فيهم الروح العلمية الداخلية المشكلة للحافز الرئيسي لتقدم المعرفة و العلم الذي يرتبط تقدمها باستقرار مناخ التقدير و الثقة بالمجتمع العلمي و تمويله ماديا و معنويا، مع ضرورة إثارة حوار واقعي مع مؤسسات التنمية، و التعرف على تطلعاتها و مشاكلها و المسائل التي يمكن للجامعة حلّها انطلاقا من إمكانياتها.

قائمة البيبليوغرافيا

1. **بوقزاطة جمال ، خصوصية علم الاجتماع في الوطن العربي، "دراسة تحليلية نقدية"، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الاجتماع، 1989.**

2. بن اشنهو مراد ،نحو الجامعة الجزائرية، تأملات حول مخطط جامعي. ترجمة عائدة أديب بامية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية،1981

3. صادقي عبد الرحمان، "التعليم العالي 1992-1994"، مجلة ربع سنوية يُنتجها الديوان الوطني للإحصائيات، رقم 38..

4. الزين نزار ، "الخلفيات و الآفاق التربوية في توجهات العلوم الإنسانية و برامجها". الوحدة.السنة السادسة، العدد 72، سبتمبر 1990.

5. لرجان عمر. "المجتمع الجزائري و الممارسات السوسيولوجية." جامعة الجزائر: الملتقى الوطني الثاني لمعهد علم الإجتماع. 11-12نوفمبر 1997، مداخلة حول الفاعلون السوسيولوجيون.

6. الكنز علي ، حول الأزمة: 5 دراسات حول الجزائر و العالم العربي. الجزائر: دار بوشان للنشر،1990.

7. خالد محمد ، التكوين و البحث السوسيولوجي. عن أعمال الملتقى الوطني الثاني حول علم الإجتماع في الجزائر: المجتمع الجزائري و الممارسات السوسيولوجية، الورشة رقم (1): علم الإجتماع في الجزائر، مؤسسات، فاعلون و ممارسات، مجلة البحوث السوسيولوجية. عدد 1، السنة 2000، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإجتماعية، قسم علم الإجتماع، 11-12 نوفمبر 1997.

8. حمداش عمار، "وضعية البحث السوسيولوجي في الوطن العربي" (الدراسات الإجتماعية في الوطن العربي). المستقبل العربي، العدد 134، أفريل 1990.

9. بشير محمد، مدخل لدراسة علم الاجتماع في الجزائر ما بين 1972-1982. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994.

10. مغربي عبد الغني ، الفكر الإجتماعي عند إبن خلدون، ترجمة: محمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

11. مغربي عبد الغني ، وجود و عدم وجود السوسيولوجيا في البلدان النامية، نموذج العالم العربي. محاضرة في مقياس التحليل النقدي للنظريات السوسيولوجية، ألقيت بتاريخ 1997/02/19

12. الخوري فؤاد إسحاق ، "علم الاجتماع و قضايا الإنسان العربي"(ندوة)، المستقبل العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، السنة السابعة، العدد 72، فيفري 1985.

13. السمالوطي محمد نبيل ، علم إجتماع التنمية: دراسة في إجتماعيات العالم الثالث. الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974.

14. HENRI jeanne. Les principes généraux de la planification universitaire. (Étude des problèmes de l'enseignement supérieur). Belgique : Edition de l'institut de sociologie (université libre de Bruxelles), 1971.

15. Safir Nadji, essai d'analyses sociologiques (culture et développement). Alger: ENAL, tome 1, 1985.

16. Malika Téfiani. Université et nouvelles technologies en Algérie. Geneve-Afrique, vol 28, N°02, 1990.

17. Réné MAUNIER, Mélanges de sociologie nord-africaine, programme d'une sociologie algerienne. Librerie félix alcon, 1930.

18.Bourdieu (p) ; Passerons (cl). La reproduction. Paris : Ed. Minuit, 1970.
19.([1])- Jagloul (A). In Algérie Actualité N°846. Du 7 au 13 janvier 1992.
20.([1])- A. Laraoui, L'idéologie arabe contemporaine. Préface de Maxime Rodinson, (1), Paris : Maspero, 1967.

السيميائية والتأويل
رؤية في النظام الدلالي لرواية نوار اللوز
الفاتحة نموذجا

الدكتور : فتحي بوخالفة
جامعة محمد بوضياف المسيلة

إن الـذي أكدتـه الدراسـات السـيميائية الحديثـة فـي القـرن الماضـي وجـود الأهميـة البالغـة للأنظمة العلامية في تحليل اللغة ومختلف جوانب الحياة الاجتماعية المعاصرة ، وكذا مختلف العلـوم والآداب والفنـون بشـكل يبعـث علـى الاهتمـام المتزايـد الشـيء الـذي جعـل مجـال تطبيـق العلامـات ، يتسـع ليشـمل ميـادين عديـدة ، وهـذا مـا يثبـت أن العلامـة اجتاحـت كافـة الحقـول

المعرفية ، لتتحول مع تطور المراحل العلمية إلى " متعال " جديد ينافس بقية العلوم والفلسفات النظرية لما يمكن أن توفر من آليات إجرائية لتحليل كافة مظاهر الحياة والكون والسلوكات الإنسانية والمعتقدات الاجتماعية

ومن المفيد الاشارة الى أن النموذج اللغوي على وجه التحديد ، جعل يهيمن على مختلف الحقول المعرفية والحياتية باعتباره الأكثر استجابة ، لتفسير الظواهر غير اللغوية ، من باب أن العلامة لا يمكن أن تنحصر في النموذج اللغوي بمفرده ، إنما يمكن أن تتجاوزه لتؤسس أفقا معرفيا يستجيب لرؤية تحليلية وفق آليات إجرائية معينة . ومثل هذه المسائل في أساسياتها لم تكن تخطر ببال " فرديناند دي سوسير" أحد مؤسسي النظرية السيميائية الحديثة . حيث كان يعتقد بشمولية النظام السيميائي الذي يضم أنظمة علامية في فرعية كالعلامات اللغوية. (1) وعلى الرغم من المنطلقات اللسانية التي أسسها وانطلق منها دي سوسير فإن النظرية السيميائية الحديثة من منظوره ، تبنى على النموذج اللغوي ، باعتبار اللغة أكثر نظم التعبير تعقيدا ، وأكثر استجابة لنظام العلامات . مما أكد بأن علم اللغة فرع من فروع السيميائية بحكم أن النظام السيميائي اللغوي جزء منها.

ومن منظور آخر وسع " شارل بيرس" مفهوم العلامة ليشمل كافة نواحي الحياة الإنسانية حيث جعل السيميائية تتوسع إلى حقول معرفية واجتماعية وعلمية مختلفة ؛ إذ جعل منها إطارا مرجعيا يستوعب جميع الدراسات الأخرى ، لم يكن بوسعه دراسة " أي شيء كالرياضيات والأخلاقيات و الميتافيزيقاوالجاذبية...والفلك وعلم النفس والصوتيات اللغوية والاقتصاد والتاريخ ومختلف العلوم ، إلا بوصفها مواضيع للسيميائية " .(2)
وهذا ما يؤكد أن المنطق لديه . إسم آخر للسيميائية التي تعد نظرية شبه ضرورية وشكلية للعلامات .

وتمثل العلامة أو المصورة representamon شيئا ما ينوب من منظور شخص ما عن شيء ما ، من جانب معين وبصفة معينة " فهي توجه شخص ما بمعنى أنها تخلق في عقل ذلك الشخص علامة معادلة أو ربما علامة أكثر تطور ، وهذه العلامة التي تخلقها أسميها مفسرة interpretant للعلامة الأولى . إن العلامة تنوب عن شيء ما وهذا الشيء هو موضوعتها object وهي لا تنوب عن تلك الموضوعة من كل الوجهات ، بل تنوب عنها بالرجوع إلى نوع من الفكرة التي سميتها ركيزة ground المصورة " (3) .

وبحكم أن كل علامة متعلقة بثلاثة أشياء أساسية هي : الركيزة والموضوعة والمفسرة ، فإن السيميائية ثلاثة فروع : النحو النظري أو النحو الخالص والمتخصص في البحث مما يجعل العلامة التي يستخدمها كل فكر علمي ، قادرة على تجسيد معنى ما . ويتمثل الفرع الثاني في المنطق الصرف والفرع الثالث هو البلاغة الخالصة .

ولا يصير الشيء علامة إلا بتصويره لشيء آخر يسمي موضوعته ، وإذا اختلفت العلامة عن موضوعاتها لابد من توضيح ذلك من خلال معطيات الفكر والتعبير ، وبذلك تكون العلامة مع التفسير علامة أخرى . " وكل علامة لها بالفعل أو بالقوة قاعدة تفسيرية على أساسها يتم فهم العلامة باعتبارها نوعا من الفيض الصادر عن موضوعاتها . ونفترض العلامة معرفة مسبقة بالموضوعة لا تقوم بتوصيل معلومات إضافية بصددها " (4) .

ومن منظور" بيرس" يمكن أن تأخذ العلامة ، المصطلحات التالية :

– العلامة النوعية : هي شيء نوعي يشكل العلامة ، وتكتسب صفتها كعلامة عند التجسيد ولا يرتبط التجسيد بطبيعتها من حيث كونها علامة .

– العلامة المنفردة **sinsign** : هي شيء موجود يكتسب صفة الواقعية الفعلية التي تشكل العلامة ، وبتضمنها لعلامات عرفية متعددة لا يمكنها أن تكون علامة إلا عبر نوعيتها .

– العلامة العرفية **legisign** : وهي كل علامة متواضع عليها من جانب عرفي. وليس العلامة العرفية موضوعا واحدا ، بل هي نمط عام تواضع عليه الناس بصفته دالا .

إضافة إلى ذلك هناك تقسيم آخر للعلامات ، يطلق عليه المصطلحات التالية :

الأيقونة **icon** : تمثل الأيقونة علامة تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها الطبيعة الذاتية للعلامة فحسب . ولا يهم وجود الموضوعة لأن العلامة تمتلك هذه الطبيعة .

والمؤشر**index** الذي يمثل علامة تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها عبر تأثرها الحقيقي بطبيعة تلك الموضوعة . ويقوم المؤشر بالدلالة باعتباره تأثرا بالموضوعة .

والرمز **symbol** هو علامة تشير إلى الموضوع من خلال عرف ، غالبا ما يقترن بالأفكار العامة التي تدفع إلى ربط الرمز بموضوع ، فهو يمثل علامة عرفية .

والملاحظ في هذه الحال أن دي سوسير وبيرس ، يعتبران السيميائية علما أصليا ، تتفرع عنه أنظمة علامية متعددة كالنظام السيميائي اللغوي ، إذ يعترف دي سوسير أن هذا العلم الذي لم يظهر إلى الوجود إلى حد الآن ، لم يكن من الممكن التكهن بطبيعته أو معرفة حتى

خصوصيته التي يتميز بها ، ويعتقد أن علم اللغة جزء من السيميائية العامة . وفي تقسيم بيرس الثلاثي للعلامات (الأيقونة ، المؤشر ، الرمز) ، حصر العلامة في الرمز الذي يمثل النموذج الثالث للتقسيم ، بينما النوعين المتبقيين خصصا لفحص مستويات سيميائية غير لغوية أو خارج لغوية .

1 – التصورات النظرية للسيميائية والتأويل :

يعتقد " رولان بارط " أن اللسانيات في طريقها إلى الانفجار نتيجة التمزق الذي ينخرها، و نتيجة المنحى الصوري الذي صارت تنحوه.وعليه فمن الممكن أن تتعرض إلى تفكك فعلي ، هذا التفكك من شأنه إنتاج علم جديد هو السيميولوجيا (5). هذا العلم الذي سيتحدد موضوعه في اللسان ، وتتمثل ملامحه الجديدة في العودة إلى النص " لأن النص قد بدا لها ، خلال مجموعة أشكال الهيمنة هو العلامة على انعدام السلطة ، فالنص يحمل في طياته قوة الانفلات اللانهائي من الكلام الاتباعي . وتتظافر جهود الأدب والسيميولوجيا ليكمل أحدهما نقص الآخر ، فالعودة إلى النص دائما ترغم " السيميولوجيا على الاشتعال بالاختلافات فتحول بينهما وبين السقوط في الوثوقية والتحجر " (6) .

والحقيقة وجدت دعوات قبل رولان بارط تدعو إلى التزام النظام السيميائي اللغوي ، وتؤكد على أهميته باعتباره نظاما سيميائيا يمتلك خاصية التكامل . وهذا ما يؤكده "كاسيرر" من خلال اعتبار اللغة النظام السيميائي الوحيد الذي باستطاعته التحدث عن بقية الأنظمة وعن اللغة ذاتها.

و يوافق هذا الطرح "بنفنست" الذي يذهب إلى القول " شيء واحد يمكن تأكيده هو أنه لا توجد سيميائية الصوت أو اللون أو الصور المشكلة في إطار حقول الصوت واللون والصورة ، وأن سيميائية أي نظام لغوي لا بد له من استعارة الأذاة اللغوية " (7) . ومثل هذه الرؤية تتفق مع

ما يذهب إليه رولان بارط بأنه لم توجد في الحياة البشرية أنظمة سيميائية غير اللغةالبشرية ذات سعة وأهمية . حيث أن كل نظام سيميائي يمتزج باللغة، فالبصر مثلا يكتسب دلالة من خلال اقترانه برسالة لسانية كالسينما والصور الصحفية ، حيث يرتبط جزء من الرسالة بعلاقة مباشرة مع نظام اللسان ." إلا أن رولان بارط لم يكتف بذلك بل دعا ،كماأشرنا إلى قلب الاقتراح السوسيوري ، واعتبار النظام السيميائي اللغوي هو الأصل ، أما بقية الأنظمة السيميائية فهي مجرد فروع ليس إلا . لقد أدت هذه الدعوة إلى هيمنة العلامة اللغوية والأنموذج العلامي اللغوي

على مختلف حقول العلم والمعرفة . فالعلامة اللغوية أصبحت بمثابة الوحدة الصغرى المكونة للوجود ذاته . إنها البديل للفلسفة والمنطق .وهي أيضا البديل الجديد للمتعالي المطلق . وللعوامل البيولوجية والعضوية في النظرية الداروينية ، وللعوامل الاقتصادية في النظرية المادية الجدلية،وللاوعي في نظرية فرويد في التحليل النفسي " (8) . لذلك لم يكن من الغرابة أن تعالج العلامة اللغوية بطريقة أشبه ماتكون بالميتافيزيقا من لدن بعض علماء اللغة والسيميائيين الحداثيين ؛ إذ يعتقد "تشومسكي" بوجود قدرة كامنة للغة في العقل البشري تنبني ضمنها الأنماط اللغوية .

وحيث أن اللغة ذات نظام نسقي ، يرى "إيقانوف "" أن الإنسان والحيوان وحتى الآلات تلجأ إلى العلامات . لكن المثير في الموضوع أن العلامات التي يستخدمها الإنسان تتميز بالغنى والتعقيد.وهي الخاصية التي تفتقر إليها العلامات الأخرى . ومن باب ميزة التفكير التي يشتمل عليها البشر فإنهم يودعون اللغة الطبيعية نسقاللعالم ، هذا الذي يحمل نظرتهم " (9) .

من خلال هذه المنطلقات راحت العلامة اللغوية ، تتأسس على منوال الفلسفة ، وأنساق المعرفة والنظم الفكرية والشمولية ، لما توفرت عليه من تعميم وشمول وتجريد ، وهو منحى تتجه إليه السيميائية والسيميائية اللغوية بشكل خاص في الآونة الأخيرة .

لذلك يذهب العديد من الباحثين إلى الفهم ، بأن السيميائية تحاول أن تحل محل الفلسفة ، التي سعت منذ تأسيسها إلى توحيد المعارف العلمية ، وجعل الواقع إنسانيا بكافة مظاهره الطبيعية والاجتماعية ، وهذا منطلق يناظر منطلق الفلسفة ، التي تبحث في جواهر الأشياء وتجلياتها ، إلا أن الفارق بين السيميائية والفلسفة ، هو أن الفلسفة تبدأ بالتساؤل عن مفاهيم معينة تخص

الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وتسعى إلى تحقيق فهم الإنسان لذاته فهما عميقا يسمح له بتجاوز المظاهر إلى الجوهر ، فهي تصور للأصل الواحد ، وسعي إلى فهم اللغز الإنساني .

تبدأ السيميائية بالعلامة ، وتقوم بالربط بين مختلف العلامات كما تقوم الفلسفة بالربط بين المفاهيم ، حيث أنها تنطلق من المضمون بينما تنطلق السيميائية من الشكل ، وفي الوقت الذي تطمح فيه الفلسفة إلى معرفة الحقيقة الجوهرية للوجود ، تكتفي السيميائية بوصف شكلياته وتحديد مناحيه .

والملاحظ أن العلاقة القائمة بين اللغة والسيميائية أنها تتميز بنوع من القهر والاستلاب معا ، حيث تتبوأ سلطة استعلالية متحكمة ، فالخطاب ليس تبليغا فحسب بل هو إخضاع وتعميم أيضا ، فاللسان " من حيث هو إنجاز لغة ليس بالرجعي ولابالتقدمي. إنه بكل بساطة فاشي : ذلك لأن الفا شيةليست هي الحيلولة دون الكلام ، وإنما هي الارغام عليه " (10) .

وفق هذه الرؤية تنحو بعض الحقول المعرفية ، التي تتخذ من اللغة نموذجا للتحليل السيميائي " فكلود ليفي ستراوس" يحلل الكثير من المظاهر الأنثروبولوجية كعلاقات القرابة والأساطير تحليلا لغويا يتخذ من العلامة اللغوية نموذجا ، حيث يطرح قضايا متعلقة بإمكانية دراسة الجوانب المختلفة للحياة الاجتماعية كالدين والفن . ويعتقد بأن دراسة اللغة نموذج ملائم لتحليل الحضارة بشكل عام " ويحاول ستراوس أن يعتمد بشكل خاص على المظهر الصوتي الفونولوجي للغة. فعند دراسته لأنظمة القرابة ، يؤكد أن ألفاظ القرابة ، شأنها شأن الوحدة الصوتية ، الصغرى والفونيم تكتسب عناصر للمعنى ، وهي مثل الفونيم تكتسب معانيها فقط عندما تتلاحم في أنظمة معينة " (11) ويؤكد ستراوس على ميزة المشابهة بين أنظمة القرابة وأنظمة اللغة ، التي قد تكون نتاج بنى لا شعورية متماثلة ، الشيء الذي يمنح اللغة قوة مهيمنة متحكمة . لذلك فدراساته للأساطير ليس في كيفية تفكير الناس بها ، إنما في كيفية تفكير الأساطير في الناس وهم غرباء عنها . وهذا ما اعتمده ستراوس على وجه التحديد في تحليله لأسطورة أوديب منطلقا من فكرة مفادها أن الأسطورة مثل اللغة تتألف من وحدات ، هذه الوحدات تناظرالوحدات التكوينية التي يمكن أن توجد في اللغة الاعتيادية في شكل مورفامات (وحدات صرفية) وفونيمات (وحدات صوتية) ... ثم يوضح بعد ذلك ماهية الوحدات التكوينية والوحدات الأسطورية . والواجب فهمه من خلال ما سبق هو أن الكثير من العلوم الطبيعية والاجتماعية تنحو إلى اتخاذ العلامة اللغوية نموذجا لدراسة الإنسان والبنى الاجتماعية والعلمية والمعرفية .

وفي مجال الأدب تأخذ العلامة اللغوية خصوصيتها بوصفها علامة رمزية، في تشكيل أنظمة الشفرات في الأدب .ويذهب البعض إلى دراسة التشكيلات اللغوية كنظام الجملة والنص لتحليل الخطابات الأدبية ، كما هو شأن "تودوروف" في دراساته للبنى السردية ومحاولته تأسيس نحو سردي grammaire narrative .

نتيجة التحولات المعرفية الجديدة وظهور ما يسمى بجدل المناهج والنظريات النقدية الحديثة أثيرت مسألة التأويلية herméneutique والشكلانية والبنيوية عند الكثير من النقاد

المحدثين، ضمن الأبحاث المتعلقة بالأنظمة الدالة . " لذلك فلمعرفة ما تدل عليه الكلمات الثلاث ، لابد من مراعاة الفروق السيميولوجية التي اقترحها غرانجي مميزابها اللغات الشكلية عن اللغات الطبيعية " (12). ذلك أنه يحدد ميزة أساسية للغات الشكلية تتمثل في كونها تكتسب وجودها الحقيقي بالكتابة والنظم ، في حين اللغات الطبيعية تقدم معلومات عن الحالة النفسية للمتكلم وألفاظها ذات دلالة ، ويمكن أن توصف على ضوء القواعد البنيوية باعتبارها علامات تحمل معاني .

ومن خلال هذا التمييز " يمكن اقتراح تعريف آخر للسيميولوجيا مستوفي من بول ريكور أحد البارزين من دعاة التأويلية . ذلك أن الرجل يعتقد أن جميع ما يهم روابط التبعية الداخلية الجامعة بين العلامات وبين مكوناتها يعتبر من قبيل السيميولوجيا ، وبناءا عليه تصبح هذه علما يحول الجوهري إلى شكلي " (13) . وعليه يصبح لدينا نوعان من السيميولوجيا:

الأولى تتمثل في التأويلية التي تؤول في إطارها كل فلسفة وكل شرح يبتغي البحث عن الدلالة.

والثانيةهي السيميولوجيا الشكلية البنيوية ، مع وجود الاختلافات الجوهرية بين النوعين .

إن المحاولات الجادة، المتعلقة بمعرفة مناهج الدراسة الأدبية، تهدف في مجملها إلى تحديد أنساق قرائية معينة، تتصف إلى حد بعيد بالموضوعية الصرفة. وإن وظيفة المناهج في أسسها العامة، لا تخرج عن دورها التقليدي، سيما ذلك المتعلق بالسعي الجاد إلى إيجاد معرفة علمية بالنص الأدبي، حيث أن المناهج بقدر ما توفره للباحث من جهد ووقت وترتيب للمعلومات، فإن غايتها التقليدية تبقى باستمرار منوطة بالبحث عن المعرفة العلمية النوعية.

إن طرح إشكالية النوعية في هذا الصدد، يرتبط بمقدرة البحث المقدم على إدراكها؛ من حيث كون هذا الأخير يسعى إلى إحداث مصداقية فعلية لدى القارئ الذي يسعى وراء الاستزادة العلمية، مع أن هذه المصداقية لن تجد لها طريقا للتحقق، إلا بوجود إضافات علمية تجيب عن الأسئلة المطروحة.

إن جدل المناهج الذي تعرفه الساحة النقدية في العالم المتقدم اليوم، هو نتاج لعلاقات الاستمرارية القائمة بين البنى المعرفية القديمة، والبنى المعرفية الجديدة وكأن المسألة تتعلق بطرح ظاهرة تفتقد لمقومات العمل الجاد المحقق لنتائج نوعية .وعلى الرغم من التعددية الموجودة فإن هذه التعددية لا تلبث أن تجد لنفسها مبررات فكرية قائمة تؤسس مصداقية وجودها بقوة وهذا ما يبرر ظاهرة وجود جدل المناهج النقدية لدى العالم الغربي.

إن التطورات الفعلية التي تعيشها الساحة الأدبية في الغرب اليوم، هي ليست من قبيل "طفرة القدر" ، كما يحلو للبعض أن يفسر ذلك ، مع أن الساحة الأدبية ليست مستثناتا من ساحات علمية وثقافية وفنية أخرى بحكم أن الكل يرتبط ببعضه البعض : وإنما التخلف ليس قدرا محتوما على العرب أو العالم الثالث عموما الذين هم جزء منه . إنما ينبغي الأخذ بأسباب التقدم المبذولة في الوجود، والتي هي بحاجة إلى تفعيل مستمر، لأجل الوصول إلى الغايات المنشودة .

إن المبررات الفعلية لوجود ما يسمى بالقراءات الأدبية، تتلخص في وجود النصوص الإبداعية على أصح تقدير .حيت يصير الأدب في جانبه الإبداعي ظاهرة فنية وفكرية تستحق الاهتمام . وفي هذه الحال ينبغي تحديد مناهج الدراسة التي تساعد على مقاربة الظاهرة.

وإشكالية المقاربة في عمومها ، باستطاعتها أن تنبني على تحديدات موضوعية ترتبط بالنسق العام للدراسة في حد ذاته . ومن هذا المنطلق ينبغي تحديد النتائج التي ينبغي التوصل إليها مسبقا ، من حيت كون جدوى الدراسة لا تتحدد إلا بالتوصل إلى تلك النتائج .

إن الظاهرة الأدبية ، صارت تجد مناهج دراسية متنوعة لمقاربتها، بحيث تطبع النتائج المتوصل إليها بطابع منهج الدراسة المستخدم ، وهذا يفسر اشتراك عدد من العلوم في دراسة الأدب رغم اختلاف الأصول والمنطلقات المتعلقة بتلك العلوم ذاتها . مع أنه ينبغي التأكيد على أن علم الجمال ونظرية الفن ونظرية الأدب، هي العلوم المتخصصة بشكل مباشر في دراسة الأدب باعتباره ظاهرة فكرية وفنية ذات أبعاد متميزة . وإن تداخل مناهج علمية وفلسفية متعددة في دراسة الأدب ،تأكيد على أن مثل تلك العلوم السالفة الذكر، لا تستطيع لوحدها كشف خصوصيات الإبداع .وكيفيات تشكل وبناء النصوص الأدبية، وطرائق تلقيها .

« لقد طبع عصر الثورة العلمية تقنية المعرفة الإنسانية بطابعه ، فأصبح اشتراك عدد من العلوم في دراسة ظاهرة ما أساسا من أسس التفكير وسمة من أهم سماته وغدا استخدام طرائق مركبة في دراسة الظواهر المختلفة مبدئا شاملا يفترض الحد الأقصى من الاهتمام بالعوامل والظروف وغير ذلك مما يؤثر في أداء الناس لهذا النشاط أو ذاك في مجالات الاقتصاد والإنتاج والثقافة والبحث العلمي ، وبات شرطا محددا لنجاح دراسة هذه الظواهر جميعا» (14).

إن اتجاهات دراسية من مثل نظريات القراءة والتأويل، من شأنها التشكل كإحدى الطرق الفاعلة في تكوين وعي علمي للمثقف العربي بشكل عام .كما أن الصياغة المركبة لهذه الاتجاهات تعمق الوعي الموضوعي بخصوصية الظاهرة الأدبية ، والتعرض لمختلف قوانينها

وآليات تكوينها. ومع أن المسألة بحاجة إلى جهد معرفي كبير، إلا أن الذي ينبغي فهمه هو أن المجهودات المبذولة باستطاعتها طرح أشكال الجمود الفكري، والتقليدية السلبية جانبا ، وفتح المجال أمام الفعالية والنضج المستمرين، بغرض تطوير التقاليد الموروثة واستثمار كافة جوانبها ، الشيء الذي يثبت النجاحات المحققة للمعرفة الإنسانية المعاصرة في مختلف تنوعاتها.

ومن الإشكاليات التي تطرحها المناهج الحداثية ، لاسيما مناهج ما بعد البينوية ، هي وجود المفارقة ما بين وعي الكاتب ووعي المتلقي ، هذه المفارقة التي تكرس حرية القراءة والتلقي والتأويل .في الآن ذاته هي تحقيق جاد للاملكية الكاتب لعمله الإبداعي . بحكم أن الدراسة – التي تبدو قراءة في أصلها – باستطاعتها اتخاذ مناحي شتى في القراءة والتأويل .

ويمكن التسليم بوجود علاقات متداخلة بين المبدع والمتلقي ، تلك العلاقات التي تعكس الطابع المشترك للوعي بين الإثنين . وتبدو حتمية وجود هذه العلاقات المتداخلة ، في كون استحالة القراءة في حال انعدامها ،مع أن الدراسات الحديثة لم تشتغل بدراسة تلك العلاقات المتداخلة ، لأنها تفترض أن التواصل بين النص والمتلقي يتم بعد عملية إنجاز النص وإخراجه إلى نطاق الكون(الوجود).

إن المفهوم المادي للنص . يرتبط بطابعه الوجودي والعيني ؛ حيث أن القارئ لايستطيع التواصل مع نص تخييلي بعيدا عن مرآه . مع أنه مطالب بتأويل ذلك العالم التخييلي الذي يتوفر عليه النص . وعليه فإن عملية القراءة والتأويل ترتكز وفي بداياتها الأولى على التواصل المرئي بين المتلقي والنص في جانبه اللغوي ؛ حيث أن القارئ لايدرك في البداية سوى تلك الحروف والكلمات والوحدات اللغوية التي تجسدها اللغة«ولقد عرفت العلوم أواخر القرن التاسع عشر ثورة معرفية كبرى، وخاصة العلوم الإنسانية . واستطاعت من خلال تحولها أن تشتغل وتؤسس مجالها المعرفي على مستويين الموضوع والمنهج . مما مكنها من أن تحقق قفزة نوعية .

وإذا كان الحقل اللساني قد شملته هذه التحولات، فإن الحقل الأدبي لم يكن بمعزل عن هذا المناخ العام الذي شمل المعرفة الإنسانية» (15)ووفق هدا النمط وجدت الدراسات الأدبية المتخصصة في جوانب معينة ، من جوانب النص الأدبي . إذ يبدو إنتاج المعرفة الأدبية متعلقا بجانب معين ينبغي التركيز عليه . ومن هنا بدأ تردد عبارة (تفرد المعرفة الأدبية) ، وذلك وفق النتائج المتوصل إليها في الدراسة .

2- النظام الدلالي للفاتحة :

إن البنيوية في كامل تطبيقاتها ، جعلت من وعي القارئ يطرح تساؤلات . جديدة بشأن المعنى المطلوب إيجاده في النص . والمسألة في هذه الحال تقترب نسبيا من الإلحاح على أهمية وجود مناهج علمية فاعلة تفضي بالقارئ إلى أغوار المعنى والدلالة . يحدث هذا بعدما استكملت البنيوية كامل وعيها وتجلياتها على مستوى الدراسات الأدبية الحديثة . والحقيقة إن الإلحاح المتزايد على ضرورة التوصل إلى المعنى يعود إلى كون البنيوية في مقاربتها للنص الأدبي ، كأنها تدور في فراغ مستمر ، تبدأ من النص ثم تتوقف عنده بعد ذلك : إذ لاتتجاوز نتائجها حدود الوصف المتعلق بالمكونات البنيوية للنص . وهذا ما يفسر تحول البنيوية في نهاية المطاف إلى آلية لدراسة النظم الأدبية واللغوية، والتعريف بأنساقها المكونة لها ولا يمكن الحصول على دراسة بينوية أفضل من تلك التي تبدأ من النص ثم تعود إليه بعد ذلك . وعليه كانت إستراتيجيات مناهج ما بعد البينوية تقتضي الوقوف مليا على عتبات المعنى ثم الغوص في أغواره بعد ذلك ، فأمكن للتفكيكية Déconstruction أن تقدم بديلا مرموقا لدراسة إشكالية المعنى.إضافة إلى ذلك فإن إشكالية المعنى،رافقت ما يسمى بجدل المناهج النقدية ، وهو الجدل الذي بذر الشك الكامل في جميع الأشياء القائمة ، بحيث لا يمكن الحديث عن المعرفة اليقينية أو الحقيقة المطلقة . ولعل من بين المعتقدات التي صارت شائعة في مرحلة التأويل (فقدان العالم لمحور ارتكازه)، الشيء الذي يمكن بالتسليم بلانهاية الدلالة ، واستحالة المرجعية المعرفية، والتواصل المطلع مع المجهودات المبذولة التي تأخذ على عاتقها الوصول إلى المعنى والدلالات.

وإشكالية البحث عن المعنى في الرواية الجزائرية، تقتضي الوعي التام بطبيعة النص الروائي بصورة عامة، وتلك حتمية ينبغي الوفاء بها بحكم أن ما يمكن الإقبال عليه، يعد من صميم المغامرة في تأويل الدال.

إن رواية نوار اللوز، لا يمكن التصور بأنها تفتقد للخصوصيات الفنية التي بنيت عليها الرواية العالمية بشكل عام. إنها على الرغم من استيعابها لمقومات الخطاب الروائي، فإن عملية التأويل تقتضي الفهم المطلق لطبيعة النص في حد ذاته أو الاشتمال على رصيد نوعي على الأقل من المعارف.

ومن المسلم به في زمن التفكيك والقراءة والتأويل، استحالة وجود مرجعية السلطة الخارجية، وهي النتيجة المتلازمة حتما مع مسلمة (فقدان العالم لمحور ارتكازه).وظاهرة جدل المناهج النقدية، تكتسب مصداقيتها الصحية في كون ملازمة النقد والبحث عن الثغرات. ينشئ ذلك الجدل المتواصل والمفضي في غالبية الأحيان إلى تحقيق نتائج أكثر إيجابية و موضوعية، إذا كانت الوتيرة تسير بنسق بناء.

إن رواية" نوار اللوز" في بداية تصدر القارئ لها، تعكس مشهد التراجيديا الاجتماعية التي يجسدها صالح بن عامر الزوفري في تغريبته.ففي تقاطعها مع "سيرة بني هلال " يبدأ بناء المشهد التراجيدي الذي يعكس صراع القوى الاجتماعية غير المتكافئة فيما بينها. ومن هذا المنطلق لا تبدو عبثية التقاطع بين النصين – التراثي والروائي– من حيت تداخلها ؛ إذ يمكن في هذه الحال بناء استراتيجية التأويل والبحت عن المعنى تبعا لتلك التداخلات المستمرة بين نصي السيرة والرواية، أو ما يسمى حوار الحاضر مع التاريخ. وإن الإمكانية المثلى التي يوفرها الحوار في هدا صدد هو تكريس بعد تأويلي عام يتعلق بتحديد التناقضات الاجتماعية القائمة على مستوى النص في ظل قراءة نص السيرة التي تعكس بعض سلبيات الماضي.

لا يبدو النص منفتحا بشكل مباشر على القارئ؛ إذ تتصدره فاتحة سميت بفاتحة الرواية وهي في الأصل فاتحتان : فاتحة المؤلف واسيني الأعرج. وفاتحة تراثية للمقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي). وإذ يعد الأمر كذلك فمعنى هذا أن التأويل يرتبط في البداية بدراسة خارجيات النص، والفاتحة جزء من هذه الخارجيات.

يرتبط النسق الدلالي للفاتحة بتحقيق ميزتين دلاليتين : تتعلق الميزة الأولى بطبيعة الارتباط البينوي للفاتحة بالنص، حيث أنها مستقلة عليه، والفاتحة شيء والرواية شيء آخر بدليل وجود فصول مرتبة ومنسجمة تبدأ من الفصل الأول. وتنتهي بالفصل الرابع. والميزة الثانية وجود صفة الإلحاق بين الفاتحة والرواية؛ إذ تبدو الفاتحة ملحقة بالنص زمنيا.حيث لا يمكن تصور كتابة الفاتحة ثم ميلاد النص بعد ذلك، وفي هذه الحال فالفاتحة هي نتاج للنص؛ حيث أن هذا الأخير بعد ما اكتملت أبنيته الجمالية ومضامينه الدلالية ألحقت الفاتحة به زمنيا ربما لوضع القارئ في أجواء النص ساعة تلقيه.

تبدأ الفاتحة بالخطاب التالي:« قبل قراءة هذه الرواية التي قد تكون لغتها متعبة. تنازلوا قليلا واقرأوا تغريبة بني هلال. ستجدون حتما تفسيرا واضحا لجوعكم وبؤسكم».(16)

إن التتابع اللفظي للخطاب يعكس ميزات منفعية ، تتحول إلى مزايا توفرها الفاتحة للقارئ هي تلك المتعلقة بتحقيق التواصل النوعي مع الرواية.

ترتكز الفاتحة في البداية على استثناء يتعلق بتوقيف القارئ عن قراءة الرواية وتوجيهه إلى قراءة نص مواز من التراث السردي العربي، هو ذلك المتمثل في تغريبة بني هلال. وهذا يستدعي تأويل الخصوصية الزمنية لأولى البنى الخطابية للفاتحة من حيت كون الرواية نص وجد وانتهى وصار يشغل الفراغ في الزمان والمكان وشخصياته وأحداثه وجدت فعلا وفق نظام تخييلي استدعته الخصوصيات الجمالية والفنية للرواية. وإن البعد التأويلي لذلك الاستثناء يتمثل في السعي إلى تحقيق قراءة نوعية للنص. فلو لم يوجد النص وفق خصوصيات فنية متميزة, ما وجدت تلك للفاتحة التوجيهية ولما وجد الاستثناء في بدايتها.

إن عملية البحت عن المعنى في النص من خلال التأويل، يمكن أن تظهر بداياتها الأولى في النظام الدلالي للفاتحة. حيث يكون نسقها البنيوي مؤلف من «ملفوظات يوجهها متكلم إلى شخص مقابل ينتمي إلى فئة المتكلمين ذاتها[)» (17)، وهذا النسق قد توفر فعلا في نص فاتحة الرواية، حيت يبدو المؤلف شخصا في ضمير "الأنا" الضمني موجها خطابه إلى الفئة المقابلة مشخصين في ضمير" الأنتم". وبتناسق الضميرين تحقق رسالة الخطاب مدلولها اللساني، في وجود مرسل ومستقبل ومعنى للرسالة المتبادلة بين الطرفين وهو النظام الدلالي للخطاب.

تنبني الفاتحة على أفق تأويلي هام ، يتعلق بتفسير أوضاع اجتماعية معينة، فبعد الاستثناء تأتي أهمية قراءة الفاتحة. وهي تلك المتعلقة بتفسير أسباب البؤس الاجتماعي.ويمكن للقارئ تلقي هذا التفسير بصورة إجمالية في ذهنه متوقفا عند النقطة التي توقفت عندها آخر كلمة في الخطاب، وبوسع الفاتحة إثر ذلك أن تتوقف وتكتفي بدورها التوجيهي؛ حيث أن قراءة تغريبة بني هلال تمكن القارئ من فهم أسباب البؤس السائد في المجتمع، وتستقيم المحاورة بين الرواية والتراث.

يمكن للقارئ أن يكون في هذه الحال أمام خيارين: يتعلق الخيار الأول بالتوقف عند حدود نهاية البداية الأولى للخطاب (قبل قراءة هذه الرواية ... لجوعكم وبؤسكم). ثم ينتقل مباشرة إلى قراءة تغريبة بني هلال تلبية لطلب المؤلف بهدف تحقيق بعد معرفي معين.

ويتعلق الخيار الثاني بمواصلة قراءة الفاتحة كما هي. تم الانتقال بعدها إلى قراءة التغريبة والرواية معا. حيت أن الفائدة المعرفية تبقى محققة في كلا الخيارين بشكل واضح. بحكم أن قراءة الرواية تبقى مسألة حتمية في كلا الخيارين.

غير أن الذي يمكن افتراضه: ماذا لو أن القارئ سار مباشرة إلى قراءة الرواية، من غير المرور على قراءة تغريبة بني هلال؟ ! ...يستطيع التأويل في هذه الحال اتخاذ أبعاد مقصورة نوعا ما على مجهودات القارئ العارف بالتطورات الاجتماعية وتحولات الواقع؛ حيت لا تكون أمامه إمكانية أخرى سوى قراءة النص .القراءة التي تحيل عليها بناه الموضوعاتية. إن المقصود بذلك أن منهج الدراسة يتغير ويتخذ مناجي أخرى توصل إلى نتائج، فتأويل النص يكون تأويلا ذاتيا يعتمد على إمكانيات القارئ، وما يوفره النص من حيثيات التأويل الكائنة بين جنباته.

والحقيقة إن فهم التطورات الاجتماعية، وعلاقتها بالوعي، يساعد بشكل هام على تأويل فاتحة الرواية،بشكل يتعلق بتحقيق الفهم الموضوعي لطبيعة العلاقات القائمة بين البنية الاجتماعية والبنية الفكرية على الأقل. وحيت أن الترابط يبدو متلازما بين البنيتين، فإنه ينبغي التأكيد على خصوصية الوعي الذي من شأنه استيعاب مختلف التحولات الموجودة.

تسترسل الفاتحة في تبيان العلاقات المباشرة بين الوعي والتحولات الاجتماعية.«ما يزال بيننا وحتى وقتنا هذا الأمير حسن بن سرحان وذياب الزغبي وأبو زيد الهلالي والجازية(...)فمنذ أن وجدنا على هذه الأرض وإلى يومنا هذا والسيف لغتنا الوحيدة لحل مشاكلنا المعقدة» (18).إن هذا السياق هو خطوة لتبيان التفاصيل الخاصة بالمأساة الاجتماعية القائمة؛ فوجود الحسن بن سرحان وذياب الزغبي وأبو زيد الهلالي والجازية...في المجتمع الحالي، هو دليل واضح على استمرارية الصراع في المجتمعات العربية منذ القدم. والمسألة لا تبدو على درجة من الغرابة، فالصراع بقدر ما هو مؤشر سلبي كما رسمته الفاتحة؛ فهو كذلك تعبير على وجود الحياة والحركية.

إن تبرير منطق الصراع يعود إلى وجود التناقض بين البنى الجزئية للمجتمع وهذا التناقض بقدر ما هو قادر على تبرير الحركية المستمرة، فإنه يبرر التحولات المستمرة للشيء وانتقاله من حال إلى حال آخر. إن الفاتحة في استدعائها لأمراء تغريبة ، تسعى إلى الوصول إلى تفسير اجتماعي لما هو قائم، وتحقيق جانب جمالي هام.

يتعلق التفسير الاجتماعي بمطابقة أحداث تاريخية معينة هي تلك المرتبطة بتغريبة بني هلال. من حيت كون هذه المطابقة هي تفسير الحاضر بالماضي بمعنى أن المتلقي بحاجة إلى

خلفية تراثية لفهم ما يعتمل في حاضره. والتناقصات الاجتماعية التي تعالجها الرواية، هي بحاجة إلى إثبات فعلي لما يبرر وجودها التاريخي .

ويتمثل الجانب الجمالي في تحقيق التقاطعات المزدوجة بين الرواية وتغريبة بني هلال . والملفت للانتباه أن عنوان رواية نوار اللوز قد ديل بالعبارة التالية: "تغريبة صالح بن عامر الزوفري"، ليفهم القارئ بأن هناك تغريبتين: تغريبة بني هلال المعروفة، وتغريبة الحاضر الراهن وهي رواية نوار اللوز، التي وجدت التناغم المطلق مع تغريبة بني هلال التاريخية.

يرتبط التأويل من الناحية الجمالية بفاعلية القراءة، والقدرة على استكناه المعنى . وإن محاولة التقارب بين التغريبة والرواية، تمكن من الفهم بأن المضمون الاجتماعي واحد.

حيت أن التغريبة، هذا المصدر الذي يحمل في ثناياه معنى القيام بفعل ما، هو معنى يتعلق بتحقيق منفعة معينة، هذه المنفعة هي طلب العيش.فانتقال بنو هلال من بوادي نجد إلى أراضي المغرب ، كان بفعل الجفاف والقحط اللذان أصابا موطنهم الأصلي (المشرق العربي) فهذه تغريبة. وتتمثل تغريبة صالح بن عامر الزوفري (الشخصية الرئيسة في الرواية) في الانتقال من مكان إلى مكان آخر بغرض تهريب السلع، هذا العمل يقوم به مكرها بغرض الحصول على لقمة العيش .

إن التموقع داخل الرواية من شأنه أن يؤسس لعلاقة شد وجدب بين النصين والقارئ . حيت يكون القارئ إزاء عالم تخييلي يسعى لاستيعاب مقتضياته وأبعاده الجمالية. وإن تبني أبعادا ثلاثية في عمليات المقاربة الأدبية وهي : التلقي والقراءة والتأويل ، هو من صميم تحديد فاعليات قرائية جديدة متعلقة بتجاوز المناهج الدراسية الجاهزة والانتقال إلى ما هو منتج. وقد سعى الباحث الآلماني"هانس روبرت جوس" في نهاية الستينات من القرن الماضي إلى تحديد التغيرات النموذجية في الثقافة الأدبية . من خلال الإلمام بتاريخ المناهج الأدبية والنقدية، وانتهاءا إلى البدايات الأولى للثورة العلمية في الدراسات الأدبية. «فهو يؤكد على أن دراسة الأدب ليست عملية تنطوي على تراكم تدريجي للحقائق والشواهد التي يقررها كل جيل من الأجيال المتعاقبة للمعرفة وحقيقة الأدب. إن التطور تشخصه قفزات نوعية ومراحل من القطيعة ومنطلقات جديدة، إن النموذج الذي وجهه البحت الأدبي ذات يوم ما يلبث أن ينبذ عندما يصبح غير قادر على الوفاء بالمطالب التي توسمتها فيه الدراسات الأدبية ويحل نموذج جديد أكثر ملائمة لهذه المهمة مع استقلاله عن النموذج الأقدم».(19)

إن الملفت للنظر هنا هو الفهم الجدلي القائم في تحديد طبيعة المعارف العلمية. ومع أن المسألة تقتصر على الجانب الأدبي ، فإن الجدلية تستطيع أن تجد ملاذها الآمن في تحديد التعاقب التاريخي للمناهج النقدية.

إن فهم طبيعة النص الروائي بشكل عام ، تنطلق من محاولات فهم عملية تأويل العالم والمحيط المادي القائم. ورواية" نوار اللوز" لا تشذ عن هذه القاعدة العامة، فهي تؤول عالما اجتماعيا بطريقتها الخاصة وفق نموذج فني متميز. وإن مسألة البحث عن المعنى يعني ذلك المغامرة في تأويل الدال.لذلك لابد من قبول الفهم النسبي لما يمكن أن تسفر عنه عملية التأويل.

تنفتح الرواية على وصف عالم اجتماعي أقرب ما يكون إلى التصوير الواقعي، وانعكاساته المباشرة على الحياة النفسية لشخصية" صالح بن عامر الزوفري". «مسكون بالدهشة كان وبراءة الحناء البدوية والاحتراق. حاول فتح عينيه المتعبتين بتكاسل برد الشتاء ينفذ إلى العظم كالإبر ويقوي شهوة النوم. بداله رأسه ثقيلا وأعضاؤه مرهقة. تسرب في دمه مذاق (السواك) الهندي والعطور الصحراوي الذي ينبعث من الجازية كلما تشقق حائط بيته الهرم، قبل أن تعود على أعقابها، تجر أتعاب بلاد المغرب، وبؤس نجد في كفها لجام عودها الذي لا يتعب».(20)

يجسد النموذج وضعا عاما لمجتمع معين تعيش في إطاره الشخصية الروائية. ولا يعيش القارئ هذا الوضع إلا من خلال وجهة نظر الشخصية. التي جعلت تنقل تفاصيل ذلك الوضع من خلال علاقاتها الشعورية به. وكأن القارئ هنا لا يتلقى وضعا اجتماعيا معينا جسدته الرواية، إلا وفق ما تمليه تلك الأحاسيس الشعورية.

لا يبدو العالم مجردا في النموذج كعالم واقعي يتعايش في ماديته المعهودة، إذ لا تبدو تلك المعايشة إلا بالقدر الذي توفره السطور الكتابية للمتلقي. وهذا يقود إلى الفهم المباشر هو ذلك المتعلق بتلقى عالم تخييلي بدل عالم واقعي.

ويمكن الإقرار بأن النموذج في تجسيده لوضع اجتماعي بائس، يرتبط ارتباطا مباشرا بنص اجتماعي هو سابق عليه في الزمان. لذلك فلا مناص من الولوج إلى كلمات المقريزي في مقدمة الرواية. « من تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد(...)».(21)

يتشكل البؤس الاجتماعي وفق هذا المنطق من بعدين أساسيين: يتمثل البعد الأول في طبيعة البنية الفوقية للمجتمع، وهي تلك المتعلقة بالزعماء والحكام ونمط تفكيرهم في سياسة حال الأمة التي يحكمونها. ويتمثل البعد الثاني في انعكاس البنية الفوقية على البنية التحتية، بحيث أبرزت هذه الأخيرة أعراض عجز الحكام، وهي تلك الموسومة بـ : سوء التدبير.

والذي يمكن استنتاجه هو أن المجتمع نتاج سياسة الحكام والزعماء. وإذ يختص الخطاب وضعا بائسا، فإن الذي يمكن تأكيده، أن طبيعة الحكم هو نتاج لنسق عمل البنى الاجتماعية فيما بينها، فالنتيجة هنا تكاد أن تكون تحصيل حاصل لما يجري، مع التحفظ على الهوة التي قد تنشأ بين أجهزة الحكم والأمة.

تتحدد آليات التأويل في المحاولات المتجددة لإثبات معنى الدال (الخطاب)؛ حيث لا يمكن أن تفهم العملية على أساس أنها مجرد محاولات متكررة للتفسير أو إعادة القراءة، إنما هي إعادة إنتاج للنص وإحداث معرفة به، إذ يمكن الاقتراب هنا من علم النص الذي يعني الدراسة الموضوعية للنصوص الأدبية.

تبدأ الرواية –حسب النموذج المقدم– باستفاقة على واقع اجتماعي معين، يتحدد بنقطة زمنية مطلقة في فضاء الزمن (حاول فتح عينيه المتعبتين بتكاسل). هذه النقطة التي يمكن تأويلها بفترة الصباح التي تمثل بداية اليوم، مع أن الشخصية يحتمل أن تكون قد نامت خلال النهار، ثم أستيقظت في ساعة من ساعاته، وقد تكون فعلت ذلك أثناء الليل أيضا بحكم أن البرد يمكن أن يحل في أي وقت من الأوقات.

إن الانطلاق في الزمن بهده الصورة، يعني الانطلاق في الحديث، وهذا ما تثبته متابعة الرواية؛ حيث أن القفزات الزمنية والانتقال من حدث إلى حدث آخر يعكس أوجه الصراع القائمة بين الشخصية وواقعها. والمتلقي يعيش أوجه هذا الصراع تبعا لذاكرة البطل وتصوراته، حيت لا يبدو العالم التخييلي إلا من خلال عنصري الذاكرة والتصورات الذهنية.

إن الوعي بطبيعة الموقف التفسيري، يمثل أبرز نقطة من نقاط استراتيجية التأويل وهو الموقف المرتبط باستمرارٍ، بخصوصيات الوعي التاريخي والعلمي للأفق. « فالأفق يصف تمركزنا في العالم ولا ينبغي أن نتصوره على مرتكز ثابت أو مغلق بل الأصح شيء ندخل فيه وهو يتحرك معنا. ويمكن كذلك تعريفه بالإشارة إلى التحيزات التي نحملها في أي وقت بعينه، مادامت هذه التحيزات تمثل أفقا لا نستطيع أن نرى أبعد منه، ومن ثمة يوصف حدث الفهم في واحدة من أشهر استعارات "جادامر" بأنه امتزاج الأفق الخاص بالفرد المتلقي بالأفق التاريخي» .(22) وإن

تجسيدات رؤية "جادامر" عن الأفق التاريخي في الرواية، ترتبط برؤيته للنص الأدبي بشكل عام؛ حيث أن فكرة الأفق في رواية "توار اللوز" هي فكرة خيالية تقترب نوعا ما من السراب. فقد يبدو لوعي المتلقي أنه يرى أفقا ما في الرواية، إلا أن تلك الرؤية ليست صحيحة، من منطلق أن مركزية العالم في الرواية لا توجد، وباستطاعة القارئ أن يفهم جيدا، بأن الرواية، وهي تبدأ بتقنية الزمن المطلق في الوجود، فإنها لا تصف تمركز البطل عند حدود نقطة معينة في التاريخ. فالشخصية تبدأ حياتها في المتخيل السردي، من جزء من الزمن المطلق، فهي بذلك تقتطف لحظة تاريخية معينة، لتعمد بعدها إلى تفسير حقب تاريخية إما سالفة، أو تحديد تصورات لحقب تاريخية قد نتصور بأنها مقبلة.

إن مايعرف في نظرية التأويل عند "جادامر" أن الأفق باستطاعته أن يصف تمركزنا في العالم، على أننا لاينبغي أن نتصوره في مركز ثابت. والشيء ذاته يمكن أن يكون في الرواية؛ حيت أن المسألة لا تقتضي من متلقي رواية "توار اللوز"، تصور الأفق في مركز معين لأنه مضطر ساعتها إلى التسليم بوجوب فقدان العالم لمركزيته.

إن التموضع داخل نص الرواية، يستدعي بتلقائية تحرك الأفق بصورة آلية، مما يحيل التحيزات الكائنة في النص إلى وجود حقيقي، لتتحول إلى أفق يحدد رؤية القارئ. إن التحولات الحاصلة على مستوى تلك الأحياز تمكن من تشكيل إمكانية الفهم، التي تمثل عند " جادامر " امتزاج الأفق الفردي بالأفق التاريخي. وإنه يمكن قراءة مثل هذه المسائل في الرواية. « ماذا يا صالح، يا آخر سلالة بني هلال، أيها القمح البليوني ؟ بدأت تتفسخ مرغما، وتسقط من عينيك كل الأشياء الجميلة التي أنبتها في قلبك الشهداء ودهر من الحزن، ماذا بقي لك من أبي زيد الهلالي غير إرث السيف الذي لا يعرف الغمد، والتهريب والجوع، والفنطازية الخاوية؟؟؟.

وصدقك الذي لم تعد له أية قيمة، صدقوني فالتربة التي أحرقت أصابعي، وملأت أشواكها أقدامي وعيوني، لم تعلمني الكذب ولا حتى مجرد التفكير فيه، إلا عند الضرورة القصوى،

لكنها علمتني الاحتراق يا صالح (خويا) وكل ما يدفع المرء إلى تنفيذ حكم الإعدام في نفسه، وبأقصى سرعة» (23).

يمكن السؤال من خلال النموذج المقدم عن مركزية العالم في النص ؟ ... إن الشخصية الروائية تتوسط عالما متنازعا بين الماضي والحاضر، فهي في هذه الحال تتوسط محيطا أو عالما بمعالم متحولة. والواقع أن السياق يبدأ بسؤال عن رؤيا العالم: (ماذا يا صالح، يا آخر سلالة بني هلال؟)، هذا السؤال الذي يمثل الانفتاح المطلق على العالم، مع أنه لا يمكن الجزم

بأن الشخصية تتمركزه. ثم يشرع السياق إثر ذلك في تحديد موضع القيم (بدأت تتفسخ مرغما، وتسقط من عينيك كل الأشياء الجميلة التي أنبتها في قلبك الشهداء ودهر من الحزن ...). في الحقيقة إن السياق يحدد موضع القيم من العالم، بحيث تكون القيم هنا في علاقة مضادة مع العالم، ويتبادلا مواضع القوة التي تدفع إلى صراع فعلي بدل مواضع التآلف.

إن مركزية العالم في النص تبدو على درجة هامة من الاهتزاز، نتيجة عدم تصالح البطل مع واقعه. وفي ذلك تحقيق لمقولة "لوسيان جولدمان" Lucien Goldman « من أنه وصف لحالة إنسان يريد تغيير واقعه(24). وإرادة التغيير في حد ذاتها هي ناجمة عن علاقة المفارقة المباشرة مع الواقع المعيش لأسباب وعوامل معينة.

إن شخصية صالح، في بحثها عن مركزية العالم في النص، تسعى إلى تثبيت قيم مهددة بالانقراض في واقعها، أو هي تبحث عن قيم رحلت وخلفتها قيم هجينة لا تستجيب لمقومات الحاضر المنشود. فالإطار الواقعي للنص يستجيب لمركزية مفتوحة للعالم؛ بحيث أن الرواية في تأسيسها لنص مضاد لا تضاد إلا واقعا لا يستجيب لمنظومة تصورية معينة، من خلال أن البطل الروائي يحدد تصورات في البداية لا تبدو هويتها كتصورات مضادة إلا بعد تباينها مع منظومة القيم السائدة في المجتمع.

لذلك كانت علاقة التضاد بين الشخصية ومنظومة القيم السائدة على درجة الخلاف. فعند قراءة هذا السياق (ماذا بقي لك من أبي زيد الهلالي غير إرث السيف الذي لا يعرف الغمد، والتهريب والجوع، والفنطازية الخاوية ؟؟؟ وصدقك الذي لم تعد له أية قيمة).

يتبادر إلى الدهن مباشرة تشكيل جمالي لبنية ، سوسيو نصية ، أخذت في طور التكوين هذه البنية التي جعلت من اللغة قيمة بلاغية تتعلق بتعرية عورات الواقع.

إن الذي يلفت النظر في السياق محاولة إسقاط ما يسمى لدى "جادامر"، بالأفق التاريخي. والحقيقة أن النص يسعى إلى تحقيق هذه الخصوصية التي على القارئ الوعي بها لأنها ضرورية للفهم. تتجلى عملية إسقاط الأفق التاريخي في النص، في محاولة اقتراب التاريخ من الواقع أو العكس، وتلك مسألة تبدو على درجة من النسبية إذا كان بالإمكان مراجعة وعي الشخصية جيدا. لأن عملية إسقاط الأفق التاريخي ينبغي أن يتبعها عامل الوعي بالتاريخ. فشخصية صالح في الرواية لا تبني وعيها بشكل منفرد، إنما باستعانة من الآخر الذي يعي حدود وعيها ، على الأقل على المستوى الجمالي. ومن الممكن ملاحظة ذلك في السياق؛ إذ يبدو الحديث ثنائيا، يرتبط بتحديد موقع الشخصية الروائية من التاريخ ؛ حيث تبدو القيم من

منظور الواقع الجديد فاقدة لمصداقيتها الفعلية. وعليه فإن اقتراب الواقع من التاريخ بصورة تدريجية يعني البحث عن إجابات مقنعة لما تود الشخصية الروائية فهمه.

إن التمظهرات الجدلية للواقع تنعكس في ظل وعي جاد بالأفق التاريخي، من منطلق أن الشخصية الروائية في تأملها للواقع ومعايشتها إياه، لا تعيشه إلا بالقدر الذي يمكنها من الربط بين التاريخ وواقعها. إن هذا الربط الآلي يحدد في ذهنيتها منظومة القيم المتبناة .فهي عندما تقرر هذا الحكم (صدقوني فالتربة التي أحرقت أصابعي، وملأت أشواكها أقدامي وعيوني. لم تعلمني الكذب، ولا حتى مجرد التفكير فيه، إلا عند الضرورة القصوي...) تحكم على مصير منظومة القيم القائمة، فهذه القيم تصطدم باستمرار مع واقع معقد، مع أن المحيط الأصلي يزكي هذه المنظومة وفق ما تقتضيه خصوصيات التقاليد والموروث الحضاري، إلا أن الاستثناء يبقى قائما، وهو أن مخالفة القيم تتبع خصوصيات الواقع المتجددة.

إن الموقف الجدلي يتحدد وفق التغيرات المستمرة للقيم في علاقتها بالواقع، حيث أن هذه القيم الذهنية –حسب منطق الجدلية – لا تثبت على خصوصية معينة، إنما هي معرضة لتغيرات مستمرة تبعا لطبيعة علاقتها بالواقع. وعليه فإن فهم الأفق التاريخي في الرواية وفق المنظور الجدلي، من شأنه وضع الأصابع على إمكانيات جديدة للتأويل، تنتج قابلية الفهم.

يمكن أن يرتبط المعنى باستراتيجية التأويل وفق ما تقتضيه الخطوات الأولية للتأويلية في حد ذاتها، وهذه الخطوات تتحدد بطبيعة القدرة على تصور وجود أبعاد خفية للنص تقتضي فهما عميقا وعملا ذهنيا موسعا. ورواية "نوار اللوز" تستطيع تحقيق قابلية الفهم مع المتلقي، وذلك بتوفر إمكانات إسقاط الأفق التاريخي على النص، تبعا للقدرات المعرفية للقارئ.

د / فتحي بوخالفة

الهوامش :

1 – فرديناند دي سوسير: علم اللغة العام ، ترجمة د / يوئيل يوسف عزيز ، دار آفاق عربية بغداد 1985 ص 87 .

2 – ducrot et. T.todorov : dictionnaire encyclopédie des sciences du langage . press universitie , london et baltimore 1979 page 85.

3 – ميشال آريفيه وآخرون : السيميائية أصولها وقواعدها ، ترجمة د / رشيد بن مالك ومراجعة د / عزالدين المناصرة منشورات الاختلاف الجزائر ، 2002 ص 26 – 27.

4 – المرجع نفسه ص 27 .

5 – أنظر كتاب رولان بارط : درس السيميولوجيا ترجمة عبد السلام بن عبد العالي – دار توبقال للنشر المغرب .1986

6 – ميشال آريفيه وآخرون : السيميائية أصولها وقواعدها (مرجع مذكور) ص 33 .

7 - ducrot et. T.todorov : dictionnaire encyclopédie des sciences du langage . press universitie , london et baltimore 1979 page91

8 – فاضل ثامر : اللغة الثانية المركز الثقافي العربي بيروت/ الدار البيضاء .الطبعة الأولى 1994 ص 8 – 9 .

9 – شارل بيرس : مدخل إلى السيميوطيقا إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ص 39 .

10 – رولان بارط : درس السيميولوجيا ترجمة عبد السلام بن عبد العالي ص 13 .

11 – فاضل ثامر : اللغة الثانية ص 10 .

12 – د / محمد السرغيني : محاضرات في السيميولوجيا دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء المغرب ، الطبعة الأولى 1987 ص 12 .

13– المرجع نفسه : ص 12 .

14 – د / فؤاد المرعي : العلاقة بين المبدع والنص والمتلقي ، مجلة عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، دولة الكويت ، المجلد 23 ، العددان 2/1. يوليو/ سبتمبر/ أكتوبر/ ديسمبر 1994 ص 335 .

15 – د / خالد سليكي : من النقد المعياري إلى التحليل اللساني (الشعرية البنيوية نموذجا) مجلة عالم الفكر مجلد 23 ، عددان 2/1 ، 1994 ص .361

16 – واسيني الأعرج : نوار اللوز رواية دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 1983 ص 05 .

17 – E. benveniste , problemes dulinguistiques générale tome 2 edition gallimard 1974 p 79

18 – الرواية ص 05 .

19 – صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، دار الآفاق العربية القاهرة 1996 د – ط ص 140 .

20 – الرواية ص 08 .

21 – أنظر ذلك في كتاب تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، دار ابن الوليد ودار الجماهير الشعبية دمشق سوريا 1956 .

22 – صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ص 144 .

23 – الرواية ص 09 .

24 – Lucien goldman , pour une sociologie du roman . ed gallimard paris 1964 p 23 .

قاعدة الشورى بين الثابت و المتغير

يخلف مسعود

أستاذ مكلف بالدروس

- جامعة الجزائر -

تمهيد :

إن الدولة الإسلامية التي حكمت البشرية أكثر من ألف سنة ثم غابت!! لعدة أسباب داخلية وخارجية ، فغاب النظام الإسلامي بغيابها و نُقضت أول عروة في الإسلام – الحكم– كما أخبر النبي صلي الله عليه وسلم. فإذا اليوم الدولة التي حكمت فعدلت وأسعدت الإنسانية سنين عددا صارت غريبة مستهجنة و أصبحت البديهيات فيها محل تساؤل من قبل أبنائها قبل أعدائها !! .

1. **هل في الإسلام سياسة ؟**
2. **هل للإسلام دولة؟**
3. **وهل للسياسي المسلم برنامج حقيقي؟**
4. **وهل الشورى قابلة للتطبيق اليوم؟**
5. **و هل النظام الديمقراطي بديل عن الشورى ؟**

وجوابا على هذه التساؤلات جاءت هذه الدراسة معرفة الشورى ونطاقها وأهميتها وأساس مشروعيتها و معرجة على مفهوم أهلها وشروطهم، ومدى الزاميتها للحاكم ، ومبينة الثابت فيها و المتغير.

تعريف الشورى :

قد لا يجد المتأمل في مصادر الشريعة تعريفا جامعا و مانعا للشورى، رغم وجودها كممارسة دائمة ، إذ قد عرفها بعضهم بأنها " مذاكرة أهل الرأي في الأمر ثم إتباعهم ".

و التعريف عام يؤكد حقيقة أن الشورى هي مبدأ من مبادئ الإسلام التي تتجاوز الجانب السياسي إلى جوانب الحياة جميعها ، لما جاء في الأثر: " ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم" [1] .

ويمكن تعريفها بأنها: اتخاذ القرارات في ضوء أراء المختصين في موضوع القرار في كل شأن من الشؤون العامة للأمة.[2]

أو هي: " استطلاع رأي الأمة أو من ينوب منها في الأمور العامة المتعلقة بها.[3]

وعليه فكل أمر يعترض حياة الأمة يجتمع له أهل الحل والعقد ممن و أهل الإختصاص فيه فما حقق المصلحة أمضوه وما لم يكن كذلك منعوه .

أهمية الشورى:

تعتبر الشورى من القواعد الأساسية التي ينبني عليها النظام الإسلامي وهي أصل من أصول الشريعة ومن عزائم الأحكام فيها.[4]

وهي الإطار العام الذي يجب أن تعمل في نطاقه وحدوده جميع السلطات في الدولة الإسلامية، فتحول بذلك دون الاستبداد بالرأي أو الانفراد به، الأمر الذي يؤدي إلى الرأي الصواب، وتحقيق وحدة الأمة، وتأليف القلوب بين أفرادها. [5]

فتكفل بذلك للأمة دورا أساسيا وفعالا في إدارة شؤونها العامة وفق الشريعة الإسلامية ، بعيدا عن كل تسلط من أية جهة كانت، ومن أي نوع كان، ودون تعصب لرأي أو هوى ، وعليه فالشورى تحقق لنا مايلي:

1 **-الانسجام التام بين الحاكم والمحكوم، والتكافل بين الأمة وساستها.**

2 **-تفجير الطاقات والقدرات الكامنة في أفراد الأمة من خلال ممارسة الشورى بينهم.**

3 **-الاهتمام والطاعة و تنفيذ ما تم الاتفاق عليه من قبل الأكثرية.**

4 **-هي وسيلة لمعالجة كل انحراف في نظام الحكم خصوصا ما حصل بعد عهد الخلافة الراشدة من انحرافات خطيرة كانت سببا مهما في تخلف الأمة.**

5 **-إعمال الشورى اليوم من شأنه أن يعالج انحرافا عصريا خصوصا في غياب الشريعة الإسلامية من أنظمة الحكم، وما فرضه الاستعمار علينا من قوانين وضعية جائرة تخالف بقدر أو بآخر مبادئ الإسلام، وهو ما يفتح الباب أمام مجتهدي الأمة عن طريق الشورى لتقويم هذا الاعوجاج والانحراف بوضع قوانين من الشريعة الإسلامية.** (6)

6 **-الشورى سبيل إلى معرفة الرأي الصواب عن طريق مناقشة الآراء وظهور الرأي الأصوب، وبذلك نقلل من نسبة الخطأ.**

7 **-الاستفادة من جهود الآخرين وخبراتهم التي اكتسبوها في سنين طويلة.**

8 **-هي عصمة لولي الأمر من الإقدام على أمور تضر الأمة، ولا سبيل إلى إصلاحها بعد الوقوع ، وعصمته من الاستبداد والطغيان.**

9 **-في إعمال الشورى تذكير للأمة بأنها صاحبة السلطان، وما الرئيس إلا وكيلا عنها في تصريف شؤونها.**

10. **فضيلة إنسانية، طريق صحيح لمعرفة أصوب الآراءالموصلة إلى الحقيقة.**

11. **هي مظهر من مظاهر المساواة، وحرية الرأي والنقد، والاعتراف بشخصية الفرد.** (7)

وأخيرا فإن الاتفاق حاصل على أن من أهم أسباب تخلف الأمة الإسلامية هو ابتعادها عن حكم الشورى من بعد الراشدين رضي الله عنهم . (8)

نطاق الشورى :

المراد بنطاق الشورى هي المسائل التي يمكن أن تكون محلا لها ، فقد ورد الأمر بالشورى في القرآن الكريم بقوله تعالى " وشاورهم في الأمر" . **فجاءت كلمة – الأمر– على عمومها وإطلاقها وشمولها لكل شؤون الجماعة المسلمة في جميع نواحي حياتها. غير أن الإطلاق في النصوص التي تأمر بالشورى مقيد بشرطين أساسين.** أولهما **أنه لا شورى في أي مسألة ورد فيها نص تفصيلي قطعي الدلالة في القران الكريم أو السنة التي تعد تشريعا عاما، إلا أن يكون في النص تفسير موضوع الشورى أو بيان كيفية تنفيذه.**

و ثانيهما **فإنه لا يجوز أن ينتهي رأي المشيرين أو المستشارين، إلى نتيجة تخالف نصا من النصوص التشريعية الواردة في القران الكريم أو السنة النبوية ، إذ مثل هذه المخالفة تمنع الأخذ بالرأي الذي تنتهي إليه الشورى، وتجعلها من ثم لا قيمة لها.** [9]

أساس مشروعية الشورى :

قاعدة الشورى مستمدة من الكتاب والسنة وعمل الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

الشورى في القران الكريم :

من الكتاب: **قوله تعالى** " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين".[10]

نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد التي خرج إليها رسول الله عليه وسلم- نزولا على رأي أصحابه- وكان رأيه أن يبقوا في المدينة ويدفعوا عنها من داخلها- وتبين للمسلمين بعدها أن رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأصوب والأصح، ومع ذلك فقد أمره الله تعالى بعد هذه الأحداث أن يستغفر لأصحابه، و يشاورهم في كل ما يحتاج إلى مشاورة. والنص بهذه الصورة، وفي هذه الظروف، نص قاطع لا يدع مجالا للشك في أن الشورى مبدأ أساس من مبادئ النظام السياسي الإسلامي وقيمة عليا يجب على الأمة المسلمة أن تستمسك بها دائما وفي كل ظروفها. [11]

ومن هنا فالشريعة الإسلامية قررت المبدأ بحسم وبصورة واضحة في قوله تعالى " وشاورهم في الأمر" **كما أنها وضعت القواعد المحكمة التي تؤدي إلى كفالة هذا المبدأ أو الامتثال إليه في قوله تعالى** " ولتكن منكم أمة..... " [12] ، **وقوله تعالى:** " والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون. "[13]

هذه الآية نزلت بمكة وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأن " أمرهم شورى " فدل أن الشورى من خصائص الإسلام التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون سواء أكانو يشكلون جماعة لم تقم لها دولة بعد (وذلك كان هو حال المؤمنين في مكة) ، أم كانوا يشكلون دولة قائمة بالفعل كما كان حال المسلمين في المدينة. [14]

الشورى في السنة النبوية :

حتى يتسنى لنا الوقوف على كيفية تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله تعالى " وشاورهم في الأمر " **ومدى التزامه عليه الصلاة والسلام بهذا الأمر في مشاورته أصحابه فيما يريد أن يقدم عليه من الأمور فوجب علينا أن نقف على بعض السوابق التي تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعمل بالشورى في كل ما لم يرد فيه نص في القران الكريم، كما نجد السنة النبوية زاخرة بالأمثلة العملية لاستشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه " ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول صلى الله عليه وسلم "[15]. ومن ذلك استشارته (صلى الله**

عليه وسلم) لأصحابه عندما بلغه خروج قريش ليمنعوا عيرهم وما كان من خروجه لغزوة بدر، وفي المنزل الذي ينزله عندها، وفي الخروج أو البقاء في المدينة يوم أحد، وقد خرج استجابة لرأي الأغلبية رغم أنه كان يحبذ أن يقاتل من داخل المدينة. [16]

وفي مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق على ثلث ثمار المدينة، وغير ذلك كثير. [17]

ومن هذه الحوادث يتبين لنا أن الحاكم يجب عليه استشارة الأمة – أو أهل الرأي فيها– فيما يحتاج الوصول إلى قرار بشأنه إلى تبادل الآراء، فإذا كان هذا شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففي حق من هو دونه أوكد وأولى في جميع القضايا التي تركت للاجتهاد والنظر.

الشورى وتطبيقاتها في عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم :

- **على نهج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سار الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم مطبقين لمبدأ الشورى في جميع القضايا الهامة والمصيرية كتنصيب الإمام و توليه الأمراء على الأقاليم وشؤون الحرب،وغيرها من المسائل والقضايا الطارئة في حياة الأمة ومشاكلها التي تحتاج إلى حل، و هذه ببعض الأمثلة من حياة الخلفاء الراشدين الأربعة رضي الله عنهم.**

الشورى في خلافة أبي بكر رضي الله عنه :

بدأت الشورى في حياة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم من أول يوم توفى الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم. وذلك في أخطر مسالة في حياتهم إلا وهي اختيار من يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في أمته.وهو ما جرى من اجتماع الصحابة في سقيفة بني ساعدة أنصارا ومهاجرين، حيث حصل بينهم نقاش طويل، دافع الأنصار على وجهة نظرهم ليكون الخليفة منهم ، لأنهم دافعوا عن الإسلام وحموه بأنفسهم وأموالهم وهم أصحاب الدار وهم الأكثرية، ورأى المهاجرون أنهم أحق بالأمر من إخوانهم الأنصار ، لأنهم أول من عبد الله في الأرض وهم أولياء الرسول وعشيرته وهم الذين صبروا معه على شدة أذى قومهم فاختاروا أبا بكر ليكون أول خليفة للمسلمين. [18]

- **وكان أن قال في أول خطبة له :(أما بعد....فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني...) وهي دعوة منه رضي الله عنه لإبداء الرأي وتقديم المشورة في القضايا العامة والهامة.**
- **ومناقشة الصحابة رضي الله عنهم لأبي بكر في مسألة إنفاذ جيش أسامة، قال:" والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة" وفي قتاله لأهل الرد ة قال:" والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة...".**
- **فرغم أنه أعمل النص في كلا الحادثتين فإنه لم يقل لهم لاحق لكم في المشاورة ولكن لا اجتهاد حيث النص.** [19]

الشورى في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

و في عهد عمر رضي الله عنه اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وزادت بذلك مهام الخليفة، فاتسع نطاق الشورى تبعا لذلك. وسأذكر بعض الأمثلة لذلك.

بدأت الشورى باختياره وذلك أن الصديق رضي الله عنه لما أحس بقرب وفاته خشي على الأمة من الفرقة بعده، فعمد إلى ترشيح من يراه أصلح للخلافة بعده ، مستشيرا في ذلك كبار الصحابة رضي الله عنهم فشاور عبد الرحمان بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد و أسيد بن حضير، فأجمعوا على عمر رضي الله عنه، ثم شاور فيه الناس فاجمع الكل على أولوية عمر بن الخطاب بالخلافة، فبايعه الناس في المسجد خليفة لهم. [20]

- **المشهور عن عمر رضي الله عنه– كما تروي كتب السيرة أنه لم يكن يبرم أمرا دون مشورة، رغم ما حباه الله به من سداد الرأي وقوة الفراسة ، مما لم يعط لغيره، بل كان رضي الله عنه أكثر الناس استشارة للمسلمين، خاصتهم وعامتهم.**

فشاور الصحابة رضي الله عنهم في مسألة خروجه على رأس الجيش للقادسية فأجمع أهل الرأي على عدم خروجه خلافا لعلي وطلحة فلم يخرج وسلم القيادة لغيره، وشاورهم في اختيار أحد القواد لجيش العراق فرشحوا النعمان بن مقرن، كما استشارهم في تدوين الدواوين وتنظيم بيت مال المسلمين، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جنودا، فأخذ بقوله، فأنشأ الديوان لأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية. [21]

كما استشارهم في أرض السواد بالعراق ، واستقر الرأي على عدم قسمتها على الفاتحين ، وإلا فماذا يترك السابق للاحق، بل لهم غلتها وتبقى عينها للمسلمين.

وللشورى عنده درجات فهو يستشير العامة أولا ثم يجتمع بالشيوخ من الصحابة من قريش وغيرهم، فإذ استقر رأيهم على رأي من الآراء عمل به .

الشورى في خلافة عثمان رضي الله عنه :

الشورى بدأت مع اختيار عثمان رصي الله عنه للخلافة وذلك حين طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فدعي بقية العشرة المبشرين بالجنة وهم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبي وقاص وطلحة ، فأمرهم أن يتشاوروا ويؤمروا أحدهم ،فتنازل ثلاثة منهم لثلاثة ، ثم تنازل عبد الرحمن بن عوف وأخذ على عاتقه ممارسة الشورى المعمقة والموسعة ، والله ما ترك أحدا من المهاجرين والأنصار، ولا أحدا من ذوي الرأي إلى استشارهم تلك الليلة. [22]

حتى إنه استشار الصغار والكبار ، الرجال والنساء، حتى العروس في خدرها فما أحد منهم يقدم علي على عثمان فرشح عثمان للخلافة ورضيت به الأمة واجتمعت عليه رضي الله عنه.

فسار على منهج من سبقوه فكانت الشورى لها مكانتها خلال ست سنين من خلافته، إلى أن تم لبني أمية الاستيلاء على مقاليد الأمور مما أدى إلى عدم مرعاة مبدأ الشورى وظل الأمر كذلك حتى قتل عثمان رضي الله عنه.

الشورى في خلافة علي رضي الله عنه :

لما قتل عثمان رضي الله عنه، جاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي وطلبو منه أن يتولى الخلافة فرفض ولما ألحوا عليه قال إن يبعتي يجب أن تتم بالمسجد وألا تكون خفية، ولا تكون إلا عن رضا واختيار فتم ذلك وبايعه أهل المدينة ولم يتخلف إلا أهل الشام مع معاوية الذين كانوا يرون بضرورة الثأر من قتلة عثمان أولا. [23]

وبهذا كانت بيعة علي من قبل الأكثرية من أفراد الأمة، فعمل رضي الله عنه بهذا المبدأ على النحو الذي ينشده الإسلام وقدر عليه، وبانتهاء عهده تحول الأمر إلى تسلط واستبداد، وذهبت الشورى وأحل بنو أمية السيف والدماء مكانها. [24]

أهل الشورى :

أهل الشورى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين هم كبار الصحابة الذين كانوا يمثلون أقوامهم ويحظون بثقتهم ، فهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كبار السابقين الأولين من الذين امتحنوا وجربوا فحازوا الثقة العامة ، ثم بعد الهجرة أضيف إليهم زعماء الأنصار، ثم أضيف إليهم أهل القرآن والفقه.

غير أنه في المسائل العامة التي تهم جمهور المسلمين فإنها كانت تعرض على جمهور الأمة كافة لإبداء الرأي فيها ومن هنا فالشورى كانت تتم على مستويات عدة .

1. **المسائل الفنية تعرض على الفنيين**
2. **المسائل التشريعية تعرض عل كبار القوم وهم أهل الشورى التي نريد**
3. **المسائل العامة كإعلان الحرب وغيرها تحتاج إلى معرفة رأي الناس جميعا. وهذه لا بد من معرفة رأي الكافة ، عن طريق استفتاء عام . (25)**

ثم ظهرت مصطلحات أخرى بنفس المعنى وهم أهل الحل والعقد، وأهل الاجتهاد، وأهل الاختيار.

وبالنظر إلى كتب السياسة الشرعية التي عرفت هذه المصطلحات فإنها جميعا تؤدي المعنى نفسه.

فالمقصود بأهل الحل والعقد هم زعماء الأمة وأهل المكانة فيها، ممن عرفوا بالخبرة والحكمة والتجربة، فنالوا بذلك رضا وثقة السواد الأعظم من الأمة، فصاروا أهلا للشورى في قضاياها.

الشروط الواجب توفرها في أهل الشورى هي :

الإسلام: **أجمع الفقهاء على اشتراط الإسلام في عضو مجلس الشورى، ذلك أن الدولة الإسلامية مؤسسة على وحدة العقيدة، ولا يجوز أن يشارك في تسيير شؤونها وتحقيق مقاصد الشارع من الخلق فيها من لا يؤمن بالإسلام، فهو شرط حتمي في كل من يمارس الولاية العامة على المسلمين في الدولة الإسلامية، إعمالا لقوله تعالى:** " ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا". [26] **وعليه فلا يجوز أن يشترك غير المسلمين في نطاق الشورى التي يكون منها وضع تشريعات عامة، في نطاق الأحكام الاجتهادية في كل ما لا نص فيه ومن ثم سيستبعد غير المسلم وجوبا.**

أما ما كان مجاله الأحكام التنفيذية خصوصا الأعمال الفنية البحتة. فقد يتطلب الأمر الاستعانة بغير المسلمين وهو نطاق لا يتعارض مع قواعد الإسلام بخصوص الاستعانة بهم طالما ظلت السلطة التقديرية وإصدار القرارات موافقة لمصلحة المجتمع الإسلامي وفي يد السلطة العامة في الدولة الإسلامية. (27)

العقل: **وهو شرط ضروري في كافة التكاليف الشرعية، كما أنه شرط لكافة الولايات العامة أو الخاصة على حد سواء.**

الحرية: **لا محل للحديث عن هذا الشرط لإلغاء نظام الرق في العالم كله.**

العلم: **أي أن تتوفر فيهم درجة معينة من العلم تؤهلهم لأن يكونوا أهلا للشورى، وأن تكون لهم القدرة على التمييز بين الآراء المختلفة في نطاق الأمر المتشاور فيه.**
ونكتفي كما ذكر الجويني في كل مقام بما يليق به من العلم. (28)

الرأي والحكمة : **فضلا عن العلم فإنه يجب أن يتوفر في أهل الشورى الرأي والحكمة لكي يتوصلوا برأيهم وحكمتهم إلى أفضل القرارات التي تحقق مقصود الشارع ومصلحة المجتمع المسلم .**
العدالة: **تعني التقوى والورع وتتحقق بالاستقامة والأمانة والمحافظة على شعائر الإسلام والتمسك بأهدافه، وهي التي تجعل عضو مجلس الشورى يستشعر مراقبة الله تعالى له، مما يجعله حريصا على توخي الصلاح في جميع القضايا محل الشورى، فلو قبلنا رأي الفاسق ومن لا يوثق به لعرضنا الأمة إلى ضرر عظيم (29).**
و قد أضافوا إلى هذه الشروط شرط الذكورة و هو على أهمية .

مدى إلزامية الشورى للحاكم :
إذا كانت الشورى مشروعة بنصوص القرآن والسنة، وبعمل الخلفاء الراشدين، وكان نطاقها ما أشرنا إليه سابقا فإنه يبقى علي أن أبحث في مدى إلزامية الرأي الذي تنتهي إليه الشورى لدى الحاكم أو ما يعرف بمسألة هل الشورى ملزمة أو معلمة؟.
و في هذه المسألة رأيان متعارضان ، أحدهما يرى أنها ملزمة للحاكم فيجب عليه إتباع ما توصل إليه أهل الشورى أو غالبيتهم ، أما الثاني فيرى أصحابه أنه لا يجب على الحاكم أن يفعل ما انتهت إليه أكثرية المشيرين، وإنما يكفي أن يشاورهم، ثم يقضي بعد ذلك بما يراه راجحا عنده، سواء خالف ذلك رأي أهل الشورى أم وافقه.
أدلة القائلين بعدم إلزامية الشورى للحاكم :

1 -رأي بعض المفسرين في قوله تعالىٍ [فإذا عزمت فتوكل على الله]. فمعنى هذا النص عندهم أن للرسول صلى الله عليه وسلم أن يأخذ بما انتهت إليه الشورى أو يدعه(30).

2 -إمضاؤه صلى الله عليه وسلم لصلح الحديبية رغم معارضة بعض أصحابه في ذلك وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

3 -موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإنفاذه لجيش أسامة رغم عدم موافقة بقية الصحابة رضي الله عنهم على ذلك ، وموقفه من حروب الردة التي خالفه فيها أصحابه ، وغيرها من الأدلة.

أدلة القائلين بإلزامية الشورى للحاكم :

1- الآية المشار إليها سابقا إنما تدل على لزوم نتيجة الشورى بعد العزم ، لذلك قال القرطبي في تفسيرها – نقلا عن قتادة – إن العزم هو الأمر المروي المنقح، وليس ركوب الرأي دون روية عزما (31)

وأن ذلك لا ينقض ما يقال من أن معنى " وتوكل على الله " أن لا يتوكل على مشاورتهم ، ذلك أن التوكل هو طلب التأييد والتسديد من الله تعالى، والمشاورة محصورة في بيان أقرب الآراء إلى الصواب وأحسنها للإتباع .

ويؤيد هذا ما ذهب إليه الطبري في تفسيره لهذه الآية (... فإذا عزمت فتوكل على الله) من أن العزم والتوكل على الله إنما يكون في الأمر الذي هو وحي من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم. فهنا لا يجوز له أن ينظر إلى رأي أهل الشورى، وعليه أن ينفذ أمر ربه وافقوه أو لم يوافقوا. (32)

أما ما لم يكن فيه وحي فلا دلالة لهذا النص عليه ويبقى على الأصل من التزام الشورى فيه، لذا ترجم البخاري في صحيحة بقوله: "...المشاورة قبل العزم والتبيين..." (33)

. وهو ما نص عليه الشاطبي في الاعتصام: "وأن المشاورة إنما تكون قبل التبيين".(34)

وقد رد كذلك على أدلة الفريق الأول من كون الشورى غير ملزمة بقولهم: أن موضوع صلح الحديبية لم يكن محلا للشورى ولا دليل فيه على لزوم الشورى أو عدمه لأن فعل النبي صلى الله عليه وسلم فيه تصرف بالوحي "....أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني....". (35)

- أما موقف أبو بكر الصديق رضي الله عنه من بعث جيش أسامة فالواقع أن أبا بكر إنما كان ينفذ في ذلك أمر رسول الله عليه وسلم لذلك رد على المعترضين عليه في خروج الجيش بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم (ما كنت لأمنع بعثا أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم). فلم يكن الأمر شورى يخالفها أبو بكر أو يوافقها وإنما كانت أمرا نبويا ينفذه فحسب.
- وأما إمضاؤه رضي الله عنه لحروب الردة ضد من ارتد فامتنع عن الزكاة إنما جاء بعد إصراره وإقناعه لمخالفيه وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى قال:" والله ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق". وعليه فإن أبا بكر لم يخالف أهل الشورى فيما انتهوا إليه، وإنما هم الذين وافقوه فيما بدأ به. فكان في قتاله لأهل الردة ينفذ ما انتهت إليه الشورى.

من هنا فإن الشورى واجبة على الحاكم، وواجب عليه أن يلتزم بما انتهى إليه رأي أكثر المشيرين، والشورى في حقه ملزمة وليست معلمة دل على ذلك فعله صلى الله عليه وسلم وفعل خلفائه الراشدين رضي

الله عنهم في وقائع كثيرة منها خروجه يوم أحد لقتال المشركين من خارج المدينة ، نزولا عند رأي الأكثرية بل إن " الشورى لن يكون لها معنى إذا لم يؤخذ برأي الأكثرية ووجوب الشورى على الأمة الإسلامية يقتضي التزام رأي الأكثرية... ويجب أن تكون الأقلية التي لم يؤخذ برأيها أول من يسارع إلى تنفيذ رأي الأكثرية ، وأن تنفذه بإخلاص باعتباره الرأي الذي يجب اتباعه ولا يصح اتباع غيره....وتلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي سنها للناس، والتي يجب على كل مسلم اتباعها. [36]

كما ذهب إلى هذا الأستاذ محمد عبده بقوله:" إن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر. والخطر على الأمة في تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر... فكان – صلى الله عليه وسلم- يستشير أصحابه... ويرجع عن رأيه إلى رأيهم".

فعودة غيره من الحكام إلى رأي الأكثرية من أهل الشورى عندهم يكون من باب أولى وأحرى . [37]

الشورى بين الثابت والمتغير :

الشورى إذن مبدأ ثابت في النظام الإسلامي أم التغير فيظهر جليا في مسألتين هامتين.

- **أولهما: كيفية اختيار أهل الشورى ، ثانيهما: هيئة المجلس وشكله.**

اختيار أهل الشورى :

إن القران الكريم لم يتناول من يكون أهل الشورى، وإنما جاء الأمر بالشورى عاما بحيث تكون الشورى لجماعة المسلمين ، وعدم التحديد هنا هو ما يتفق مع المنهج القرآني في عدم ذكر التفصيلات فيما يتعلق بالشؤون الدستورية والاكتفاء بالمبادئ العامة.

وهو ما يتفق وصالح الجماعة الإسلامية ، إذ يتيح موافقة الأحكام الإسلامية لظروف المجتمعات المتغيرة. [38]

وبما أن السنة النبوية مكملة للقران ومبينة له فإنها جاءت ببيان شروط " أهل الشورى" على صورة تتفق وخلود المبادئ الإسلامية وصلاحيتها لكل تغير اجتماعي.

فالشرط الجوهري فيهم أن يكونوا ممثلين حقا للأمة ، وممن ترضى عنهم وتثق فيهم ويمثلونها بصدق، سواء نالوا هذه الثقة بالأسبقية للإسلام والجهاد أو بالمزايا العقلية والنفسية والخلقية، أو بالنبوغ العلمي والفقهي ، فالمهم هو رضا الأمة عنهم.

- **إن المتأمل في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لا يجد طريقة ثابتة في تحديد أهل الشورى، كما مر معنا من خلال السوابق التاريخية .**

ويبقى السؤال : كيف يختار أهل الشورى هل بالانتخاب أم بالتعيين؟

في العهد الأول كان اختيارهم طبيعيا لا يحتاج إلى انتخاب أو تعيين .

قال العلامة المودودي رحمه الله تعالى: " إن الإسلام كان قد نهض في مكة كحركة من الحركات، ومن طبيعة الحركات أن الذين يستجيبون لدعوتها قبل غيرهم هم الذين كانوا السابقين الأوليين في الإسلام أصبحوا – بطريق فطري- أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأهل مشورته.

ثم ظهر فيها بعد رجال امتازوا بتضحياتهم وخدماتهم وبصيرتهم وفراستهم، ولم يكن انتخابهم قد تم بالأصوات، ولكن بما عانوا في حياتهم من المحن والشدائد والتجارب، وهي طريق للانتخاب أكثر صحة وأدنى إلى الفطرة من طريق الأصوات".[39]

ولو أجرى الخليفة انتخابا عاما لجاءت نتيجته باختيار هؤلاء الرجال أنفسهم لذلك لم تكن هناك حاجة لإجراء انتخاب عام.

أما اليوم وقد صار الانتخاب طريقا لاختيار ممثلي الأمة على مختلف الأصعدة فلا مانع من انتهاجه أسلوبا لاختيار أهل الشورى عندنا مع ضبط العملية بالقواعد الشرعية التي تسمح ببروز هيئة تمثل الشعب بصدق وتحظى بكل ثقة واحترام ممن توفر فيهم العلم والعدالة والخبرة والتجربة، من كبار العلماء وأهل الاختصاص والخبرة ورؤساء الجند والزعماء.

ولنا أن نختار من الطرق والأساليب المختلفة لاختيار أهل الشورى وأن نستفيد مما وصل إليه الغرب اليوم من خلال النظام الديمقراطي وصيغه المتعددة.

هيئة المجلس وشكله :

لا نجد في كتاب الله تعالى آية واحدة عن الأشكال المؤسسية أو النظامية للدولة الإسلامية، في الوقت الذي وردت فيه آيات متعددة للواجبات التي ينبغي أن يقوم بها النموذج الإسلامي لنظام الحكم مثل آيات الشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقضاء بين الناس بالعدل..الخ،[40] و بمعنى آخر فإن الأشكال النظامية تقع في منطقة العفو من الأصول الإسلامية التي تركت لاجتهاد الناس وفقا لحاجاتهم ومصالحهم ومتغيرات الزمان والمكان.

وهذا مرجعه إلى الخصيصة التي تتميز بها الأصول الإسلامية (الكتاب والسنة) في جمعها بين المرونة والثبات. [41]

- إن المجتمعات في تطور وتغير مستمر، والقاعدة الأصولية تقضي بتغير الأحكام تبعا لتغير الزمان والمكان والحال ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن موقف الكتاب والسنة من الأطر والأشكال النظامية يتماشى ويتفق مع كون الإسلام رسالة الله الخالدة ودين الله الخاتم، الأمر الذي يقضي بترك الأبعاد النظامية والجوانب المؤسسية باعتبارها من الوسائل لاجتهادات البشر طبقا للواقع المعاش.[42]

فإذا كانت الدولة الإسلامية على عهد النبوة والخلافة الراشدة، لها نظامها السياسي بمؤسساته وأبنيته، وإن كانت تتسم بالبساطة وعدم التعقيد فمرجع ذلك إلى بساطة الحياة والأدوار المناطة بها، غير أن هذه المؤسسات في هذا العهد قد نهضت بالغايات والمقاصد العامة للدولة في ذلك الوقت من تبليغ للدعوة وحماية للدولة وتصريف لشؤون المسلمين، والفصل في خصوماتهم وتدبير شؤونهم الاقتصادية، وإقامة الشعائر الدينية، وتعليم المسلمين....الخ [43]

واليوم للأمة الحق في أن تأخذ من الغير بعض الأطر أو الأشكال المناسبة لتضع بداخلها مضامينها ومفاهيمها الخاصة (المستوحاة من شريعتها) مع حقها في التحوير والتعديل فيها، ولا تأخذ فلسفة الغير التي تحلل الحرام أو تحرم الحلال أو تسقط الفرائض.

فلنا أن نأخذ من الإجراءات والأساليب وغيرها من النواحي الشكلية التي لم تتعرض لها شريعتنا إلا إجمالا نظرا لشدة قابليتها للتغيير حسب الزمان والمكان والحال.

ومن هنا يمكننا إنشاء مجلس شورى على النمط الوضعي مثلا في البرلمانات الموجودة اليوم، على أن يتكون هذا المجلس من أفراد يعينون أو ينتخبون حائزين على أعلى الدرجات العلمية ولهم خبرة طويلة في تخصصاتهم مع تنوعها من دينية ودستورية واقتصادية واجتماعية ونفسية....الخ.

و يصدر هذا المجلس قراراته اعتمادا على أغلبية أصوات أعضائه ، على أن تكون هذه القرارات ملزمة للحاكم ما دامت غير مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية.

وفي الأخير يمكن أن نخلص إلى الآتي :- إذا كان الإسلام قد أوجب الشورى وكفل بمقتضى إيجابها حق الأمة في المشاركة في الحكم والبت في أمورها العامة وأمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ثم التزم بها خلفاؤه من بعده، إلى جانب أنها صفة من صفات المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) **فان هذا لا يؤدي بنا إلى أن تخلط بين القاعدة التي تقرر المبدأ الواضح الذي هو أحد ركائز ومبادئ النظام السياسي الإسلامي، وبين أسلوب التنفيذ وصور التطبيق التي نتجت عن إعمال هذا المبدأ فالوسيلة التي تتمثل في صور وتفصيلات الشورى يمكن أن يعاد فيها النظر دائما حسبما يتفق مع ظروف العصر ومقتضيات الزمان دون أن يكون ذلك ماسا بأصل الشورى.**

الهوامش :

1. **إبن أبي شيبة** المصنف **دار الرشد الرياض حديث رقم 26275 ، 298/5 .**
2. **د/ سليم العوا:** في النظام السياسي للدولة الاسلامية. **دار الشروق ط1 1989 ص179.**
3. **د/ عبد الحميد إسماعيل الأنصاري:** الشورى وأثرها في الديمقراطية. **المكتبة العصرية بيروت ط2 ص04.**
4. **القرطبي** : الجامع لأحكام القران **دار الكتاب العربي القاهرة ط3 1967 (249/4)**
5. الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن **دار المعارف مصر (58/5) .**
6. **د/ توفيق الشاوي،** فقه الشورى والاستشارة **دار الوفاء المنصورة 1992 (14).**
7. **د/ عباس حلمي اسماعيل-** مجلة الازهر **- مارس 74، مجلد 46، العدد2.ص209.**
8. **أ/ عبد الله أبو عزة،** مجلة المجتمع، **العدد 38، ديسمبر 1970،الكويت .**
9. **عبد القادر عودة،** الاسلام وأوضاعهنا السياسية. **دار الكتاب العربي ص185 ، د/ سليم العوا المرجع السابق.ص185**
10. **آل عمران 159**

11. **سيد قطب**، في ظلال القران **دار الشروق (299/5).**
12. **د/ محمد فؤاد النادي**، مبادئ نظام الحكم في الإسلام. **دار الكتاب الجامعي القاهرة، 1999 م ص 200.**
13. **سورة الشورى 38**
14. **سيد قطب**، المرجع السابق، **(299/5).**
15. **رواه الترميذي**، في باب من جاء في المشاورة طبعة القاهرة 1964 **(375/5).**
16. **محمد أسد**،منهاج الاسلام في الحكم. **دار العلم للملايين بيروت 1957 ص108.**
17. **انظر في الوقائع المشار إليها**، سيرة ابن هشام **دار الفكر بيروت (16/2 191،127).**
18. راجع اجتماع السقيفة **البداية والنهاية مكتتبة النصر الرياض ط1 1966 247/5،245.**
19. **ابن كثير**: المرجع السابق. **248/5.**

20. **د/سليمان محمد الطماوي ، عمر بن الخطاب ،ط1 ، 1969، دار الفكر العربي.ص 244،241.**
د/ ضياء الدين الريس، النظريات السياسية الاسلامية. **دار المعارف ط4 1967 ص180 .**
21. **د/ سليمان الطماوي، عمر بن الخطاب. ص134 وما بعدها.**
22. المصنف لعبد الرزاق.**480/5**
23. : **المستشار علي منصور**، نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية **ط1971،2، دار الفتح –بيروت– ص 304،303.**
24. **محمد أبو زهرة** ، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، **بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية ، ص 421**
25. **انظر: أ/ عبد الرحمن عبد الخالق**، الشورى في ظل نظام الحكم الاسلامي. **الدار السلفية الكويت 1975 ص91، والمستشار علي منصور**، نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية. **ص270.**
26. **النساء 141**
27. **د/ محمد فؤاد النادي** مبادئ نظام الحكم في الإسلام ، ، **ص 217.**
28. **أبو المعالي الجويني**، غياث الأمم. **دار الدعوة القاهرة 1979 ص 50.**
29. **راجع في هذا المعنى، السيوطي:** الاشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، **القاهرة عيسى البابي الحلبي، 1964، ص 415،413.**
30. **انظر:** تفسير القرطبي **4/ 250.**
31. **انظر:** تفسير القرطبي **4/ 252،250.**
32. **انظر في هذا** المعنى تفسير الطبري **346/7.**
33. **انظر** صحيح البخاري دار الفكر بيروت 1981 **9 / 138.**

34. **انظر الشاطبي.** الاعتصام ، **دار الشغب القاهرة 1970 ، 2/ 209.**

35. **سيرة** ابن هشام **230/2.**

36. **عبد القادرعودة** ، الاسلام وأوضاعنا السياسية. **ص 162،163**

37. **محمد رشيد رضا،** تفسير المنار **(200-98،199/4)**

38. **د/ يعقوب محمد المليجي** ، مبدأ الشورى في الإسلام ، **مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية ص 147**

39. نظرية الإسلام وهديه **– دار الفكر، بيروت.ص 285.**

40. **د/ محمد أحمد خلف الله** : القرآن والدولة ، **مجلة الكويت ، عدد139 ، أكتوبر 1972 . ص 25.**

41. **د/ يوسف القرضاوي** ، الخصائص العامة للإسلام ، **مكتبة وهبة القاهرة 1981 من ص 101 إلى ص 114**

42. **د/ محمد أحمد خلف الله** : القرآن والدولة ، **مجلة الكويت عدد 139 أكتوبر 1972 ، ص 28 .**

43. **د/ الكتاني الفاسي:** التراتيب الادارية والعمالات الصناعية والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة المنورة العلية، **المطبعة الاهلية، الرباط.1346هـ.**

ثبت المصادر و المراجع

1. الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن **دار المعارف مصر .**
2. **القرطبي** : الجامع لأحكام القران **دار الكتاب العربي القاهرة ط3 1967**
3. **سيد قطب،** في ظلال القران **دار الشروق**
4. سيرة ابن هشام **دار الفكر بيروت**
5. صحيح البخاري **دار الفكر بيروت 1981**
6. سنن الترميذي **طبعة القاهرة 1964**
7. المصنف **لعبد الرزاق**
8. **أبي شيبة** المصنف **دار الرشد الرياض**
9. البداية والنهاية **مكتتبة النصر الرياض ط1 1966**
10. **د/ الكتاني الفاسي:** التراتيب الادارية والعمالات الصناعية والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة المنورة العلية، **المطبعة الاهلية، الرباط.1346هـ.**
11. **السيوطي:** الاشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، **القاهرة عيسى البابي الحلبي، 1964**
12. **أبو المعالي الجويني،** غياث الأمم. **دار الدعوة القاهرة 1979**
13. **د/ سليم العوا:** في النظام السياسي للدولة الاسلامية. **دار الشروق ط1 1989**
14. **د/ عبد الحميد إسماعيل الأنصاري:** الشورى وأثرها في الديمقراطية. **المكتبة العصرية بيروت ط2**
15. **عبد القادر عودة،** الاسلام وأوضاعهنا السياسية. **دار الكتاب العربي**
16. **د/ محمد فؤاد النادي،** مبادئ نظام الحكم في الإسلام. **دار الكتاب الجامعي القاهرة، 1999 م**

17. **د/سليمان محمد الطماوي ، عمر بن الخطاب ،ط1 ، 1969، دار الفكر العربي**
18. **د/ ضياء الدين الريس،** النظريات السياسية الاسلامية. **دار المعارف ط4 1967**
19. **: المستشار علي منصور**، نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية **ط1971،2، دار الفتح –بيروت**
20. أ/ **عبد الرحمن عبد الخالق،** الشورى في ظل نظام الحكم الاسلامي. **الدار السلفية الكويت 1975**
21. **الشاطبي.** الاعتصام ، **دار الشغب القاهرة 1970**
22. **د/ يعقوب محمد المليجي ، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية**
23. **المودودي** نظرية الإسلام وهديه **– دار الفكر، بيروت**

البحوث و الدراسات

1. **د/ عباس حلمي اسماعيل**– مجلة الازهر – **مارس 74، مجلد 46، العدد2**
2. أ/ **عبد الله أبو عزة،** مجلة المجتمع، **العدد 38، ديسمبر 1970،الكويت**
3. **محمد أبو زهرة ،** المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، **بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية**
4. **د/ محمد أحمد خلف الله :** القرآن والدولة ، **مجلة الكويت عدد 139 أكتوبر 1972**

Towards a Tertiary Sound System between Arabic and English

AFKIR MOHAMED
UNIVERSITY OF BLIDA

It is common knowledge that Arabic and English became so closely related that comparative study is nowadays more than necessary. Although there has been much effort to study each of the languages apart, comparative studies are unfortunately very few. This article aims to contribute to the field of comparative phonetic studies. The ultimate aim is to underline resemblances in the phonetic systems in the two languages to allow learners from both sides to glide easily from the sounds found in the native language to the sounds of the target language. In fact, the idea came to my mind from practical observations I made as a teacher of English at university, rather than a specialist in phonetics. In addition, the short visits I had to the United Kingdom pushed me to think about the subject of how English speaking people could learn Arabic phonetics more easily. I sought therefore to raise the issue through some general observations on the idea, hoping that future studies in the field will deepen research.

The discussion will have a view on the importance of Arabic and English for Westerners and Arabic speaking countries respectively, and the different difficulties encountered by learners from both sides. Then focus will be made on some observations on phonetics, which is perhaps the main obstacle for many learners. Examples of vowels and consonants will be shown to highlight a fact that possible solutions can be found through thorough research.

While English has become a universal language since a long time, Arabic also is gradually becoming a universal interest. English is the language of science, technology and communication. Arabic is the language of faith for over one billion and a quarter Muslims. As the world became increasingly interested to understand the upheavals in the Arab world in general, and the Middle East in particular, Arabic took a forefront position as a medium for such an understanding. Arabic became a universal interest also because it is now the

official language for worldly organizations that adopted anti-western orientations. Hence, both English and Arabic are sought after languages by millions of people for different purposes. Arabic speaking countries seek teaching English primarily to acquire scientific and technological techniques or to perform better business transactions, not to neglect prestigious matters or traveling. In the meantime, English-speaking countries have established specialized institutions for the study of Arabic essentially, as it is obvious, for strategic purposes. However, many ordinary citizens are interested to study Arabic for personal reasons, especially those who came to discover Islam as a new religion.

Learners from both sides find difficulties to learn the target language. The greatest difficulty is perhaps encountered in speaking because of a number of objective reasons. Several vowels exist in English and do not in Arabic, and vice versa. The same thing can be said on consonants. Facing strange sounds renders them hard to perform. Some letters exist in both languages but are not articulated in the same manner due to habit, climate and the shape of articulators.[94] The phonemic rules and the combination of sounds in each of the two languages are different and hence affect the articulation of sounds. The matter is further complicated by the absence of a fixed standard list of phonetic symbols in Arabic. Arabic speaking learners of English face new signs, while English speaking learners of Arabic are likely to be disappointed not to find phonetic aides as they have used to see in their native language.

Experience in teaching English to Algerian university students is an example that can better clarify the matter. Students learning to obtain a *license d'anglais* study phonetics along three years, but results are very modest. Most students still suffer in speaking after finishing their graduation studies. In addition to problems of intonation and fluency, students learning English find difficulties to pronounce a number of phonetic sounds, of course by degrees. Some of these sounds are completely new to them. Others are articulated differently. Habitual pronunciation, which is often far from original Arabic pronunciation and mixed with other Mediterranean languages, adds to this difficulty. Sometimes students' shyness leads them to see performing better pronunciation as a show off. However, the main reason is the ill reception of the sounds of English and ignorance of the rules of articulation.

[94] - I mean that the vocal and the nasal cavities of Arabs (hot whether) are remarkably different from those of Europeans (cold whether).

Here are some examples of difficulty faced by students in the pronunciation of English sounds together with an attempt to approximate them to Arabic sounds. Difficulty arouses at the level of vowels and consonants.

1- Vowels: **Though vowels are initially articulated on a similar basis,[95] students often ill pronounce many vowels:**

- /Λ/ as in blood is often confused with /D/ as in God. It is also confused with /æ/ as bag when pronouncing but. We can liken it with the first vowel in the first word in the expression الله أكبر

- /aï/ does not exist in Arabic and is often confused with /ei/ like in light, like. This sound can be found in Arabic by combining the first vowel in طاقة **plus** ي **.**

- /au/ as in house does not exist in Arabic and is sometimes pronounced /∂u/. But it can be found in طاولة **.**

- /∂/ is often ill-pronounced as in doctor, a lot, aside, and confused with /æ/ or /e/. It can be deduced easily in هل **.**

These are examples that can give hope of finding, through research, approximations to English vowels starting from Arabic vowels.

2- Consonants:

According to researchers, most consonants in English are found in Arabic. Yet a number of them are not found and hence create difficulty. Even some of those found are pronounced differently.

- /p/, /v/, /g/, / / and /t / are easily pronounced by Algerian students though not found in Arabic. This is due to habitual pronunciation of these sounds in daily Algerian Arabic which is contains many words from French. Other Arab students face difficulties such as /p/.[96]

[95] - Air flows without complete obstruction.

[96] - I have myself heard many Arabs in London saying /haid ba:rk/ instead of /haid pa:rk/, and /bikadili/ instead of /pikadili/.

- /ŋ/ as in living is often confused with /n/ like in reading, or adding /g/ as in king. It is not found separately in Arabic but can be found in combinations such as إن كان

.

- /l/ as in life is different from ordinary Arabic *lëm* as in ليت **. English /l/ is thicker at two levels light (life) and dark (feel).[97] Most students tend to pronounce this sound as they do in Arabic. English light /l/ can be deduced in a word like** طلق **.**

- /r/ as in write is perhaps the most common difficult sound faced by Arabic speaking learners of English. It is worth noting that even very advanced learners and very experienced speakers (including teachers) still suffer in this area. The cause is that Arabs are used to their own Raa, which is very frequent in their language. However, it is possible to approach this sound through the dark Raa that is found in

الرحمن الرحيم **together with curving and gliding the tongues tip slightly backward to the soft palate.**

These examples of consonants are but a suggestion for further research that can establish useful overpasses between Arabic phonetics and English phonetics. It is also worth noting that research in Arabic about English phonetics is very rare but can be very useful subject to the condition that it follows strict scientific rules.

English speaking learners of Arabic, on the other hand, find equal difficulties in pronouncing Arabic sounds. In fact, there are numerous works that has been achieved by westerners (written in English) about the description of Arabic phonetics. But unfortunately, these remain highly academic and perhaps can help ordinary learners very little. In addition, such learners need simpler ways to approach Arabic sounds. However, the works achieved remain so important in that they can serve as a useful basis for researchers seeking to establish bridges between English and Arabic phonetics.

[97] - In American English it is dark altogether

To explore some of the difficulties English-speaking people may face when learning Arabic, a sample group of English speaking individuals were interviewed on the basis of the following form:

Nationality:

Age:

Occupation:

1- Have you ever heard about the existence of Arabic? Y☐ No☐

2- Have you ever spoken Arabic? Yes ☐ No☐

3- Do you know some Arabic words? Yes ☐ No ☐

Examples:

Can you say the following words (phonetic transcription)?

/e:men∂/ آمن

/teâllem∂/ تعلم

/teĥi∂/ تحيا

/bein∂/ بين

/h∂l ete:k∂/ هل أتاك

/jeqTaâ/ يقطع

This questionnaire was introduced to a sample of 10 British citizens whose native language is English. All of them are from the intellectual circles i.e. with university degrees, and having occupations near to academic field (Three of them historians). Their age vary from twenty 26 to 83. They were asked to pronounce Arabic words containing a number of unfound sounds in English.

First let us have the following general observations which were drawn from the analysis of the general questions.

- **All of the interviewed speakers know and recognise that Arabic is an international language (all of them answered YES to question 1). This of course**

is a very important factor that must urge researchers to prepare the ground for a much more interest on Arabic.

- **Many of them know some Arabic words, though having never spoken it (five of them know some Arabic words, and only two have ever spoken it). This shows that the intellectual circles in Britain are more or less interested in Arabic as a future medium of communication.**
- **The interviewed speakers' age vary from the young to the old. This is an indication that all sections of society are aware of the importance of Arabic.**

Concerning the second section of the questionnaire, the analysis of the way the speakers uttered the above stated Arabic words allows us to introduce the following conclusions:

Vowels**:**

- English speaking individuals confuse between the different vowels in Arabic. They usually think of the cardinal vowels, /a/, /o/ and /I/ as a basis of their pronunciation. Most of the interviewed sample pronounced /aman∂/,/ halatak∂/ for the Arabic words

آمن **and** هل أتاك

However, deeper analysis can reveal that English phonetics contains vowels that are similar to variants of Arabic vowels.

- Around cardinal a as in /TaRaqa/ (طرق), there are short /e/ like in /ekel∂/ (أكل), long /e:/ can be created to meet the vowel in /me:t∂/ (مات), and /∂/ as in /h ∂l/ (هل)

The above stated Arabic words would have been easier and nearer to Arabic pronunciation if transcribed as follows /e:men∂/ and /h∂l ete:k∂/

- Around cardinal I there are usually short /I/ as in /Inn∂/ (إن), and long /i:/ as in /e:mi:n/ (آمين).

- Around cardinal o , there are short /o/ /qoTiâa/ (قطع), long /o:/ as in /qo:Rinə/ قورن , short /u/ as in /hum/ (هم), and long /u:/ as in /nu:n/ نون

As concerns consonants, English speakers find difficulty pronouncing specific consonants. Here are some examples:

/â/ as in /âlime/. It is difficult for English speakers to pronounce this sound in initial position, for example. So they always say /alima/ or /ain/. However, this sound becomes easier for English speakers if situated in particular places between other sounds like in /teâlleme/ تعلم, /Ra:djiâu:n/ راجعون. So while drilling learners it is preferable to start with those sounds.

/q/ as in /qe:le/. It is a very hard sound for English speakers. Yet, it is easier to pronounce if situated in particular places like in /jeqbaâ/ (يقبع), /jaqtaâ/ يقطع

/ĥ/ as in /ĥeye:t/. (Sounds a little like blowing warm air on your cold hands).[98] English speakers usually take for /h/ and say for example /hayet/ or /he:ne/. It is easier to pronounce if situated in particular places like in /təĥje:/ (تحيا) , /teĥtə/ (تحت) …etc

/l/ as in /leâibə/. Irish and Welsh /l/ is very similar to ordinary Arabic /le:m/. It also resembles initial /l/ as in learn.

These are some consonants unfound in English but that can be approximated through practical solutions. The following table is a general display of Arabic consonant sounds contrasted with English ones:

		Bilabial	Inter-dental	Dental	Emphatic dental	(Alveo-) Palatal	Velar	Uvular	Phary n- geal	Glottal
Stops	Voiceless			t ت	T ط		k ك	q ق		â ع

[98] Wikipeadia.

	Voiced	**b** ب		**d** د	**d'** ض	**d** ج				
Fricatives	**Voiceless**	**f** ف	**θ** ت	**s** س		ش	**kh** خ		**ĥ** ح	**h** ه
	Voiced		**ð** ذ	**z** ز	ظ		**gh** غ			
Nasals		**m** م		**n** ن						
Laterals				**l** ل						
Rhotic (trill)				**R** ر						
Semi-vowels		**w** و			**j** ي					

Concerning ص and ظ, description can lean towards saying that they are different consonants or simply as variants to س and ذ , but with thickness. In English we say see with /s/ very similar to س, but sun with thick /s/ which is very similar to Arabic ص. We also say they with ð very similar to ذ, and thou with thick ð very similar to ظ. Yet, they must keep thick everywhere exactly as /l/ keeps thick everywhere.

Conclusion:

This very short glimpse on comparative phonetics can serve nothing but to initiate research. In fact, hard work should wait us to discern the depths of this subject. By us I mean those specialized in English as well as those of Arabic. Indeed, it is the duty of the latter that matters a lot. This is because English teaching has already developed an uncounted number of methods all over the world including the Arab countries. And hence, it perhaps will benefit very little from this kind of research. Yet Arabic teaching is still a mere hobby that developed very little in terms of universal methods. In spite of its obvious growing importance, there seems insufficient interest on the part of the concerned academics. Still worse, it is the learners from the western countries who are doing the job of Arabic academics, as they seek themselves to create suitable methods.[99] This of course carries an evident risk of distorting the very spirit of

[99] **- See for example the different phonetic studies held at Durham University under the directorship of Daniel Newman. Examples of the latter's studies are:** ***The phonetic status of Arabic within the world's***

Arabic. I think it is now the correct time to begin thinking seriously of universalizing Arabic as we see it, not as the rest of the world see it.

PHONETIQUE ET PHONOLOGIE DU PARLER ARABE D'ALGER.

AUTEUR :

Dr Nadia SAM - Ph.D Psychologie clinique et psychopathologie - Psychologue orthophoniste - Chargée de cours à l'Université de Blida.

RESUME :

Le parler arabe d'Alger nous semble si automatique que nous oublions ses spécificités. C'est pourquoi il s'agit, dans cet article, de le décrire ce parler d'un point de vue phonétique et phonologique. Cette description devrait permettre de disposer d'un ensemble de traits de base définis universellement qui servent de référence pour, d'une part, comparer les langues entre elles et d'autre part, expliquer aussi bien le fonctionnement pathologique dans la perception de la parole.

MOTS CLES :

Parler arabe d'Alger – phonème- phonétique – phonologie.

Le langage, cette faculté qui nous permet d'échanger nos idées, d'exprimer nos sentiments, nos joies, nos tristesses et de convaincre, demande pour sa compréhension et sa réalisation l'intervention de plusieurs facteurs tels que les autres fonctions cognitives (mémoire, intelligence, attention, perception…) et la présence d'organes comme le cerveau, l'appareil auditif, l'appareil bucco-phonateur qui permet la réalisation des sons de la langue.

Comme il est connu, toute langue ou parler utilise des sons afin de communiquer des sens. Ces sons présentent la particularité d'être le seul aspect manifestement concret de la langue. C'est ainsi qu'ils peuvent faire l'objet d'une analyse matérielle, c'est-à-dire, être étudiés dans leur réalité physique. Ce type d'analyse est pris en charge par la phonétique. Mais leur étude du point de vue fonctionnel relève de la phonologie qui s'intéresse aux éléments phoniques distinguant dans une même langue des messages de sens différent. C'est en se basant sur la phonétique et la phonologique que nous tenterons de décrire le parler arabe d'Alger afin de, d'une part, connaître et comprendre ses spécificités qui nous paraissent si évidentes et d'autre part, de permettre aux psychologues orthophonistes, exerçant dans la région d'Alger et ses environs, de mieux cerner les troubles du langage particulièrement lorsqu'il s sont liés à un déficit phonétique (les troubles d'articulation), ou à un trouble phonologique (altération de l'usage linguistique des phonèmes ou de la combinaison de ceux-ci pour former des mots).

Dans un premier temps, nous montrerons quelques spécificités de ce parler puis, nous procéderons à une description phonétique et enfin, phonologique du parler arabe d'Alger.

1. Spécificités du parler arabe d'Alger :

Le parler d'Alger est différent de l'arabe standard puisque plusieurs phonèmes se sont assimilés, d'autres ont disparu et des phonèmes ainsi que des mots ont été empruntés au berbère, au français et à l'espagnol.

Pour une meilleure compréhension, nous citons les exemples suivants :

Assimilation de certains phonèmes :

- Le /θ/ s'est assimilé en /t/

Exemple : /θalğ/ pour /təğ/ ''neige''

- Dans le dialecte algérois, le /k/ se sonorise en /g/ devant un phonème sonore contrairement à l'arabe standard :

Exemple : /j əgdəb / pour / jəkðəb/ ''il ment''

- Le /n/ s'assimile en /m/ devant une labiale en particulier /b/.

Exemple : / ǧ∂mb / pour /ǧ∂nb/ ''côté''

- Le /n/ s'assimile en /l/.

Exemple : /m∂lbæ : b/ pour /m∂n lbæ:b/ ''de la porte''

Le /ð/ est aussi passé à un /ḍ/.

Exemple : / naḍam / pour /naðama / ''il a organisé''

En comparant l'algérois à l'arabe standard, des phonèmes ont été empruntés.

Exemples : / ʒ/ / ʒardɛ/ ''jardin''

/p/ /poupija/ ''poupée''

/v/ /valiza/ ''valise''

Il en est de même pour les voyelles. L'arabe standard compte trois voyelles /a/, /u/, /i/.Le parler arabe d'Alger en possède plus puisqu'il en a emprunté du français telles que /∂/, /y/, /ɑ̃/, õ/.

2. Description phonétique du parler arabe d'Alger :

Le phonème est la plus petite unité dont la moindre modification entraîne un changement du sens d'un mot. C'est un ensemble de sons fonctionnellement équivalant. Le parler d'Alger comporte des consonnes, des voyelles et des semi-consonnes ou semi-voyelles.

Dans le tableau suivant, nous avons recensé les différents phonèmes non emphatiques du parler d'Alger, en les introduisant dans des mots en position initiale, centrale et finale et ce, en utilisant l'alphabet phonétique internationale (API).

Tableau n °1 – Les phonèmes du parler arabe d'Alger représentés par l'API :

Voyelles	Consonnes	Glides Semi-consonnes
[a] na :r **feu**	**[b] bæ :b, nəbbula, kəlb** **porte, ballon en plastique, chien**	**[w] warqa, mhawal, qraw** **feuille, agité, étudié**
[o] moto **moto**	**[p] pubel, ropa** **poubelle, robe**	**[j] jəmma, bjad, mæ:j** **maman, blanc, mai**
[u] pupu :n **poupon**	**[d] da :r, mandarin, msi :d** **maison, mandarine, école**	**[ɥ] tɥjo** **tuyeau**
[i] kif **kil**	**[t] tæqa, maftæ :ħ, bi :t** **fenêtre, clef, chambre ou pièce**	
[y] nytella **nutella**	**[k] karʃ, maktu :b, messæk** **ventre, destin, épingle ou barrette**	
[e] tele **télé**	**[g] gnina, dəgla, matrag** **lapin, dattes, baton**	
[ã] lãmpa **lampe**	**[q] qalb, maqrot, tre :q** **cœur, makrout, route ou chemin**	
[õ[põ **pont**	**[m] mækla, ħu :ma, sləm** **poelle, quartier, épargné ou sauvé**	
[æ] kifæh **comment**	**[n] na :r, tmanja, xʃi :n** **feu, huit, épais**	
[ ] pl ta **pelote**	**[f] fa :r, mufti, ni:f** **rat, mufti, nez**	
[ɛ] satɛ **satin**	**[v] velo, mnervi,** **vélo, nerveux,**	
[ø] jød **main**	**[s] su :q, məskin, mu :s** **marché, pauvre, couteau**	

[ə] bənt fille	[ʃ] ʃapo, maħʃi,bæʃ chapeau, farci, pour	
	[z] zǧæ :ǧ, mazru :b verre, préssé,	
	[ʒ] ʒdi :d, bagaʒ neuf, bagage [	
	[r] rabbi, mræja, mor Mon Dieu, miroir, derrière	
	[ǧ] ǧmə́l, mǧarab, xæ :raǧ chameau, expérimenté, sortant	
	[h] hæ :mal, qahwa, mrafah perdu, café, riche	
	[ħ] ħə́ʃma, maħtu :m, mə́lħ honte, obligatoire, sel	
	[ʕ] ʕæ:m, qa : ʕə́d, ǧa:maʕ une année, assis, mosquée	
	[x] xatə́m, mxatə́n, mux bague, circoncis, cerveau	
	[ɤ] ɤba :r, baɤri:r, dmæ:ɤ poussière, crêpes, crâne	
	[r] raǧə́l, marmeta, xi :r homme, marmite, meilleur ou mieux	
	[l] lu :z, qə́ljæ:n, bilæ.l amandes, friture, Billal	

Comme dans l'arabe standard, il existe des phonèmes emphatiques que nous retrouvons dans le tableau suivant :

Tableau n°2 – Les emphases du parler d'Alger :

Emphase	Mot	Traduction
[ṇ]	**tṇa:ʃ**	**douze**
[ṃ]	**ṃa : ne**	**grand-mère**
[ṭ]	**ṭabla**	**table**
[ṣ]	**ṣʜa : b**	**copains**
[ḅ]	**ṭoḅa**	**rat**
[ḍ]	**ḍal**	**ombre**
[ḷ]	**aḷḷah**	**Allah**
[ẓ]	**ẓabla**	**bêtise**

3. Les traits :

Ainsi, ces phonèmes à fonction distinctive caractérisent l'algérois. On ne peut pas associer n'importe quel phonème à n'importe quel autre phonème. De plus chaque phonème est caractérisé par un ensemble de propriétés ou de traits distinctifs qui correspondent aux propriétés articulatoires et acoustiques qu'il rassemble. En effet, les sons du langage

dépendent des parties de l'appareil vocal mises en jeu dans leur production. Ces traits sont exprimés en termes d'attributs et de valeurs.

On parle d'attribut lorsqu'un phonème est sonore ou sourd. Quant aux traits, ils indiquent le mode d'articulation. On retrouve le trait *occlusif* qui indique le chenal expiratoire pour la production du phonème quasiment fermé comme pour le phonème /u/. Le phonème *fricatif* indique un resserrement du chenal expiratoire comme pour /v/. Les traits *labial, dental, palatal, vélaire, pharyngal, laryngale* désignent l'emplacement de l'obstruction.

Dans le tableau suivant, on montre les différents traits et attributs de chaque consonne du parler arabe d'Alger.

Tableau n°3 - Attributs et traits des consonnes du parler arabe d'Alger :

Consonnes	abiales	entales	alatales	élaires	haryngale	Laryngale
Occlusives						
- **sonore**	**b] [ḅ]**	**d] [ḍ]**		**g]**	**ʔ]**	**[ʕ]**
- **sourde**	**p]**	**t] [ṭ]**		**k] [ǧ]**	**h]**	**[ḥ]**
Fricatives						
- sonore	**v]**	**z]**	**ʒ]**	**[ɤ] [x]**		
-sourde	**f]**	**s] [ṣ]**	**ʃ]**			
Nasales	**m] [ṃ]**	**n]**				
Latérales		**l] [ḷ]**				
Vibrantes			**r]**			

Le tableau suivant résume les caractéristiques des semi-consonnes ou glides :

Tableau n°4 – Caractéristiques des semi-consonnes du parler arabe d'Alger :

Semi-consonnes Glides	Labiales	Palatales
- sonore	**[ɥ]**	**[j]**
- sourde	**[w]**	

On a regroupé, dans le tableau suivant, les voyelles du parler algérois :

Tableau n°5 – Traits et attributs des voyelles du parler arabe d'Alger :

Voyelles	Antérieures	Postérieures
Nasales		
-mi-ouvertes	**[ɛ]**	
- mi-fermées		**[õ]**
- ouvertes		**[ã]**
Orales		
- fermées	**[i] [y]**	**[u]**
- mi-fermées	**[e] [ə]**	**[o]**
- mi-ouvertes	**[æ] [ɛ]**	**[∅]**
- ouvertes	**[a]**	

3 - Description phonologique du parler arabe d'Alger :

Comme nous l'avons déjà souligné, l'étude fonctionnelle des phonèmes relève de la phonologie. De ce

fait, nous nous baserons, lors de la description phonologique du parler arabe d'Alger, sur les oppositions des phonèmes d'un point de vue du lieu d'articulation, de sonorité, de nasalité et d'emphase.

3.1 Oppositions du lieu d'articulation :

Plusieurs oppositions liées au lieu d'articulation sont constatées dans le parler arabe d'Alger. Voici quelques exemples :

- /b/ et /d/ : **Exemple: /jØsəd/ et /jØsəb/**
  ''il bouche'' ''il insulte''
- /d / et / g / : **Exemple: / mdawəd / et /mgawəd /**
  ''sal'' ''guidé ou conduit''
- /k/ et /q/ : **Exemple : / kəlb / et /qəlb /**
  ''chien'' ''cœur''
- /m/ et /n/ : **Exemple : /həmma/ et /hənna/**
  ''fièvre'' ''henné''
- /q/ et /g/ : **Exemple : /su :q / et /su :q /**
  ''marché'' ''conduire''
- /ʃ/ et /s/ **: Exemple : / ʃqa / et / sqa /**
  ''s'est fatigué'' ''a arrosé''
- /x/ et /ʃ/ *:* **Exemple : /xæ :f / et / ʃæ :f /**
  ''il a craint'' ''il a vu''
- /x/ et /ħ/ : **Exemple : /xæ:l/ et / ħæ:l /**
  ''oncle maternel'' ''état''
- /ɤ/ et /ʕ/ : **Exemple : /ɤ æ:jəb / et /ʕæ:jəb /**
  ''absent'' ''handicapé''
- /h/ et /ħ/ *:* **Exemple : /huma / et / ħuma/**
  ''eux, ils'' ''quartier''
- / ǧ / et /d/ : **Exemple : /ǧi :b/ et /d i :b/**
  ''poche'' ''chacal''
- /ǧ / et / g /: **Exemple : /ǧni :na / et /gni :na/**
  ''jardin'' ''lapin''-

3.2. Oppositions de sonorité :

Les oppositions de sonorité concernent généralement les phonèmes suivants :

- / t / et /d/ : **Exemple : / tɑ̂m / et / dɑ̂m /**
‘’ là ‘’ ‘’sang’’
- /ṭ / et / ḍ/ : **Exemple : /ṭal / et /ḍal /**
‘’a regardé’’ ‘’ombre’’

- /s/ et /z/ : **Exemple : / sɛsla / et /zɛzla /**
‘’ chaîne’’ ‘’séisme‘

- /x / et /ɣ/ : **Exemple : /xi :r / et /ɣi :r/**
‘’meilleur’’ ‘’rien que’’

- /ħ/ et /ʕ/ *:* **Exemple :/ ħɑ̂s / et /ʕɑ̂s /**
‘’il a senti’’ ‘’il a surveillé’’

- / ǧ / et /tʃ/ : **Exemple : /ǧina / et /tʃi :na /**
‘’nous sommes venus’’ ‘’oranges’’

3.3. Opposition de nasalité :

Des oppositions de nasalité sont également observées :

- /b/ et /m/ : **Exemple : / bra. / et /mra./**
‘’aiguille’’ ‘’femme’’

- /n/ et /d/ : **Exemple : / dæ :m / et /n æ:m /**
‘’il a duré’’ ‘’il a rêvé’’

3.4. Opposition d’emphase :

Les oppositions d'emphase sont :

- /□/ et /t/ : **Exemple : /hə□□a/ et /hətta/**
''allure'' ''jusqu'à''

- /ḍ/ et /d/ : **Exemple : /nḍam/ et /ndam/**
''il a adhéré'' ''il a regrété''

- /s/ et /□/ : **Exemple : /sħa:b/ et /□ħa:b/**
''Nuages'' ''amis''

4. Conclusion :

Cette brève description phonétique et phonologique du parler arabe d'Alger servira de référence aux psychologues orthophonistes qui sont appelés à expliquer le fonctionnement pathologique constaté dans les troubles de la parole tels les troubles d'articulation, et à les corriger en fonction du type du dysfonctionnement.

REFERENCES BIBLIOGRAPHIQUES :

1. Belkaid, M. (1977). Le parler arabe de Ténés. Thèse de doctorat. Université de Paris.
2. Cantineau, J. (1960). Cours de phonétique arabe. Klincksick. Paris.
3. Cohen, D. (1970). Etude linguistique sémitique et arabe. Mouton. Paris.
4. Cohen, M. (1912). Le parler arabe des juifs d'Alger. Paris.
5. Georgin, P. (1980). Esquisse phonologique et détermination nominale du parler d'Alger.
6. Gineste, M.D., Le Ny, J.F (2002). Psychologie cognitive du langage. Dunod. Paris.
7. Malek, N. (1993). Essai de mise au point d 'épreuves de langage pour l'examen de l'enfant algérois de 4 ans, 4 ans et demi et 5 ans à partir du test de Chevrie-Muller (Forme P). Thèse de magistère. Université d'Alger.
8. Rondal, J.A., Seron, X. (2003). Troubles du langage : Bases théoriques, diagnostic et rééducation. Mardaga Editeur. Liège.

9. Sam, N. (2004). Elaboration d'une batterie neuropsychologique pour enfants aphasiques algérois parlant arabe, âgés de 5 à 13 ans. Thèse de doctorat de psychologie clinique et psychopathologie. Université Paris 8.
10. Spinelli, E., Ferrand, L. (2005). Psychologie du langage. Armand Colin. Paris.